مُقتَلَعٌ مِن جُذورِه

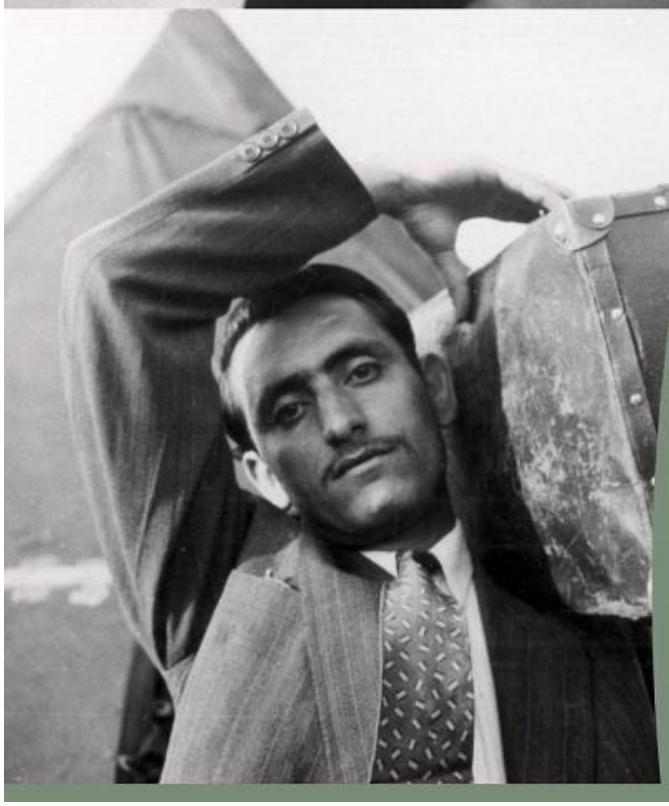

كيف اندَثَرت
ثلاثة آلاف سنة
من الحضارة
اليهوديّة في
العالم العربيّ بين
ليلة وضُحاها؟

لِن
جوليوس

Uprooted

"مُقتَلَعٌ مِن جُذورِه"

كيف اندثرَت ثلاثة آلاف سنة من الحضارة اليهوديّة في العالم العربيّ بين ليلة وضُحاها؟

تأليف: لِـن جوليوس

ترجَمة: م. جُمعة رزق

حُقوق الترجمة للغة العربية مَحفوظة للمُترجم

hamzatarjamah@gmail.com

صدر هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام 2018م عن طريق دار النشر Vallentine Mitchell
وتمَّت ترجمته للغة العربية بين عامي 2021 \ 2022

"التسامحُ ليسَ نَقيضاً للتعصُّب بل هوَ تلفيقٌ له، وكلاهُما تحكمٌّ واستبداد"

المُفَكّر الأمريكي توماس بين

(مقتبس من كتابه "حقوق الإنسان"-The rights of Men)

أُهدي هذا العَمَل

لوالِدَتي بِرطه بيخور ووالدي موريس بيخور، رحمهُ الله

لِلّاجئين اليَهود مِنِ العِراق،

لذكرى صَديقتي اليهوديّة المصريّة نيفين(سَفْدي) روز

محتويات الكتاب

قائمة المُصطلحات

تمهيد

مُقدّمة

توطئة: جَماعة يوم السبت أوّلاً

الفصل الأوّل: ألفُ سنة قبلَ ظُهورِ الإسلام

الفصل الثاني: خُرافة التعايش السلميّ

الفصل الثالث: الثورة الأوروبية الاستعمارية

الفصل الرابع: إرثُ النازيّين

الفصل الخامس: القوميّة الخبيثة

الفصل السادس: مُعاداة الساميّة ومُعاداة الصهيونية – أي الظاهرتين سبقَت الأُخرى؟

الفصل السابع: اللاجئون اليهود: هل يوجدُ من يذكرهُم؟

الفصل الثامن:"البيت بيتك"

الفصل التاسع: الصراعات السياسية والثقافية لليهود المزراحيّين

الفصل العاشر: خُرافات وأكاذيب وسَهَوات

الفصل الحادي عشر: البحثُ عن الإنصافِ للسكّان الأصليّين

قائمة الملاحِق

قائمة المُصطلحات

اليهودُ الأشكِناز أو اليهود الأشكِنازيّون: وهُم اليهود الذينَ سكنوا ألمانيا وشماليّ فرنسا منذ فترة القرون الوسطى، إلا أن هذا المصطلحَ تطوّرَ لاحقاً ليشملَ يهودَ أوروبا الشرقيّة وأوروبا الوسطى وجميع من انحدرَ من نسلِهِم.

اليهودُ المِزراح أو اليهود المزراحيّون: وهوَ مصطلح عبريّ حديث مُشتقٌ من لفظ "عِدوت هامِزراح"، أي يهودُ الشرق. يشيرُ هذا اللفظُ إلى يهود "الشرق" أو يهود الشرقِ الأوسط الذين سكنوا واستقرّوا في منطقةِ الشرقِ الأوسطِ وشمال افريقيا منذ الفترة الزمنية التي نزل فيها الكتاب المقدسّ. يُستخدمُ هذا المصطلحُ أيضاً لوصف اليهود الذين عاشوا في بلادِ الشتات البابليّ الكبير، أي الدولِ المعروفة اليوم باسم العراق وأفغانستان وإيران ومناطق جنوبيّ الاتحاد السوفياتيّ سابقاً، كما ويشملُ هذا المصطلح حاليّاً يهود اليمن وشِبه القارة الهنديّة إضافة إلى يهود اثيوبيا، بالتالي صار يتضمّنُ هذا المصطلح جميعَ اليهود مِن غير الأشكِناز. يَستخدِمُ هذا الكتابُ مصطلح اليهودالمِزراح أو اليهود المزراحيّين على الرغم من أنّ هذا المصطلحَ ليسَ دقيقاً من ناحية عمليّة عندما يتعلّقُ الأمرُ بيهود دول شمال افريقيا - أي دولِ المغرب - وذلكَ باعتبار أن هذه الدول من منظور جُغرافيّ تُعدّ دولاً غربيّة، باعتبار أن دول المغرب تطلّ على مساحة كبيرة من المنطقة الغربية لأوروبا الشرقيّة.

اليهودُ السَّفَارد أو اليَهود السفارديّون: المعنى الحرفيّ لكلمة سفاردي هو اسبانيّ، ويُقصد به اليهود الذين تم طردُهُم من اسبانيا (سفارَد) والبرتُغال بعد سنة 1492م. كذلكَ فإن غالبيّة مجتمعات الشرق الأوسط وشمال افريقيا تتضمنُ مزيجاً من اليهود المِزراح واليهود السفارد. عموماً يُستخدمُ هذا المُصطلح لوصفِ أيّ مُجتمع يهوديّ لا يوصفُ على أنّهُ أشكنازيّ، كما وأن وَصْفَ "سفاردي" ينطبق على مَن يتّبعُ التقاليد السفارديّة في تأدية الشّعائر الدّينية اليَهوديّة.

تمهيد

شَعبٌ مُهَمَّش

ليس من المفاجئ ولا الغريب أن تطغى أحداثُ المحرقة اليهوديّة - الهولوكوست- على الخطابِ اليهوديّ المُعاصر في ظلّ ما رافقها من وَحشيّة وقسوة لم يَسبِق لهُما مَثيل، ليس على الخطاب اليهوديّ وحده فحسب بل على الخطاب غير اليهوديّ أيضاً. كذلك فقد احتلّت هذه الإبادة الجماعية التي تعرّضَ لها يهود أوروبا زخماً كبيراً في الأبحاث والدراسات، وهو زخمٌلا يختلفُ مختلفان على مشروعيته. من جهة أخرى فإن التطهيرَ العرقيّ الذي تعرّض له يهود الدول العربيّة والإسلاميّةلم يحتلّ زخماً مماثلاً، فظلّ في سراديب الإنكار والتجاهل والتهميشلفترة لا بأس بها من الزمن.

وقد بلغَ هذا التهميش والإنكار لدرجة كبيرة وصلت إلى كبار الساسةِ وصُنّاع القرار، وأذكرُ جيداً حالة الصدمة المُعتادة التي كانت تنتاب كبار الصحفيين والإعلاميين خلال نقاشاتنا التي كنتُ أذكرُ فيها المجتمعات اليهودية التي تواجدت في منطقة الشرق الأوسط بأعداد لا يُستهان بها قبل قيام دولة إسرائيل. لقد عاشَ اليهودُ في المنطقة المتعارف عليها اليوم بالعالم العربي لقرابة ألفين وستمائة عام، كما سبقَ وجودهُم في هذه المنطقة ظهورَ الإسلام بألف سنة تقريباً، فسكنوا هذه البلاد لعدّة قُرون قبل أن يبدأ الغزوُ العربيّ لأجزاء كبيرة منها.

وقد تجاوز عددُ اليهود الذين عاشوا في الدول العربيّة والإسلامية عددَ يهود أوروبا حتى مطلع القرن السابع عشر للميلاد، فعلى سبيل المثال عاش اليهود في بغداد منذ فترة الخراب الأول للهيكل في القدس سنة 586 قبل الميلاد، وكانوا يشكلون ما نسبته ثلاثة وثلاثون بالمئة من نسبة سكانها عام 1939م، فكانت نسبتهم أكبر من نسبة اليهود الذين عاشوا في مدينة وارسو حينها والتي كانت تبلغُ 29%، بل وأكبر حتى من نسبة اليهود الذين عاشوا في مدينة نيويورك في نفس الفترة والتي كانت تبلغ سبعة وعشرين بالمئة. لكن المفارقة المحزنة هُنا تكمنُ في أنه لا يوجدُ في بغداد اليوم سوى خمسة يهود فقط - تبعاً لآخر الإحصائيات - بالرغم من ضخامة المُجتمع اليهوديّ في العراق.

وقد كان لليهود حُضورٌ لافتٌ في المجتمعات التي عاشوا فيها، كما برزت شخصيات يهوديّة عديدة ومعروفة في دول العالم العربي وأوروبا قبل نزوح اليهود من هذه الدول، فأول عراقيّ قام بتأليف رواية عراقية كان يهودياً، فيما كان أوّل وزير ماليّة عراقيّ يهودياً أيضاً وهو السيّد ساسون حسقيل. أما في مصر فقد كان اليهوديّ المصريّ يعقوب صَنوعمؤسس المسرح الوطنيّ عام 1870م، أضِف إلى ذلك أن أوّل مسرحيّة أوبرا مصريّة قد تم تأليفها على يدّ يهوديّ مصريّ سنة 1919م، إضافة إلى عدد كبير من الأفلام المصريّة القديمة التي كان أبطالها ومخرجوها من الشخصيات اليهودية المصرية المشهورة.

وبالانتقال إلى دول شمال أفريقيا فقد كان رائدُ السينما التونسية يهودياً أيضاً، حيث كان بطلاً لواحد من أولى الأفلام في العالم التي تضمنت تصوير مشاهد سينمائيّة تحت الماء، أضف إلى ذلكَ أن واحدة من أشهر المغنيّات التونسيّات كانت يهوديّة أيضاً، هذا عدا عن بطل العالم في ملاكمة وزن الديك والذي كان يهودياً تونسياً، وغيرهم من اليهود الحائزين على ألقاب البطولة في السباحة والملاكمة مثل ألفريد نقّاشاليهوديّ الجزائريّ الذي حاز على لقب بطل الجزائر في السباحة والذي كان أحدَ الناجين من معسكر أوشفيتزلاحقاً. وللعلم فقد أُقيمت بعضُ معسكرات الموت النازية في بعض البلدان العربية، فعلى سبيل المثال لا الحصر لقي مئات اليهود حتفهُم في معسكرات الموت النازيّة التي أقيمت في ليبيا، كما تمّ ترحيل عدد آخر من اليهود الليبيين إلى معسكر برِغِن بِلسِن.

وحتى عامّةُ اليهود من غير المشاهير قد كان لهُم حضورٌ وتأثيرٌ بارز في الدول العربيّة التي عاشوا فيها، لهذا يقولُ أحد الأمثال المغربيّة: "السوق بدون يهود كالخبز بدون ملح". كذلك فإن للعديد من الشخصيات اليهوديّة المعروفة في الغرب أصولٌ عربيّة، فالكوميديّ الأمريكيّ المعروف جيري ساينفيلدهو ابنٌ ليهوديّة سورية، وبرنارد هِنري ليفيهو ابنٌ ليهوديّ ويهوديّة جزائريين.

لقد تواجد قرابة مئة وستين ألف عربيّ في إسرائيل عند قيامها سنة 1948م وحصلوا على الجنسية الإسرائيلية، فيما تضاعف عددهُم لاحقاً ليبلغ في الوقت الحالي قرابة مليون وسبعمائة ألف عربيّ إسرائيليّ يشكّلون ما نسبتهُ عشرون بالمئة من نسبة سكان إسرائيل، وهم يحتّلون مناصب مرموقة في المجتمع الإسرائيليمثل رئاسة المحكمة العليا الإسرائيلية وغيرها من المناصب الدبلوماسية الهامة. في الوقت نفسه ترك عدد كبيرٌ من العرب الفلسطينيين أراضيهم دون إكراه أو إجبار عندما أُعلن عن قيام دولةِ إسرائيلعقِب قرار التقسيم الصادر عن هيئة الأمم المتحدة، فغادر الفلسطينيون أراضيهم استجابة لأوامر القيادات العربيّة التي احتشدت جيوشها لمحاربة إسرائيل طالِبةَ من الفلسطينيين الخروجَ من راضيهم إلى حين القضاء على اليهود ومسح إسرائيل من الوجود. بالتالي فإن التباين واضحٌ وضوح الشمس في تعاملِ إسرائيل مع العرب

الفلسطينيين من جهة، وتعامل الدول العربيّة مع مئات الآلاف من اليهود الذين تعرّضوا لعمليات تطهير عرقيّ ممنهجة منتصف القرن الماضي، لا لذنب اقترفوهُ سوى أنّهُم يهود.

لقد عاش قرابة ثمانية وثلاثون ألف يهوديّ في منطقة غرب ليبيا قبل سنة 1945م، أما الآن فلا يوجدُ أي يهوديّ في تلك المنطقة، ومثلما اندثر الوجودُ اليهوديّ من ليبيا فقد اندثر معهُ وجود سبعة وأربعين كنيساً يهودياً واختفت معهُ أحد أهم المقابر اليهوديّة في ليبيا والتي تم استبدالها بشارع رئيسيّ سريع. أما في الجزائر فقد عاش قرابة مئة وأربعين ألف يهوديّ، ومثلما هو الحال في ليبيا لا يوجدُ حالياً أي يهوديّ هُناك، والواقعُ يكرّرُ نفسهُ في العراق الذيعاش على أرضه قرابة مائة وخمسون ألف يهوديّ عراقي، فيما لم يتبقّ منهُم حالياً سوى خمسة يهود فقط. وكذلك هو الواقعُ في مصر التي عاش فيها قرابة ثمانين ألف يهوديّ وبالكاد يوجدُ فيها أي يهوديّ في الوقت الحاضر.

إن الصدمةَ النفسيّة التي خلّفتها الوحشية التي عومل بها اللاجئونَ اليهودُ من دول العالم العربيّ لا زالت ترافقهم حتى يومنا هذا، فكيف بإمكانهم نسيانُ ما شاهدوه من وحشيّة العساكر المدجّجين بالسلاحِ أثناء اقتحامهم لبيوت اليهودِ وإجبارهِم على مغادرتها دون أي تفسير مُقنع ودون السماح لهم حتى باصطحاب أي شيء من حوائجهم وممتلكاتهم، خلافاً لما حدثَ مع اللاجئين الفلسطينيين الذين غادروا على شكل مجموعات صغيرة والذين كان عددهم أقلّ من عدد اللاجئين اليهود إجمالاً (تبعاً لاحصائيات الأمم المتحدة فقد بلغ عدد اللاجِئين الفلسطينيين بين سنتي 1948م و 1951م قرابة 711,000 لاجئ فلسطيني، بينما يرى مؤرخون وباحثون آخرون بأن عدد اللاجئين الفلسطينيين في نفس الفترة كان أقل من هذا العدد)، فيما بلغَ عدد اللاجئين اليهود من الدول العربية 856,000 يهودياً، حيثُ تكمنُ المفارقة هُنا في أن قضيّة اللاجئين اليهود من العالم العربيّ لم تلقَ أي اعتراف رسميّ من الدول العربية، أضف إلى ذلك أن هؤلاء اللاجئين لم يتلقوا أي نوع من المساعدة والدعم الماليّ كالذي تلقّاه اللاجئون الفلسطينيون، وعِوضاً عن الاعتراف بقضيّتهم هنالكإنكارٌ وتهميشٌ مقصودٌ لقضيّتهم.

كذلك تتواجدُ كلٌ من السفارات السويسريّة والألمانية والكندية والهولندية والكورية الجنوبية والباكستانية في بيوت تعودُ بالأصل ليهود من أثرياء مصر، هذه البيوت التي تمّت سرقتُها لاحقاً بعد أن تم طردُ أصحابها منها، وهو الواقع نفسهُ الموجودُ في العديد من عواصم الدول العربيّة.

وفي ظلّ هذا الظلم والإجحاف الذي وقع على يهود الدول العربيّة يواصلُ العديد من الصحفيّين والمُحلّلين والكُتّاب في الشرق الأوسط نشرَ الأكاذيب والخرافات التي تدّعي بأن يهودَ العالم العربيّ لم يتعرّضوا لأي شكل من أشكال التمييز العُنصريّ، وبأنّهم لم يتعرّضوا لأي اضطهاد أو ظلم أو اعتداء. لكن الواقع يُشير بما لا يدعُ مجالاً للشكّ إلى أن اليهود عاشوا في الدولِ العربيّة كمواطني درجة ثانية، بل وخضعوا لقوانين عُنصريّة تمييزيّة تفرضُ عليهم ضرائب وأعباء ماليّة باهظة لا لسبب سوى أنهم مواطنون يهود في هذه الدول.
وعدا عن هذا كله فقد سُفكت دماء اليهود في العديد من المذابح والمجازر المُدبّرة التي ارتكبت بحقهم في الدول العربية، فعلى سبيل المثال لا الحصر قُتِل خمسة وأربعون يهودياً في مدينة فاس المغربيّة سنة 1912م، كما ارتُكِبَت مذابحُ مماثلة في مدينة قسنطينة الجزائريّة سنة 1934م ومدينة الرباط المغربية في السنة ذاتها، كما ارتُكِبَت مذبحة أخرى بحق اليهود في مدينة قابس التونسية سنة 1941م، ومثلها في عدن اليمنيّة سنة 1947م والتي قُتل خلالها سبعة وثمانون يهودياً يمنياً، فيما تمّ تدمير مئات المحلات والمصالح التجاريّة التي تعود ملكيّتها لليهود.

أضِف إلى ذلك المذابح الدمويّة التي تعرّض لها اليهود في العراق سنة 1941م والتي قتل فيها مئة وثمانون يهودياً عراقياً فيما أصيب واغتُصِبَ المئاتُ منهم، وفي الوقت الذي كان يُذبحُ فيه اليهود كانت بيوتُهُم تتعرّضُ للنهب والسرقة. كذلك الحال في ليبيا عندما ارتُكِبَت مجزرة بحق اليهود سنة 1945م قُتِل خلالها مئة وثلاثون يهوديّاً، ومجزرة مدينة حلب السوريّة التي قُتِلَ فيها خمسة وسبعون يهودياً سنة 1947م، أما في مصر فقد تم تفخيخ عدد من الكُنُس يهوديّة وتفجيرها سنة 1939م.

بالتالي لا يوجدُ ما يُبرّرُ هذه الهجمات والمذابح المُدبّرة التي ارتكبت بِحقّ اليهود أو الإدّعاء بأنّها مُجرد ردّات فعل على تأسيس الحركة الصهيونيّة، خاصة وأن العديد من هذه المذابح قد ارتُكِبَت قبل تأسيس الحركة الصهيونية بكثير، فعلى سبيل المثال ارتُكِبَت مجزرة بحقّ اليهود في الدار البيضاء في المغرب سنة 1807م، وسنة 1840م تعرّضَ عشرات من الأطفال اليهود للقتلِ والخطفِ والتعذيب خلال ما عُرف بأحداث أزمة دمشق، حينها تمّ الافتراءُ على يهود دمشق واتّهامهُم بقتل راهب من الفرنسيسكان وخادمه المسلم واستخدام دمائهما في تأدية شعائرهم الدينية وصنع الخبز أثناء عيد الفِصح اليهوديّ.

وفي نهاية سنة 1986م نشرَ وزير الدفاع السوريّ السابق مصطفى طلّاس كتاباً أطلقَ عليه "فطير صهيون" ذكرَ فيه بأن اليهودَ قد قاموا بالفعلِ باستخدام دم الرّاهب وخادمه لعملِ خبز المَتساه- الخبزُ غير المُختمر تبعاً للديانة اليهوديّة -، مُبرّراً بذلك ارتكاب المذبحة بحقّ اليهود سنة 1840م. وفي السياق نفسهِ تم قطعُ رأس اليهوديّ التونسيّ البريء باتو سفِسسنة 1857م، حيث تدحرجَ رأسهُ بين أقدام الحشد الذي قتلهُ مثلما تتدحرجُ كرةُ القدم بين أرجل اللاعبين، مما استدعى قوات الأمن الفرنسيّة للتدخّل لاحقاً.

وقد ارتُكِبَت مذابحُ أخرى بحقّ اليهود في مدينة حلب السوريّة سنة 1850م وسنة 1875م، إضافة إلى عدد آخر من المذابح المدبّرةِ في دمشق سنة 1848م و1890م ومذابح أخرى ارتُكِبَت في بيروت سنة 1862م وسنة 1874م، أما في القاهرة فقد تكرّرت عدة هجمات من قبل حشود من المصريين على يهود مصر سنة 1844م و1890م و1901م و1902م، وفي الإسكندرية تكررت عدة مجازر مماثلة سنة 1870م و1882م و1901م و1907م.

وبالعودة إلى القرنِ الثامن للميلاد فقد قضى الملك المغربيّ إدريس الأوّل على وجود تجمّعاتٍ يهوديّة بأكملها في المغرب، أما سنة 1033م ميلادية فقد قُتل ستة آلاف يهوديّ مغربيّ في مدينة فاس على يدِ حشد من المغاربة المسلمين، إضافة إلى مجزرة أخرى ارتُكبَت بحق اليهود سنة 1465م والتي بدأت من مدينة فاس ومن ثم اتّسع نطاقها ليصل عدداً من المدن المغربيّة.

كما ارتُكِبَت عدة مجازر أُخرى بحقّ اليهود في مدينة تَطوان في سنتي 1790م و1792م، حيث راح ضحيّتها عدد كبيرٌ من الأطفال اليهود. أما في مراكش فقد كانت هناك سلسلةٌ أُخرى من الاعتداءات التي استهدفت اليهود بين سنتي 1864م و1880م والتي راح ضحيّتها مئاتُ اليهود، وشهدت مدينة تازة ومدينة سطات هجمات ضد اليهود سنة 1903م راح ضحيّتها أربعون يهودياً، أما سنة 1907م فقد قُتل ثلاثون يهودياً، فيما تم اغتصاب عدد من النساء اليهوديّات في مدينة الدار البيضاء.

وفي الجزائر لم يكن الأمر مختلفاً عن المغرب، حيث شهدت الجزائر سلسلة من المجازر الدمويّة التي ارتُكِبَت بحق اليهود سنة 1805م و1815م و1830م، وهو الواقعُ نفسه في ليبيا التي ارتُكِبَت فيها مجزرة بحق اليهود سنة 1785م، والقائمة تطول.

وفي اليمن فقد بدأت أوضاع اليهود تزداد سوءاً نهاية ثمانينيّات القرن التاسع عشر، مما دفع يهود اليمن للتّوجه إلى فلسطين مشياً على الأقدام لينضمّوا إلى يهود أوروبا في تلك الرحلة، حينها بلغ عددُ اليهود اليمنيّين الذين وصلوا إلى فلسطين نهاية ثلاثينيات القرن العشرين خمسة عشرَ ألف يهوديّ يمنيّ.

أما اليوم فإن الدولةَ الشرق أوسطيّة الوحيدة التي يتعايشُ فيها اليهودُ والعربُ بغضّ النظر عن عدد أو نسبة أي منهما في المجتمع هي دولةُ إسرائيل، ولو نظرنا للواقع لوجدنا أن عدد السكان العرب في دولة إسرائيل قد تضاعف عدة مرات، ليصبح عددهُم أكثر بكثير من عدد السكان العرب إبان حكم الانتداب البريطاني لهذه الأرض.

في الوقتِ نفسِه فقد عبّر العديدُ من الإصلاحيّين والمُجدّدين العرب عن أسفهم وحُزنهم العميق على خسارة المُجتمعات العربية لمواطنيها ليهود، حيث يعتقدُ الكثير منهُم أن ما قام به العرب تجاه اليهود يعتبرُ واحداً من الأسباب الرئيسية التي تقف خلف الواقع المُزري الذي يشهدهُ العالم العربيّ حالياً، فيقول الصحفيّ مصريّ الأصل مجدي علّام في هذا السياق: "إن خسارة العالم العربي لليهود تعني خسارة العربِ لجذورهم، بل وانتهى بهم المطاف بخسارتهِم لأنفسهِم أيضاً".

ختاماً، فإن هذه المواضيع وغيرها مطروحة في هذا الكتاب القيّم الذي ألّفتهُ الكاتبة لِن جوليوس مؤخراً، حيث لا تكمنُ أهميّة الفهمُ المعمّقُ لما حلّ بيهودِ الدول العربيّة في التعرّف على الظلم الكبير الذي وقع عليهم فقط، بل تكمنُ أهمية ذلك أيضاً في أن تهميشَ قضيتهم وإنكارَ تاريخهم قد أدّى إلى تسليط الضوء على قضيّة اللجوء الفلسطينيّ باعتبار أنه لا يوجدُ لاجئون في هذا الصراع سوى اللاجئون الفلسطينيون وحدهم، الأمر الذي أدّى إلى خلق نظرة مُتحيّزة وغير مُتّزنة للصراع العربيّ الإسرائيلي من قبل الساسة وصُناع القرار في الإدارة الأمريكية.

وباعتقادي فإن الوصول إلى حلّ للصراع العربيّ الإسرائيلي سيضعُ حدّاً لحالة التذمّر المحيطة بالقضيّة الفلسطينيّة، وأن السلام سيتحقق في اللحظةِ التي يُدركُ فيها الجميع وجودَ جانبين للمعاناة والظلم، أحدهما موجودٌ على الجانب العربيّ والآخر موجودٌ على الجانب اليهوديّ.

توم چروسّ

كاتب ومعلّق صحفي سابق في صحيفة المِدِل إيست والصنداي تِلِغراف
صحفي مُشارك في صحيفتي ذا غارديان بالإضافة إلى صحيفة وول ستريت جورنال

مُقدّمة

لقد كانَت ولا زالَت قضيّة اللاجئين اليهود من العالم العربيّ عالِقة في مُخيّلتي منذ نعومة أظافري، خاصّة وأنّني أَنتسِب لعائلة يهوديّة لاجئة تمّ تهجيرُها قَصراً من العراق، لكنّ ما زادَ اهتمامي بهذا الموضوع على وجه التحديد هوَ الصدمةُ التي شعرتُ بها عَقِبَ أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيْلول، الأمرُ الذي دَفَعَني للتفكير مُعَمّقاً في واقع بعض بلدان العالم العربيّ والإسلاميّ وحالة الاضطراب وعدم الاستقرار التي تسودُ هذه البلدان. وفي ظلّ حالة عدم الاستقرار تلكَ فقدَ بدأ الخطر المُحدق بتدمير الأقليّات في الشرق الأوْسَط يتصاعدُ شيئاً فشيئاً ليَطالَ مناطقَ أخرى خارجَ الشرق الأوسط، حيثُ امتَدّ هذا الخطرإلى المسافرينَ عبرَ مطار مدريد ورُكّاب الباصات في لندن، فيما طال أيضاً الأشخاص المُسالمين الذين كانوا يستمتعون بقضاء وقتهم في أحد ملاهي مدينة بالي وإحدى صالات موسيقى الروك في فرنسا.

وبالعودة إلى سنة 1969م عندما كنتُ طالبة في المدرسة آنذاك فإنني أستذكرُ الوقفة الاحتجاجيّة الغاضبة التي قُمنا بها بالقرب من السفارةِ العراقيّةِ في لندن تنديداً بقيام السلطاتِ العراقيّة بإعدام تسعة مواطنين عراقيّين يهود شنقاً في ميدان التحرير في بغداد، حيثَ نُظّمَت هذه الوقفة بدعوة من السيّد بيرسي جورجي ساسون الحائز على امتياز شَرَفيّ من مكتب التشريفات الخاصبالإمبراطورية البريطانية، هذا الرَجلُ الذي قاتلَ بشراسة كالأسد من أجل تسليط الضوءِ على قضيّة اللاجئينَ اليهود من البلدان العربيّة.

لقد كانَ مصيرُ قرابة ثلاثة آلاف يهوديّ ممن كانوا عالِقين في العراقَ بمثابةِ هَمّ كبير جاثم على صدرعائلتِنا في ذلك الوقت، خاصة وأن جدّيَّ وعدد من أقاربي كانوا لا يزالون من ضمن أولئكَ العالِقينَ في بغداد، والذين كانوا يُعانون الأمَرّينَ في ظِلّ إرهاب صدّام حسين وسَطوة نظامه القمعيّ.

وبالنسبة لوالِدي الذي نزحَ من بغداد سنة 1950م إلى إنجلترا كلاجئ عراقيّ برفقة زوجته الجديدة - والدتي - فقد كرّس نفسهُ لتربية أبناء أُخته الثلاثة، تلكَ الأختُ الأرملةُ ذات الخمسة وثلاثين عاماً والتي وجدَت نفسَها عالقة في العراق عندما عادت إليه سنة 1964م لتبيع بعضاً من أملاكها ومُقتنياتها، إلا أنها لم تتمكّن من مغادرة العراق حينَ وقعَت رهينة في قبضة نظام البعث العراقيّ.

وفي ظلّ ما شهدناه في تلك الحُقبة المُظلمة فقد كرّس والدي مجهوداً كبيراً لمحاولة انقاد عمّتي مارسيل وعمّي الكبير ساسون، إضافة إلى جَدّيَّ وجَدّتَيّ، خاصة بعد حادثة الإعدام تلك، حيثُ كان يلتقي والدي بنوّابِ البرلمان مُحاولاً بكل ما أوتي من قوّة الوصولَ إلى أي شخص يمكنهُ سماع مشكلته والمساعدة في حلّها، كما وجّه عدداً كبيراً من الرسائل الغاضبة للسيناتور الفرنسي ألان بوهَر والذي كان يترأسُ لجنة من لجانِ حقوق الإنسان آنذاك.

وبنهاية المطاف قام مجموعة من الأكراد بتهريب عمّتي مارسيل من شمال العراق إلى إيران- التي كانَت دولة صديقة لإسرائيل حينها - حيثُ ارتدَتْ عمّتي عباءة مُنتحلة شخصية امرأة مُسلمة تُدعى خديجة، وبعد مضيّ سِتّ سنوات عصيبة من الغياب اجتمعَت عمّتي مارسيل بعائلتها مُجدّداً في لندن بعد مضيّ قرابة أربعة أشهر على حفل زفاف ابنها الأكبر، والتي لم يكن باستطاعتها حضورهُ مع الأسف الشديد.

أما بالنسبة لأبي وعمّي الكبير ساسون وجدّتي فقد نجحوا في استصدار جوازات سفر عراقيّة، تلك الجوازات التي لا زال محظوراً على اليهود امتلاكُها حتى يومنا هذا، فيما نجحوا في مغادرة العراق متوجّهين إلى إنجلترا بعد حصولِهم على تأشيرة دخول إنجليزية بمساعدة جوان ستيبل، هذا الرَجلُ الرائعُ الذي ساهم بشكل كبير في تأسيس الصندوق البريطاني المركزيّ والمعروف حالياً بهيئة الإغاثة اليهوديّة العالميّة (World Jewish Relief). في الوقت نفسه نجحَ أبناءُ عمّتيفي الهرب من بغداد إلى كندا، وكان والداي بمثابة الأبوين لأبناء عمّتي حتى تمكّنوا أخيراً من لقاء والدهم ووالدتهم بعد مضيّ عشرين سنة من الفراق.

ومن منظور شرقيّ لنمطِ الحياة الأسريّة في العالم العربي فإن بإمكاننا القولُ بأن الحَمولَةَ بأسرِها كانت تعيشُ معنا في البيت نفسِه في مدينة لندن، حيث كان يسكنُ عمّي الكبير وجدَّاي وجدَّتاي في الطابق الأرضيّ من بيتنا، فيما سكَنَت عمّتي وأبناؤُها في البيت المجاور لنا.

لطالما كان الضوء مُسلّطاً على الصراع العربيّ الإسرائيلي في الوقت الذي كانت فيه قضيّة اللاجئينَ اليهودِ الذين تم طردُهم من العالم العربي موضِع تجاهل وتهميش غَريب، خاصّة وأن عددَ اللاجئين اليهود من العالم العربيّ يفوق عدد اللاجئين الفلسطينيّين. لقد استقرّ غالبية هؤلاء اللاجئينَ اليهود في دولة إسرائيل، حيثُ شكّل اليهود الذين عاشوا في الدولِ العربية والإسلامية ما نسبته عشرة بالمئة من نسبة اليهود في العالم قبل وُقوع الهولوكوست، فيما شكّل اليهود اللاجئون من الدول العربية - بالإضافة الى الأجيال اللاحقةِ التي انحدرت من نسلهم - قرابة نصف عدد السكانِ اليهود في إسرائيل حالياً والبالغ عددهُم ستة ملايين ونصف [1] (تبعاً لإحصائيات سنة 2018م عندما نُشر الكتاب).

وبشكل عام فإن الأسباب التي تقفُ خلفَ هذا التجاهل لقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية عديدة ومُعقدة، حيث لم يكُن اللاجئون اليهود أنفُسُهم بِصدد الحديث عن تجربتهم المريرة وقضيّة لجوئِهم نظراً لانشغالهم في التكيّف مع حياتهم الجديدة في دولة إسرائيل، فيما لم تقُم إسرائيل بدورها في تسليط الضوء على مأساة وقضيّة اللاجئين اليهود. أضِفْ إلى ذلكَ تجنّب المؤرّخين العرب لأيّ حديث عن قضية اللاجئين اليهود من الدول العربيّة، وهو الأمر ذاته الذي قام به يهود أوروبا أيضاً نظراً لما حلّ بهم في الهولوكوست، هذه الفاجعة التي رمت بكلّ ثقلِها على قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية أيضاً بل وحَدّت من الحديث عن قضيّتهم ومعاناتهم.

فعلياً، يبدو وكأن قضيّة اليهود اللاجئين من الدول العربية قد تم حلّها ولم يعد لها أي وجود، وفي الوقت الذي كان يُعاني فيه اللاجئون الفلسطينيون في مخيّمات اللجوء لم نجِد أي يهوديّ يُعرّف عن نفسه على أنّه لاجئ بأي شكل من الأشكال، أضِف إلى ذلكَ أن التمادي في إنكار وتهميش قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية أخذ في التزايد لتحقيقِ مآربَ معيّنة من وراء هذا الإنكار، فيما بدأت الخرافات والأكاذيب تنتشر شيئاً فشيئاً حول هذا الموضوع:"لم يكُن هنالك يهود في العالمين العربيّ والإسلامي"، و"لم يَحدُث أي تطهير عرقيّ لليهود في الدول العربيّة "، و"على فَرَض قيام العرب بارتكاب تطهير عرقيّ بحقّ يهود الدول العربيّة فإن الحركة الصهيونية الاستعماريّة هي وحدَها من تتحمّل مسؤولية ذلك". بمعنى آخر، فإن اليهود أنفسهُم يتحملونَ مسؤولية التطهيرِ العِرقيّ الذي ارتُكِبَ بحقّهم بحسب مُروّجي تلك الخُرافات والأكاذيب!

وقد بدأت قضيّة اللاجئينَ اليهود من الدول العربية تكتسب زخماً كبيراً في ظلّ نزوح عدد كبير من مسيحيّي الشرق الأوسط عقب اندلاع ثورات الربيع العربي سنة 2011م، خاصة وأن نزوح ما يُقارب المليون لاجىء يهوديّ من الدول العربية - فيما يُعرف باسم النكبة اليهوديّة - قد سبقَ النزوحَ المسيحيّ الذي حدث بعد هذه الثورات. بعبارة أخرى، فإن طرد اليهود من البلدان العربية ومن ثم طرد المسيحيّين منها يتطابقُ مع إحدى المقولات المعروفة في العالم العربيّ والإسلامي والتي تقول: "بعدَ السبتِ يأتي الأحد"[2]

وعلى الرّغم من أن قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية لا زالت عالقة دونما حل رغم الإجحاف والظلم الذي لَحِقَ بهم عقب تهجيرهم من البلدان العربية، إلا أن النقاش حول قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربيّة لا زال عالِقاً هو الآخر في تلك الزاوية التي لا تتطرق لهذه القضيّة إلا من خلال منظور الخلاف الإسرائيلي مع الفلسطينيّين، كذلك فإن قضيتهم لم تحتلّ الزخم المطلوب في الرأي العام العالميّ، على الرغم من أنّفهم التجربة التي مرّ بها اللاجئون اليهود في البلدان العربية هو أمرٌ غاية في الأهمية لفهم السياق الموسّع لصِراع العرب والمسلمين مع إسرائيل وتعامُلِهم مع اليهود والأقليّات في الشرق الأوسط بشكل عام.

وقد بَدأتْ قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية تحتلّ زخماً أكبرَ في السنوات الأخيرة بعد أن تمّ طمسُها لسنوات طويلة في ذاكرة النسيان، حيث بدأ هذا الزخمُيتصاعد بدءاً من تاريخ الثلاثين من شهر تشرينّ الثاني من عام 2014م، وهو التاريخ الذي أقرّه الكنيست الإسرائيلي كمناسبة رسميّة سنويّة لاستذكار قضيّة لجوء اليهود ومأساتهم بعد أن تم طردهم من الدول العربيّة وإيران [3]. من جهة أخرى، يُصادف هذا التاريخ الذكرى السنوية للثورات العربية التي اندلعت ضدّ اليهود، والتي نشبت رفضاً لقرار تقسيم فلسطين الذي أصدرتهُ الأمم المتّحدة عام 1947م، بالتالي فإن هذا التاريخَ يُخلّدُ ما حدثَ مؤخّراً من اندثار لِحضارة يهوديّة عريقة بأكملها كانت موجودة في يوم من الأيام في الدول العربيّة، كما أن هذا التاريخ سيشكّل مرجعيّة هامة في إسرائيل والعالم أجمع لفهم قصّة مأساويّة تم تجاهلها وتهميشها منذ وقوعها حتى يومنا هذا.

كما أنه من الضروريّ جداً أن يتمّ تسليط الضوء مُجدّداً على قضيّة اللاجئين اليهود وإعادتها إلى الخارطة، وهذا الكتاب هو مُحصّلة لهذه الضرورة المُلحّة. كذلك تنبع أهميّة هذه الضرورة في أنها تدحضُ العديد من الخرافات والأكاذيب التي أحاطت بقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية، وهذا ما تمحورَ عليه عملي عبر المواد والأبحاث والدراسات التي قمتُ بجمعِها ونشرها في مدوّنتي "نقطة اللاعودة "(Point of no return[4])، تلكَ المدوّنة التي بلغَ عمرُها عشر سنوات عام 2015م والتي كرّستُها للإجابة عن جميع هذه الأسئلة الهامّة: مَن هُم يهود الدولِ العربيّة؟ وكيف كانت طبيعة العلاقة بينهم وبين المسلمين آنذاك؟ وما الذي دفعَ اليهودَ للنزوح من دول عاشوا فيها وبنوا فيها حضارة تمتّد لآلاف السنين؟ وماذا حدثَ لغالبية اللاجئين اليهود من الدولِ العربية الذين استقرّوا في دولة إسرائيل؟ وكيف بإمكان قضيّة لجوئِهم أن تساهم في الوصول إلى حل عادل وشامل يُنهي الصراع؟ وأخيراً: ما هي الدروس المُستفادة ممّا يحدث من عمليات تهجير قسريّ للأقليّات وإرغامها على مغادرة الشرق الأوسط؟

وعلى الرغم من أن طرد اليهود كان نتيجة لتنامي ظاهرة معاداة الساميّة في دول بالكاد نرى فيها تعدّديّة دينيّة مثل أفغانستان وإيران وباكستان وتركيا وغيرها، إلا أنني أخترت الحديث وتسليط الضوء على قضيّة اللاجئين اليهود الذين تمّ طردُهُم من الدول العربيّة تحديداً [5]، وذلكَ لأنّ أغلبَ الأكاذيب والمعلومات المُحرّفة والمتعلقة بنزوح اليهود من العالم العربي والإسلاميّ قد صدرت ولا زالت تصدر من دول العالم العربيّ. لقد كانت تتمتّعُ إيران عام 1948م بعلاقات طيّبة مع إسرائيل، لكنّ ما حدث من تهجير قسري مفاجىء لليهود قد وقعَ بعد اندلاعِ الثورة الاسلاميّة هناك بداية السبعينيات، ممّا أدّى إلى تهجير ونزوح لقرابة ثمانين بالمئة من إجمالي عدد اليهود في إيران.

ومما لا شكّ فيه فنحنُ لا يُمكننا تجاهل المؤرخين والأكاديميّين العرب واليهودِ الذين سلّطوا الضوءَ على قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربيّة، وأنا لستُ بصدد الدخول في منافسة معهُم على الإطلاق، كما أنني لستُ أُفشي سرّاً حينَ أتحدّثُ عن نشاطيَ المتواصل في سبيل دعم اللاجئين اليهود من الدول العربيّة ونيلهم لحقوقهم، وهذا من خلال نشاطي المتواصل في المؤسسة البريطانية ليهود الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (حريف Harif). كذلكَ فإنني أتمنى أن يستفيدَ القُرّاء الكرام من قائمة المراجع والمصادر المُرفقة والتي تتضمن خرائط وصور وشهادات وتأريخات وتوثيقات للمحتوى الموجود في هذا الكتاب.

لقد كانَ دافعي من وراء تأليف هذا الكتاب هوَ سردُ الحقيقة كاملة وكشفُ الغطاء عنها كما هيَ حتى يتمكّن الجميع من رؤيتها وفهمِها ونشرها، على أمل أن يقود نشرَنا للحقيقة إلى تحقيق فهم معمّق لما يحدث في الواقع، الأمر الذي سيساعدنا جداً على الوصول إلى تحقيق تسوية عادلة وشاملة لجميع هذه المشاكل.

ختاماً، فإنني أتقدّم بجزيل الشكر والعرفان لكل من ساعدني في قراءة مسودة الكتاب وتحريرها، وأخص بالذكر الدكتور إيدي كوهين، والدكتور هنري غْرين، والدكتور ستان أورمان، وناثان وينستوك، وهُنا أؤكّدُ على أن ما بدر من أخطاء- إن وُجِدَت - في هذا الكتاب هو أمر يندرجُ تحت مسؤوليتي الشخصية كمؤلفة للكتاب، لا مسؤوليتّهُم.

كما أتوجّه بالشكر الخاص لتوم چروسّ على تقديمه المشورةَ لي، اضافة إلى تشجيعه المتواصل وكتابته تقديماً لهذه النسخة من الكتاب. كما أن الشُكرَ موصولٌ أيضاً إلى ليڤانازامير على رحابة صدرها في تقديمِ المِشورة والعون والمساعدةِ لي. والشكرُ موصول أيضاً إلى كل من ميشيل هُبِرمان كونها أحد مصادر إلهامي لكتابة هذا الكتاب، وليزيت شاشوا عَدَس ونيران بَصون تيما ولِيلِي عَميئور ورالفعَصورعلى مساعدتهم القيّمة. كذلك أتقدّم بالشكر إلى طاقم ڤالانتيان ميتشيل على جهودهم الكبيرة في نشر هذا الكتاب. كذلك فأنا مدينة بالشكر لجوزيف أَلِكسَندر نورلاند على تشجيعه المتواصل لي كي أبدأ مدوّنتي "نقطة اللاعودة" ورحلتي الطويلة عبرها، حيث تعلّمت الكثير من خبرته الطويلة اضافة إلى ما تعلّمته وتعرفتُ عليه من خلال تواصلي مع المعلّقين عبر هذه المدوّنة.

أيضاً أتقدّم بالشكرِ والعرفان والتقدير لعائلتي، وأخصّ بالذكر ابني جدعون الذي ساعدني في الحصول على المصادر والمراجع المناسبة، وأخيراً وليس آخرا أوجّه جزيل الشكر والامتنان إلى زوجي العزيز لورَنس، والذي لم يكُن هذا العمل ليَرى النور لولا دعمه المتواصل وتشجيعه المُستمرّ.

ختاماً، فإنني أتقدم بجزيل الشكر وعظيم التقدير والامتنان لأصدقاء الشعب اليهوديّ الذين بذلوا ولا زالوا يبذلون جهوداً مُضنية رغم المخاطر التي يتعرضون لها في سبيل إبقاء قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية حيّة في ذاكرة الجميع.

قائمةالملاحظات والحواشي

1- 50.2 per cent according to the Statistical Abstract of Israel, 2009, Central Bureau of Statistics. ‘Table 2.24 – Jews, by country of origin and age’(PDF).

2- ‘After Saturday comes Sunday’ is an expression commonly heard in the Arab world or scrawled as graffiti. It is referenced in Bernard Lewis’s prescientessay, ‘The Return of Islam’, Commentary, 1 January 1976.

"بعد السبت يأتي الأحد" هو مثل دارج متعارف عليه في العالم العربيّ وفي بعض الأحيان تجدهُ مرسوماً على شكل كتاباتغرافيتيّة على الجدران، وهذه الكتابات موثّقة في مقالة لِبرنارد لويس تحت عنوان "عودة الإسلام " – مجلة الكومنتريالالكترونية، الأول من كانون الثاني 1976

3- ‘For the first time, Israel marks day for Jewish refugees from Arab Lands’. i24 news, 30 November 2014 at http://www.i24news.tv/en/news/international/middle-east/52889- 141130-israel-marks-day-for-jewish-refugees-from-arab-lands.
(Last accessed 26 April 2017).

رسميّاً – إسرائيل تخصّص يوماً لإحياء ذكرى اللاجئين اليهود من الدول العربيّةلأوّل مرة في تاريخها.

4- Point of No Return: Jewish Refugees from Arab countries at http://jewishrefugees. blogspot.co.uk/. (Last accessed 26 April 2017).

المدونة الخاصة بمؤلفة الكتاب لِن جوليوس والتي أطلقت عليها اسم " نقطة اللاعودة"

5- I have not treated Sudan separately as it was effectively administered by Egypt with British approval. I have not mentioned the communities in Bahrain, Asmara or other Red Sea or Gulf ports. This book does not cover the Jewish communities of India, Pakistan, Singapore, Burma, Hong Kongand Shanghai founded by Baghdadi and Aleppan Jews.

لم أتعامل مع السودان على أنها كيان مستقلّ لأن السودان كانت حينها خاضعة للسلطات المصرية بموافقة البريطانيين .كذلك فإنني لم أذكر بعض المجتمعات مثل البحرين وأسمرة وغيرها من المناطق الموجودة في الخليج العربي والمطلّة على البحر الأحمر .لم يتطرّق هذا الكتابُ للتجمّعاتِ اليهوديّة في الهند وباكستان وسنغافورة وبورما وهونغ كونغ وشنغهاي والتي أقيمت على يدِ يهودِ بغداد وحلَب.

توطنة

جَماعة يوم السبت أوّلاً

تخيّل شخصاً يقفزُ من بناية شبّ بها حريقٌ كبير فيسقُطُ فوقَ أحدِ المارّةِ في الشارعِ الموجودِ أسفلَ تلكَ البناية، في هذا المشهدِ ترمزُ البنايةُ المُحترقةُ - فَرَضاً - إلى أوروبا، بينما يرمزُ الشخصُ الذي قفزَ من البناية إلى اليهوديّ، أمّا ذلك المارّ تعيسُ الحظّ فيرمزُ إلى العربيّ الفلسطينيّ. إنّ تشبيهَ الصرّاعِ العربيّ الإسرائيليّ بهذا المشهد يُنسبُ إلى الكاتبِأيزك دوتشِر، فيما اقتُبِسَ هذا التشبيهُ من قبلِ المُناظِروالمؤلفِ المعروف كريستوفر هيتشنز في إشارة صريحة إلى موافقتهِ عليه.[1]

وفي الوقتِ الذي يُذهلنا فيه هولُ هذا المشهدُ فإن سَرْد وتسلسل الأحداث يُشكّلان قضيّة جدّليةً متوارثةً تنتقل من جيلٍ لآخر، حيثُ أن السردَ المتعارفَ عليهِ لتسلسل أحداثِ هذا المشهد هوَ أن اليَهودَ جاؤُوا من أوروبا لكي يَحلّوا محلّ سكانِ الأرضِ الأصليين. لكن ماذا لو جرّبنا سرداً مُختلفاً لهذا المشهد؟ تخيلْ أن هذهِ البناية التي تضمّ أقليّات الشرقِ الأوسطِ موجودةٌ في الحقيقةِ في منطقة حوضِ البحر الأبيض المتوسط من الشرقِ الأوسط والتي كانَ يسكُنها هذا الشخصُ اليهوديّ أصلاً، أي أرضإسرائيل/فلسطين، حيثُ سكَنَها اليهوديّ لأكثرِ مِن ثلاثةِ آلافِ عام برفقةِ سكان أصليّين آخرينَ لمنطقةِ الشرقِ الأوسط، والذينَ اضطرّوا لمغادرةِ الأرضِ بعدَ أن تم احتلالُهُا من قِبلِ الرومان سنة 70 ميلاديّة مِما أدّى إلى تشتيتِ الغالبيّة العظمى من ساكنيها، فيما جاء بعدهُم محتلٌ آخر في القرن السابع الميلاديّ ليهيمنَ على هذه الأرض بل والمنطقة بأكملها.

وما حدثَ في القرنِ العشرينهو قيام عددٌ من المخرّبين بإضرام النيران في البنايةِ مُجبرينَ اليهوديّ على القفزِ من أحدِ النوافِذ: "جماعةُ يوم السّبتِ أوّلاً ومن ثمّ جماعةُ يوم الأحد"! لقد قفزَ جميعُ السكان هاربينَ من تلكَ البناية، الأرمنُ والسريانُ والكِلدانيّونَ المسيحيّونَ والموارنةُ والأقباطُ، جميعُهم فرّوا من البناية للنجاةِ بحياتهِم. وللعلمِ لم يَقفِز من تلكَ النافذةِ "جماعةُ يومِ الأحدِ" وحدهُم، بل قفَزَ معهُم المندائيّونَ واليزيديّون "والمُهرطِقونَ" من الأقليّات المسلمة بتعدّد مذاهبهم، لكن الفرقَ بين اليهوديّ وغيرهِ يكمنُ في أن اليهوديّ قد نجحَ في إيجادِ مأوىً لهُ عن طريقِ العودةِ إلى أرضهِ على الرغمِ من الحروبِ المريرةِ التي شهدتّها، هذه البقعة من الأرض التي لم ينقطع اليهودُ عن التواجدِ عليها منذُ أكثرِ من ألفي عام، وهي الأرضُ ذاتهُا الذي لم يتنازلوا أبَداً عن وصفِها بأنها وطنهُم الأمّ منذُ ذلكَ الحينِ حتى يومِنا هذا.

لقد شهدَتْ الستونَ سنةً المُنصرمة نزوح وتهجير ما نسبتهُ تسعةٌ وتسعون بالمئة من السكان اليهودِ مِمّن عاشوا في دول العالمِ العربيّ، حيثُ نزح 650,000 يهوديّ متوجّهين إلى إسرائيلَ فيما نزح 200,000 يهوديّ متوجّهين إلى الغرب [2]، وقد نزح اليهود من العالمِ العربيّ آنذاكَ بطريقتين: الطريقةُ الأولى تمثّلت في خُروجٍ من يحملون جوازاتِ السّفر الأجنبيّة ممن تمتّعوا ببعضِ العلاقاتِ الجيّدة والمعارفِ والذين ساعدوهُم في شقّ طريقِهِم للخروج من تلك البلدان، متوجّهين إلى أوروبا وأستراليا والأمريكيّتين. أما الطريقة الثانية فتمثّلت في خروجِ مَن تبقّى من اليهود في تلكَ البلدانِ برفقةِ الأقلّية التي حملَت الفكر الصهيونيّ، وهؤلاءُ فرّوا هاربينَ متوجّهينَ إلى إسرائيل. وعلى الرغمِ من أن نسبةَ كبيرةً جداً من يهودِ الشتاتِ هُم يهودٌ أشكِناز إلا أن أكثر من خمسين بالمائة من نسبةِ اليهودِ في إسرائيل في وقتِنا الحاليّ هُم يهود مِزراحيّونوسَفرديّون، أي اللاجئونَ اليهودُ الذين فرّوا هاربينَ من الدولِ العربية والإسلاميّة إضافة إلى جميع من انحدرَ من نسلهِم.[3]

إن موجاتَ النزوحِ الجماعيّ للّاجئين أصبحَت سِمة تميّز طبيعة الصراعاتِ التي اندلَعَت في النصفِ الأوّل من القرنِ العِشرين، إذ نزحَ وهُجّرَ ما يزيد عن اثنين وخمسين مليون لاجئ منذ ذلك الحين[4]، كذلكَ فقد حملَ الصراعُ العربيّ الإسرائيليّ هذه السّمةِ أيضاً، لكنّ ما كان مُختلفاً هُنا هو أن موجاتِ النّزوح الجماعيّ لِليهودِ من بُلدان العالم العربي قد سبقَت اندِلاعَ الصراعِ العربيّ الإسرائيليّ ، كما أن الأسبابَ الخفيّة التي تقفُ خلف موجات النزوحِ هذهتتمثّلُ في وجودِ تعصّب دينيّ وثقافيّ وأيديولوجي مُتجذّر في العالمين العربيّ والإسلامي تجاه اليهود، هذا بالإضافة طبعاً إلى السبب الرئيسيّ وهو عدم تقبّل العربِ والمسلمينَ لوجودِ إسرائيل أصلاً.

وقد شهدَ القرنُ العشرون نزوحَ أكثر من مئة وخمسة وثلاثين مليون لاجئ[5] نتيجةً لحروب الاستقلال التي اتخذت طابعاً عنيفاً بين الشعوبِ المُتصارعة، بالتالي أصبحَ نزوحُ السكانِ من مكانٍ لآخر مشهداً مألوفاً خلال هذه الفترة، إذ حدثَ تبادلٌ سكانيّ لنفس العددِ من السكانِ تقريباً بين العربِ الفلسطينيين و يهودِ الشرقِ الأوسط وشمال أفريقيا، فيما حدثَ تبادلٌ آخرٌ للّاجئينَ بينَ اليونان وتركيّا، وبين الهندِ وباكستان، وبين قبرص التركيّة واليونانيّة، ولا ننسى طبعاً موجةَ النزوحِ واللجوءِ والتبادلِ السكانيّ بين الأعراقِ الألمانيّة وغيرها عقِبَ انتهاءِ الحربِ العالميّة الثانيّة.

بنهايةِ المطافِ تمّ استيعاب جميع هؤلاءِ اللاجئينَ والنازحينَ في الدول التي نزحوا إليها باستثناءِ اللاجئينَ الفلسطينيين العربِ الذين لا زالوا يحملونَ صفةَ اللاجئين تبعاً لهيئةِ الأمم المتّحدة، والتي لا زالت تصنّفهُم على أنّهُم لاجئون يَمنحونَ صفةِ اللجوءِ لكلّ من انحدرَ من نسلِهِم من الأجيال اللاحقةِ وإلى الأبد [6]. وفي الوقتِ نفسه تعملُ القياداتُ الفلسطينيّةُ دون كللٍ أو ملل على إبقاء ذلك الأملِ الزائفِ في قلوبِ الفلسطينيين بوجودِ ما يُسمّى بِـ "حقّ العودة"، على الرغم من أنّ غالبيّة اللاجئين الفلسطينيّين لَم يولدوا في تلكَ البلاد أصلاً، كما أن بعضَ الذينَ سكنوها فِعلاً لم تتجاوز فترةُ وجودهِم فيها أكثَر من سنتين.

بالتالي يمكننا القولُ بأن اللاجئينَ الفلسطينيينَ قد حُرِموا عَمداً من حقوقهِم المدنيّة في الدولِ التي استضافَتهُم، وذلكَ حتى تظلّ قضيّةُ اللاجئين الفلسطينيينَ بمثابةِ ورقة ضغط وسلاح مُشرَّع ضدّ إسرائيل في هذا الصراعِ الذي امتدّ لعُقود طويلة بينَ العربِ والمسلمينِ من جهة، والدولةِ اليهوديّةِ من جهةٍ أخرى.

وعلى الرغمِ من وجودِ نزوحٍ سكانيّ للّاجئينَ على جانبي الصراع إلا أن أسبابَ وظروفِ النزوح المحيطةَ بكلّ جانب مُختلفةٌ تماماً، إذ وجدَ اللاجئون الفلسطينيّون أنفُسهُم عالقينَ في منطقةِ نزاع عقِب اندلاع حرب سنة 1948م. لقد اختارَ الكثيرُ من الفلسطينيينَ الفرارَ من أراضيهم من أجل النجاةِ بأرواحِهم، إلا أن هذا لا ينفي أنهُ تم طردُ بعضِ الفلسطينيين من أراضيهِم مثلما حدثَ في منطقتي اللّد والرملة [7]. لكن في الوقتِ نفسِه فإن حقيقةَ اختيار 160,000 عربيّ من أصل 870,000 آنذاك البقاءَ في أراضيهِم غربيّ نهرِ الأردن [8]يشيرُ بوضوحٍ شديد إلى عدمِ وجود أي نيّة مُسبقة لدى دولةِ إسرائيلَ بارتِكاب أي تطهيرٍ عرقيّ مُمنهجٍ أو مقصودٍ بحقّ العرب[9]، بلإن ما حدثَ هو العكسُ تماماً، إذ أقدمت الأردنُ عقِبَ سيطرتها على الضفة الغربيّة بعد حربِ 1948م على القيامِ بعمليةِ تطهيرعِرقيّ مُمنهج بحقّ السكان اليهود، فقامت بطردِ جميعِ السكّان اليهودِ من الضفّة الغربيّة لنهر الأردن - يهودا والسامرة – كما أقدَمت على طردِ جميع اليهودِ من البلدةِ القديمةِ في القدس، على الرغم من أن اليهودَ كانوا يشكلون أكبرَ شريحة سكانيّة أصيلة في التركيبةِ السكانيّة لهذه المناطق [10].

أما بالنسبةِ للاجئينَ اليهودِ فالقضيّة مختلفة تماماً، إذ تعرّضَ قرابةُ المليونِ يهوديّ ممن كانوا مقيمينَ في دول الشرقِ الأوسط وشمالأفريقيا للظّلم والاضطهاد ومصادرةِ أملاكهم لا لسبب سوى أنّهُم يهود، على الرغم من كونهم بعيدين مسافةً تقدّرُ بمئاتِ آلاف الأميال عن ساحةِ الحربِ العربيّة الإسرائيليّة. أما اللاجئونَ الفلسطينيون فقد نزحوا لمسافةٍ لا تزيدُ عن بضعةِ أميال إما داخل حدودِ الأرضِ نفسِها أو إلى دولٍ إسلاميّة قريبةٍ ذات غالبيّة سُنيّة يتحدّثُ أهلها باللغةِ العربيّة، أي المذهب ذاتهُ الذي يعتنقهُ الفلسطينيونَ واللغة ذاتُها التي يتحدّثون بها، خلافاً لما حدثَ مع اليهودِ الذين تمّ إجبارُهُم على مغادرةِ بلادهِم تاركين خلفَهُم موروثهم الثقافيّ واللغويّ العريق كي يَبدؤوا حياتهم من الصفر في بلدٍ آخر.

صورة لخُروج السكان اليهودِ من البلدة القديمة في القدس سنة 1948م حين تم طُرد جميع اليهود عقِبَ سيطرة العرب على المدينة

صورة التُقطت في إسرائيل سنة 1950م تحديداً في مخيّم عين شِمر، حيثُ تجمعُ هذه الصورة أربعةَ أجيال من قبيلةِ الحبّاني اليهوديّةالتي سكنَت الجزيرةَ العربيّة سابقاً. (حُقوق الصور محفوظة لفرتز كوهِن - مكتب الإعلام الحكومي الإسرائيلي)

وقد أصدرَت الجمعيّة العامةُ للأمم المتحدة في يوم التاسع والعشرينَ من شهرِ تشرين الثاني سنة 1947م القرار رقم 181 والمعروف باسم قرار التقسيم، والذي يمثّلُ موافقةَ الأمم المتحدةِ على تقسيمِ فلسطين إلى دولة يهوديّة ودولةٍ عربيّة، فرفضَ العربُ بشدّة قرار التقسيمِ، ونتيجةً لذلكَ اندلعَت أعمالُ عنف ضدّ اليهودِ في كلٍ من البحرين وسوريا وعدَن، فيما شنّت خمسُ دولٍ عربيّة وهيَ سوريا ولبنان والعراق ومصر والأردن - وهيَ بالمناسبةِ الدولَ العربيّة ذاتها التي شنّت حرب 1948م على إسرائيل إضافة الى اليمنِ والمملكة العربيّة السعوديّة اللتينِ ساهمتا في الحرب ببعض المعدّات والإمدادات العسكرية - حرباً ثانيةً على المواطنين اليهودِ المقيمين في تلكَ الدول والذين لم يكن لهم أي دور في الحرب العربيّة الإسرائيليّة، بالتالي انضمّ يهودُ الدول العربيّة إلى ما كان العربُ يصفونهُم سابقاً بأنهم "الأقليّة اليهوديّة" في فلسطين على حد تعبيرهم[11].

وبنهاية الحرب خسرَ العربُ أمام دولة إسرائيل، إلا أنّهُم انتصروا في حربِهم التي شنّوها ضد اليهودِ الذين كانوا مواطنين في تلكَ الدولِ في يوم من الأيام، هؤلاء اليهودُ الذين عوملوا معاملةَ الرهائن ومُنعوا من مغادرةِ بلدانهِم حتى تقطّعَت بهم السبلُ ولم يكُن أمامهُم أي خيار آخرَ سوى الرحيل.

وبالعودة إلى سنة 1948م، فإن دولَ المغرب العربيّ، بما فيها دولة المغرب التي كانت تحوي أكبر تجمّع يهوديّ في العالم العربي، لم تكُن لها عضوية في جامعةِ الدولِ العربيّة حينها لأنها كانت لا زالت قابعة تحت وطأةِ الاستعمار ولم تحصل على استقلالها بعد. وعلى الرغم من أن دولَ المغرب العربيّ ليستَ من الدولِ المجاورةِ لفلسطين، وعلى الرغم من أن حكوماتها لم تكُن في حالةِ حرب مع إسرائيل، إلا أنّ تلكَ الدول تخلّصَت من اليهودِ في أعقابِ موجات ضخمة من الاحتجاجات والتظاهرات وأعمالِ العُنف المُعاديةِ لليهود.

لقد كانت غالبية الأراضي الليبيّة خاضعةً لحُكم الانتداب البريطانيّ آنذاك، إلا أن أعمالَ العُنف والفوضى العارمة التي اندلعَت في طرابلس سنة 1945م أدّت إلى نزوح آلاف اليهودِ الذين كانوا مُنهكينَ مُحطّمينَ أصلاً من وَيلات الحرب العالميّة الثانية وصدمَتِها النفسيّة الشديدة عليهم.

في الوقتِ نفسه قامَ بعضُ المُحرّضينَ المُحترفين بافتعالِ أعمال عُنف ضدّ التجمّعاتِ اليهوديّة المُحاذيةِ لمنطقتي وَجدة وجرادة عقِبَ موجةِ نزوحٍ ليهودِ المغربِ وتوجههِم صوبَ الحدود الجزائريّة بهدفِ الوصول إلى فلسطين، حينها قُتِل أربعة وأربعون يهودياً خلالأعمال العُنف تلك.[12]

لقد تركت هذه المجازرُ الدمويّةُ المُنظّمة والتي كانَت الأسوأ منذُ مجزرة فاس - المعروفة بأيام فاس الداميّة أو التريتِل عند اليهود المغاربة التي ارتكبت سنة 1912م - أثراً نفسياً عميقاً دفع باليهودَ إلى التفكير بجدّية في المُستقبل البائس الذي ينتظرهم في دولِ المغربِ العربيّ، خاصة في ظلّ وجودِ مكان آخر أفضلَ للعيش فيه، وهو دولة إسرائيل.

وفي الوقتِ الذي وجدَ فيه اليهودُ الهاربونَ من ألمانيا النّازيةِ أبوابَ الدول موصدة في وجوههم فإنّ تأسيسَ وقيامَ دولةِ إسرائيلَ منحَ اليهودَ النازحين من دول العالم العربيّ والإسلامي ملاذاً آمِناً لهُم، خاصّة وأن يهودَ العالم العربيّ كانوا الأفقَر والأكثَر مرضاً وبؤساً مقارنةً بغيرهِم من يهودِ العالم الغربيّ.

وقد تزامنَ تأسيسُ دولةِ إسرائيل مع قيام الحركاتِ الصهيونيّة السريّة برفقةِ لجنةِ التوزيعِ اليهوديّة الأمريكيةِّ المُشتركةِ بحملاتِ إجلاء جويّة ضخمة لأعداد كبيرة من اللاجئينَ اليهود، خاصةً بعد أن قرّرتا عدم تركِ يهودِ الشتاتِ لوحدهم في مواجهةِ الموت والاضطهاد في تلكَ الدول، رافعينَ شعار:
" لن تحدثَ المحرقةُ مرّة أخرى"، بالتالي تم نقلُ عشراتِ آلافِ اليهودِ إلى إسرائيل عبر عدد من عملياتِ الإخلاءالجويّ، مثل عمليّة السجّادة السحريّة (أو أجنحة النسر) في اليمن، وعمليّتي عِزرا ونحميا في العراق إضافةً إلى عمليتيّ مورالوياخين في المغرب.[13]

صورة تظهر وصولُ يهود اليمنِ إلى أرضِ إسرائيل
(حقوق الصورة محفوظة لفرِتز كوهِن- مكتب الإعلام الحكوميالإسرائيليّ)

صورة من مخيم الإقامة المؤقتة في قيساريّة (معباراقيساريا) سنة 1954م
(حقوق الصورة محفوظة لفرِتز كوهِن - مكتب الإعلام الحكومي الإسرائيليّ)

وقد واجهَ يهودُ العالمِ العربيّ نوعين من التطهيرِ العِرقيّ، حيث قامت بعض البلدان مثلَ اليمن وسوريا وليبيا والعراق والجزائر ومصر- بعد حرب السويس - بطردِ مواطنيها اليهود دفعة واحدة، أما في بلدان أخرى مثل لبنان والمغرب وتونس فقد استغرقَ خروجُهُم وقتاً أطوَل وتم طردهم على مراحل، وكلّما كانت تتصاعدُ وتيرة الصراع العربيّ الإسرائيليّ كلّما ازدادت أعدادُ المهاجرينَ اليهودِ من تلكَ البلدان. لقد قامت تلكَ الدولِ بتجريم الحركةِ الصهيونيّة، الأمرُ الذي زادَ من نظرة الشكّ والريبة التي كانت تنظرُ بها تلكَ الدولُ للأقلّيات اليهوديّة والتي اعتبرتَ أن اليهود هم طابور خامس يعمل لصالحِ إسرائيل.

أمّا بالنسبة لليهودِ الذين أصرّوا على البقاء في تلكَ البلدان فقد ظلّوا مُحتجزينَ كالأسرى في بلدانهم ومسقطِ رأسِهم، فيما اتُّخِذَت بحقّهم إجراءات تعسّفية عُنصريّةٌ تمنعهُم من السفر، وعندما أصبحَ بقاءُ اليهودِ في الدول العربيّة أمراً من سابع المستحيلات قام الموساد الإسرائيليّ بإبرام صفقةٌ مع كلّ من العراق واليمنِ يُسمحُ بموجبها لليهودِ بمغادرة تلك الدول، إلا أنّ مغادرتهُم عبرَ الطائراتِ قد كلّفَت ثمناً باهِظاً، ففي مقابلِ السماح بعملياتِ إخلاء اليهود دفعَت إسرائيلُ فِديَةً مقابلَ كل يهوديّ يتمّ إخلاؤهُ ونقله إلى خارج حدودِ تلك الدول، وحتّى يتمّ إنجازُ ذلكَ كان لا بدّ من دفعِ رشاوى ومبالغَ ماليّة ضخمة للمسؤولين العراقيينَ تُعادلُ أضعاف قيمة مرتّباتهم الشهرية [14]، حيث بلغت تكلفةُ مُغادرة كلّ يهوديّ من تلكَ الدول ووصولهُ إلى برّ الأمان قرابة 12 جنيه إسترليني لكل فرد (أي ما يُعادل اليوم 400 جنيه إسترليني).

أما بالنسبة للمغرب فبعد أن تمّ إنهاءُ الحظر الذي فُرِضَ على هجرة اليهود والذي استمرّ لخمس سنوات فقد تمّ التوصلُ لاتفاق سنة 1961م دفعَت منظمةُ المؤتمر اليهوديّ العالميّ بموجبه فِديةً وصلَت إلى مئتين وخمسين دولار أمريكي (أي ما يُعادلُ اليوم ألفاً وستمائة دولار أمريكيّ) بشكل سريّ مُقابلَ كلّ يهوديّ يتم نقلهُ وإخراجه من المغرب بدايةَ الستينيّات من القرن المُنصرم، فيما يُقدّرُ المبلغُ الذي دُفِعَ للسُلُطاتِ المغربيّة آنذاك ما بين خمسة إلى عشرين مليون دولار أمريكيّ [15]. تقولُ بنينا إلباز مُعلّقة على عملياتِ الإخلاء الجوي لإنقاذ اليهودِ من قرية صافيجنوبيّ المغرب:" لقد أرسَل المشيحُ المُخلّصُ إلينا هؤلاء الصهاينةُ، لقد أنقذوا آلافَ الأرواح"[16]

وقَد وافقت الحكومةُ العراقيّة آنذاك على إطلاق سراحِ اليهود ظنّاً منها أن إغراق إسرائيل بآلافِ اليهود المُعدمين الذين ليس لهُم حولٌ ولا قوّة ممن لا يمتلكونَ سوى بعضِ الملابسِ وحقيبةِ السفر سوف يقودُ إلى انهيار الاقتصادِ الإسرائيليّ [17]. من ناحية أخرى كانت عملياتُ الإخلاء الجويّ مُربحةً جداً بالنسبة لهذه الحكومات وموظّفيها المدنيين الذين تلقّوا رشاوي ضخمة مقابل ذلك، فيما كان العربُ مُساهمين رئيسيين في شركاتِ الطيران التي قامَت بعمليات الإخلاء.

وبنهاية المطاف فإن العرب على المستوى الرسمي والشعبي قد ربِحوا هذه الصفقةَ على المدى القصيرعبرَ نهبِهم ومصادرتهم للأصولِ والأملاكِ والعقارات التي تركها اليهودُ خلفهُم، هذه العقارات التي تُرِكَ بعضها خالياً وتمّ بيعُ بعضِها الآخر بأسعار بَخسة جداً. لكن الثمنَ الثقافيّ والاقتصاديّ الذي دفعهُ العالمُ العربيّ على المدى البعيدكان باهِظاً جداً، ثمنٌ لا يُمكنُ حصره أو تقديرُ خسائره الفادحة بأي شكل من الأشكال.

انطلقَت موجاتُ إخلاءِ اليهودِ عبر الطائراتِ بطريقة لم يسبِق لها مثيل، كما أن الكابوسَ المُفزعِ الذي رافقَ هذه الرحلاتَ لم يبدأ منذ اللحظةِ التي دخلَ هؤلاء اليهود - الذين كانوا مرضى أيضاً -إلى طائراتِ البضائعِ التجارية شبه المُحطّمة، بل بدأ فعلياً قبل ذلك بكثير. فيهودُ اليمنِ - على سبيلِ المثال - كانوا قد قطعوا مسافة طويلةً مشياً على الأقدامِ حتى وصلوا إلى المقاطعةِ الملكيّة البريطانيّة في عدن، فيما دفعَ الوفدُ الصهيونيّ الذي تمّ إرسالهُ لإنقاذ يهودِ اليمن مبالغَ مالية ضخمة لشيوخِ القبائل مُقابل كل يهوديّ يَسمحون له بالعبور من مناطق نفوذهم [18]. وفي النهاية وصل هؤلاءُ المهاجرون اليهود إلى إسرائيلَ مُنهَكين مُحطّمين من شدّة الجوع والتّعب بعد أن أمضوا أسابيع في مخيّماتِ الإقامة المؤقتة التي أقيمَت في العراء، هذه المخيمات التي كان يظلّلها الحرّ وتملؤها الأتربة والغبار. وقد فارقَ الحياة مئة وخمسين شخصاً في طريق العودة إلى إسرائيل، بينما لقي حوالي سبعمئة شخص حتفهُم في تلكَ المخيمات [19].

صورة تظهر مجموعة من اليهودِ المصريين على متن قارب هجرة في اليونان في طريقهِم إلى إسرائيل.

ونتيجة لأعمالِ العُنف والشغبِ الدمويّة التي شهدتها سنة 1945م في ليبيا فقد أصبحَ ما تعدادهُ 4000 يهوديّ من أصل 38000 يهوديّ ليبيّ مُشرّدينَ ولم يجدوا مكاناً يأويهِم سوى الكُنُس [20]، فيما فقدَ قرابة 120000 يهوديّ عراقيّ جنسيتهِم العراقيّة بموجب قرار رسميّ صادر عن الحكومةِ العراقيّة سنة 1950م، ولاحقاً تمّ تجريدهم من كلّ أملاكِهِم بموجب قانون تمّ تمريره والمصادقة عليه في إحدى الجلسات السريّة للبرلمان العراقي [21]. أما يهود مِصرَ الذين كانَ يبلغُ عددهُم 80000 يهوديّ فقد غادروا البلاد على مرحلتين: المرحلةُ الأولى كانت سنة 1948م حين غادر 20000 يهوديّ مصريّ ممن كانوا يحملونَ الفكرِ الشيوعيّ والصهيونيّ، أما المرحلةُ الثانية فكانت سنة 1956م حين تمّ إجبار 25000 يهوديّ مصريّ من أبناءِ الطبقة الوسطى على مغادرة مصر خلال ساعات معدودة، ولم يُسمح لهُم بحمل أكثر من عشرين جُنيهاً مصرياً قُبيلَ مغادرتهِم البلاد [22]. وبالنسبة لسوريا فلم يكُن الوضع مختلفاً عمّا كان في مصر، إذ لم يتبقّ فيها سوى 5000 يهوديّ من أصل مجتمعٍ يهوديّ سوريّ كان تعدادُه 30000 نسمة، حيث فرّ اليهودَ هاربين عقبَ اندلاعِ الاحتجاجات وأعمال العنف ضدّهُم سنة 1947م [23]

لقدَ تأثّرَ اليهودُ بصدمة نفسيّة قاسية رافقَتهُم بقيّة حياتهِم نتيجة لِما تعرّضوا له من اقتلاعٍ لجذورهِم الضاربةِ في عُمقِ تلكَ الدول، فيما خسِرَ العديدُ من أرباب الأسَر اليهوديّة عملهُم نتيجةً لمصادرة تصاريح العملِ الخاصة بهم بعدَ أن كانوا يعملون كموظفين ومدراء في كبرى المحلات التجارية التي كان يملكها المصريون، لكن ما حدث سنة 1949م هو أن وزارة العمل المصريّة أصدرت قراراً ينص على أن تكون ما نسبتهُ خمسة وسبعون بالمئة من العمال والموظفين في أي مصلحة تجارية من غير اليهود. كذلكَ تمّت مصادرةُ تراخيصَ الاستيراد والتصدير من اليهود، وكان يفرضُ عليهم أن يُشاركوا شخصاً مُسلماً في مصالحهِم التجارية، وهذا لم يكن الحال في مصر وحدها بل كان في أغلب الدول العربية.

لقد ظلّت الوحشيّة التي عومل بها يهودُ مصرَ تُطاردُهُم مراراً وتكراراً، إذ كيفَ بإمكانهِم نسيانُ المكالمات الهاتفيّة التي كانوا يسمعونَ خلالها أبشع الكلمات وأكثرها بذاءة، والمكالماتِ الهاتفيّة التي كانوا يردّون عليها فيختفي المُتصّل فجأة، إضافة إلى رسائلِ التهديدِ والوعيد والإتاوات التي كانت تُطلبُ منهُم. كيف بإمكانهم نسيانُ الهلعِ والخوفِ الذي كان يتملّكُ نفوسهُم حينما كان يختفي قريبٌ من أقاربهِم فجأةً ودون سابق إنذار، أوعندما كانَ يطرقُ العساكرُ أبوابَ البيوت بعنف على أبوابِ البيوت الساعةَ الثالثةَ فجراً.

وقد كان التخطيطُ لمغادرة مصر يتمّ بمنتهى السريّة، فكان الأحبةُ يفترقونَ دونَ أيّ وداع أو عناق، خاصةً إذا كان المُغادِرُ متوجّهاً إلى إسرائيل، وعندما كانت تحينُ تلكَ اللحظةُ المنشودةُ للرحيلِ من مصرَ فقد كان يتمّ مُصادرةُ جوازاتِ سفرِ اليهود واستبدالُها بوثائق سفر مكتوب عليهاعبارة " ذهاب بلا عودة".

لقد تم إسقاط الجنسيّةُ العراقيّة عن يهودِ العراقِ وسُمِح لهُم بالمغادرةِ مُجرّدينَ من كل شيء سوى لباس وساعةِ يد وحقيبةِ سفر وإسورة وخاتم الزواجِ وخمسين ديناراً فقط لا غير(أي ما يُعادل ثمانين دولاراً اليوم)، فيما لم يكُن هنالكَ أي ضمانة لوصول حقائب السفر إلى وجهة السفر التي قصدَها اليهود، حيثُ تمكّن مبعوثُ الموساد آنذاك مُردَخاي بِن بورات من كشفِ ما كان يقومُ بهِ الحمّالونَ في مطار بغداد من أعمالِ نهب وسرقة لحقائبِ السفر الموجودةِ في باصات المسافرين [24]، حيثُ لم تكُن أمتعة وحقائب السفر الخاصة بيهود العراق تصلُ إلى المطار عند وصولهم إلى إسرائيل نتيجة قيام الحمّالين بإلقاء تلك الأمتعة من فوق باصات السفر والتي كانت تنقلها الى الطائرات، وهناك كانوا يقومون بجمعهاوسرقتها. كما اشتكى المُغادرونَ اليهود من وحشية وقسوة ضبّاطِ الجماركِ العراقيّين، هذا عدا عَن قيامهِم بمصادرة ما تبقّى معهُم من مصاغٍ ومجوهرات وتنكيلهم بمحتويات حقائب السفر والعبث بها بل وسرقتِها.

لقد واجهَ اللاجئونَ اليهودُ تحدّياً جسيماً تمثّلَ في أنّ عليهِم المضيّ قُدُماً والبدء بحياة جديدة كلّياً بعد أن غادروا تلك البلدان ووصلوا إلى برّ الأمان، مع الأخذ بعين الاعتبار الثمنَ الماديّ والنفسيّ لبناءِ هذهِ الحياة الجديدة، حيثُ يكتبُ رافائيل لُوزونواصفاً ما مرّ بهِ والده عبر سيرتهِ الذاتيّة[25] قائلاً: " لقدَ حطّمهُ الشتات، لم يفارقهُ الحزنُ والأسى على حياته السابقة، لكنهُ ظلّ مثلما كانَ ولا زالْ: يهوديّاً ليبيّاً قبل كل شيء".

كما كانت نسبةُ الوفياتِ صادمةً بين اليهودِ عقِبَ نزوحهِم من البلدان العربيّة، وذلك نتيجةً لعدمِ قُدرتهِم على تجاوزِ الصدمةِ النفسيّةِ الشديدة التي خلّفها اقتلاعُهم من جذورهِم الضاربة في عُمق تلك البلدان، إضافة إلى الضغط الذي خلّفته صعوبةَ إيجادِ مصادر رزق تُمكّنهُم من إعالة عائلاتهِم، وهُنالك دليلٌ مُتناقلٌ عبرَ القصص التي حدثَت فعلاً، حيث اضطرّ اليهودُ الذين اعتادوا على حياةِ المدينةِ أن يبدأوا بحياة جديدة في الأرياف، وهُنا تصفُ كاميل فوكس التي كانت تنتمي لإحدى أغنى العائلات المصريّة كيف انقلبَت حياتها رأساً على عقب بعد أن تمّ طردُ عائلتهِم من مصر، من حياة تملؤها رائحة عطرالشانيل الفاخر إلى حياة مليئة برائحةٌ زرائب البقر في الموشاف (المزارع والقرى التعاونيّة) جنوبيّ إسرائيل.

لقد عُرِفَ الجيلُ الأوّلُ من اللاجئين اليهود بلقب "جيلِ الصحراء"، فهم لم يمتلكوا أسلوب الحياة أو الحِرف المُناسبة لحياةِ الفلاحةِ في الأرياف التي انتقلوا للعيشِ فيها، فيما وجدَ الآباءُ - على وجهِ التحديد - أن سيطرتهُم على العائلةِ بدأت بالتلاشي تدريجياً في ظلّ مُجتمعٍ يُقيّدُ تلكَ السيطرةَ المُطلقةَ التي كانَ يتمتّعُ بها الآباءُ في مُجتمعاتهم السابقة، وهنا يتحدّثُ الكاتبُ اليهوديّ العراقيّإيلي عَمير بعضاً من أحلامِ والدهِ التي لم تتحققّ، حيثُ كان حلمُه أن يزرعَ حقولاً من الأرزّ في سهول وادي الحولة في إسرائيل. كما تغيَّر نمطُ العمل التجاريّ والإداريّ الذي اعتاد اليهودُ على القيامِ بهِ في البلدانِ العربيّة التي ولدوا وعاشوا فيها، فخلعوا البدلات الرسميّة وامتهنوا العملِ في البناء، أما النساءُ فقد كانت لديهنّ مرونة وقابليّة أكثر من الرجال للتأقلم مع الواقع الجديد، فخرجنَ للعملِ خارجَ بيوتهنّ لأوّلِ مرة في حياتهنّ.

كما انقلبَت العلاقاتُ العائليّةِ والأسريّة رأساً على عَقِب، فبدلاً من أن يعتني الآباءُ بأبنائهِم أصبحَ الأبناءُ يعتنون بآبائهِم وأمّهاتهِم ممّن أصبحوا مُضطّربين ومشوَّشين نتيجةً لهذه التجربةِ القاسية التي مرّوا بها. لقد أبدت دولةُ إسرائيلُ اهتماماً خاصاً بهؤلاء الأبناء، إذ تمّ إرسالهم إلى قُرى الشباب والكيبوتسات- يُقصدُ بها التجمّعات السكانية اليهوديّة القائمة على نمط الحياة الاشتراكيّة - تمهيداً لتحضيرِهِم وتأسيسِهِم للتأقلم مع نمطِ الحياةِ الجديد في رحاب الدولة اليهوديّة.

كما أدى النزوحُ من الدولِ العربيّة إلى تشتّتِ عدد لا بأسَ بهِ من العائلاتِ اليهوديّة ذات العدد الكبير منالأفراد، فتفرّقَ الأخوةُ في شتّى بقاع العالم، وعائلتي هي خيرُ مثال على هذا الشتات، فخلال مرحلة معيّنة من حياتنا كانَت والدتي تسكنُ إنجلترا، في حين كان لها ثلاثُ أخوات واحدةٌ منهنّ كانت في العراق (حتى سنة 1991م) وواحدةٌ في الولايات المتحدة الأمريكية وواحدةٌ في فرنسا، في حين كان لي أخوان اثنان أحدهُما في إيران [26]والآخرُ في كندا.

وبطبيعةِ الحال فإن الظروفَ المعيشيّةَ التي كانت بانتظار 650,000 لاجئ يهوديّ في إسرائيلَ آنذاك لم تكُن مُشجّعةً على الإطلاق، بدءاً منالمعبروت- مخيماتِ الإقامة المؤقتة - ذاتِ الروائحِ النتنة، مروراً بالنقص الحاد في الغذاءِ والوظائفِ، وانتهاء باللغة والثقافة الجديدتين والمُختلفتينِ عن اللّغةِ والثقافةِ التي اعتاد يهودُ الدول العربية عليها، فيما كانَت إسرائيلُ تبذلُ قصارى جهدها من أجل التعامل مع هذا الوضع الجديد الذي رفعَ من عدد سكّانها من 600,000 إلى الضعفِ تقريباً بين ليلةٍ وضحاها، وذلكَ نتيجةً لتدفّق هذا العددِ الهائلِ من اللاجئينَ اليهودِ والناجينِ من محرقةِ الهولوكوست إلى إسرائيل [27]. وفي خِضم الفوضى العارمة التي سادَت مخيماتِ الإقامةِ المؤقتة - المعبَروت - كانت هنالك قصصٌ مروّعة عن سرقة بعض الأطفال والرّضعَ من أهاليهِم، حيثُ اختفوا فجأة ولم يظهَر لهُم أي أثر[28].

لقد أمضى بعضُ هؤلاء اللاجئين مدةَ وصلَت لثلاثةِ عشر سنة قضوها في بيوت الصفيح والأكواخ الخشبيّة ، وكان ذلكَ غالباً في المخيمات التي أقيمت في الأرياف على الحدودِ الشماليّة والجنوبيّة للبلاد، حيثُ بدأت تتحوّلُ تلكَ المخيماتُ تدريجياً إلى بلدات ومدُن للإقامة الدائمة، فعلى سبيلِ المثال كانت بلدةُ سديروت الحدوديّة - التي تتعرَضُ للقصفِ بصواريخِ حماس قصيرةِ المدى من وقتٍ لآخر - عبارة عن مخيمَ إقامة مؤقت كان يدعى "معباراغفيمدوروت"، وقد ضمّ يهوداً أكراداً وإيرانيّين إضافة إلى مجموعة من اليهود القادمين من شمال أفريقيا.

إن دولة إسرائيلَ حديثةَ الولادة آنذاك لم تكُن تُظهِرُ دوماً أي حساسيّة في التعاطي مع مُتطلّباتِ واحتياجاتِ هؤلاء اللاجئين، إذ كانت اللغةُ اليديشيّةُ مُتطلباً ضرورياً للحصولِ على العديد من الوظائف مثلاً، واللغة اليديشيّة كانت اللغة التي تحدّث بها اليهود الأشكناز في أوروبا، وهي عبارة عن مزيج من اللغة الألمانية واللغة العبريّة.

أيضاً لم تكن العديد من المساكنِ مُصممة لتتلاءم مع واقعِ واحتياجات الأُسرِ الكبيرة لليهودِ المزراحيّين، حيث أن عائلاتِ اليهود الأشكناز كانت صغيرة العدد نسبياً نتيجة فقدانهم العديد من أقاربهم وأفراد عائلاتهم خلال المحرقة. كذلكَ لم تستفِد إسرائيلُ كثيراً من العدد الكبير من صُنّاع الأحذية وأصحاب الدكاكين، بالتالي اضطرت لاستحداثِ وظائفَ تتلاءم مع قدرة اليهودِ المُهاجرينَ المغاربةِ، أي وظائفَ ثابتة ولا تتطلبُ تعليماً عالياً، مِثلَ نقلِ الأعشابِ والحشائش من الكيبوتسات المجاورة إلى ساحلِ أشدود [29].

وعلى الرغمِ من معاناةِ اليهودُ خلال السنواتِ الأولى من حياتهم في إسرائيل إلا أنّهُم أصبحوا بمأمن من أعمال العُنف التي كانت تندلعُ ضدّهم، فلا مزيدَ من حرقِ الكُنُسِ اليهوديةِ، ولا خطفَ ولا اعتقال تعسفيّ ولا إعدامَ بعدَ الآن، لكن في الوقتِ نفسهِ فإن ظروفَ الحياةِ في إسرائيل لهؤلاء المُهاجرينَ كانت قاسيةً جداً، وهوَ الأمرُ الذي كان اليهودُ الذين رفضوا الانضمام لرحلاتِ الخروجِ من البلدان العربيّة يُعزّونَ بهِ أنفُسهُم.

وقدَ ظلّ بضعةُ آلاف من اليهودِ في البلدان العربية، وكانوا في معظمهم من اليهودِ الأثرياء، إذ ظلّت حياتهُم هادئةً ومُستقرّةً نسبياً لكن لفترة قصيرة، كماأن موجات من العُنفِ أشدّ قسوة وضراوة من موجاتِ العُنفِ السابقةِ كانت بانتظارهِم، ففي مصرَ تم طردُ ما تبقّى من اليهودِ بعد سنة 1956م بمُنتهى الوحشيّة، أما بضعةُ الآلاف من اليهودِ الذين ظلّوا في العراق وسوريا - والذين كانوا يحملونَ وثائق شخصية تُميّزهم على أنهم يهود - فقد تم مُصادرةُ جميع حقوقهم ومصادِرِ رزقِهِم خلال خمسينيات وستينياتِ القرن المُنصرِم. أما في المغرب فقد ظلّ حظرُ اليهودُ من السفر قائماً حتى سنة 1961م. فعلياً فإن ما كانَ يفعلهُ اليهود الذين ظلّوا في البلدان العربيّةِ رافضينَ الخروجَ منها هو تأجيلُ توقيت مغادرتهم للبلدان العربيّة، لأنهم كانوا يعلمون أن مغادرتهُم لهذه البلدان هو قدرٌ لا مفرّ منه.

أما في العراقِ فإن الظروفَ القاسية التي مرّوا بها قد تطلّبَت منهُم اتّباع وسائلَ قاسيةً أيضاً من أجل التغلّب عليها، إذ تم تهريب ألف وتسعمئة يهوديّ من العراق بطريقة غير شرعيّة - أو كما أطلق عليها اسم "قجغ" وتعني تهريب- عبر كردستان وبمساعدة الحكومة الإسرائيليّة، وذلكَ عقبَ ما حدثَ سنة 1970م عندما تم إعدامُ تسعةِ يهودَ عراقيينَ شنقاً في إحدى الساحاتِ العامة إضافة إلى اختفاء عدد آخر منهُم.

أما يهودُ سوريا فكانوا عملياً بمثابةِ الأسرى، حيثُ فُرضَت عليهِم إجراءات مُشددة تحدّ من حركتهِم وتنقّلهم، فيما كانت المُخابرات السوريةُ تلاحقُ كل خطوة من خطواتهِم، ومن كان يستطيعُ الإفلات من مراقبةِ المخابرات كانَ يُجازفُ بالمغادرةِ متوجّهاً إلى إسرائيل- في بعض الأحيان مشياً على الأقدام- عبرَ الطرقِ التي كان يستخدمها المهرّبون. وبنهايةِ المطاف تمّ تحرير ألفي يهوديّ سوري بعد الضغطِ الدوليّ الذي مورس على سوريا خلال تسعينيّاتِ القرن المُنصرم.

كانَ الفقرُ أحدَ أهمّ العقبات أمام انضمام يهود المغرب إلى موجاتِ الهجرة اليهوديّةِ من تلك البلاد، حيثُ أُجبِرَ يهود مكنس - آخرُ يهودِ المغرب - على دفع مائة وخمسة وعشرين دولار أمريكيّ مقابلَ الحصولِ على جوازِ سفر، بالتالي يتمكّن عدد كبير منهُم من دفعِ تكلفةِ جوازِ السّفر وتذكرةِ الطائرة معاً [30]. وقد اتّبعَت بعضُ الحكوماتِ في بلدانَ أخرى حيلةً كانت دارجةً آنذاك تتمثّل في السماح لشخص واحدٍ فقط من أفرادِ العائلةِ بالسفرِ خارجَ البلاد، فيما يُمنعُ بقيّة أفراد العائلة من السفر لِيتم احتجازُهُم كرهائن.

إن السؤال الذي يطرحُ نفسهُ هُنا: لو لم يتم نقلُ مئاتِ آلافِ اليهودِ من دولِ العالمِ العربيّ والإسلامي إلى إسرائيل، ماذا كانَ سيحلّ بهِم؟ في الغالب كانوا سيظلّون تحتَ رحمة الدول التي تواجدوا فيها، كانوا سيظلّونَ عُرضة لموجاتِ العُنف الذي مورس بحقّهم من قبل شعوبِ تلكَ البلدان، كما كانوا سيظلّون عُرضة للاعتقالات التعسّفيّة والبطش والقسوة.

وربّما لو بَقيَ اليهودُ في سوريا والعراقَ تحت حُكم تنظيم الدولة الإسلاميّة - داعِش - لواجَهوا نفسَ المصير الذي كان ينتظرُ المسيحيّين السريان واليزيديين هُناك: سيتم إعدامهم وخطفُ أطفالهم والنساءِ واغتصابهُم وبيعهِم كالعبيدِ والسبايا في أسواقِ النخاسة، أو بأسوأ الأحوالِ سيشكّلون شريحةً ضعيفةً لا حولَ لهُ ولا قوّة، فيصبحونَ لقمة سهلة لغيرهم وسيُكافحونَ بشدّة من أجل تأمينِ لقمةِ العيشِ لأبنائهِم، ومما لا شكّ فيه فإنهم سيُحرمونَ من الوظائفِ وسيتم مُحاربتهُم في أرزاقهِم ولقمة عيشهم نتيجة لوجودهم تحت رحمة تلك الدولِ التي تعاملت معهُم بمنتهى التفرقةِ والعُنصريّة.

إنَ ما تعرّضَ لهُ هؤلاءِ اللاجئين من تمييز فورَ وصولهِم لإسرائيل هي حقيقة لا يُنكرها أحد، خاصة وأنه تمّ عزلهُم في أحياء وقرى مُستحدثة بعيدة عن مراكز المدن، إلا أن إسرائيل - في الوقتِ نفسه - استقبلت هذا الحشدَ الهائلَ من اليهود المُشرّدينَ واحتضنتهُم دونَ قيد أو شرط، وهذا بالطّبع لأنهُم يهود. لقد منحَتهُم إسرائيلَ الحريّةَ وعالجتهُم من مرضِ السلّ والتراخوما وغيرها من الأمراض والأوبئة، والأهم من هذا كلهِ أن إسرائيل وفّرت للاجئين اليهود الملاذ الآمنَ والإمكانيّاتِ السياسيّةِ للدفاع عن أنفُسهم، الأمرُ الذي لم يتمتّعوا به بأي شكل من الأشكال خلال وجودهم في دول العالم العربيّ.

لقد كانت موجةُ نزوح اللاجئين اليهود في الشرقِ الأوسط وشمال أفريقيا أكبرَ موجة هجرة ونزوح عرفتها المنطقة حتى سنة 2003م، هذه السنة التي شهِدت أكبر موجة نزوح لمسيحيّي الشرقِ الأوسط عقبَ الاجتياح الأمريكي للعراق [31]. وكان عددُ اللاجئينَ اليهود أكبر من عدد اللاجئينَ العربِ الفلسطينيين الذين نزحوا من أراضي دولةِ إسرائيل حالياً [32]، لكن الغالبية العُظمى من هؤلاء اللاجئين اليهود يعبّرون عن كامل رضاهِم وعدم ندمهِم على خروجهِم من تلكَ البلدان وتمكّنهم من إعادة بناءِ حياتهِم في هذا العالم الحُرّ. يقولُ موريس مزراحيوهو يهوديّ مصريَ وأحد مهندسيمبنالبنتاغون الأمريكي واصفاً ما اقترفتهُ السلطاتُ المصريّة بحقهم: "لقد أخذ العربُ منّا كلّ شيء، لكنّ الشيءَ الوحيدَ الذي لم يتمكّنوا من أخذهِ هو ما هو محفورٌ في رؤوسنا مثل الصخر"[33] .في الوقتِ نفسهِ يزدادُ شعورُ هؤلاء اليهودِ بخيبةِ الأمل نظراً لحجم التجاهل والتنكّر لقصّتهِم وقضيّتهِم منذ عقود طويلة.

أمّا اللاجئون اليهودُ فكانوا على رأس قائمة ضحايا الأنظمة الاستبداديّةِ العربيةِ في القرنِ العشرين، ذلكَ الاستبدادُ الذي غُرسَت بذورُهُ في ثلاثينيّات ذلكَ القرن، إلا أن فروعَهُ وأغصانهُ وعناقيده لا زالت تُخيّمُ على العالمين العربيّ والإسلاميّ حتى يومِنا هذا.

لقد همّش العالمُ قضية اللاجئينَ اليهودِ وتنكّر لمساعيهِم الحثيثة من أجل البحث عن العدالة والإنصاف، بالتالي فإن الغايةَ من كتابي هذا تتلخّصُ في تسليطُ الضوءِ على ما مرّوا به في الماضي، في محاولة لوضعِ ما تعرّضَت لهُ تلكَ الأقليّة اليهوديّةِ من ذلّ وإهانة ضمنَ السياق الحقيقيّ لما حدث.

وإذا ما جاءَ ذلكَ اليومُ الذي نصل فيه إلى تفاهم وربّما مصالحة شاملة في هذه المنطقة فإنه من الضروريّ جداً أن نلقيَ نظرة عن كثَبعلى قضيّة يهودِ العالمِ العربي لدَحضِ العديد من الأكاذيبِ التي سُمحَ لها أن تنتشرَ كالنار في الهشيم عمّا مروا به بعدَ عقود طويلةٍ من السكوتِ والصمت. لقد اندثَرَت المُجتمعات اليهوديّة من الوجودِ في الدول العربيّة رغم أنها كانت موجودة فيها قبلَ الحُكم الإسلامي، فيما تمّ إعادة كتابةِ تاريخهِم وتزويرهُ حتى يتناسبَ مع أجنداتِ فترة ما بعد الحداثة.

وفي الحقيقةِ فإن الكثيرَ لا زالوا يُنكرونَ حجمَ التعصّبِ والحقدِ ومعاداةِ الساميّة المُتفشيّةِ في العالمين العربيّ والإسلاميّ، هذه الأفكارُ التي تعتبرُ بمثابةِ المحرّك الرئيسيّ لما حدثَ من تطهيرٍ عرقيّ في هذه المنطقة. كما أنّ قصة اللاجئينِ اليهود لا تتعلقُ فقط باليهود المزراحيين أو السَّفَرديين وحدهم، بلّ إن هذه القصّة تتعلقُ - أكثرَ من أي وقت مضى - بمدى فهم الصراعِ العربيّ /الإسلاميّ مع إسرائيل، بالإضافة إلى صراعات المُسلمين مع غيرِ المسلمينَ بشكل عام.

كما أن هذا الكتاب يُسلّط الضوء على عمليّةِ دمجِ اليهودِ المزراحيين في المُجتمعِ الإسرائيليّ وما حدثَ من عمليات تسييس لنضالهِم، ويتطرّقُ هذا الكتاب أيضاً للمطالب المتواصلة للاجئينَ اليهودِ من الدول العربيّة والإسلامية بالاعترافِ بما حدثَ معهُم وتعويضهِم والحديثِ بكلّ صدق وموضوعية عمّا مرّوا به من معاناة.

قائمة الملاحظات والحواشي

1. Benny Morris, 'No love for Muslims, unless they are Palestinians', *Haaretz*, 29 September 2010 at http://www.haaretz.com/no-love-for-muslims-unless-they-re-palestinian-1.316295. (Last accessed 26 April 2017).

2. Maurice Roumani, *The Jews from Arab Countries: A Neglected Issue* (Tel Aviv: World Organization of Jews from Arab Countries (WOJAC), 1983), p.2.

3. Statistical Abstract of Israel, 2009, CBS. 'Table 2.24 – Jews, by country of origin and age' (PDF).

4. Ben-Dror Yemini, 'Why do Palestinian refugees get so much more attention than others?' *Ynet News*, 4 December 2015, http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4734742,00.html. (Last accessed 26 April 2017).

5. Eli Hertz, *Arab and Jewish Refugees – the Contrast, Myths and Facts*, 2007, p.37.

6. Daniel Pipes, 'Eventually, all Humans will be Palestinian Refugees', *Washington Times*, 21 February 2012, http://www.danielpipes.org/10695/unwra-palestine-refugees. (Last accessed 26 April 2017).

7. Benny Morris, 'Israel conducted no ethnic cleansing in 1948', *Haaretz*, 10 October 2016, http://www.haaretz.com/opinion/.premium-1.746676. (Last accessed 26 April 2017).

8. UNWRA was responding to the needs of about 750,000 refugees in 1950.(www.unwra.org).

كانت وكالةُ غوثِ وتشغيلِ اللاجئينَ الفلسطينيين تلبي احتياجاتِ قرابة 750000 لاجئ سنة 1950م.

9. نفس المصدر

10. See Michael J. Totten, 'Between the Green line and the Blue line', *City Journal*, summer 2011, http://www.city-journal.org/html/between-green-line-and-blue-line-13397.html. (Last accessed 26 April 2017).

11. Political committee of the Arab League, Draft Law regarding Jewish Residents, 1947, http://zionism-israel.com/hdoc/Arab_League_Law_Jews.htm. (Last accessed 26 April 2017).

12. David B. Green, 'This Day in Jewish History: Anti Jewish Rioting in Morocco Leaves 44 Dead', *Haaretz*, 8 June 2014, http://www.haaretz.com/jewish/features/.premium-1.597458. (Last accessed 26 April 2017).

13. Israeli Ministry of Aliyah and Immigrant Absorption, http://www.moia.gov.il. In the 1990s, the Israeli government continued to pursue its policy of rescuing Jews in distress by airlifting thousands of Ethiopian Jews in Operations Moses and Solomon.

واصلَت الحكومةُ الإسرائيلية سياسة إنقاذ آلف اليهودِ الإثيوبيين المنكوبين في تسعينيات القرن الماضي وذلكَ من خلال نقلهم عبر الطائراتِ ضمن عمليّتي موسى وسُليمان

14. Mordechai Ben-Porat, *To Baghdad and Back* (Gefen, 1998), p.122.

15. Xavier Cornut, 'The Moroccan Connection', *Jerusalem Post*, 22 June 2009, http://www.jpost.com/Features/The-Moroccan-connection. (Last accessed 26 April 2017).

16. 'The truth about Morocco: fear made Jews leave', *Point of No Return*, 11 September 2016, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2016/09/the-truth-about-morocco-fear-madejews.html. (Last accessed 26 April 2017).

17. See Elie Kedourie's essay, 'The Break between Arabs and Jews', in Mark R. Cohen and Abraham L. Udovitch (eds), *Jews Among Arabs* (Darwin, 1989).

18. Joe Spier, 'Alaska Airlines and the Jews of Yemen', *San Diego Jewish World*, 1 May 2015.

19. Vered Lee, 'The Frayed Truth of Operation Magic Carpet', *Haaretz*, 28 May 2012, http://www.haaretz.com/jewish/books/the-frayed-truth-of-operation-magic-carpet-1.432991. (Last accessed 26 April 2017).

20. Shmuel Trigano, '1920–1970: A History of Ongoing Cruelty and Discrimination', *Jerusalem Center for Public Affairs* (JCPA), 4 November 2010, http://jcpa.org/article/theexpulsion-of-the-jews-from-muslim-countries-1920-1970-a-history-of-ongoing-cruelty-and-discrimination/.(Last accessed 26 April 2017).

21. Itamar Levin, *Confiscated wealth: the fate of Jewish property in Arab lands*, Policy Forum Institute of the World Jewish Congress, 2000, p.11.

إيتامار لِفِن – الثروةُ المُصادرة: مصيرُ الأملاكِ اليهوديّةِ في العالمِ العربيّ – معهد السياسات

22. Michael Laskier, *Jews of Egypt* (New York: NY University Press, 1992), p.144.

23. Itamar Levin, *Locked Doors* (Westport, CT: Praeger, 2001), p.173.

24. See Ben-Porat, *To Baghdad and Back*, (Jerusalem: Gefen, 1998), p.122.

25. Raphael Luzon, *Libyan Twilight* (London: Darf, 2016), p.26.

26. He had to flee a second time from the Islamic revolution in 1979.

أجبرَ على المغادرةِ للمرة الثانية عقب الثورة الإسلاميّة في إيران سنة 1979

27. Jonathan Kaplan, 'The Mass Migration of the 1950s', *Jewish Agency for Israel*, 27 April 2015, http://www.jewishagency.org/society-and-politics/content/36566. (Last accessed 26 April 2017).

28. The Yemenite Children Affair (not all were Yemenite, some were Iraqi and some even Ashkenazi) concerns children who were taken away alive from their parents. Parents were told they had died, but this was not always the case. The Affair has been the subject of three Israeli official inquiries. A 2001 probe examined more than 1,000 cases and concluded that most of the children in question had died natural deaths. While it stated that some of the remaining ones were probably adopted — and did not reach conclusions in a number of cases — it found no evidence of kidnapping or an organised conspiracy. In 2016, the government ordered files which had been sealed until 2017 to be declassified. In 2017, revelations that unauthorised tests had been carried out on Yemenite children caused an outcry

تختص دائرة شؤون الأطفال اليمنيين (بالمناسبة لم يكن جميع الأطفال يمنيين، حيث كان بعض الأطفال عراقيين والبعض الآخر من اليهود الأشكناز) بقضية الأطفال الذين خُطِفوا من ذويهم وهُم على قيدِ الحياة. وقد تمّ إعلامُ الأهل بأن أبناءهُم قد توفّوا رغم أن معظم الحالات لم تكن كذلك. وخضعَت هذه الدائرةُ لثلاثةِ تحقيقات رسميّة من قبل الحكومة الإسرائيليّة، حيثُ قام أحد المحققين بالتدقيق في 1000 قضيّة سنة 2001 وقد وصل الى استنتاج مفاده بأن جميعَ الأطفال الذين تم التحقيق في قضاياهم قد توفّوا وفاةً طبيعيّة. كما أظهرت نتيجة التحقيقات أيضاً أن أسباب اختفاء الحالاتِ المتبقيّة كان نتيجةٍ لقيام عائلات أخرى بتبني أولئك الأطفال. لكن لم يُعرف عدد الحالاتِ التي لم يُعثَر فيها على أي دليل يشيرُ إلى أن سبب اختفاء الأطفال هو الخطف أو أي عمل مُدبّر. وفي سنة 2016 أمرَت الحكومة الإسرائيليّةبفتح ملفات كان قد تم إغلاق التحقيق فيها حتى سنة 2017م، ومع حلول سنة 2017م أظهرت نتائج بعض التحقيقات بأنه قد تم إجراءُ بعض الفحوصاتِ بطرق غير رسميّة على الأطفال اليمنيين، الأمر الذي أثار ضجّة كبيرة حينها.

29. Simon Skira interviewed in the film: *Les destinscontrariés*by Younes Laghrari (2015).

30. D. Sitton, *Sephardi Communities Today*, (Jerusalem: Council of Sephardi and Oriental Communities, 1985), p.166.

31. Eliza Griswold, 'Is this the end of Christianity in the Middle East?', *New York Times*, 22 July 2015, http://www.nytimes.com/2015/07/26/magazine/is-this-the-end-ofchristianity-in-the-middle-east.html. (Last accessed 26 April 2017). Griswold notes that over a million Christians have left the Arab world since 2003 –slightly more than the Jewish exodus of 850,000.

يوضّحُ غرِسوولد أن أكثر من مليون مسيحيّ قد هاجروا من العالم العربي منذ سنة 2003، أي أن العدد يتجاوز قليلاً عدد اليهود الذين خرجوا من هذه المنطقة والذي بلغ ثمانمائة وخمسين ألف يهوديّ.

32. Bernard Lewis quotes the 30 September 1949 UN Economic Survey for the Middle East figure of 726,000 Palestinian refugees in *Semites and Anti-Semites* (Norton, 1999), p.184.

33. Elliot Malki (producer) & Ruggero Gabbai (director), *Starting Over Again*, 2015.

الفصل الأوّل

ألفُ سنة قبلَ ظُهورِ الإسلام

اعتادَت أمّ مريم على زيارة مقام مشهد الشمس وتزيين جُدرانه بالحنّاء خلال عيد الأضحى من كل عام، هذا المقام الموجود في منطقة الكفل المجاورة لمدينة الحلّة جنوب العراق. وأم مريم هي واحدةٌ من عشرات الزوّار الذين يكتظ بهم الفِناء الأخضر المُحاط بأشجار النخيل، حيث يستظلّون بأسواره المُتعرّجة والمنارة المُزخرفة التي أُنشِئَت حديثاً في هذا المقام من لهيب الشمس الحارقة. وخلال مقابلة مع أحد الصحفيّين العرب من صحيفة المونيتور الإلكترونية تقول أم مريم بأن الفضل يعود لهذا المقام في شفاء ابنتها من مرض عُضال، حيث تعافَت منه بعد أن نامت هناك ليلة بأكملها، وما تؤمنُ به أم مريم لا يختلف عمّا يؤمن به العديد من الناس الذين يرون أن للمقام قُدرة عجيبة على مساعدة النساء العاقرات على الإنجاب أيضاً [1].

ويضم المقام قُبباً مرصّعة بالفسيفساء والنصوص القرآنيّة والرخام الفاخر، إضافة إلى صفوف من الأعمدة المنقوشة التي تزيّن ساحاته، وهذا النمط من البناء يذكّرنا بالنمط نفسه لبناء المساجد الشيعيّة في هذه المنطقة، بالتالي فإن ملامح المكان لا توحي بأن هذا المكان لم يكُن له علاقة بالإسلام في يوم من الأيام. في الوقت نفسه لا تُنكر صحيفة المونيتور بأن مقام الكِفل لم يكُن في الأصل مقاماً إسلامياً، وبحسب ما تذكرُ الصحيفة المعروفة في العالم العربيّ فإن هذا المقام مُرتبط بإله الشمس في الحضارة البابليّة القديمة.

ويخضعُ المقام الذي تمّ ترميمه خلال العشر سنوات الماضية لسُلطة الوَقف الشيعيّ، وتعُجّ أسوار المقام بصور الأئمة الشيعة إضافة إلى نصوص وكتابات تذكرُ على أن الخليفةَ الراشديّ الرابع الإمام علي بن أبي طالب قد زار هذا المكان وصلّى فيه في القرن السابع للميلاد. ومثلما يقول بعضُ المُسلمين فإن "قُدسيّة هذا المقام في الإسلام ترجع إلى هذا الحدث البارِز، وتفوق في أهميّتها قيمته التاريخيّة كموقع أثري يعودُ لزمن البابليّين" [2].

صورة للساحة الخارجية لمقام النبي حسقيل

لكن ما لم تكن تعلمُ به أم مريم وغيرها من زوّار هذا المكان وحتّى قُرّاء صحيفة المونيتور أنفسهُم هو أنّ الكِفل كان مقاماً لواحد من الأنبياء اليهود الستة، وهو النبي حسقيل، قبلَ أن يتحوّل اسمه ليُصبح مقام مشهد الشمس، وما فعلهُ صحفيّ المونيتور هو أنّهُ قام بمَحو 2700 عام من التاريخ والحضارة اليهوديّة العريقة في هذا المكان بجرّة قَلَم وكّأنها لم تَكُن.

صورة لمقام النبي حسقيل قبل أن يتم تحويله لضريح إسلاميّ

مشهد جوّي لمقام الكِفل حاليا

صورة لمقام النبي حسقيل بعد أن تمّ تحويلهُ لمقام دينيّ شيعيّ مشابه لنمط بناء المقامات والأضرحة الشيعيّة

وقد زار بنيامين التطيليّ هذا المكان سنة 1170م وتحدّث في مستهلّ وصفه لهذا المكان عن وجود كنيس يهوديّ ومنصّة لقراءة التوراة إضافة إلى غرفة مليئة بالكتب التي يعود تاريخها لزمنِ الهيكل اليهوديّ الأوّل والثاني، حيث حافظ يهود العراق- حتى نزوحهم الجماعيّ من العراق سنة 1951م - إضافة إلى يهود الهند وبلاد فارس على هذا المقام واعتادوا على زيارته دوماً، خاصة في الفترة الواقعة بين عيد رأس السنة العبريّة - روش هاشَناه - وعيد الغُفران [3]، والتي اعتادَ اليهودُ خلالها على قراءة كتاب النبيّ حسقيل.

وكلمة حسقيل هي صِفةٌ تعني باللغة العبريّة "مَن قَـوّاهُ اللهُ"، ويعودُ نَسَبُ النبيّ حسقيل لأبيه الكاهنِ بوزي، ولاحقاً تمّ نفي النبي حسقيل سنة 598 قبل الميلاد برفقة الملك يهوياخين (يَهوياكين) من أورشليم إلى بابل التي قضى مُعظم حياته فيها. وقد تنبّأ النبيّ حسقيل بالدمار الذي حلّ بمملكة يهوذا، وبعد أن تحقّقَت نبوءاتهُ أمرَه الله بأن يُبلّغَ اليهودَ بأنهُم سيعودون من منفاهُم إلى أرض أجدادهم وبأن المشيحَ المُخلّص - تِبعاً لتسميتهِ في الديانة اليهودية - آتٍ لا محالة.

وحسقيل هوَ اسمٌ ذو قيمة بالغة الأهمية لدى يهود العِراق، لدرجة أنّه كان الاسم الأكثر شيوعاً بين أسماء الذكور من اليهود، حيث اعتاد المسلمون في العراق على استخدام لفظة حسقيل في الحديث عن اليهود لتُصبح مرادفاً لكلمة يهوديّ.

وقد كان قبرُ النبي حسقيل الذي أقيم عليه هذا المقامُ أحدَ الأماكن التي كان يمرّ بها الحُجّاج المُسلمين في طريق ذهابهم إلى مكّة، فيما تحوّل المقام إلى موقع يهوديّ بعد الغزو الإسلاميّ وسيطرة الأئمة الشيعة على هذا المكان. وقبل أن يقومَ الوقف الشيعيّ بترميم هذا المقام اعتاد المسلمون على وصف مقام النبي حسقيل بِضَريح "ذو الكفل"، وذو الكفل هي شخصيّة قرآنية ثانويّة لم يَرد ذكرُها في القرآن إلا مرة واحدة، لكن تسميته بِضريح "ذو الكفل" قد أضفى أهميّة دينية إلى هذا المكان، خاصة وأن الوقف الشيعيّ ينسبُ المقام إلى الإمام علي بن أبي طالب بهدف إظهار مزيد من القدسية على هذا المكان بالنسبة للطائفة الشيعيّة. وقد اعتاد قرابة خمسة آلاف زائر يهوديّ على زيارة مقام النبي حسقيل والمبيت في السكن المجاور للمقام خلال عيد الشّفوعوت - عيد الأسابيع باللغة العربية - والذي يحتفلُ فيه اليهود بمناسبة نزول التوراة على موسى فوق جبل سيناء -.

كما عاش آلافُ اليهود في بلدة الحِلّة وتملّكوا فيها الأراضي آنذاك، ويُدوّنُ داوود سليمان ساسون - حفيدُ رجل الأعمال الكبير داوود ساسون والذي كان معروفاً بتبرعه السخي للأعمال الخيرية-فيوَصفه للمقام خلال زيارتهِ له سنة 1910م [4]والتي حفظها في دفتر مذكّراته باللغة العبرية قائلاً:" الحِلّة هي بلدة صغيرة مُحاطة بجدار مُصمّم بطريقة لا بأس بها من بقايا الصخور المأخوذة من بقايا الآثار البابليّة القديمة. أما لون المياه في التجمع المائي المحاذي لها فيوحي بقذارتها وعدم صلاحيتها للشرب. وتحيط أشجار النخيل بالمدينة من الشمال ومن الجنوب" [5]

وقد رأى داوود ساسون - الحفيد- المُعاملة السيئة التي كان يتعرّضُ لها اليهود في الحلة، وشهد بأم عينه الظلم الذي تعرّضوا له من قِبل شيوخ المُسلمين حينها، والذين كانوا يطبّقون قوانين "أهل الذمة" على اليهود بصرامة شديدة، أضف إلى ذلك النظرة التي كان ينظرُ بها الأئمة الشيعة الى اليهود على أنّهُم "نَجَس". يقولُ داوود ساسون في مذكّراته: "... والبناءُ المُشيّد فوق القَبر يبدو قديماً جداً، وهو مبنيّ من حجارة ضخمة يُعتقدُ أنها تعودُ إلى عهد الملك يهوياخين.

وعلى مدخلِ المقام يوجدُ حجرٌ مُتَرّخٌ بالسنة 1809م - 1810م، ومنقوشٌ عليه عبارة: "هذا قبرُ سيّدنا النبي حسقيل ابنُ الكاهن بوزي أدام الله فضلهُ علينا وعلى إسرائيل- آمين" [6]. ويُتابع داوود ساسون وصفه للمقام قائلاً: "والغرفةُ المجاورة مرتفعةٌ جداً، ومرسومٌ على جدرانها ورود إضافة إلى أسماء أهمّ الشخصيات التي قامت بزيارة القبر، ومذكورٌ ضمن هذه الكتابات أن جدّي داوود ساسون قام بترميم هذا المكان سنة 1859م. وبالنسبة لقياسات القبر فهي كالآتي: يبلغُ طوله 12 قدماً و9 إنشات، فيما يبلغ عرضهُ 5 أقدام و3 إنشات، وارتفاعه 5 أقدام وإنش واحد. والقبر مُغطى بستارةٍ قماشيّة - يُطلق عليها بَروخِت بالعبريّة - قام بوضعها جَدّي بعد أن جلبها خصيصاً من مدينة بومباي. ومكتوبٌ على الجدران أيضاً بأن مناحيم صالح دانيال قد زار القبر أيضاً سنة 1897-1898م، وتُظهرُ الكتابات ما تبرعّ به من مال لإعادة ترميم القبر.
ويوجد بمحاذاة القبر غرفةٌ أخرى تضم قُبورَ الچؤونيم (الچؤونيم هو لقبٌ لأعلى السلطات الدينيّة اليهوديّة في زمن البابليين، فكان الچِؤون يديرُ المحاكم والمدارس الدينية ويعين القضاة ويرتب الشعائر الدينيّة وغيرها من الأمور الحياتية الهامة)[7]

وبجميع الأحوال فإننا لا نعلم ماذا حلّ بقبور الچِؤونيم لاحقاً بعد هذه الترميمات، وأيضاً لا نعلمُ ما هو مصيرُ النقوش المُزيّنة والكتابات العبريّة الموجودة على جدران المقام، حيث تم تغطية منصّة قراءة التوراة التي كانت موجودة في المقام بستار أخضر مُطرّز بنصوص توضّح أن هذا المكان هو مقام ذو الكِفل بالعربيّة. وباعتقادي لو قام داوود ساسون من قبره ورأى المقام بصورته الحالية فإنه لن يتمكن حتى من التعرّف عليه بعد هذا التغيير الجذري في مرافقه.

فعلياً لم يبقَ أي يهوديّ في بلدة الكِفل، ولم يبقَ في العراق بأكملها سوى خمسة يهود فقط [8]، وخلال فترة زمنيّة لا تتجاوز الجيلَ اندثر المُجتمعُ اليهوديّ بشكل كامل من العراق، فيما تمّت إعادة كتابة التاريخ وتزويره وتدليسه في محاولة لطمس الوجود اليهوديّ ومسحهِ تماماً من تاريخ العِراق وحاضره.

صورة تُظهر قبر النبي حسقيل وبعض النصوص العبريّة التي تبدو واضحة على الجدران، بينما تمّت تغطيتها باللون الأخضر لإظهار أهميّة المقام للمسلمين.

اقتلاعٌ من الجذور لم يسبق لهُ مثيل

لقد عاش قرابة 856,000 يهوديّ في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا سنة 1945م [9]، بينما لم يتبقّ منهم سوى قرابة 4500 يهوديّ تتواجد غالبيتهم العظمى في المغرب وتونس، وبالنسبة لليهود الذين يعيشون حالياً في مصر وسوريا ولبنان واليمن والبحرين والعراق فيمكننا عدّهُم على أصابع اليد، أما ليبيا والجزائر فلا يوجد فيهما أي يهوديّ على الإطلاق [10].

لقد غادر تسعة وتسعون بالمئة من اليهود الذين كانوا يعيشون في الدول العربيّة في الماضي [11]، وهُنا يصفُ المؤرّخ ناثان وينستوك ما حلّ بيهودِ الدول العربيّة قائلاً: "لم يسبِقَ لليهود أن تعرّضوا لمثل هذا التهجير الجماعيّ المأساويّ في أي بقعة من العالم، حيث تجاوز نزوح اليهود من الدول العربية في قسوته ومأساويته النزوح الجماعيّ لليهود من روسيا القيصريّة وألمانيا في ثلاثينيات القرنِ المُنصرم، وهجرة اليهودِ من أوروبا الشرقيّة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية".[12]

وبالانتقال إلى الغرب فإن هنالكَ صورة خاطئة عن اليهوديّ محفورة في ذهن الإنسان الغربيّ مفادها بأن اليهود هم شعبٌ اعتادَ الترحال من مكانٍ لآخر لأنهم لا يملكون أرضٌ مُحددة يعتبرونها وطناً لهُم، وهيَ بالمناسبة صورة مستوحاة من الفِكر المسيحيّ الأوروبي القديم الذي صوّر اليهودَ بهذه الطريقة لشعوب أوروبا، وهذه صورة مغلوطة لا تمتّ لليهود بأي صلة على الإطلاق، فاليهودُ ينتمونَ لبقعة من الأرض في منطقة الشرق الأوسط، تحديداً تلك البقعة التي احتلّها الرومان وأطلقوا عليها اسم فلسطين. أضف إلى ذلك أن الوجودَ اليهوديّ في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لم ينقطع على مدار ألفي عام رغم كل الظروف الأليمة التي مر بها باليهود، حيث سكنوا هذه المنطقة قبلَ انتشار الإسلام وقبل الغزو العربيّ لها بقرابة ألف سنة على الأقل. [13]

لقد عاش اليهود في العراق منذ فترة السبي البابليّ التي تم فيها نفي اليهود من مدينة أورشليم ومملكة يهوذا إلى بلاد ما بين النهرين سنة 586 قبل الميلاد، ومنذ ذلك الحين استمرّ وجودُ اليهود في العراق بشكل متواصل إلى أن تم طردهُم منه قبل قرابة حوالي خمسين سنة. وقد كانت بغدادُ إحدى أهم المدن التي سكنها اليهود في العالم حتى مطلع القرن العشرين، فشكّل اليهود ما نسبته أربعون بالمئة من إجمالي سكان بغداد آنذاك، مُشكلين بذلك أكبر نسبة من السكان الذين ينتمون لمجموعة إثنيّة واحدة، لدرجة أن الأسواق كانت تُغلق أبوابها في يوم السبت اليهوديّ، أي اليوم المقدس من كل أسبوع والذي لا يعملُ فيه اليهود. [14]

وتعرّضَ اليهود للنفي من أرض إسرائيل إلى بلاد الرافدين خمسَ مرات، وكانت المرة الأخيرة على يد البابليّين، الأمر الذي أدى إلى تكوين مجتمع يهوديّ في الشتات يُعتبرُ الأقدم والأعرق في التاريخ اليهودي. لقد نُفي اليهود من أورشليم القدس إلى بلاد بابل وتم استعبادهُم فيها، وهناكَ بكى اليهودَ على ضفاف دجلة، ويصفُ سِفر المزامير حال اليهود آنذاك: **"عَلَى أَنْهَارِ بَابِلَ هُنَاكَ جَلَسْنَا، بَكَيْنَا أَيْضًا عِنْدَمَا تَذَكَّرْنَا صِهْيَوْنَ"[15].** وبعد هزيمة البابليين على يد الملك الفارسي كورش فَضّلت أقليّة لا بأس بها من اليهود البقاء في أرض بابلَ بعد أن سمحَ الملك كورش لليهود بالعودة إلى أورشليم القدس وبناء هيكلهِم مرة أخرى.

انتمى يهودُ دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لمزيج من المجموعات الإثنيّة متعدّدة اللغات والتي كانت تشكّل جزءاً لا يتجزأ من النسيج السكانيّ الأصيل للمُجتمعات التي عاشوا فيها، فعلى سبيلِ المثال لا الحصر، عاشَ اليهود في مصر باعتبارهم جُزءاً منَ المُجتمع الفرعونيّ القديم، حيث كان لليهود حينها حاميةٌ قويّة تواجدت تحديداً في جزيرة إلفَنتين في نهر النيل، ويذكرُ التاريخُ كيف لجأَ الكاهنُ اليهوديّ الكبير أونياس إلى أرض مصر وبنى فيها هيكلاً يشبهُ إلى حدٍ كبيرَ الهيكلَ الذي بناه اليهود في أورشليم القدس (كان هيكل ليونتوبوليس المكان المقدّس الوحيد خارج أورشليم القدس الذي كانت تُقبلُ فيه القرابين التي كان يقدّمها اليهود لله في ذلك الوقت). يذكرُ المؤرّخُ اليهوديّ يوسيفوس فلافيوس الذي عاش في القرن الأوّل للميلاد أن قرابة المليون يهوديّ قد سكنوا أرض مصر قبل ألفي سنة، وظلوا موجودين فيها إلى أن تمت إبادة غالبيتهم على يدِ الرومان.

ومع انتشار الديانة الإسلامية عبر مرّ القرون قامت جماعات كثيرة باعتناق هذا الدين، مثلَ البربر(الأمازيغ) في شمال أفريقيا والأقباط في مصر والبيزنطيّين الأرثوذكس في سوريا والزرادشتيّين في بلاد فارس والهندوس في الهند وغيرهم. واستناداً لما ذُكِرَ في وصف تلك الحقبة فقد عاشَ تسعون بالمئة من اليهود تحت الحُكم الإسلامي عقب ازدياد هيمنة محاكم التفتيش الإسبانيّة في القرن الخامس عشر للميلاد [16]. وبعد أن تم طرد المُسلمين واليهود من إسبانيا آنذاك توجّهَ عددٌ كبيرٌ من اليهود السَّفرديّين إلى شتّى دول حوض البحر الأبيض المتوسط، مُنضمّين بذلك إلى المُجتمعات اليهوديّة التي تواجدَت أصلاً في تلك البلدان، جالبين معهُم تقاليدَ مميّزة وفِكراً نيّراً إلى البلدان التي قدِموا إليها، كما كانوا يتحدّثون باللغات واللهجاتِ الإسبانية العريقة التي تعودُ أصولها إلى العُصور الوُسطى.

لقد زاوجَ الإسلامُ بينَ رؤيتهِ العالميّة والأمميّة من جهة، وبين إمبرياليته السياسيّة من جهة أخرى، حيثَ بدأ الغزو الإسلامي منذ القرن السابع للميلاد بالتوسع والانتشار خارج الجزيرة العربيّة فارضاً معهُ نظاماً جديداً على المسيحيّين واليهود والوثنيين في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. بالتالي أدى الغزو العربي إلى إخضاع السكّان الأصليين لتلك البلاد والسيطرة على أراضيهم ومصادرة أموالهم وثرواتهم.

بالتالي أصبحَ اليهودُ والمسيحيّون والمندائيون يعيشون تحت منزلةِ أهل الذمّة في ظل العهدة العُمريّة لعُمر بن الخطّاب، فيما كانت هذه العُهدةُ نموذجاً يتشابهُ إلى حد كبير مع القوانين البيزنطيّة الرومانيّة [17]. ومصطلحُ أهل الذمّة يُعني "تحتَ الحمايَة"، ويعودُ أصلُ مصطلح أهل الذمة إلى القرآن، إلا انه تم تعديل هذا المصطلح لاحَقاً ليحملَ معنىً مُحدداً في الفقهِ الإسلاميّ. فعلياً فإن كونكَ ذمّياً لا يَعني أنك تحظى بامتيازاتٍ مُعيّنة، بل يَعني أنك كشخصٍ ذمّي موحّد لله يجبُ عليكَ أن تُخوّلَ الحكومةَ الإسلاميّة بالقيام بالدفاع عنكَ وبحمايتكَ مُقابلَ قيامكَ بدفع "ضريبة" معينة مقابل هذه الحماية، لكن السؤالَ الذي يطرحُ نفسهُ هُنا: الحمايةُ مِمّن؟

يؤكّدُ المؤرّخُ داريو فرناندیز موريرا في هذا السياق بأن مفهوم أهل الذمّة والأساس الذي قام عليه هذا المَفهومُ كان يشبهُ نظام الأتاوة التي كانت تفرضُها العصاباتُ على الناس كنوع من الابتزاز مُقابلَ الحماية، حيثُ كانت تَصبُّ هذه الأتاوات والمبالغُ الماليّة التي كانت تؤخذُ من أهل الذمّة في جيوب الحكّام المسلمين آنذاك [18].

وقد كان من المهمّ بالنسبة للمسلمين تذكير غيرُ المسلمين مراراً وتِكراراً بأنهُم الطرفُ المهزوم بحسب مفهوم الجهاد، فعلى سبيلِ المثال لا الحصر، كان يتوجّبُ على غير المُسلمين التنحّي جانباً عندما يقابلهُم المارة من المسلمينَ في الشوارع، كما كان يتوجّبُ على غير المُسلمين ارتداءُ ملابس خاصة تحملُ شاراتٍ مُعيّنة مثلَ الرّقعة الصفراء، والتي أصبح إلصاقُها بملابس اليهودِ أمراً إلزاميّاً في عهد الخليفة المتوكّل [19]، وهي بالمناسبة الرّقعةُ نفسها التي كانت تُلصقُ بملابس اليهود في القرن السادس عَشَر في غيتوهات الاعتقال في مدينة البُندقيّة الإيطاليّة، وهو أيضاً السلوكُ نفسهُ الذي اتّبعه النازيّون عندما ألصقوا نجمةَ داوودَ الصفراءَ بملابس اليهود لتمييزهم عن غير اليهود. أضِف إلى ذلكَ أنه كانَ يُمنعُ على الكُنُسِ وبيوت غير المسلمينَ أن تكون أكثر ارتفاعاً من بيوت المُسلمين، كما كان يُمنعُ غيرُ المسلم من الشّهادةِ ضدّ المُسلمِ في المحاكم، وكان مَحظوراً على غير المُسلمين ركوبُ الخيل أوالتّفاخر بأنفسهم بأي شكل من الأشكال.

في الوقت نفسه كانت الظروفُ المعيشيّة لليهود تحت الحُكم البيزنطيّ وحُكم مملكة القوط الغربيّينَ أسوءَ بكثير من ظروف المعيشة تحت الحُكم الإسلامي، مما دفعَ باليهودِ للوقوفِ في صفّ الغُزاة المُسلمين ضدّ هؤلاء. وقد اتّسمَ العربُ بالبراغماتيّة والواقعية خاصة في القرونِ الأولى لغزوهم لبلدان العالم، فيما كان عددَ العرب يفوقُ عدد الشعوب التي كان يتمّ غزوها، بالتالي لم يكُن العربُ يكترثون جداً بالحشود الكبيرة التي كانت تعتنقُ الإسلام من تلك الشعوب المهزومة، بل كان جلّ اهتمامهم ينصبّ على فرض ضريبة الجِزية على تلكَ الشعوب. [20]

أما فترةُ القرن التاسعُ للميلادِ فقد طغت عليها صفةُ التسامح، نظراً لأن العربَ الذين كانوا يحكمون تلكَ الشعوب قد أصبحوا أقليّة، خاصةَ بعد أن سيطرَ البرابرةُ وغيرُ العرب على الأراضي التي كان يحكمها المُسلمون في القرون الوسطى ناشرين معهُم الفوضى في كل مكان. لكن بطبيعة الحال ظلّ غيرُ المسلمين موالين لمن كان يحكمهُم وظلّوا يعيشون في تلكَ المُجتمعات بمنزلةٍ اجتماعيّة أدنى من منزلة حكّامهم بالطبع.

أما بغداد فقد كانت منارة للعلومِ والفلسفة والثقافة في عهد الدولة العباسيّة، وقد كانت تلك فترةً ذهبيّة للعلاقات الطيبة والمُثمرة بين المسلمين واليهود، الأمرُ الذي أدّى إلى مزيد من النموّ والازدهار في شتى المجالات. وقد أعادَ العربُ آنذاك الاعتبارَ لمَنصِب رأس الجالوت، وهوَ منصبٌ فخريّ يعني رئيس الطائفة اليهوديّة البابليّة، وظلّ منصبُ كبير الطائفةِ اليهوديّة البابليّة أمراً متداولاً حتى القرن الحادي عشر للميلاد، كما عومِلَ رأس الجالوت بقدرٍ كبيرٍ من الاحترام والتبجيل حينها.

وقد منحَ الغُزاةُ العربُ للشعوبِ التي عاشت تحت حُكمهم حُريّة ممارسة المِهن والحِرفِ، إلا أنّهم في الوقت نفسه قاموا باستغلالها لصالحهم باعتبارهم يُشكلون القوى العاملة في تلك البلدان، كما فتح المسلمون الباب على مصراعيه أمام اليهود للعمل في مجالات عديدة، لكن هذا لم يكن من باب حُبّ المسلمين لليهود، بل كان انطلاقاً من باب حاجة المُسلمين لهم في الأعمال التي لم يرغب المسلمون بالقيام بها أو التي لم يكُن باستطاعتهم القيام بها أصلاً.

وخلال فترة زمنيّة قصيرة تركَ اليهودُ بالإضافة إلى الأقليّات الأخرى مجالَ الزراعة بسبب الضرائبِ الباهظة التي كانت تُفرضُ عليهِم، وقد أدى تركُهم لمجال الزراعة إلى كونهم أصبحوا الدعامة للمجتمعِ في مجالاتٍ أخرى، فأصبحوا حِرَفيين وفنّانين وتُجّارَ وسماسرة. وقد عُرف عن اليهود بأنهم يتحدّثون العديد من اللغات، وهو ما كان سبباً في نشاطهم التجاريّ الواسع بين البُلدان، خاصة اليهود الرَّذنيّون، حيثُ عُرفَ اليهود بمثل هذا النشاط التجاريّ بين البُلدان قبل ظهور الإسلام وحتى قبل السبي البابليّ، فكان هذا نشاطهُم في تجارة الحرير منذ حُقبة الملك سليمان [21]. وقد عاش اليهود في منزلة أدنى من غيرهم، إلا أنهم ورغم الظروف المُهينة التي تعرّضوا لها شكّلوا مكوّناً أساسياً وفعّالاً في كل مُجتمع عاشوا به [22]، تماماً مثلما يَصفهُم أحدُ الأمثال المغربية الذي يقول: "السوقُ بلا يَهود كالطعام بلا مِلح"[23] .

وقد فرضت التشريعات الجائرة على غيرَ المُسلمين ظروفاً اقتصاديّة صعبة، ما جعلهم تحت ضغط اعتناق الإسلام من أجل تجنّب دفع ضريبة الجزية والضرائب الباهظة الأخرى التي أنهَكت كاهِلهم، فكان اعتناقُ الإسلام هوَ السبيل الوحيد لتقبّل غير المُسلمين واندماجهِم في المُجتمع الإسلامي. ولطالما كان يُنظرُ إلى الأمور من زاوية واحدة فقط: فالردّة عَن الإسلام كانت عقوبتها الموت، وكان يُسمحُ للرجال المسلمين بالزوّاج من غير المُسلمات ومن ثمّ إدخالهنّ في الإسلام، بينما كان العكسُ محظوراً تماماً. بالتالي فإن التفرّد الإسلامي في شتّى مناحي الحياة جعل من اليهود والمسيحيين وعبدة الأوثان أقلّيات سكانيّة بعد أن كانوا يشكلون الأغلبيّة السكانية في تلك المجتمعات، أما في شمال أفريقيا فقد اندثر التواجدُ اليهوديّ بشكل شبه كامل، وهُنا يدّعي البعضُ بأنه لولا "التسامحِ الإسلاميّ" لاندثرت الدياناتُ القديمةُ والطوائف والأقلّيات من غير المسلمين، لكن الواقع يقولُ بأنه على الرغم من عدم اندثار تلكَ الديانات والطوائف إلا أن أبناء ومتّبعي تلك الديانات قد واصلوا البقاء في تلك المجتمعات لكن بأعداد ضئيلة جداً.

وللأمانة التاريخيّة فقد كانت هناك فتراتٌ زمنيّة ازدهرَت فيها حياة اليهود، حيثُ كان تطبيقُ نظام أهل الذمّة مجرد حبر على ورق في غالبيّة الأحيان ولم يكُن يطبّقُ بحذافيره عليهِم، فكان اليهودُ والمسيحيّون يعملون كأطّباء على سبيل المثال لا الحصر، وهي مهنة كان يُمنع عليهم مُمارستُها في ظلّ الحُكم الإسلامي[24]، كذلكَ وعلى الرغم من عدم السماح لليهود بالتمتّع بأي نفوذ سياسيّ إلا أنّهُم كانوا يتقلّدون بعضَ المناصب الإدارية والحكوميّة في حال عدم وجودِ أشخاص مُسلمين يصلحونَ لمثل هذه المناصب [25]. وقد كانَ يتمّ توظيفُ اليهود في تلكَ المناصب لسببين: السببُ الأوّلُ هو هشاشةُ وضع الأقلّيات تحت الحُكم الإسلامي وعدم قدرتها على الاستقلال والاستغناء عن المُجتمع الإسلامي، والسبب الثاني هو هشاشةُ الأنظمة الإسلامية الحاكمة وعدم قدرتها على الاستغناء عن الأقلّيات من غير المُسلمين، فمثلاً كانت تلك الأنظمة بحاجة ماسة إلى الحرّاس الأتراك والعبيد السود والخِصيّ وغيرهِم [26].

كما كان محظوراً على اليهود حملُ السلاح، بالتالي وضعَ اليهودُ مسألة أمنهم وسلامتهم في أيدي الأنظمة الإسلاميّة الحاكمة لهُم مع بعض الاستثناءات طبعاً، مثلَ الجزء الذي سيطرَ عليه المسلمون من إسبانيا، حيثُ سُمِحَ لليهود هناك بحمل السلاح، كما سُمح لهم أيضاً بحمل السلاح في منطقة الريف الأمازيغيّ وجبال أطلس في المغرب، وسُمِح لهُم أيضاً بركوب الخيل وتم إعفاؤهُم من دفعِ الجزية، كما تمّ إعفاءُ اليهود الذين كانوا رقيقاً عندَ أسيادٍ مُسلمين من دفع الجزية [27].

أما يهودُ داغستان فقد كان لهُم احترامٌ وتقديرٌ خاصٌ من قِبلِ جيرانهم المُسلمين باعتبارهم مُحاربين شرسين، حيث عُرِفَ عن المُحاربينَ والجنودِ اليهود اصطحابهُم لأسلحتَهُم حتّى وهُم نائمون [28]، أمّا في القرن العشرينَ فلم يكُن الملكُ الأردنيّ الهاشميّ عبد الله الأوّل يثقُ سوى بحارس شخصيّ لهُ من الشَركَس بالإضافة إلى حارس شخصيّ آخرَ من مُحاربي قبيلة الحبّاني اليهوديّة التي تنحدرُ من منطقة جنوب اليمن [29]

وبشكل عام فإن أيّ حاكم مُسلم كان يُعاملُ اليهود معاملة حسنة وينظر إليهم بعقليّة مُنفتحة كان يتعرّضُ لأشد الانتقادات من قبل أبناءِ مُجتمعه الإسلاميّ المُتديّن، حيثُ تم وضعُ يهود مدينة فاس المغربيّة في غيتو خاص بهِم من أجل توفير الأمان لهُم سنة 1438م [30]. لقد كان من البديهيّ جداً أن يكون تجمّعُ اليهود وتركيز وجودهم في مناطق محدّدة ذات كثافة سكانيّة عالية واحداً من أهم الأسباب التي تجعلهُم مجتمعاً هشّاً وعُرضة للاعتداءات، بالتالي كانت تقعُ خسائر بشريّة فادحة عند تعرّضهم لموجات عنف من قبل الحشود الغاضبة من عامة الشعب. وبشكل عام فقد تمتّعَ اليهودُ بعدد محدود من الحقوق، كما كانوا في قاع السلّم الاجتماعي لتلك المُجتمعات.

وفي هذا السياق يُشبّهُ أحدُ مستشاري البنتاغون الأمريكي والخبير في الشؤون الإسلامية الأستاذ هارولد رود مُعاملة الإسلام لليهودِ ووصفهم بـ"أهل الذمّة" بصورة واحد من أسواق رَوْثِ الحيوانات الموجودة في مدينة أصفهان وسط إيران. يقول هارولد في هذا التشبيه: "هنالكَ أنواعٌ عديدةٌ من رَوْثِ الحيوانات المتوافرة للبيع في هذا السوق، يختلفُ كل نوع منها في مدى جودته والغرض من استعماله، هنالك أصنافٌ ومراتبُ لهذا الرَّوْث، لكن أياً كان الاختلاف بين تلكَ الأنواع فإنّ رَوْثَ الحيواناتِ يظلّ بنهايةِ المَطافِ رَوْثاً. هذه الصورة تصِفُ إلى حدٍ ما كيفَ عوملَ غيرُ المُسلمين في العالم الإسلاميّ، ولربّما يكون تعاملُ العالم المسيحيّ أقل سوءاً مع غير المُسلمين، إلا أنّ غيرَ المُسلمين كان يُنظرُ إليهم على أنّهُم أقلّ منزلة وأدنى قيمةً من المُسلمين"[31].

وإضافة إلى النظرة الدونيّة التي كان يُنظرُ بها إلى اليهود استناداً لفكرة أهل الذمة، فقد كان هنالك هَوَسٌ من قِبَلِ المسلمين الشيعةُ يتعلقُ بمدى الطهارة الدينية لليهود، فكان الشيعةُ ينظرونَ إلى اليهودِ على أنّهُم "نَجَس" لا يتمتّعون بأي طهارة.

وبشكل عام، عندما كانت الأجواء العامةُ هادئة في المُجتمعات كان الجميعُ مستفيداً، أي الحاكم والمحكوم، ففي كثير من الأحيان كان التزام الحاكم بحماية الأقليات التي تعيشُ تحت حُكمه مصدراً لتعزيز شرعيّةِ حُكمه. أما عندما كانت تتعكّرُ الأجواءُ فقد كانت تسوء أوضاع الأقلّيات لدرجة فظيعة، لأن حياة الأقلّيات لم تكُن مُستقرة وكانت محفوفة بالمخاطر مراراً وتكراراً، خاصةً في الأوقات التي كانت تسودها الاضطرابات والمشاكل وعدم الاستقرار.

وعلى الرغم من أن إجلاء الأقليات ونفيهم من مَواطنهم لم يكُن أمراً شائعاً آنذاك، إلا أن المذابحَ والمجازرَ كانت تُرتكبُ بحق الأقلّيات في الأوقات التي كانت تشهدُ ظروفاً عصيبة، مثلَ ضعف النظام الحاكمِ أو وجودَ فراغ سياسيّ، إضافة إلى فترات الجفاف والمجاعات وحتى الأوقات التي كانت تشهدُ ظروفاً اقتصاديّة غير مُستقرة، أُضف إلى ذلك الأوقات التي كانت تَفرضُ فيها الحكومات مزيداً من الضرائب الباهظة على مواطنيها بهدف تغطية تكاليف حروبها مع الدول الأخرى.

وفي مناطق اليمن وكردستان وأراضي الأمازيغ - البَربَر- في المغرب كان لليهود منزلة خاصة كانوا بموجبها تحت حماية قبائل تلك البُلدان، وكان هذا انطلاقاً من مبدأ أن حمايةَ المُستضعفين هو أمرٌ مُرتبطٌ بشرف رجالِ القبيلةِ، بالتالي فإن حماية اليهود كانت بمثابة واجب عليهم. أما في القرن التاسع عشرَ فقد اتّسمَت طبيعة العلاقة بين المُسلمين والرقيق اليهود بالإقطاعيّة، فكانت بمثابة كعلاقة المالك بالمَملوك، خاصّة في منطقة البَربَر في المغرب والتي كان يسودها حالة من الفوضى وانعدام القوانين [32]. لقد كان اليهودُ بمثابةِ عبيدٍ لسادة القبائلِ وكانوا بالكادِ يتلقّون أي أجر مُقابل عملهِم [33]، أما في منطقة طرابلس كان اليهود رقيقاً يتمّ توريثهُم من شخص لآخر بعد وفاة أسيادهم [34]، فيما كان يقومُ بعضُ الأسياد ببيع اليهود أو إعطائهِم لأسياد آخرين وكأنهُم هدايا أو سِلعٌ يتبادلونها بين بعضهم البعض. في الواقع فإن وجودَ عدد كبير من النساء اليهوديات اللواتي يعود نسبهّن إلى جدّاتٍ كُرديات يُثبتُ حقيقةَ بيع البناتِ والنساء اليهوديّات بل وحتى قيام البعض باختطافهنّ وسَبيهنّ [35].

عوامل تشكّل الديانة اليهودية

يمتازُ اليهودُ بأنهم شعبٌ استثنائيّ بالمقارنة مع العديد من الشعوب البشرية الأخرى، فهُم يمثّلون واحداً من الشعوبِ القليلةِ جداً التي حافَظَت على هويّتها ولغتها الأم منذ الأزَل. وعلى الرغّم من أنّ التواجد اليهوديّ لم ينقطع في فلسطين، خاصة في مدينة أورشليم القدس والخليل وصَفَد وطبريّا، إلا أنّ عودةَ اليهود الجماعيّة من أكثر من مئة وعشرين دولة من دول العالم إلى أرض آبائهم وأجدادهِم في إسرائيل كان حدثاً مميزاً ومحورياً جداً في التاريخ اليهوديّ، فعلى الرغم من شتات اليهود في كافة بقاع العالمِ وبُعد المسافة بين المُجتمعات اليهوديّة في الشتات إلا أنهم نجحوا في الحفاظِ على قدر من الاتّصال والتواصلٍ مع بعضهم البعض من جهة، ومع اليهود في إيرتسيسرائيل - أي أرض إسرائيل باللغة العبرية – من جهة أخرى. إن التاريخ اليهوديّ حافلٌ بالأمثلة التي تُظهرُ كيف أنه عندما يتعرّضُ اليهودُ في بقعة معيّنة من العالم للاضطهاد والظلم فإن اليهودَ في أماكن أخرى من العالم يهُبّون لنجدة إخوتهم والوقوف بجانبِهم على الفور.

لقد كانت حياةُ اليهود تحت حكم المُسلمين عاملاً من عواملِ تشكّلِ اليهوديّة التي نراها اليوم، وعلى الرغم من وجود بعض الاستثناءات إلا أنّ التلمود البابليّ كان مَحطّ إجماع كبير لدى الغالبية العُظمى من اليهود باعتباره رابطاً يجمعُ بينهم ويُلزمهم بتشريعاته، هذا التلمودُ البابليّ الذي يعودُ زمنُ كتابته إلى فترة الحضارة البابليّة في العراق. كما أن التقاليدَ اليهوديّة المُعاصرة تتبعُ ما جاءَ بهِ التلمودُ البابليّ، نظراً لأن بابل كانَت مَعقِلاً روحيّاً ودينيّاً للديانة اليهوديّة لفترة زمنية طويلة امتدَّت لعدة قُرون.

ومع نهاية القرنِ التاسع عشرَ للميلاد ظهرَت مراكزُ ومعاقلُ أخرى للديانة اليهوديّة مثل أورشليم القُدس والفُسطاط وقرطبة، أما في شمال أفريقيا فكانت مدينة القيروان في تونس معقلاً هامّاً من معاقلِ العلم والثقافةِ اليهوديّة التلموديّة في القرون الوُسطى، وظلّت كذلكَ إلى أن حوّلها الأُصوليون المُسلمون إلى مدينة مقدّسة للمسلمين، فقاموا بمنع اليهودِ من التواجد فيها نهائيّاً.

أما في إيرتسيسرائيل - أرض إسرائيل - فقد كانت غالبيّة السكان اليهود هناك من اليهودِ الشرقيّين والسفرديّين، باستثناء قرابة ثلاثمئة حاخام أشكنازيّ ممن وصلوا إلى أرض إسرائيل بين سنتي 1210م – 1211م قادمين من فرنسا وإنجلترا بهدف العمل على إعادة تنظيم الحياة في مدينة عكّا، وذلكَ حتى تتلاءم مع طبيعة الحياةِ الدينية اليهوديّة بعدَ الدمار والفساد الذي حلّ بها نتيجة للغزو الصليبيّ آنذاك. أما المُجتمعات اليهوديّة التي تواجدَت في كلّ من طبريّا وصفد فقد تم إحياؤها مجدّداً تحت حُكم العثمانيّين في القرنِ السادس عشر للميلاد، وقد ظلّت تلك المُجتمعاتُ تابعةً لسلطة ومذهب الحاخاميّة السَّفَرديّةالتي تتبع الهالاخاه السَّفَرديّة[36]- الهالاخاه باللغة العِبرية تعني المذهب والشريعة -.

وقد كان هنالك عددٌ من المفكّرين اليهود السفرديّين ممّن كانوا روّاداً للفِكر "الصهيوني"، حيث حملوا الفِكر الصهيونيّ قبلَ ظهور الحركة الصهيونيّة في شرق وغرب أوروبا، فكان منهُم المُفكّر جوزيف ليڤي من مدينة أدرنة في تركيا، والحاخام يهودَا بيباس الذي عاش في منطقة جبل طارِق، والمفكّر ماركو باروخ من صوفيا البلغاريّة، والحاخام يهودَا الكالاي من سراييفو وغيرهِم [37].

وينتمي اليهودَ الشرقيّون إلى مجتمعاتٍ شرق أوسطيّةٍ عريقةٍ كانت موجودة قبلَ الغزو العربيّ لتلكَ المنطقة لفترة زمنية تمتدّ لِألفِ سنة وربّما أكثر، إلا أن خُصومَ إسرائيل وأعداءها قد اعتادوا على إنكار مسألة تأصّل اليهودِ في المُجتمعاتِ الشرقيّة وإنكار جذورهُم الضاربة في عُمق الشّرق الأوسط وشمال أفريقيا لفترة زمنيّة جاوزَت الألفي عام، مُتأثرينَ بما تنشرهُ وسائلُ الإعلام الغربيّة من مُحتوى تحريضيّ ضدّ اليهود.

واليهودُ فعلياً هُم شعبٌ شرقُ أوسَطيّ وشمال أفريقيّ قبلَ أن يتمّ "تعريبُهُم" برفقةِ عدد آخر من الشعوبِ الأصلية لهذه المناطق، والتعريبُ المقصودُ به هُنا هو فرضُ اللغة العربيّة والثقافة العربيّة على تلكَ الشعوب. لكن وعلى الرغم من حقيقة تواجد هذه الشعوبِ الأصيلة قبل وجودِ العرب إلا أن العربَ هُم من يدّعون بأنهم السكّان الأصليّون لفلسطينَ منذً الأزل. ومع الأسف فإن فكرةَ وجود العرب قبلَ اليهودِ على هذه الأرض تنتشرُ كالنار في الهشيمِ رغم أنها فكرة خاطئة تماماً، فعلى سبيل المثال لا الحصر وصفَ الإعلام الفرنسيّ كنيس جِربَة العريقة بأنها "مُستوطنةٌ يهوديّة" عندما وقعَ فيها هجومٌ إرهابي سنة 2002م، على الرغم من أن وجودَ اليهود في جزيرةِ جِربَة قد سبقَ وجودَ العربَ بألفِ سنة على الأقَل [38].

لقد تعرّضَ اليهودُ في الحقيقة لعمليّة صَهر ثقافيّ ولُغَويّ في المُجتمعات العربيّة والإسلاميّة، وهذا ما وصفهُ المؤرّخُ برنارد لِويس عندما تحدّثَ عن التقاليد اليهوديّة والإسلاميّة، وبالنسبة للعصر الذهبيّ لازدهار الثقافة اليهوديّة في مجالات الفلسفة والشعر خلال فترة القرون الوسطى في إسبانيا - أو كما سميّت حينها بالأندلس - فإنه لم يكُن إلا نتيجةَ لتراكم الموروث الثقافيّ القديم والمأخوذ من عدة حُقب ذهبيّة سابقة ساهم فيها مفكّرون يهود كبارَ مثل حَسداي بن شَبروت، وسليمان بن غَبيرول، ويهودا اللاوي وصمويل هانجيد، إضافة إلى الفيلسوف اليهوديّ الكبير موسى بن ميمون. لقد كان لهؤلاء الفلاسفة والمفكرين إسهامات ثقافيّة وروحيّة بارزة، وقد كانت إسهاماتهم بمثابة التربة الخصبة التي أدّت لنبوغ العديد من علماء الجغرافيا والمساحة والرياضيات من اليهود لاحقاً [39].

لقد كان الطبيبُ والفيلسوفُ موسى بن ميمون الطبيبَ الخاصّ لصلاح الدين الأيوبي في مصر، فيما كانت المكانة المرموقة التي وصلها موسى بن ميمون دليلاً واضحاً على إمكانيّة وصول اليهود لمناصب عُليا في ظل الحكم الإسلامي، لكن في الوقت نفسه فإن أمن وسلامة المُجتمع اليهوديّ بأكمله كان يرتبط بسلوك وتصرّف من يتقلّدون تلك المناصب من اليهود، فعلى سبيل المثال، لو قام أي شخص يهوديّ بتسميم سيّده المُسلم فهذا يعني إنزال العقاب الجماعيّ باليهود، وبأنهم جميعاً سيدفعون الثمن عبر ارتكاب للمجازر بحقّهم كنوع من "ردّة الفعل"، وهذا هو السببُ الوحيدُ الذي كان يدفعُ بالحكّام المسلمين للثقة باليهود عند منحهم مثل هذه المناصب العُليا.

وقد تعرّض اليهودُ خلال فترات زمنية مختلفة ومناطق مختلفة من شبه جزيرة أيبيريا - بما فيها مسقطُ رأس موسى بن ميمون - للظلم والاضطهاد عندما كانت هنالك دول إسلامية ومسيحية امتدّ حُكمها لعدة قرون هناك، فكان المسلمون يضطّهدون اليهود بينما يوفّر لهُم المسيحيون الملاذ الآمنَ من ذلك الاضطهاد[40]. أما القرن الثالث عشر وأثناء حُكم المغول فقد تم التخلّص من نظام أهل الذمة، إلا أن المغول قاموا بقتل عشرات من الآلاف وربّما الملايين من البشر آنذاك، وليسَ من الواضح حتى الآن كيف نجا اليهودُ بأرواحهم خلال تلك الحقبة الزمنية المُظلمة.

كما حلَّت اللغةُ العربية مكانَ اللغات المحلّية، وتم استبدال أسماء المناطق التي سيطرَ عليها العرب بأسماء عربية، فأصبحَت لغةَ التواصل بين سكّان تلك المناطق، في الوقت نفسهِ حافظَت بعضُ المجموعات من السكان الأصليّين على لغتهم الأم وثقافتهم وهويّتهم اللغوية على الرغم من سيطرة اللغة العربية، حيث تشبّثَ الأكراد - قرابة ثلاثين مليون كرديّ - بلغتهِم الأمّ، إضافة إلى الأمازيغ الذين يحاولون بكل ما أوتوا من قوّة الحفاظَ على لغتهم الأم والتمسّكَ بهويّتهم الثقافية واللغويّة في كلّ منَ الجزائر والمغرب. في الوقتِ نفسه لم تحلّ اللغة العربيّة مكانَ اللغتين الفارسيّة والتركيّة في المناطق التي سيطر عليها العرب في جبال بلاد فارس وتركيا.

وبالنسبة للأمازيغ فقد تكون الطبيعةُ القاسيّة لمنطقة جبال البربر سبباً من أسباب الحِفاظ على اللغة الأمازيغيّة، وحتى فترة ليست بالبعيدة كان اليهودُ الذين عاشوا في المناطق الجبليّة شبه المعزولة يتحدّثون باللغةِ الآراميّة [41]، كما تحدّثوا بعدة لُغات حتّى عندما كانت اللغة العربيّة لغتهُم الأم، فكانَت اللغةُ العبريّة - على سبيل المثال - هي اللغةَ الدينيّة لصلواتهم، فيما كانت اللغة العربيّة والتركيّة واللغات الأوروبيّة تُدرّسُ في مدارس الاتّحاد العالميّ للمدارسِ الإسرائيليّة (اليانس) حتى سقوط الدولة العثمانية.

كما وكان يتحدّثُ اليهودُ في الدول العربية لغات أخرى قبلَ هيمنة اللغةِ العربيّة عليها، فمثلاً تحدّثوا في العراق بلهجة يُلفظُ فيها حرف القاف كما يلفظ بالفصحى (قُلتُ)، وهي لهجة بغدادية عراقية سبَقَت الغزوَ المغوليّ مقارنة بلفظ الكاف (گ)
(گلتُ = قلتُ) التي كانت لهجة القبائل البدويّة التي انتقلَت للحياة من الصحراءَ إلى المُدُن. بالتالي فقد غَلَبَت صفةُ التلقائيّة على اللهجات التي تحدّثَت بها كل طائفة، فكانَت كل طائفة تطوّر وتُنمّي لهجة خاصّة بها تميّزها عن الطوائف والمُجتمعاتِ الأخرى. وبالنسبة للّهجات العربيّة التي تحدّثَ بها اليهودُ فقد كانت زاخرةً بالمفرداتِ العبريّة والتركيّة والفارسيّة، فيما تأثّرَت بالمفردات الفرنسيّة والإنجليزية وعدد آخر من اللغات الأوروبيّة، وكانت تستعملُ الحروف والرموز العبريّة كلغة للكتابة.

لقد تمكّن عدد محدودٌ من اليهود من الوصول إلى مناصب عُليا مثل مستشاري السلاطين، الأمرُ الذي منحهُم نوعاً من الحماية، كما وتمكّن عددٌ من اليهودِ السفرديّين خلال القرون القليلة المُنصرمة من لعب دور الوساطة بين السلاطين والقوى والدول الأوروبيّة نتيجة للعلاقات الواسعة التي تمتّع بها اليهودُ خلال عملهم في التجارة، هذا بالإضافة إلى معرفتهم الواسعة وقدرتهِم على التحدّث بعدّة لغات أجنبيّة.

وقد كان لسقوط الدولةِ العثمانيّة دورٌ كبير في الحدّ من الاستبداد والاضطهاد الذي تعرّضَت له الأقليات غيرُ المسلمة من قِبل المسلمين، تلكَ الأقلّيات التي تمتعت بقدر أكثرَ من الحماية بعد سقوط الحكم العثمانيّ القائم على نظام المِلل الذي كان ينظرُ إلى المِللِ والأقليات نظرة دونية باعتبارهِم من أهل الذمة. وفي هذا السياق يوجّهُ مناهضو الصهيونيّة اللومَ للحركة الصهيونيّة باعتبارها خلَقَت نظاماً للتفرقة بين اليهودِ والعربِ، لكن الواقع يقول بأن مثل هذا الوصفَ ينطبقُ على فترة حكم العثمانيين جملة وتفصيلاً، فالسكان في ظل حكم الدولة العثمانيّة كانوا يُعرّفون أنفسهم على انّهم رعايا يتبعون للدولة العثمانية لكنهم ينتمون لمجتمعٍ دينيّ مُحدّد، إما مسلمين أو يهود أو مسيحيين.

وقبلَ ظهور فكرة القوميّة كان يسودُ كل مُجتمع من تلك المُجتمعات الدينيّة نوعٌ من الحُكم الذاتي، فكان للمُجتمع اليهوديّ حاخام كبير كان يُطلقُ عليه حاخام باشي، وكانت هنالك محاكم دينية يهودية أطلِقَ عليها "بيت الدين" وتختص بالقضايا الدينية والشرعية اليهودية، فيما كان يتزوّج اليهودِ من بعضهِم البعض فقط ونادراً ما كانت تحدثُ حالات اعتناق للدين الإسلاميّ بشكلٍ طوعيّ في المُجتمع اليهوديّ.

لقد كانت المُجتمعات الدينيّة منفصلة عن بعضها البعض، لكن كان المسلمون واليهودُ يختلطون ببعضهم البعض في مواقع العمل، وفي بعض المناطق مثل شمال أفريقيا وبلاد فارس كان يعيش اليهود في غيتوهات مُغلقة خاصة بهم. وما كان يميّز المُجتمع اليهوديّ في كل بلد هو شعورُهم بالانتماء لجماعة عِرقيّة استثنائية كبيرة وهي الأمة اليهودية، والتي كان يتم وصفُها عادة في فترة الاستعمار بالأمة الإسرائيليّة، حيثُ كانت هنالك روابط وثيقة تجمعُ أبناء هذه الأمة في كل مكان، مثل الثقافة واللغة واللهجات المُشتركة إضافة إلى الأخلاقيّات والقيم والتقاليد والمناسبات التي تربطُهم ببعضهم البعض أينما تواجدوا.

تعدّديّة بدون احترام لمبدأ التعدّديّة

يقولُ القوميّ السوريّ المعروف بمواقفه القومية العربيّة المُتشدّدة ساطع الحصري في تَصريح منسوبٍ إليه مطلع القرن العشرين بأن "كل من يتحدّثُ اللغة العربيّة فهوَ عربيّ"، فأصبحت مقولته هذه بمثابة ركن من أركان العقيدة التي حملها القوميّون العرب [42]، أما ميشيل عَفلق (1910م – 1989م) الذي يُعتبرُ واحداً من أبرز تلاميذ ساطع الحصري ومؤسس حزب البعث الاشتراكي العربيّ فقد دعا إلى استخدام أقصى درجات القسوة والعنف والوحشيّة في التعامل مع مُتحدّثي اللغة العربيّة الذي يرفضونَ الانصياع والتعاطي مع منظورهِ الشموليّ للهويّة العربيّة وفكرة القوميّة التي ترتكزُ عليها تلك الهوية.

لقد كانت محاولة القوميّين العرب في مُختلف دول العالم العربيّ لتزييفِ بل واختلاقِ هويّة للأمّة العربيّة قائمة على اللغة التي يتكلمُ بها العربُ كارثة حقيقية بكل المقاييس، حيث كان يطمحُ القوميّون العربُ إلى تأسيس أمّة قائمة على تعدّديّة هشّة تتضمنُ عدداً من المجموعاتِ الإثنيّة والدينيّة التي كان من المفترض أن تتعايشَ مع بعضها البعض في ممالك وإمبراطوريات متعدّدة الأعراق، ما جعلَ من منطقة الشرقِ الأوسط وشمال أفريقيا مكاناً لا يحترمُ مبدأ وفكرة التعدّدية على الرغم من التعدّد السكانيّ والدينيّ والثقافي لساكنيه.

وعلى الرغم من وضع الأقلّيات غير المسلمة في صدارة المشروعِ القوميّ العربيّ إلا أنّ الارتباط الوثيق بين الديانةِ الإسلاميّة والقوميّة العربيّة كان أحد أهم الأسباب التي أدّت إلى إقصاء الأقلّيات غير المُسلمة بشكل كلّي من هذا المشروع، باعتبار الإسلام حجرَ الأساس لمشروعِ القوميّة العربيّة وباعتباره أيضاً مصدر التشريعاتِ الدستوريّة في الدول العربيّة، بالتالي كانت مسألة استيعاب المسيحيّين واليهودِ في العالم العربيّ واحدة من أكبر العقبات أمام هذا المشروع، أولئك المسيحيون واليهود الذين طالما اعتبروا أنفسهم مواطنينيدينون بالولاء والإخلاص لتلك الدول، بالتالي انتهى المطاف ببعض الشخصيّات القياديّة القوميّة المسيحيّة البارزة مثل ميشيل عَفلق باعتناق الإسلام.

وقد تحطّمَت طموحات تحقيق القوميّة العربيّة بعد فشل الرئيس المصريّ الراحل جمال عبد الناصر في خلق وحدة عربيّة مزيّفة من خلال تأسيس الجمهورية العربيّة المتحدة بين مصر وسوريا، خاصة بعد الهزيمة التي تعرَضَت لها الجيوش العربيّة على يد إسرائيل سنة 1967م. في الوقتِ نفسِه تمت الإطاحة بالنُّخب الغربيّة العلمانيّة المثقّفة، بالتالي خسرَت علاقاتها مع القوى الاستعمارية الغربيّة، الأمرُ الذي أدّى إلى ظهور الإسلام السياسيّ كبديل لمشروع القوميّة العربيّة جالباً هويّة دينيّة بحتة تقوم على شِعار "ربّ واحِد، خليفةٌ واحِد، أمّة واحِدة". لقد حاولَ الإسلام السياسيّ ترسيخَ هذا الشعار بين العرب باعتباره - حسب زعمهِم - سبباً لتذليل جميع العقباتِ أمام الطوباويةِ (اليوتوبيا) الإسلاميّة وطموحات الأمة العربية [43].

وبجميع الأحوال، فإن الدين الإسلامي ينظرُ إلى ذاته باعتباره خاتم الأديان السماويّة، بالتالي يجبُ تذكيرُ غيرِ المُسلمين مراراً وتكراراً بان الظلم الواقع عليهم والإذلال الذي يتعرّضون لهُ سببهُما عدم اتباعهم وانصياعهم لدين الحق، أي الدين الإسلامي، على الرغمِ من أن الإسلام يُعتبرُ في الحقيقة بمثابة الأخ الأصغر للديانة اليهوديّة، وأن كلا الديانتين تمتلكان شعائرَ وتقاليد دينية متقاربة إلى حد كبير، مثل الصلاةِ والزكاة والتشريعات التي تُحدّد الأطعمة المُحلّل تناولها والأمور الواجب اتباعها عند ذبحِ الحيوانات وعندَ دفن الموتى وغيرها من القواسم المشتركة، أضِف إلى هذا كلّه أن الديانة الإسلاميّة لا تنظرُ لليهود على أنهُم قتلةُ عيسى المسيح، خلافاً للنظرةِ الدينيّة التي تنظرُ بها المسيحيّة لليهود.

وإلى جانب العديدِ من الأمور المُشتركة بين الديانتين الإسلامية واليهودية، فإنه يوجدُ تداخلٌ لغويّ وثقافيّ إلى حد كبير بين الديانتين، وهنالكَ بعضُ الوثائق المقدّسة القديمة الموجودةِ في مخزن جنيزاوالتي عُثِر عليها في علّيّة كنيسٍ يهوديّ بِالقاهرة والتي توضّح كيف كانَت العلاقة الإسلاميّة اليهوديّة طيّبة ومُثمرة خلال فترة القرون الوُسطى [44]. يقولُ أحدُ الباحثين في هذا السيّاق بأنّ "اليهودَ والمُسلمين قد عاشوا حالة من التقاربِ لفترة زمنية طويلة، لدرجة وصلَت بهِم إلى حدِ تشاركهِم بيئةً روحيّة ودينيّة واحِدة على الرغم من المعرفة المحدودة نسبياً التي كان يمتلكّها كلّ منهُم عن الآخر ومعتقداته وسلوكيّاته" [45].

أما في تونس والجزائر، ومن باب الاحترام للديانة اليهوديّة، فقد كان وجهاءُ وأعيانُ المُسلمين يَحضرون الشعائرَ الدينيّة اليهوديّة التي كانت تقامُ في الكُنُس خلال عيد الأسابيع - عيد الشفُوعوت -، حيثُ كانوا يستمعونَ لتفاسير سعديا چؤونللوصايا العشرةِ باللغةِ العربيّة [46]. وكنوع من التضامن والتكافلِ الاجتماعيّ والثقافيّ بين أبناء الديانتين فانه بالكاد كانت تقام الأضرحةُ والمقاماتُ الدينيّة اليهوديّة في أي مكان كان يُعتقدُ انه مكانٌ مُقدّسٌ لدى المُسلمين، حيثُ بلغَ عددُ الأضرحة والمقامات والقبور التي كانت محطّ احترام وتبجيل لدى كلا المسلمين واليهود في منطقة شمال أفريقيا واحداً وثلاثين مقاماً وضريحاً.

وبجميع الأحوال فإن الاعتقادَ القائم على أن الإسلام هو خاتمُ الأديان السمّاويّة وآخرها قد جعل من الإسلام ديانة تنظرُ بفوقيّة تحتقرُ الأديان الأخرى، مما جعلها بمثابة "المُستَعمِر" للمواقع الدينيّة اليهوديّة عبر الادعاء بأنها أماكن دينيّة إسلاميّة في الأصل قبل أن تكون يهوديّة، بل وصلَ الأمرُ لدرجة إنكارِ أي صِلة يهوديّة بتلكَ المواقع، وهذا طبعاً كان يحدثُ بتواطؤ مع بعض المنظمات الدوليّة مثل منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم - اليونيسكو- [47]، والأمثلة زاخرة وعديدة على مثل هذا السطو على المواقع الدينيّة اليهودية، فمغارة المكفيله - المعروف قبرُ الآباء في مدينة الخليل- أصبحَت تُعرفُ بالنسبة للمسلمين تُعرف باسم الحرمِ الإبراهيميّ، أما قبرُ راحيل فقد أطلق عليه المسلمون مسجدِ بلال بن رباح، وجبلُ الهيكل في القدس أصبحُ يُعرفُ بالحرم الشريف، وهذه كانت السياسةَ نفسُها التي اتّبعها المُسلمون فيما يتعلّقُ بالأماكن الدينية المسيحيّة والزرادشتيّة والهندوسيّة على حدٍ سواء.

التاريخُ اليهوديّ في العراق

لا يقلّ التاريخ اليهوديّ في العراق - أو المنطقة الذي تُعرفُ توراتيّاً ببلاد الرافدين - أهميّة عن التاريخ اليهوديّ في أرض إسرائيل، ففي أرض العراق توصّل إبراهيم إلى حقيقة وجودَ الله الواحِد، إنها الصحراءُ ذات الرافدين التي عبرها أنبياءُ إسرائيل مثل عِزرا ونِحميا ونِحوم ويونان (أو يونُس) وحسقيل، أما إيران المُجاورةُ للعراق فهيَ غنيّة بالأضرحة والمقامات والقبورِ اليهوديّة مثل قبرِ النبيّ حبقوق والنبيّ دانيال إضافة إلى قبر إستِر ومُردخاي وغيرهم من الشخصيات التوراتيّة البارزة في التاريخ اليهوديّ.

أما أكثر هذه المقامات أهمية بالنسبةِ ليهودِ العراق فهوَ مقامُ النبيّ حسقيل الموجود في بلدة الكِفل والتي تقعُ على بُعد ساعتينِ تقريباً باتجاه جنوب بغداد. وقد تحدّثتُ عن هذا المقام في بداية هذا الفصل، لكنني أودّ العودة للحديث قليلاً عن قصته، كون قصة هذا المقام تبدو في ظاهِرها وكأنها قصّة "تراث يهوديّ إسلاميّ مُشترك"[48]، لكنّها في الحقيقة قصّةُ صراع تاريخيّ مرير على السيطرة على هذا المقام.

يتمتّع الكنيس اليهوديّ الموجود في مقام النبي حسقيل بأهميّة بكبيرة لدى اليهود باعتبارهِ رمزاً لهويّتهِم القوميّة تحت حُكم العباسيّين، خاصة بعد أن توحّدَ جميع يهود العالم الإسلاميّ تحت قيادة يهود بابل في العراق، لكن هذه الأهميّة الكبيرةَ التي يَحظى بها هذا المقام بالنسبة لليهود قد جذبت انتباه المُسلمين إليه، الأمر الذي وَلّد لديهم شعوراً بالغيرة، فكانَ بعضُ الكتّاب المُسلمين آنذاك يدّعون بأن أهميّة مقام النبيّ حسقيل بالنسبة للمسلمين نابعة من خلال علاقته بشخصيّة جدليّة غامضة مذكورة في القرآن تُدعى ذو الكِفل.

وخلال فترة حُكم الملك المغوليّ مُحمد أولجياتو في القرن الرابعِ عشرَ للميلاد قامَ المسلمونَ بالسيطرةِ على الكنيس الموجود في مقامِ النبيّ حسقيل وتحويلهِ إلى مُصلّى، فيما شرَع مُحمد أولجياتو ببناء مسجد في المقام خلال وقت لاحق، إلا أنّ هذا المَسجد قد اندثَرَ بعد أن غمرتهُ مياه الفيضانات ولم يتبقّ منهُ سوى المنارة [49]. ولخمسة قرون لاحقة لم يكُن هنالك أي ذِكر للكنيس الذي كان موجوداً في المقام نتيجةً لوقوع المقام والساحات المُحيطة به تحت سيطرة المسلمين.

كذلك لم تكن تلكَ المحاولة الأولى ولا الأخيرة للسيطرة على المقام من قبل المسلمين، فحاولوا مراراً وتِكراراً تحويل الساحات المُحيطة بالمقام إلى مسجد بعد أن هُدِم نتيجة للفيضانات سنة 1778م، فيما كان يُمنعُ اليهودُ من مجرّد المرور من تلكَ الساحات حتى عشرينيّات القرنِ التاسع عشر. وقد قام المُسلمونَ مؤخراً بإقامة مسجد النخيلة في الساحات الخارجية للمقام.

نجحَ اليهودُ بإعادة السيطرة على الكنيس المُجاور لمقام النبيّ حسقيل خلال أربعينيّات القرن التاسع عشر[50]، وخلال تلكَ الفترة فَرَضت الحكومة العثمانيّة التركيّة على اليهود مبالغ مالية من أجل إعادة ترميم الساحات الخارجيّة للمقام. وعلى الرغم من الاحتجاجات الشيعيّة المُتواصلةِ وسيطرتهِم على جميع أنحاء المقام، إلا أن اليهود استغلّوا فرصة قيامهم بأعمال الترميم لإزالة الرموز الإسلامية الموجودة في المُصلّى وأعادوه إلى ما كان عليه في السابقِ ككنيسٍ يهوديّ.

لاحقاً قام الأتراك بطرد الشيعة من المقام وسمحوا لليهود بإقامة بنايات إضافية في المقام، حيثَ يدّعي الشيعة بأن الأتراك أقدموا على هذه الخطوة بعد تلقيهم رِشوة كبيرة من اليهود. وبعد عودة المقام إلى اليهود أقاموا فيه يَشِيفا - المدرسة الدينيّة اليهوديّة - بهدف تعزيز تمسّكهم بالمكان، فكانت تلك المدرسة مكاناً يجمع في أروقته عدداً كبيراً من الطلّاب والمعلّمين اليهود البغداديّين، فيما توجّهَ رجال الأعمال والحرفيّون اليهود من بغداد والحِلّة وأماكنَ أخرى للسكن والإقامةِ في بلدة الكِفل.

وخلال خمسينيّات القرن التاسع عشر قام الأتراكُ بطرد آخر حارس من الحرّاس الشيعة من المقام، بالتالي أصبح اليهودُ رسمياً يحملون صِفة حُرّاس المقام، فكانت تلكَ هي اللحظة التي أصبحَ فيها المقامُ بأكمله تابعاً لليهود. لكن سُرعان ما انقلَبَت الأحوال خلال محاولات المُسلمين المتواصلة لانتزاع الساحاتِ الخارجيّة لمقام النبي حسقيل من أيدي اليهود، فكانت المحاولة الأولى سنة 1860م والمحاولةُ الثانيّة في ثلاثينيّات القرن العشرين بعد قيامهم بالسيطرة على الكنيس وتحويله لمُصلّى، لكن احتلال المقام من قبل الشيعة انتهى بعد عدة شهور، فعاد لسيطرة اليهود مرة أخرى. ومنذ ذلك الوقت حتى النزوح الجماعيّ لليهود من العراقّ إلى إسرائيل ظلّت الساحاتُ الخارجيّة للمقام تابعة لإدارة يهود بلدة الكِفل.

وبعد أن أصبحَت مدينةُ الكِفل خالية من أي وجود يهوديّ تمّ تحويل مقام النبيّ حسقيل إلى مسجد بِأمر من الوقف الشيعيّ، فصارَ مليئاً بالنصوص القُرآنية، بالتالي بدأت النصوصُ العبرانيّة المميّزة التي كانت تزيّن أنحاء المقام تختفي شيئاً فشيئاً. وقد خَسِرَت وزارة السياحة والتراث العراقيّة القضيّة التي أقامتها ضد الوقف الشيعيّ سنة 2010م بهدف استعادةِ الطابع الأصليّ للمقام ولبلدة الكِفل باعتبارهما مَقصداً للسياحةِ الدينيّة اليهوديّة [51]. لاحِقاً وبعدَ ظهور الجِهاديّين العراقيّين والسوريّين الذين قاتلوا في صفوف تنظيم الدولة الإسلامية - داعِش - أصبحَ المقام تحت تهديدٍ أكثر خطورة من السابق، ليسَ باعتباره مقاماً يهوديّا فحسب، بل باعتباره أيضاً مسجداً شيعياً، كونهُ - تبعاً لادّعاءات داعِش- مكاناً لعبادة الأوثان. لقد كان هدف داعش يتمثّل في مسح الهويّة الثقافيّة لكلّ من رفض الانصياعَ لفكرةِ "الخلافة" التي كانت تطمحُ داعِش لإقامتها بعد زعزعة استقرار الدولِ التي حاربت هذا التنظيم، فأقدم التنظيم على تفجير أجزاء من الموقع السريانيّ القديم المعروف بموقع النمرود، كما وقام بتفجير موقع أثريّ رومانيّ في تدمر، بالإضافة إلى مقامّ النبيّ يونس ومقام النبيّ شيث وغيرها.

إجتثاث كل ما لهُ علاقة بالتاريخ اليهوديّ من الوجود

مَن يَقرأ التاريخَ يجدُ بأن من يقوم بتطهير عرقيّ لمجموعة مُحدّدة من البشر فإنه لا يقفَ عند حدود استئصال واجتِثاث تلكَ المجموعة من الوجود فحسب، بل يتعدّى الأمر حدودَ ذلك ليصلَ إلى استئصال كل أثر يتعلّقُ بالإرث الدينيّ لتلك المجموعة، وهذا بالضبط ما حدثَ مع اليهود، حيثُ لم تتوقف المُحاولات عن مسح كل أثر يتعلّقُ بهم وبتاريخهِم بهدف عدم ترك أي دليل يُثبتُ بأن اليهودَ قد عاشوا في منطقة الشرقِ الأوسط وشمال أفريقيا في يوم من الأيام.

إن دولة مثل تونس تعتبرُ زاخرةً بالآثار التاريخيّة اليهودية التي تستوجب الحِفاظَ عليها من الاندثار، حيثُ يتواجد فيها سنةُ كُنُسٍ يهوديّة وثلاث مقامات تضم قبور الحاخامات اليهود إضافة إلى ثلاثة مقابر يهودية والموقع اليهوديّ ذو الأرضيّة الفسيفسائيّة الموجود في مدينة قليبية، هذا الموقع الذي يشهدُ على حقبة زمنية امتدت لألفي عام من الوجود اليهوديّ في تلكَ المنطقة.

أما في سوريا، وتحديداً في العاصمة دمشق، لا يزال مصيرُ أربع وعشرين كنيساً يهوديّاً مجهولاً حتى اللحظة، فيما كانت آخر مرة شوهِدت فيها الكُنُس قائمة سنة 1990م، أما الجداريّة الفنيّة القديمة التي توضّحُ قصّة النبيّ موسى والتي كانت موجودة في كنيس دورا أوربوس في حيّ الصالحيّة فهي محفوظة في المتحف الوطنيّ السوريّ [52].وبالنسبة لكنيس جوبَر الذي يضمّ ضريحَ النبيّ إلياهو (إيليا) فقد تم تدميره بشكل كامل خلال أحد التفجيرات التي شهدتها الحرب الأهلية السورية، والكنيسُ الوحيدُ الذي لا زال يستخدمُ لتأدية الشعائر الدينيّة والصلوات اليهوديّة في سوريا هو كنيس الفرنجي.

وكذلك الحال بالنسبة للكنيس الكبير في حلب والذي تعرّضَ للنهب والسرقة ومن ثم تم إحراقهُ خلال أعمال العنف التي شهدتها المدينة سنة 1947م، فيما لا يعرفُ حتى الآن إن كان البناء لا زال قائماً حتى هذه اللحظة أم لا. أما كنيسُ عيزرا في مدينة تادف السوريّة والذي كان مقصداً للحجّاج اليهود في يوم من الأيام فَلم يبقَ منه سوى الرّكام [53].

صورة لجدارية صموئيل وهو يقوم بتنصيب الملك داوود التي كانت موجودة في كنيس دورا أوربوسوالتي تعتبرُ واحدة من أقدم وأعرق الكُنُس اليهوديّة في سوريا (حقوق الصورة محفوظة لِلوسيان غَباي)

صورة لكنيس الفرنجيّ اليهودي – دمشق (حقوق الصورة محفوظة لِلوسيان غباي)

وفي مصرَ لم يتبقّ سوى ستة عشرَ كنيساً قائِماً من أصلِ ستين كنيس يهوديّ كانت موجودة هناك في يوم من الأيام، وقد تمّ ترميم كنيس رَمبام الذي يعد واحداً من الكُنُس الأربعة التي لا زالت بحالة جيّدة إلى حدٍ ما، فيما تعجّ الكُنُس الأخرى بالغبار، فيما تم استخدام بعضها لأغراض أخرى. أما مَقبرة البساتين اليهوديّة في القاهرة فهي غارقة بالمياه العادمة، فيما تمّت سرقةُ جميع شواهد القبور الرخاميّة من تلك المقبرة. أضِف لى ذلكَ ثلاث مقابر يهوديّة أخرى موجودة في الإسكندرية لا زالت تعاني من الإهمال الشديد.

والحال نفسه في بغداد التي لم يتبقّ فيها سِوى كنيسٌ واحد من أصل خمسين كنيساً كانت موجودة فيها في السابق، وهو كنيسُ مَئير طويق. وعلى الرغم من كونه الكنيسَ الوحيد في بغداد إلا أنه مغلقٌ بشكل شبه دائم. والحال نفسه في ليبيا التي كانت تضم في يوم من الأيام أربعةً وسبعينَ كنيساً يهودياً، وما بقي قائِماً من هذه الكُنُس بالكاد يُمكن تمييز ملامح البناء فيه، أما المقبرةُ اليهوديّة الكبيرة في طرابلس فقد تمّ طمسُ ملامحها تماماً وتم شقّ شارع سريع في المكان الذي كانت موجودة فيه [54].

صورة توضّح أداء بعض الشعائر الدينيّة والصلوات اليهوديّة في كنيس النبي دانيال في الإسكندرية خلال الفترة التي عاشت فيها الطائفةُ اليهودية هناك.
(حقوق الصورة محفوظة لمؤسسة النبي دانيال)

أما البُقعة الوحيدة المضيئة في هذا التاريخِ المُظلم فقد كانَت في المغرب، حيثُ اهتمّت الحكومة المغربيّة بالمواقع الأثريّة والكُنُس والمقابر اليهوديّة وعملَت على ترميمها، إذ وصل عدد المقابر اليهوديّة التي تمت استعادتها وترميمها في المغرب مئة وسبعة وستون مقبرة، وهُنا يعلّق البعضُ من باب التهكّم والسخرية بأن استذكار التاريخَ اليهودي المغربيّ والحفاظ عليه يصبّ في مصلحة دولة المغرب باعتبار تلكَ الأماكن ستكون مقصداً للسوّاح. وبجميع الأحوال فإن هذه المواقع اليهوديّة لن تكون سوى أبنية خالية في ظلّ تواجد أقلّ من واحد بالمئة من نسبة اليهود المغاربة والذين نزحَ غالبيتهم من المغرب بعد الحرب التي أعقَبت إعلان قيام دولة إسرائيل.

إنّ طردَ اليهود من بُلدانهم كان بمثابة صفارة الإنذار التي تُنذرُ بوقوعِ المزيد من الكوارث الفظيعة والتي ستعاني منها أقلّيات أخرى في هذه المنطقة، فأكثر من نصف مسيحيّي الشرقِ الأوسط قد أُجْبِروا على النزوح من بُلدانهم [55]، فيما أدارَ الأكراد ظهورهم للعراق عقِبَ ما تعرّضوا له من عنف واضطهاد، ولا زالوا يسعون جاهدين لإقامة دولتهم المستقلة المنفصلة عن العراق. لقد كشفَت تلكَ الأحداث حقيقةَ العالم الإسلامي وحقيقة بُنيتِهِ القائمة بالأساس على عقليّته ومكوّناتهِ القبليّة قبل كل شيء آخر. في الوقتِ نفسه بدأ الإسلامُ نفسهُ يعاني من هذه العقلية القبليّة من خلال ما يشهده من تصدّعات واقتتال طائفيّ متواصلٍ بين أتباعه.

صورة توضح جزءاً من الترميم الذي قامت به الحكومة المغربيّة خلال عملها على استعادة وترميم مئة وسبعة وستين مقبرة يهوديّة بالإضافة إلى ضريح وقبر الحاخام موشي مئيرحاييإلياكيم في باب مراكش في مدينة الدار البيضاء.

هويّةٌ مُشَوّهَة

إن فُقدان العالمِ العربيّ لسكانه اليهود بالإضافة إلى الأقلّيات الأخرى يشبهُ فقدان شخص ما لأحدِ أطرافه، وشعور بأن هذا الطرفَ لا يزال موجوداً هو محض شعوره وهميّ ليس إلا. يوضّح الصحفيّ الإيطاليّالمصريّ الأصل وعضو البرلمان الأوروبي مجدي كريستيانو علّام في هذا السياق بعد مشاهدته فيلم "الخروجُ الصامِت" مُعقّباً على الهويةِ المُجتزأة والمشوّهة للعالم العربي قائلاً: "بِناءاً على ما حَلّ بيهود العالمِ العربيّ من كوارث، أستطيعُ أن أرى بكل وضوح وجهين لعملةٍ واحدة: الوجهُ الأول يكمنُ في تشويه العرب لهويّتهم وسلبهم لتاريخ غيرِهِم، وذلك من خلال طردهِم لليهود الذين استقرّوا وسكنوا المناطقَ الجنوبيّة والشرقيّة من حوض البحر الأبيض المتوسط لقرون مضَت قبلَ أن يبدأ العربُ عملية تعريبِهِم وأسلمتهم بطريقة مُمنهجة. أما الوجهُ الثاني للعُملة فيكمنُ في خسارة العرب لأنفسهم بنهاية المطافِ عبر خسارتهم واجتثاثهم للجذور اليهوديّة من التاريخ والهويّة العربيّة. تاريخياً، كان اليهود أوّل مَن يدفعُ ثمنَ الكراهيةِ والحقدِ والتعصّب في أي منطقة، فيما جاء لاحقاً دور فئات أخرى لتدفع ثمن ذلك، خاصة المسيحيين وكلّ من لم يتلاءم وجودهُ مع الإطار الأيديولوجيّ للفكر القوميّ والإسلاميّ المُتطرّف. وبشكل عام لم يكُن هنالك أي إدانة أو استنكار من قِبل أي دولة من دول العالم العربيّ لِما حدث في هذه الحقبة التاريخيّة المُظلمة التي شهِدت نزوحاً متواصلاً ومُستمراً للمَسيحيّين والأقليات الدينيّة والإثنيّة الأخرى بالإضافة إلى المُسلمين المُتنوّرين، وحتى المُسلمونَ البسطاءُ المُعتدلون لم يَسلموا من الإرهاب والتطرّف الإسلامي، بل أصبحوا جُزءاً من أبرز ضحايا تلكَ الهجمات الإرهابيّة" [56] .

ومنذ نشوب ثورات الربيع العربيّ سنة 2011م بدأت تظهرُ أصواتٌ عربيّة توضح مدى شعورهم بالأسى والحسرة على خسارة البلدان العربيّة لمواطنيها اليهود، والعواقب الكارثيّة التي جلبها ذلك على بلدانهم، حيثُ نُشِرَت منذ ذلك الحين قرابة اثنين وعشرين روايةَ تُسلّطُ الضوء على شخصيات يهوديّة بارزة من يهود دول العالم العربي [57]، فيما بدأ العديدُ من المثقفين والمفكرين خاصة في العراق ومصر بإدراك ما اقترفتهُ دولهم من أخطاء بحقّ الأقليات اليهوديّة في الماضي، أضف إلى ذلك قيام عدد من المُخرجينَ العرب بإنتاج أفلام تُظهرُ حنينهُم إلى الماضي الذي كان يتصّف بقدر من التعدّدية إلى حد ما.

وقد حملَ عددٌ من المتظاهرين العراقيّين خلال أحد المظاهرات سنة 2015م في مدينة بغداد صوراً لأوّل وزير ماليّة عراقيّ، الوزير اليهوديّ ساسون حَسقيل، واصفين إخلاصه وولاءهُ وإنجازاته خلال فترة توليه وزارة المالية العراقية بداية عشرينيات القرن العشرين، حيث قام حَسقيل حينها بإجبار دفع عوائد النفط العراقيّ بالشِلِن الذهبيّ [58]، في إنجاز يعتبر من أهم إنجازاته آنذاك، خاصة وأن وزراءَ الماليّة العراقيّين لم يُسجّل لهُم أي إنجاز واحد منذ سنة 2003م.

صورة لساسون حَسقيل وزير الماليّة اليهوديّ العراقي يرتدي الزيّ الحكوميّ الرسميّ.

صورة من مظاهرات سنة 2015م في بغداد لمتظاهرين يحملون لافتة مكتوب عليها إنجازات ساسون حَسقيل، في حين وضعوا رقم صفر بمحاذات إنجازات وزراء المالية العراقيين الذين شغلوا هذا المنصب منذ سنة 2003م

ومع اندثار المُجتمعات اليهوديّة من منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا باتَ الاستعمار الإسلاميّ مُسيطراً على جميع أرجاء هذه المنطقة، هذا الاستعمار الذي بدأ بغزو النبيّ مُحمد لتلك المناطق وصولاً إلى ما هيَ عليه الآن، وقد أدّى هذا الاستعمار إلى غياب التعدديّة السكانيّة والثقافيّة في تلك المناطق. وبجميع الأحوال، فقد أدت تلك الكوارث التي لحقت باليهود في العالم العربيّ إلى نتيجة عكسيّة تماماً، حيثَ ازدهرَت حياة اليهود في تلك البُقعة الصغيرة من الشرقِ الأوسط والمحاذية للبحر الأبيض المتوسط والتي تمّ طردُ اليهودِ إليها آنذاك، فأقاموا عليها دولتهم المُستقلّة، إلا أنّها استقلاليّة وسيادة محفوفة بالكثير من التحدّياتِ والعقبات، مما يجعل خسارتهم تلكَ البقعة التي احتضنتهُم أمراً ذا عواقبَ كارثيّة على الوجودِ اليهوديّ بأكمله.

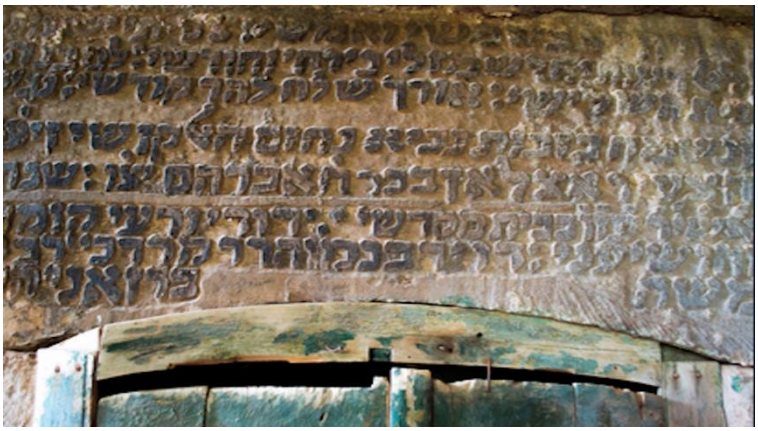

صورة تظهر مجموعة من النصوص العبريّة القديمة المحفورة على الجدران الآيلة للسقوط في مقام النبي ناحوم في منطقة القوش شمال العراق (حقوق الصورة محفوظة لإدوين شُكُر).

صورة تظهر عددا من الكُتّاب والنسّاخين في مقام النبي حسقيل خلال ثلاثينيّات القرن التاسع عشر

صورة توضّح كيف تمّ طلاءُ النصوص الدينيّة العبريّة لإخفائها من مقام الكاهن اليهوديّ الكبير يهوشَع في بغداد
(حقوق الصورة محفوظة - سكراب جورنال)

وفي ختام هذا الفصل أودّ أن اذكر تجربةَ الأديب والروائيّ البريطانيّ لورانس داريل صاحب الرواية الشهيرة "رُباعيّة الإسكندرية" التي نشرها سنة 1957م، إذ قام بزيارة الإسكندرية بعد مضيّ خمسة وعشرين عاماً على تأليفها ونشرها ليجدها مدينة هزيلة شاحبة يطغى على ملامحها الإحباط والبُؤس إلى حدّ لا يُمكن تخيلّه [59]. وباعتقادي لو عاد لورانس لزيارة الإسكندرية الأخرى مرة أخرى في القرن الواحد والعشرين لوجدها على صورة أسوأ بكثير مما كانت عليه حين زارها في الماضي، حيث سيجد ملامحها الباهتة الخالية من أي تعدّديّة، كالثوب ذو اللون الواحد، وباعتقادي لو زارها مرة أخرى لما تمكّن من التعرّف عليها على الإطلاق، فهي خاليةٌ تماماً من اليونانيّين والأرمنِ وتخلو من التنوّع الأوروبي لطبيعة سكانها الذي كان سِمةً من أبرز سِمات مدينة الإسكندرية في الماضي.

ولو زراها اليوم لوجدَ فيها خمسة يهود فقط، وحتماً لن يجد الازدهار الفكريّ والدينيّ الذي كان يُقوّي من الطابع الثقافيّ لهذه المدينة ويضيفُ بُعداً آخر إلى حيَويّتِها. ربما لن نجدَ ما يصف الواقع الحالي أفضلَ من العبارة التي قالها الصحفيّ وكاتبُ العمود مارك شتين حين قال بأن "الإسلامَ مثلُ الملكِ الذي يحكمُ أرضاً تملؤها الجُثث" [60].

قائمة الملاحظات والحواشي

1. Adnan Abu Zeed, 'Babylonian temple now Islamic healing shrine', *Al-Monitor*, 18 January 2016, http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2016/01/iraq-babylonian-shrine- turned-islamic.html#ixzz40FoDZoDs. (Last accessed 26 April 2017).

2. نفس المصدر.

3. See Zvi Yehuda, 'The synagogue at the Tomb of the Prophet Ezekiel' in Zvi Yehuda (ed.) *Tombs of Saints and Synagogues in Babylonia* (Or Yehuda: The Babylonian Jewry Heritage Center, 2006), pp. 33–46.

4. *The Scribe*, Issue 75, Autumn 2002.

5. نفس المصدر.

6. نفس المصدر.

7. نفس المصدر.

8. James Glanz and Irit PaznerGarshowitz, 'In Israel, Iraqi Jews reflect on Baghdad Heritage', *New York Times*, 27 April 2015.

9. Maurice Roumani, *The Jews from Arab Countries: A Neglected Issue* (Tel Aviv: World Organisation of Jews from Arab Countries (WOJAC), 1983) and *WOJAC'S Voice*, Vol. 1, No. 1, January 1978.

10. نفس المصدر.

11. نفس المصدر.

12. Nathan Weinstock, *Une si Longue Présence: Comment le Monde arabe a perdu sesjuifs 1947–1967* (Paris: Plon, 2008), p.10.

13. Legend has it that Jews arrived in Yemen at the time of King Solomon in 900 BCE. Biblical-era Israelites travelling with Phoenician traders established Jewish communities in the Maghreb. The Jews of modern-day Iraq and Iran trace their ancestry back to the destruction of the first Biblical Temple. In 2014, researchers found inscriptions in Saudi Arabia testifying to the region's pre-Islamic Jewish and Christian roots in 470 CE. See Ariel David, 'Before Islam: When Saudi Arabia was a Jewish kingdom', *Haaretz,* 15 March 2016.

تم إثبات حقيقة تأسيس المُجتمع اليهودي في اليمن خلال حقبة الملك سليمان سنة 900 قبل الميلاد. وخلال الفترة الزمنية لنزول الكتاب المقدس فقد رحل العبرانيّون برفقة التجار الفينيقيّين إلى منطقة المغرب وأسسوا المُجتمع اليهودي هناك. أما اليهود الذين كانوا موجودين في العراق مؤخراً فإن تاريخ انتقالهم إلى العراق يرجعُ إلى الفترة الزمنية التي تم فيها تدمير الهيكل الأول. وفي سنة 2014م عثر المؤرخون وعلماء الآثار على نصوص وحفريات في المملكة العربية السعودية تُثبتُ الجذور التاريخية لليهود والمسيحيّين في هذه المنطقة قبل ظهور الإسلام، إضافة إلى حفريات يعود تاريخها الى سنة 472 قبل الميلاد. للاستزادة حول هذا الموضوع بإمكانكم قراءة مقالة أرييل ديفيد المنشورة في صحيفة هآرتس بتاريخ الخامس عشر من آذار/مارس سنة 2016م تحت عنوان: "قبل ظهور الإسلام – عندما كانت السعودية مملكة يهودية في يوم من الأيام".

14. Daniel Khazzoom, *The Journey of a Jew from Baghdad,* Part One (2010).

15. Book of Psalms, 137:1.

16. Sarina Roffé, 'A History of Italian Jewry', JewishGen Sephardic Genealogy Website, http://www.jewishgen.org/sephardic/coliseum.htm. (Last accessed 26 April 2017).

17. 'Pact of Umar', available on Fordham University website, http://sourcebooks. fordham.edu/halsall/source/pact-umar.asp. (Last accessed 26 April 2017).

18. Darío Fernández-Morera, *The Myth of the Andalusian Paradise* (Wilmington, DE: ISI, 2016), p. 2 Georges Bensoussan, *Juifsen pays arabes: le grand déracinement 1850–1975* (Paris: Tallandier, 2012), p. 236.

19. Efraim Karsh, *Islamic Imperialism* (New Haven, CT: Yale University Press, 2006), p. 21.

20. S.D. Goiten, *Jews and Arabs: Their Contacts Through the Ages* (New York: Schocken, 1974), p.107.

21. Paul Fenton lecture at The Jews of Morocco conference, UCL, 20–22 June 2011, reported in *Point of No Return*, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2011/06/18th-c-jews-tried- and-failed-to.html. (Last accessed 26 April 2017).

22. Aomar Boum quoted in 'Remembrance of things past: Moroccans talk about the Jews who once lived among them', *Vox Tablet*, 16 March 2013.

23. See Goiten, *Jews and Arabs*, p. 70

24. 69 نفس المصدرصفحة -

25. Norman A. Stillman, *The Jews of Arab Lands*: *A History and Source Book*, Vol.1 (Philadelphia, PA: Jewish Publication Society of America, 1979), p.179.

26. See Weinstock, *Une si longue présence*, p. 125.

27. Martin Gilbert, *In Ishmael's House* (New Haven, CT: Yale University Press, 2010), p.124.

28. 'Habbani Jews', *Wikipedia*, https://en.wikipedia.org/wiki/Habbani_Jews#cite_note-24. (Last accessed 26 April 2017).

29. See Stillman, *The Jews of Arab Lands*, Vol.1, p. 79.

30. Harold Rhode, 'Minorities in the Muslim World', Fall 2015, http://www. jewishpolicycenter.org/5678/minorities-muslim-world. (Last accessed 26 April 2017).

31. Michel Abitbol*, Le passé d'unediscorde: Juifs et Arabesdepuis le VIIe siècle* (Paris: Perrin, 2003), p. 206.

32. See Gilbert, *In Ishmael's House*, p.119.

33. Bat Ye'or, 'The *Dhimmi* factor in the Exodus of Jews from Arab Countries' in Malka Hillel Shulewitz (ed.), *The Forgotten Millions* (London: Continuum, 2000), p. 41.

34. Judit Neurink, 'Iraq under my skin', blog, 29 October 2015, http://www. iraqundermyskin.com/2015/10/making-space-for-jews-again-in-kurdistan.html. (Last accessed 26 April 2017).

35. 'De-legitimizing Israel: an outsider perspective', *Fernando* blog, 1 January 2011, http://topicperspectiva.blogspot.co.uk/2011/01/de-legitimizing-israel-outsider.html. (Last accessed 26 April 2017).

36. نفس المصدر.

37. Alexandre del Valle, 'Preface' in Moïse Rahmani, *L' exode oublié: Juifs des pays arabes*(Paris: Raphaël, 2003), p. 17.

38. David de Sola Pool, *Old Faith in the New World: Portrait of Shearith Israel 1654–1954* (New York: Columbia University Press, 1955), pp.487–8.

39. Bernard Lewis, *The Jews of Islam* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2014), p.106.

40. See Ariel Sabar, *My Father's Paradise* (Algonquin, 2009) for an account of the life of his father, one of the last Aramaic-speaking Kurdish Jews.

41. Franck Salameh, 'Does anyone speak Arabic?*' Middle East Quarterly*, Fall 2011, http://www.meforum.org/3066/does-anyone-speak-arabic. (Last accessed 26 April 2017).

42. A slogan quoted by Islamic fundamentalists. See for example Hizbut Tahrir video, http://www.hizb-ut-tahrir.info/en/index.php/multimedia/video/1864.html (Last accessed 26 April 2017).

43. Malka Hillel Shulewitz, 'Introduction' in *The Forgotten Millions*.

44. Harvey E. Goldberg, *Sephardi and Middle Eastern Jewries: History and Culture in the Modern Era* (Bloomington, Ind: Indiana University Press, 1996), p. 20.

45. Harvey E. Goldberg, 'Ritual Mutuality in North Africa: Jews and Muslims listen to the Ten Commandments in Synagogue', lecture, 15 September 2014, http://judaicstudies. uconn.edu/2014/09/05/ritual-mutuality-in-north-africa/. (Last accessed 26 April 2017).

47. Samuel Osborne, 'Temple Mount: Jerusalem's most holy site has nothing to do with Judaism, UNESCO rules', *The Independent*, 14 October 2016, http://www.independent. co.uk/news/world/middle-east/israel-jerusalem-unesco-motion-jewish-ties-temple- mount-noble-sanctuary-el-harem-al-sharif-a7360776.html. (Last accessed 26 April 2017).

48. Peter Ford, 'In Iraq, Reverence for Ancient Tomb of a Jewish Prophet', *Christian Science Monitor*, 2 June 2003, http://www.csmonitor.com/2003/0602/p08s01-woiq.html. (Last accessed 26 April 2017).

49. See Yehuda, *Tombs of Saints and Synagogues in Babylonia*, p. 34.

50. نفس المصدر, p.36.

51. Steven Lee Myers, 'Crossroads of antiquity can't decide on a new path', *New York Times*, 19 October 2010, http://www.nytimes.com/2010/10/20/world/middleeast/20ezekiel. html?pagewanted=1&_r=1. (Last accessed 26 April 2017).

52. 'National Museum, Damascus', *Wikipedia*, https://en.wikipedia.org/wiki/Dura- Europos_synagogue. (Last accessed 26 April 2017).

53. Robert Lyons, 'Silent Sacred Spaces: selected photographs of Syrian Synagogues' (pdf), http://www.isjm.org/country/syria/Silenced%20Sacred%20Spaces.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

54. Justice for Jews from Arab Countries (JJAC), Document presented to UNESCO, June 2014.

55. Eliza Griswold, ‘Is This the End of Christianity in the Middle East?’, *New York Times*, 22 July 2015, http://www.nytimes.com/2015/07/26/magazine/is-this-the-end- of-christianity-in-the-middle-east.html. (Last accessed 26 April 2017).

56. ‘Arabs without Jews: Roots of a Tragedy’, *Point of No Return*, 24 July 2013, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2013/07/arabs-without-jews-roots-of-as- tragedy.html. (Last accessed 26 April 2017).

57. Marcia Lynx Qualey, ‘True Histories: The Renaissance of Arab Jews in Arabic Novels’, *The Guardian*, 29 October 2014, http://www.theguardian.com/books/booksblog/ 2014/oct/29/renaissance-arab-jews-arabic-novels-ali-bader-mohammad-al-ahmed. (Last accessed 26 April 2017).

58. ‘Sir Sasson Heskel tops loyalty list’, *Point of No Return*, 17 August 2015, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2015/08/sir-sasson-heskell-tops-loyalty-list- in.html. (Last accessed 26 April 2017).

59. Mark Steyn, *National Review*, 25 February 2013, https://www.nationalreview. com/nrd/articles/340075/ghost-cities. (Last accessed 26 April 2017).

60. نفس المصدر

الفصل الثاني

خُرافة التعايش السلميّ

"تَرَكتُ بَلَدي، تَرَكتُ وَطَني
وَتَمْضي حَياتي في الأحزان، في التّيه
تركتُ شَمْسِي، تَرَكتُ البحرَ الأزرقَ والسَّماء
ذِكرَياتُها توقِظُ حَنَيني إليها بعدَ أن قُلتُ لَها وَداعاً
تِلكَ الشَّمسُ.. شَمسُ وَطَني الضَّائِع ..."

المُغني اليهودي الجزائري إنريكو ماسياس[1]

J'ai quitté mon pays, j'ai quitté ma maison
Ma vie, ma triste vie se traîne sans raison
J'ai quitté mon soleil, j'ai quitté ma mer bleue
Leurs souvenirs se réveillent, bien après mon adieu
Soleil, soleil de mon pays perdu
******

في يوم الثالث عشر من شهر شباط/فبراير 2015م شهِدت مدينة الجزائر حدثاً غير اعتياديّ على الإطلاقتمثّل في دفن الممثل الفرنسي الشهير ونجم السينما والمسرح روجيه حنين في مقبرة سانيتاإيجين اليهودية (مقبرة بولوغين) [2]. وقد توفّي روجيه عن عمر يناهزُ التاسعة والثمانين عاماً ودُفِنَ بجانب قبر أبيه، وكان أوّل يهوديّ يُدفن في المقبرة اليهوديّة منذ دفنفريحة طوبولسنة 2001م. وخِلافاً لما حدث أثناء جنازة فريحة، فقد كانت جنازة روجيه حدثاً احتلّ زخماً كبيراً في الإعلام وطغت عليه مظاهرُ التقدير على المستوى الرسميّ الجزائري، حيثُ حضر جنازته الرئيس الجزائريّ آنذاك عبد العزيز بوتفليقة ووزير الثقافة الجزائريّ إضافة إلى السفير الفرنسيّ في الجزائر.

والسؤال الذي يطرحُ نفسهُ هنا: لماذا يُوصي شخصٌ يهوديّ مثل روجيه حنين بأن يتم دفنهُ في بلاد لم تطأها قدمهُ منذ أكثر من أربعين سنة ولم يتبقّ فيها أي يهوديّ واحد بعد أن كان يتواجدُ فيها مُجتمعٌ يهوديّ يضمّ قرابة مئة وثلاثين ألف يهوديّ جزائري؟ ولماذا يُوصي بأن يُدفن في مقبرة يهودية تمت سرقةُ شواهدها وتشويه معالمها بالكتابات الجرافيتية؟ لماذا يوصي بهذا رغم معرفته المسبقة بأن عائلته التي تسكنُ في فرنسا لن تتمكن من زيارة قبره بسهولة؟ يُجيب جويل مِرچيرئيس الجالية اليهوديّة الفرنسيّة (CRIF)عن هذه الأسئلة في حديثه أثناء مراسم جنازة روجيه قائلاً: "إن وصية روجيه بأن يُدفن في الجزائر هيَ تعبير عن ارتباطه بأرضه وبوطنه الأم، وهذا ما يشعر به عددٌ كبيرٌ من اليهود تجاه الجزائر التي تمثل بالنسبة لهمُ رمزاً للانتماء للوطنِ والعائلة" [3]. فيما عبّر الرئيس الجزائريّ بوتفليقة عن تقديره واحترامه لشخصية روجيه حنين واصِفاً إيّاهُ بأنه "رمزٌ للصداقة بين الشعب الجزائريّ والشعب الفرنسيّ" [4].

في الواقع لم يكن روجيه حنين اليهوديّ الوحيد الذي أراد أن يُدفن في مسقط رأسه، فالمُغني جورج مستاكيقد أوصى أيضاً بأن يُدفن في مسقط رأسه في مدينة الاسكندرية [5]، المدينة التي لم يتبقّ فيها سوى خمسة يهود فقط، لكن وصية جورج مستاكي لم تُنفّذ ولم يُدفن في مدينة الاسكندرية.

لو فكّرنا في الأمر لوجدنا أن اسم عائلته "حنين" يحمل في طيّاته الإجابة عن تلك التساؤلات، هذه الكلمة التي تعني بالعربية الشوق واللهفة لشيءأو لشخص ما، وهي تجسيدٌ لعاطفة عميقة تستحوذ على مشاعر اليهود الذين وُلِدوا في الدول العربية، هذا الحنينُ الذي يختلجُ صدورهم فتعبّر عنه الدموع أثناء استذكارهم لبيّارات البرتقال وسمك المسكوف المشويّ على ضفاف نهر دجلة، ولصوت خرير الماء الذي كان ينسابُ بكل سلاسة من على ضفاف النيل.

وهنالك مجموعة من اليهود العراقيين ممّن كانوا يحملون الفكر الشيوعيّ سابقاً وأصبحوا ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها منفىً لهُم، فكرّسوا حياتهُم للكتابة عن وطنهُم الأم ومسقط رأسهِم العراق، مثل الروائيّ والمفكّر العراقيّ الأصل سامي ميخائيل والباحث العراقيّ الأصل ساسون سوميخوالذين لطالما كانوا يُعرّفون أنفسهم على أنّهم "عربٌ يهود"، إضافة إلى الكاتب المسرحيّ الراحل سمير نقاش والذي لم يتوقّف عن الكتابة باللغة العربية حتى وفاته. والحال نفسهُ بالنسبة للجيل الجديد الذي لا زال يحاولُ البحث عن جذوره في العراق، فعلى سبيل المثال توجد صفحة فيسبوك تُدعى " الحفاظُ على اللغة اليهوديّة العراقيّة" وتضم قرابة أربعين ألف يهوديّ ممن ولدوا في إسرائيل.

إن الحنين لمكان لم تولد به ولا تمتلك أي تجارب أو ذكريات فيه هو شعور عميق جداً يختلجُ صدور الكثير من اليهود، وهو أمرٌ توضّحه الكاتبة سَمانثاإليسفي كتابها "كيف تكونين بطلة" حين قالت: "لا زلتُ أشعرُ بالحنين لوطن لم يسبق لي زيارته في حياتي، فوالداي هما يهوديّان عراقيّان، إلا أنني لم أولد في العراق بل وُلِدتُ في مدينة لندن، إلا أن تجربة الطفولة بالنسبة لي تبدو وكأنها كانت في العراق. إنني أذكرُ جيداً عندما كنتُ في سنّ الرابعة من عمري أحد الأمثال العراقيّة التي كان والداي يردّدانها طوال الوقت بلَكنة عراقية يهودية ركيكة: "ذنب الكلب عمره ما ينعدل". [6]

الذاكرة وآلية النسيان

هنالك تناقضٌ واضحٌ يبدو في كلام يهود الدول العربية أثناء حديثهم عن حياتهم في تلك الدول، فتارة تسمعُ يهودياً يُقسم بالغالي والنفيس بأنه عاش حياة هنيئة رغيدة مع العرب في الماضي، وبأن الحياة مع العرب كانت تسودها المحبة والألفة والتعايش. وتارة أخرى تسمعُ يهودياً يتحدّثُ عن مدى القسوة والبشاعة التي رآها في الدول العربية، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: من مِنهما يتحدّث عن الحقيقة؟

يستذكرُ إيلي مايو أيام طفولته عندما كان في مصر، تحديداً في مدينة بور سعيد، واصفاً إياها بأنها كانت طفولة رائعة على الأقل حتى سنة 1948م. يقولُ إيلي في مذكّراته: "لقد كان والدي يملكُ محلاً تجارياً كبيراً وكان واحداً من الشخصيات الاعتبارية التي تحظى باحترام الجميع في المدينة، وكان يُدعى إلى العديد من المناسبات التي كانت تقام في منزل حاكم مصر. كان صديقي المفضّل مسلماً وكان يُدعى جمال، وكانت هنالك علاقات طيبة بين عائلتي وعائلته. لكن في اللحظة التي اندلعت فيها حرب الاستقلال سنة 1948م كان جمال أوّل من ألقى الحجارة على بيتنا وهو يصرخ بأعلى صوته: الموتُ لليهود". [7]

إن هذه التجارب المُختلفة رغم أنها تبدو متناقضة بشكل واضح إلا أنها تُكمّل بعضها بعضاً، وهنا أريد أن استحضِرَ موقفاً يُدلّل على هذا التناقض والتكامل بين تلكَ التجارب، وذلك عندما التقى عددٌ من اليهود الذين عاشوا في مصر بالسفير المصريّ في بروكسل تسعينيات القرن الماضي، حيث كنتُ أتوقّعُ أن ينهالوا عليه بأقسى عبارات اللوم وأن تطغى ملامح العدوانيّة على ذلك اللقاء، وهذا أقلّ ردّ فعل متوقّع بعد ما حلّ بهِم من مآسي وويلات في مصر، لكن ما حدثَ كان العكس تماماً! فما طغى على جوّ ذلك اللقاء كانت مشاعر الحنين الجامحة لذكرى المقاتلين والمحاربين اليهود المصريين [8]. يوضّحُ عِلم الأنثروبولوجي (علم الإنسان) إن ردة الفعل هذه هي نتيجة لرغبة مُبطنة في كبت ذكريات الخوف والألم، ومثلما يوضّحُ المؤرّخ جورج بن سوسان فإن "الذاكرة هي بحدّ ذاتِها وسيلة للنسيان" [9]، فالذاكرة تكبت ما لا يرغبُ الإنسان في تذكّره واستحضاره، بالتالي لا يُمكننا الاعتماد على الذاكرة كمصدر موضوعيّ موثوق لسردِ وقائع التاريخ.

وقد قام الكاتب الأمريكي روبرت ساتلوفبتأليف كتابه (Among the Righteous) في محاولة منه لإحداث تغيير في حالة إنكار المحرقة اليهوديّة – الهولوكوست – المنتشرة كالنار في الهشيم في دول العالم العربي، حيثُ بدأ كتابه باحِثاً عن قصص لأبطال عربمنقاموا بإنقاذ وحماية اليهود أثناء المحرقة، لكن ما لم يتوقعه روبرت خلاله بحثه ذاك هو حجم الإنكار الشديد لما حدث في المحرقة، وهي بطبيعة الحال نزعة تحمل في طيّاتها تجاهل وإنكار المعاناة اليهوديّة بشكل عام، بل ويتعدّى الأمر حدود ذلك ليصلَ التقليل من شأن ومقدار تلك المعاناة.

كما التقى روبرت خلال بحثه الدؤوب بشخص يهوديّ غريب كان يدّعي بأن لديه ذكريات جميلة مع النازيّين! وقدّ فسّر روبرت هذه الظاهرة الغريبة من خلال أحد النظريات المثيرة للاهتمام فعلاً، حيثُ توصّل إلى استنتاج مفادهُ أن إنكار اليهود لما تعرّضوا له من ظلم واضطهاد كان بمثابة آلية ووسيلة لَجَأت إليها أجيال وأجيال من اليهود من أجل البقاء على قيد الحياة في ظل تلك الظروف القاهرة، الأمر الذي يُفسّر كيف تقبّل اليهود العيش في المُجتمعات العربية والمسلمة باعتبارهم "أهل الذمة" بكل صدر رحب فقط من أجل البقاء في تلك الدول [10].

صورة في القاهرة تجمع عائلة الكاتبة والصحفية المصرية لوسيت لنيادو المصرية صاحبة كتاب (The Man in the White Sharkskin Suit)، وهو الكتاب تتحدث فيه عن قصة حياة والدها (الشخص الطويل الذي يقف يسار الصورة).

فعلياً كان ولاءُ اليهود وإخلاصهُم للحكّام يمنحهُم قدراً من الأمن والأمان نتيجة حالة المزاجية والتقلّبات المستمرة التي اتّسم بها طبع المُسلمين المحيطين بهم، وتفسيرُ روبرت لهذا السلوك لا يفسرُ فقط لهفة بعض اليهود لإضفاء صبغة إيجابية على طبيعة علاقة اليهود بالنازيّين فحسب، بل إن نظريتهُ تفسّرُ أيضاً لماذا يُضفي الكثيرُ من اليهود صبغة إيجابية لوصفِ علاقتهم بالعرب بشكل عام رغم الاضطهاد والظلم الذي تعرضوا له في البلدان العربية. يقول روبرت في كتابه: "بشكل عام عندما كنتُ أسأل يهود المغرب وتونس عن تجاربهم الشخصية هم وعوائلهم خلال الحرب كانوا يردّون علي بأنها لم تكُن تجارب سيئة على الإطلاق. لكنّي أدركتُ بعد أن أجريت العديد من الحوارات معهُم بأن إنكار اليهود لما تعرّضوا له من مآسي وعذابات في العالم العربي كان جزءاً من استراتيجية شُموليّة جَماعيّة تبنّوها من أجل البقاء على قيد الحياة في ظلّ تلك الظروف القاسية" [11].

وفي السياق نفسه تتطرّقُ الباحثة بات يئورللتفسير نفسه واصفة تلكَ الظاهرة بـِ"مُتلازمة أهل الذمة" والتي تتطرقُ لرغبة الشخص بالتخلّص من ذكرياته المؤلمة. تقولُ بات يئور في هذا الصدد: "من لديه مثل هذه المتلازمة يرى في نفسه إنساناً عديم القيمة، وهو متقبّل تماماً لهذه الفكرة، الأمر الذي يجعلهُ يُقلّل من منزلة نفسهِ في ظل ظروف محيطة به تطغى عليها سِمة الانحطاط الماديّ والمعنويّ" [12]. وتُسهبُ بات يئور موضّحة بأن هذه المُتلازمة التي جعلت اليهود ينسلخون عن واقعهم المرير لمدة أربعة عشر قرناً من الظُلم والاضطهاد والإذلال، والتي كانت بالنسبة لهم تجربة مريرة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، تجربة ليس بالإمكان تجاوزها بتلك السهولة حتى ولو عاشوا جيلين مُتتاليين في أي دولة من دول العالم الحُرّ.

في الوقتِ نفسهِ تعترفُ سَمانثا إليس بمدى تأثير الاضطهاد الذي تعرضت له عائلتها في بغداد على حياتها الشخصيّة، حيثُ تم اعتقال والدة سَمانثا بينما كانت تحاولُ الهروب من العراق عبر كردستان، بالتالي نَقَلَت والدتها إليها ما عاشتهُ من خوف ورعب أثناء هروبها، خاصة عندما يتعلقُ الأمرُ بلَمس الشعر. تقول سَمانثا: "لا أطيقُ أن يلمسَ أحدٌ شعري، وقد تمكّنتُ مؤخراً من فهم السبب الذي يقف وراء ذلك، وهو ما تعرَّضَت له والدتي في العراق أثناء التحقيق، حيث قام المحقّقون بجرّها وسحلِها من شعرها، فلا عجبَ في كوني أجفلُ كلّما لمسَ أحدٌ شعري". [13]

وفي تجربة مماثلة يتحدّثُ البروفسور الفخريّ في الجامعة العبريّة شموئيلموريهوالذي كان معروفاً باسم سامي المُعلّم في العراق كيف أنه قرّر أن يرمي الماضي المؤلم في العراق وراء ظهره وأن يمضي قُدماً في حياته الجديدة حين قال: "العراقُ بالنسبة لي مثل الزوجة السابقة، مَن منّا يرغبُ بالبقاء على تواصل مع زوجته السابقة؟ ما يريده أحدُنا في مثل هذا الموقف أن ينسى الماضي ويَمضي قُدُماً". [14]

وممّا لا شكّ فيه أن نسبة كبيرة من اليهود الذين عاصروا إرهاب صدّام حسين وقيامه بتعليق المشانق لهم في الساحات العامة لا يشعرون بأي حنين لمثل هذا المكان، فيما لا يزال بعضهُم يعيش الصدمة التي كانت وطأتها عليهم كوطأة الزلزال المُدمّر. وفي هذا الموقف أستذكرُ قصّة لامرأة يهوديّة عراقية قامت بالإدلاء بشهادتها في أحد الأيام حول ما تعرّض لهُ اليهود من ظلم واضطهاد بعد أربعين سنة من مغادرتها للعراق، إلا أنها أصرَّت ألا يتم الكشفُ عن اسمها الحقيقي نتيجة لخوفها وقناعتها الراسخة بأن المخابرات العراقية تُراقبها، بالتالي قد تكتشفُ أمرها وتلاحقها مثلما كان يحدثُ في العراق في تلك الحُقبة.

وهنالكُ نسبة أخرى من يهود الدول العربيّة ممن عاصروا تلكَ التجارب المروّعة، الأمر الذي يجعل استذكارها غاية في القسوة والألم بالنسبة لهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر يستذكرُ يهود مصر ما مرّوا به من اعتقال تعسّفي بعد اتّهامهم بالانتماء للحركة الصهيونية، فكانت تتم مصادرة أملاكهِم ويتم اغتيالهم في الشوارع بمنتهى البساطة، كما لم يكن هناك أي احترام لحقوقهِم المدنية وتم لاحقاً تهجيرهم من مصر بشكل جماعي.

هذه جميعها تجاربُ مؤلمةً ومروّعة، إلا أنها غيرُ حاضرة في الذاكرة اليهوديّة المصريّة الجماعية مثلما يوضّح الدكتور دِفني تسِمحوني [15]. وفي هذا السياق يقولُلكاتب والمؤلف اليهوديّ أندريه أسيمان المولود في مدينة الإسكندرية وصاحب السيرة الذاتية (Out of Egypt)، والذي لم يشهد ذلك القدر من المعاناة إذا ما قورنت تجربته مع غيره، يقولُ أندريه: "مصرُ لم تكُن وطني لعقود طويلة، وبصراحة أنا لا أنظرُ إلى مصر باعتبارها وطناً لي بأي شكل من الأشكال، لأنني باختصار لا أنتمي لها. إن تجربة طفولتي وشبابي في مصر كانت تُختزلُ في البحث المتواصل عن سُبُل تجعلني أعتقدُ بأنني أعيشُ خارجَ ذلك المكان. نيويورك هي وطني الآن، أو بإمكاني أن أصفها على أنها شِبهُ وطن لي. ربّما يكون مفهوم الوطن مفهوماً دخيلاً بالنسبة لمن يعيشون في المَنفى، فعلياً لقد كان مفهوم الوطن مفهوماً دخيلاً بالنسبة لي خلال فترة حياتي في مصر". [16]

لاحقاً بدأت الحاجة لكسر حالة الصمت والبوح بتلكَ الذكريات المؤلمة على الملأ بالظهور تدريجياً بعد عقود من الصمت، فبدأت السيرُ الذاتيّة والغيريّة ليهود الدول العربيّة تنتشرُ شيئاً فشيئاً مع بدايات القرن الواحد والعشرين لأسباب مُختلفة، فبعضهُم كان يريدُ التّباهي بأصولهِ اعتقاداً منه أن التباهي بالأصول أصبحَ موضة دارجة في العصر الحديث، ومنهم من كان يشعرُ برغبة في استذكار واستحضار ماضيه، أما البعض الآخر فقد أرادوا لأبنائهم وأحفادهِم من بعدهِم أن يكونوا على علم ودراية بجذور أجدادهم وأصولهِم في تلكَ البلدان.

ذكرياتُ الطفولة الجميلة

إن يهودَ الدول العربيّة الذين يشعرون بالحنين للحياة في الدول العربيّة يُدركون تماماً بأنهم يحاولون زيارة أماكن موجودة في مخيّلتهِم فقط، وهُم يُدركون أيضاً بأن طردهُم من الدول العربيّة واجتثاثهُم منها كان قراراً نهائياً لا رجعة فيه حتى لو كان بإمكانهم زيارة تلكَ البلدان من وقت لآخر، ومثلما وضّحت الكاتبة اليهوديّة التونسية الأصل كوليه فِلّوس فإن زيارتهم لتلكَ البلدان لا تتعدّى كونها محاولة بائسة من قبلهِم لاستيعاب الواقع الذي يقول بأنه لا يوجدُ أي صلة تربطهُم بتلك البلدان بأي شكل من الأشكال [17]. لكن وعلى الرغم من هذه الحقيقة المرّة إلا أن خُرافة وكذبة التاريخ الجميل والحياة الرغيدة لليهود في الدول العربيّة لا زالت موجودة حتى الآن.

ومنذ النزوح الجماعيّ ليهود الدول العربيّة خلال النصف الثاني من القرن العشرين كانوا بأنفُسهِم ينشرون ذكرياتهُم الجميلة في دول العالم العربيّ، الأمر الذي يُعزى إلى أنهم كانوا أطفالاً صغاراً عندما نزحوا من تلك الدول، وغالباً ما ترتبط الطفولة بالذكريات الجميلة أكثر من أي شيء آخر. وكلّما كان ينتمي أولئك اليهود لطبقات اجتماعيّة راقية كلّما سَمِعنا ذكريات أجمَل، خاصة وأنهُم عاشوا وترعرعوا خلال فترة الاستعمار الأوروبي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وهي فترة زمنية عاشَ فيها اليهود نوعاً من الرخاء والاستقرار.

وقد برعَ اليهود في مجالات حياتيّة عديدة كالأدب والثقافة والرياضة، كما كان لهُم حضور بارز في عالم التجارة والمال والاقتصاد بشكل عام، وكانَت العائلاتُ اليهوديّة الثريّة تتمتّعُ بقدر من الحماية من قبل الدول الغربية، بالتالي عاش اليهود في تلك الفترة حياة رغيدة إلى حد ما، فكان لهُم الخدمُ والحشمُ وكانوا يَنتسبون للنوادي الترفيهيّة الفَخمة ويقيمون الحفلات الفارهة ويذهبون للتسوّق في أفخم المحلات التجارية والماركات العالمية في باريس، فيما كانت النساءُ المُترفاتُ يقضين أوقات الفراغ في جلسات احتساء القهوة صباحاً والتسلية بلعبة الورق المعروفة بلعبة الجسر (Bridge).

كذلك فقد خلقَ عالم التجارة والمال مجالاً للتعايش بين أبناء الطبقة البرجوازية في مُجتمعات العالم العربي، حيثُ اختلطَ اليهود بالمسلمين والمسيحيّين ونشأت بينهم علاقات وديّة وطيّبة، فكان على سبيل المثال لا الحصر يجتمعُ رجال الأعمال المسلمين مع رجال الأعمال اليهود للعب الورقِ – لعبة الجسر – في العراق، لكن ما كان لافتاً للنظر هو أن المُسلمين كانوا يحضرون إلى بيوت اليهود دون أن يَجلبوا زوجاتهم معهُم [18]. أما في مصر فقد كان يُسمعُ بين الحين والآخر عن زواج مُختلط بين الديانات من قبل أبناء الطبقات البرجوازيّة في الإسكندرية مثلاً، كما تمتّع أبناء تلكَ الطبقات الأرستوقراطيّة في مصر من كلا اليهود والمسلمين بعلاقات جيدة جداً مع العائلة الملكيّة الحاكمة آنذاك.

صورة تُظهرعدداً من الشبان اليهود المصريين أثناء زيارتهم للأهرامات في مصر

وبالنسبة للخدم والحشم فقد عُرف عنهُم الإخلاص والتفاني في خدمة العائلات الثريّة، وكان للأطفال اليهود أصدقاءٌ من أبناء العائلات المسلمة والمسيحيّة، بالتالي اكتسبوا معرفة جيدة عن ديانات بعضهم البعض [19]. كذلك فقد كانت العائلات اليهودية والمسلمة تتبادل الزيارات العائلية في المناسبات الاجتماعية الهامة مثل الأعراس وحفلاتالبارمِتزفاوالطهور وغيرها، كما تبادلوا الزيارات في مُختلف المُناسبات الدينية، فعلى سبيل المثال كانت العائلاتُ المسلمة تتشرّف بدعوة جيرانهم اليهود العراقيين لهم لحضور وليمة عشاء يوم سبت اليهوديّ المميز مثلاً - والتي كان يطلق عليها تبيت -، لكن العائلات المسلمة لم تكُن تدعو الجيران اليهود لتناول الطعام نظراً لكون العائلات اليهودية تلتزمُ بقوانين صارمة تُحدّد الطعام والشراب الحلال (الكوشِر) المسموح تناوله تبعاً للشريعة اليهودية. كذلك كان أمراً عادياً بالنسبة للعائلات اليهوديّة الفقيرة أن تتبادل إرضاع الأطفال مع النساء المسلمات، أما العائلات الغنية فكانت تجلبُ المرضعات، كما كان يحضرُ كلّ من اليهود والمسلمين في المغرب احتفالات عيد الميمونة الذي يتزامنُ مع انتهاء عيد الفصح اليهوديّ من كل عام.

لكن وعلى الرغم من الاختلاط بين العائلات المسلمة واليهودية إلا أنه كانت توجدُ ضوابط وحدود اجتماعية ودينية صارمة تضبطُ هذا الاختلاط، فعلى سبيل المثال يتحدثُ الكاتبُ اليهوديّ نعيم قطّان عن تجربته عندما كان طفلاً في بغداد خلال ثلاثينيات القرن المنصرم، فيذكرُ كيف خوفهُ من الذهاب الى السينما بمفرده في تلكَ الأيام [20]. كما يصفُ الكاتب والأكاديمي اليهوديّ بنيامين ستورا حالَ مدينته ومسقط رأسه مدينة قسنطينة في الجزائر قائلاً: "لقد كان الفصلُ بين التجمّعات السكانية ذات الخلفيات الدينية المختلفة أمراً شائعاً في تلك الفترة، وهو الأمر الذي أدى لاحقاً إلى ظهور مشاكل عديدة في مختلف أنحاء الدولة مثلما تعلمون، فقد كان اليهود مُنغلقين على أنفسهم عندما كان يتعلّق الأمر بعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، وهو الحال نفسهُ مع المسلمين والأوروبيّين حينها، بالتالي يُمكننا القول بانه لم يكُن هنالك اختلاط حقيقيّ بينهُم عندما كان يتعلّق الأمر بِخصوصيات كل معتقد". [21]

صورة تظهر فيها خَتونمئير جّدّة مؤلفة الكتاب خلال رحلة للتسوق في باريس عشرينيات القرن الماضي

صورة من حفلة زفاف لعائلة يهودية سورية

صورة لساحة بياتسا ديل ميونيسيبيو في مدينة بنغازي الليبية التي كان يقطنها عدد كبير من اليهود خلال عشرينيات القرن الماضي.

صورة من حفلة زفاف غلوريا وابراهامسُفايَر في بغداد (الصورة مأخوذة من مجموعة صوَر إيلي صلاح)

صورة لواجهة مطعم غروبّي كافيه الذي كان يرتاده يهود القاهرة

من جهة أخرى يوضّح الكاتب والفيلسوف اليهوديّ التونسيّ ألبير ممّيأن من يمتلكُون ذكريات جميلة في الدول العربية هم في الحقيقة من كان في أفواههم ملعقة من ذهب، يقول ألبير: "إن الذكريات الجميلة ليهود العالم العربي والتي يتفاخرون بها دوماً هي محضُ خرافة لا تمتّ للواقع بِصلة. والحقيقة التي يجبُ عليّ أن أوضّحها كما هي تكمنُ في أننا كُنا نعيش منذ الأزل في الدول العربية كأقليّة في بيئة تطغى عليها أجواء العِداء والكُره الشديد لنا. بالتالي مرّ اليهود بتجربة مريرة يملؤها الخوف والعذاب والبُؤس بأشكاله، لقد كنّا جماعة يُرافقها الشعور بالهشاشة والضعف طوال الوقت، ولم نتعدّ كوننا جماعة من المُستَضعفين المغلوب على أمرهم". [22]

صورة تُظهر عدداً من اليهود أثناء تناولهم للغداء خلال عيد السُّكوت -عيد العُرش اليهودي- في أحد النوادي الترفيهيّة في مدينة الخرطوم في السودان سنة 1948م (حقوق الصور محفوظة لِكورتسيدايزي عبّودي).

في الحقيقة كانت الغالبيّة العظمى من يهود الدول العربية تنتمي للطبقة الفقيرة الهشّة، وبالمناسبة فقد خسِر ألبير ممّي صديقهُ بِيسور أثناء أحد المظاهرات العنيفة التي اندلعَت ضدّ اليهود في تونس. يتابعُ ألبير قائلاً: "بالنسبة لنا نحنُ اليهود الفقراء فقد كنا نُحاول قدر الإمكان تجاهلَ ما كان يفعله الإقطاعيّون بنا، لقد كانت أبسطُ الأمور تُشعرنا بالفرح، مثل حضور فيلم في السينما أو عندما يُتمكن أحدنا من أن يُصبح طبيباً أو حتى عندما يمتلكُ سيارة. لقد كان يتوجّب علينا أن نغضّ الطرف عن تصرّفات وسلوكيات رجال الشرطة عندما كانوا يطاردون أصحاب البسطات المساكين، وعندما كنا نشعر بالإذلال والإهانة من بيروقراطية النظام في تعامله معنا. وفي الوقتِ الذي لم تشهد الأحياء الفارهة للطبقة الغنيّة من اليهود والمسلمين والمسيحيّين أي مذابح ومجازر، كان اليهود الذين يقطنون الغيتوهات المُزدحمة عُرضة مراراً وتكراراً للذبح والقتل، تلك الغيتوهات المنسيّة التي كان قدرُ ساكنيها أن يظلّوا عُرضة لهجمات مُعادي الساميّة، هيّ الغيتوهات ذاتها التي كان المُتظاهرون يكسرون أبوابها للبحثِ عن اليهود. خلال تلك الفترة التي لم نغادر فيها هذه المنطقة من حوض البحر الأبيض المتوسط كنا نشعرُ بأنه لا أحد يكترثُ بنا رغم تعرّضنا للمآسي والعذابات" [23].

وفي سياق المآسي الذي تحدث عنها ألبير ممّي، يذكرُ قصة مأساوية شاهدها بأم عينه، فيقول: " في إحدى الزقاق كان هنالك ولدٌ يهودي يلعبُ مع طفلة مسلمة في حيّ طارفون، حيث قام الولد من باب المزاح بأخذ حلقِها الذي كانت تضعه في أذنها، وعن طريق الخطأ أدّى هذا الى تمزّق حلمة أذنها. ظلّ بيت عائلة الطفل اليهوديّ مُحاصراً لثلاثة أيام على التوالي من قبل سكان الحيّ الذين رفضوا أخذ أي تعويض تطلبهُ عائلة الطفلة، فيما كانوا مُصرّين أن يفعلوا بالطفل ما فعله بالطفلة رغم كونه لم يقصد ذلك، لقد أصرّوا على انتزاع حلمة أذن الطفل وتمزيق أذنه". [24]

كما يذكرُ ڤيكتور حيّون تجربة مماثلة من طفولته، وڤيكتور هو أحدُ الناجين من مذبحة قابِسسنة 1941م، والذي يوضّح في حديثه عن تجربته كيف كان والده عاجزاً عن حمايتهِ عندما كان جيرانه العرب يعتدون ضدّ اليهود. يقول ڤيكتور: "لقد كانت تصرّفات جيراننا العرب تذكّرني في طفولتي بأننا كُنّا دوماً نقبعُ تحت رحمة سادة هذا المكان، أي العرب، وأن تصرّفاتهم كانت تهدفُ إلى تذكيري بأنني أعيشُ وضعاً مضطرباً في هذا المكان. لقد عشتُ تجارب مُختلفة مع جيراننا العرب، عشتُ تجربة الأخوّة معهُم، إلا أنني أيضاً رأيتُ إذلالهُم وإهانتهُم لنا، بل وصل الأمرُ إلى حدّ ارتكابهم المذابح بحقّنا، حيث لا تزالُ أحداث مجزرة قابِس عالقة في ذاكرتي حتى يومنا هذا. جميع هذه الأحداث تُذكّرني بأن أبي لم يكن باستطاعته حمايتي منهُم، وبأن حياتي كانت تحت رحمتهِم طوال الوقت". [25]

أما في المغربِ فتتحدّثُ بينينا إلْبازعن الطبقة الثريّة من يهود المغرب مُتهمّة إياهُم بالتقليل من شأن الأعمال المعادية للسامية التي شهدتها خلال طفولتها والتي كان يدفعُ ثمنها دوماً اليهودُ الفقراء فقط، خاصة أولئك الذين كانوا يعيشون في نفس الأحياء جنباً إلى جنب مع المسلمين في المغرب. تقول بينينا: "ولأن بعض اليهود الأغنياء كانت لهُم مصلحة في أن يكونوا سُفراء للمغرب عبر الحديث عن ماضيهم الجميل في المغرب آنذاك، فإنهم لم يقوموا بتوثيق الاضطهاد والظلم الذي تعرض له اليهود المغاربة، خاصة اليهود الذين كانوا يعيشون بجوار الأغلبية المُسلمة، بل وصل الأمر بأولئك الأثرياء اليهود إلى حد إنكار هذا الاضطهاد والظلم وكأنّه لم يحدث أصلاً. لقد كانت حياتنا مهدّدة بالخطر في كل يوم، ولديَّ الكثير من الشواهد والإثباتات على هذا الأمر، فعلى سبيل المثال قام عددٌ من المسلمين في أحد من الأيام بدفعِ عمّتي وإلصاقِها بالجدار، الأمر الذي أدّى إلى كسر عظام كتفيها، هذا عدا عن تعرّض أحد قريباتي التي كانت تبلغُ من العمر أربعة عشر عاماً حينها للتهديد بالقتل بعد أن قام أحد المسلمين بدفعِها بمحاذاة جدار ووضع سكينه على رقبتها". [26]

صورة لطابع بريدي يُظهر عدداً من النساء اليهوديّات في منطقة تِل مِل في جبال أطلس في المغرب (الصورة مأخوذة من مجموعة صور لورانس جوليوس).

والحال نفسهُ بالنسبة لطبقة الأثرياء من يهود العراق ممن يستذكرون تجاربهم الجميلة وحياتهم الرغيدة مع خدمهم وحشمهم المسلمين، إلا أن سليم فتّال لهُ رأي آخر في هذا الموضوع، سليم الذي عاش تجربة طفولة كانت تتّسم بالفقر المُدقِع حينها، حيثُ أُجبِرَ على العمل وجلبِ قوت يومه منذ نعومة أظافره، ورغم عمله إلا أنه لم ينقطع عن تعليمه المدرسي الذي كان يؤدّيه ليلاً. لقد كانت والدتهُ الأرملة تحلمُ باليوم الذي ترى فيه أبناءها الخمسة علماء وأطباء ومحامين ومهندسين وشعراء، لكنها كانت تُدرك تماماً أن هذا الحلم لن يرى النور في العراق. لقد حقّق سليم حلم والدته، فأصبح شاعراً مرموقاً ولاحقاً أصبح صحفياً ناجحاً ومخرج أفلام وواحداً من مؤسسي قنوات التلفزيون الإسرائيلي الناطقة باللغة العربية. تزخرُ ذاكرة سليم في بغداد بالكثير من الأحداث المُحزنة التي رافقت طفولته والتي وضعها جميعاً في سيرته الذاتية التي أطلق عليها اسم "في أزقّة بغداد" (In the Alleys of Baghdaha). [27]

صورة لعدد من النساء اليهوديات وأطفالهن ممن بقوا في بغداد خلال خمسينيات القرن المُنصرم

ويتحدّث سليم في كتابهِ عن تجارب مُختلفة عاشها أثناء طفولته في العراق، حيث تنوّعت هذه التجارب ما بين القسوة والعذابات والمآسي، فيذكرُ مثلاً فترة خضوع العراق لحكم العثمانيين وإجبارهم للشبان العراقيين اليهود في حيّ تطران– حيث نشأ وترعرع سليم – على الخدمة الإجبارية في صفوف الجيش العثمانيّ خلال فترة الحرب العالمية الأولى، في الوقت نفسه يذكرُ سليم كيف كان يتمّ إعفاء الشبان اليهود الأغنياء من القتال في صفوف الجيش العثماني، وهنا يستذكرُ سليم كيف تم إجبار أخيهمناشيهعلى القتال في صفوف الجيش العثماني رغم الجهود الحثيثة لجدّه لإخفائه عن أعين الأتراك. لاحقاً توفّي أخوه مناشيه مُتجمّداً من البردِ عندما كان يقاتل في أحدى الجبهات الأمامية مع الجيش العثمانيّ.

وتعود المصائبُ لملاحقة عائلة سليم، فقد تم اختطاف عمّه مئير وقتله لاحقاً خلال أحداث الفرهود سنة 1941م، وحتى يومنا هذا لم تتمكن العائلة من معرفة مكان جثته. ويوضّحُ سليم كيف كانت عائلته مُجبرة على دفع الرشاوى لأحد أفراد الشرطة حتى يتجنّبوا قيام المُتظاهرين بالاعتداء على العائلة بالذبح والاغتصاب مثلما كان يحدث مع العائلات اليهودية الأخرى، فكانت تدفعُ عائلة سليم لأحد رجال الشرطة نصف دينار عراقي مقابل كل طلقة يُطلقهُا من أجل حماية العائلة. ويواصل سليم الحديث في مذكراته عن عمّ آخر له كان قد انتحر من خلال الإفراط في شرب السجائر محاولاً الهرب من ذلك الواقع المأساوي، وعمّه الثالث الذي تم خداعه من قبل اثنين من البدو والذين أقنعوه بأنهم سيقومون بتهريبه من العراق عبر الصحراء، إلا انه وُجد مقتولاً في الصحراء في وقت لاحق.

وفي هذا السياق يتابعُ الكاتبُ التونسي ألبير ممّيحديثه عن طفولته في المغرب، كونه نشأ وترعرع في أحضان عائلة يهودية مغربية فقيرة جداً، يقول ألبير: "كلما استرجعتُ ذكريات طفولتي والقصص التي كان يرويها لي أبي وأجدادي وأعمامي وأخوالي عن تلك الفترة من حياتنا، كلما تذكَّرت كيف أن التعايشَ مع العرب لم يكُن أمراً مُرهِقاً لنا فحسب، بل كان بمثابة تهديد مُتواصل لحياتِنا". [28]

وقد انتهى المطاف بيهود الدول العربيّة بالرحيل من أوطانهم، أيا كانت طبقاتهم الاجتماعية وبغضّ النظر عن كونهم أغنياء أو فقراء، سعيدين أم بائسين في حياتهم، وهو الأمر الذي وصفهُ روبَرت سَتلوف بدقة قائلاً:" يظلّ هذا الحنين عالقاً في حاشية الذاكرة وهوامشها، فاليهود بنهاية المطاف لم يغادروا دول العالم العربي من تلقاء أنفسهم، بل كان هنالك سبب واضح أجبرهُم على المغادرة والرحيل". [29]

رِواياتٌ تاريخيةٌ مُتضارِبة

لقد عاش اليهود جنباً إلى جنب بجوار المسلمين لفترة زمنية امتدّت لأربعة عشر قرناً، إلا أن الروايات التي تتحدّثُ عن تلك الفترة كانت مُتضاربة إلى حد ما، لكن ومن بين هذه الروايات المتضاربة هنالك روايتان مثيرتان للاهتمام وتستحقان التفكير فيهما مَلياً. الرواية الأولى هي الروايةُ المُحزنة لتاريخ العلاقات العربية اليهودية، حيث تَعتبرُ هذه الرواية أن خروج اليهود من الدول العربيّة كان نتيجة لماضي العرب وتاريخهم الطويل في اضطهاد الأقلّيات اليهوديّة وارتكاب التطهير العرقيّ بحقها، والذي بلغَ ذُروته عَقِب قيام وتأسيس دولة إسرائيل [30].
وتستندُ هذه الروايةُ على ما وضّحهُ الحاخام اليهودي المعروف موسى بن ميمون في القرن الثاني عشر للميلاد من خلال ما كتبه في رسالته الشهيرة والمعروفة باسم الرسالة اليمنية، حيث يقول موسى بن ميمون في رسالته مُخاطباً يهود اليمن: **"تذكروا، يا أخوتي في الدين، أنه بسبب كثرة آثامنا، رمانا الله وسط هذه الشعب، أي العرب، الذي اضطهدنا بشدة، وأصدر بحقنا قانوناً مهلكاً وتمييزياً، وذلك كما حذرنا مسبقاً الكتاب المقدس، «وبذلك أعداؤنا حاكمون» (تث 31:32). فإنه لم تضايقنا أمة قط أو تهيننا وتحط من قدرنا وتكرهنا بقدر مافعلوا هم"**. [31]

صورة لطفلة يهوديّة صغيرة في بغداد خلال خمسينيات القرن المنصرم

وحتى موسى بن ميمون نفسهُ لم يسلَم من ظلم واضطهاد المسلمين له، فقد فرّ هارباً من وطنه نتيجة للاضطهاد الذي تعرّض له على يد الموحّدين من البَربَر، ويعتقدُ بأنه أخفى هويته كيهودي واعتنقَ الإسلام بشكل مؤقت في المغرب قبل أن يهربَ مرة أخرى إلى مصر. وبعد أقل من مئة سنةٍ من دعوة العثمانيّين لليهودِ للفرار الى الأراضي العثمانية عقب فرارهم من محاكم التفتيش الإسبانية، قام السلطان العثماني مراد الثالث بإنشاء محاكم تفتيش لليهود مشابهة إلى حد ما تلكَ التي أقامها الإسبان. [32]

أما بالنسبة للرواية الثانية فكانت رواية التعايش، حيث تقول هذه الرواية بأن الديانات جميعها قد تعايشت مع بعضها البعض في "العصر الذهبيللإسلام" والذي بلغ ذروتهُ في إسبانيا (الأندلس) خلال فترة القرون الوسطى. حقيقة فقد كانت الأندلس معقلاً للحياة اليهوديّة في بدايات القرون الوسطى، وأنتج اليهود خلالها موروثاً فكرياً نهضَ بالأدب العبريّ والعربيّ، الأمر الذي أدى إلى ازدهار الثقافة الإسبانية أيضاً. وفي هذا الصدّد تدّعي الباحثة المتخصصة في الأدب الأيبيريّ (شبه جزيرة أيبيريا التي تضم إسبانيا والبرتغال) ماريا روزا مِنوكالبأن "التسامح كان صفة بارزة لتلك الفترة الزمنية، وان هذا التسامح كان جزءاً لا يتجزأ من المُجتمع الأندلسيّ". كما وتدّعي ماريا في كتابها الذي أطلقت عليه اسم (The Ornament of the World) بأن حياة اليهود تحت ظلّ الخلافة الإسلامية في الأندلس بصفتهم "أهل الذمة" وتمتّعهم بحقوق أقل من الحقوق التي تمتّع بها المسلمون كانت أفضلَ بكثير من حياة اليهود في المناطق التي سيطرت عليها المسيحية في أوروبا. [33]

لقد تمتّعَت المُجتمعات اليهودية في الأندلس بالقدرة على استيعاب وفهمِ اللغة والثقافة العربيّة لدرجة أثرت بشكل كبير جداً على طبيعة علاقة اليهود باللغة العِبريّة، بل وأعادَت تعريف طبيعة علاقتهم بها، حيث تطوّرَت لغتهُم العبرية من الناحية القواعديّة والمفردات استناداً إلى القواعد والمفردات الموجودة في اللغة العربيّة. كما أن وجود نصوصٍ قرآنية على جدرانِ كنيس لي ترانسيتو– الذي بُني على يد صموئيل هاليفي أبو العافية - في مدينة توليدو (طُليطلة) الإسبانية هو أمرٌ مدعاة للغرابة، خاصة وأنّها كُتِبَت على جدران الكنيس بعد ثلاثمائة سنة من سقوط الخلافة الإسلامية في الأندلس، أي دون أن يفرض أحدٌ كتابتها على جدران الكنيس. [34]

صورة يظهر فيها كنيس إل ترانسيتو في مدينة توليدو الإسبانية

لقد استطاع العديد من المُترجمين اليهود في إسبانيا أثناء حكم المسلمين لها في القرون الوسطى مساعدة العديد من المتعلّمين والمفكرين الفرنسيّين والإيطاليّين والإنجليز على اكتشاف الإرثِ الفكري اليونانيّ آنذاك، كما ساهمَ العديد من أولئكَ المترجمين في ترجمة أعمال الفارابي وابن رشد الى اللغة العبرية ومن ثم إلى اللغة اللاتينية. وقد شهدت الفترة الزمنية الممتدة بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر للميلاد حركة ترجمة واسعة للنصوص الآرامية واليونانيّة إلى اللغة العربيّة على يد المُترجمين اليهود، لكن هذا لم يكُن سبباً كافياً ليشفع لليهود أو يحميهم من الظلم والاضطهاد آنذاك، حيثُ يعلّقُ الأستاذ بيتر كول المتخصص في الشّعر والأدب خلال فترة العصر الذهبيّ للأندلس على ما شهدته تلك الفترة قائلاً أن "الثقافة السائدة في الأندلس كانت في أفضل حالاتها تمنحُ اليهود قدراً من الحرية الدينية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية بقدر أكبر من الذي تمتّعوا به في ظل المُجتمعات التي لم يسيطر عليها المسلمين خلال فترة القرون الوسطى. أما في أسوأ حالاتها فكانت تعني لليهود الضرائب الباهظة والظلم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. وعندما بلغ السوء أقصى درجاته فقد بدا واضحاً أن إجبار اليهود على تغيير ديانتهم والهجرة بل وارتكاب المذابح الدموية بحقهم هو مسألة وقت ليس إلا". [35]

وتبعاً للمؤرخ برنارد لويس فإن فكرة التسامح الإسلاميّ كانت واحدة من أكثر الخرافات انتشاراً عبر التاريخ، والتي روّجَ لها العديد من المثقفين والمفكرين خلال فترة القرن التاسع عشر، حيثَ كان يهدفُ المفكّرون والمثقفون اليهود إلى استخدام هذا الأمر لإحراجِ الغرب حتى يمنحَ يهودَ أوروبا قدراً أكبرَ من الحقوق المدنيّة، بالتالي فإن إيمانهم بالتسامح الإسلامي كان نتيجةً أكثرَ من كونه سبباً لتعاطف اليهود مع الإسلام. وبحسب ما يضيفه برنارد في هذا السياق فإن هذه الخرافة قد بدأت بالانتشار فعلياً في القرن التاسع عشر للميلاد على يد يهود أوروبا ليكون بمثابة مأخذ على ما ارتكبته المسيحيّة الأوروبيّة بحقّ اليهود، وهوَ ما أصبحَ مأخذاً للمسلمين على اليهود في وقتنا الحالي. يقولُ برنارد في هذا الصدد: "إن كان يُقصدُ بالتسامح عدم وجود الظلم والاضطهاد فإن هذا يعني أن المُجتمع الإسلامي الكلاسيكيّ مُتسامحٌ مع رعاياه اليهود والمسيحيّين، وربما بدرجة أكبر من أن تقارن مع تسامح إسبانيا وبعض دول الشرق، بل حتى المناطق التي حكمتها المسيحية خلال فترة القرون الوسطى. أما إن كان يُقصدُ بالتسامح غياب التمييز بين الرعايا فإن الإسلام لم يكُن مُتسامحاً بأي شكلٍ من الأشكال مع رعاياه، بل يُمكننا وصفهُ بالعكس تماماً، حيثُ يُصرّ الإسلام على تفوّق المُسلم على غيرهِ من البشرِ باعتباره وحدهُ المؤمن بدين الحق، وبأن تفوّقَ المُسلم على غيره ليس تفوّقاً دنيوياً فحسب، بل هو تفوّق في الحياة الآخرة أيضاً ". [36]

لكن وعلى الرغم من إصرار اليهود على نشر خرافة تسامح المُسلمين وكونهم أكثر تسامحاً مع غيرهم، إلا أن الادعاء بان العالم العربيّ كان أكثرَ تسامحاً من غيره يعني باختصار التقليل من شأنِ التسامح كقيمةٍ إنسانية سامية. يذكرُ الكاتبُ وِل برمان في هذا السياق وجودَ كتاب "تاريخ اليهود" للمؤلفِ هينريخغرايتزعلى رفّ كل مكتبة في كل بيت يهوديّ [37]، غرايتز الذي يقول في كتابه: "لقد كان للدين الإسلامي أثرٌ كبيرٌ على التاريخ اليهوديّ وتطوّر اليهودية"[38]، بالتالي أصبحَ العصرُ الذهبيّ لتعايش المُسلمين مع اليهود في إسبانيا بمثابة ورقة رابحة بيد المسلمين لتأكيد هذه الخرافة [39]، حيثُ يُصرّ مُصدّقو هذه الخرافة على وجود حياة رغيدة عاشها المُسلمون واليهود جنباً إلى جنب حتى دمرّت أواصر الأخوّة بينهم على يد "الغرباء" مِن المُستعمرين والقوميّين والصهاينة، والذين نجحوا في تحويل المُسلمين واليهود من أعزّ الأخوة ليصبحوا ألدّ الأعداء لبعضهم البعض.[40]

أما الأصوات التي تُعارضُ هذا الطرحَ فإنها ترى بأن فكرة كون الأندلس بمثابة "الجنة" لا تتخطّى كونها خرافة لا تمت للواقع بأي صِلة، وبأن هذا الحقبة التي يتغنّى بها البعض باعتبارها "عصراً ذهبياً" تحت حكم الأمويّين في القرون الوسطى كانت فعلياً حُقبة للاضطهاد والظلم وقطع رؤوس البشر وصلبهِم" [41]. في الحقيقة فإن المروّجين والمُصدقين لهذه الخرافة يتجاهلونَ ما قام به الأصوليّون المسلمون من الأمازيغ إضافة إلى المرابطين والموحّدين خلال فترة حكمهم للأندلس والتي امتدت لقرابة المئة سنة، تلك الفترة التي شهد فيها حكمهم هجرات جماعية لليهود من الأندلس، وحتّى الفيلسوف المعروف موسى بن ميمون لم يسلم من شرّهم واضطر للفرار من الأندلس من اجل النجاة بحياته. كما كان النظام الإسلامي الذي حكم الأندلس لسبعة قرون – حتى سقوط غرناطة سنة 1492م – يتأثر بقسوة ووحشيّة أنظمة الحكم المسيحية، وكان يتصرف خلال فترات زمنية قُبيل سقوط الأندلس بعنف ووحشية يصعبُ التنبؤ بها في كثير من الأحيان.

في الوقت نفسهِ يدّعي مُؤيّدو خرافة "العصر الذهبي للعلاقات الطيبة بين المُسلمين واليهود في الأندلس" بأن اليهود لم يشتكوا من الظلم والاضطهاد تحت حُكم المسلمين بقدر ما اشتكوا من الظلم والاضطهاد الذي تعرّضوا له تحت حُكم المسيحيّين، بالتالي لم تكُن حياة اليهود تحت حكم المسلمين بتلكَ الدرجة من المأساوية. يقولُ المُفكّر والباحث مارك كوهين في هذا الصدد بأن توثيقَ اليهود لمعاناتهم ومآسيهِم كان ركيكاً للغاية ولم يكُن يتضمّن قدراً كبيراً من الحقائق لما حدث بالفعل، ولنأخذ على سبيل المثال ما قام به اليهود من توثيق لما تعرّضوا له من مجازر ومذابح في غرناطة سنة 1066م وما وثّقوه من ظلم واضطهاد على يد الموحّدين في المغرب، إضافة لما تعرّضوا له من تعذيب وظلم في اليمن. إن المُتتبع لما وثّقهُ اليهودُ حينها سيلاحظُ شُحّ المصادرِ التي توثّقُ ما تعرَض له اليهود من ظلم واضطهاد في العالم الإسلامي خلال تلك الفترات، بل وسيجدُ بأن البيئة التي وُجدَت بها تلكَ المصادر لا تُشير بوضوح كافٍ إلى كمية وشكل العنف والظلم الذي تعرض له اليهود لأنهم يهود، بل سيجدُ أنها مملوءة بالأسى والذكريات المؤلمة عندما كانوا في البلاد التي حكمها المسيحيّون بقدر أكبرَ بكثير من ذكرياتهِم ومآسيهِم تحتَ حُكم المُسلمين. [42]

في الوقتِ نفسهِ يوضّحُ مارك كوهين أن غير المُسلمين قد تمتّعوا بقدر من الاحتواء والأمن والأمان خلال الفترة الزمنية التي بدأ يظهرُ فيها الإسلام، إضافة إلى فترة العصر الذهبيّ للإسلام التي حكم فيها الإسلام بقاعاً كثيرة من العالم، مُستعرضاً أحدَ المواقف للخليفة الحاكِم بأمر الله في القرن الحادي عشر في مصر والمعروف بالخليفة الغاضب، حين قام حشدٌ من المسلمين بالاعتداء على جنازة لأحد اليهود، فكان الاعتداء على الجنازة أمراً مألوفاً حينها نظراً لأنه يخرقُ ما تم تحديدهُ لأهل الذمة من ضوابط للطقوسِ الدينية التي تُقام على الملأ. وعندما احتجّ اليهودُ أمام الخليفة الحاكم بأمر الله وطالبوه بالنظر فيما حدثَ ألقى باللوم على المُسلمين لأنهُم أدلوا بشهادات غير صحيحة حول هذا الموقف. لكن في الوقت نفسه فإن ما وَجد لتوثيقِ هذا الحدثَ لم يتعدّ ما وثقّهُ اليهودُ خلال أحدِ أيام الصيام عبر أغاني البيئوتيم الدينيّة والسليحوت التي يتم ترديدها عادة خلال أيام الصومِ اليهوديّ طلباً للغفران من الله.[43]

ومن الواضح أن مارك كوهين يُحاول التقليل من شأن ما قام به المسلمون الموحّدون في المغرب عندما أجبروا اليهود على ترك اليهودية واعتناق الإسلام، حينما وصف ما حدث بأنه "لم يكن بذلك القدر من السوء"، مقتبساً ما كان يقوله موسى بن ميمون الذي كان يحاول إخبار اليهود الذين أجبروا على اعتناق الإسلام بأن لا داعي للشعور بالذنب نتيجة اعتناقهم للإسلام، فالإسلام يحاربُ فكرة الأوثان والأيقونات الموجودة في المسيحية، وخلافاً للمسيحيّة أيضاً فإن الإسلام لم يُخيّر اليهود بين قتلهم لأنفسهم أو اعتناق المسيحيّة، بل كان مطلبُ الإسلام يتمثّلُ فياعتناق الدين الإسلاميّ فقط. وعلى الرغم من إظهار أولئك المُعتنقين للإسلام من اليهود بأنهم أصبحوا مسلمين إلا أنهم ظلوا يحتفظون بجذورهم اليهودية، بل وعادوا إلى ديانتهم اليهودية خلال فترة زمنية لاحقة، تماماً مثلمافعل موسى بن ميمون نفسه خلال مرحلة معينة عندما ساد مناخ محيط به يسمح بذلك.

كما يبدو أيضاً أن أفكار مارك كوهين وادّعاءاته تُخالفُ تماماً ما ذكرته بات يئور، بل إن التوفيق بين وجهات نظريهما يكاد يكون مستحيلاً. وبات يَئور هي كاتبة وباحثة مُتخصصة في مجال أهل الذمة، وتوضّحُ في كتاباتها بأن مارك كوهين لم يتجرأ حتّى على ذِكر كلمة "أهل الذمة" في كتاباته [44]، فيما توضّحُكيف أن الحماية التي تم منحُها لأهل الذمة من غير المُسلمين كانت بمثابة إيقاف مؤقت للأيديولوجية الجهادية الإسلامية ضدّ "الكفار". وفي الحقيقة وعلى الرغم من عدم وقوع حوادث حرق للتلمود في العالم العربي إلا أن هذا لا يُعفي الإسلام من حقيقة عدائهِ للساميّة.

بالتالي فإن التفسير المنطقيّ الوحيد لقلّة وجود الذكريات المؤلمة من تلكَ الفترات الزمنيّة المُظلمة في مصادر التاريخ اليهودي يكمنُ في أن كونهم عاشوا كأهل الذمة يعني عدم وجودِهم من الأساس بالنسبة لنظرتهِم لأنفسهِم. بالتالي قام اليهود بشكل خاص، وغير المسلمين بشكل عام، بتجميل صورة حكامهم آنذاك وتزييف حقيقة ما تعرّضوا له من ظلم واضطهاد بل والتقليل من شأن ذلك الظلم لسبب واضح جداً، وهو محاولتهُم المستميتة من أجل البقاء. وعلى الرغم من عدم وجود اليهود تحت حُكم المُسلمين في الوقت الحاليّ إلا أن متلازمة أهل الذمة لا زالت ترافقهم حتى يومنا هذا. [46]

وبالنسبة للخرافة القائلة بأن الحكام المُسلمين كانوا أكثرَ تسامحاً من الحُكام المسيحيّين فهنالك أمثلة كثيرة تثبتُ عدم صحّة هذه الخرافة، فعلى سبيل المثال لا الحصر يقولُ المُفكّر والأكاديمي بول فِنتونأن أكثر من ثلاثة آلاف يهوديّ قد تعرّضوا للقتل في غرناطة سنة 1066م خلال أحداث عنف نشبت ضد الوزير اليهودي جوزيف بن نغريلا، وهو عدد يفوقُ عدد اليهود الذين تعرّضوا للقتل في حوض نهر الراين مثل قرى سبيرز وورمزومايتز، وهي مناطق عاش فيها اليهود تحت الحُكم الصليبيّ في الفترة الزمنية ذاتها [47]. والحال نفسهُ في مناطق أخرى مثل اليمن وإيران والتي عاش اليهود فيها كأقليّة سكانيّة، فكانت معاناتهُم وإذلالهم إجبارهُم على اعتناق الإسلام من سِمات حياتهِم تحت حُكم الشيعة، أضِف إلى ذلك المعاملة الوحشيّة التي عوملَ به يهود المغرب من قبلِ الطائفة المالكيّة السُنّية، والذين عاملوا اليهود على وجه التحديد بمنتهى القسوة، خاصة بعد أن قام المالكيّون بالقضاء بشكل كلي على الوجود المسيحيّ في منطقةِ شمال إفريقيا. [48]

وعموماً فإنه ليسَ من السهل إجراء مقارنة بين المجازر الدمويّة التي تعرّض لها اليهود في ظلّ الحكم الإسلامي من جهة، والمجازر التي تعرّضوا لها في ظل الحكم المسيحيّ من جهة أخرى، لكن مثلما يوضّحُ ألبير ممّيفإنه لو تم إجراء مثل هذه المقارنة من بداية حُكم كل منهما حتى نهايته لوجدنا أن صورة العُنف الذي تعرض له اليهودُ تحت حُكم المسلمين تختلفُ عنها في ظلّ حُكم المسيحيّين. يقولُ ألبير في هذا الصدد: "لو استثنينا المجازر والجرائم التي تعرّض لها اليهود في القرن العشرين على يد كيشنيف ولاحقاً على يد ستالين في روسيا، إضافة الى ما تعرَض له اليهود من جرائم وحرق وقتل على يد النازيّين، لوجدنا أن العددَ الكلّي للضحايا اليهود الذي قُتلوا خلال فترة الحُكم المسيحيّ بأكملِها لا يتجاوزُ عدد الضحايا اليهود الذين قُتلوا في المجازر التي شنّها العربُ ضد اليهود في مناطق الحُكم الإسلاميّ خلال الألف سنة الماضية" [49].

في السياق نفسه يدّعي البعضُ بأن وتيرة تِكرار المذابحَ المدبّرة ضد اليهود في بلدان العالم الإسلامي كانت أقلّ بكثير منها في بلدان العالم المسيحيّ، إضافة إلى نُدرة الحوادث التي تعرّضَ فيها اليهود للتهجير والطرد من بلدان العالم الإسلامي[50]، وخلال أربعة عشر قرناً من حياة المُسلمين واليهود مع بعضهم البعض كانت هنالك فترات زمنيّة شهدت احتضان الحكام المسلمين لليهود، مثل صلاح الدين الأيوبي الذي طلبَ من اليهود العودة إلى مدينة أورشليم القدس سنة 1190م بعد أن كان محظوراً على اليهود التواجد فيها خلال حُكم الصليبيّين. أما بالنسبة للمسيحيّين الذين كانوا يتبعون الصليبيّين – والذين كانت عقوبتهُم القتلُ آنذاك – فقد سُمح لهُم بافتداء أنفُسهم بالنقود، أما الذين لم يكونوا يملكون النقود فقد تم اعتاقهُم وإطلاق سراحهم دون أي مقابل.

تمثالٌ للحاخام المعروف موسى بن ميمون في مسقط رأسه قرطبة

أما موسى بن ميمون الذي يُعدّ واحداً من أعظم المفكّرين اليهود فقد كان الطبيب الخاصَ بصلاح الدين الأيوبي وجزءاً من بلاطه الملكي، فيما رحّبَ العُثمانيّون باليهود - وغيرهم من الأقليات الأخرى- في إسطنبول خلال فترة الاضطهاد التي تعرّضوا لها على يد محاكم التفتيش الإسبانية. أضِف إلى ذلك ما شهده القرن السادس عشر عندما مُنِح اليهود قدراً من الحرية الدينية نسبيّاً في صفد وطبريا نتيجة للعلاقات الطيبة بين السلطان العثماني وعدد من اليهود السفرديّين من الطبقات الأرستوقراطية مثل دونا غراسياوابن أخيها جوسيف ناسي، والذين شجّعوا اليهود على ترك إسبانيا والانتقال للحياة في طبريا وصفد.

وبشكل عام فقد تم تسليط الضوء بشكل كبير على حقيقة هروب اليهود من محاكم التفتيش الإسبانية إلى المغرب وتركيا وإيرتزيسرايل - أرض إسرائيل-، هذه المناطق التي كانت خاضعة للحُكم الإسلامي، لكن ما لم يتطرّق إليه الكثيرون في هذا السياق هو انتقال اليهود السفرديّين لمناطق أخرى من العالم مثل هولندا ومناطق شمال أوروبا التي كانت تخضع للحكم المسيحيّ، حيثُ أسس اليهودُ السفرديّون في تلك المناطق الطائفة اليهوديّة البريطانية في القرن السابع عشر للميلاد.

إمكانياتٌ وقدرات غيرُ مألوفة

لم يكن السببُ وراء استقبال العثمانيين لليهودِ الفارّين من محاكم التفتيش الإسبانية هو حبّهُم لليهودِ أو حرصهُم على حياتهِم بقدر ما كان دافعاً براغماتياً بحتاً، حيثُ كان اليهودُ يمتلكون سمات ومهارات قيّمة من وجهة نظر الحكام، فاليهود معروفون بعقليتهم التجارية الفذة، أضِف إلى ذلك ما تمتّعوا به من علاقات تجاريّة واسعة النطاق مع اليهودِ في شتّى بقاع العالم. كما عُرف عن اليهود أيضاً الصدقُ في كافة تعاملاتهم، فكان التونسيّون في جزيرة جِربة مثلاً يستخدمون عبارة "بِحقّ اليهود" للحِلفان إذا أرادوا من أحد تصديقهم فيما يتعلقُ بسعر أو جودة بضاعة معينة، وهي عبارة بمثابة القسم كان يستخدمها اليهود بغرضِ التأكيد على صدقهِم ومصداقيتهم[51].

ومن ناحية دينيّة فقد كان يدركُ المُجتمعُ المُسلم بأن اليهودَ يتمتّعون بعلاقة روحية خاصة تربطهُم بالله، فعلى السبيل المثال لا الحصر، كان يتزامنُ هطولُ المطر بداية الخريف في بغداد مع الصلواتِ والأدعية اليهوديّة للمطر خلال عيد السُّكوت اليهوديّ – عيد المظلّيات أو عيد العُرش باللغة العربية –، فكان المُسلمون في العُراقِ يقولون لبعضهِم البعض عندما يهطلُ المطر: "لا بدّ وأن العيدَ اليهودي قد انتهى الآن"، إدراكاً منهُم بأن الله يستجيب لدعاء اليهودِ بهطول المطر خلال هذا العيد[52].

أما في المغرب فقد كان ينظرُ عامة المغاربة إلى اليهود على أنّهُم أناس يتمتّعون بسمات خارقة للعادة، فعلى سبيل المثال كان علاجُ الأمراض على اختلافها تخصّصاً يهودياً بحتاً يقوم به الحاخامات ورجال الدين اليهود، كما وكانت تتوجهُ النساء المُسلماتُ العقيمات إلى حاخامات اليهود على أمل مساعدتهِنّ في الإنجاب، فقد كان أمراً شائعاً حينها أن يتوجهُ الناسُ لحاخامات اليهود والأولياء الصالحين من أجل مساعدتهِم فيما يتعلق بمشاكل الإنجابِ والخصوبةِ والأمراض العقليّة والشلّل والصرع وغيرها من العِلَل[53]. ولا زالت هذه الأمور موجودة حتى يومنا هذا في المغرب، حيثُ يتم استدعاءُ الحاخامات اليهود من أجلِ البقاء بجانب الملوك والدعاء لهُم عندما يحلّ بهم المرض.

في الحقيقة لم تكُن تلك السمات والمهارات المميّزة التي تمتّع اليهودُ بها سبباً لكراهيتهم – قبلَ قيام دولة إسرائيل –، بقدر ما كانت سبباً لشعور الآخرين بالضعف والعجز أمامهم، الأمر الذي أجّج مشاعرَ الحقد والغيرة في نفوسهم ضد اليهود. أضِف إلى ذلكَ وجودَ عدد من الحواجز المعنويّة التي كانت تفصلُ بين المُجتمعات الدينيّة المُختلفة، والتي كان من ضمنها نظرةُ الشكّ والريبة التي ينظرُ بها كلّ مجتمع للآخر، وفي ظلّ هذه المشاعر كان يُنظرُ لليهود على أنهم سكانٌ أصليّون وغرباء في الوقتِ نفسه. ولنأخذ يهود مدينة فاس المغربية على سبيل المثال، حيثُ يقولُ الباحثُ أورِن كوزانسكييأن عبارة "اليهودُ مغاربةٌ مثلنا" كانت تتردد بكثرة على ألسنةِ المغاربة، لكن في الوقت نفسهِ وعلى الرغم من اعتبار اليهود سكاناً مغاربة أصليّين إلا أن المغاربة كانوا ينظرون إلى اليهود على أنّهم قومٌ مُختفون عنهُم لأنهم "يمتلكون تجارة يهوديّة خاصة بهم، ويسكنون حارات وأحياء يهوديّة خاصة بهم، ويتكلّمون بلهجة غريبة خاصة بهم أيضاً".[54]

ولنأخذ مثالاً آخر وهو يهود منطقة أقّا، تلك المنطقة الموجودة في الصحراء المغربية، وهي منطقة سكنها اليهودُ قبل ظهور الإسلام، لكن وعلى الرغم من ذلك إلا أن المُسلمين ينظرون ليهود أقّا على أنهُم "لا يُشكّلون جزءاً من الرواية التاريخيّة والوطنية للمغرب".[55]

وفي كثير من الأحيان تمّ تصويرُ اليهود على أنهم شعبٌ له يتعامل مع الجنّ والشيطان، حيثُ لم يشفعُ لليهود كونهم أناساً مُنتجين نافعين للمُجتمعات التي عاشوا فيها من هذا التصوير الباطل، ولم يقتصر هذا على اليهود فحسب، بل تم إشراكُ المسيحيّين أيضاً في هذا التصوير كونهُم يُعتبرون "غرباء" أيضاً، مثل اليهود. يقول أحد المفكرين في هذا الصدد: "لقد كانت لعنةُ اليهوديّ تُثير الفزعَ والخوفَ في قلوب المسلمين أكثر من لعنة المُسلمين لبعضهِم البعض، أما الحُجّاج المُسلمون الذين كانوا يتوجهون إلى مكة فقد كانوا يقطعون مسافات طويلة بهدفِ تجنّب رؤية أي يهوديّ أثناء سلوكِهم طريق الحجّ. لقد كان يُطلبُ من اليهود ارتداء المعوّذات الزّرقاء التي تطردُ الأرواح الشريرة، كما كان يُعتقدُ بان الملائكة لا تدخلُ إلى بيت المسلم إذا دخله شخص يهوديّ". [56]

وبينما كانت تتّسمُ سلوكيات المسلمين وتصرفاتهم بـِ "التسامح"، كانت المشاكلُ تنشبُ بين المسلمين وغير المسلمين من اليهود والمسيحيّين عندما تبدو مظاهر الغِنى والترفِ عليهِم، أو عندما يكتسب اليهود أو المسيحيون نفوذاً أكثرَ في السلطة، فيما كانت تزداد حدّة المشاكل والاعتداءات كلّما كانَت تبدو مظاهر هذا الغنى والنفوذ واضحة على حياة اليهود والمسيحيّين. لقد كانت عقوبة الإعدام تصدرُ بحقّ اليهوديّ إذا ما بدَت عليه مظاهر الغِنى أو في حال تمتعه بقدر "أكثر من اللازم" من السلطة والنفوذ، وفي حال لم تكُن هذه العقوبة كافية من وجهة نظر عامة الشعب كانت تندلعُ أعمال العنف والمذابح والاعتداءات الانتقامية بحق اليهود[57]، وخيرُ مثال على مثل هذا الموقف هو المذبحة الدموية المعروفة التي تم ارتكابها بحق اليهود في غرناطة سنة 1066م، والتي كانت ردة فعل انتقامية من قبل المُسلمين نتيجة قيام وزير يهوديّ "بالتفاخر والتباهي" بسلطته ونفوذه. [58]

الجارُ الوَدود: خطّ الدفاع الأخير

لقد تركَ العنفُ المتواصلُ الذي ارتُكِب بحق اليهود في منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا أثراً سيئاً على طبيعة العلاقات الاجتماعية بين السكان اليهود والمسلمين، فيما انهار التعايشُ العربيّ اليهوديّ في ظلّ المجازر الدموية والإعدامات التي كانت ترتكب من قِبل عامة الشعب والحكومات بحق اليهود. لكن وفي الوقت الذي كانت تقفُ فيه السلطات والحكومات المحليّة مكتوفة الأيدي تجاه ما يتم ارتكابه من أعمال عنف وإجرام وتحريض بحق اليهود (انظر الفصل الثالث) كان هنالك جيرانٌ من العرب ممن لم يقفوا مكتوفي الأيدي حيال ذلك، جيران ودودونَ كانوا بمثابة خط الدفاع الأخير عن اليهود في ظل تلك المجازر والمذابح.

ومثلما حدثَ عندما قام العديدُ من غير اليهود بإنقاذ اليهود من مذابح النازيّين وإجرامهم، قام العديد من العرب بإنقاذ اليهود بنفس الطريقة، فعلى سبيل المثال قامت مجموعة من العرب بإنقاذ ثلاثمائة يهوديّ أثناء اندلاع مذبحة سنة 1929م في الخليل، حيث احتمى هؤلاء اليهود في أكثر من اثنين وعشرين منزلاً من المنازل العربية وقت المجزرة. كذلك يوجد عدد من التقارير التي تشير إلى إنقاذ العرب لليهود خلال أحداث الفرهود سنة 1941م في العراق (الفرهود كلمة فارسية الأصل وأصبحت تحمل مدلولاً مرتبطاً بنهب وسلب الممتلكات بالقوّة)، والأمر نفسهُ خلال المذابح الدموية التي تعرض لها اليهود في ليبيا سنة 1945م.

في الحقيقة لو لم يقُم هؤلاء العرب النُبلاءُ بإنقاذ اليهود حينها لكان الموت مصيرهُم الحتميّ بلا شك، وقد كان هؤلاء العربُ ينتمون لنخب تقليديّة مُحافِظة عاشت في القرن العشرين، لكن مع الأسف تمّ إقصاؤها ونفيها للشتات مما أدى إلى اندثارها مع الوقت. [59]

كذلكَ يُمكننا القولُ بأن مثل هذه القصص للعرب الذين قاموا بإنقاذ أرواح اليهود لم تكُن تُروى نظراً لقصص العنف والانتقام والقتل التي كانت طاغية على المشهد، لكن أكثر تلك القصص فظاعةً تمثلت في غدر الجيران العربِ بجيرانهم اليهود، مُستغلّين حقيقة أن المعرفة المسبقة بين الناس تُسهّل المهمة على الغادرين وتؤججُ مشاعر الحقد والطمعَ والغيرة، وخير مثال على هذا ما حدثَ أثناء مذبحة الخليل سنة 1929م عندما أقدمَ بعض المرضى على قتل طبيبهم اليهودي الذي كان يُشرف على علاجهم، أما عائلة مَخلوف اليهودية التي كانت تعيشُ في القدس فقد تم قتل أفرادها على يد العرب الذين كانوا يعملون لديهم [60]. وخلال أحداث الفرهودفي العراق ومذبحة سنة 1945م في ليبيا كان أحدُ أكثر المشاهدِ فظاعة وترويعاً لليهود رؤيتهُم لرجال الشرطة واللّحامين وحتى بائعي اللبن يقومون بالاعتداء عليهم.

بالتالي لم يكُن هنالك أي إمكانية للوثوق بالجيران العرب أو بمدى رأفتهم ورحمتهم بالجيران اليهود من وجهة نظر الحركة الصهيونية، فبدأت الحركات السريّة في العراق وشمال أفريقيا بتخزين الأسلحة من أجل وضع حد لضعف المُجتمع اليهوديّ في تلك البلدان، وقد نجحت في كثير من الأحيان في كبح جماح العنف الموجّهِ ضد اليهود واحتوائه [61].

مشاريع ومبادرات التعايش في الوقت الحالي

وفي ظلّ إلمامنا بهذا التاريخ وجوانبه المأساوية فإنه من المفاجئ أن يتمّ الترويج لمشاريع التعايش بين العرب واليهود باعتبارها الحل للصراع العربي الإسرائيلي على المستوى الشعبيّ، استناداً إلى الفكر الذي يقول بأنه لو تحدّث اليهود والعرب مع بعضهم البعض وعزفوا الموسيقى وعاشوا مع بعضهم البعض فإنه سيحلّ السلام. إن الفكرة القائمة على تعريفِ العرب واليهود ببعضهم البعض بهدف خلق احترام متبادل بين الجانبين تشكل المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه قرابة ثلاثون مشروعاً يهودياً عربياً للتعايش في إسرائيل وحدَها، وبالفعلِ يوجد مكان لمثل مبادرات التعايش تلك، خاصة عندما يقول الواقع بأن المسلم بالكاد يمتلكُ أي فرصة للقاء اليهود والتعرف عليهم عن كثب.

إن مشروعاً مثل مشروع دانييل بَرنبويم (East-West Divan Orchestra) يلعبُ دوراً كبيراً في إظهار إنسانية العرب للإسرائيليين وإظهار إنسانية اليهود للعرب. كذلك فإن القرية التعاونية المعروفة باسم واحة السلام في إسرائيل تلعبُ دوراً هاماً في تعريف كلا الجانبين العربيّ والإسرائيلي بثقافة الآخر. في الوقت نفسه هنالك مكانٌ لليهود المزراحيّين في مشاريع التعايش بين العرب واليهود، باعتبار أن لديهِم معرفة واسعة بالثقافة والعقليّة العربيّة، بالتالي يمكنهم أن يساهموا في جسر الهوّة بين العرب واليهود، كما يمكنهُم أن يساهموا في فهمِ العقلية العربية وما يرافقها من عادات وتقاليد وسلوكيات.
وهنالك عددٌ من اليهود العرب ممن يُتقنون اللغة العربية - باعتبارها لغة حديثهم عندما كانوا في الدول العربية – ممن ينتابهُم نوع من التشاؤم والإحباط حيال فترة العشرينيات والثلاثينات من القرن الماضي، مُعتقدين بأنه لو تم إشراكهم ومنحهُم دوراً أكبرَ في الصراع لكانت الأمور ستتخذُ منحىً مُختلفاً تماماً عما كانت عليه في فلسطين آنذاك. فيما يشكو هؤلاء من هيمنة اليهود الأشكناز على الحركة الصهيونية، وبان هيمنتهم تلك أدّت إلى عدم إصغائهم إلى اليهود المزراحيين بأي شكل من الأشكال.[62]

فعلياً لم يتم استثناء اليهود المزراحين من هذا المجال، بل تم إشراكهُم في العمل الدبلوماسي ومبادرات السلام على الجانب الإسرائيلي، ولنأخذ إلياهو ساسون كمثال على ذلك، حيث كان إلياهو أحد القوميّين السوريين وتحوّل لاحقاً إلى دبلوماسيّ إسرائيليّ، أضف إلى ذلك موشيه ساسون وعيزرا دانين وغيرهم.

وخلال عشرينيات القرن الماضي قام يوسف إلياهو شلوش برفقة عدد آخر من يهود الدول العربية الذين يعيشون في تل أبيب بإنشاء مؤسسة هامَغين (Hamagen) والتي تعني المَلجأ، وهي مؤسسة تهدف إلى إقناع العرب عموماً بأن التركيز على المصالح الاقتصادية والثقافية المُشتركة بين اليهود والعرب هو السبيل الوحيد لتحسين حياة الجانبين[63]. لكن ومع الأسف فإن مساعيهم لم تلق أي آذان صاغية على الجانب العربي نظراً لعدم وجود أي نية لدى القيادات العربية في صُنع السلام.

على العموم فإن خرافة التعايش السلميّ بين العرب واليهود في الدول العربيّة يُقصد بها الترويجُ للتسامح العربيّ والإسلامي مع غير العرب والمسلمين، لكن القارئ للتاريخ سيجدُ أن تسامحهُم كان مشروطاً، وأن اليهود عانوا الكثير في ظلّ هذا "التسامح" المزعوم، حيثُ يقول إيلي عمير في هذا السياق أن "التسامحَ هو شكل من أشكال التمييز"[64]. لقد كان الواقع حينها خالياً من الاحترام لغير المسلمين، وبالنسبة لليهود كانت فترة الأربعة عشر قرناً المُنصرمة خالية من الأمن والأمان والاستقرار باعتبارهم أقلية من اليهود العُزّل تعيش في ظلّ مجتمعات ذات غالبية عربية إسلامية تنفردُ بالحكم والسلطة وتحكُم بقوانين الشريعة الإسلامية التي تتضمنُ تمييزاً واضحاً بين المسلمين وغير المسلمين.

وبشكل عام فإن الغالبية العُظمى من مبادرات التعايش بين العرب واليهود في الشرق الأوسط قد انطلقَت من دولة إسرائيل، نظراً لان العرب لا زالت تسيطر عليهُم مشاعر الخوف من بعضهم البعض من قضية السلام مع إسرائيل، باعتبار أن العربيّ الذي يدعو للسلام والتطبيع مع إسرائيل يُعتبر خائناً يستحق العقاب من وجهة نظر العرب.

من جهة ثانية فإن مبادرات السلام والتعايش قد تكون غير محمودة العواقب[65]، خاصة وأنها قد تؤدي إلى نفس الإذلال والإهانة التي تعرض لها اليهود عندما كانوا من "أهل الذمة" حين يتخلّى اليهود عن حقوقهم مُتناسين هويّتهم ومعاناتهم أثناء انخراطهم في مثل هذه المبادرات، الأمر الذي سيؤدي إلى تعزيز المطامع العربية بلا شكّ.

إنه لمن السهل على اليهوديّ أن يتفهّم ويشعر بألم اللاجئ الفلسطينيّ عندما يتكلّم عن ألمِه، بل ويصل هذا التفهّم اليهودي لدرجة استيعاب وفهمِ الإرهاب أحياناً! لكن هذا التفهّمَ ليس موجوداً بأي شكل من الأشكال على الجهة المقابلة، أي على الجانب العربي. ومن ناحية عملية فإن مبادرات التعايش تلك لا تأخذ بعين الاعتبار التجربة المريرة لليهود المِزراحيين في الدول العربية، كما وأنها تروّج لخرافة التعايش السلميّ والحياة الرغيدة بين العرب واليهود في الدول العربيّة قبل ظهور الحركة الصهيونية.

هنالك أيضاً اختلاف ثقافي عميق في العقليتين العربية واليهودية، فبالنسبة لليهود فإنهم معروفون بحبّهم للنقاش واستحضارهم جميع وجهات النظر والآراء المختلفة إلى طاولة النقاش، ومثلما يقولُ أحد الأمثال في وصف طبيعة النقاش والحوار اليهودي: "يتناقشُ يهوديّان اثنان فتجدُ ثلاث وجهات نظر". أما على الجانب العربي فالأمر مختلفٌ تماماً، فالعقلية العربية في النقاش والحوار قائمة على التفرّد وإقصاء الرأي الآخر.[66]

كذلك فإنه من السهل على اليهوديّ أن يتحمّل مسؤولية أفعاله، مثلما هو سهلٌ عليه تقبّلُ الانتقاد والعتاب واللوم والاعترافُ بالخطأ، وهي الأمور التي يصعبُ على العربيّ تقبّلها باعتباره يفكّر بعقليّة وثقافة "الشرف والعار"، والتي تجعلهُ يعتقدُ بأن اعترافهُ بأخطائهِ وتقبّلهُ للانتقاد واللوم هي تصرّفات مُهينة تجلبُ المذلّة والعارَ لصاحبها. وعدا عن هذا كله فإن أي صوت يخرجُ عن التيار ويعارضُ ما تُجمع عليه الغالبية في العالم العربيّ سيقابل بسيل من الاتهامات بالتخوين والعمالة وغيرها. وفي سياق العقليّة السلبيّة التي ينظرُ بها العربُ تجاه إسرائيل يوضح البروفيسور ريتشارد لاندز بأن "مثل هذه النقاشات الذُكوريّة التفرّدية والمُتسلّطة توضّحُ مفهوم ثقافة الشرف والعار، كما أنها تفرضُ تبِعاتها على المُجتمع بأكمله، وغالباً ما تتضمنُ هذه التبعات ردود أفعال عنيفة". [67]

ويَتساءلُ المؤرّخُ المعروف مارك كوهين فيما إذا كانت التجربة المريرة لليهود المزراحيّين في العالم العربي تشكّل جزءاً حقيقيّة أم لا، فهو يبني نظريته في دراسة حياة وتاريخ يهود الدول العربية استناداً إلى إيمانه العميق بأن اليهود والعرب عاشوا حياة رغيدة وبأن اليهود لم يتعرضوا لاي شكل من أشكال الاضطهاد والظلم على يد العرب. وفي هذا السياق يوضّحُ مارك بأن الحِقدَ الذي يُكنّه اليهود المزراحيون على العربِ سببهُ رغبة اليهود المزراحيين في فصلِ أنفُسهم تماماً عن العرب وكل ما يَمتّ للعرب بأي صِلة بهدف إظهار ولائهم لإسرائيل، ويقولُ مارك أيضاً بأن هذا الحقد على العربِ قد أصبحَ "وسيلةً لإظهار مدى اختلافهم عن العرب الذين يكنّون العداء للجانب الإسرائيلي".[68]

يحملُ اليهود المزراحيّون انطباعاً عن اليهود الأشكنازِ مفادهُ بأن الأشكناز يعتبرون نجاحهُم في تأسيس دولة إسرائيل ذات السيادة اليهودية المستقلة هو بمثابة تعويض عما تعرّضوا له من أذى وتعذيب ومعاناة في الغرب تحت حكم المسيحيين، وهو انطباع صحيح بلا شكّ.

وسواء قام اليهود المزراحيون بهذا بقصد أو بدون قصد، فإنهم يعتبرون أن الحديث عن معاناتهم التاريخية في دول العالم العربي بمثابة محاولة لتبرير ادّعاءاتهم في المساواة في الحلم الصهيونيوبأن المِزراحيين لا يقلّون في انتمائهم للحركة الصهيونية عن اليهود الأشكناز[69].
وبشكل عام فإن الإبادة الجماعية التي تعرَض لها اليهود في أوروبا على يد النازيين تُذكّرُ اليهود المِزراحيين مراراً وتكراراً بما تعرّضوا له من قسوة وظلم واضطهاد وجرائم في العالم العربي، وعلى سبيل المثال لا الحصر، قام شلومو كوهين تسيدون اليهودي المصري والشخصية القيادة الإسرائيلية المعروفة أثناء أحد خطاباته باستخدام مفردات تربطُ ما بين الحكومة المصرية والنازيّين من أجل تذكير الجميع بتاريخ ومعاناة يهود مصر، مستغلاً تلك المفردات من أجل محاولة إفهام اليهود الأشكناز ما عاناه وقاساه اليهود في العالم العربي باستخدام مصطلحات وتعبيرات يفهمها اليهود الأشكناز جيّداً. [70]

إن الفِكرة القائلة بأن اليهود المزراحيين قد قاموا "بتزوير الحقائق التاريخية" للتجربة المريرة التي تعرّضوا لها في دول العالم العربي بهدف التملّق لليهود الأشكناز باعتبارهم من قاموا بتأسيس دولة إسرائيل، هي فكرة لا تمتّ للحقيقة بأي صِلة، ولو كانت هذه الفكرة صحيحة لرأينا اليهود المِزراحيين الذين يعتبرون يمينيّين بطبيعتهم يتحالفون مع اليهود الأشكناز الذين يمتلكون ميولاً يسارية بالعادة، بالتالي لرأينا تحالفاً يشتركُ فيه الجانبان في آرائهم ومواقفهم السياسية اليساريّة، خلافاً للواقع.

يقول المؤرّخ بول جونسون عبر أحد مقالاته المنشورة في مجلة الكومنتَري بمناسبة الذكرى الخمسين لقيام دولة إسرائيل: "يوجدُ في إسرائيل عدد كبير من اليهود الشرقيّين والسفرديّين الذين فرّوا هاربين للنجاة بأرواحهم من دول العالم العربي، فجاؤوا إلى إسرائيل فقراء بؤساء يتملكهم الخوف من تلك التجربة، وفي الوقت الذي تحاول فيه النخب السياسية اليهودية الأشكنازية تحقيق السلام مع العرب يرفضُ اليهود المزراحيون أن يكونوا جزء من عملية المصالحة تلك".[71]

وفي ختام هذا الفصل، فإن ما أريد التأكيد عليه هو أنه يجب علينا عدم الخلط بين مفهوم التعايش السلميّ ومفهوم التكافل الاجتماعي، والدرس الذي تعلّمهُ اليهود من هذا "التعايش" المزعوم خلال أربعة عشر قرناً هوَ أن حياة اليهود والعرب بجانب بعضهم البعض لا تكفي وحدها لتحقيق التعايش، بل يجبُ أن يعيش الجانبان جنباً إلى جنب في ظل وجود حالة من الثقة المتبادلة والأمن والأمان، والأهم من هذا كله هو أن يحصل الجميعُ على حقوق سياسية متساوية دون تفرقة.

وما حاولتُ إثباتهُ من خلال الأمثلة العديدة التي ذكرتها في الفصل هو وجود نزعة إسلامية للسيطرة على كل ما هو غيرُ مسلم، وما يحدثُ في التاريخ المُعاصر هو أن الديناميكية القديمة التي كانت تسير عليها الأمور باتت تختلفُ بشكل جذريّ في الوقت الحاليّ: فاليهود ليسوا أقلّية سكانيّة هشّة في مُجتمعات ذات غالبية سكانية مسلمة، وحالة الخوف والقلق التي كانت تسيطرُ على حياة اليهود قد اختفت تماماً، وأضحى الزيّ العسكريّ لجيش الدفاع الإسرائيليّ يمثلُ رمزاً للمقاتل اليهوديّ الشجاع لدرجة لم يكُن يتصوّرها أحد. بالتالي نجح اليهود في تحويل المهانة والإذلال التي تعرضوا لها في الدول العربية إلى نجاحاتٍ وانتصاراتٍ ساحِقة.

ومن باب المفارقة فقد أصبحَت إسرائيل هي الدولة الوحيدة التي يعيشُ فيها اليهود والعرب جنباً إلى جنب في ظلّ اندثار المُجتمعات اليهودية من الدول العربية. وفي ظلّ دولة إسرائيل أصبح لليهود سيادتهُم واستقلالهم وأصبحوا سادة أنفسهم، وحتى لو وُجِدَت أخطاء في هذه الدولة إلا أنها بنهاية المطاف تظلّ الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط ذات نظام قضائي صارم ومستقلّ وعادل، ومثلما ينصّ ميثاق إعلان استقلال دولة إسرائيل فإن حقوق غير اليهود في دولة إسرائيل جميعها مُصانة ومكفولة بموجب القانون كحقوق اليهوديّ تماماً دون أدنى تمييز.[72]

لا زالت نسبة لا يُستهان بها من العرب في إسرائيل تشعرُ بأنها تعيشُ كأقلّية في مُجتمع ذو أغلبية يهودية، في الوقت نفسه لا زالت أيضاً نسبة لا يستهان بها من اليهود قد بدأوا بنسيان الماضي المؤلم والفترة الزمنية التي عاشوا فيها باعتبارهم من "أهل الذمة" في مجتمعات ذات غالبية مسلمة، وما رافق هذا من تبعات مادية ونفسية عليهم. والواقع المؤسفُ يقولُ بأن مبادرات السلام والتعايش جميعها لم تتمكن بعدُ من التطرّق لهذه القضايا ولم تضعها على طاولة النقاش حتى الآن.

قائمة الملاحظات والحواشي

1. Enrico Macias, 'Adieu Mon Pays'(song), *La Fête à l'Olympia*(Album), 1996, lyrics at http://musique.ados.fr/Enrico-Macias/Adieu-Mon-Pays-t83431.html. (Last accessed 26 April 2017).

2. Le Dernier Hommage à Roger Hanin à Alger, *Le Parisien*, 5 February 2015, http://www.leparisien.fr/actualite-people-medias/en-images-alger-le-dernierhommage-a-roger-hanin-13-02-2015-4530979.php?pic=2#contTitre. (Last accessed 26 April 2017).

3. نفس المصدر

4. نفس المصدر

5. Georges Moustaki Obituary, *The Guardian*, 24 May 2013, https://www.theguardian.com/music/2013/may/24/georges-moustaki-obituary. (Last accessed 26 April 2017).

6. 'You can take Baghdad out of the girl …', *Point of No Return*, 16 April 2012, http://jewishrefugees.blogspot.co.il/2012/04/you-can-take-baghdad-out-ofgirl.html. (Last accessed 26 April 2017).

7. Yariv Peleg and Lior Yaakobi, 'Escape from Port Said', *Israel Hayom*, 28 October 2016, http://www.israelhayom.com/site/newsletter_article.php?id=37459. (Last accessed 26 April 2017).

8. Nathan Weinstock, 'Ambiguïtés et ambivalences du statut de *dhimmi*', unpublished lecture notes, p. 5.

9. *Akadem*lecture, June 2012, http://www.akadem.org/sommaire/themes/histoire/diasporas/les-juifs-sefarades/juifs-en-pays-arabe-le-grand-deracinement-1850-1975-05-07-2012-45763_77.php. (Last accessed 26 April 2017)

10. Robert Satloff, *Among the Righteous* (New York: Public Affairs, 2006), p.178.

11. نفس المصدر

12. Bat Ye'or, *The Dhimmi: Jews and Christians under Islam* (London: Associated University Press, 1985), p.143.

13. Samantha Ellis, 'You can't take Baghdad out of the girl', *Night and Day: the Middle East*, Issue VI, p.4.

14. Ksenia Svetlova, 'Baghdad revisited', *Jerusalem Post*, 6 June 2010, http://www.jpost.com/Features/In-Thespotlight/Baghdad-revisited. (Last accessed 26 April 2017).

15. Dr Tsimhoni's work, 'Jewish-Muslim relations as reflected in Memoirs of Jews of

Egypt' is quoted by Levana Zamir in A. Aharoni, A. Israel-Pelletier & L. Zamir (eds) *History and Culture of Jews of Egypt in Modern Times* (Tel Aviv: KenessHafakot, 2008), p.32.

16. André Aciman, 'An Alexandrian in search of lost time', *Newsweek*, 2 June 2011, http://europe.newsweek.com/alexandrian-search-lost-time-68691?rm=eu. (Last accessed 26 April 2017).

17. Colette Fellous, *PiècesDétachées*(Gallimard: Paris, 2017), p.77.

18. Abdullah Dangoor, interviewed by Bea Lewkowicz, Sephardi Voices UK, 2015.

19. Ellis Douek, interviewed by Bea Lewkowicz, Sephardi Voices UK, 2016.

20. Naim Kattan, *Adieu Babylone*(Paris: Albin Michel, 2003), p.154; but for Naim Kattan, the greatest hostility came from Armenians and Assyrian Christians, themselves 'victims of the Muslims'.

21. A. Meddeb and B. Stora, *Encyclopaedia of Jewish-Muslim Relations from their Origins to the Present Day* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2013), p.15.

22. Albert Memmi, 'Who is an Arab Jew?', Sullivan County.com, February 1975, http://www.sullivan-county.com/x/aj1.htm. (Last accessed 26 April 2017).

23. Albert Memmi, *La Statue de Sel* (Paris: Gallimard,1966), p.276.

24. نفس المصدر -ص.287.

25. Victor Hayoun, 'Tisha (9ème jour) Be Av, jour de deuil', *Harissa* blog, 8 August 2016,t http://harissa.com/news/article/tisha%E2%80%99-9e-jour-be-av-jour-dedeuil. (Last accessed 26 April 2017).

26. Penina Elbaz, 'The Truth about Morocco: Fear made Jews leave', *Point of No Return* blog, 11 September 2016, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2016/09/the-truthabout-morocco-fear-made-jews.html. (Last accessed 26 April 2017).

27. Salim Fattal, *In the Alleys of Baghdad* (Tel Aviv: Shlomo Levy, 2012).

28. See Memmi, 'Who is an Arab Jew?'
29. See Satloff, *Among the Righteous*, p. 179.

30. Mark R. Cohen, *Under Crescent and Cross* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), p.55.

31. Daniel H. Frank (ed.) *Jews of Medieval Islam* (E.J. Brill, 1995), p. 147.

32. Nathan Weinstock, *Une si longue présence: Comment le Monde Arabe a perdu ses Juifs 1947–1967* (Paris: Plon, 2008), p.24.

33. María Rosa Menocal, *The Ornament of the World: How Muslims, Jews and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain* (New York: Little Brown, 2002).

34. نفس المصدر

35. Cited in Harold Bloom, 'The Lost Jewish Culture', *New York Review of Books*, 28 June 2007, http://www.nybooks.com/articles/2007/06/28/the-lost-jewish-culture/. (Last accessed 26 April 2017).

36. Bernard Lewis, *Islam in History: Ideas, Men and Events in the Middle East* (London: Alcove Press, 1973), p.137.

37. Paul Berman, *The Flight of the Intellectuals* (Melville House, 2011), p.81.

38. Henrich Graetz, *A History of the Jews* (Philadelphia, PA: Jewish Publication Society, 1891–8) cited in Paul Berman, *The Flight of the Intellectuals*, p.81.

39. Shmuel Trigano, 'Archéologie du "Miracle Andalou"', *Pardès*no. 55, p.251.

40. Karim Miske, 'Jews and Muslims: intimate Strangers', *Woolf Institute* blog, 2 June 2015, https://woolfinstitute.blog/2015/06/02/jews-and-muslims-intimate-strangers/. (Last accessed 26 April 2017).

41. Darío Fernández-Morera, 'The Myth of Ummayad Tolerance' in *Myth of the Andalusian Paradise* (Wilmington, DE: ISI, 2016), pp. 119–38.
42. See Cohen, *Under Crescent and Cross*, p.187.

43. نفس المصدر -ص.185.

44. Bat Ye'or, 'De la Dhimmitude à Eurabia. Le déni de Mark Cohen' in Shmuel Trigano (ed.) 'Qu'est-cequ' un acte antisemite?', *Pardès*no.55, p. 256.

45. Georges Bensoussan, interviewed by Alain Finkielfraut in 'Répliques' (*France Culture Radio*) 13 April 2013, http://www.franceculture.fr/emissions/repliques/lesjuifs-dans-le-monde-arabe. (Last accessed 26 April 2017).

46. See the work of Bat Ye'or, author of *The Dhimmi*.

47. Paul Fenton, 'Exile in the Maghreb', London lecture, 13 December 2015.

48. See Bernard Lewis, *The Jews of Islam* (Princeton, 1987) pp. 150–1.

49. See Memmi, 'Who is an Arab Jew?'

50. Bensoussan, 'Répliques', *France Culture Radio*, 13 April 2013.

51. Abraham Ludovitch and Lucette Valensi, *The last Arab Jews: The Communities of*

Jerba, Tunisia (London: Harwood 1984), p.118.

52. 'Succot in Baghdad, now and then', *Point of No Return* blog, 21 October 2008, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2008/10/succot-in-baghdad-now-andthen.html. (Last accessed 26 April 2017).

53. A. Boum, 'Arab Demonization of Jews Is a Historical Anomaly – and Shows the Limits of Today's Leaders', *Tablet Magazine*, 21 February 2014, http://www.tabletmag.com/jewish-news-and-politics/163536/jews-post-arab-spring?recipient_id=14mcWCVNaKzrl0Wfp6DH7pP6ykcHtpQ76r; (Last accessed 26 April 2017).
Boum adds that 'Visitors to the region around Errachidia in southern Morocco, also known as Ksar Souk, will notice piles of clothes, body hair, chains, and sometimes women's bras and underwear on a shrub around the tombs of three rabbis locally known as Yihia Lahlou, Moul Tria, and Moul Sedra'.

يضيف بوم بأن زوار المنطقة المحيطة بالرشيدية جنوبي المغرب والمعروفة باسم سوق كسار سيلاحظون وجود قطع من الملابس والشعر وأحياناً صدريات النساء وملابسهن الداخلية متناثرة حول قبور الحاخامات اليهود الثلاثة والمعروفين باسم يحيى لحلو والحاخام مول تريا والحاخام مور سيدرا.

54. Oren Kosansky, 'Reading Jewish Fez: On the Cultural Identity of a Moroccan City', *Journal of the International Institute*, Volume 8, Issue 3, Spring/Summer 2001, http://quod.lib.umich.edu/j/jii/4750978. 0008.305/—reading-jewish-fez-on-thecultural-identity-of-a-moroccan?rgn=main;view=fulltexthttp://quod.lib.umich.edu/j/jii/4750978.0008.305/—reading-jewish-fez-on-the-cultural-identity-of-a-moroccan?rgn=main;view=fulltext. (Last accessed 26 April 2017).

55. Aomar Boum, *Memories of Absence* (Stanford, CA: Stanford University Press, 2013), p.110.

56. See Boum, 'Arab Demonization of Jews Is a Historical Anomaly' *The Tablet*, 21 February 2014 http://www.tabletmag.com/jewish-news-and-politics/163536/jewspost-arab-spring. (Last accessed 26 April 2017).

57. Norman A. Stillman, *The Jews of Arab Lands*: *A History and Source Book*, Vol.1 (Philadelphia, PA: Jewish Publication Society of America, 1979), p.62
58. Bernard Lewis, *The Jews of Islam* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2014), p.54.

59. Conversation with Moshe Kahtan, May 2016.

60. Suzy Eban, *A Sense of Purpose* (London: Halban, 2008), p.44.

61. See M. Roumani, *The Jews of Libya: Coexistence, Persecution, Resettlement* (Sussex Academic Press, 2008), p.58. Trained members of the Jewish defence movement resisted rioters in Tripoli, Libya in 1948 and contained the violence. They also thwarted a pogrom in the Tunis *Hara* in 1952. See Jacques Taieb in S. Trigano (ed.) *La fin du Judaismeenterresd'Islam*(Denoël, 2009) p.365.

62. See Aharoni, Pelletier-Israel, Zamir (eds) *History and culture of Jews of Egypt in Modern Times*, p.41.

63. 'Joseph-Eliyahu Chelouche: coexistence campaigner', *Point of No Return* blog, 12 April 2009, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2009/04/yosef-eliahu-chelouchecoexistence.html. (Last accessed 26 April 2017).

64. Eli Amir, *The Dove Flyer* (London: Halban, 2010), p.67.

65. See Edward Alexander's assessment of the Jewish-Arab village of Neve Shalom, 'No, an exercise in Jewish Self-Abasement', *Middle East Quarterly*, December 1998, http://www.meforum.org/134/no-an-exercise-in-jewish-self-debasement. (Last accessed 26 April 2017).

66. Hunter Stuart, 'How a pro-Palestinian American reporter changed his views on Israel and the conflict', *Jerusalem Post*, 15 February 2017.

67. Richard Landes, 'Why the Arab world is lost in an emotional *nakba*and why we keep it There', *The Tablet*, 24 June 2014.

68. See Cohen, *Under Crescent and Cross*, p.13.
69. نفس المصدر

70. Joel Beinin, *The Dispersion of Egyptian Jewry: Culture, Politics, and the Formation of a Modern Diaspora* (Berkeley, CA: University of California Press, 1998), p.209.

71. Paul Johnson, 'The Miracle', *Commentary* 105, no.5 (May 1998).

72. Jonathan Adelman writing in 'The Israeli Arabs: Trailblazers of a better Middle East', *Huffington Post*, 19 August 2015, quotes a poll indicating that 77 per cent of Israeli Arabs prefer to live in Israel than a Palestinian state. http://www.huffingtonpost.com/jonathan-adelman/the-israeli-arabs-trailbl_b_8010020.html. (Last accessed 26 April 2017).

الفصل الثالث

الثورة الأوروبية الاستعمارية

سنة 1857م اتُّهم رجلٌ يهودي تونسي يدعى صموئيل باتو سفسبأنه كان ثملاً وبأنه قام بازدراء الدين الإسلامي وشتمهعلى الملأ، وتمّت محاكمته استناداً إلى قوانين الشريعة الإسلامية، فحُكِم عليه بالإعدام. وقبل بضعة أيام من اعتقال ومحاكمة باتو سفسقام محمد بيك (محمد باشا أبو عبد الله) - حاكم تونس آنذاك - بإعدام جندي مسلم لأنه أقدم على قتل شخص يهودي. ومن أجل تحقيق نوع من المساواة بين الحادثتين أصدر محمد بيك الحكم بالإعدام على باتو سفس على الرغم من أن التهم التي تم توجيهها إليه لا تستحقّ عقوبة الإعدام، الأمر الذي أثرا حفيظة وغضب اليهود والمسيحيين في الغرب نتيجة لوحشية وقسوة هذا الحُكم الجائر، فتوجّهوا إلى القنصل الأوروبي من أجل إيقاف هذا الحكم واسترحام محمد بيك حتى يحيد عن قراره، لكن ومع الأسف لم يُجدِ هذا نفعاً وتمّ تنفيذ عقوبة الإعدام بحقّ باتو سفسبتاريخ الرابع والعشرين من شهر حزيران سنة 1857م، فيما تم إلقاء رأسه بين حشد من العامة دون ادنى رحمة أو اعتبار لحرمة الموت، فأخذوا يقذفون رأسه بين أرجلهم وكأنه كرة قدم. حاول يهود تونس دفع المال مقابل استعادة رأسه لكن دون جدوى.[1]

إن قصةباتو سفسالمأساوية هي واحدة من المآسي الكثيرة التي تعرّض فيها اليهود للإهانة والإذلال بأبشع صورها، هذه المآسي التي توضح بما لا يدع مجالاً للشك مدى ضعف وهشاشة حياة اليهود كأقلية وسط مجتمعات ذات أغلبية سكانية مسلمة قبلَ فترة الاستعمار الأوروبي. وفي هذا الصدد كتبَ سِنيور بَنانتي - وهو رحّال زار الجزائر في القرن التاسع العاشر- قائلاً: "لا يوجد شكل من أشكال الظُلم أو الإهانة إلا وتعرّض له اليهود، وما كان يقوم به المسلم الأمازيغي البليد حينما كان يمرّ يهودي من جانبه هو خير مثال على ذلك، فكان يضعُ غليونه في فمه ويضع رجلاً فوق الأخرى ويأمرُ اليهوديّ أن يفعل كذا وكذا وكأنه خادم أو عبدعنده، حتى النوافير كانت تعيش أفضل من اليهودي، على الأقل كان مسموحاً لنافورة الماء أن تُصدر صوتاً دون أن يمنعها أحد".[2]

واستناداً إلى نصّ العهدة العُمَرية فإن اليهود - على الرغم من كونهم سكاناً أصليّين للبلاد - والمسيحيّين قد مُنِحوا حرية دينيّة طالما أنّهم يعيشون خاضعين مُذعنين في المجتمع الإسلامي باعتبارهم أهل الذمة، وطالما أنهُم لا يُمانعون من العيش في هذه المنزلة الوضيعة والانصياع لهذه القوانين المُهينة. إن أساس فكرة أهل الذمة قائم على تسليم اليهود أنفسهم للمسلمين، أي وضع حياتهم تحت تصرّف المُسلمين، بالتالي يُمنحُ اليهود الحقّ في التعريف عن أنفُسهم كيهود طالما أنّهُم يعيشون كأقلية هشّة لا حول لها ولا قوّة في المجتمع الإسلاميّ.

وقد زار الرحالة يوسِفهاليفي المُجتمع اليهوديّ في منطقة الملّة في مراكش سنة 1876م، وأكّد في مذكراته التي كتبها آنذاك أن "جميع رعايا الدولة يتعرّضون للضرب والتعذيب سواء كانوا مُسلمين أو يهود، لكن اليهوديّ ليس بحاجة لارتكاب الجرائم حتى يتم اعتباره خارجاً عن القانون، فهو بالنسبة لهذا المجتمع مُجرم منذ أن ولدته أمه، مُجرم لأنه يحمل العقيدة اليهودية. إنه لكرمٌ حاتميّ أن يُمنح اليهوديّ حقّ الحياة والوجود بين المُسلمين..." [3].

وقد سلّم اليهود حقّهم في حمل الأسلحة والدفاع عن أنفسهم للمسلمين، وهذا من خلال ضريبة الحماية التي كانت تُفرض عليهم والتي تُدعى "الجِزية"، وفي سياق الحديث عن الجزية وماهيّتها لغير المسلمين تَذكرُ مجموعة الوثائق والمستندات التي عثر عليها في كنيس جنيزا في القاهرة أن الجِزية كانت ضريبة باهظة تُرهق كاهل من يتوجبُ عليه دفعها، فكانت مصدراً لتعاسة دافعيها وضيق حالهم. [4]

وعدا عن هذا كله فإن ضريبة الجزية تتضمن جُزئية مهمة جداً، وهي عدم استقلالية دافعيها بل وخضوعهم التام للحاكمين. "إن مشهد اليهوديّ وهو يتعرض للصفع والضرب أثناء فترة جباية ضريبة الحماية كل سنة من قبل حكومة السلطان في القرن التاسع عشر في المغرب يعكسُ مدى العبء الجاثم على صدر اليهوديّ، وهو المشهدُ ذاته يتكرر لليهودي الذي كان ينحني بكل إذلال وإهانة دافعاً ضريبة الحماية للبابا في روما، فكان يقفُ راكِعاً أمامه ومن ثم يقوم البابا بركلِه وطرده بمنتهى الإهانة والتحقير".[5]

وبالنسبة لضريبة الجزية فقد كان يتم تطبيقها بصرامة شديدة على اليهود في المغرب واليمن وبلاد فارس، ومنطقة بلاد فارس بالمناسبة هي جزء من دول العالم الإسلامي الذي لم تطأه أرجلُ الاستعمار الأوروبي إلى حد ما. لقد كان اليهود في تلك البلدان يعانون الويلات، فكان يتم اتهامهم زوراً وبُهتاناً بشتّى الاتهامات، كما كانوا يتعرّضون للسرقة والنهب والضرب المبرّح على أتفِه الأسباب، كالغيرة مثلاً، تلكَ الغيرة التي كانت تدفعُ الجار المُسلم لنهب وسرقة ممتلكات جاره اليهوديّ في كثير من الأحيان. لكن وبشكل عام عومل اليهود من منطقة بلاد الشام بطريقة أفضل قليلاً من باقي بلدان العالم الإسلاميّ باعتبارهم أقلية سكانية تعيشُ في تلك المجتمعات ضمن أقليات أخرى، فيما عوملوا بشكل سيء جداً في المناطق التي لم يوجد فيها أي تواجد مسيحيّ.

لقد كان الشيعة في بلاد فارس أكثر فظاعة في تعاملهم مع اليهود الذين كانوا يعيشون في تلك البلاد، حيثُ كانت القوانين الدينية الشيعيّة تنظرُ إلى الأقليات غير المسلمة باعتبارها "نَجَس"، فكان الشيعة ينظرون لغير المسلمين باعتبارهم كفاراً ومصدراً للنجاسة، الأمر الذي أدى إلى قيام الشيعة بفصل التجمعات اليهودية والزرادشتية عن أماكن تجمع المسلمين [6]. وفي هذا السياق يتحدّث ج.ج بنيامين عن مدى الفقر والبؤس الذي عاشه يهود بلادفارس خلال منتصف القرن التاسع عشر للميلاد، واصفاً حالهُم آنذاك بأنه يشبه في بؤسه وظروفه القاسية حياة اليهود خلال فترة القرن السادس عشر[7]. يقول بنيامين: "لقد تم إجبار اليهود على العيش في جزء مُنفصل عن البلدة لأنه كان يُنظرُ إليهم على أنهُم أنجاس غيرُ طاهرين، فكانت تلك الذريعة التي جعلت الناس يعاملونهم معاملة في غاية القسوة والوحشية، وكان اليهود يُرجمون بالحجارة وتُلقى عليه الأوساخ والنفايات من قبل الأطفال الصغار والبالغين أيضاً إذا ما تجرّأوا على المرور من طريق يتواجد به المسلمون. وللسبب ذاته فقد تم منع اليهود من التواجد في الخارج أثناء هطول المطر، اعتقاداً من المسلمين أن المطر قد يغسلُ نجاسة وقذارة اليهود، الأمر الذي سيؤدي إلى انتشار تلك النجاسة في الشوارع والطرقات بالتالي ستتسخُ وتتنجّسُ أحذية المسلمين أثناء مرورهم منها".

وفي كثير من الأحيان كان يقتحم الفارسيّون مساكن وبيوت اليهود وينهبون ممتلكاتهم ويأخذون منها ما طاب لهُم، وبالنسبة لليهوديّ فإنه قد يدفع حياته ثمناً لدفاعه عن نفسه وأسرتهِ وممتلكاته، كما كان القتل مصير أي يهوديّ يخرجُ من بيته خلال أيام القتل الثلاثة من شهر محرّم.

لقد كان يتجنبُ يهود العراق التواجدَ خارج منازلهم خلال ذكرى عاشوراء، وهي مناسبة شيعية يقوم فيها الشيعة بجلد وتعذيب أنفسهم استذكاراً لاستشهاد الحسين (سِبطُالنبي محمّد). وفي حال مرّ أحدُ الشيعة بجانب شخص يهوديّ في عاشوراء فانه كان يُلقي بنفسه في النهر ومن ثم يخرجُ منه ويكرّر هذا أربَعين مرة ليطهّر نفسه قائلاً: أريد أن أتطهّر لأنني لمستُ يهودياً! [8]. في الحقيقة كانت التشريعات الدينية الشيعيّة ظالمة ومجحفة جداً بحق اليهود، فكانت مظاهر البؤس والقهرظاهرةً على ملامح حياة اليهود وسلوكياتهم التي يعتريها التذلل لغيرهم، هذا عدا عن ملابسهم الرثّة التي ميزتهم عن غيرهم، هذا بالإضافة إلى حالة بيوتهم التي كانت بحالة يُرثى لها. كما كانت تنظر التشريعات الدينية الشيعية إلى شهادة اليهودي على أنها تعادل نصفَ شهادة المسلم في المحاكم.[9]

أما في المغربِ فإن "سِحرَ" القرون الوُسطى و"جمال" هذه الحقبة الزمنية قد استمر لفترة القرن التاسع عشر، بل وربما وصل إلى العقد الأول والثاني من القرن العشرين[10] ، ومن الأمثلة على "روعة" تلك الفترة أنه كان يُفرضُ على اليهود أن يمرّوا حُفاة بجانب المسجد، فيما فُرضَت عليهم الحياة في غيتوهات خاصة بهم من أجل الحفاظ على حياتهم في حال تعرّضوا لهجمات واعتداءات من قبل الحشود الغاضبة كالعادة، هذا عدا عن العديد من قصص النساء اليهوديات والأطفال اليهود ممن تم بيعهم في أسواق العبيد، فكان المحظوظون منهم هُم مَن كان باستطاعتهم افتداء أنفسهم ودفع المال مقابل إعتاقهم من أسيادهم العرب والبربر.

وقد مُنِعَ اليهود في المغرب من ممارسة عدد كبير من المهن والحرف والوظائف من قبل روابط ونقابات العمال والحرفيين، تماماً كما حدث مع اليهود الأشكناز في أوروبا خلال فترة القرون الوسطى، الأمر الذي اضطر اليهود للتوجه إلى مجال المال والإقراض والسمسرة، وهي مهنٌ لم تكُن تحظى بتلك الدرجة من الاحترام من قبل الغالبية المسلمة.[11]

ولو عدنا لذلك الوقت لوجدنا أن الوظائف التي سُمِح لليهود العمل بها كانت أحقر الأعمال وأدناها منزلة، فعلى سبيل المثال لا الحصر سُمِح لليهود العمل في تمليح الرؤوس المقطوعة لمن حُكِم عليهمبالإعدام [12] (لهذا كان يُطلق على حارات اليهود في المغرب اسم مِلَّاح). أما تنظيف المجارير وبالوعات المياه العادمة فكانت مهنة لعدد لا بأس به من يهود اليمن. بطبيعة الحال فإن هذه المهن الوضيعة يشغلها في الوقت الحالي المسيحيّون مثل أقباط مصر نظراً لمنزلتهم المُتدنيّة بين طبقات المُجتمع المصري، فهُم يقومون بأعمال جمع القمامة والنفايات، لدرجة أن هناك حيّ كبير في القاهرة بالقرب من منطقة المقطّم الراقية يُدعى حيّ الزبالين، وغالبية سكانه من الأقباط ممن امتهنوا حرفة جمع قمامة القاهرة وفرزها. ونظراً للاضطهاد الذي تعرّضوا له فهم يفضّلون البقاء في هذا الحي وجمع القمامة والنفايات على الانتقال لمكان آخر لأنهم يشعرون بأنهم يتمتعون بحرية في ممارسة شعائرهم الدينية المسيحية أكثر من أي مكان آخر. وفي العراق خلال عشرينيات القرن المُنصرم كان يقوم مسيحيّو العراق بنفس الأعمال تقريباً بالإضافة إلى تنظيف المجارير وحُفَر الامتصاص وخطوط الصرف الصحي.

أما بالنسبة لمُجتمع اليهود السَّفرديّين - الصغير إلى حدٍ ما - والذين عاشوا في فلسطين فقد كانوا يُعاملون بمنتهى الإهانة في ظل الحُكم الإسلامي آنذاك، الأمر الذي لم يتقبّله اليهود الأشكناز، فرفضوا الخنوع والانصياع لمثل هذا الإذلال والإهانة التي تعرّض لها اليهود السَّفرديون. وهؤلاء المجموعة من اليهود الأشكناز هُم يهود هاجروا إلى القدس طلباً للأمن والأمان سنة 1700م، لكنهم كانوا يتبعون شخصاً يُدعى شَبتاي تسفيالذي كان يظنّ نفسه المشيح المخلص. يقول أحد الباحثين واصفاً ذلك الواقع بأن "المُسلمين كانوا يتصرّفون بمنتهى العُنف والدموية مع اليهود".[13]

كذلك فقد حُرِم اليهود في فلسطين من حرية العبادة في أماكنهم الدينية المقدسة، فعلى سبيل المثال قام المماليك بمنع اليهود من تجاوز الدرجة السابعة من درجات المكان الذي دُفن فيه إبراهيم والأنبياء اليهود في مغارة المكفيله (كهف الآباء وأنبياء اليهود في الخليل) والمعروف اليوم باسم الحرم الإبراهيمي. يقول كارل ماركس في هذا السياق: "لا توجد معاناة تعادل معاناة اليهود ومآسيهم في القدس، فكان الأتراك والعرب والمسلمون البربر سادة هذه المعاناة ومسبّبيها". وباختصار شديد فإن حياة اليهود وغير المسلمين في المجتمعات الإسلامية بصِفَتِهم أهل الذمة هي بمثابة تذكير دائمٍ لهم بفوقيّة الإسلام واستعلائه على الديانتين اليهودية والمسيحية.

ومثلما ذكرتُ سابقاً فقد مارس اليهود عدداً من المهن المتعلقة بالتجارة والمال، الأمر الذي مكنهم من التقدّم بشكل كبير في هذا المجال، فكانوا يعملون في مجال السمسرةِ والصرافة والأعمال التجارية بأنواعها، كما أنهم تبوؤا بعض المناصب الرفيعة في البلاط الملكي، وكان منهم عدد ممن كانوا يمتلكون ثروات طائلة، مثل حاييم فَرحي. لكن ومع الأسف فإن هذا الحال لم يُعجب الكثيرين وكان محط استياء لهم، فتم قطعُ أنف حاييم فرحي واقتلاع عينه قبل أن يتم اغتياله من قِبَل أحد الحُكام العثمانيين.[14]

يقول الرحالة السويسري ج. لبورخاردت واصفاً ما رآه سنة 1811م: "بالكاد يوجدُ مثالٌ نضربه خلال فترة التاريخ المعاصر في سوريا عندما نتحدث عن قدرة اليهوديّ أو المسيحيّ على التمتّع بما يمتلك ثروة أو ما تقلّد من مناصب، وعادة كان يتم التنكيل باليهود والمسيحيين في اللحظة التي كانوا يبدؤون فيها بالصعود على سلم العزّ والمجد". [15]

ويتحدث المؤرخ الفرنسي جورج بنساسون في كتابِه (Juifsen pays arabec: le grand deracinement 1850-1975)(اليوسفيّون في دولِ العرب: الاضطهاد الكبير1850م- 1975م)عن المغالطة الشائعة في وصف ما يُسمّى "بالاستعمار اليهودي"[16]، فيقول بأن "اليهود الذين عاشوا تحت الحكم الإسلامي كانوا الضحايا الحقيقيّين للاستعمار الإسلامي وغياب التعدّدية من أساس هذا الحكم"، كما ويؤكد جورج بن ساسون على موضوع هام، وهو أن إدوارد سعيد قد عمد إلى عدم الحديث عن حال النساء والأقليات والعبيد في كتابه المعروف "الاستشراق" والذي وصفواقعبلدان العالم العربي قبل حُقبة الاستعمار الأوروبي.

ويؤكد جورج بنساسون أيضاً أن الحكم الإسلامي قائم بالأساس على مبدأ استعماريّ بَحت يستند إلى فكرة الخضوع والتسليم للنظام الحاكم، فالمسلمُ يخضعُ لله ويسلّمُ أمرهُ إليه تبعاً للديانة الإسلامية، والزوجة المُسلمة تخضعُ لزوجها وتُسلّم أمرها إليه من نفس المنظور، بالتالي وانطلاقاً من نفس الفكرة يجب على "أهل الذمة" أن يخضعوا للمسلمين ويسلّموا أمرهُم إليهم، بل ويجب أن يكون هذا التسليم على شكل أقصى درجات الخضوع والامتثال والعبودية.

لقد كانت تجارة العبيد أمراً شائعاً جداً بين العرب، بل كان مجالاً امتهنه العربُ واحترفوا القيام به، وكان اليهود أحد سلعهم المفضلة في هذه التجارة البخسة والمشينة، لدرجة بلغت باليهود تخصيص عدد من القوانين بهدف التعامل مع هذه القضية التي لا يمكن السكوت عنها[17]. وقد ظلّت تجارة العبيد اليهود شائعة في المغرب حتى سنة 1890متقريباً، وفي بعض المناطق من الصحراء المغربية مثل قرية غردية كان يتم الاتّجار بالنساء والأطفال اليهود حتى سنة 1896م، وكان يتم بيعهم وشراؤهم في الساحات العامة وكأنهم سلعة تباع وتُشترى على الملأ وبكل سهولة.[18]

وقد كان استعباد اليهود على وجه التحديد والإتجار بهم في تجارة العبيد والرقيق قضية بمنتهى الخطورة، مما دفع المجالس والجمعيات التي كانت تجمع يهود إسبانيا والبرتغال إلى تأسيس صندوق كاتيڤوس (كلمة فرنسية تعني المأسورين) بهدف جمع ما يلزم من أموال لدفع الفدية لليهود المُستعبدين وإطلاق سراحهم. وحتى سنة 1913م كانت هنالك عائلات يهودية بأكملها في جبال أطلس المغربية تتصرف بعقلية العبيد المتجذرة في نفوسها حتى بعد تحريرها، لدرجة بلغت ببعض تلك العائلات أن تمنح نفسها طوعاً لأسياد من الأمازيغ حتى يستعبدوهم [19].
أضِف إلى ذلك تجربة اليهود الأكراد في العبودية، والذين ظلوا حتى سنة 1934م يعملون لدى "الآغا" بأجُور زَهيدة جِدّاً لم تكن تتجاوز كسرة خبز لكل منهم.[20]

إن الصورة النمطية المحفورة في أذهان المُسلمين عن اليهود تتمثل في كونهم - أي اليهود - أشخاصاً جُبناء ويمكن تطويعهم وإخضاعهم بسهولة لأنهم لا يدافعون عن أنفسهم ويقبلون ما يُملى عليهم، كما أنه توجد صورة أخرى محفورة في أذهانهم تربط اليهود ببعض الحيوانات كالكلاب مثلاً [21]، فكانت هناك عبارة شائعة تقول "يهودنا كلابنا"، ولاحقاً تطوّرت هذه العبارة لتُصبِح "فلسطين بلدنا واليهود كلابنا".

وقد كان من الشائع أيضاً الربط بين اليهود والحمير في فلسطين خلال فترة القرن التاسع عشر، فكان من العاديّ جداً أن تسمع طفلاً صغيراً يقول للحمار "إمشي يا ابن اليهوديّ" [22]. وفي هذا السياقيتحدث المفكّر وأحد منظري الثورة الاستعمارية فرانتز فَنون عن ظاهرة الربط بين اليهود والحيوانات واصفاً إياها بأنها "إضفاءٌللطابع الحيوانيّ على اليهود الذين هُم مُستعمرون أصلا بتلك العقلية التي كانوا يحملونها" [23].
بالتالي كان من الطبيعي جداً بالنسبة لحكام المغرب مثلاً أن يضعوا اليهود الذين نجوا من مذبحة فاس سنة 1921م في أماكن إيواء الأسود والنُّمور المَلَكيّة، خاصة وأن اليهود مُعتادون على تلك الوظيفة التي لا يُحسد عليها صاحبها، وهي إطعام تلك الوحوش المفترسة [24].

يذكر شموئيلموريه (سامي المعلم) كيف كانت مشاعر الحقد والكراهية ضداليهود غالبة على طباع المسلمين والمسيحيين في بغداد خلال أربعينيات القرن المنصرم، فيذكر كيف كان زملاؤه في المدرسة يسخرون منه عندما كان يتغلب عليهم في الملاكمة قائلاً: "لقد كانت سلوكيات الطلاب المسلمين والمسيحيّين وطريقة تعاملهم معي في المدرسة ذات طابع عدواني يظهر مدى سخريتهم من تمرد اليهود على حالة الضعف التي يتم تصويرهم بها، خاصة وأننا نعيش في مجتمع يعتبر القسوة والوحشية ضرباً من ضروب الشجاعة" [25]. وفي قصة مماثلة يُخبرنا حسقيل حدّاد ما كان يقول له زميله المسلم أثناء دراسته للطب في بغداد خلال نفس الفترة: "جميعنا نعلم أن اليهوديهو شخص مشلول"[26].
بالتالي كانت حقيقة ضعف اليهود وعدم دفاعهم عن أنفسهم أمام ما كانوا يتعرضون له من أحقاد ومخاطر تهدد حياتهم أمراً مسلماً به، إلا أن حسقيل رفض القبول بتلك الحقيقة، فما كان منه إلا أن أمسك زميله الذي قال له تلك العبارة وطرحه أرضاً.

كما كان يتم تشبيه اليهود بالنساء، فعلى الرغم من أنهم "مدعاة للخطر" إلا أنه يسهلُ السيطرة عليهم والتحكم بهم، أي أن وجودَ اليهود في مجتمعات شرق أوسطية يشكل خطراً على العرب والمسلمين من وجهة النظر العربية التقليدية، خاصة وأن الهوية الثقافية لليهود في المجتمعات العربية تشكل نفس الخطر الذي كانت تشكله النساء عليهم، لكن لم يكن هنالك أي داعٍ للقلق من اليهود والنساء طالما كانوا تحت نطاق سيطرة المُتحكّمين في حياتهم، أي العرب والمسلمين.

فعلياً كان هنالك العديد من أوجه الشبه بين حياة النساء واليهود في المجتمعات العربية، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان اليهود والنساء يمنعون من دخول الحدائق العامة ومخازن الحبوب والمناحِل، اعتقاداً منهُم أن دخول اليهود والنساء إلى هذه الأماكن سيؤدي إلى عدم إنتاجيتها[27]. ومثل هذه الأفكار والمعتقدات تفسر كيف أنه كان من المقبول في العديد من بلدان العالم العربيّ أن يتم ترك رجل يهوديّ لوحده مع النساء المسلمات دون وجود أي "محرم" تبعاً للافتراض القائل بان الرجل اليهودي ضعيف وتحت السيطرة، بالتالي لا خوف من وجوده مع النساء المسلمات. وفي مثال آخر يؤكد هذا المعتقد فقد كان يُسمح للباعة المتجولين من اليهود بالدخول إلى بيوت العائلات المسلمة بكل حُرية، بينما لم يكُن يُسمح للباعة المتجولين من المسلمين بذلك [28].

وفي الوقت الذي كان وجود رجل يهودي برفقة النساء المسلمات أمراً عادياً ومأمون الجانب، لم يكُن وجودُ النساء اليهوديات برفقة أي رجل مسلم أمراً مأمون الجانب على الإطلاق. ونظراً لأن النساء اليهوديات كُنّ يكشفن وجوههنّ - خلافاً للمسلمات - فإن الرجال المسلمين كانوا يعتبرون هذا بمثابة إشارة تعني أن الباب مفتوح أمامهم لإبداء إعجابهم بهنّ، والتاريخ اليهوديّ زاخرٌ بالأمثلة عن قصص لنساء يهوديات تم اختطافهنّ ومن ثم إجبارهنّ على اعتناق الإسلام. ويقول أحد القساوسة الأوروبيّين الذي عاش في القرن التاسع عشر عن هذه المواقف: "لقد كانت حياة اليهود في بلاد فارس أسوأ بكثير من حياتهم في منطقة سوريا فيما يتعلق باختطاف النساء اليهوديات من قبل المسلمين، فكان يتم اختطافهنّ من رجالهنّ على مَرأى ومَسْمَع الجميع دون أن يتجرّأ رجالهنّ على تَحريك أيّ ساكن". [29]

وهنالك صورة نمطية أخرى محفورة في العقلية المسلمة عن اليهود مفادها بأن "اليهود معروفون بخداعهم وغشّهم"، فيما كان يتم اتّهام اليهود بأنهم لا يؤمنُ جانبهم نظراً لرغبتهم الجنسية تجاه النساء المسلمات ومحاولاتهم إقامة علاقات جنسية معهنّ، ومن كان يُتّهمُ بمثل هذه التهمة كان يُحكم عليه بأشد وأغلظ العقوبات ليكون عِبرة لغيره. وعلى سبيل المثال تعرّض القنصلُ المغربي في إسبانيا فكتور دارمون- وهو يهوديّ مغربي - للإعدام شنقاً سنة 1845م بعد اتهامه بأنه على علاقة بفتاة مسلمة، الأمر الذي كان سبباً لاندلاع حرب مع إسبانيا سنة 1860م.[30]

لكن صورة اليهودي في العقلية المُسلمة كانت صورة متناقضة من عدة نواحي، فاليهود هُم الذين كان يستجيب اللهُ لدعواتهم عندما كانوا يستسقون الغيث [31]، وهُم أيضاً جالبو الرزق الوفير والحصاد الغزير باعتبار أن وجودهم في مكان مُعيّن يعني خصوبة تربة ذلك المكان. والطّريف في الموضوع هو أن المُسلمين والأمازيغ كانوا يؤمنون بأن الله يستجيب لليهود عندما يستسقون المطر لأنهم قذرون ذوو رائحة كريهة، بالتالي يُرسل الله عليهم الماء لينظفهم من قذارتهم. لقد كان المسلمون يطلبون من اليهود التضرع إلى الله ليُرسل الغيث من السماء في أوقات الجفاف الشديد على الرغم من أنه كان محظوراً على اليهود الاقتراب من ينابيع المياه حتى لا يقوموا بتنجيسها.[32]

صورة لفتاة يهودية تونسية
(مجموعة لورانس جوليوس)

لوحة فنية لعروس يهودية جزائرية ترتدي فستان الزفاف
وقد تم رسم هذه اللوحة على يد الفنان الفرنسي ديلاكرويكس

ويقول المُتخصص في شؤون المجموعات الإثنية عُمر بوم: "في كثير من الأحيان كان يتمّ الربط ما بين اليهود والمسيحيين في دول العالم الإسلامي وما بين أعمال السحر والشعوذة والأرواح الشريرة، باعتبار الجهتين "دُخلاء" على المجتمع الإسلامي من وجهة نظر المسلمين. لقد كانت لعنةُ اليهوديّ تُثير الفزعَ والخوفَ في قلوب المسلمين أكثر من لعنة المُسلمين لبعضهم البعض، أما الحُجّاج المُسلمون الذين كانوا يتوجهون إلى مكة فقد كانوا يقطعون مسافات طويلة بهدفِ تجنّب رؤية أي يهوديّ أثناء سلوكِهم طريق الحجّ. كما كان يُطلَبُ من اليهود ارتداء المعوّذات الزّرقاء التي تطردُ الأرواح الشريرة، وكان يُعتقدُ بأن الملائكة لا تدخلُ إلى بيت المسلم الذي دخله شخص يهوديّ". [33]

ونتيجة لتشبّع المساجد والإعلام العربيّ في الوقت الحاليّ بالخطاب والمضمون المعادي للسامية الذي يهدف لغسل الأدمغة فإن هذه الصورَ النمطيّة المحفورة في العقلية العربية والمسلمة عن اليهود قد تم استبدالها بصور أسوء، بدءاً من الربط ما بين اليهود والشرّ في العالم، مروراً برغبتهم في الاستحواذ على كل شيء وانتهاء برغبتهم في السيطرة على مصادر القوة في العالم، كيف لا وكتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" المزيف وكتاب "كفاحي" لأدولف هِتلر هي الكتبُ الأكثر مبيعاً في المكتبات والأسواق العربية.

وفي هذا السياق يقول المؤرّخ برنارد لويس: "عادة ما يتمّ تصوير الإمبراطوريات والقوى العظمى في العالم على أنها مجرد دُمى في أيدي اليهود الذين يقومون بتحريكها كيفما أرادوا في الخفاء بهدف تحقيق طموحاتهم في السيطرة على العالم" [34]. ومنذ التاريخ الذي قال فيه برنارد لويس هذه الكلمات في ثمانينات القرن المُنصرم حتى يومنا هذا فإن مستوى معاداة السامية لم يتغيّر، بل يُمكننا القول إنه ارتفع كثيراً إن صحّ التعبير، فاليهود من وجهة نظر العرب والمسلمين مسؤولون عن جميع الكوارث والمصائب التي تحدث في العالم كأحداث الحادي عشر من سبتمبر وحتى هجمات سمك القرش في المحيطات يقف خلفها اليهود [35]، لدرجة بلغت بهِم بالاعتقاد أن زعيم تنظيم داعش الإرهابي أبو بكر البغدادي هو شخص يهودي يُدعى سيمون إليوت! [36]

ويضيفُ برنارد لويس قائلاً: "إن مثل هذه الاعتقادات لا تطغى على النقاشات السياسية فقط، بل تصل إلى درجة الأدب والفن والدين والدراسة بشتى مناحيها، وهذه الصور التي يتم تصوير بها اليهود تنتشر كالنار في الهشيم في شتّى المجلات والصحف الكبرى منها والصغيرة، كما تنتشر على نطاق واسع في محطات التلفزيون الرسمية وقنوات الراديو والمناهج الدراسية في المدارس والجامعات أيضاً. إن درجة الحقد والكراهية الموجودة في هذا الخطاب والمنتشرة كالنار في الهشيم في كل مكان تفوق في فظاعتها خطاب الكراهية المعادي للسامية الموجود في أوروبا". [37]

التحرّر من منزلة أهل الذمة

أدّت الموجة الأولى للاستعمار "العربي" خلال فترة القرن الثامن للميلاد إلى خضوع غير المسلمين لحكم المسلمين، في الوقت نفسه أدّت الموجة الثانية للاستعمار الأوروبي إلى "تحرير" اليهود من القيود التي فُرضت عليهم باعتبارهم يعيشون تحت منزلة أهل الذمة. وخلال القرن التاسع عشر للميلاد لم يدخّر اليهود جُهداً من أجل تحسين الظروف المعيشية للمجتمعات اليهودية المُضطهدة والمقموعة في منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، مثل السيّد (السير) موسى حاييم مونتيفيوري الذي تأثر كثيراً بثورة عصر التنوير وما شهده من ثورة وحرية دينية في أوروبا بهدف تحقيق تلك الغاية، حيث توجه سنة 1864م إلى شمال أفريقيا لأول مرة في حياته بهدف مخاطبة السلطان العثماني ومطالبته بتحسين ظروف المعيشة ليهود شمال أفريقيا، إلا أن مساعيه باءت بالفشل مع الأسف الشديد. [38]

لقد كانت تبدو مساعي اليهود في الرابطة الأنجلو- يهودية (The Anglo-Jewish Association) والاتحاد الإسرائيلي العالميّ وكأنها محاولات "استعمارية" في ظاهرها، إلا أنها في جوهرها كانت تهدف لإنقاذ أخوتهم اليهود في بلدان العالم الإسلامي، حيث حدث هذا اللبسُ عندما كانت الرابطة والاتحاد يحاولان نشرَ قيم التحرر والمساواة وغيرها من القيم والمبادئ الأوروبية في تلك البلدان.

لقد كانت قضية باتو سِفس بمثابة ذريعة للحكومة الفرنسية للتدخّل في الشؤون التونسية، وهنالك أحداثٌ مشابهة لذلك، حيث استخدمت الحكومة البريطانية دُبلوماسية "مدافع الأسطول" للتدخل في الشؤون اليونانية نيابة عن دون باسيفيسو الذي سقط ضحية لأحداث عنف معادية للسامية، إضافة إلى ما يعرف بأحداث البوسنة (أو أحداث الداي حسين) التي كان يحاول فيها الحاكم العثماني لمنطقة الجزائر الضغط على فرنسا لدفع ديونها لتجار الحُبوب اليهود [39]، لكن كانت نتيجة تلك المحاولات أن قامت فرنسا بالهجوم على الجزائر وغزوها سنة 1830م. وباختصار شديد فقد كانت المعاملة الوحشية التي تعرض لها اليهود على أيدي العثمانيين في المغرب بمثابة ذريعة للقوى الاستعمارية الأوروبية لإجبار تلك الدول على إصلاح أنظمتها السياسية لتكون قائمة على العدل والأمن والأمان والحرية والمساواة لجميع رعاياها دون تمييز.

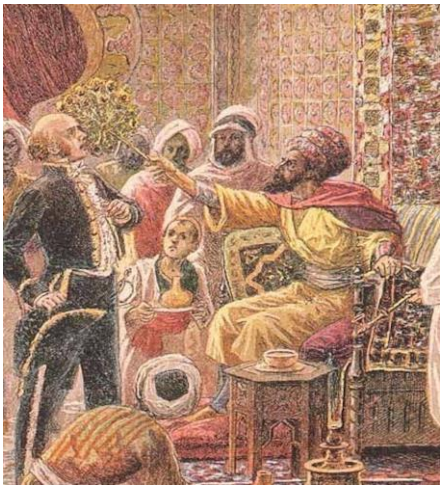

حادثة الدّاي حسين سنة 1827م، وفي هذه الصورة يقوم الحاكم (الدّاي) في الجزائر بعرض قائمة الديون المستحقة على فرنسا لتجار الحبوب اليهود أمام القنصل الفرنسي، حيث كان هذا سبباً لغزو فرنسا للجزائر آنذاك.

وقد شنت القوى الاستعمارية الأوروبية عدة هجمات على مناطق الحكم العثماني نهاية القرن التاسع عشر، تلك الفترة التي بدأت تضعف فيها قوى العثمانيين، وحينها قامت قوى الاستعمار بحماية الأقليات خاصة الأقليات المسيحية. كما شهدت تلك الفترة أيضا انتهاء ما يسمى بضريبة الجزية نتيجة للضغط الأوروبي على العثمانيين، الأمر الذي يفسر إلى حد ما ترحيب اليهود بالفرنسيين في الجزائر سنة 1830م باعتبارهم قاموا بإنقاذهم وتخليصهم من ويلات حكم العثمانيين.

لقد أصبحت حياة اليهود في العراق وسوريا ومصر أفضل بكثير مما كانت عليه بعد أن قامت الإمبراطورية العثمانية بإجراء إصلاحات أطلقت عليها اسم "التنظيمات"، حيث منحَت تلك التنظيمات الأقلياتَ غير المسلمة هامشاً أكبر من الحرية في المُجتمعات المسلمة، فعلى سبيل المثال أصبح لليهود حضورٌ في البرلمان التركي في إسطنبول بعد سنة 1908م، كما أتيح لهُم المجال للخدمة في الجيش التركيّ، أضف إلى ذلك أنه سُمِح للمُجتمعات اليهودية بالازدهار الاجتماعي والانتقال من الأرياف والقرى إلى المدن التركية الكبرى، شأنهُم في ذلك شأن الغالبية السكانية المُسلمة، كما ومُنِحت النساء قدراً أكبر من الحرية حينها.

وعلى الرغم من أن اليهود كانوا يشكّلون ما نسبته ثلاثة بالمئة فقط من عدد السكان في المُدن الكبرى في منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، إلا أن اليهود كان لهُم كثافة سكانية ملحوظة في تلك المدن، كما كان لليهود - والأقليات الأخرى بالطبع - حضور بارز في عالم المال والتجارة، كما خلقَ البريطانيون مناخاً اقتصادياً أدى إلى تأسيس شبكة من الخطوط التجارية بين منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وبين كبرى المقاطعات البريطانية مثل مدينة مانشستر والهند ودول الشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية.

وبعدَ أن أصبحَ للقوى الاستعمارية الغربية موطئ قدم في مناطق الحُكم العثماني نتيجة لضعف العثمانيين، كان اليهود يطلبون الحماية من القناصل الأوروبيّين في تلك المناطق، خاصة بعد أن وقّع العثمانيون مع الأوروبيين معاهدات تمنح حقوقاً وامتيازات خاصة للرّعايا ورجال الأعمال والتُّجار الأوروبيين المُقيمين في مناطق الحكم العثماني، حيث كانت هذه الامتيازات التي مُنِحت لهم سبباً لنجاتهم من اضطهاد العثمانيين لهم وسبباً لإعفائهم من الضرائب العثمانية الباهظة والتجنيد الإجباري ومصادرة الأملاك، كما تمتّعوا بالحصانة التي تمنعُ السلطات التركية من مقاضاتهم.

ومما لا شك فيه أن الحياة في ظل الحكم العثماني في القرن التاسع عشر كانت تطغى عليها مظاهر القسوة والوحشية، ليس على حياة اليهود وحدهم بل على حياة الجميع بشكل عام، إلا أن التغيير الجذري في نمط حياة اليهود بداية القرن العشرين كان له أثر كبير في قلب النظام الاجتماعي التقليديّ الذي كانت بموجبه تحظى فئات معينة بامتيازات أكثر من غيرها، والمقصود هنا الملامح الأوروبية التي بدأت تطغى على حياة اليهود حينها، فعلى سبيل المثال صار اليهود يُسمّون أبناءهم وبناتهم بأسماء أوروبية، كما صاروا يرتدون الملابس ذات الطابع الأوروبي، أضف إلى ذلك انتقالهم من الغيتوهات التي اعتادوا على الحياة فيها إلى المناطق التي سكنها الرعايا الأوروبيّون في مدن شمال أفريقيا وغيرها.

لقد كان هذا التحوّل في نمط الحياة اليهودية سبباً جعل المسلمين ينظرون إلى اليهود على انهم أتباع للقوى الاستعمارية الأوروبية، والأهم من هذا كله هو تصوير المسلمين لليهود على أنهم أصبحوا "فئة متغطرسة في المجتمعات الإسلامية" [40]. وقد كان المُسلمون حينها غارقين في وحل الجَهل والأميّة، فكانت مسافة جيل كامل من التعليم والمعرفة تفصلُ ما بين اليهود والمسلمين العرب، حيث كان اليهود يتمتعون بدرجة عالية من التعليم، مما خوّلهم لتقلد أعلى المناصب [41]، الأمر الذي صبّ مزيداً من الزيت على نار الحقد الموجودة أصلاً في صدور العرب والمسلمين على اليهود، لكن الأمر الذي كان وقعه أكثر من هذا كله على العرب والمسلمين هو قيام اليهود بتشغيل خادمات ومُسلمات في بيوتهم.

لقد رفضَ اليهود الانصهار في مجتمعات الشرق الأوسط ذات الغالبية المُسلمة أو التطبع بثقافتها العربية الإسلامية، خِلافاً لليهود الألمان الذين لم يكن لديهم أي مشكلة في حدوث مثل هذا الانصهار الثقافي والاجتماعي بين اليهود وغير اليهود. بالتالي فإن عدم وجود أي سلطة أو قوة سياسية في أيدي اليهود جعلتهُم لا إرادياً مُنجذبين للمجتمع الاستعماري حينها [42]، ويقول المؤرخ مايكل أبيتبول في هذا الصدد: "لقد كانت القيم الأوروبية تبدو في ظاهرها أنها مُنفتحة وذات بُعدٍ إنسانيّ شمولي، إلا أنها كانت في حقيقتها قيماً متزمتة وعنصريّة". [43]

والأمثلة التي تُثبت صحة مقولة مايكل أبيتبول كثيرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر لم يكُن يُسمح للرعايا اليهود في المناطق التي استعمرتها بريطانيا الدخول إلى النوادي المَلَكية، حيث أن اليهود لم يكونوا "بريطانيّين" بدرجة كافية من وجهة نظر بريطانيا لكي يُسمح لهُم بذلك. أضِف إلى ذلك اليهود الفرنسيّين الذين كان يطلق عليهم (pieds noirs) أي "ذوي الأقدام السوداء" الذين عاشوا في الجزائر والذين كانوا عرضة مراراً وتكراراً لمظاهر معاداة لليهود، كما كان ممثلهُم في البرلمان الفرنسي النائب والسياسيّ إدوارد درَمونت مؤلف الكتاب المعادي للسامية (La France Juive). ومصطلح ذوي الأقدام السوداء هو مصطلح شموليّ أَطلِق على الفرنسيّين الذي وُلِدوا على أرض الجزائر خلال فترة الاستعمار الفرنسيّ.

صورة لغلاف الكتاب المعادي للسامية (La France Juive) للكاتب إدوارد درَمونت والذي كان نائباً في البرلمان الفرنسي ممثلاً عن الجزائر.

يقول المؤرخ جورج بن سوسان في هذا السياق أن خروج ما تعداده مليون يهوديّ تقريباً من بلدان العالم الإسلاميّ بعد سنة 1948م لم يكُن مجرد نزوح مؤقت، بل كان على حد تعبيره "طلاقاً نهائياً مدفوعاً بالكثير من الأحقاد والضغائن"، حيث تعود بدايات هذا التهجير فعلياً الى القرن العشرين عندما بدأ اليهود بتنشئة أبنائهم تنشئةً غربيّة في مدارس الاتحاد العالميّ الإسرائيلي، ومنذ ذلك الحين بدأت الفجوة تتسِعُ شيئاً فشيئاً بين العرب واليهود لتصل إلى مرحلة الاختلاف الكلي بين حياة اليهود وحياة العرب. لقد كان اليهود بمثابة عمود فقريّ للنظم الاستعمارية باعتبارهم موظفين مدنيّين وإداريّين ومترجمين يعملون في تلك الحكومات الأوروبية.

وخلال عشرينيات وثلاثينيات القرن المنصرم في العراق لم يستطع خريجو الكليات والمعاهد والجامعات من المسلمين إيجاد أي وظيفة في الوقت الذي كان يتزايد فيه عددٌ الموظفين الحكوميّين من اليهود، خاصة موظفو المحاكم. حينها قامت الحكومة العراقية بتوظيف مئات اليهود في المحاكم لينضموا الى القوى العاملة الحكومية على الرغم من أنه لم يكُن هنالك حاجة لهذا العدد من الموظفين [44]، الأمر الذي زاد من مشاعر الحقد والضغينة ضدّ اليهود.

السير إيلي قدوري خلال افتتاح مدرسة من مدارس البنات الخاصة بالاتحاد العالمي الإسرائيلي في بغداد، والتي تمت تسميتها بمدرسة لورا نسبة إلى زوجته (الصورة مأخذوة من مكتبة صور الاتحاد الإسرائيليالعالمي، باريس).

لقد كان الاتحاد العالميّ الإسرائيلي يُشرفُ على قرابة مئتين وعشرة مدارس، تم تأسيسها جميعها بعد سنة 1860م لتنتشر في أكثر من ستة عشر دولة، حيث خَرَّجت قرابة أربعين ألف طالب يهودي على مرّ السنين [45]. لقد ساهمت شبكة مدارس الاتحاد العالميّ الإسرائيليّ في انتشالِ اليهود من وحل الفقر والجهل وتحويلهم إلى نُخبة اجتماعيّة متعلمة ومثقفة بكل المقاييس، وذلك من خلال التركيز على تعاليم فولتير وألفونس دو لا مارتين، والتركيز على تعليم اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية إضافة إلى اللغتين العربية والعبرية، كما أتاحت تلك المدارس الفرصة للبنات اليهوديات الانخراط في العملية التعليمية لأول مرة في حياتهن. بطبيعة الحال كانت تطمحُ مجموعة مدارس الاتحاد العالمي الإسرائيلي للوصول إلى أكبر شريحة من اليهود ممن كانوا ينتمون للطبقات الفقيرة والمسحوقة في تلك المجتمعات.

وعلى الرغم من وجود عدد محدود من اليهود ممن كان لهم حضور في المشهد السياسي في العراق وسوريا ومصر إلا أن الغالبية السكانية المُسلمة كانت تنظر إلى اليهود باعتبارهم عملاء للأنظمة الاستعمارية الغربية بل وعملاء للأنظمة الإمبريالية العالمية أيضاً، وأثناء معارك القوميّين العرب لنيل استقلال بلدانهم من الاستعمار الغربيّ كانوا لا يُفرّقون بين القوى الاستعمارية الغربية وبين اليهود.

في الحقيقة لم يكُن القوميّون العرب ينظرون لليهود على أنهم مُكوّن أصيل من مكونات المُجتمعات العربية، بالتالي لا حاجة لدمجُهُم في تلك المجتمعات، وهم لا يستحقون أن يكونوا تحت حماية تلك الشعوب وأنظمتها بعد الاستقلال. والمفارقة في الموضوع هو أنه تم رفضُ اليهود ونبذهم من تلك المجتمعات باعتبارهم "عملاء وخونة" للأنظمة الاستعمارية من جهة، وباعتبارهم متمرّدين خارجين عن قوانين "أهل الذمة" من جهة أخرى.

وقد كانت الفترة التي عاش فيها اليهود حياة هانئة ومستقرة تحت حُكم القوى الاستعمارية فترةً قصيرةً نسبياً، فكانت الفترة التي تم طردُ القوى الاستعمارية فيها بمثابة "الشرارة الأولى لعمليّة طردِ اليهود من تلك الدول والبلدان" [46] ، حيث تزامن انسحاب القوى الاستعمارية مع عملية تهميش اليهود بشكل تدريجيّ وبمُنتهى الهدوء [47]، فعلى سبيل المثال لم يكُن في تونس بعد أن نالت استقلالها سوى عدد محدود من المسلمين ممن كانوا يمتلكون الخبرة في مجال الشؤون الإدارية المدنية والتقنية، وبعد أن عاد الموظفون والخبراء الفرنسيون إلى فرنسا قام الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة آنذاك بتعيين اليهود عِوَضاً عن الموظفين الفرنسيين بشكل مؤقت إلى أن يمتلك الموظفون المسلمون الخبرة الكافية، فيقوم بطرد اليهود وتسليم مهامهم ووظائفهم للمسلمين.

وخلال فترة استقلال الدول العربية كان موظفو القطاع المدنيّ من اليهود يواجهون العديد من المصاعب والتحديات في سبيل البقاء في وظائفهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر لم يكُن يُسمح للمحامين اليهود بترك وظائفهم، في الوقت نفسه كان يتم تركيب أنظمة التبريد والتدفئة في كافة مكاتب المحامين باستثناء المكاتب التي يعملُ فيها المحامون اليهود [48]، كما كان الموظفون العرب والمسلمون يتلقون الترقيات ويُحرمُ منها اليهود لكي يظلّوا في مناصب ومراتب أدنى من مناصب ومراتب الموظفين المسلمين، أضف ذلك الانتقائية في اختيار طلبة الطب، فكانت الأولوية للطلاب المسلمين طبعاً. يقول الطبيب اليهوديّ المصريّ الأصل إليس دويك المختص في مجال جراحة الأنف والأذن والحنجرة والذي يشغل حالياً منصب رئيس قسم في مستشفى چاي ومستشفى ساينت ثوماس في لندن: "لم يكُن بإمكان شخص يهوديّ مثلي أن يصل إلى مرتبة بروفيسور لو ظلّ يعملُ في مستشفى القصر العيني في جامعة القاهرة مثلاً". [50]

الشيخ روبين، شيخ مدينة قابس التونسية يرتدي زياً تونسياً تقليدياً (أ. بِناتيا– هريسة)

البحثُ عن وسيلة لِلفرار

إن الفرضية القائلة بأن اليهود لم يغادروا بلدان العالم العربي والإسلامي قبل قيام دولة إسرائيل هي فرضية خاطئة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ففي العراق مثلاً بدأ اليهود بالمغادرة خلال فترة منتصف القرن التاسع عشر متجهين إلى الهند ودول الشرق الأقصى للبحث عن فرصة تمكنهم من الوصول إلى أمريكا الشمالية أو الجنوبية، فيما كان اليهود المغاربة يشكّلون قرابة ثلث سكان اليهود السَّفرديّين في مدينة القدس خلال القرن التاسع عشر [51]وما نسبته عشرون بالمئة من نسبة سكان المقاطعة البريطانية في جبل طارق. [52]

كذلك الحال بالنسبة لرجل الأعمال العراقيّ المعروفديڤيد ساسونالذي لم يخرج من العراق باحثاً عن عمل في المملكة البريطانية على مجال التجارة في الهند مثلاً، لأن السبب الحقيقي لهجرته من العراق كان الاضطهاد الدينيّ والمعاملة الوحشية التي عانى منها على يد داوود باشا. أما في نهاية القرن التاسع عشر فقد كان يهود سوريا وتركيا يفرّون للنجاة بأرواحهم بعد الافتراءات والاتهامات التي كانت توجه لهم إضافة إلى تردّي حياتهم المدنية وحالة التردّي الاقتصادي التي كانوا يعيشونها، هذا عدا عن التجنيد الإجباري الذي كان يفرضه عليهم العثمانيون، بالتالي فرّوا مهاجرين إلى بريطانيا والأمريكيتين.

بطبيعة الحال لم يكن هنالك أي ضمان لأن ينال الإنسان حقوقاً متساوية أو حتى أن يشعر بالأمن والأمان في ظل الحكم العثماني سوى جواز السفر الصادر عن أحد الدول الغربية، وقد ظل هذا الوضع سائداً في مناطق الحكم العثماني حتى سنة 1856م، أي السنة التي أعلنت فيها لحكومة العثمانية بأن جميع رعايا الدولة العثمانية سواسية أمام القانون دون تمييز. وقد تمتع يهود منطقة غرانا في تونس بجواز السفر الإيطالي باعتبارهم يحملون الجنسية الإيطالية منذ سنة 1846م [53]، لكن الغالبية العُظمى من يهود الدول العربية والإسلامية لم يكونوا يحملون أي جواز سفر أجنبيّ، أضِف إلى ذلك انهم لم يكونوا يمتلكون المال الكافيَ واللازم لمغادرة أوطانهم ومسقط رأسهم، للنجاة بحياتهم.

وفي الجزائر كان الوضع مختلفاً عن باقي الدول، حيث كانت منطقة تابعة لفرنسا منذ سنة 1830م، وفيها تمكّن اليهود من الحصول على الجنسية الفرنسية (كان يُطلق عليه حينها الكأس المقدسة). لم يكن قبول الجنسية الفرنسية أمراً بتلك السهولة على اليهود، حيث كانت المؤسسات الدينية اليهودية تعارض فكرة حصول اليهود على الجنسية الفرنسية لمدة أربعين سنة، حرصاً منها على ألا تفتح تلك الجنسية باب العلمانية الذي سيصهر ويدمجُ المُجتمعات اليهودية مع المُجتمعات الأخرى. لكن بنهاية المطاف صدر المرسوم المعروف بمَرسوم كريميو والذي سُمّي بهذا الاسم نسبة إلى السياسي اليهودي ورجل الأعمال المعروف، هذا المرسوم الذي تم فرضهُ على المجتمع اليهودي في الجزائر سنة 1870م.

ومنذ ذلك الحين انتشرت خرافة مفادها أن يهود الجزائر وحدهم هُم من حملوا الجنسية الفرنسية، لكن هذا لم يكن صحيحاً على الإطلاق، لان الجنسية الفرنسية قد عُرَضَت أيضاً على مسلمي الجزائر إلا أنها قوبلت بالرفض الشديد من قبلهم، كونها تعني بالنسبة لهم التنازل عن العديد من منزلتهم في مجتمعهم باعتبارهم محكومين بالشريعة الإسلامية والقوانين الإسلامية. [54]

كذلك لم يكُن جميع يهود الجزائر فرنسيين بمعنى الكلمة، ففي الجنوب مثلاً كان يهود غرديّة في بلدة مزاب الجزائرية خاضعين لقوانين "أهل الذمة" على الرغم من كونهم يحملون الجنسية الفرنسية، وعلى الرغم من أن ثقافة منطقة مزاب كانت ثقافة أمازيغية أكثر من كونها ثقافة إسلامية. وفي خمسينيات القرن المنصرم كان يُحظرُ على غير المسلمين فيها من البقاء خارج بيوتهم ليلاً، وقبيل حصول الجزائر على استقلالها كان اليهود في منطقة غرديّة يحاولون كل ما بوسعهم من أجل الحصول على الجنسية الفرنسية.

وقد رفضَ اليهودُ في المغرب وتونس استخدام مرسوم كريميو للحصول على الجنسية الفرنسية باعتباره المغرب وتونس كانتا واقعتين تحت الحماية الفرنسية، وذلك من أجل عدم إشعال نار الغيرة والحقد في نفوس المسلمين، أي حتى لا يتحول حقدهم على المستعمرين إلى حقد على اليهود في حال حصولهم على الجنسية الفرنسية، كما حدث الأمر نفسه في الجزائر عندما امتنع اليهود عن امتلاك الجنسية الفرنسية في تسعينيات القرن التاسع عشر خاصة بعد أحداث قضية دريفوس. [55]

في الوقت نفسه كانت تقوم النساء اليهوديات بالإنجاب على أراض جزائرية على أمل أن تمنح الحكومة الفرنسية جنسيتها للمواليد. والمفارقة هُنا تكمن في أن الحكومة الفرنسية التي كانت تمنح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر هي الحكومة نفسها التي سحبت الجنسية منهم خلال الحرب العالمية الثانية، حيث لم يستعِد اليهود جنسيتهم الفرنسية إلا بعد انتصار الحلفاء وسيطرتهم على المغرب، أي بعد مرور سنة تقريباً. [56]

والحال نفسه كان في ليبيا، فقد كانت مصالح القوى الاستعمارية ويهود ليبيا مختلفة جداً، أما الاستعمار الإيطالي فكان ينظرُ بعين الشك والريبة إلى اليهود باعتبار أن عدداً لا يستهان به منهم قد ساند العرب في ثورتهم ضد الحُكم الفاشيّ [57]. كما شهدت فترة العشرينيات من القرن العشرين ارتفاعاً ملحوظاً في عدد الهجمات والاعتداءات على اليهود في المناطق التي خضعت للاستعمار الإيطالي، فيما قامت الحكومة الإيطالية بإلغاء القانون الذي يُعفي اليهود من حضور المدارس في يوم السبت اليهوديّ المقدس، وهو ما عُرفَ حينها باسم أزمة الشبات.

وقد ذكرت صحيفة إسرائيل أنه قد تم صهرُ اليهود في المجتمع دون اي اعتبار لخصوصية ديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم، في الوقت الذي كان يُسمح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية. لكن الأمور بدأت تسوء أكثر وأكثر بالنسبة لليهود عندما تم تعيين الإيطاليّ إيتالو بالبو حاكماً عسكرياً على ليبيا سنة 1934م، حيث أصدر مرسوماً يفرضُ على اليهود بأن يفتحوا مصالحهم التجارية ومحالّهم خلال يوم السبت اليهودي، الأمر الذي يتناقض مع تعاليم الشبات اليهودي والذي يُحرم فيه على اليهود القيام بأية أعمال أو التعامل بالنقود يوم السبت. وقد تم سحب اثني عشر رخصة محل تجاري من اليهود، كما تم جَلدُ رجلين يهوديين على الملأ عقاباً لهم على عدم التزامهم بذلك المرسوم. [58]

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية شعرَ يهود منطقة شمال أفريقيا بأنهم نجوا من الموت المحقق ومن الإبادة الجماعية بأعجوبة، خاصة وأن المستعمر الأوروبي هو الآخر قد أثبت خيانته لليهود واضطهاده لهم رغم ادعائه بأنه جاء ليحميهم ويخلصهم من الظلم، بالتالي أدرك اليهود الذين توجّهوا إلى إسرائيل منذ البداية أنه يستحيل الرهان على الحكومات الاستعمارية فيما يتعلق بحماية اليهود وتوفير الأمن لهم. في الوقت نفسه أدرك اليهود بأنه لا يوجد إمكانية للحفاظ على حقوق اليهود في المجتمعات ذات الغالبية المسلمة بعد انتهاء حقبة الاستعمارية الغربي لتلك المجتمعات. كذلك الحال كان بالنسبة ليهود بابل - يهود العراق - الذين فُرض عليهم عملية "التعريب" رغم انهم يُعتبرون أقدمَ مجتمع يهوديّ في دول العالم العربي والإسلامي، فيما كان يخشى هؤلاء أن يكون حصول الدول العربية على استقلالها كارثة عليهم بكل المقاييس.

وبعد تأسيس الإدارة البريطانية في العراق سنة 1918م توجه يهود العراق إلى السير بيرسي كوكس باعتباره القنصل البريطاني العام، طالبين منه الحصول على الجنسية البريطانية، مُبرّرين طلبهم بأن العرب لا يمتلكون أي خبرة في إدارة الحكومة، وبأنهم ذوو عقلية متحجّرة ومتعصّبة [59]، لكن مع الأسف قوبل طلبُ اليهود بالرفض عدة مرات.

أما في مصر فقد تم حُرِمَ اليهود والأرمن من الحصول على الجنسية المصرية بعد سنة 1860م، بالتالي كانت الغالبية العظمى من يهود مصر لا تمتلك أي صفة قانونية في البلاد، فيما تمتع ما نسبته خمسة وعشرون بالمئة منهم ببعض الامتيازات باعتبارهم يحملون جوازات سفر أجنبية لدول لم يقم غالبيتهم بزيارتها ولا تحدّث لغتها. وحتى سنة 1949م لم يكن يُسمح سوى لليهود من حملة الجوازات الأجنبية بالاحتكام للمحاكم المحلية فيما يتعلق بإدارة شؤون حياتهم. [60]

سياسة غضّ البصر التي اتّبعتها القوى الاستعمارية

بشكل عام فقد تمتع اليهود بقدر من الأمن والأمان على أنفسهم وممتلكاتهم في ظل حُكم الاستعمار الأوروبي، لكن في الوقت نفسه كان هنالك مقدار محدد لهذا الأمن الذي كانت القوى الاستعمارية جاهزة لمنحه لليهود. فعلى سبيل المثال كانت لا تظهر قوى الأمن التابعة للحكومات الاستعمارية في مكان وقوع الاعتداءات ضد اليهود كنوع من غضّ البصر عما يحدث، بهدف إلقاء اللوم على كلا الجانبين لاحقاً، تماماً مثلما حصل في تونس سنة 1898م عندما تعرضت بيوت اليهود ومحالهم التجارية للسرقة والنهب والتكسير، حينها قام الأمن باعتقال عشرين يهودياً إضافة إلى اثنين وستين مسلماً. [61]

كذلك كانت قوى الأمن التابعة للقوى الاستعمارية تحاول جاهدة الابتعاد عما من شأنه إثارة أو استفزاز الغالبية السكانية المسلمة في المناطق التي حكمتها، والأمثلة زاخرة على الاعتداءات والهجمات التي قام بها المسلمون ضد اليهود في الوقت الذي كانت قوى الأمن تأتي للمكان على أقل من مهلها لضبط الأمن وحماية اليهود، وهنا سأستعرض عدة أمثلة لعدة وقائع وأحداث محددة تثبتُ سياسة غضّ البصر التي انتهجتها الحكومات الاستعمارية.

هنالك دلائل تُشيرُ بما لا يدع مجالاً للشك إلى دعم الإنجليز في أعمال العنف والاحتجاجات المعادية لليهود في فلسطين [62]، فالحشود التي كانت تهاجم اليهود كانت تهتفُ قائلة بصريحة العبارة أن "الحكومة الإنجليزية معنا"، كما أنه لم يكن هناك أي شرطيّ إنجليزي يدافع عن اليهود الذين لم يكن لهم حول ولا قوة عندما تعرّضوا لمجزرة سنة 1929م. وقد وضّح الاتحاد العالميّ لمناهضة العنصرية ومعاداة الساميّة بأن اليهود قد حمّلوا الحكومة الجزائرية مسؤولية المجزرة التي تعرض لها اليهود في قسنطينة سنة 1934م، حيث لم يتدخل رجال الأمن المسلحين لإنقاذ اليهود حين تعرضوا
للمجزرة. [63]

وفي حدث مماثل كانت القوات الفرنسية تماطُل في التدخل وإيقاف مجزرة قابس في تونس التي وقعت في أيار سنة 1941م والتي راح ضحيتها سبعة يهود، إضافة إلى مجزرتي أوجدة وجرادة في المغرب سنة 1948م [64]. وخلال مجزرة الفرهود في العراق والتي وقعت في شهر حزيران سنة 1941م كانت القوات البريطانية واقفة مكتوفة الأيدي حيال ما حدث في ضواحي بغداد، حيث كان لدى قوات الشرطة والأمن تعليمات واضحة بعدم التدخل لوقف المجازر إلا في حال وصلت إلى أحياء المسلمين [65]. كما كانت هنالك أوامر واضحة لقوات الأمن البريطانية ألا تخرج من ثكناتها خلال مجزرة ليبيا سنة 1945م والتي راح ضحيتها أكثر من مئة وثلاثين يهودياً. [66]

ومن ضمن ما مجموعه خمسمائة وخمسون متظاهر عربيّ ممن تم اعتقالهم، تمت محاكمة 289 شخصاً فقط، فيما تم إطلاق سراح غالبيتهم بعد مضي عدة شهور من اعتقالهم. وحتى تتظاهر الحكومة البريطانية بانها حكومة متّزنة وعادلة قامت باعتقال عشرة يهود لا لسبب سوى انهم تجرأوا على الدفاع عن أنفسهم خلال هذه المجازر [67]. وبدلاً من قيام قوات الأمن البريطانية بحماية اليهود أثناء المجازر التي تعرضوا في عدن سنة 1947م ، قام حراس محمية عدن المسلحين بتوجيه نيران أسلحتهم صوب اليهود [68]. والحال نفسه بالنسبة للقوات الفرنسية التي كانت تماطل وتماطل لمدة ثلاث ساعات حتى تدخلت لوقف أحداث مجزرتي أوجدة وجرادة في المغرب سنة 1948م.

وتبعاً لسياسة القوى الاستعمارية التي كانت قائمة على مبدأ "فرّق تَسُد" فقد ساهم البريطانيون في زرع بذور الفتنة والصراع بين العرب واليهود في فلسطين، في الوقت نفسه كان البريطانيون ينتهجون سياسة قائمة على استرضاء العرب ومسايرتهم قدر الإمكان، بالتالي فإن البريطانيّين ليسوا متهمين فقط بالوقوف مكتوفي الأيدي تجاه أعمال العنف التي كانت ترتكب ضد اليهود، بل يجب توجيه الاتهام لهم بقيامهم بالتحريض ضد اليهود أيضاً، والأمثلة التي تثبت صحة هذا الاتهام زاخرة وعديدة، فعلى سبيل المثال لا الحصر وأثناء زيارة السير ألفرد موند إلى بغداد سنة 1928م تم توجيه عدد من المتظاهرين للقيام بمسيرة احتجاجية أمامه، وتم توجيههم ليقولوا عبارة "تسقط الصهيونية" أثناء المظاهرة، لكن وبسبب عدم معرفتهم لمعنى كلمة "الصهيونيّة" فقد كان المتظاهرون يهتفون قائلين "تسقط البصوانيّة" بدلاً من "تسقط الصهيونيّة"، أي يسقط "نظام التقاعد والضمان الاجتماعي!". [70]

مبدأ أهل الذمة لم ينتهِ

لم يتوقف تحاملُ العرب والمسلمين ولا أذيتهم لليهود باعتبارهم "أهل الذمة"، ويرى غالبية اليهود أن مشاعر البغض والكراهية التي يكنّها العرب والمسلمون لليهود كان لها أثر كبير على مجريات الصراع الفلسطينيّ الإسرائيلي. وهنالك حادثة معروفة من ضمن حوادث كثيرة تثبت صحة ذلك، حين قام اليهود في كيبوتز هَشومير هَتسَعير في منطقة سَجرا (نسبة إلى قرية الشجرة العربية) سنة 1908م باستبدال حراس الكيبوتز الشركسيّين الذين كانوا يحرسونهم من هجمات البدو بحراس يهود.

بالنسبة لليهود كان هذا الإجراء جزءاً من أيديولوجيتهم لتحقيق أمنهم وحماية أنفسهم بأنفسهم، أما بالنسبة لجيرانهم من الفلاحين العرب فقد كان هذا الإجراء بمثابة تجاوز للخطوط الحمراء من قبل اليهود، إذ كيف يجرؤُ اليهودي على تغيير الأمر الواقع الذي يقول بأنه لا يحقُّ لليهودي باعتباره من أهل الذمة أن يحمل سلاحاً! بالتالي يجبُ على اليهوديّ أن يطلب الحماية من المسلمين ولا يحق له حماية نفسه بنفسه [71]. كما كان يصعبُ على الجنود المسلمين أن يتقبلوا فكرة وجود ضابط يهودي يعطيهم الأوامر، الأمر الذي كان يشكل عقبة كبيرة أمام تشكيل وحدات قتالية مشتركة تضم اليهود والمسلمين معاً من قبل الفرنسيين سنة 1949م في المغرب. [72]

وفي الوقت الذي أدخل فيه العثمانيون فكرة الطربوش في العراق سنة 1808م حتى لا يتم التفريق بين الجماعات الدينية المختلفة من خلال لباسهم، كانت قوانين أهل الذمة وتبعاتها الاجتماعية لا زالت تطبق في تونس لفترة امتدت قرابة قرن من الزمن، أي حتى خلال فترة حكم الاستعمار الفرنسي، وفي هذا السياق يذكر ألبِرت ممّي كيف كان جدّه مُجبراً على ارتداء لباس خاص باليهود، الأمر الذي يعتبرُ سلوكاً عنصرياً بلا أدنى شكّ. أما يهود بلاد فارس فكان يُفرضُ عليهم دفع ضريبة الجزية حتى انتهاء فترة حكم الدولة البهلوية سنة 1925م. [73]

وخلال الحرب العالمية الثانية قامت الحكومة التركية بفرض ضرائب على الأملاك قام بموجبها التجار ورجال الأعمال اليهود بدفع مبالغ تعادل قيمتها أربعة أضعاف الضريبة التي كان يدفعها التجار ورجال الأعمال المسلمين [74]، الأمر الذي كان له عواقب كارثية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث أدى هذا إلى مغادرة قرابة 30,000 يهودي من البلاد نظراً لعدم قدرتهم على دفع تلك الضرائب الباهظة. [75]

وفي تونس، وعلى الرغم من كونها كانت خاضعة للحماية الفرنسية آنذاك، إلا أن اليهود كانوا يُعاملون معاملة سيئة جداً، فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت هنالك عادة أطلق عليها "شطقه"، والتي تعني ضربَ المسلمين لليهود على رؤوسهم أينما وجدوهُم، كما كان الأطفال يلقون الحجارة على اليهود، والذي كان أمراً عادياً بل ومستحباً لم يستنكره أحد حتى يومنا هذا. [77]

كما كان هنالك زيّ مُحدد يُفرضُ على أهل الذمة ارتداؤه في المغرب، خاصة في المناطق القبليّة، وكان هذا بموافقة من قوات الحلفاء بعد انتصارهم في الحرب العالمية الثانية، وذلك حتى لا "تغضبَ" الغالبية السكانية المسلمة من ارتدائهم وأهل الذمة اللباس نفسه، فكان يُفرضُ على اليهود في منطقة ورزازات في جبال أطلس ارتداء اللون الأسود فقط، كما أن هذه القوانين التي تُلزمُ اليهود بأنماط لباس مُحددة استمرت حتى بعد إلغاء قوانين فيشي سنة 1943م، تلك القوانين التي طغى على ملامحها العداء الواضح لليهود. [78]

وبالنسبة للشيعة فقد استمرت نظرتهم الدونية لليهود والقائمة على كون اليهود "نَجَساً" غيرَ أطهار حتى يومنا هذا، وفي هذا السياق يحدثني صديق يهودي بَحرينيّ ما حدث لجدته عندما ذهبت لشراء بعض الخضار والفواكه من السوق، وأثناء اقترابها من أحد الباعة قامت بتفقّد بعض الفواكه قبل شرائها، فقام البائع بإلقاء ما بحوزته من خضار وفواكه على الأرض صارخاً في وجهها: "لقد قمتِ بتنجيسها"! [79]

العصرُ الذهبي

لقد ازدهرت التعددية والتعايش خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين تحت ظل الحكم الاستعماري لبلدان العالم العربي والإسلامي عُموماً، ومن وجهة نظري كانت تلك الحقبة بمثابة عصر ذهبي للتعايش والتعدّدية. ولقرون عديدة كان يهود منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا جزءاً لا يتجزأ من المكون الثقافي والتركيبة الحضارية لتلك المناطق، كما كان للعديد من الموسيقيّين والمغنيين والممثلين والكتاب والمحامين ورجال الأعمال وموظفي البنوك إسهامات كبيرة في إحداث تقدم ثقافي واجتماعي وتجاري وحَضَريّ ملموس في المجتمعات التي عاشوا فيها في القرن العشرين.

لقد كان جوزيف أسلان قطويّ اليهوديّ الوحيد الذي وصل إلى منصب حكوميّ مرموق في حكومة الملك فؤاد، حيث شغل منصب وزير المالية المصريّ خلال عشرينيات القرن العشرين، لكن في الوقت نفسه كان لعدد آخر من اليهود حضور بارز في باقي وزارات الحكومة [80] وفي مجالات حيوية أخرى، فمثلاً كان بنك الموصيري أوّل بنك مصريّ، فيما كان اليهود روّاد صناعة القطن في مصر، حيث يُنسب إلى عائلة قطويّ نسج أطول نسيج قطنيّ في العالم، كما يُنسب لليهود مصر أيضاً إنشاؤهم لأول مصنع ملح وصودا في مصر، إضافة إلى شركة بترول مصر والبنك الوطني المصريّ والبنك العقاريّ المصري ومصنع تقطير وتنقية السكر وغيرها.

كذلك لعب رجال الأعمال اليهود من عائلة سواريز وقطويّ وموصيريدوراً هاماً في مجال العمارة والتطوّر الحَضَري في المدن، حيث كانت هنالك منافسة شديدة بينهم وبين البارون البلجيكي دمبان في هذا المجال. ويعود الفضل لعائلة سواريز اليهودية في بناء وتأسيس أول شبكة نقل في مصر من خلال بناء وتشييد شبكة القطار الوطنية في القاهرة، كما قامت عائلة موصيري بإدارة سكة قطارات القاهرة - حِلوان، الأمر الذي أدى إلى انتقال قرابة خمسين عائلة يهودية للعيش والسكن في محافظة حلوان لإدارة السكة الحديدة والقطار، كما كانت القطارات جميعها تتوقف عن العمل في يوم السبت اليهودي. [81]

أما في العراق فقد قام الأمير فيصل - والذي تم تعيينه ملكاً على العراق من قبل الإنجليز- بتعيين ساسون حسقيل وزيراً للمالية في حكومته، وخلال تلك الفترة كان لليهود دورٌ أساسي ومفصليّ في شتى مناحي الحياة المدنية والقطاعات الحيوية في العراق مثل قطاع النقل والمواصلات وخدمات البريد وعالم المال والتجارة وغيرها.

وفي الوقت الذي كانت فيه المناطق الريفية المصرية بعيدة إلى حد ما عن ركب الحداثة والتطور، كان للطبقة الوسطى من اليهود الذين سكنوا تلك المناطق حضور بارزٌ في حياة المدينة في مجالي الثقافة والرياضة، فكان اليهوديّ المصري يعقوب صنوع مؤسس أوّل مسرح مصريّ في القاهرة سنة 1870م والذي كان يُلقّب حينها بِـ "موليير" مصر، كما تم تأليف أوّل عرض أوبرا مصري على يد اليهوديّ داوود حُسني سنة 1919م، أضِف إلى ذلك توغو مِزراحي الذي أنتَج عشرات الأفلام المصرية التي أصبحت تعرف في أيامنا هذه بأفلام السينما الكلاسيكية في مصر.، كما تألق عدد من النجمات اليهوديات في عالم السينما والأفلام، مثل النجمة راقية إبراهيم (راحيل ليڤي) والنجمة نجوى سالم (نينيت شالوم) والنجمة المصرية اللامعة كاميليا (ليليان ليڤي كوهين)، كما كانت المدرَّجات تزدحم بالجماهير والمعجبين عندما كانت تظهرُ المغنية المصرية اليهودية ليلى مراد على خشبة المسرح.

أما بالنسبة لعالم الموسيقى والفن في العراق فقد لعب اليهود أدواراً مختلفة للنهوض بهذا المجال، ففي الوقت الذي قام فيه الوالي العثمانيّ (الذي كان متشدداً في حكمه آنذاك) بمنع المسلمين من العزف على الآلات الموسيقية خلال القرن التاسع عشر، حلّ الموسيقيّون والفنانون اليهود مكانهم في هذا المجال. وعلى الرغم من وجود موسيقيّين ومغنيّين من مُختلف الخلفيات الدينية إلا أن الموسيقيّين اليهود كان لهُم معاييرهم الخاصة التي يتم من خلالها الحفاظ على جودة الأداء والإنتاج الموسيقيّ، كما قام يهود العراق بتأسيس مدرسة موسيقية خاصة للمكفوفين على أمل أن تخلق لهم الموسيقى مهنة يعتاشون منها بدلاً من يمدوا أيديهم للتسوّل في الطرقات. [82]

كما كان للمغنية البغدادية سليمة مراد سحر خاص لدى جمهور كبير من اليهود والمسلمين نظراً لما تمتعت به من صوت ساحر وجذّاب، وخلال فترة ثلاثينات القرن العشرين كان هنالك ثلاثة موسيقيّين مسلمين فقط في العراق، بينما كان هناك مئتان وخمسون موسيقيّاً وعازفاً عراقياً يهودياً، أضِف إلى ذلك الوفد الموسيقيّ العراقيّ الذي حضر مهرجان الموسيقى العربيّة الأول في القاهرة سنة 1932م والذي كان جميع أفراده من يهود العراق.

صورة يظهر فيها الصحفي والمؤلف ورائد فن المسرح المصري يعقوب صنوع

نجمة السينما المصري كاميليا (ليليان ليڤي كوهين). انتشرت شائعات خلال فترة حياتها بأنها كانت على علاقة مع الملك المصري الملك فاروق. توفيت كاميليا خلال حادثة تحطم طائرة سنة 1950م

صورة تظهر دعاية فيلم حبيب الروح والذي كان من بطولة النجمة المصرية اليهودية ليلى مراد والنجم المصري أنور وجدي (تم تصميم المنشور على يد مظهر جسور واحمد فؤاد). قامت ليلى مراد باعتناق الدين الإسلامي خلال مرحلة معينة من حياتها، إلا أنها أنهت مشوارها الفنيّ بعد أن وجهت إليها اتهامات بخيانة الدولة المصرية.

صورة تظهر عدداً من الفتيات اليهوديات من مدرسة لورا خضوري في بغداد بينما يرتدين زي الدقاقات (العازفات والموسيقيات العراقيات) سنة 1931م. الصورة مأخوذة من مكتبة صور مدارس الاتحاد العالميّ الإسرائيليّ – باريس.

صورة تظهر فرقة بيت بغداد الموسيقية سنة 1938م والتي تتضمن موسيقياً مسلماً واحداً وخمسة موسيقيّين يهود بالإضافة إلى المغني.

وسنة 1936م تم تكليف الإخوة العراقيين المعروفين بالإخوة "الكويتي" بتأسيس فرقة موسيقية للعمل في محطة الراديو العراقية الرسمية (التي كانت جديدة حينها)، فكان جميع أفراد الفرقة موسيقيين يهود باستثناء عازف الطبل. وسنة 1945م أثناء عيد الكيبور - عيد الغفران اليهودي - فتح رئيس الوزراء العراقيّ آنذاك نوري السعيد جهاز الراديو ليستمع إلى الموسيقى، لكنه لم يجد أي بث موسيقيّ نظراً لأن الموسيقيين اليهود لم يكونوا يعملون خلال هذه المناسبة، وعندما سأل عن السبب قيل له أن الموسيقيين اليهود في عطلة عيد الغفران، عندها أمر بتأسيس فرقة أوركسترا موسيقية من غير اليهود. [83]

وكذلك كان الحال بالنسبة ليهود شمال افريقيا، فكان الفنانون والموسيقيون اليهود من أمثال رينيتلورانيزوبلوندبلوند وزهرة الفاسيّة وسليم حلالي وشيخ ريموند وريموندا البدوية من نجوم الفنّ والثقافة الشعبية آنذاك، كما قام الفنانون والموسيقيون المسلمون واليهود بإضافة الموسيقى الشعبية الأندلسية في الجزائر، أما في تونس فقد كانت الممثلة والمغنية اليهودية حبيبة مسيكة نجمة مميزة ومعروفة في جميع أنحاء البلاد، وكان ألبِرت سماما - والذي كان يلقب بشِكلي نسبة إلى الجزيرة التونسية التي كان يقيم عليها حفلاته - واحداً من أبرز نجوم السينما التونسية، كما كان شِكلي أوّل مُنتج أفلام تونسي، حيث قام بإنتاج أحد عشرَ فيلماً تونسياً.

لقد كان من البديهيّ جداً أن يكون اليهود على اطلاع دائم بآخر وأحدث وسائل التكنولوجيا والاختراعات الحديثة في أوروبا، باعتبارهم روّاد التجارة والأعمال في منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وعلى سبيل المثال كان الممثل التونسي شِكلي أوّل من عرَّفَ المُجتمع التونسي على الدراجة الهوائية والتلغراف اللاسلكي وجهاز أشعة إكس الذي يُستخدم في المشافي، حيث لم يكُن شِكلي رائداً من رواد السينما والأفلام التونسية فقط، بل يُنسب إليه إسهامات كثيرة نظراً لما كان يتمتع به من فضول شديد لمعرفة ومتابعة كل ما هو جديد وحديث في عالم التكنولوجيا. كما كان شِكلي أيضاً رائداً من رواد عالم التصوير الفوتوغرافي في تونس، مما دفعه للدخول في عالم السينما، تلك التقنية التي اخترعها الإخوة لوميير سنة 1895م. لاحقاً كان شِكلي يقدم عروضا سينمائيّة برفقة مصوّر يدعى سولِر، ومن ثم أصبَح يقدّم العروض السينمائية بمفرده في جميع أرجاء تونس. [84]

صورة يظهر فيها المغني الجزائري اليهودي بلوندبلوند (كان مصاباً بمرض الألبينو) والذي كان اسمه الأصلي ألبِرت رومي، حيث كان واحداً من روّاد الفن الشعبي الجزائريّ، كما عرف عنه تأثره بموسيقى التانغو والفلامنغو.

صورة يظهر فيها رائد السينما التونسية ألبِرت سماما الملقب بِـ "شِكلي".

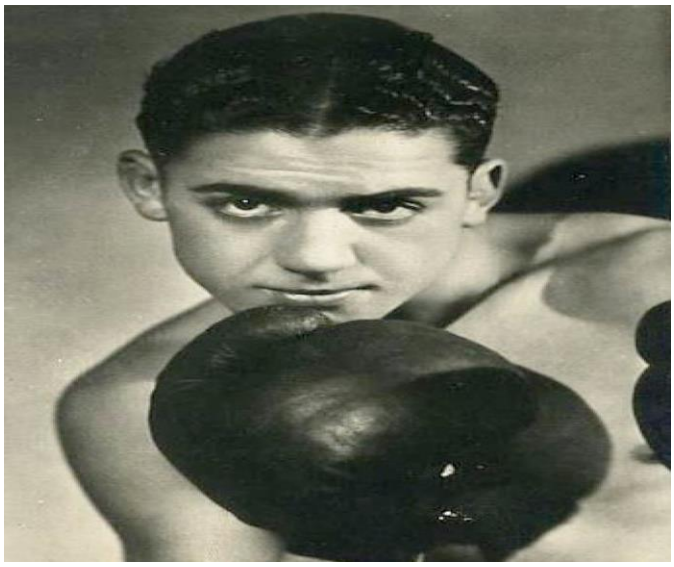

صورة يظهرُ فيها لاعب الملاكمة التونسي ڤكتور يونغ بيريز سنة 1945م الذي قَتل في معسكر أوشفتزالنازيّ

بطل السباحة اليهودي الجزائري ألفرد نكاش الذي كُتِبَت له النجاة من معسكر اوشڤِتز

كذلك لم يكتفِ شِكلي بتصوير الأفلام من على الأرض، بل تجاوز ذلك ليقوم بتصوير المنطقة الممتدة بين حمّام ريفوغرومباليا في تونس عبر المنطاد سنة 1908م، كما كان واحداً من أوائل المصوّرين الذين قاموا بالتصوير تحت الماء، حيث قام بتصوير فيلمه "زلزال مسينا" الذي يتحدث عن إحدى رحلات اصطياد سمك التونا التي قام بها أمير موناكو في أحد الممرات المائية في مدينة فردِن خلال الحرب العالمية الأولى.

وقد كان عالم الملاكمة مجالاً ارتاده اليهود بكثرة انطلاقاً من حاجتهم الماسّة للدفاع عن أنفسهم، خاصة الأطفال منهم، نظراً لما كانوا يتعرضون له من ضرب واعتداءات في المدارس والشوارع، وفي هذا المجال بزغ نجم الملاكمة اليهودي الفانوس حليمي باعتباره بطلاً عالمياً في الملاكمة من فئة وزن الريشة، كما الملاكم اليهوديّ التونسي ڤكتور يونغ بيريز على لقب بطل تونس للملاكمة من فئة وزن الذبابةخلال ثلاثينيات القرن العشرين. كما كان جاك شيشي وفليكس برامي وبوب ديڤيد وكِد ألبِرت ويونغ روجِر - الذين كانوا يهوداً تونسيّين الأصل - أبطال فرنسا في بطولة الملاكمة، فيما كان الملاكم اليهودي الجزائري الأصل روبرت كوهين بطل أوروبا في الملاكمة من فئة وزن الريشة.
أما زيزي طيب فقد كان بطلاً في السباحة وكرة الماء بالإضافة إلى السبّاح اليهودي تونسي الأصل چِلبرت نعيم والسبّاح ألين حجّاج، كما كان السبّاح اليهودي جزائري الأصل ألفرِد نكاش بطلاً عالمياً في السباحة، وقد نجا ألفرِد من الموت المحقق الذي كان ينتظره في معسكرات الموت النازية في أوشفتز.

أما في مصر كان جودو عشير بطلاً من أبطال عالم كرة السلة المصرية، كما كانت ميس مشيه بطلة من أبطال مصر في بطولة تنس الطاولة، فيما كان اسحق عَميئِل من أبطال الملاكمة المصرية. وكان بطل تنس الطاولة اليهودي تونسي الأصل پييردارمون واحداً من أهم أبطال هذه الرياضة لدرجة تم تصنيفه على أنه رقم ثمانية على مستوى العالم في رياضة التنس.

الاستعمار الأوروبي ومعاداته للسامية

لقد أثبتت الفترة التي سيطرت عليها القوى الاستعمارية الأوروبية على منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بأن فترة الرخاء التي عاش فيها اليهود لن تدوم طويلاً، كما كان واقع المسلمين واليهود حينها يشهدُ كيف كانت فترة جيل على الأقل تفصل بين اليهود والمسلمين فيما يتعلق بالتعليم والازدهار الاجتماعي وتقدمه [85]، لكن في الوقت نفسه كان يشهد مجال الأعمال والوظائف تنافساً شديداً بين الجانبين. كما كانت النافذة التي فتحها اليهود على عالم الغرب والحداثة ذات منفعة كبيرة للجميع، في الوقت نفسه كانت نافذة الحداثة تلك بمثابة تهديد للمجتمعات التقليدية وأفكارها المتحجّرة الرافضة للتجديد والتطور والتقدّم.

وفي بلد مثل الجزائر وجدَ اليهود أنفسهم عالقين بين مطرقة الكراهية العربيّة التي تزداد شيئاً فشيئاً، وبين سندان الكراهية الأوروبية الفرنسية لليهود من جهة أخرى. وعلى سبيل المثال لا الحصر كان هنالك كتيّب فرنسي مكتوب فيه: "إن محاولة تحويل اليهود ليصبحوا مواطنين فرنسيّين تشبه محاولة تحويل الفحم الأسود إلى طَحينٍ أبيض" [86]. كما بلغت مظاهر معاداة السامية الفرنسية ذروتها بعدما أصدر الفرنسيّون مرسوم كريميوخلال فترة الحاكم الفرنسي فيشي، وبموجبه لم يتم حرمان اليهود من الجنسية الفرنسية فحسب، بل تم حرمانهم من الوظائف الحكومية وتم فرض قيود كبيرة على عملهم ووظائفهم في القطاعات الأخرى.

صورة لعدد من المتنزهين على شاطئ ستانلي في مدينة الإسكندرية خلال ثلاثينيات القرن العشرين

صورة تظهر مجموعة من طالبات مدرسة جاكوسبيچارد في مراكش سنة 1950م. الصورة مأخوذة من مكتبة صور الاتحاد العالميّ الإسرائيلي.

صورة لعرس في كنيس النبي دانيال في مدينة الإسكندرية للرسام كاميل فوكس.

وبعد أن تم إلغاء مرسوم كريميوفقد تم إقراره مجدداً سنة 1943م، وبالنسبة للغالبية العظمى من اليهود فإن الصدمة التي رافقت مصادرة حقوقهم المدنية كيهود نتيجة هذا المرسوم كان سببها خوفهم العميق من أن يتم الجمع ما بينهم وبين العرب من منظور فرنسيّ، فاليهود كانوا مواطنين فرنسيّين يدينون بالديانة اليهودية، أو حسب ما عرفوا حينها بالفرنسيّين الإسرائيليّين. في الوقت نفسه اتخذت أعمال الحركة الوطنية الجزائرية منحىً عنيفاً للتخلّص من الاستعمار خلال خمسينيات القرن العشرين، وقد تزامن هذا مع هجمات إرهابية عديدة تعرض لها الجزائريون الفرنسيون الذين عُرفوا بذوي الأقدام السوداء، الأمر الذي أدى إلى أن يتخذ يهود الجزائر موقفاً محايداً من مجريات تلك الأحداث على المستوى الرسميّ.

ولو تتبّعنا الأحداث التاريخية لتلك الفترة لرَأينا أن الحركة الوطنية الجزائرية لم تكن تفرّق فعلاً بين الفرنسيّين من ذوي الأقدام السوداء في الجزائر سواء كانوا عرباً أم يهوداً، الأمر الذي كان واضحاً وضوح الشمس من خلال اغتيال الحاخامات اليهود وتفجير كُنُسهِم والاعتداء عليها. وقد وقف عدد من اليهود في صفّ جبهة التحرير الوطنية الجزائرية وانضموا إلى مقاتليها، بالتالي اكتسب عدد قليل من يهود الجزائر ممن وقفوا ضد الاستعمار الفرنسي لقب "ذوي الأقدام الحمراء". [87]

لكن لم يكن بإمكان اليهود البقاء في موقف الحياد بأي شكل من الأشكال بعد وقوع حدثين هامين جداً، الأمر الذي دفعهُم للوقوف في صف الفرنسيّين حينها، حيث كان الحدث الأول هو إحراق أكبر كنيس يهوديّ في مدينة الجزائر سنة 1960م، هذا الحريق الذي تخلله قيام العرب بتمزيق نصوص التوراة وحرق الكتب الدينية واللوحات والرسومات القديمة التي كانت موجودة على جدران الكنيس. أما الحدث الثاني فكان اغتيال المُغني والموسيقي اليهودي الجزائري المعروف شيخ ريمون ليريس في شهر حزيران من سنة 1961م أثناء خروجه من أحد المحلات التجارية، خاصة وأن شخصية مثل شخصيته كانت تعتبر بمثابة رمز للثقافة العربية اليهودية المشتركة، خاصة وأنه والد زوجة المغني إنريكوماسياس.

ومثلما حلّ باليهود الفرنسيّين الذين عرفوا بذوي الأقدام السوداء، لم يكُن أمام يهود الجزائر سوى خيارين أحلاهُما مُرّ: إما الهروب من الجزائر أو الموت. بالتالي اختار يهود الجزائر المغادرة وفعلوا كل ما باستطاعتهم للنجاة بحياتهم والوصول إلى المرافئ البحرية والمطارات من أجل الرحيل. وخلال فترة ثلاثة أشهر من إعلان استقلال الجزائر في الثالث من تموز سنة 1962م، رحل جميع يهود الجزائر إلى فرنسا ولم يتبقّ منهم سوى أربعة آلاف يهوديّ فقط.

من زاوية أخرى يرى البعضُ بأن المسلمين واليهود كلاهما ضحايا لقوى وعوامل لم تكن تحت سيطرتهم ولم يكن لهم علاقة بها، وبان الانقسام الحاصل بينهما كان نتيجة لمثل هذه العوامل والقوى عبر مرّ التاريخ [88]، كما يرى البعضُ أن نزوح اليهود من دول العالم العربيّ يُعزى بشكل أساسي إلى تبعات فترة ما بعد استقلال الدول العربية والإسلامية من الاستعمار الأوروبي والذي تزامن مع ظهور الحركة الصهيونية، خاصة وأن كلا الحدثين يعودان إلى فترة القرن التاسع عشر في أوروبا. إن وجهة النظر الغربية الليبراليّة المُعاصرة تنظرُ لليهود على أنهم "مجموعة تنتمي للعرق الأبيض إلى حد ما، وقد تعاونوا مع قوى الاستعمار والإمبريالية الغربية، بالتالي يستحقّون الطرد من تلك البلدان العربية".

وعلى الرغم من كون اليهود مواطنين أصليّين في بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلا أن طريقة خروجهم التي اتسمت بالوحشية والعذاب لا يمكن مقارنتها بطريقة خروج فئات أخرى من "الغرباء" ممن كانوا يعيشون في تلك الدول، مثل ذوي الأقدام السوداء والإيطاليّين واليونانيّين والمالطيّين، حيثُ طُلِب من هؤلاء "الأجانب" إخلاء ومغادرة الدول العربية التي نالت استقلالها.

هنالك جانب آخر لخروج اليهود من البلدان العربية، وهو العقاب الجماعي الذي تعرّضوا له والذي تم تشريعه دستورياً، لا لذنب اقترفوه هُم، بل عوقبوا نتيجة أفعال دولة أخرى، وهذا تماماً ما تعرّض له اليهود خلال حرب السويس التي شنتها فرنسا وبريطانيا وإسرائيل على مصر سنة 1956م، حيث كان النظام المصري حينها ينتقم شرّ انتقام من السكان المصريين اليهود، لا الفرنسيين والبريطانيين وحدهم، بالتالي لم يكن للنظام المصري يكترث كثيراً أثناء تعذيبه لليهود بحقيقة أنهم مواطنون مصريون وليسوا مواطنين إسرائيليين. يقول جورج نِلدريت جيز- والذي كان رجل أمن ذو رتبة عالية في مدينة الإسكندرية حينها - في هذا السياق: "لقد كانت مظاهر الثأر والانتقام واضحة على الرعايا الفرنسيّين والإنجليز، كما كانت واضحة أيضاً في أساليب التعذيب الوحشيّ الذي تعرّض له اليهود في مصر حينها.

وحتى لو نفى المتحدثون الرسميون المصريون هذا الكلام فإن اليهود تعرّضوا للقمع والتعذيب على اختلاف جنسياتهم، بما فيهم اليهود الذين كانوا ينتمون للحركة الوطنية المصرية، بل وحتى أولئك الذين لم يكن لهُم أي توجه سياسيّ وكانوا يقفون موقف الحياد مما حدث". [89]

وعلى الرغم من أن جميع الأدلة تشير بما لا يدع مجالاً للشك بأن اليهود عاشوا حياة أفضل إلى حدّ ما في ظلّ حكم المسلمين من حياتهم تحت ظل الحكم الأوروبي المسيحي، إلا أن الدافع وراء عدم وقوف القوى الاستعمارية الأوروبية بجانب اليهود ليس معاداتهم للسامية أو محاباتهم للغالبية السكانية المسلمة، فالأوروبيون كانوا ينظرون لليهود على أنهم مصدر نفع وفائدة، لكنهم ليسوا بذات الأهمية، ويمكن الاستغناء عنهم في أي وقت.

من جهة أخرى، يقوم العديد من المفكرين والمنظّرين المعاصرين بتجاهل كل هذه الأحداث، حيث يعتبرون القضية الفلسطينية رمزاً لأناس يقفون أمام القوى الاستعمارية، وبأن دولة إسرائيل هي "آخر قوى الاستعمار التي يمثلها الرجل الأبيض"، كما ينظرون للصهيونية على أنها تجسيد فعليّ "للاستعمار الأوروبي الغربي" في المنطقة باعتبارها كياناً مُندساً وعميلاً للغرب في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

في الوقت نفسه يرى نفسُ المفكرين بأن الحركة الصهيونية لم تُكن تكترثُ كثيراً باستقطاب يهود الدول العربية والإسلامية إلى دولة إسرائيل في بداية الأمر، مع العلم بأنهم كانوا يشكلون ما نسبته عشرة بالمئة من إجمالي عدد اليهود في العالم تبعاً لإحصائيات أربعينيات القرن العشرين، بل تركّز اهتمام الحركة الصهيونية حينها على يهود أوروبا وإنقاذ يهود ألمانيا من قبضة النازيّين. لكن وبعد قيام دولة إسرائيل وبعد أن ساءت أوضاع اليهود في الدول العربية وازداد اضطهادهم وظلمهم على أيدي العرب والمسلمين بدأت القيادة الإسرائيلية بالاتجاه صوب إنقاذ يهود الدول العربية في منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا وجلبهم إلى إسرائيل (كانت توصف هجرتهم بأنها العَليا الإجبارية التي كان دافعها الابتلاء).

السكان الأصليّين وخيانتهم لليهود

إنه لأمر شائع جداً في الإعلام وفي المجال الأكاديمي بأن يتم الربط بين اليهود وبين قوى الاستعمار، وخير مثال يمكن ضربه على هذه الفكرة هو ما حدث لليهود في الجزائر، حيث كان يُتّهمُ اليهود الجزائريّين ممن كانوا يحملون الجنسية الفرنسية بالخيانة، وبأنهم كانوا يعملون لصالح للاستعمار الفرنسي ضد الثوار العرب الجزائريّين خلال معاركهم لنيل استقلالهم من فرنسا، بالتالي فإن هؤلاء يستحقون العقاب الذي تلقوه من خلال التفجيرات العديدة التي تعرَض لها وراح ضحيتها ذوو الأقدام السوداء في الجزائر سنة 1962م. ويرى العديد من المفكرين بأن التجربة الجزائرية تعد نموذجاً يستلهمه الفلسطينيّون من أجل نيل استقلالهم، فهم يرون أن مصير "الإسرائيليين المُستَعْمِرين" سيكون مشابها لمصير ذوي الأقدام السوداء يوماً ما.

إن الوجود اليهودي في الجزائر قد سبقَ وجود الغزاة العرب لتلك المنطقة، لكن هذه حقيقة يتجاهلها الجميع دائماً. يقول عدد من الأكاديميّين اليهود الذين ولدوا في الجزائر: "إذا كانت الأسبقية هي من تعطي الأحقية لما يدعيه العرب في تلك البقعة من الأرض والتي تدعى الجزائر (مع العلم أن الجزائر ليس اسمها الأصلي)، فإن الوجود اليهودي فيها قد سبقَ وجود جميع متبعي الديانات السماوية، وهذا وحده كفيل بمنح اليهود الأحقية، طبعاً دون النظر إلى معايير أخرى تمنُحُهم نفس الحق". [90]

أما في دول المَغرب فإن جذور اليهود ضاربة في عمق هذا البلدان وتمتدّ إلى أكثر من ألفي عام، بالتالي فإن اليهود هُم آخر من يُمكن وصفهُم "بالمستعمرين" في هذه الأرض، حيث وصلَ التُّجار اليهود إلى هذه الأرض برفقة الفينيقيّين قبل أكثر من ألف سنة من وصول الإسلام إليها، كما يعود أول تواجد يهودي في تلك المنطقة إلى فترة نزوح عدد من اليهود واستقرارهم بين قبائل البربر بعد الخراب الثاني للهيكل، ويُعتَقدُ أن بعض قبائل البربر قد اعتنقت الديانة اليهودية منذ ذلك الحين، وهنالك مثال للشخصية اليهودية البربرية المعروفة باسم الملكة كاهينةوالتي حاربت الغزاة العرب والمسلمين في القرن السابع للميلاد دفاعاً عن بلدها بكل ما أوتيَت من قوة. وقد انضم اليهود التوشاڤيم- أي السكّان اليهود الأصليين الذين لم يقبلوا باعتناق الإسلام - في القرن الخامس عشر للميلاد إلى يهود المغوراشيم - أي اليهود الذين نجوا من محاكم التفتيش الإسبانية - وعاشوا جميعاً في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط.

يقول المؤرخ ومؤسس أحد أهم المدارس الفكرية بنيامين ستورا في كتابه "Les trois exile: juifsd'Algr'rie" (المنافي الثلاثة: يهود الجزائر) بأن اليهود كانوا سكاناً أصليّين لتلك البلاد دون أدنى شك، لكنهم أصبحوا خونة بعد أن انهارت علاقتهم بالسكان المسلمينعلى يد قوى الاستعمار الغربيّ [91]. ويتابع بنيامين ستورا قائلاً بأن اليهود في الجزائر قد تعرّضوا للنفي والشتات ثلاث مرات، فالنفي الأول كان نفياً أخلاقياً عبر إقصائهم عن إخوتهم العرب والمسلمين، حيث أن مرسوم كريميو سنة 1870م قد مثّل علامة فارقة أدت إلى توسيع الهوّة بين اليهود والمسلمين من خلال منح اليهود جنسية فرنسية دون منحها للمسلمين. لقد أقحمَ اليهود أنفسهم في دوامة الصراع من خلال سعيهم للحصول على هوية وثقافة لا تمت بصلة لهويتهم وثقافتهم العربية. أما النفي الثاني لليهود فكان قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية عندما تمت مصادرة الجنسية الفرنسية منهم في ظل حكم فيشي. وبالنسبة للنفي الثالث فكان عندما تم نفيهُم من الجزائر سنة 1962م ، والذي أدى في نهاية المطاف إلى رحيلهم إلى "وطنهم الأم" فرنسا.

وهنا يؤيّد مُخرج الأفلام الفرنسي (الموريتاني الأصل) كريم مِسك على وجهة نظر بنيامين ستورا [92]، مُستحضراً المصطلح الذي استخدمه حنّا أرندز "القبليّة القوميّة"، موضحاً أن هنالك قوّتان خارجيّتان وهما الحركة الصهيونية والقومية العربية قد أدّتا إلى تدمير العلاقات الوديّة بين المسلمين واليهود، فجعلتهما "ألدّ الأعداء" لبعضهما البعض، حيث حملت هذه العبارة عنوان سلسلة الأفلام الوثائقية التي قام كريم مِسك بإنتاجها وإخراجها. وعندما سَئِلَ كريم مِسك عن معاداة السامية، أجاب بأنها ظاهرة مقيتة جلبها معه المستعمر الغربيّ إلى شمال أفريقيا.

ومما لا شك فيه أيضاً بأن المستعمر الفرنسيّ قد ساهم في تأجيج الصراع بين العرب واليهود، بل وساهم في تشجيع أعمال العنف التي قام بها العرب ضد اليهود [93]. وقد كانت الجزائر أحد أبرز البلدان التي وقف سكانها أمام القضية المعروفة بقضية دريفوس، الأمر الذي جعل الجزائر مسرحاً لأكثر المظاهرات دموية والتي كان يقف الأوروبيون خلفها بلا شك. [94]

لكن المؤرخ بنيامين ستارا وغيره من المؤرخين لا يوجد لديهم أي نزعة لاتهام اليهود بخيانة "إخوتهم" العرب، ومن يريد أن يتحدّث بتلك النزعة فإن عليه أوّلاً ألا يستثني أفعال العرب والمسلمين ومعاملتهم السيئة والظالمة لليهود وتصنيفهم على انهم "أهل الذمة" في الفترة الزمنية التي سبقت الاستعمار الغربي لمنطقة شمال أفريقيا، تلك المعاملة السيئة التي أدت إلى ازدياد الفقر والبؤس والمعاناة بين اليهود، وذلك باعتبارهم أقلية دينية مسحوقة ومعرَّضة دوماً للقتل والتعذيب على أيدي الغالبية السكانية العربية والمسلمة. إن واحداً من أقسى المشاعر التي لا يمكن ليهود الدول العربية نسيانها هو الخوف [95]، فقد كانوا يعيشون في حالة من الخوف الدائم وانعدام الأمن والأمان وعدم الثقة بمحيطهم العربيّ والإسلامي.

لقد أصبحت الجزائر بعد نيلها استقلالها من الاستعمار الفرنسي مكاناً تشرّع فيه القوانين التمييزية والعنصرية، بل وإن هذه التشريعات العنصرية موجودة في الدستور الجزائري نفسه، والتي أدت إلى سحب الجنسية الجزائرية ممن لا تنحدر أصولهم من عائلات مسلمة، لكن وعلى الرغم من تلك القوانين العنصرية والمجحفة بحق اليهود إلا أنه ظل عدد محدود منهم في الجزائر، وفي هذا السياق قام أحد متابعي مدوّنتي "نقطة اللاعودة" [96]يدعى بنايا بمخاطبتي عبر رسالة يقول فيها: "لقد اختارت عائلتي الجزائر عندما قامت جبهة التحرير الجزائرية

نهاية خمسينيات القرن العشرين بتخيير الجزائريين اليهود ما بين الجنسية الجزائرية والجنسية الفرنسية، ولم يكن حينها سوى ألف يهودي جزائري في منطقة أوران. كان والدي رجلاً محبوباً من الجميع في المدينة، وكنا نعتقدُ أنه لا شيء سيحدث لنا بعد استقلال الجزائر وتفضيلنا الجزائر على فرنسا، لكن ما حدث سنة 1965م هو أن الإسلاميّين قاموا بنشر إشاعات تفيد بان السكان اليهود في الجزائر عم عملاء للموساد الإسرائيلي، عندها فقط أدركنا أنه لم يبقَ لنا مكانٌ في الجزائر، وبأنه يتوجب علينا الرحيل من ذلك البلد. لكننا رحلنا بسرعة لم نكن نتوقعها، كنت في الخامسة عشر من عمري آنذاك، وكل ما أردته هو أن أرى أقاربي وأبناء عائلتي وأصدقائي في فرنسا".

ويتابع بنايا قائِلاً: "لقد كنتُ عُرضة لاستهزاء زملائي في المدرسة لأني يهودي، ودوماً ما كانوا يسألونني عن أسباب معاناة الفلسطينيّين وكأن لنا يدٌ فيها. لقد اختفت معالم كنيسنا اليهودي، تماماً مثلما اختفت معالم المقبرة اليهودية، كل شيء اختفى من الوجود. وسنة 1967م عندما اندلعت حرب الأيام الستة بين العرب وإسرائيل نصحَنا أحد أصدقاء العائلة بالرحيل قبل فوات الأوان، وهذا ما حدث فعلاً، رحلنا بسرعة من مدينتي التي كنت أحبها كثيراً، مدينة أوران، ومنذ ذلك الحين لم أشاهدها أبداً".

بالتالي وعلى الرغم من أن عائلة بنايا كانت تقف مع الحركة الوطنية الجزائرية في نيل استقلالها من الاستعمار الفرنسي، إلا أن هذا لم يكن سبباً كافياً يشفع للعائلة، فتم طردهم من الجزائر. لكن بعض المؤرخين من أمثال جِلبرت أشقر يحاولون باستماتة أن يُثبتوا بأن العرب كانوا يفرّقون بين معاداة الصهيونية (وهو أمر جيد من وجهة نظره) ومعاداة السامية (وهو أمر سيء)، وحتى معاداة السامية كانت مبرّرة من وجهة نظره لأنه - مثلما يدّعي - من واجب العرب أن يقوموا بطرد الحركة الصهيونية التي "اغتصبت" أرضهم وبلادهم.

لكن وبجميع الأحوال فإن الواقع يعارض ادّعاء چلبرت، فاليهود جميعهم سواسية عندما يتعلق الموضوع بالظلم والاضطهاد والوحشية، لا لسبب سوى انّهم يهود، ولنأخذ هنا مثالاً بسيطاً، وهو ما تعرَض له مِتري شحاتة هارون، والد ماجدة هارون الذي كان رئيس الطائفة اليهودية في القاهرة بين سنتي 1920م حتى 2001م. كان متري هارون يعتبر نفسه قومياً ووطنياً مصرياً حتى النخاع، وكان ناشطاً مناهضاً للصهيونية ومن أبرز المعارضين لقرار تقسيم فلسطين، كما كان أحد مؤسسي حزب التجمع المصري برفقة عدد من السياسيّين المصريّين، لكن هذا كله لم يشفع لمِتري هارون، حيث تم اعتقاله برفقة أربعمئة يهوديّ آخرين من قبل الأمن المصري باعتبارهم "أسرى حرب إسرائيليين" عقب حرب الأيام الستة سنة 1967م، على الرغم من أنهم لم يكونوا إسرائيليين بل كانوا يهوداً مصريين. قضى مِتري هارون فترة طويلة في السجن، وبعد أن قضى مدة حكمه تم إطلاق سراحه بشرط أن يُغادر مصر على متن أحد السفن. رفضَ مِتري بشدة هذا الأمر قائلاً لهم: "أنا مصريّ وأريد أن أبقى في مصر حتى آخر يوم في حياتي". [97]

وخلال مقابلة على التلفزيون المصري خلال فترة توليها رئاسة الطائفة اليهودية في القاهرة، تستذكر ماجدة كيف كانت أختها الصغيرة - التي كانت تبلغ من العمر ست سنوات آنذاك- مريضة جداً خلال ستينيات القرن العشرين، وقال لها الأطباء في مصر أنه لا يوجد لها علاج هنا، وأن علاج مرضها موجود في أوروبا فقط، حينها طُلِب من والدها أن يتنازل عن هويّته المصرية حتى يُسمح له بمغادرة مصر لعلاج ابنته، وقيل له بأنه إذا توجه خارج حدود مصر فإن جواز سفره سيُختم بختم ذهاب بلا عودة، وبأنه لن يتمكن من العودة إلى مصر بعد علاج ابنته، لكن قرار والدها كان مفاجئاً، حيث قرّر عدم السفر خارج مصر وعدم علاج ابنته حتى لا يتنازل عن هويته المصرية، فبقي في مصر بجوار ابنته التي توفّيت نتيجة ذلك المرض بعد مضي عدة أشهر.

وفي حال لا زال القارئ مُقتنعاً بأن مِتري هارون قد تعرّض للظلم نتيجة توجّهاته السياسية لا لكونه يهودياً، فإنني أرغبُ في استحضار مثال آخر من أمثلة أخرى عديدة تُثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن العرب لم يكونوا يفرّقون بين يهودي وآخر عندما يتعلق الموضوع بالظلم والاضطهاد، إنها قصة مصير اليهود الذين تبقوا في اليمن، والذين أصبح مصيرهم بيد جماعة الحوثي الجهادية، إنهم يهود اليمن البؤساء الذين تواجدوا في هذا البلد منذ آلاف السنين، منذ زمن الملك سليمان، بالتالي كيف يُمكن لعاقل أن يتهمهم بالانتماء للحركة الصهيونية أو بأنهم شيوعيون أو اشتراكيون وغيرها من التهم البالية؟ هؤلاء الناس لم يعرّفوا عن أنفسهم سوى بأنهم يهود، يهود يمنيّون فقط. لكن ومع الأسف فإن المصير المحتوم الذي يواجه آخر مئتي يهود يمنيّ على أرض اليمن هو إما اعتناق الإسلام أو الموت، وهذا ما حدث سنة 2015م، أي منذ فترة زمنية ليست بالبعيدة [98]. وسنة 2017م وصفَت جماعة الحوثي "الأربعين يهودياً الذين يسكنون مدينة صنعاء اليمنية" بأنهم أعداء اليمن، كما اعترف الحوثيون بقيامهم بأعمال تطهير عرقيّ بحق هؤلاء اليهود من اجل مسح وإزالة كل ما له علاقة باليهودية من الوجود. [99]

صورة ليهوديّ من اليمن تعود لسنة 1901م (حقوق الصورة محفوظة لهيرمان بورشاردت)

صورة تجمع عدداً من الأطفال اليهود في اليمن سنة 1901م. المُجتمع اليهودي اليمنيّ الذي يعود تاريخه لأكثر من ثلاثة آلاف عام قد اختفى كلياً ولم يبق في اليمن سوى عدد محدود من اليهود (حقوق الصورة محفوظة لهيرمان بورشاردت).

وباستثناء تونس والمغرب، فإن حياة العدد الضئيل من اليهود ممن بقوا في الدول العربية آخذة في الانحدار نحو الأسوأ شيئاً فشيئاً، وأصبح وجودهم في هذه الدول أمراً يُعرّضهم للموت إذا ما ظلّوا متمسكين بهويتهم اليهودية. وعلى سبيل المثال لا الحصر حاول ديڤيدچربي[100]ورفائيل لوزون[101] العودة إلى ليبيا بعد ثورات الربيع العربي، لكنهما فوجئا بأن مصيراً دموياً ينتظرهما هناك، فهربَ ديڤيد من ليبيا بعد أن حاول البعض قتله، فيما فرّ رفائيل بعد أن تم تهديده بالاعتقال.

وبجميع الأحوال فإن الأمثلة زاخرة وعديدة، وجميعها تشير بما لا يدع مجالاً للشك بأن اليهود قد تعرّضوا للظلم والاضطهاد لا لسبب سوى أنهم يهود، بالتالي هل يُمكن توصيف مثل هذه الأعمال أو وضعها تحت أي مُسمّى آخر سوى معاداة السامية؟

قائمة الملاحظات والحواشي

1. Viviane Lesselbaum-Scemama, 'Les relations judéo-arabesenTunisie de 1857 à nos jours: Le PacteFondamentale', *Harissa* blog, 3 June 2016, http://www.harissa.com/news/article/les-relations-jud%C3%A9o-arabes-en-tunisie-de-1857-%C3%A0-nosjours-le-pacte-fondamental-par-viviane-l (http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2015/02/how-jews-beheading-led-to-equal-rights.html). (Last accessed 26 April 2017).

2. Signor Pananti, '*Narrative of a residence in Algiers*' (London: Edward Colburn, 1818) quoted in *Elder of Ziyon*, http://elderofziyon.blogspot.co.uk/2012/09/how-muslimstreated-jews-in-algiers-1818.html#.VqTLm_GU1JM. (Last accessed 26 April 2017).

3. Georges Bensoussan, *Juifsen pays arabes: le grand déracinement 1850–1975* (Paris: Tallandier, 2012), p.35.

4. S.D. Goiten, *A Mediterranean Society, An Abridgement in One Volume*, Revised and Edited by Jacob Lassner (University of California Press, 1999), pp. 182, 187–8 and 231

5. Nathan Weinstock, *Une si longue présence: Comment le monde arabe a perdu sesjuifs 1947–1967* (Paris: Plon, 2008), p.15.

6. David Yeroushalmi, *Light and Shadows, the story of Iranian Jews* (Tel Aviv: University of California and Beit Hatefutsot, 2012), p.24.

7. 'Persian Jews', *Wikipedia*, *https://en.wikipedia.org/wiki/Persian_Jews#cite_note-32*. (Last accessed 26 April 2017).

8. Ed Davies, quoted in W. Ellias, *Jewish Arabic of Baghdad* (JAB), Excerpts, p.8.

9. [Karmel Melamed interview with Frank Nikbakht, 'Q&A, Nikbakht on Iran's regime war on Christmas and Christians', *Jewish Journal of Los Angeles*, 17 January 2016, http://www.jewishjournal.com/iranianamericanjews/item/qa_nikbakht_on_iranian_regimes_war_on_christmas_christians. (Last accessed 26 April 2017)].

9- تنص قوانين الشريعة المعمول بها في جمهورية ايران الإسلامية بأن دم المسلم أغلى من دم اليهودي، وهذا ما يُعمل به في حالات القتل من أجل القصاص في حال وقعت جريمة قتل، بالتالي فإن الحكم على المسلم في حال قيامه بقتل شخص غير مسلم سيكون أخف بكثير من قيام غير المسلم بقتل أي شخص مسلم، بل ويمكن في الحالة الأولى إنهاء الأمر بتعويضات مالية لعائلة الضحية. فيما يخص قوانين الإرث في الشريعة الإسلامية المعمول بها في إيران فإن الكفة ترجح دوماً لصالح مُعتنقي الإسلام في حال كانوا ينتمون بالأصل لعائلة يهودية.

[Karmel Melamed interview with Frank Nikbakht, 'Q&A, Nikbakht on Iran's regime war on Christmas and Christians', *Jewish Journal of Los Angeles*, 17 January 2016, http://www.jewishjournal.com/iranianamericanjews/item/qa_nikbakht_on_iranian_regimes_war_on_christmas_christians. (Last accessed 26 April 2017)].

10. N.A. Stillman, *The Jews of Arab Lands: A History and Source Book*, Vol.1 (Jewish Publication Society of America 1979) p.87.

11. نفس المصدر

12. Andrew G. Bostom, *The Legacy of Islamic Antisemitism* (Prometheus Books, 2008), p.46.

13. Alfred Morabia, ‘Le Gihâd dans l’Islammédiéval’, in *Le ‘combat sacré’ des origines au XIIesiècle*(Paris: Albin Michel, 1993), pp.267–8.

14. Elie Levi Abou Asal**,** *The Awakening of the Jewish World* (Cairo: 1934), http://www.farhi.org/Documents/HaimFarhi_1.htm. (Last accessed 26 April 2017).

15. See Bostom, *The Legacy of Islamic Antisemitism*, p.87.

16. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.262

17. Edward Rothstein, ‘Jerusalem Syndrome at the Met’ *Mosaic* magazine, 6 February 2017, https://mosaicmagazine.com/essay/2017/02/jerusalem-syndrome-at-the-met/. (Last accessed 26 April 2017).

18. Fenton and Littman, *L’Exil au Maghreb* (Paris: PUPS, 2010), p.577.

19. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.142.

20. نفس المصدر

21. Violette Shamash, *Memories of Eden* (London: Forum, 2008), p.166.

22. Weinstock, lecture notes: *Ambiguïtés et ambivalences du statut de dhimmi*.

23. نفس المصدر

24. See Weinstock, *Une si longue présence*, cover photo.

25. ‘Baghdad Sami, champion of the world’, *Point of No Return*, 15 June 2015, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2015/06/baghdad-sami-champion-of-world.html. (Last accessed 26 April 2017).

26. Heskel M. Haddad, *Flight from Babylon* (McGraw-Hill, 1986), p.151.

27. Aomar Boum, ‘Arab demonization of Jews is a historical anomaly – and shows the limits of today’s leaders’, *Tablet*, 21 February 2014, http://www.tabletmag.com/jewish-newsand-politics/163536/jews-post-arab-spring). (Last accessed 26 April 2017).

28. نفس المصدر

29. Revd J.W. Brooks, *History of the Hebrew Nation* (1841).

30 -See Weinstock, *Une si longue présence*, p.132

30- تم إحراق اليهوديّ إبراهيم الألوف وهو حيّ في مدينة فاس المغربية سنة 1880م نتيجة قيام أحد بائعي المشروبات والذي يُدعى أبي قسيس تجرأ على طلب يد امرأة مسلمة.

31. The belief that Jews can bring rain has persisted up to the present day. See JTA and

Gabriel Fiske, ‘Moroccan king asks Jews to pray for rain’, *Times of Israel*, 14 January 2014, http://www.timesofisrael.com/morocco-king-asks-jews-to-pray-for-rain/.(Last accessed 26 April 2017).

إن الاعتقاد السائد بأن الله يستجيب لدعوات اليهود عندما يستسقون المطر لا زال موجوداً حتى يومنا هذا.

32. See Boum, ‘Arab demonization of Jews is a historical anomaly – and shows the limits of today’s leaders’. *The Tablet*, 21 February 2014 http://www.tabletmag.com/jewish-newsand-politics/163536/jews-post-arab-spring (Last accessed 26 April 2017).

33. نفس المصدر

34. Bernard Lewis, *Semites and anti-Semites (Princeton*: 1999) p.195.

35. Nick Collins, ‘Shark Sent to Egypt by Mossad’, *The Telegraph*, 7 December 2010.

36. Mehdi Hasan, ‘Why is the Muslim world in thrall to conspiracy theories?’ *New Statesman*, 5 September 2014.

37. Bernard Lewis, *Semites and Anti-Semites* (Princeton: 1999) p.195.

38. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.34.

39- سنة 1827م قام الداي حسين حاكم الجزائر بمطالبة التاجرين اليهوديين الجزائريين بُسناخ وبَكري بدفع القرض الذي أخذاه، لكن كان ردّهما بأنهما لن يتمكنا من دقع القرض حتى يقوما بتحصيل ديونهما من الفرنسيين. وخلال لقاء بين الداء حسين وبين القنصل الفرنسي بيير ديفال، رفض القنصل مناقشة تلك القضية مدّعياً بأن ملك فرنسا لا يمكنه أن يتنازل ويردّ على الداي فيما يتعرض بهذه المسألة، الأمر الذي دفع الداي حسين إلى الاعتداء على القنصل الفرنسي وضربه بما كان يحمله في يده لهشّ الذباب.

40. See Stillman, *Jews of Arab Lands*, Vol. I, p.100.

41. David Bensoussan, ‘L’ exode oublié des juifs des pays arabo-musulmans’, *Harissa*, 16 June2015, http://www.harissa.com/news/article/l%E2%80%99exode-oubli%C3%A9-desjuifs-des-pays-arabo-musulmans-par-dr-david-bensoussan. (Last accessed 26 April 2017).

42. Robert Assaraf, *Une certainehistoire des juifs du Maroc* (Jean-Claude Gawsewitch Editeur, 2005) p.354.

43. Michel Abitbol, *Le passé d’unediscorde*(Paris: Perrin, 2003), p.268.
44. I. Levin, *Locked Doors* (Praeger, 2001), p.5.

45. Lucien Gubbay, ‘How the Alliance remade the Jews of the East’, lecture notes for *Point ofNo Return*, 9 June 2010, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2010/06/how-alliance-remade-jews-of-east.html. (Last accessed 26 April 2017).

46. See Weinstock, *Une si Longue Présence*, p. 96, quoting André Nahum, *L’exil des Juifs de Tunisie*, pp.244–5.

47. *Les réfugiéséchangés*by Jean-Pierre Allali reviewed in *Point of No Return*, 15 October 2008, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2008/10/how-bourguibas-tunisia-pushedout-its.html. (Last accessed 26 April 2017).

48. Jean-Pierre Allali, *Les refugiéséchangés*(JIPEA, 2007), p.107.

49. 'How Bourguiba's Tunisia pushed out its Jews', *Point of No Return*, 15 October 2008, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2008/10/how-bourguibas-tunisia-pushed-outits.html. (Last accessed 26 April 2017).

50. Interview by Bea Lewkowicz, *Sephardi Voices UK*, 2015.

51. See Weinstock, *Une si longue présence*, p.180.

52. See Assaraf, *Une certainehistoire*, p.28.

53. See Abitbol, *Le passé d'unediscorde*, p.206.

54. (*Juifsd'Algérie*,Muséed'Art et d'Histoire du Judaïsme, 2012, p.93). See also 'Confusion over AlgerianJews' French nationality', *Point of No Return*, 7 March 2007, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2007/03/confusion-over-algerian-jews-french.html. (Last accessed26 April 2017).

54- قام مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1865م بتقديم عرض لجميع السكان الأصليين من المسلمين واليهود يتلقون بموجبه الجنسية الفرنسية في مقابل تخليهم عن جنسيتهم الجزائرية.

55. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.312.

56- تلقّى اليهودي الجزائري الذي كان أحد قادة المقاومة الجزائرية وسهل عملية دخول دول الحلفاء بأقل عدد من الخسائر في الأرواح، تلقى "مكافأة" بأن تم الحكم عليه بالسجن لمدة شهرين سنة 1942م، وتم إطلاق سراحه لاحقاً.

57. Maurice M. Roumani, *The Jews of Libya* (Sussex Academic Press, 2008), p.16.

58. See Roumani, *The Jews of Libya*, p.22.

59. See Bensoussan, *Juifsen pays arabe*s p.519.

60. Beinin, *The Dispersion of Egyptian Jewry* (University of California Press, 1998), p.36.

61. Paul Sebag, *Histoire des juifs de Tunisie*(Harmattan, 1991), p.150.

62. Roberto Mazza, *Jerusalem: From the Ottomans to the British* (London: IB Tauris, 2012) quoting Colonel Meinertzhagen, p.176.

63. Ethan B. Katz, *Burdens of Brotherhood* (Harvard University Press, 2015), p.92.

64. Lyn Julius, 'Sixty-five years ago, panic swept Morocco's Jews', *Clash of Cultures* blog, *Jerusalem Post*, 7 December 2013, http://www.jpost.com/Blogs/Clash-of-Cultures/65-years-ago-panic-sweeps-Moroccos-Jews-364515. (Last accessed 26 April 2017).

65. Although the Jews were identified with the hated British colonial power, the theory has been advanced by the prominent Jewish civil servant Meir Basri that the British were no longer interested in protecting Jews as they had begun to trade with India and China and not Britain.

65- على الرغم من أنه كان دوماً يتم الربط ما بين القوى الاستعمارية البريطانية التي كانت موضع كراهية من قبل السكان المحليين، إلا أن هذه النظرة تعمقَت كثيراً على يد المسؤول الحكوميّ اليهودي مئير بصري بعد أن صرّح بأن الحكومة البريطانية لن تقوم بحماية التجار اليهود الذين يمتلكون علاقات تجارية تربطهم بالهند والصين عوضاً عن بريطانيا.

66. See Roumani, *Jews of Libya*, p.52.

67. نفس المصدر

68. M. Gilbert, *In Ishmael's House*, p.210.

69. André Chouraqui, *Between East and West: A History of the Jews of North Africa* (Varda Books, 2002).

70. Conversation with Maurice Bekhor, 2008.

71. Nathan Weinstock, *Histoires de Chiens*(Paris: Mille et Une Nuits, 2004), p.77.

72. G Bensoussan, *Le Nettoyage anti-Juif des pays arabes*, video uploaded 5 March 2013.

73. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.271.

74. Rifat Bali, 'The slow disappearance of Turkey's Jewish Community, *Jerusalem Center forPublic Affairs*, 6 January 2013, http://jcpa.org/article/the-slow-disappearance-of-turkeysjewish-community/.(Last accessed 26 April 2017).

75. Erlend Geerts, 'The Jewish Community and Synagogues in Istanbul', *Istanbul Insider*, 15 March 2010, https://www.theistanbulinsider.com/the-jewish-community-and-notablesynagogues-in-istanbul/.(Last accessed 26 April 2017).

76. Memmi essay, *Who is an Arab Jew*? February 1975, http://www.sullivan-county.com/x/aj1.htm . (Last accessed 26 April 2017).

77. https://en.wikipedia.org/wiki/Palestinian_stone-throwing#cite_note-Morris-37.(Last accessed 26 April 2017).

77- استناداً إلى المؤرخ بني موريس فإن عادة رمي الحجارة على اليهود هي إحدى العادات المنتشرة جداً في الشرق الأوسط والتي تعني ضمنياً تحقير اليهود تحت حكم المسلمين، ويقول في هذا الصدد: "لقد رأيت طفلاً يبلغ من العمر ستة سنوات برفقة مجموعة من الأطفال السّمان ممن كانوا يبلغون ثلاثة أو أربعة سنوات، فكان يعلمهم كيفية رمي الحجارة على اليهود. في السياق نفسه يتحدث القنصل الأمريكي في الجزائر وليام شيلر والذي شغل هذا المنصب بين سنتي 1815م حتى 1828م بأن هذه العادة كانت منتشرة جداً آنذاك. كذلك كانت مظهراً رئيسياً من مظاهر الاحتجاجات ضد اليهود وضد القوى الاستعمارية والتى اندلعت سنة 1948م فى ليبيا والدار البيضاء

78. See Stillman, *The Jews of Arab Lands in Modern Times*,Vol. II., p.134.

79. Lyn Julius, 'Dilemmas of dhimmitude', *Jewish Quarterly*, autumn 2004.

80. See Stillman, *The Jews in Arab Lands in Modern Times*, Vol. II, p.54.

81. Levana Zamir, 'The Golden Era of the Jews of Egypt' in *History and Culture of the Jews of Egypt in Modern Times* (KenessHakafot, 2008), p. 130.

82. The al-Kuwaity brothers are back!' *Point of No Return*, 1 September 2009.

83. Shlomo el-Kevity in Tamar Morad, Dennis Shasha and Robert Shasha (eds), *Iraq's last Jews* (US: Palgrave MacMillan, 2008), p.20.

84. Lyn Julius: 'Pining for La Goulette', *Jewish Quarterly*, Autumn 2005, http:// jewishquarterly.org/issuearchive/article8110.html?articleid=159. (Last accessed 26 April 20017).

85. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.393.

86. See Abitbol, *Le passé d'unediscorde*, p.287.

87. Bensamy, 'Liste de juifs qui ontcombattu pour le FLN', *Zlabia*blog, 5 March 2013, http://zlabia.com/forum/read.php?34,18173,18173#msg-18173. (Last accessed 26 April 2017).

88. This is the theme developed by Ethan B. Katz in *Burdens of Brotherhood* (Harvard, 2015).

هذا هو النموذج الذي طوره إيثان ب. كاتز

89. FO 371/125602. UK National archives, Kew.

90. Raphael Draï, 'Racines', *Pardès*, https://raphaeldrai.wordpress.com/racines/Drai. (Last accessed 26 April 2017).

91. D. Sibony, 'La difficulté de voir la réalité' in S. Trigano (ed.), *Qu'est-cequ'unacte antisemite*? *Pardès*55.

92. 'Jews and Muslims: intimate strangers', *Woolf Institute* blog, 2 February 2015, https://woolfinstitute.wordpress.com/2015/06/02/jews-and-muslims-intimatestrangers/.(Last accessed 26 April 2017).

93. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.482.

94- يحمّل كريم مِسك المسؤولية للفرنسيين فيما يتعلّق بمذبحة 1934م والتي حصدت أرواح خمسة وعشرين يهودياً في قسنطينة، مدّعياً بأن العرب لا يمكن أن يكونوا مسؤولين بأي شكل من الأشكال عن مثل هذه المذابح، وبأنهم وقعوا ضحية التحريض الاستعماري ضد اليهود. وهذا الادعاء يتضمن بعض الحقيقية، لان المذبحة كانت بمثابة جزء من سلسلة من المذابح والمظاهرات الاحتجاجية العنيفة التي نشبت على خلفية مشادة بين عربي ويهودي بالقرب من أحد المساجد. هذه المجزرة قد تم تدبيرها مسبقاً، خاصة وأن تجار التبغ العرب قد قاموا بإغلاق محلاتهم لأنهم كانوا يعلمون مسبقاً بأن اعماف عنف ستنشب في القريب العاجل، فيما كان جميع المحتجين الذين قاموا بنهب المحلات التجارية من العرب المسلمين.
[Richard Ayoun,'De l'émancipation à l'exode brutale des juifs d' Algerie', in *La Fin du judaisme en terresd'Islam*, S. Trigano (ed.) (Denoël, 2012), p.212] –

95. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.212.

96. 'Last Algerian left as late as 1967', *Point of No Return*, 24 February 2008, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2008/02/last-algerian-jews-left-five-years.html. (Last accessed 26 April 2017).

97. 'Goodbye Carmen, hello Magda', *Point of No Return*, 19 April 2013, http://jewishrefugees.blogspot.ie/2013/04/magda-haroun-is-next-cairo-jewishleader. html. (Last accessed 26 April 2017).

98. Lyn Julius, 'The tragedy of the Yemeni Jews' *The Guardian*, 7 June 2009, https://www.theguardian.com/commentisfree/2009/jun/07/yemen-jews-exodus-arabcountries. (Last accessed 26 April 2017).

99. 'Yemen Minister says fate of country's last Jews unknown', *Times of Israel*, 16 April 2017.

100. Lisa Palmieri-Billig, 'Following calls for deportation, David Gerbi to return to Rome', *Jerusalem Post*, 10 October 2011, http://www.jpost.com/Middle-East/Following-callsfor-deportation-Gerbi-to-return-to-Rome. (Last accessed 26 April 2017).

101. Gil Stern Shefler, 'Libya Jew returns to UK Post-Benghazi jailing', *Jerusalem Post*, 31 July2012, http://www.jpost.com/Jewish-World/Jewish-Features/Libya-Jew-returns-to-UKpost-Benghazi-jailing. (Last accessed 26 April 2017).

الفصل الرابع
إرثُ النازيّين

"خيبر خيبر يا يهود، جيشُ محمّد سوف يعود" هوَ أحد أكثر الهتافات ترديداً في المظاهرات الغاضبة والمناهضة لإسرائيل في دول العالم العربي والإسلامي، ومما لا شكّ فيه أن هذا الانتشار في المُظاهرات الغاضبة لم يأتِ من فراغ، حيث يستذكر المُتظاهرون عبر ترديد هذا الهتاف ما قام به النبي محمد وأتباعه وصحابته من إبادة جماعية لقبيلة خيبر اليهودية الذين تواجدوا في الأرض المعروفة اليوم بالمملكة العربية السعودية، هذه المجزرة التي تعتبر بمثابة أول إبادة جماعية تعرّض لها اليهود في دولة إسلاميّة. وبالنسبة ليهود خيبر الذين كُتِبت لهم النجاة من تلك الإبادة فكان مصيرهُم السّبي هُم ونساؤهُم وتمت مصادرة أملاكهم، فيما تعرّضوا لأبشع صور الإهانة والإذلال من خلال القوانين الجائرة التي فُرضَت عليهم، خاصة فيما يتعلّق بضريبة الجزية.

وتعود بدايات ظهور المُجتمع اليهوديّ في الجزيرة العربية إلى الفترة الزمنية التي نزل فيها الكتاب المقدس، حيث عاشوا في مدينة يثرب التي أطلق عليها المسلمون لاحِقاً "المدينة المنورة" لتصبح ثاني أقدس مدينة في الإسلام بعد مكة. وقد انتقل عدد كبير من اليهود للعيش في مدينة يثرِب بعد أن فرّوا هاربين من منطقة يهودا عقِب الغزو الرومانيّ لها، فيما رفض يهود يثرب الإسلام على الرغم من أن النبيّ محمد قد أسس الديانة الإسلامية اعتماداً على ما هو موجود في الديانتين اليهودية والمسيحية. وقد كان النبي محمد يرغبُ أن يتّبع اليهودُ ديانته، لهذا فإن المُتتبع للقرآن سيجدُ أن الجزء الأوّل لآيات القرآن جميعها تُمجّدُ اليهود وتتحدث عنهُم بكل خير. لكن اليهود رفضوا اعتناق الإسلام شكلاً ومضموناً وأصروا على موقفهم منه، ومنذ ذلك الحين أصبح اليهود ألدّ أعداء مُحمد.

فعلياً فإن ما حلّ بيهود خيبر كان بمثابة الشعرة التي قصمَت ظَهر قبيلة بني قريظة اليهودية، والذين قُضي عليهم هم الآخرون على يد المُسلمين، ومن بَقي منهُم على قيد الحياة أصبح عبداً من عبيد المُسلمين، بالتالي وعقب إبادة يهود خيبر وبني قريظة اندثر الوجودُ اليهوديّ من الجزيرة العربية بأكملها (باستثناء عدد قليل جداً من اليهود الذين عاشوا في الأطراف الجنوبية من الجزيرة العربية).

بالتالي وبعد الهزيمة الساحقة التي تعرَض لها يهود الجزيرة العربية بات اليهود لا يشكّلون أي مصدر خطر حقيقي بالنسبة للمسلمين، ومنذ اللحظة التي رفضَ فيها اليهود قبولَ واعتناق الإسلام تولّدت نظرةُ ازدراء اليهود من قبل المسلمين، وبأن المصير الوحيد الذي يستحقه اليهود نتيجة لرفضهم الإسلام هو القمعُ والتحقير والإذلال. وفي هذا الصدد يقول الباحث برنارد لويس والمُختصّ في تاريخ الإسلام: "بشكل عام، وخلافاً لمعاداة الساميّة المسيحية، فإن تصرّفات المسلمين ومعاملتهم لغير المسلمين بما فيهم اليهود لم يكُن أساسها الكراهية أو الخوف أو الغيرة بقدر ما كان أساسها نظرةُ الإذلال والتحقير التي نظر بها المسلمون لغيره المسلمين". [1]

في الوقت نفسه وجدَت وجهة النظر هذه معارضة شديدة من قبل الباحث والمؤرخ المختص في مجال أهل اذمة بات يئور، والكاتب أندرو بوسطم صاحب كتاب "الإرث التاريخي لمعاداة السامية في الإسلام" الذي يجسّد مقارنة على شكل نقاش مستمر بين وضح اليهود وحياتهم تحت ظل "الهلال " (أي حكم المسلمين) وبين حياتهم تحت ظل "الصليب" (أي تحت حُكم المسيحيين). لكن ما يتفق عليه كلاهما هو ان النزوحَ الجماعيّ لليهود وخروجَهُم من دول العالم الإسلاميّ يُعزى إلى تاريخ طويل من المعاملة السيئة التي عوملَ بها اليهود، اضافة إلى المذابح والمجازر التي تعرضوا لها في تلك البلدان والتي كانت بعضُ آيات القرآن التي تحملُ نزعة معادية لليهود مصدراً أساسياً لها. كما وكان للإبادة الجماعية التي تعرض لها يهود خيبر تأثيرٌ كبيرٌ على ما يُسمّى بالجهاد الإسلاميّ ضدَ الكُفّار في الوقت الحاضر.

ومثلما يوضّح برنارد لويس بأن الإسلام لا يمتلكُ في جوهره الدينيّ أي اختلاف مع اليهودية، بعكس المسيحية التي تتضمن في جوهرها اختلافاً عقائدياً والتي تنظرُ لليهود باعتبارهم قتلة المسيح، بالتالي يمكنُ اختزال نظرة المسلمين لليهود - من وجهة نظر برنارد لويس - على أنهم مجرّدُ "ضالّين" لم يتّبعوا الإسلام. لكن وبجميع الأحوال، هنالك سؤال ملفت جداً للاهتمام يجب الإجابة عليه: أيهما كانت معاملته لليهود أفضل من الآخر، المسلمون أم المسيحيون؟ يحاول برنارد لويس الإجابة على هذا السؤال من خلال منظور ومفهوم السامية ومعاداة الساميّة [2] ، قائلاً: "إن وضع الأقليات غير المسلمة تحت حُكم الإسلام بعيد كل البعد عن الظروف الجيدة التي تعيشها الأقليات في ظل الأنظمة الديمقراطية حالياً. لكن من ناحية أخرى، يمكننا مقارنة ظروف حياة الأقليات غير المسلمة تحت حكم المسلمين بظروف حياة الأقليات الدينية في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية خلال العصور الوسطى نظراً لوجود تشابه كبير بين الحالتين".

وقد كان مصير اليهودُ في كل منطقة يعتمد بالأساس على طبيعة المكان الذي عاشوا فيه وطبيعة الحاكم الذي عاشوا في ظله. وربما يكون الانحطاط الواضح في حياة اليهود والاستعباد والرقّ الذي تعرضوا له اضافة إلى وضعهم المذل والمهين تحت قوانين أهل الذمة في ظل حكم الإسلام، يكاد يكون أفضل من تجربة اليهود خلال حياتهم تحت ظل نظام الإقطاع في أوروبا، فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان المجتمع اليهوديّ السفرديّ الصغير الذي تواجد في فلسطين يعيشُ حياة إذلال وإهانة من قبل القاضي المسلم آنذاك، لكنهم في الوقت نفسه انتقلوا للحياة في القدس سنة 1700م بعد أن رفضوا حياة الظلم والاضطهاد الذي تعرّض له المجتمع اليهوديّ السفرديّ عندما كانوا يعيشون في إسبانيا. يقولُ غودواليا دي سيمياتيكزي الذي كان يعتبر عضواً بارزاً في أحد الجمعيات الدينية اليهودية:"لقد عامل العربُ اليهودَ معاملة العصابات الإجرامية"، ويتابع غودواليا قائلاً: " يستحيل أن يقبلَ اليهود الأشكناز بالظلم والمعانة، خلافاً لليهود السفرديين الذين اعتادوا على مثل هذه المعاملة". [3]

ويجد برنارد لويس من خلال تتبعه لتاريخ ظهور النزعة المسيحية العدائية لليهود من خلال تصويرهم بأنهم يختطفون الأولاد الصغار ليشربوا دمائهم ويستخدموها في السحر، وتصويرهم أيضاً بانهم يسعون للسيطرة على العالم بل وبأنهم يقومون بتسميم آبار المياه ونشر الأوباء والأمراض بين غير المسلمين، يجد أن جميع هذه التوصيفات الشريرة لليهود قد بدأت تحديداً منتصف فترة العصور الوسطى لأوروبا، أي الفترة الزمنية التي بدأ المسيحيون فيها باعتناق الإسلام من جهة، وبدأ فيها تأثير المسيحية الاروثوذوكسية اليونانية على أوروبا من جهة أخرى. لقد كان من الطبيعيّ حينها أن يتبدّل الأسياد الذين كانوا يحكمون "اهل الذمة" من اليهود، خاصة في الأوقات التي كانت تشهد رخاءاً اقتصادياً [4]، كما كانت النظرة العامة لليهود - آنذاك - على أنهم قومٌ مساكين ضعفاء لا حول لهم ولا قوة وأنهم ليسوا بتلك الأهمية في أي مجتمع، كما أنهم لم يتمتعوا بوجود أي قوة تمنحهم الحماية التي تمتّع بها المسيحيون من قبل الغرب، مع بعض الاستثناءات بالبطع.

ويختلف الدكتور أندرو بوسطم والباحث بات يئور مع الباحث والأكاديمي الألماني الدكتور ماثياسكونتسِل، مُتّهمينه بأنه يبرر ما قام به العرب والمسلمون من ظلم واضطهاد لغيرهم عبر وصفهم بأنهم "ضحايا غير مباشرون لقوى الاستعمار الغربية المعاصرة"، كما يرى الدكتور ماثياس أن القرآن لا يعتبر المصدر الرئيسي لمعاداة السامية الإسلامية في الوقت الحالي، كما يدّعي بأن هنالك بعض الكتب والتفاسير الدينية الاسلامية المليئة بالمحتوى الذي يُحرّض على الكراهية مثل الكتاب المعروف بـ"صحيح البخاري" [5] لم يكُن له تلك الأهمية حتى وقت قريب، وما يميز صحيح البخاري بأنه يحتوي على أحد أبرز أحاديث محمد التي تحضّ على كراهية اليهود والذي يتحدث عن وجوب قتال المسلمين لليهود كعلامة من علامات يوم القيامة، والذي يقول فيه: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد" .[6]

وتِبعاً للباحث الإسرائيليّ المختص في الشؤون العربية يهوشوا پوراث، لا يوجد أي ذِكر لهذا الحديث في أي مكون من مكونات التراث الإسلامي والعربي، وبأنه لم يظهر حتى سنة 1870م، ومنذ ذلك الحين بدأ هذا الحديث يتردد بين العرب والمسلمين منتشراً كالنار في الهشيم. وتبعاً للدكتور ماثياسكونتزلفإن " أحاديث البخاري التي تتضمن محتوىً يحثّ على الكراهية كانت انعكاساً لموجات معاداة السامية المعاصرة، الأمر الذي يُفسر ظهور أحاديثه في ميثاق حركة حماس عندما تم تأسيسها سنة 1988م". كما يُصرّ ماثياسكونتزل وآخرون بأن معاداة السامية الإسلامية تُعزى بدرجة كبيرة إلى حالة كراهية اليهود التي سادَت أوروبا في الوقت الحديث. ومما لا شكّ فيه بأن المُبشّرين والتجّار والساسة المسيحيين قد أشعلوا في منطقة الشرق الأوسط وشمال أوروبا نيران الحروب والنزاعات عبر ايديولوجياتهم الدينية، فعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الكتاب المُزوّر والمنتشر بشكل واسع في المكتبات العربية والإسلامية " بروتوكولات حُكماء صهيون" قد تم تحريف ترجمته الحقيقة وتزويرها باللغة العربية على يد مُترجم مارونيّ مسيحيّ قبل أن يتم نشره عبر أحد دور النشر في القاهرة سنة 1925م.

لكن المُتتبع للتاريخ سيجدُ أن اليهود قد تعرّضوا للظلم والاضطهاد من قبل المسلمين منذ ظهور وانتشار الإسلام حتى العصر الحديث، الأمر الذي يُعزى إلى الأسس المتعصّبة التي يقوم عليها الإسلام، كذلك فإن المذهبين الحنبليّ والمالكيّ يعتبران من أكثر المذاهب الإسلامية المُحافِظة وأكثرها تمسكّاً بما جاء به الإسلام من تعاليم وأفكار، أما السلفيّة الإسلامية فتسعى جاهدة لاستحضار حالة "الورع والتقوى والطاعة" التي كان يتسّم بها النبي محمد وصحابته من بعده. أما العالم الإسلامي ابن تيمية الذي ظهر في القرن الرابع عشر- والمعروف عنه تمسكه الحرفيّ بما جاء به الإسلام من تعاليم
وأفكار - فإنه كان يسعى إلى إعادة الإسلام السني إلى ما كان عليه، أي أن يكون قائماً القرآن على التفسيرات التي جاء بها المفسرون الأوائل للقرآن، بالتالي يعدّ الأب الروحي لأكثر الأفكار تشدداً وتزمّتاً في الإسلام. وما حدث خلال القرن التاسع هو أن الحركة النازية الألمانية قامت بتصدير فكر جديد ليُضاف إلى الأفكار السلبية الموجودة أصلاً حول اليهود، إنها فكرة "القوة اليهوديّة" وسعي اليهود للسيطرة على العالم، وهي فكرة دخيلة بالنسبة للعالم الإسلامي.

خُسوف الحَداثة الإسلامية

بشكل عام لا يُمكننا القول بان ظهور التيار الإسلاميّ المُتشدد كان أمراً حتمياً، خاصة في ظل ظهور تيار إسلاميّ علماني وحركة إصلاحية حديثة وقوية ضمّت عدداً من المُصلحين الذين نشطوا بكثرة المجمعات الإسلامية في القرن التاسع عشر، فعلى سبيل المثال لا الحصر تأثر المفكر المصري الإصلاحي رِفاعة الطهطاوي (1801م – 1973م) والمفكر جمال الأفغاني (1838م – 1898م) بفترة التنوير التي شهدتها أوروبا، حيث حاول جمال الأفغاني وأتباعه من المفكرين المزاوجة بين الإسلام من جهة، وبين العلم والفلسفة العقلانية من جهة أخرى، تماماً مثلما حاول المفكر الغربي توماس أكويناس الربط بين المسيحية وبين فلسفة أرسطو. وقد رأى المفكر الهندي الإنجليزيّ سيّد أحمد خان والمفكر الهندي شيراغعلي إضافة إلى المفكر المصري محمد عبده ضرورة وجود حركة إصلاحية في الإسلام. لكن ومع الأسف الشديد قوبِلَت أفكارهم بالرفض الشديد باعتبارها أفكاراً "غير إسلامية" وبانها أفكار غربية بحتة، كما كان لانهيار الدولة العثمانية في تلك الفترة دور كبير في عدم انتشار أفكارهم في المجتمعات الإسلامية التي كانت ترى أن مفهوم "الأمة الإسلامية" آخذ في التلاشي بعد سقوط العثمانيين، وبأنه لا بد من إعادة تفعيل حركة "الجهاد" ضد القوى الاستعمارية الغربية.

ونتيجة لتلك المتغيّرات ظهرَت حركة جديدة تدعى "الوهابية"باعتبارها حركة سلفية أصولية قائمة على فلسفة صارمة ومتشددة في الجزيرة العربية خلال القرن الثامن عشر، فيما استخدمت المملكة العربية السعودية مقدّراتها الهائلة من النفظ لتمويل ونشر الفكر السلفيّ في كل مكان، فيما برزَ المفكر المصريّ الذي كان يحمل الفكر النازيّ محمد رشيد رضا باعتباره واحداً من أبرز مُفكري ومُنظري الفكر السلفيّ. وقد بدأ محمد رشيد رضا مشواره الفكريّ في بداية الأمر باعتباره من أنصار ومؤيدي الساميّة، إلا أنه تحوّل لأحد مُعادي الساميّة خلال عشرينيات القرن العشرين، مُبرّراً دفاعه وإيمانه بالفكر النازيّ عبر وصف الحركة النازية بأنها "أداة سخّرها الله لتنفيذ مشيئته".[9]

وبينما كانت الحركة السلفية "مُبطّنة" في جوهرها إلى حد ما، برزَت حركة الإخوان المسلمين باعتبارها حركة ثورية، وفي الوقت الذي كانت تعتبر فيه السلفية مذهباً نزعة فردية شخصيّة، اتسمت حرك الأخوان المسلمين بأنها حركة ذات ايديولوجية سياسية عامة [10]. ومثلما كانت بدايات ظهور الحركة النازية متزامنة مع حالة البطالة والوضع الاقتصادي المتردّي في ألمانيا، فقد تزامن ظهور حركة الإخوان المُسلمين في مصر سنة 1928م على يد حسن البنا مع حالة الكساد الإقتصادي وانهيار فكرة الخلافة بعد سقوط فكرة الخلافة الإسلامية التي هدمها العثمانيون قبل اربع سنوات من تأسيس حركة الإخوان المسلمين، إضافة إلى ما شهدته مصر من حداثة وظهور لحركات تحرر المرأة، حيث كانت تصف حركة الإخوان المسلمين نفسها على أنها حركة مناهضة تلك الحداثة ولحركات تحرر المراة.

وباعتبار حركة الإخوان المسلمين كانت حركة مناهضة للغرب، فإن الغالبية العظمى من عامة العرب والمسلمين لم تكن تنظر إليها على أنها حركة ذات مباديء وأسس تقدّمية، بل أظهرَت حركة الإخوان المسلمين للعامة كيف أنها تحشدُ الدعم لقضايا متخلفة بعيدة كل البعد عن عصر الحداثة والتطور، الأمر الذي أشار إليه الدكتور ماثياسكونتزل عندما وصف اشتراك حركة الإخون المسلمين في المذابح الدموية المعادية للسامية في ثلاثينيات القرن العشرين. [11]

صورة لحسن البنا مؤسّس جماعة الإخوان المسلمين

لقد كان لجماعة الإخوان المسلمين دور كبير جداً فيما وصفه المفكر جيفري هِرف في وضع اليهود موضع الأعداء للديانة الإسلامية، وهو موضع فرضه الإخوان على العقلية المسلم على الرغم من كونه افتراضاً مزيّفاً لا يمتّ للحقيقة ولا للواقع بأي صِلة [12]. كما عمّقت حركة الإخوان المسلمين من فكرة "الآخر" في العقلية المسلمة، لدرجة لم يعد هناك أي نوع من أنواع التعاطف تجاه ذلك الآخر، بالتالي أصبح لا يُنظر إلى كل من هو مُختلف على انه إنسان أصلاً. في المقابل ظهرت رواية جديدة تطغى عليها نظرة الظُلم، أي أصبَح يُنظر لليهود على أنهم شعبٌ يطمحُ للسيطرة على العالم، الأمر الذي يستوجب "قتالهم" بشتّى السبل وأيا كان الثمن من وجهة نظر الإخوان المسلمين.

وقد كانت الثورة العربية سنة 1936م في فلسطين بمثابة شرارة البداية لموجات العنف الدمويّ من قبل جماعة الإخوان المسلمين، فيما بدأ أتباع الجماعة بين سنتي 1936م و1938م بتنظيم المظاهرات الحاشدة في المدن المصريّة مطالبين بسحقِ وطردِ اليهود من مصر وفلسطين، فيما قاموا بتوزيع المنشورات والكتيّبات التي تدعو لمقاطعة البضائع والمصالح التجارية اليهودية [13]. في الوقت نفسه كانت تنشُر صحيفة النظير الإخوانية مقالات بشكل شبه يوميّ في عمود مخصص للحديث عن "خطر اليهود في مصر"، كما كان يُنشر عادة في هذا العمود أسماء وعناوين التجار اليهود وأسماء الصحف اليهودية في العالم والقائمين عليها. كما كان هذا العمود مخصصاً أيضاً للتحريض على اليهود، فكان كتابه ينسبون كل ما له علاقة بالشرّ في العالم لليهود، بدءاً من "الشيوعية" وصولاً إلى وقوف اليهود وراء المواخير وبيوت الدعارة وغيرها من الأمور التي تجعل من اليهود خطراً مُحدقاً بالمسلمين. كما كان يُطلبُ من يهود مصر مراراً وتكراراً أن يُعلنوا على الملأ نبذهم وراءتهم من الحركة الصهيونية.[14]

وفي هذا السياق يوضّح المدير العام لوزارة التربية والتعليم العراقية الدكتور سامي شوكت في كتابه (The craft of Death in 1939)[15]بأن عنف الأخوان المسلمين قد تجاوز حدود التحريض على أعمال العنف بمظاهره العسكرية، حيث تجاوز إرهابهم ذلك بكثير ليصل إلى حدود إرسال الانتحاريين ليفجّروا أنفسهم بين الناس، فكانوا يعِدون من يفجرون أنفسهم بأنهم سيكونون في المراتب العليا من الجنة لأنهم "شهداء"، وهو الأسلوب ذاته الذي تنتهجه العديد من الحركات الإسلامية المتطرفة حتى يومنا هذا.

وفي شهر حزيران من سنة 1939م تم وضع عبوات متفجرة في الكنيس اليهوديّ في القاهرة وفي عدد من بيوت اليهود، لكن هذا كان غيضاً من فيض أعمال العنف والقتل التي ارتكبت بحق اليهود لاحقاً، حيث ارتكبت حركة الإخوان المُسلمين أعمال عنف ومذابح بحق اليهود وصفها المفكر الألماني كنتزِلبأنها "أفظعُ موجة من موجات العنف الدموي بحقّ اليهودي في التاريخ المصري الحديث"[17]، فكانت بداية تلك الموجة في شهر نوفمبر من سنة 1945م تزامناً مع الذكرى السنوية لوعد بلفور، عندها بدأ المُتظاهرون المصريون وبتحريض من حركة الإخوان المسلمين بالهجوم على الأحياء اليهودية في القاهرة بلا استثناء والاعتداء على ساكنيها، كما تزامنت تلك الهجمات الدموية ضد اليهود مع انهيار الحكم النازيّ في ألمانيا والتحريض المستمر من قبل المفتي الحاج أمين الحسيني عبر محطات الراديو التي كانت تبث من برلين حينها.

وقد قام المُتظاهرون المسلمون حينها بسلب ونهبِ البيوت اليهودية ومحالهم التجارية والاعتداء على كل ما هو غير مسلم، كما قاموا بإشعال النيران في الكنيس الأشكنازي، الأمر الذي أدى الى مقتل ستة يهود وإصابة المئات. في الوقت نفسه واصلت صحيفة النظير الإخوانية هجومها وتحريض المستمر ضد يهود دون كلل أو ملل، واصفة إياهم بأنهم "صهاينة" و"شيوعيين" وبأنهم "مصاصو دماء" ويمثلون "رأس المال الجشع"، وبأنهم "قوّادون وسماسرة وتجار حرب"، وبأنهم عنصرٌ هدّام في كل دولة ومجتمع يعيشون فيه [18]. بالتالي أشعلَت حركة الإخوان المسلمين نار الحقد والكراهية والحرب ضد اليهود، بل وحوّلتها إلى حرب أزلية لا نهاية لها على اعتبار أنها جزء من العقيدة الإسلامية [19].

وتبعاً لما يصفه المفكر الألماني كنتزِلفإن فكرة الجهاد ضد اليهود قد استلهمت الكثير من الفكر النازيّ المعادي لليهود، الأمر الذي بدا واضحاً في كتابات المفكر الإخواني سيد قطب والذي أجملها في كتابه "معركتنا مع اليهود"، ويرتكز فِكر سيد قطب التحريضيّ على إلصاق صفة الشر بكل ما له علاقة باليهود، وأن العكس صحيح أيضاً، أي ان كل ما هو شرّير هو في الأصل يهوديّ[20]. وانطلاقاً من تلك الأفكار صار المسلمون يُبرّرون ما حلّ بالقبائل اليهودية التي كانت تعيش في شبه الجزيرة العربية من قتل وذبح وإذلال خلال القرن السابع للميلاد على يد المسلمين، وبأن هذا هو عقابهم الطبيعي نتيجة لرفضهم الدين الإسلامي، أو "دين الحق" حسبما يصفه المسلمون.

وخِلافاً للفكر النازي المُدلّس والذي كان ينظرُ لليهود على أنهم شعبٌ يحاولون السيطرة على العالم والترويج لهذه الفكرة لاستخدامها للتحريض ضد اليهود، فقد كان ينظرُ الإسلام إلى اليهود على أنهم مجموعة ضعيفة بائسة لا حول لها ولا قوة وبأنهم لا يمتلكون أي قيمة في أي مجتمع يمكثون فيه، خاصة بعد أن قام المسلمون بهزيمة يهود شبه الجزيرة العربية وارتكاب المجازر بحقهم وتشريدهم من ديارهم.

العربُ يدفعون ثمن المحرقة اليهودية (الهولوكوست)

إن الخرافة القائلة بأن العرب كانوا مجرّد "مُتفرّجين" أثناء وقوع الهولوكوست وأهوالها المروّعة بحق اليهود في أوروبا "البعيدة" عن هذه المنطقة هي خرافة منتشرة جداً في النقاش المُتعلّق بهذا السياق، وهي تمثل مغالطة سياسية فادحة صوّرت العرب على أنهم "ضحايا" بشكل غير مباشر لما حلّ باليهود في المحرقة، وبأن تأسيس وقيام دولة إسرائيل كان ثمناً "دفعه الفلسطينيون" [21]. من ناحية أخرى، وتبعاً لما وصفه المفكر روبرت ساتلوففإن الهولوكوست تعتبر جزء من التاريخ العربيّ بقدر ما تعتبر جزءاً من التاريخ الأوروبي". في الحقيقة فإن الاضطهاد الذي تعرّض له اليهود على أيدي العرب لم يصل لدرجة الإبادة الجماعية لسببين رئيسيين، وهما عدم وجود النيّة المسبقة أولاً، وعدم وجود الوقت الكافي للقيام بإبادة جماعية بحق اليهود ثانياً [22]، فالمنطق يقول بأنه لو لم يُهزم رومل وهيرماختفي معركة العلمين لكان العرب من أول الداعمين والمؤيدين للمشروع النازيّ القائم على إبادة اليهود جميعهم وأينما كانوا. [23]

وفي هذا السياق يكشف المفكر الألماني ماثياس كُنتزِل[24] والمفكر جفري هِرف [25] من خلال العديد من الأدلة تأييد العرب ودعمهم وتعاونهم مع النازيين. لكن وعلى الرغم من أن حرب النازيين على اليهود كان تأثيرها محدوداً على اليهود في دول العالم العربي مقارنة بيهود أوروبا، إلا أن هذا لا يعني عدم وجود تأثير سلبيّ كبير على حياة اليهود من قبل الأنظمة والحكام الذين ساندوا الفكر النازي وكانوا من مؤيديه. فعلى سبيل المثال كان يهود المغرب - الذين كانوا تحت الحكم الفرنسي حينها - جزءاً من مخطط الإبادة الجماعية الذي ينوي النازيون ارتكابه، وقد وضعوا الخطة لتنفيذه في شه كانون الثاني من سنة 1942م عبر مؤتمر وانسي، حيثُ تم سنّ وفرض مجموعة كبيرة من القوانين والتشريعات ضد اليهود في ظل حكومة فيشي في المغرب والجزائر، والتي تضمنت مصادرة الجنسية الفرنسية من اليهود، ومصادرة أملاكهم وحساباتهم البنكية وطرد الطلاب اليهود من المدارس والجامعات الحكومية والوظائف العامة.

أما تونس فقد خضعت لحكم النازيين لفترة امتدت لستة أشهر [26] بدءاً من شهر تشرين الثاني سنة 1942م، وكانت حينها خاضعة لحكم أحد جنرالات قوات الأس أس الألمانية يدعى وولتِر راوفوالذي اشتهر بابتكاره لفرن الغاز المتنقل لقتل اليهود، وهو المسؤول عن قتل ما تعداده تسعون ألف يهودي من يهود أوروبا الشرقية.

في الوقت نفسه كان النازيون يخططون لارتكاب المزيد من مجازر الإبادة الجماعية بحق اليهود على يد فرقة "ينزاتسغروبن مصر" التي كانت تخطط لذبح اليهود في اليونان، لكنها فشلت في خططها بعد الهزيمة المدقعة التي ألحقتها بها قوات التحالف بقيادة الجنرال رومِل في معركة العلمين في تشرين الأول من سنة 1942م.

ومع بداية شهر كانون الأول من سنة 1942م تم قتل العشرات من اليهود ، وتم احتجاز قرابة خمسة آلاف وخمسمائة شاب يهودي من تونس - بعضهم لم يبلغ سنة السابعة عشر- وتم الزجّ بهم في معسكرات العمل الإجباري (السخرة)، كما تم سلب ممتلكات اليهود وتم إحاطة الأحياء اليهودية في تونس بسياج شائك عقاباً لهم على الأضرار التي خلفتها هجمات قوات التحالف [27]، ويقول شهود عيان من يهود تونس - ممن شهدوا ما حدث حينها بأنفسهم - بأن الألمان كانوا قد بدأوا فعلاً ببناء أفران الغاز بهدف البدء في إبادة يهود تونس، ولولا نجاح القوات الأمريكية في السيطرة على البلاد ودحر القوات الألمانية في شهر أيار من سنة 1943م لكان الألمان قد بدأوا فعلاً بتنفيذ مخططاتهم بقتل اليهود، بالتالي كانت مسافة شهرين تفصلُ بين نجاة اليهود وتعرضهم للإبادة على يد الألمان. [28]

وسنة 1938م أصدرت ليبيا قوانين وتشريعات عنصريّة ضد اليهود، فيما توفّي قرابة ستمائة يهوديّ ليبيّ من الجوع والعطش وتفشّي الأمراض والأوبئة مثل مرض التيفوس (الحمّى النمشية) في معسكر غيادو الذي كان مُعتقلاً لليهود حينها. في الوقت نفسه تم ترحيل ثمانمائة وسبعين يهودي ليبيّ ممن كانوا يحملون الجنسية البريطانية إلى برغان بِلسِن،فيما يعتقد أن الغالبية العظمى منهم قد كتبت لهم النجاة من الموت وظلوا على قيد الحياة رغم تلك الظروف القاسية.

الكِذبة المغربية

هنالك كذبة مغربية تقول بأن السلطان المغربي محمد الخامس قد أنقذ يهود المغرب ومنع ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال والموت النازية في أوروبا، لكن ما أرغب بالتركيز عليه هنا هو أن ترحيل اليهود من خلال البحر الأبيض المتوسط لم يكن أصلاً أمراً سهلاً إستناداً إلى معطيات الواقع حينها. في الحقيقة فقد أعلنَ السلطان محمد الخامس عن موقفه الواضِح من اليهود قائلاً بأنه "لا يوجد رعايا يهود او غير يهود في المغرب، فجميعهُم مغاربة قبل أي اعتبار آخر".

بالتالي ربّما كان السلطان محمد الخامس يحاول المراوغة واللعب على جميع الحبال، لكنه في الوقت لم يتردّد حين قام بتوقيع جميع القوانين والتشريعات والمراسيم التي أصدرتها حكومة فيشي ضد اليهود، وخلال فترة حكمه تم ترحيل اليهود من أماكن سكناهم في الأحياء الأوروبية ليتم الزجّ بهم مجدداً في غيتوهات مزدحمة خاصة بهم، كما مُنع يهود المغرب من تشغيل خادمات مُسلمات في بيوتهم، وتماماً مثلما حدث في التونس والجزائر فقد تم مصادرة ممتلكات اليهود وتم سحب الأموال من حساباتهم، وعندما كانت تجري المحاصصة بين الفئات السكانية كان يتم استثناء اليهود وكأنهم غير موجودون أصلاً، كما مُنعوا من الدخول الى المدارس والجامعات ومن الحصول على الخدمات والوظائف الحكومية أيضاً. وبطبيعة الحال ومثلما وصفته مجلة تيل كيل حينها فقد كان السلطان محمد الخامس "ملكاً عادِلاً" لكنه "لم يكن يمتلك السُّلطة الكافية" [29]، وهذا ما حدث فعلاً، لأن السلطة الفِعليّة كانت موجودة بيد الحاكم الفرنسي للمغرب.

ومن الجدير بالذكر أنه خلال فترة حكم السلطان محمد الخامس والحاكم الفرنسي فيشي قد تم إرسال عدد من قوات الجيش الفرنسي مصطحبين معهُم المُعتقلين السياسيين من إسبانيا وقرابة ألفي يهوديّ من يهود أوروبا لكي يعملوا في أكثر من ثلاثين معسكراً من معسكرات العمل الإجباري (السخرة) الموجودة على الحدود المغربية الجزائرية، وتم الزجّ باليهود تحديداً في معسكر بِرغَنت[30]، وهناك لقي العشراتُ حتفهُم نتيجة للجوع والتعذيب والإهمال الشديد بينما كانوا يحفرون سكة القطار في الصحراء المغربية، لكن هذا كان يحدث أمام مَرأى ومَسمَع السلطان محمد الخامس دون أن يحرّك ساكِناً أو يُبدي أي اعتراض على هذه المعاملة القاسية التي تعرض لها اليهود.

صورة تظهر فيها معسكرات العمل الإجباري (السخرة)
على الحدود المغربية الجزائرية خلال فترة الحرب

أما في المصر والعراق فقد كانت حكومتا البلدين موالية للانتداب البريطاني، فيما خدم عشراتُ العراقيين والمصريين في الجيشين البريطاني والفرنسي، لكن الرأي العامّ في البلدان العربية كان موالياً للنازية أكثر من كونه موالياً ومؤيداً للبريطانيين. وفي هذا السياق يصفُ المؤرخ وولتر راوففي مذكراته كيف كانت مظاهر الحزن والإحباط طاغية على ملامح العرب والمسلمين نتيجة الانتصارات التي كانت تحرزها جيوش الحلفاء بدايات سنة 1943م، خلافاً لليهود الذين كانوا سعيدين جداً بتلك الانتصارات. كما يذكر أيضاً كيف أن غالبية الشعب المصري حينها كانت تؤيد النازيين الألمان [31]، وحينها قام يهود الاكسندرية بالرحيل للنجاة بحياتهم إلى القاهرة، أما يهود القاهرة فقد فرّوا هاربين إلى منطقة الفسطاط، وحينها كان اليهود يراقبون بفزع شديد مجريات أحداث الحرب، خاصة في ظل حالة المدّ والجزر على الجبهة الموجودة في الحدود المصرية الليبية سنة 1941م.

وبالعودة للحديث عن يهود المغرب، فقد أصبح اليهود هناك عُرضة للهجمات والاعتداءات التي كانت تقوم بها الحشود والمتظاهرون، خاصة بعد ان وصلت قوات الجنرال باتون إلى ارض المغرب نهاية سنة 1942م فيما عرف بعملية "المَشعَل" [32] .كذلك يذكر ألبِرت ممّيفي مذكراته أيضاً كيف كانت الأجواء في تونس قبل أن تنجح جيوش الحلفاء في السيطرة على تونس وانتزاعها من أيدي النازيين في شهر أيار من سنة 1943م. يقول مِمّي: "لقد وضّحتُ في كتابي "عَمود المِلح" (Pillar of Salt) كيف تخلّى عنا الفرنسيون لنُصبح فريسة سهلة بين مخالبِ الألمان، لكن من المهم جداً ان أذكر أيضاً كيف كُنّا مُحاطين بغالبية سكانية عربية تُكنّ لنا مشاعر الحقد والكراهية، الأمرُ الذي شكل عقبة كبيرة بالنسبة لنا، بل ومنعنا من اجتياز الحدود والانضمام إلى قوات الحلفاء. لقد نجح بعض اليهود في ذلك رغم جميع العقبات، لكن غالبية اليهود كانوا يفشلون في هذا فيتم اعتقالهم وتعذيبهم". [33]

أما في فلسطين الانتدابية فقط كانت الغالبية العظمى من العرب الفلسطينيين تؤيد النازيين، في الوقت نفسه التحق قرابة تسعة آلاف فلسطيني في الجيش البريطاني لمحاربة الجيش الألماني بقيادة هِتلر، وهو عدد صغير مقارنة بالعدد الكبير من اليهود الذين انضمّوا إلى القوات البريطانية، خاصة إذا ما قمنا بمقارنة عدد السكان اليهود وعدد السكان العرب في فلسطين الانتدابية، حيث كان عدد اليهود يقدر بنصف عدد السكان العرب حينها [34]. وفي هذا السياق يقول القنصل الألماني العام في القدس وولتِردوهلواصفاًما كان يحدث على أرض الواقع بدايات سنة 1937م: "لقد كانت هنالك غالبية عُظمى من السكان الفلسطينيين العرب المؤيّدين للألمان بقيادة الفوهر على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية. وفي حال كان حشدٌ من العرب يعترضُ طريق شخص ما فإن إظهاره الولاء والتأييد للألمان كان كفيلاً بأن يتركه العربُ وشأنه، أما عندما كان يَقوم أحدٌ ما بتأدية شعار هتلر بيده فإن هذه الحركة كفيلة بإشعار العربِ بقدر أكبرَ من الارتياح والطمأنينة". أما في مدينة حلب السورية فقد كان المتظاهرون بعد الغزو الألماني لفرنسا دوماً يُردّدون الشّعار التالي في مظاهراتهم بعد أن قام النازيون باحتلال فرنسا سنة 1940م: "لا للمِسيو، لا للمِستِر، اللهُ في السماء وعلى الأرض هِتلر". [36]

التَّحالفُ الثلاثيّ

لقد نشأ تحالفٌ ثلاثيّ ضمّ كلّاً من الحزب النازيّ الألماني ومُفتي القدس الحاج أمين الحسيني وحركة الإخوان المسلمين [37]. تأسّست جماعة الإخوان المسلمين في مصر على يد حسن البنّا سنة 1928م، وقد ظهرت كحركة شعبية مُناهضة لحرية الفكر ومُعارضة للمساواة مع المرأة، كما كانت مناهضة للعلمانيّة بكافة أشكالها [38]، وقد استوحى حسن البنّا العديد من أفكاره ونظرياته من الفكر النازيّ، بالتالي كانت معاداة السامية تُمثّلُ جَوهَرَ العقيدة التي قامت عليها جماعة الإخوان المسلمين.

لقد كانت تطمحُ حركة الإخوان المسلمين إلى إعادة إحياء مبدأ الخلافة وإلى إخضاع كل من هو غير مسلم لقوانين الشريعة الإسلامية، لكن الأمر الذي لم يسبق وأن فكَّرَت به اي حركة او حزب إسلامي هو ما قامت به جماعة الإخوان من تمجيد للعنف المرتكب باسم الدين وربطه "بالشهادة"، بالتالي أسست الجماعة للفكرة القائلة بأن هذا العنف الدينيّ تجاه غير المسلمين هو واجب وفريضة على كل مسلم، بالتالي ومنذ سنة 1936م كانت فلسطين بمثابة قضية تجمعُ ما بين حركة الإخوان المسلمين وبين مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، وكان كلاهما يرى أن أرض فلسطين ستشكل الشرارة الأولى لفكرة "استنهاض الامة الإسلامية" وبأن جميع الشعوب الإسلامية ستتّحد خلف هذه القضية. [39]

أما في بغداد فقد كان السفير الألماني في العراق فريتزچروبا - الذي كان يُعتبر بمثابة النسخة الألمانية من لورانس العرب- فقد كان ينشر في الصحف العراقية حلقات ومقتطفات بشكل متواصل من كتاب هتلر المعروف "كفاحي" [40]. كذلك قام النازيّون بتمويل الثورة العربية التي قادها الحاج أمين الحسيني ضد القوات البريطانية في فلسطين الانتدابية سنة 1936م [41]، كما قاموا أيضاً بتمويل شبكات من الشباب العربي المؤيد للنازية وشبكة من العملاء الألمان في المنطقة، بالإضافة إلى تمويل حركة الإخوان المسلمين في مصر، ليتشكل مع نهاية الحرب العالمية الثانية ما تعداده مليون مقاتل مسلح في المنطقة العربية من المؤيدين للحزب النازيّ الألماني [42]، حيث كان الهدف من ذلك أن يتم خلقُ ثورة مؤيدة للألمان في منطقتي الشرق الأوسط وشمال افريقيا.

وبالنسبة إلى الطرف الثالث في هذا التحالف، الحاج أمين الحسيني مفتي القدس، فقد كان يُنظر إليه على انه القائد المستقبلي للعالم العربي، حيث نجحَ في تحويل الذكرى السنوية لوعد بلفور - الذي يرمز للخيانة البريطانية للعرب - إلى أعمال عنف واعتداءات ترتكب ضد اليهود سواء كانوا في فلسطين أو في أي بقعة أخرى من دول العالم العربي في كل سنة تحلّ فيها هذه الذكرى، وقد كانت نتيجة تحريضه المستمر على اليهود ارتكاب الفلسطينيّين لمجزرتي 1920م و1929م بحقّ اليهود.

ومنذ صعود أدولف هتلر إلى سدة الحكم في ألمانيا، كان الحاج أمين الحسيني يسعى جاهداً للتقرب منه ومن الحزب النازي الألماني، حيث أدى هذا التقارب بينهما إلى تغيير منزلة العرب بالنسبة للنازيين ليصبحوا "عِرقاً آرياً فخرياً". وفي سوريا كان للحاج أمين الحسيني خُطبة معروفة بعنوان "الإسلام واليهود" سنة 1937م والتي تمت ترجمتها لاحقاً للغة الألمانية، لكن هذا الخطاب أصبح واحداً من أهم الأسس والركائز الإسلامية بل وأحد أهم النصوص التي عرَفت الإسلام على انه مصدرٌ لكراهية اليهود. [43]

وأينما كانت تحط قدما الحاج أمين الحسيني في دول العالم العربي، كانت تحدث المجازر وأعمال العنف الدموية بحق يهود الدول العربية، فعلى سبيل المثال لا الحصر يقول يهود اليشوف اليمنيّين بأن ضغط السكان العرب بقيادة المفتي في فلسطين كان السبب وراء القرار الذي أجبر اليهود الأيتام على اعتناق الإسلام بالقوّة سنة 1921م [44]، حيث تم إصدار هذا القرار بعد أن زار وفد من العرب الفلسطينيين إلى اليمن طالباً من الإمام الحاكم لليمن أن يوقف هجرة اليهود إلى فلسطين، ومثلما يوضّح المفكر س.د غويتِن، فإن قرار إجبار الأيتام اليهود في اليمن على اعتناق الإسلام يُعدّ واحداً من أبرز الأسباب التي تقف خلف رحيل السكان اليهود اليمنيين إلى فلسطين [45]. وقد شهدت أربعينيات القرن المُنصرم زيارات متكررة من وفود فلسطينية عربية إلى عدن) التي أصبحت لاحقاً مقاطعة ملكية بريطانية)، وقد كانت نتيجة هذه الزيارات الارتفاع الملحوظ في مشاعر الكراهية لليهود وتزايد الأعمال المعادية ليهود اليمن. [46]

وبالنسبة للسكان العرب في أرض فلسطين الانتدابية فإنهم لم يكونوا يميزون في هجماتهم بين اليهود السفرديين الذين سكنوا أرض فلسطين في التجمعات المعروفة "اليشوف" منذ مئات السنين، وبين المهاجرين اليهود الجدد، وخير دليل على هذا هو مجزرة سنة 1929م حين قتل سبعة وستون يهودياً على أيدي العرب الفلسطينيين في أحد تجمعات اليشوف اليهودية. أما بالنسبة للحاج أمين الحسيني فكان لا يذكر مصطلح صهيوني أو صهاينة في خطابه، بل كان يذكر كلمة اليهود مراراً وتكراراً، خاصة منذ كانون الأول من سنة 1931م عندما عقد اجتماعاً في القدس لمنظمة المؤتمر الإسلامي العالمي. ومنذ ذلك الحين صار الحاج أمين الحسيني يحثّ العرب على معاملة يهودهم تماماً "مثل معاملة اليهود للعرب في فلسطين"[47].

وقد أعقبَ ذلك المؤتمر بفترة زمنية قصيرة عدد من الهجمات وأعمال عنف ضد اليهود في المغرب، تحديداً في مدينة الدار البيضاء سنة 1932م وفي مدينة الرباط سنتي 1933م و1937م، إضافة إلى مدينة مكنِس سنة 1939م [48]. أما في تونس فقد تم توقيع اتفاق تحالف بين القوميّين التونسيّين واللجنة العربية الفلسطينية العُليا، وفور توقيع الاتفاق مباشرة ارتُكِبَت مجزرة صفاقس ضد اليهود سنة 1932م [49].
وقدأصدرت لجنة علماء المسلمين وفي الجزائر قراراً يقضي بمقاطعة اليهود سنة 1936م، استجابة لتعليمات مفتي القدس الحاج أمين الحسيني [50]، ومن الجدير بالذكر أن هذه الأحداث جميعها قد وقعت قبل قيام دولة إسرائيل.

أما في اليمن فقد صدر عدد من من التقارير التي أعدها البريطانيون والتي تشير إلى ازدياد كبير في كمية الدعاية المضللة والأكاذيب التي كان يتم نشرها وتلفيقها ضد يهود اليمن، كما كان يحاول اليهود من كل أنحاء اليمن اللجوء إلى عدن التي كانت مقاطعة بريطانية حينها للبحث عن الحماية مما كانوا يتعرضون له من هجمات التي كان من ضمنها اعتداءات سنة 1939م والتي قام بها حشد من العرب المسلمين اليمنيّين عندما عُرِضَت عليهم صور مُلفّقة لأطفال عرب قام "اليهود والبريطانيون" بتعليقهم وشنقهم على أعمدة التلغراف. كذلك قامت إحدى الصحف اليمنية بنشر وتلفيق تقرير كاذب مفاده قيام اليهود بقتل الآلاف من العرب، وبأن اليهود قاموا بإلقاء المتفجرات على الأماكن الدينية المقدسة للمسلمين في القدس. [51]

الحكومة العراقية الموالية للنازيّين

لقد كان مسلسلُ التحريض ضد اليهود متواصلاً في شتى بِقاع العالم العربي، لكن الأسوأ كان يحدثُ في العراق، حيث كان لهذا التحريض عواقب كارثيّة ودمويّة كارثية على اليهود، خاصة وأن الفلسطينيّين والسوريّين واللبنانيّين ممن تم نفيهم إلى العراق برفقة الحاج أمين الحسيني قد ساهموا بشكل كبير في إشعال نار الحقد والتحريض ضد اليهود خلال ثلاثينيات القرن المنصرم، وذلك من خلال نشرهم للأخبار الكاذبة والملفقة ضد اليهود.

وفي شهر نيسان من سنة 1939م تم افتتاح أول محطة راديو ألمانية مُتعددة اللغات، ومن بين تلك اللغات كانت اللغة العربية، حيث كانت تبث من بلدة زيسِن الواقعة جنوبي برلين. ونتيجة لاستخدام الترددات القصيرة وأجهزة مذياع حديثة في ذلك الوقت فقد وصل بثّ هذه القناة إلى جميع أنحاء منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، حيث كان يتم توجيه المحتوى الناطق باللغة العربية على يد يونس بحري، كما تم إنشاء قناة راديو أخرى سنة 1934م والتي كانت تبثّ من منطقة باري في ايطاليا التي كانت قابعة تحت الحكم الفاشيّ حينها، ويعتقد أنه كان لهذه القناة تأثير كبير على الرأي العام العربي حتى قبل أن يتم نفي الحاج أمين الحسيني إلى ألمانيا. وبشكل عام كان العرب يتجمعون في المقاهي للاستماع إلى قناة برلين، بينما كان اليهود يفضّلون الاستماع إلى قناة بي بي سي البريطانية.

وقد تم نفي الحاج أمين الحسيني إلى العراق من قبل الانتداب البريطاني، حيث لعب دوراً هاماً هناك في التحضير للانقلاب على الحكومة العراقية التي كانت موالية للبريطانيين، حيث وقع هذا الانقلاب سنة 1939م بقيادة رشيد علي الكيلاني الذي كان موالياً للنازيّين. لكن حكومة رشيد علي الكيلاني لم تدُم سوى شهرين فقط، فيما كانت حكومته هي الحكومة العربية الوحيدة التي وقّعت معاهدة تحالف رسمي مع النازيين ضد البريطانيين.

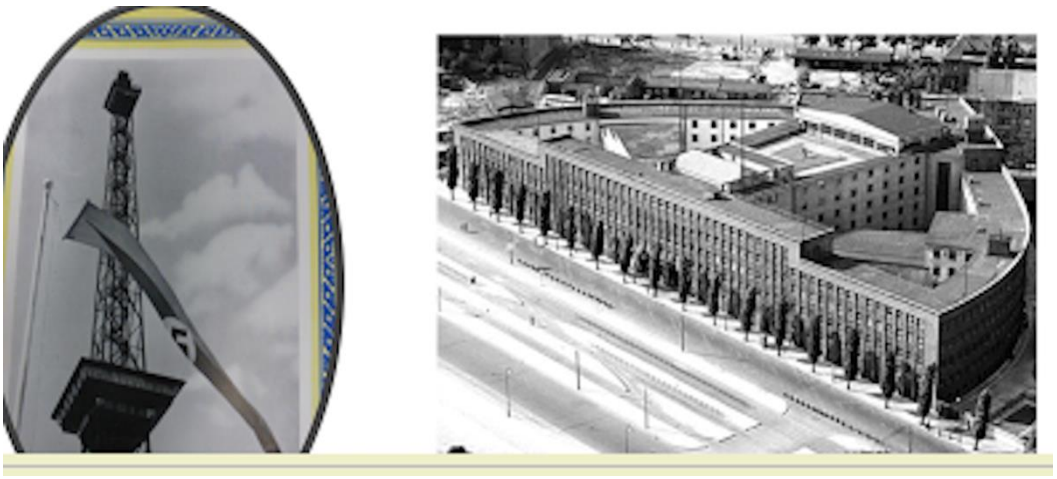

صورة تظهر أبراج الراديو في مدينة زيسِن الألمانية والتي كانت تستخدم لتقوية بث القناة من قبل النازيين.

وقد حشد البريطانيون مزيداً من قواتهم العسكرية في العراق خوفاً من أن يقع النفط العراقي في أيدي النازيين الألمان، ومن ثم قام البريطانيون بنفي الحاج أمين الحسيني من بغداد، لكن وقبل أن يتم نفيه ظلّ يحاول بشتى الطرق لإكمال مسيرته في التحريض على اليهود، فتكللت جهوده هو وعدد آخر من العرب بذبحة الفرهود التي ارتُكبت ضد يهود العراق سنة 1941م. ومن الجدير بالذكر هنا أن المذيع يونس بحري قام عبر الإذاعة النازية من برلين ببث محتوى تحريضي يدعو لقتل اليهود، وكان هذا قبل حدوث مجزرة الفرهود بأربعة أيام فقط. [53]

وفي حزيران سنة 1941م أصدرَ يونس السبعاوي "حاكم" بغداد (كما كان يلقب نفسه) والذي كان موالياً للنازيين وقبل أن يتم نفيه هو الآخر، كان قد أصدر أمراً لليهود بأن يلتزموا منازلهم ويُقفلوا أبواب بيوتهم على أنفسهم وأن يجلبوا طعاماً يكفيهم لعدة أيام، حيث كانت غايته من ذلك مثلما يعتقد البعض بأن يتم ترحيلهم إلى معسكرات اعتقال في الصحراء. في الوقت نفسه كان الشبان الذين ينتمون للحركة الشباشبية الموالية للنازيين والتي عرفت باسم "الفتوّة" يقومون برشق البيوت اليهودية بالطلاء الأحمر على شكل كفّ اليد.

بالتالي فإن هذه الأحداث جميعها قد خلقت قناعة راسخة لدى الكثيرين بأن أحداث الفرهود كانت حدثاً مرتبطاً بالمحرقة اليهودية، وبأنها كانت نتيجة طبيعية ومتوقعة لكمية التحريض النازيّ الألماني حينها. وفي سنة 2015م أصدَرت الحكومة الإسرائيلية قراراً يمنحُ الحق للعراقيّين الناجين من مذبحة الفرهود بالحصول على راتب دائم بالإضافة إلى تسهيلات وامتيازات أخرى تتعلّق بالخدمات الصحية التي يحتاجونها، وهي خطوة اعتبرها وزير المالية الإسرائيلي موشيه كحلون بأنها تصحيح لظلم تاريخي كبير قد وقع عليهم. [55]

إن المتتبع لتاريخ الشرق الأوسط سيلاحظ وقوع عدد آخر من مجازر الإبادة الجماعية التي ارتكبت بحق فئات محددة، فعلى سبيل المثال قام الأتراك بارتكاب إبادة جماعية بحق مليون إنسان من الأرمن والتراقيين سنة 1915م، حيث ارتكب الأتراك هذه المجازر بمساعدة عدد من الضباط الألمان ممن شاركوا في التخطيط وفي ارتكاب المذابح الجماعية التي قام بها هتلر بحق اليهود. في الوقت نفسه كان الحاج أمين الحسيني واحداً من ضباط الجيش التركي، ويعتقدُ بأن ما حدث لليهود من تهجير في مدينة يافا في شهر نيسان سنة 1917م خلال الحرب العالمية الأولى كان بترتيب من الحاج أمين الحسيني والحاكم التركيّ لمدينة يافا، فيما يعتقدُ أن هذا التهجير كان مقدمة لقتلهم جميعاً. واستناداً إلى أحد التقارير المنشورة في صحيفة هآرتس الإسرائيلية فقد هدّد جمال باشا يهود فلسطين قائلاً لهم بأن مصيرهم سيكون الإبادة الجماعية، تماماً مثلما كان مصير بالأرمن. [56]

وربما يحاول أحدنا تخمين مصير يهود العراق تحت ظل قيادة عراقية موالية للنازيين، وكيف سيكون مصيرهم لو لم يتم إرغام تلك القيادات الموالية للنازيّين على مغادرة العراق سنة 1941م. وعلى الرغم من أن بعض الجيران العرب والمسلمين قد قاموا بإنقاذ اليهود من تلك المذابح، إلا أن البعض الآخر قد ساهم في ارتكابها، تماماً مثلما حدث في مجزرة الفرهود في العراق والتي حصدت أرواح أكثر من مئة وتسعة وسبعين يهودياً عراقياً وأدّت إلى جرح الآلاف إضافة إلى ما حدث من اغتصاب ونهب وسرقة أكثر من تسعمئة من البيوت والمحال التجارية اليهودية. وبالنسبة للجرحى فقد كان يتم تسميمهم في المستشفيات أو كانوا يُتركون دون علاج لينزفوا حتى الموت. بطبيعة الحال حتى هذه اللحظة لا زال عدد الضحايا غير معروف نظراً لوجود عدد كبير الضحايا مجهولي الهوية، لكن أحد المؤرخين يعتقدُ بان عدد الضحايا اليهود في مجزرة الفرهود قد وصل إلى قرابة ستمائة تقريباً [57]، باعتبار أنه كان يتم دفن الجثث بسرعة في مقابر جماعية.

خُطط المُفتي لتنفيذ الإبادة الجماعية بحقّ اليهود

إن محاولات العرب للتقليل من حجم تعاون المُفتي الحاج أمين الحسيني مع النازيّين الألمان قد باءت بالفشل لسبب بسيط، وهو أن تعاونهُ معهم كان موثّقاً ولا يُمكن لأحد أن يُنكره أو يدّعي عدم حدوثه [58]، حيث كان يسعى جاهداً للحصول على تصريح من الألمان لكي يقوم بإبادة اليهود في فلسطين بنفس الطريقة التي كان النازيّون يُبيدون فيها اليهود في ألمانيا وفي باقي دول المحور [59]، وعندما أصبح الحاج أمين الحسيني بمثابة "الفوهرر" في العالم العربي والإسلامي، كان لديه خطط لتنفيذ مجازر إبادة جماعية بحق اليهود عبر إقامة معسكر قرب مدينة نابلس يشبه معسكرات الموت النازية [60].

وقد التقى الحاج أمين الحسيني بهتلر بعد أن لجأ إلى ألمانيا عندما تمّ نفيه من العراق برفقة ستين شخصية عربية أخرى، كما قام أيضاً بزيارة معسكر اورانينبرغ الذي كان يتعرض فيه اليهود للقتل والإبادة. في الوقت نفسه توثقت صلته بأيخمان وهِملر، وأصبح أكثر فعالية في تأدية دوره التحريضيّ عبره قناة الراديو التي أسّسها برفقة الألمان لتبث سمومها المعادية للسامية في الشرق الأوسط وشمال افريقيا باللغة العربية عبر التحريض وبث الأكاذيب والمعلومات المزيفة والمضلّلة.

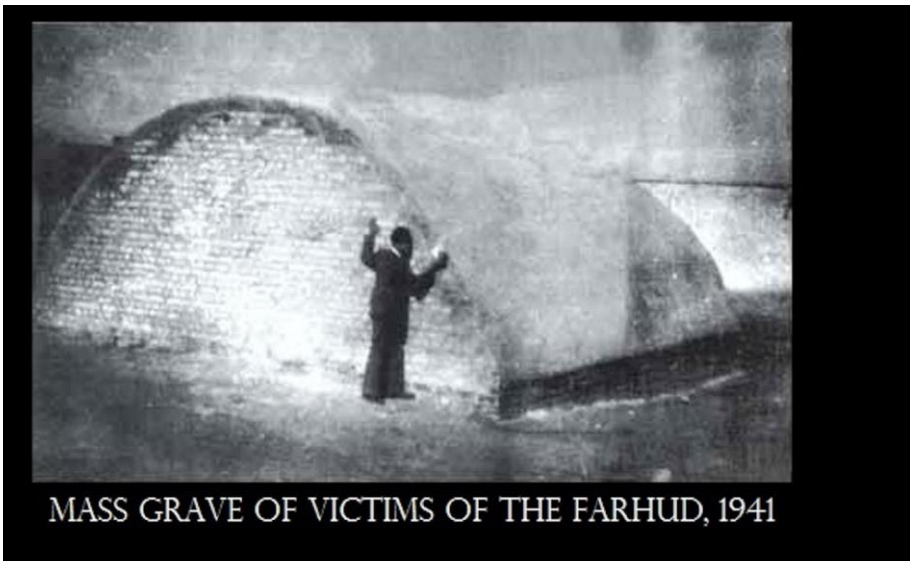

صورة للمقبرة الجماعية في المقبرة اليهودية في بغداد والتي دُفن بها اليهود عقِب مذبحة الفرهود. هُدِمت هذه المقبرة نهاية خمسينيات القرن المُنصرم.

صورة للمفتي القدس الحاج أمين الحسيني أثناء استعراض عسكريّ للجيش الألماني النازيّ

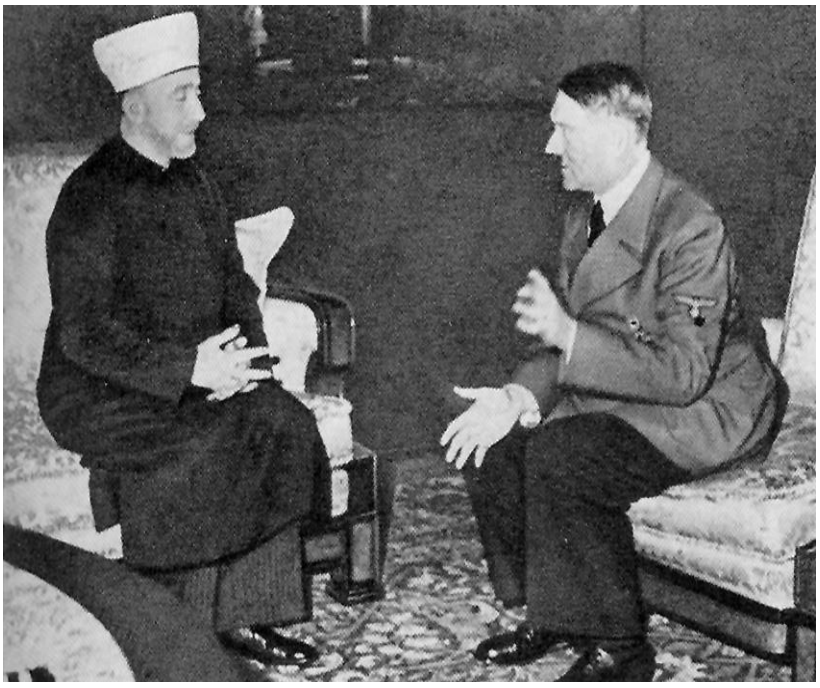

صورة تجمع الحاج أمين الحسيني مع هتلر التُقطَت بتاريخ الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة1941 م

لقد كان الحاج أمين الحسيني يُحرض على قتل اليهود بكل صراحة قائلاً: "اقتلوا اليهود أينما وجدتموهم، فإن قتلهم يُرضي الله والدين والتاريخ"، كما كان يحاول "إغراء" المسلمين ودفعهم لقتل اليهود قائلاً بان من يقتلُ يهودياً فقد حجز مكانه في الجنة [61]، بالتالي صوّر الحاج أمين الحسيني اليهود على أنهم أشدّ أعداء الإسلام قائلاً بأن "اليهودي منذ زمن النبيّ محمد لم يكن بأي شكل من الأشكال صديقاً للمُسلم، بل كان عدوّه اللّدود، وبأن الإقدام على قتلِ اليهودي هو أمر يُرضي الله". [62]

وبالنسبة للستين شخصاً الذين تم نفيهم إلى برلين بصحبة الحاج أمين الحيني فقد كان من ضمنهم رشيد علي الكيلاني، وفوزي القاوقجي، وعبد القادر الحسيني، وأبو ابراهيم الكبير، والشيخ حسن أبو السعود، وحسن سلامة، وواصف كمال، وعارف عبد الرازق، وعبد اللطيف الخالدي وراسم الخالدي [63]، وقد كان يحاول هؤلاء بثّ سُمومهم من خلال بثّ مشاعر الخوف والرهبة من اليهود وتصويرهم على أنهم يحاولون الاستيلاء والسيطرة على منطقة شمال افريقيا وانتزاعها من أيدي العرب، فيكانوا يحاولون ايصال رسالة للعرب مفادها بأن "فلسطين ليست آخر طموحات لليهود، لان هدفهم السيطرة على جميع الدول العربية، خاصة لبنان وسوريا والعراق والمملكة العربية السعودية بحجة أنها كانت أرض قبيلة خيبر اليهودية في القرن السابع للميلاد. واليهود لا يشكلون تهديداً للعرب في فلسطين فقط، بل في جميع الدول العربية، لأنها المكان الذي تحاول قوى التحالف خلق وطن قومي فيه لملايين اليهود الذين تم طردهم من أوروبا، بالتالي يجب على العرب أن يُقاوموا هذا المخطّط بكل ما أوتوا من قوّة". [64]

وفي الوقت الذي تمكّنت فيه قوات الحلفاء من الانتصار على النازية الألمانية، كان قد قُتِل قرابة أربعة آلاف يهودي من يهود الدول العربية نتيجة هجمات العنف والاعتداءات المدبّرة التي تعرض لها اليهود خلال الحرب العالمية الثانية، وهو عدد لا يكاد يُذكر بالنسبة لأعداد اليهود الذي قضوا في مذابح الإبادة الجماعية على يد النازيين. وقد لقي غالبية اليهود الذين قتلوا في الدول العربية حتفهم في هجمات التفجير التي كانت تستهدفهُم، كما لقي مئات منهم حتفهُم في معسكرات العمل الإجباري (السخرة) في البلدان العربية، أما في تونس لوحدها فقد تعرض قرابة أربعين يهودي تونسي للقتل لأنهم كانوا ينتمون لقوى المقاومة، قتم ترحيلهم عبر الطائرات إلى معسكرات الموت النازية في شهر نيسان سنة 1943م [65]. أما يهود ليبيا ممن كانوا يحملون الجنسية البريطانية فقد تم ترحيلهم إلى إيطاليا، تحديداً إلى معسكر الموت المعروف بإسمبِرغِن بِلسِن، فيما تم استبدال بعضهم ببعض أسرى الحرب الألمانيين. لكن وبشكل عام يعتقد بأن غالبيتهم العظمى قد تمكنوا من النجاة من الموت وظلوا على قيد الحياة، لكن مع الأسف فإن الإرث الذي تركه النازيّون في بلدان العالم العربيّ قد ترك أثراً كبيراً على حياة يهود الدول العربية حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وسقوط النازيين.

صورة تظهر مجموعة من يهود تونس أثناء إجبارهم على الذهاب لمعسكرات العمل الإجبارية (السخرة) النازية في شهر كانون الأول سنة 1942.

(حقوق الصورة محفوظة لأرشيف بن تزفي).

صورة تجمع عدداً من يهود ليبيا أثناء عودتهم إلى طرابلس بعد أن تم ترحيلهم إلى معسكر بِرغِنبِلزن
(حقوق الصورة محفوظة لمتحف التراث اليهودي، بِن يهودا).

بالتالي فقد كان الحاج أمين الحسيني مسؤولاً بشكل غير مباشر عن موت آلاف اليهود الأشكناز ممن حرمهُم من العودة إلى أرض فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية، كذلك فإنه مسؤول عن الأعمال التي ارتكبتها قوات ال إس إس النازية في كل من البوسنة وألبانيا، فهو من قام بتجنيد مسلمي تلك البلدان للانخراط في الجيش النازيّ الذي امتدت جرائمه إلى يوغسلافيا أيضاً. لكن وعلى الرغم من تورّطه في جميع هذه الأعمال، إلا أن قوات الحلفاء قد فشلت في تقديمه للعدالة ومحاكمته باعتباره مجرم حرب، لكن تم توجيه تهم له في يوغسلافيا وتمت إدانته هناك بارتكاب جرائم ضد الإنسانية من خلال تجنيده للمسلمين اليوغسلاف لكي ينضموا إلى الجيش النازيّ الألماني حين قام بتأسيس قوات هانشخاروسكاندبرغ، هذه القوات التي ارتكبت جرائم عديدة كان من ضمنها ترحيل اليهود البلقان من كوسوفو ومقدونيا وتراقيا.

بقاء الفِكر النازيّ بالرغم من سقوط النازيّة

بعد مضيّ ستة أشهر على عودة يهود ليبيا من معسكرات الاعتقال النازية تعرَض يهود مدينة طرابلس والقرى المجاورة لها لمجزرة استمرت مدة ثلاثة أيام في شهر تشرين الثاني من سنة 1945م، حيث حصدت هذه المجزرة أرواح أكثر من مئة وثلاثين يهودياً ليبياً وأدت إلى نزوح قرابة عشرة بالمئة من سكان طرابلس عن منازلهم وهروبهم من المدينة. بالتالي فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يُمكن تفسيرُ مثل هذه الجرائم المعادية لليهود على الرغم من أنه لم يمضِ سوى فترة زمنية قصيرة على تعرض اليهود لجرائم الإبادة الجماعية في أوروبا، وعلى الرغم من معرفة العرب بما حلّ باليهود في أوروبا؟

في الحقيقة فإن المجزرة التي تعرض لها يهود طرابلس سنة 1945م والتي تحدّثنا عنها للتوّ كانت غيضاً من فيضِ ما حلّ باليهود في أماكن أخرى من العالم العربي، مثل مصر على سبيل المثال والتي تعرَض فيها خمسة يهود مصريين للقتل، لكن الملفت للنظر فيما شهدته مصر من احداث عنف هو أن المصريين مرتكبي هذه الهجمات، وبتحريض من جماعة الإخوان المسلمين بالطبع، فهم لم يكونوا يستهدفون اليهود فقط، بل كانوا يستهدفون أيضاً كل ما له علاقة بالأقباط واليونان الارثوذوكس والكاثوليك في مصر، فوقعَت أحداث عنف وصفها البعضُ بأنها أسوأ موجة عنف شهدتها مصر في تاريخها المعاصر [66].

كذلك فإن تحريض جماعة الإخوان المسلمين ليس السبب الوحيد خلف هذه الموجة من أحداث العنف، حيث لا يمكننا استثناء تأثير مقدار التحريض والكراهية الذي كان يتم ثهُ عبر محطة الراديو النازية والتي كانت تنشر الأكاذيب والمعلومات المضللة عبر أثيرها، بالتالي كان لها أثر كبير خاصة على جموع الجهلة من عامة العرب والمسلمين. كما شهدت تلك الفترة الزمنية توزيع ملايين المنشورات التحريضية والمعادية للسامية في كافة بلدان العالم العربيّ.

في الوقت نفسه يلقي البعضُ باللوم على حالة الصراع بين الحركة الصهيونية وبين القوميين العرب باعتبارها سبباً لهذه الأحداث، ورداً على مثل هذه الادعاءات يمكننا استحضار المثال الذي ذكرناه للتوّ عن مذبحة طرابلس سنة 1945م، فحينها لم يكن يردّد المسلمون الذين قاموا بالهجوم على اليهود أية شعارات تتعلق بالصهيونية أو بغيرها، وفي تقرير لأحد الوكالات اليهودية فإنه يتضّح بأن تلك الجموع من المُهاجمين لم يكونوا يعرفون أصلاً معنى الحركة الصهيونية![67]. كذلك يضيفُ الجنرال دانكانكومينغوالذي كان مسؤول الشؤون المدنية في الحكومة البريطانية بأنه خلال واحد من تلك الهجمات التي تعرض لها اليهود، كان هنالك حشد غاضبٌ من العرب المسلمين ممن فرّغوا غضبهم على اليهود الذين كانوا ضعفاء عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم، في الوقت نفسه كان سبب غضب ذلك الحشد هو اعتقادهم برغبة قوى الاستعمار في إعادة تسليم البلاد لوصاية الدول الاستعمارية. [68]

لكن في الوقت نفسه يؤكدُ الباحث والأكاديمي الألماني ماثيوسكنتزِلعلى وجود صلة وثيقة بين حرب النازيين ضد اليهود وحرب سنة 1948م التي شنّها العرب ضد إسرائيل. لكن أكثر الامور ترويعاً - وهو ما سنراه في الفصول القادمة بالتفصيل - هو قيام الدول العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بسنّ وتطبيق قوانين تشبه إلى حد كبير قوانين نورمبرغ والتي قامت الدول العرب بموجبها بسحب جنسيات مواطنيها العرب ومصادرة املاكهم واموالهم، ومنذ ذلك الحين فقد وصلت معاداة السامية في العالمين العربيّ والإسلامي حدوداً لا يُمكن لأحد تصوّرها [70]. ولنكون واضحين أكثر، فإن بذور معاداة السامية التي نراها اليوم في العالمين العربي والإسلامي هي ثمار لبذور الكراهية التي زُرِعَت في ثلاثينيات وأربعينيات القرن المُنصرم، ومثلما رأينا في الأمثلة السابقة فإن يهود الدول العربية بشكل عام، واليهود الذين سكنوا أرض فلسطين الانتدابية بشكل خاص، كانوا أوّل الضحايا لهذه الثمار السامة.

شبح التطرّف الذي لَم يختفِ أبداً

لا بد أن يتم الأخذ بعين الاعتبار - وبأثر رجعي – مسألة دعم النازيين للعرب، في الوقت نفسه فإن فشل قوات الحلفاء في إدانة مفتي القدس الحاج أمين الحسيني باعتباره مُداناً بجرائم حرب ضد الانسانية هو بمثابة تجسيد لعدم رغبة الحلفاء في "الإساءة" العرب، خاصة وأن الحاج أمين الحسيني يعتبر "بطلاً" من وجهة نظرة آلاف العرب والمسلمين.

كذلك فإنه من المستحيل أن يقبلَ العربُ بأي نوع من التعليم الذي يُعارضُ الفكر النازي ويستأصله من جذوره، وعلى الرغم من أن جمال عبد الناصر قام بقمع جماعة الإخوان المسلمين إلا أن الحركة عاوَدت الظهور مجدداً خلال سبعينيات القرن المُنصرم، كما أن الفِكر الذي زرعته الجماعة- والذي يبدو في كتابات وأفكار أحد مُنظّري الحركة سيّد قطب - قد ساهم بشكل كبير في التحريض ضد اليهود وارتكاب المجازر الدموية بحقّهم، وهي الأفكار والأيديولوجيات نفسها التي تطغى على تفكير الإسلاميين حتى يومنا هذا.

والمفارقة في الموضوع أن عددا كبير من يهود الدول العربية ممن رحلوا إلى فرنسا بعد ان طرهم من بلدانهم لا زالوا يتعرّضون للاعتداءات المعادية للسامية من قبل الإسلاميين ذاتهم الذين زرعوا هذا الفكر المتطرف في بلدان العالم العربي [71]. لقد انتشرت أفكار حسن البنّا من مصر إلى فلسطين الانتدابية وسوريا والسودان وشمال افريقيا، كما انتشرت بعمق في إيران ولكن بنسخة شيعيّة على يد آية الله الخُميني وعلي شريعتي، ومن ثم تم تصدير هذه الأفكار من إيران لتصل إلى شيعة لبنان ومن ثم إلى الهند وباكستان على يد أبو الأعلى المودودي.

لاحقاً أصبح فِكر جماعة الإخوان المسلميةهو نفسخ فِكر حركة حماس في فلسطين[72]، بالتالي كان الفِكر الإخواني بمثابة البذرة التي أثمرَت عدداً من الحركات الإسلامية مثل حماس وجبهة النصر وحركة الجهاد الإسلامي وتنظيم القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية المعروف باسم داعِش، أضِف إلى ذلك تأثير الفكر الإخواني على عقيدة وفلسفة النظام الإيراني القائمة على إنكار المحرقة اليهودية - الهولوكوست- إضافة إلى تهديداتها المستمرة بتدمير دولة إسرائيل وإزالتها من الوجود.

في الواقع فإن شبحَ التطرّف المُعادي لليهود والمستوحى من الفكر النازيّ لم يختفِ أبداً من بلدان العالم العربيّ، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية منحَت عدة دول عربية اللجوء لعدد كبير من قادة ومُجرمي الحزب النازيّ الألماني، فأصبحوا لاحقاً مُستشارين عسكريّين لقادة تلك الدول، كما بثّوا فيها سموم حِقدِهم وكراهيتهم لليهود.

بالتالي بدأت وتيرة معاداة السامية بالازدياد تدريجياً في بلدان العالم العربي، وقد عبّر أدولف إيخمان الذي - كان يقف وراء خطة الحلّ النهائي لليهود - عن أمله بأن يستمرّ أصدقاؤهُ العرب في الحرب التي بدأها النازيون ضدّ اليهود والذين كان يصفهم إيخمان بأنهم "مجرمو حرب" وبأنهم دوماً ما كانوا "ظلَمَة قاتلين"!، ويقول أدولف إيخمان في مذكراته: "لم أتمَكن من إنهاء مهمّتي بالقضاء على اليهود، لكنّي أتمنى أن يُكمل المُسلمون هذه المهمّة".[73]

ومثلما ذكرنا سابقاً فإن حركة الإخوان المسلمين وأذرعها المحليّة مثل حركة حماس وتنظيم القاعدة وتنظيم الدولة الاسلامية التي يتزعمها ابو بكر البغدادي - الذي كان عضواً سابقاً في جماعة الإخوان المسلمين - جميعها حركات تحملُ فكراً نشأ وترعرع في فترة الحكم النازيّ. وفي شهر نيسان من سنة 2007م أصدرت حركة حماس وثيقة تحاول من خلالها إظهار "وجهها المُتحضّر"، لكن كانت تلك الوثيقة في حقيقتها تعبر عن أهداف حركة حماس المعادية للسامية والتي تطمح لإبادة اليهود وإزالة إسرائيل من الوجود، محاولة التلاعب بالكلمات وإخفاء حقيقة حربها الدينية على اليهود لتتظاهر بأنها حرب سياسية مسلحة مع إسرائيل.

وتقولُ أحد النظريات بأن النازيين وايديولوجيتهم المعادية للساميّة كان لها تأثير كبير على عقلية روح الله الخميني قائد الثورة الإسلاميّة في إيران، كما أن محطة راديو زيسِن الألمانية لم يكُن لها تأثير في القاهرة بحسب، بل كان لها تأثير كبير أيضاً في طهران. يقولُ عامر طاهري كاتب السيرة الذاتية للخميني في كتابه: "وفي شتاء 1938م عاد الخُميني - الذي كان يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاماً حينها - إلى مدينة قوم الإيرانية قادماً من العراق مُصطحباً معه جهاز مذياع بريطانيّ الصُنع من ماركة پاي. وقد كان يتجمّعُ الملالي كلّ مساء فوق سطح بيت الخميني ليستمعوا إلى راديو برلين وقناة البي بي سي".

وقد انتشرت الأخبار المضللة والملعومات الزائفة التي أراد الألمان النازيّون ترويجها لدرجة لم يصدّق المستشار الألماني النازيّ في طهران أن هذه البروباغندا النازية ستنتشر في إيران بهذه السهولة. وتقول أحدُ التقارير الصادرة من برلين في شهر شباط سنة 1941م أن الأئمة ورجال الدين الشيعة كانوا يجوبون أنحاء إيران قائلين للناس بان "الله قد بعثَ للعالم الإمام الثاني عشرَ وهو أدولف هِتلَر".[74]

وقد أطلقَت قيادة جماعة الإخوان المسلمين لقبَ "نصير الإسلام" على الخميني، وعندما نُفيَ الخميني إلى فرنسا قام فرانسوا جينو- الذي كان أحد أبرز قادة الحركات السريّة النازيّة بعد انتهاء الحرب - بتمويل الخميني حتى يدعم جهوده التي كانت تهدف للوصول إلى السلطة.[75]

بالتالي فإن المتتبع لتاريخ حركة الإخوان المسلمين وإيران سيجدُ تاريخاً طويلاً من العلاقات الإيجابية بين الجانبين، فعلى سبيل المثال فإن حركة "فدائيو الإسلام" التي تعتبر أول حركة دينية إرهابية مسلحة نشأت في إيران قد تأثرت كثيراً بأفكار أحد أبرز مُفكري حركة الإخوان المسلمين سيّد قطب [76]. وعلى الرغم من حالة الدمار التي خلّفتها الحرب الأهلية السوريّة إلا أن حركة حماس المعادية للسامية لا زالت تتمتع بعلاقات طيبة ومتينة مع النظام الإيراني.[77]

بالتالي فإن الحكومة الدينية الإيرانية مُستمرة في الحرب الدينية ضد اليهود جميعهم، باستثناء الأقلية اليهوديّة الإيرانية والتي تعتبر خاضعة ومذعنة لما يُمليه عليها النظام الإيراني الذي يتحدّثُ مراراً وتكراراً عن مساعيه لإبادة اليهود وإزالة إسرائيل من الوجود [78]. وفي هذا الصدّد يوضّحُ ماثياسكُنتزِلأن النظام الإيراني يقوم على ثلاثة أركان عندما يتعلّق الأمر باليهود: إنكار المحرقة اليهودية، وشيطنة اليهود والسعي لإزالة إسرائيل ومسحها من خريطة العالم. بالنسبة لإنكار المحرقة اليهوديّ فإن هذا أمر عاديّ في دول العالم العربي، لكن في إيران فإن المستوى الرسمي لا يكتفي بإنكار المحرقة بل يطلبُ من مواطنيه ترديد ذلك مراراً وتكراراً.[79]

وتُحيي الدولُ الغربيّة ذكرى الهولوكوست بتاريخ السابع والعشرين من شهر كانون الثاني من كل سنة، أما إيران فتُصِرّ في كل سنة على أن المحرقة اليهودية لم تحدُث، مؤكدة نواياها وسعيها الدؤوب لإبادة اليهود في إسرائيل[80]. لكننا نقفُ حائرين أمام عدم قدرة الغربِ على استيعاب حقيقة ما يجري في الوقت الحالي، وهو أن شياطين السلطويّة والدكتاتوريّات المُعادية للساميّة التي ظهرَت في النصف الأوّل من القرن العشرين لا زالت موجودة بيننا حتى يومِنا هذا.

صورة تُظهر الخراب الذي حلّ بالمقبرة اليهودية بعد مذبحة طرابلس

قائمة الملاحظات والحواشي

1. Robert Kaplan, 'The legacy of Islamic antisemitism' *American Thinker*, 18 May 2008, http://www.americanthinker.com/articles/2008/05/the_legacy_of_islamic_antisemi.htm. (Last accessed 26 April 2017).

2. Bernard Lewis, *Semites and Anti-Semites* (New York: Norton, 1986), p.132.

3. Weinstock, *Cha'aluChelomYerushalayim*(Demandez des nouvelles de Jérusalem) *Rechoummoth*1922, (Berlin, 1716), pp.461–93.

4. Bernard Lewis, *Jews of Islam* (Princeton University Press, 1984), p.55.

5. 'Islamism/Nazism: Küntzel and Bostom cross swords', *Point of No Return*, 1 January 2008, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2008/01/islamism-and-nazism-kuntzel-andbostom.html. (Last accessed 26 April 2017).

6. Sahih al-Bukhari, Sahi Muslim, cited in *Quoting Islam*, http://quotingislam.blogspot.co.uk/2011/06/muhammad-says-that-one-day-very-trees.html. (Last accessed 26 April 2017).

7. 'Islamism/ Nazism - Küntzel and Bostom cross swords', *Point of No Return* blog, 1 January 2008, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2008/01/islamism-and-nazism-kuntzel-andbostom.html. (Last accessed 26 April 2017).

8. Shmuel Moreh, 'Introduction' in Moreh and Yehuda (eds) *Al-Farhud*(Hebrew University Magnes Press, 2010), p.2.

9. Gilbert Achcar, *The Arabs and the Holocaust* (Saqi, 2011), p.112.

10**.** Daniel Pipes, 'Islam and Islamism', *National Interest*, Spring 2000, http://www.danielpipes.org/366/islam-and-islamism-faith-and-ideology (Last accessed 26 April 2017).

11. M. Küntzel, 'Hitler's legacy of Islamic anti-Semitism in the Middle East', *Articles byMatthiasKuntzel*, 30 November 2006,http://www.matthiaskuentzel.de/contents/hitlerslegacy-islamic-antisemitism-in-the-middle-east. (Last accessed 26 April 2017).

12. Jeffrey Herf interviewed in *Masri al-Yom* about his book 'Nazi Propaganda in the Arab World', *Point of No Return*, 14 February 2010, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2010/02/nazi-propaganda-in-arab-world-by.html. (Last accessed 26 April 2017).

13. Matthias Küntzel, *Jihad and Jew-hatred* (Telos Press Publishing, 2007), p.19.

14. -نفس المصدرص.23.

15. See Moreh and Yehuda (eds), *Al-Farhud*, p.2.

16. Edy Cohen, 'The Mufti, Nazi propaganda and the *Farhud*', London presentation, 7 August 2016.

17. See Küntzel, *Jihad and Jew-hatred*, p.7.

18. Gudrun Krämer, *The Jews in Egypt 1914–1952* (I B Tauris, 1969), p.146.

19. Paul Berman, *The Flight of the intellectuals* (Melville House, 2011), p.187.

20. See Küntzel, *Jihad and Jew-hatred*, p.99.

21. One encounters this theme widely. Just two examples can be found here: Susan Abulhawa, 'Why are Palestinians paying for Germany's sins?' *The Electronic Intifada*, 14 April 2012, and Shlomo Shamir, 'Iranian president: if the Holocaust happened, why must Palestinians pay?' *Haaretz*, 25 September 2007.

22. Satloff, *Among the Righteous* (Public Affairs New York, 2006), p.160.

23. The Cairo-born film-maker Elliot Malki remarks: 'Had Rommel won the war, as we said back in Egypt, *khasve'khalila*(God forbid), the Jews of Egypt probably would have ended up in Auschwitz.' (Speech at UK premiere of *Starting Over Again*, 11 May 2017.)

24. Irene Lancaster, review of *Jihad and Jew-hatred* by Dr Matthias Küntzel, 1 November 2007, *Point of No Return*, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2007/11/kuentzelexposes-links-between-fascism.html. (Last accessed 26 April 2017).

25. Jeffrey Herf, *Nazi propaganda in the Arab world* (US: Yale, 2009).

26. Edith Shaked, *The Nizkor Project*, 2009–12, http://www.nizkor.org/hweb/people/s/shaked-edith/re-examining-wannsee.html. (Last accessed 26 April 2017).

27. Daniel Lee, 'New Generation Thinkers' series, BBC Radio 3, 20 November 2016, http://www.bbc.co.uk/programmes/b0831fpk. (Last accessed 26 April 2017).

28. *Ginette* (2017), film by Nathan Minsberg featuring wartime memories of his Tunis-born grandmother.

29. *Tel quel*, quoted in 'L' histoiresecrète des juifsen camps de concentration au Maroc', *Dafina*, 13 May 2014, http://dafina.net/gazette/article/l%C2%B4histoire-secr%C3%A8tedes-juifs-en-camps-de-concentration-au-maroc. (Last accessed 26 April 2017).

30. See Satloff, *Among the Righteous*, p.60.

31. Laskier, *The Jews of Egypt*, p.77.

32. Stillman, *Jews of Arab Lands in Modern Times*, Vol. II, p.134.

33. *Memmi*, essay: 'Who is an Arab Jew?' February 1975, http://www.sullivan-county.com/x/aj1.htm. (Last accessed 26 April 2017).

34. G. Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.598.

35. Mallmann &Cüppers, *Nazi Palestine* (English translation: Enigma Books, 2010), p.39.

36. نفس المصدر, p.31. So popular in Iraq was the Führer that my mother's Arab Muslim gardener,who lived at the bottom of the garden with his family, named his newborn son Hitler.My mother was mortified.

37. Karin McQuillan, ‘Hitler’s Long Shadow over Israel’, *American Thinker*, 4 May 2012.

38. See Küntzel, *Jihad and Jew-hatred*, p. 32.

39. نفس المصدر, ص.57.

40. Edwin Black, ‘In truth, the *Farhud*was Iraq’s Shoah’, *The Jewish Chronicle*, 28 May 2015.

41. According to records, in 1939 the Grand Mufti had his representative thank the German government for ‘the support provided thus far’. (Klaus-Michael Mallmann and Martin Cüppers, *Nazi Palestine* (Enigma Books, 2005), p.49.

42. Paul Berman, *The Flight of the Intellectuals* (Mellville House, 2011), p.102.

43. J. Herf, ‘Haj Amin al-Husseini, the Nazis and the Holocaust: the origins, nature and aftereffectsof collaboration’, *Jerusalem Center for Public Affairs*, 5 January 2016, http://jcpa.org/article/haj-amin-al-husseini-the-nazis-and-the-holocaust-the-originsnature-and-aftereffects-of-collaboration/.(Last accessed 26 April 2017).

44. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.544.

45. S.D. Goiten, *Jews and Arabs*, p.78.

46. R. Ahroni, The Jews of the British Crown Colony of Aden: History, Culture, and Ethnic Relations (Brill, 1994), p.210–11.

47. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.541.

48. نفس المصدر

49. نفس المصدر

50. Bat Ye’or, *Islam and Dhimmitude* (USA: Fairleigh Dickinson Press, 2002), p.169.

51. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.544.

52. See Moreh and Yehuda (eds.), *Al-Farhud*, p.123.

53. Dr Edy Cohen, London lecture, 7 August 2016.

54. Edwin Black, *The Farhud*(Washington DC: Dialog Press, 2010), p.298.
55. Applicants would receive an annual grant of 3,600 shekels ($929), as well as discounts on medication. (‘Jews from Iraq, Algeria to get Holocaust survivors’ benefits’, *The Times of Israel*, 4 December 2015.)

56. ‘Djemal Pasha threatened Jews of Palestine with the fate of Armenians, subjecting them to genocide’, *Gagrule.net*, 29 July 2014, http://www.gagrule.net/according-haartz-djemalpasha-threatened-jews-palestine-fate-armenians-subjecting-genocide/. (Last accessed 26 April 2017).

57. Elie Kedourie, ‘Minorities’ essay in *The Chatham House Version* (Chicago: Ivan R Dee, 2004), p.307.

58. See Achcar, *The Arabs and the Holocaust*, p.140.

59. Bernard Lewis quoting German and English documentary sources in *Semites and Anti-Semites*, p.157.

60. *Mufti's memoirs*, p.164, as per Dr Edy Cohen, 'The Mufti, Nazi propaganda and the Farhud', London presentation, 7 August 2016.

61. نفس المصدر

62. Küntzel, 'Hitler's Legacy: Islamic Anti-Semitism in the Middle East', paper presented at Yale University, 30 November 2006.

63. Rudi Roth, 'Comment Henry Laurens dédouane Amin al-Husseini', *Pardes* 55, p.278.
64. Edy Cohen 'The Grand Mufti's Nazi Connection', *Jerusalem Post*, 4 July 2014, http://www.jpost.com/Opinion/Op-Ed-Contributors/The-Grand-Muftis-Nazi-connection-347823. (Last accessed 26 April 2017).

65. Véronique Chemla, interview with Claude Nataf, 20 May 2016, http://www.veroniquechemla.info/2014/05/les-juifs-dafrique-du-nord-pendant-la.html. (Last accessed 26 April 2017).

66. See Küntzel, *Jihad and Jew-hatred*, p.7.

67. Roumani, *Jews of Libya* (Portland, Oregon: Sussex Academic Press, 2008). p.52.
68. 'The origins of the 1945 Tripoli pogroms', *Wikipedia*, http://yavix.ru/%7B+(%3E%D1%81%D0%B0%D0%B9%D1%82%3C=%3E[%3Ehttp:%E2%95%B1%E2%95%B1en.wikipedia.org%E2%95%B1wiki%E2%95%B11945_Tripoli_pogrom%3C]%3C)+%7D. (Last accessed 26 April 2017).

69. M. Küntzel, 'The aftershock of the Nazi war against the Jews: Could war in the Middle East have been prevented?' *JCPA*, 31 March 2016, http://jcpa.org/article/aftershock-naziwar-jews-1947-1948-could-war-middle-east-prevented/#sthash.rY6RNjvE.dpuf. (Last accessed 26 April 2017).

70. See Lewis, *Semites and Anti-Semites*, Ch.8: 'The War against the Jews' (New York: Norton,1986).pp. 192–235.

71. In 2012, Mohammed Merah killed four Jews, including three children, at the Ozar HaTorah Jewish school in Toulouse. Shortly after the *Charlie Hebdo* shooting in 2015 (two Jews of Tunisian extraction were among the victims), Amedy Coulibaly murderedfour Jewish patrons of a Kosher supermarket in Paris. There have been other, less publicised murders.

سنة 2012م قام محمد مِراح بقتل أربعة يهود من ضمنهم عدد من الأطفال في مدرسة عوزر هاتوراة في مدينة طولوس. وبعد فترة وجيزة من أعمال العنف التي اندلعت سنة 2015م بعد رسومات تشارلي إيبدو قام عميدي كوليبالي بقتل اربعة أشخاص من اليهود من ضمنهم يهوديان تونسيان في أحد محلات السوبر ماركت اليهودية في باريس. هنالك أعمال قتل أخرى تعرض لها اليهود ولم يتم تسليط الضوء عليها.

2016, https://beastrabban.wordpress.com/2016/01/11/berman-on-the-nazi-origins-ofmodern-militant-islamism/.(Last accessed 26 April 2017).

73. Douglas Murray, 'Adolph Eichmann believed the Muslim world would complete the task he failed to finish', *Mosaic*, 28 January 2015, http://mosaicmagazine.com/picks/2015/01/adolf-eichmann-believed-the-muslim-world-would-complete-the-task-hefailed-to-finish/.(Last accessed 26 April 2017).

74. Küntzel, 'Hitler's legacy: Islamic anti-Semitism and the impact of the Muslim Brotherhood', *Articles by Matthias Kuntzel*, 10 October 2007, http://www.matthiaskuentzel.de/contents/hitlers-legacy-islamic-antisemitism-and-the-impact-ofthe-muslim-brotherhood. (Last accessed 26 April 2017).

75. Robert Dreyfuss, 'Cold War, Holy Warrior', *Mother Jones*, Jan/Feb issue 2006, http://www.motherjones.com/politics/2006/01/cold-war-holy-warrior. (Last accessed 26 April 2017).

76. H. Pinsecky and A. Grinberg, 'Iran and the Muslim Brotherhood in the Arabic-speaking world: the best of friends?', Rubin Center, 14 January 2016, http://www.rubincenter.org/wp-content/uploads/2016/02/Pisecky-Grinberg-YC-au2-PDF.pdf (Last accessed 26 April 2017).

77. Hazem Balousha,'Why Hamas resumed ties with Iran', *Al-Monitor*, 29 June 2016.
78. To cite only two of numerous such declarations: Elliott C. McLaughlin, 'Iran's supreme leader: there will be no such thing as Israel in 25 years' CNN, 11 September 2015 and 'Iran's Khamenei calls for Holy Intifada to destroy Israeli 'cancer', *The Tower*, 21 February 2017.

79. Karmel Melamed's Q&A with Matthias Küntzel, 'Küntzel on the roots and development of the Iranian regime's anti-Semitism', *Articles of Matthias Kuntzel*, 26 August 2015, http://www.matthiaskuentzel.de/contents/q-a-kuentzel-on-roots-and-develoment-ofthe-iranian-regimes-antisemitism.http://www.rubincenter.org/wp content/uploads/2016/02/Pisecky-Grinberg-YC-au2-PDF.pdf (Last accessed 26 April 2017).

80. See Jeffrey Goldberg,'The Iranian regime on Israel's right to Exist', *The Atlantic*, 9 March 2015; Seth Frantzman, 'Iran takes credit for saving Jews and denies Holocaust at the sametime', *Jerusalem Post*, 15 May 2015.

الفصل الخامس

القوميّة الخبيثة

"ثلاثةُ أشياء كان لا يجبُ على الله أن يخلقها: الفُرس واليهود والحشرات"، هذا هو عنوان كتاب ألفه الكاتب البعثيّ خير الله طلفاح ونشره خلال أربعينيات القرن المنصرم، خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات ظهرت قومية عربية "خبيثة" من بين حُطام الامبراطورية العثمانية، وهي قوميّة استوحت نهجها وفِكرها من وحي استبداد العثمانيين وحكمهم الدكتاتوريّ. يقول المؤرخ روبرت ويسريتش واصِفاً ظهور القومية العربية التي بدأت بالانتشار في جميع بلدان العالم العربي والتي تشبه الفكر النازيّ إلى حدٍ كبير: "لا يُمكن الفصلُ ما بين معاداة السامية وظهور القومية العربية الحديثة القائمة على ايديولوجية "العُروبة"، في ظل عِدائها لليهود ولأي تواجد خارجيّ في الشرق الأوسط. كما نجحَ الفكر القوميّ العربيّ بإدخال فكرة "الغرباء" أو "المُختلفين" إلى العقلية العربية، وبالطبع كان اليهود على رأس قائمة أولئك الغرباء، وهؤلاء الغرباء أو المُختلفون هم بمثابة الأعداء للعرب وللعروبة" [1].

صورة لأحد حفلات بلوغ سن التكليف "بَنوت مِتزفاه" والتي يحتفل بها اليهود عندما تبلغُ الفتاة اثني عشر عاماً تبعاً لتقاليد الديانة اليهودية. أقيم هذا الاحتفال في كنيس النبي دانيال في الاسكندرية خلال أربعينيات القرن المُنصرم.

لقد كانت - ولا زالت - مصرُ مكاناً يعيش فيه العربُ ويتمتعون فيه بحقوق متساوية منذ انتهاء العمل بقوانين "أهل الذمة". وقد كان اليهود من أوائل المرحبين بالحركة الوطنية المصريةّ ومن أوائل داعميها، لدرجة أن السكرتير العام لحزب الوفد المصري كان اليهوديّ الصهيونيّ ليون كاسترو، أضف إلى ذلك كلاً من فلِكس بن زَكين وسعد مالكي وڤيتاسونسينو وديفيد حزان وغيرهم ممن كانوا أعضاء بارزين في الحزب. لكن ما حدث لاحقاً هو أن الفكر القوميّ العربي عموماً، والمِصريّ خصوصاً، قد بدأ بإقصاء غير المسلمين من الحركة القومية ونشاطها قُبيل إعلان وعد بلفور سنة 1917م، أضِف إلى ذلك أن المصريين غير المسلمين من اليهود واليونان والأرمن قد تم استثنائهم أيضاً من الجنسيّة المصرية على الرغم من أنهم كانوا يعيشون في مصر منذ فترة حكم العثمانيين. نالت مصر استقلالها عن الإنجليز سنة 1922م، لكن منذ ثمانينات القرن التاسع عشر بدأت نزعة عُنصريّة تمييزيّة بالظهور تدريجياً في مصر، نزعة تتمحور بالأساس على الانتماء المصريّ قبل كل شيء وقبل أي اعتبار آخر.

وتنصّ المادة السابعة من قانون الحصول على الجنسية المصرية (قانون سنة 1929م) على أن اليهود السوريّين واللبنانيّين الذين وُلِدوا على أرض مصر وظلّوا مقيمين فيها يحقّ لهم تقديم طلب الحصول على الجنسية المصرية عند سنّ البلوغ، لكن المادة السادسة من نفس القانون أعطت الأولويّة في الحصول على الجنسية المصرية للمسلمين.

لقد كان ينبغي على اليهود الذين يطلبون الجنسية المصرية أن يثبتوا بأنهم هُم أو آبائهم أو أمهاتهم قد وُلِدوا في مصر، وبأنهم لم يمتلكوا أي جنسية أجنبية منذ سنة 1848م، وهو أمر لم يتمكن من إثباته غالبية اليهود نظراً لصعوبته، بالتالي أصبح عدد لا يُستهان به منهم يعيشون في مصر بلا جنسية [2]. كذلك لم يكُن موضوع الحصول على الجنسية المصرية أمراً سهلاً حتى بالنسبة ليهود مصر الذين تمتعوا بالحسّ الوطنيّ المصري وأثبتوا انتماءهم لهذا البلد. [3]

وعندما تقدّم قرابة أربعين ألف يهوديّ للحصول على الجنسية المصرية كانت الصدمة الكبيرة: لقد حصل عليها خمسة آلاف فقط! في الوقت نفسه كانت المسألة المادّية أمراً هاماً، حيث لم يتمكّن اليهود الذين كانوا ينتمون للطبقات الفقيرة من توفير الرسوم اللازمة لمعاملة الحصول على الجنسية المصرية والبالغ قيمتها خمس جنيهات مصرية آنذاك، بالتالي لم يتقدّم الكثير منهُم بطلب الحصول على الجنسية، خاصة وأنه لم يكن أمراً إلزامياً. وبشكل عام فقد وجد اليهود مسألة إثبات وطنيتهم وانتمائهم لمصر أمراً في غاية الصعوبة بعد توقيع اتفاقية مونترو سنة 1937م، أي الفترة الزمنية ذاتها التي ظهرت فيها الحركة الوطنية المصريّة. [4]

وقد كان ما نسبته خمسة وعشرون بالمئة من يهود مصر يحملون جوازات سفر أجنبية، تلك الجوازات التي كانت تمنح من يحملها قدراً من الحماية من قِبَلِ الدول الغربيّة. إن قيام مصر سنة 1949م بإلغاء قانون الحصانة الذي مَنحَ حاملي الجنسيات الأجنبية بعض الامتيازات هو أمر يمكن تفهّمه إلى حد ما، باعتبارها دولة كانت تسعى لنيل استقلالها آنذاك، لكن في الوقت نفسه وجدَ ما نسبته خمسة وسبعون بالمئة من اليهود أنفسهُم محرومين من أبسط حقوقهم المدنية بعد هذا القرار، كونهم كانوا محرومين أصلاً من الحصول على الجنسية المصرية حينها، على الرغم من هذا العدد الكبير من اليهود كانوا قد انتقلوا لمصر هم أو بعض أفراد عائلاتهم من أقاليم أخرى كانت تابعة لحكم الدولة العثمانية قبل سقوطها.

أما في العراق فقد كانت القوميّة العربية تتجلى في أخبث صورها، خاصة بعد أن انتقل إلى العراق عدد كبير من السوريّين والفلسطينيّين المُوالين للنازيين والمُعادين لبريطانيا والذين تلقّوا تعليمهم في ألمانيا وخدموا في الجيش النازيّ الألماني، حيث تقلّد هؤلاء مناصِب رفيعة في الحكومة العراقية خلال عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. ويقول الأستاذ سامي موريه – سامي المعلم – في هذا السياق: " لقد قام القوميّون العراقيّون عبر أعمالهم المُحرّضة والمُضللة والمؤيدة للنازية بتحويل المسلمين والمسيحيين في العراق إلى مجموعات دينية مُتعصّبة" [5]. لكن بالنسبة للعراق – خلافاً لما كان يحدث في مصر – فإن الجنسية العراقية لم تكن تحظى بذلك القدر من الأهمية لدى يهود العراق حينها، لأن جميع يهود العراق كانوا يحملون الجنسية العراقية، كما كانت هنالك محاولات لدى بعض الشخصيات القيادية في المجتمع اليهوديّ العراقي للحصول على الجنسية البريطانية. [6]

وفي هذا السياق يصفُ الروائي نعيم قطان كيف كان يهود العراق – والذين كانوا يتحدثون اللغة العربية بطلاقة بالطبع – يبذلون قُصارى جهدهم قُبيل نيل العراق لاستقلاله ليكونوا جزءاً رئيسياً من الثقافة العراقية الجديدة، على الرغم من أن مساعيهم الحثيثة لم يكتب لها النجاح وتم تجاهل مساعيهم وإنجازاتهم باستثناء ما كان ضرورياً منها أوما لم يكن بالإمكان الاستغناء عنه [7]. وما حدث حينها هو أنه تم الاستغناء عن خدمات يهود العراق الذين كانوا يعملون في الوظائف العامة، كما تم فرضُ مبدأ المُحاصصة على الطلاب اليهود فيما يتعلق بدراسة القانون والطب، وتم منعهم من الخدمة في الجيش أو العمل في المجال الدبلوماسيّ، وقد كانت هذه القرارات جميعها بمثابة شرارة البداية لتعميق فكرة "الآخر" الخبيثة وإلصاقها بيهود العراق باعتبارهم ذلك الآخر، تلك الفكرة التي جلبت الويلات والكوارث ليهود العراق. يتابع الروائي نعيم قطان قائلاً: "لقد كنا نعيشُ تحت ظلّ وحش كاسر كان هادئاً لفترة طويلة لأنه كان مُصاباً بالحُمى، وفجأة نهض هذا الوحشُ بجسده الضخم ليرمي بثقله علينا بعد أن شُفي من تلك الحُمى ". [8]

وفي الوقت الذي لعب فيه مفتي القدس الحاج أمين الحسيني دوراً كبيراً في التحريض على ارتكاب مجزرة الفرهود، كان هنالك عدد آخر من المفكرين والأكاديميّين العراقيّين ممن تأثروا بالمُهاجرين الفلسطينيّين والسوريّين الذين كانوا بمثابة المحرك الرئيسي لجميع أشكال معاداة السامية في العراق، وفي الوقت الذي ارتُكبَت فيه مجزرة الفرهود كان يعيش في العراق قرابة أربعمائة عائلة سورية وفلسطينية، لكن حجمهم وتأثيرهم في العراق كان يفوق عددهم بكثير، خاصة وأنهم كانوا أطباء ومفكرين ومعلمين وبأنهم جاؤوا مع الحاج أمين الحسيني بعد أن تم نفيه من فلسطين الانتدابية سنة 1936م، ومن ثم لحقوا به بعد أن أصبح في ضيافة هتلر سنة 1941م عندما تم نفيهم من العراق.

في الوقت نفسه كان يتواجد في العراق عدد من القوميين العرب، تحديداً خلال فترة عشرينيات القرن العشرين، ممن تم نفيهم من فلسطين وسوريا، حيث أنهم رافقوا الملك الفيصل إلى بغداد وكانوا بجانبه عندما تم تعيينه ملكاً للعراق على يد الإنجليز. لكن مساعي هؤلاء القوميين العرب لحُكم العالم العربي والسيطرة عليه انطلاقاً من دمشق قد باءت بالفشل، وتم إحباط جميع تلك المخططات على يد الفرنسيين. وكان على رأس هذه المجموعة القوميّ العربيّ السوري المعروف ساطع الحصري، والذي أصبح لاحقاً المسؤول عن وزارة التربية والتعليم العراقية وحوّلها لتصبح بمثابة "بروسيا" العالم العربي. وقد اشترك ساطع الحصري في أعمال شنيعة ضد اليهود، فكان يسعى جاهداً لمحاربة وزير المالية العراقية اليهودي حينها ساسون حسقيل والتقليل من شأن ما قام به من إنجازات. [9]

لقد أسَّس ساطع الحصري نادي "المُثنّى" القوميّ، هذا النادي الذي انطلقَ منه مُرتكبو مجزرة الفرهود في العراق، ولاحقاً انضم فوزي القوقجي – وهو قائد من قادة الجيوش العربية التي حاربت ضد إسرائيل سنة 1948م - إلى ساطع الحصري فأصبح أحد أبرز القوميّين العرب وواحداً من أكثر الشخصيات المعادية للسامية، كما تجاوز بعض هؤلاء مرحلة التحريض على اليهود ليصل بهم الأمر إلى حد ارتكاب الجرائم بأنفسهم، مثل الدكتور أمين رويبة الذي تم اتهامه بإلقاء قنبلة يدوية سنة 1936م على أحد النوادي اليهودية في العراق. [10]

وقد ساهم ساطع الحصري بشكل كبير في نشر وتعميق الفكر القوميّ العربي في المناهج التعليمية، كما كانت اللغة العبرية لغة محظورة من تدريس في المناهج التعليمية العراقية، هذه المناهج التي كانت تتضمن محتوى تعليمياً "نازياً" بامتياز حينها. وخلال ثلاثينيات القرن العشرين كان للقوميين العرب المُتطرفين - الذين كانوا يعتبرون من حاشية الملك فيصل رغم اختلاف جنسياتهم العربية - دور بارز في ضمان عدم وجود أي حزب سياسيّ يهودي في العراقيّ وعدم مشاركتهم في الحياة السياسية العراقية [11]. وسنة 1937م توجه المدير العام لوزارة التربية والتعليم العراقية فضل جمالي إلى ألمانيا، وهناك تم استقباله بحفاوة شديدة من قبل النازيين وتمت دعوته لزيارة أخرى إلى مقر الحزب النازي في نورمبرغ برفقة وفد عراقيّ سنة 1938م. [12]

صورة للملك الفيصل الذي لم يكن يحمل ذلك القدر من الكراهية لليهود، لكنه كان محاطاً بمجموعة من الشخصيات المعادية للسامية من أمثال ساطع الحصري.

كذلك كانت هنالك شخصية أخرى من مجموعة القوميّين العرب في العراق، وهو الفلسطينيّ درويش المقدادي، والذي عاد إلى العراق بعد أن أنهى دراسته في ألمانيا، ومن ثم أصبح واحداً من قيادات المجموعات الشبابية الموالية للنازيين والمعروفة بأسم "حركة الفتوّة"، هذه الحركة التي كان نشطاؤها وأتباعها يضعون "الخمسة" الحمراء على البيوت اليهودية قُبل ارتكاب مذبحة الفرهود في العراق كوسيلة لتمييز البيوت اليهودية عن غيرها. كذلك لم يتم دعوة أي ممثل عن يهود العراق لحضور المؤتمر الوطنيّ الذي انعقد في سوريا سنة 1919م [13]، وخلال الحرب العالمية الثانية كانت المُظاهرات المعادية لليهود وللصهاينة مشهداً عادياً في الشوارع العربية، وفي سنة 1944م وقع هجوم على الحيّ اليهوديّ في دمشق مرتين من قبل المتظاهرين [14]. وقبيل حُصول سوريا على استقلالها من الاستعمار الفرنسي سنة 1946م، كان التوجه السائد بين السوريّين حينها (تِبعاً لما ذكره أحد عملاء الموساد حينها) توجّها نازياً بامتياز. [15]

إقصاء غير المُسلمين وغير العرب من كل شيء

لقد كان الانتشار المتنامي للفكر القوميّ العربي المعادي لليهود وللصهيونية - على حد سواء - يُفسَّرُ على أنه ردّة فعل للسياسات الاستعمارية الغربيّة بشكل عام، ولوعد بلفور بشكل خاص، لكن ما يدحضُ هذه النظرية هو ما قام به القوميّون العربُ من استثناء وإقصاء لكل ما هو غير مسلم وغير عربيّ من كل ما له علاقة بالمشهد السياسي في العالم العربيّ، فكانت تلك سمة بارزة للقومية العربية خلال القرن العشرين. في الوقت نفسه حاول القوميّون العرب محاربة نجاحات وإنجازات اليهود في المجتمعات العربية بوصفهم على أنهم يُحاولون تأسيس "دولة داخل دولة" [16]. بالتالي، واستناداً لما يُمليه الفكر القوميّ العربي، فإن اليهود عاجلاً أم آجلاً سيمثّلون عقبة كبيرة في طريق توسّع الفكر القوميّ العربي وتحقيق فكرة الدولة العربية الموحّدة، وفي هذا السياق يقول الكاتب والمؤلف الفرنسي چي دي موباسانت في مقولة له سنة 1909م عن طَبيعة التواجد اليهودي في مدن ودول العالم العربي: "إن مدينة تونس لم تكُن مدينة فرنسية ولا مدينة عربية بقدر ما كانت مدينة يهوديّة قبل أي وَصف آخر". [17]

وقد امتلك اليهود مِهناً وحِرفاً كانت تحاولُ الدول العربية التي نالت استقلالها أن توجِدها وتنشرها بين مواطنيها، فعلى سبيل المثال طلب الإمام يحيى في اليمن سنة 1924م من الخيّاطين اليهود تعليم الخياطة لمجموعة من الأيتام في إحدى المدارس اليمنية حتى يقوموا بخياطة الزيّ العسكري لجنوده [18]، وفي سنة 1905م تم تأسيس اتّحاد من قبل بعض التجار التونسيين من أصول تركية من أجل استقدام حرفيّين من الأتراك المسلمين حتى يقوموا بكسر حالة احتكار اليهود لصناعات الأحذية والملابس في تونس. [19]

وقد شهدت فترة الحكم الفاشي خلال عشرينيّات القرن المنصرم في ليبيا نمواً ملحوظاً وتدريجياً في مدى استقلالية المجتمع اليهوديّ الليبي، في الوقت نفسه كان هناك تنامي مستمر وتدريجي في مشاعر الحقد والكراهية ضد اليهود حينها. أما في المغرب فقد كان القوميون العربُ يطردون عُمّالهم اليهود حتى يحلّ مكانهم عمال عرب، ويقول پنينا إلباز في هذا السياق – والذي نشأ في قرية صافي جنوب المغرب –:" لقد كانوا يريدون أخذ الوظائف العامة من اليهود، كما كانوا يريدون السيطرة على المصالح التجارية اليهودية، وقد نجحوا في ذلك من خلال تعميق الحقد والكراهية بين الناس". [20]

وقد تم تأسيس بعض الأحزاب العِلمانية العربية مثل حزب البعث والحزب الشيوعيّ السوري استناداً لنفس الأسس التي قام عليها الحزب النازيّ الألماني، مع العلم أن هذه الأحزاب لا زالت قائمة وتمارس نشاطها حتى يومنا هذا، كما كان لهذه الأحزاب نشاط بارز بعد أن وصل هتلر للحكم في ألمانيا سنة 1933م، كذلك ظهرت بعض الحركات الشبابية البارزة إلى نفس الفترة الزمنية، مثل أحزاب "مصر الفتاة" في مصر، و"القمصان الحديدية" في سوريا و"الفتوّة" في العراق يقول سامي الجندي أحد أعضاء حزب البعث السوري: "لقد كنا ننتمي لحزب عنصريّ بكل ما تحمله الكلمة من معنى". [21]

وفي الجزائر كانت الشرطة الفرنسية تحاول الحدّ من انتشار الأكاذيب والأخبار المُضلّلة التي كان ينشرها الموالون للنازية سنة 1937م [22]، حيث كان القوميون العرب في منطقة شمال أفريقيا على صلة وثيقة جداً بالنازيين ودول المحور، وكانوا يُبدون ولائهم لهم على الملأ دون أدنى تردد أو خجل، فقد التقى القوميّ العربي المغربيّ عبد الخالق تورّس بِكل من هيرمان غورينغو هِينريتشهِملر في شهر كانون الأول من سنة 1941م، فوعدوه حينها بدعمه بالمال والعتاد اللازم لتحقيق الرؤية الألمانية في المغرب بعد أن يتم احتلالها من قبل الألمان [23]. لكن وبشكل عام كانت الحكومة العراقية - الموالية للنازيّين - برئاسة رشيد علي هي الحكومة العربية الوحيدة التي وقّعت اتفاقية تحالف بشكل رسميّ مع دول المحور وألمانيا.

أما الفِكر الذي حمله القوميّين الفلسطينيّين العرب بقيادة مفتي القدس الحاج أمين الحسيني فقد كان استثنائياً، حيث غلَبَت عليه نزعة امتزجت فيها معاداة السامية الدينية والعِرقية في آن واحد، ولم يكن بالإمكان التفريق بين أي من المَظهرين. ومنذ بداية ظهور القوميّين العرب الفلسطينيين فقد كان هدفهم الأساسي نشرُ معاداة السامية والتحريض على المواطنين اليهود في العالم العربي، فيما لعب القوميّون الفلسطينيون خارج فلسطين الانتدابية دوراً هاماً لتحقيق هذا الهدف، وخير دليل على هذا هو مجزرة الفرهود التي بإمكاننا اعتبارها أول اشتباك دمويّ فِعليّ بين العرب واليهود، لا بين العرب والصهاينة.

إن السبب الرئيسيّ لنزوح ما تعداده 850,000 يهوديّ وخروجهم من دول العالم العربيّ في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا سنة 1948م يُعزى بالأساس إلى العُنصريّة العربيّة في المقام الأول، هذه العنصرية التي استوحاها العربُ من العنصرية النازية، وقبل اندلاع الصراع العربيّ الإسرائيلي كانت هنالك حالة من "التشبّع" العربي لتقبّل حالة العداء ضد اليهود نتيجة للأخبار والمعلومات المضللة والمحرضة والبروباغندا التي كان ينشرها النازيّون ضد اليهود [24]، فكانت تنتشر كالنار في الهشيم بين عامة العرب بشكل عام، وبين الأميّين والجَهلة والبسطاء بشكل خاص، فكان ذلك بمثابة عامل رئيسي لقتل إمكانية تحقيق أي شكل من أشكال التعايش بين العرب واليهود في الدول العربية.

كما لعبت حركة الإخوان المسلمين في مصر دوراً هاماً ورئيسياً في التحريض على المستوى الشعبي ضد اليهود وفي ممارسة العنف ضد المواطنين اليهود في الدول العربية مثلما تحدّثنا في الفصل السابق، لكن الإجراءات والعقوبات الحكومية الرسمية والموجهة تحديداً ضد اليهود كانت بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير، مؤدية إلى نزوح ورحيل يهود مصر، وحينها كان ميثاق جامعة الدول العربية - الذي استوحته جامعة الدول العربية من أفكار الحاج أمين الحسيني- الأساس الذي استندت عليه في شنّ حربها على إسرائيل سنة 1948م بهدف تدميرها وإزالتها من الوجود. [25]

إن التهميش السياسيّ الذي تعرّض له اليهود في الدول العربية يُذكّرنا بقوانين نومبرغ التي كانت تستثني اليهود من الحصول على الجنسية وتُهَمّشُهم بل وتمنعهُم من الحصول على الوظائف والخدمات العامة، خاصة بعد أن تم طرد جميع اليهود من كافة الوظائف الحكومية في كُلّ من مصر ولبنان والعراق واليمن وإيران قبل اندلاع الثورة الإيرانية سنة 1979م، كما كان يتم فرض الغرامات المالية الباهظة ووضع العقبات أمام المصالح التجارية اليهودية وحتى على تملّك العقارات، ناهيك عن الاعتقالات التعسفية بحجج واهية فضفاضة مثل اتهامهم "بالصهيونية"، وأخيراً وليس آخراً كان يتم منع اليهود من السفر ومن ثم قتلهم وسلب ممتلكاتهم.

بطبيعة الحال فإن اتهام فئة معينة بالخيانة وعدم ولائها للوطن إضافة إلى محاولة إفقارها وتحطيمها اقتصادياً تعتبر أولى الخطوات على تسبق ارتكاب تطهير عرقيّ بحق تلك الفئة وعند مقارنة هذا الأمر بما حدث في فلسطين الانتدابية قبيل قيام دولة إسرائيل نجد أن جامعة الدول العربية قد أصدرت قرارات سنة 1945م، أي قبل اندلاع الحرب مع إسرائيل، تقضي بقمع المواطنين اليهود في دول العالم العربي باعتبارهم "خونة ومُتعاونين مع الأعداء"، والأعداء هنا هم الأقلية اليهودية المتواجدة في فلسطين [26]. إن هذه القرارات التي أصدرتها جامعة الدول العربية تشبه إلى حد كبير قوانين نومبرغ، وهذا التشابه بينها واضح وضوح الشمس.

إن قرار الجامعة العربية البائس بشن الحرب الخاسرة سنة 1948م ضد إسرائيل كان نتيجة لتحريض وضغط متواصل من قبل مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، والذي أصبح لاحقاً رئيس اللجنة العربية العليا، هذا عدا عن التحريض والضغط الذي قامت به شخصيات من حركة الإخوان المسلمين من أجل شنّ تلك الحرب، هذا بالإضافة إلى المساعي الحثيثة التي كانت تبذلها القيادات الفلسطينية حينها مِمّن كانوا يَحضرون بشكل دائم ومتواصل اجتماعات جامعة الدول العربية بلا استثناء. [27]

وفي سوريا فقد تم طردُ جميع الموظفين العموميّين اليهود في الفترة التي سبقت نيلها لاستقلالها، أي أولئك اليهود السوريون الذين كانوا يعملون في الوظائف المدنية أثناء حكم الفرنسيين، فتم طردهم ولم تتم إعادتهم حتى بعد خروج فرنسا من سوريا. كما كان عدد الحرفيون اليهود الذين يعملون في مجال صنع الأثاث والتنجيد - باعتبارها حرفة يهودية معروفة حينها - يتضاءل شيئاً فشيئاً بعد أن طلبت منهم الحكومة السورية ترك عملهم بهدف "حمايتهم"، فظلوا في قراهم ولم يكونوا يتجرؤون على الخروج للعمل. [28]

وفي سنة 1947، تحديدا في شهر كانون الأول، أصدرت الحكومة السورية قراراً يمنعُ يهود سوريا من بيع ممتلكاتهم بهدف منعهم من الخروج خارجَ حدود سوريا، كما كانت الحكومة السورية تُقيّد وتَحُدّ من تعليم اللغة العبرية في المدارس اليهودية، ناهيك عن قيامها بمنع اليهود من العمل في البنوك وفي الحكومة وكانت تحظر عليهم أيضاً امتلاك أي عقارات أو جهاز هاتف أو الحصول على رخصة قيادة، في الوقت نفسه كانت الأصوات السوريّة المنادية بضرورة مقاطعة المصالح التجارية اليهودية ومقاطعة اليهود بشكل عام تتصاعد شيئاً فشيئاً. [29]

وقد قامت الحكومة المصريّة بين سنتي 1950م و1956م بتشريع عدد من القوانين المتعلقة بالولاء والانتماء لمصر، فكانت الخيانة أمراً يُلصقُ باليهود بوصفهم "عملاء لدولة معادية"، وبأنهم على علاقة بدول "لا تتمتع بعلاقات رسمية مع مصر". وقد كان انتماء يهود مصر لاتحاد "بني إسرائيل" العالميّ سبباً للخلط بين يهود مصر وبين إسرائيل، بالتالي كان اتهام يهود مصر بالخيانة دافِعاً رئيسياً لخروجهم من مصر بعد أن أصبح من المستحيل لغير المسلمين أن يكتسبوا صفة "الوطنية" والولاء لمصر باعتبارهم خونة من وجهة نظر الحكومة المصرية وعامة الشعب المصريّ. [30]

وفي الثاني عشر من شهر حزيران من سنة 1951م سنَّت ليبيا مجموعة من القوانين تسمحُ للمحاكم الدينية الإسلامية بالتدخل في المسائل الشخصية والمدنية، حيث فرضت إحدى المحاكم الإسلامية الليبية على نادي مكابي الرياضي أن يقبلَ لاعبين عرب في صفوفه بعد سنة 1954م. وفي سنة 1953م تم فرض عقوبات اقتصادية على اليهود تضمنت مقاطعة منتجاتهم، أما من كان له أقارب في إسرائيل فقد تم إجباره بالقوة على توقيع ميثاق المقاطعة والذي تم اصداره سنة 1957م على يد مكتب المقاطعة الليبية. ومع حلول سنة 1960م لم يكُن يُسمح لليهود العمل في المناصب الرسمية، كما لم يكن يُسمح لهم بالتصويت والانتخاب والخدمة في الجيش وقوى الأمن والشرطة. [31]

وفي لبنان كان الواقع مماثلاً، فكان نادي الرياضة اليهودي المعروف باسم مكابي محظوراً هناك، شأنه شأن باقي المؤسسات اليهودية الأخرى التي تم حظرها أيضاً، كما تم تسريح اليهود من الوظائف الحكومية وتم حظر النوادي والحركات اليهودية الشبابية. ومن الملاحظ وجود ارتفاع في عدد السكان اليهود في لبنان، الأمر الذي يُعزى إلى الجرائم والمذابح التي ارتكبت بحقهم في سوريا والعراق سنة 1948م، لهذا فروا هاربين إلى لبنان طالبين اللجوء هناك [32]. لكن تواجد اليهود في لبنان كان مؤقتاً، ولم يحصلوا على الجنسية اللبنانية حينها، حيث لم يسبق لأي يهودي لبناني ينتمي لأبوين غير لبنانيين الحصول على جنسية لبنانية، حتى لو كان هو نفسه مولوداً في لبنان، فيما كان أي لبناني يخسر جنسيته على الفور في حال زواجه من يهودي أو يهودية ممن لا يحملون الجنسية اللبنانية. [33]

وفي الفترة الزمنية ذاتها أصدرت الحكومة العراقية قانون سنة 1951م والذي يَقضي بإسقاط جنسية كل يهودي عراقي يخرجُ من العراق، كما كان يُكتبُ في الشهادات التي تصدرُ عن المدارس اليهودية في العراق خلال ستينيات القرن المنصرم عبارة "لم يتم إسقاط الجنسية العراقية عن هذا الشخص حتى الآن". [34]

وبالنسبة لتونس فقد كانت هنالك علاقات طيّبة تجمع اليهود والقوميّين العرب، لكنها كانت علاقات مؤقتة دامت لفترة قصيرة جداً، ففي سنة 1954م كان يوم كيبور - عيد الغُفران اليهودي - يعتبر مناسبة وطنية تونسية، لكن بعد ثلاث سنوات تم حلّ الرابانية - المجلس اليهودي للحاخامات - في تونس، كما تم تدمير الكنيس اليهوديّ في مدينة حارا، وهُدمَت المقبرة اليهودية وتم تحويلها إلى مُنتزه. [35]

وخلال مساعي المغربيّين لنيل استقلالهم كان القوميّون المغاربة يُحرّضون التجار والحرفيين المُسلمين على مقاطعة التجار اليهود من أجل كسر احتكار اليهود للعديد من الحرف والمصالح التجارية ورفع حالة المنافسة في السوق (la concurrence juive) [36]. في الوقت نفسه كانت تشهدُ البلدان العربية في الشرق الأوسط عملية تعريب ممنهجة للمدارس اليهودية، كما تم طردُ الطلاب اليهود من الجامعات اللبنانية سنة 1947م، وبعد سنة 1967م تم طردهُم من جامعات العراق. وفي سوريا وإيران فقد تم تعيين وفد من المسلمين لكي يتولوا إدارة المدارس اليهوديّة بعد سنة 1967م وسنة 1979م، أي بعد حرب الأيام الستة والثورة الإسلامية في إيران.

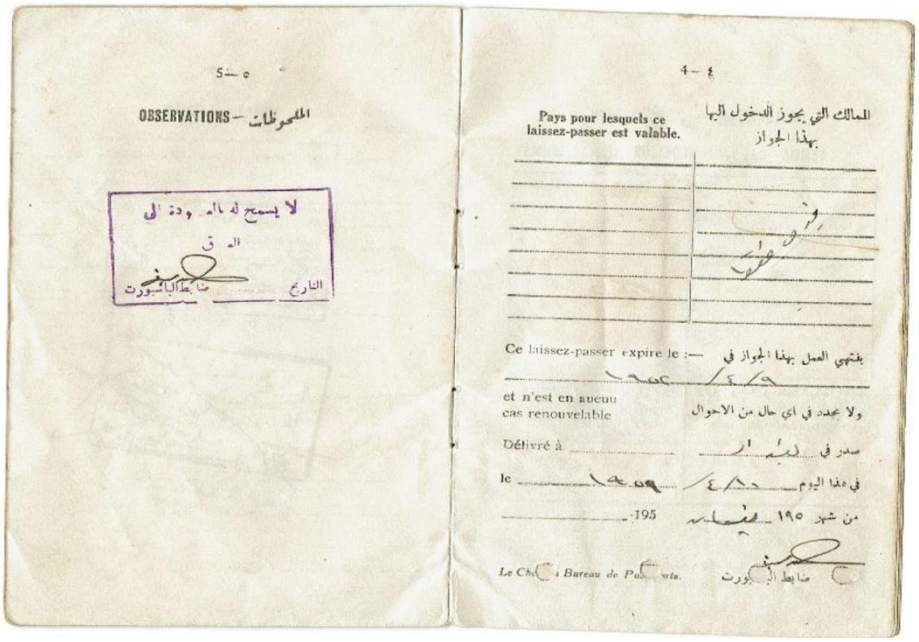

الجزء الأيسر من الصورة تظهر فيه كتابة "سي لي با سي" (الذهاب بلا عودة) والتي تعني أن حامل هذا الجواز بإمكانه الخروج من العراق لكن لا يُسمح له بالعودة إليه (مجموعة صور لورانس جوليوس).

تصريح "سي لي با سي" ليهودي عراقي مسافر إلى إسرائيل سنة 1950، حيث سافر إلى قبرص ومن ثم إلى إسرائيل. (مجموعة صور لورانس جوليوس).

وبعد حصول كل من المغرب وتونس وليبيا على استقلالها تم حلّ المؤسسات الاجتماعية والجمعيات الخيرية اليهودية وتم تعريبها بالكامل [37]، وبعد استقلال الجزائر انتشرت أغنية وطنية جزائرية تتضمن في كلماتها أن "الشعب الجزائري شعبٌ مسلم، وأنه شعبٌ عربيّ النّسَب" [38]. في الوقت نفسهِ أقرّ البرلمان الجزائريّ قانون الجنسية الجزائريّة سنة 1963م والذي منحَ الجنسيّة فقط للمواطنين المسلمين الذين ينتمون لأبوين جزائريين. [39]

وبالنسبة للسفر فقد كان محظوراً على اليهود في كل من مصر وسوريا والعراق سنة 1948م، وفي اليمن سنة 1949م، وفي ليبيا سنة 1951م، وبالنسبة ليهود سوريا الذين كانوا يحاولون الهروب سِرّاً من مدنهم وقراهم فقد كانوا يواجهون إما الحكم بالإعدام أو السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة عندما كان يُلقى القبض عليهم [40]. في الوقتِ نفسه كانت هنالك قيودٌ مشدّدة على تحركّات يهود سوريا والعراق بين المدن، فكانوا دوماً تحت مرأى المُخابرات ومراقبتها. والحال نفسهُ كان في المغرب بعد أن نالت استقلالها سنة 1956م، حيثُ تم منع اليهود من السفر خارج المغرب، فيما تم قطع العلاقات البريدية التي كانت تجمع بين المغرب وإسرائيل. لكن وبطبيعة الحال تمكّن عدد محدود من العائلات المغربية من الخروج من المغرب في مقابل دفع سندات ماليّة للسلطات، فيما ظلّت الغالبية العظمى منهُم مُحتجزين كرهائن.

ومن ناحية اقتصادية فقد تم الحجزُ على كافة ممتلكات اليهود ومن ثم الاستيلاء عليها ومصادرتها، كما تم تجميد جميع حساباتهم البنكية، وما تبقى من بعض الممتلكات الشخصية التي كانوا يحملونها أثناء مغادرتهم من بلدان العالم العربي فكان يتم الاستيلاء عليها أيضاً في الموانئ والمطارات التي خرجوا عبرها. في الوقت نفسه أدت سياسة تأميم البنوك لتصبح مُلكاً للدولة إلى تضرر أصحاب البنوك من اليهود وخروجهم من عالم الصيرفة في الدول العربية، كما كانت تصدرُ القوانين التي تُجبرُ اليهود على مشاركة رجال أعمال مسلمين في كل من العراق ومصر سنة 1947م، وفي تونس سنة 1956م وفي المغرب سنة 1960م. بالتالي فإن جميع هذه الممارسات القمعية تُشكّل دليلاً دامغاً على عدم وجود أي شكل من أشكال التعايش والمساواة بين العرب واليهود في دول العالم العربيّ، بل كانت هذه الممارسات وغيرها تهدف إلى تحقيق أمر واحد، وهو ألا تذهب الأموال والأرباح التي يتم تحقيقها من تلك المصالح التجارية إلى جيوب اليهود تحديداً [41].

وفي اليمن، تحديداً سنة 1948م، لم يُسمح للحرفيّين والتّجار اليهود بمغادرة البلاد إلا بعد أن يقوموا بتعليم مجموعات من المسلمين للحرف والصناعات التي أتقنوها، والحال نفسه كان يحدث في العراق بالنسبة للموسيقيّين، حيث تم احتجاز موسيقيّين عراقيّين لفترة ستة أشهر حتى يقوموا بتعليم مجموعة من الموسيقيّين العراقيين العزف على آلتي الجوزة والسنطور الموسيقيّتين. [42]

وقد تزامنت ممارسة تلك الإجراءات القمعية بحق اليهود مع ارتكاب المذابح الدموية بحقهم، فكان يتم اعتقالهم وترويعهم من قبل قوى الأمن في تلك الدول، وعلى سبيل المثال قامت الحكومة العراقية بإعدام رجل الأعمال اليهودي العراقي الكبير شفيق عدس - والذي كان وكيل شركة فورد موتورز في العراق حينها - ليكون عِبْرَة لغيره من اليهود، وذلك بعد أن اتهمته الحكومة العراقية سنة 1948م ببيع الخُردة المعدنية "للكيان الصهيونيّ" [43]. كما لم تسلم دور العبادة اليهودية من العنف والهجمات والاعتداءات الدموية، وحينها كانت قوى الأمن إما تشارك في تلك الهجمات أو تقف متفرجة على ما يحدث دون أن تحرّك ساكِناً.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قام عددٌ لا بأس به من مُجرمي الحرب النازيين بطلب اللجوء السياسي إلى البلدان العربية، وبعد أن حصلوا على اللجوء السياسيّ جاؤوا إلى تلك البلدان جالبين معهُم كراهيتهم وحقدهم الأعمى على اليهود، كما تقلّد بعضهم مناصب عسكرية رفيعة في جيوش تلك الدول، وقام عددٌ لا بأس به منهم باعتناق الإسلام.

وقد قامت مجموعة من المنظمات الحقوقية اليهودية في الغرب بتوثيق المُمارسات القمعية المعادية للسامية التي ارتكبتها الحكومة المصرية والتي تضمنت الاعتقال التعسفيّ لليهود وسحب جنسياتهم المصرية ومصادرة أملاكهم وطردهم خارج مصر، تلك التصرفات التي تُذكّرنا بالمُمارسات القمعية ذاتها التي انتهجتها الحكومة النازية الألمانية [44]. من جهة ثانية اعترضَ عدد قليل من المفكرين اليهود من أمثال المفكر جول بينين على هذا الطرح، مُدّعياً أنه بعد اتضاح حجم المآسي والويلات التي تعرض لها اليهود في المحرقة فإن مصر قد دفعت ثمن المخاوف والهواجس التي عاشها اليهود على يد النازيين، فقامت بعض المنظمات اليهودية مثل المنظمة اليهودية الأمريكية بتحويل تلك المخاوف والهواجس المُبالغ فيها إلى مصر.

ويوضح جول بينين – حسب ادعائه – بأن تصرفات الحكومة المصرية القمعية ضد يهود مصر وترحيلهم إلى "الدولة الصهيونية" سببهُ تلك العملية المعروفة باسم "سوزانة" (عملية لافون) والتي كانت تقفُ وراءها الحكومة الإسرائيلية سنة 1954م من أجل تفجير عدة أهداف في مصر، مع العلم أن هذه العملية لم يُكتب لها النجاح [45]. حينها أظهرَت عملية سوزانة أن مَن قاموا بالتحضير والمشاركة فيها هم "طابور خامس" من يهود مصر (سأتحدّث أكثر عن هذه العملية بشكل مفصل في الفصل السادس).

لكن هنالك سؤالان هامّان يجبُ الإجابة عليهما استناداً إلى ادّعاءات المفكر جول بينين وهما: لماذا يعتبر العقابُ الجماعيّ الذي قامت به الحكومة المصرية ضد آلاف اليهود في مصر مُبرّراً حتى لو افترضنا جدلاً قيام بَعض اليهود بالاشتراك في عملية التفجير سوزانة؟ ولماذا يتجاهلُ السيّد جول بينين الإجراءات والقوانين التعسفيّة التي مارستها الحكومة المصرية قبل سنة 1945م والتي أدت إلى نزوح قرابة عشرين ألف يهوديّ مصري من بلادهم؟ [46]

كما يدّعي السيّد جول بينين أن السجن ومصادرة الأملاك والاعتداءات التي تعرّض لها يهود مصر لم تكُن لتحدث لولا وقوع حرب 1956م، وبأن واقع الحياة اليهودية بشكل عام ربما سيكون مختلفاً لو لم تقع تلك الحرب التي أدت إلى رَحيل السواد الأعظم من يهود مصر[47]. بطبيعة الحال فإنه ليس من السهل أبداً على المرء أن يقرر بين ليلة وضحاها الرحيل عن وطنه، ويبدو أن يهود مصر كانوا متفائلين بتغيير هذا الواقع للأفضل حتى آخر لحظات خروجهم من مصر، وفي هذا الصدّد يقول أندريه أسيمان: "لقد كان يتخيّل اليهود حتى اللحظات الأخيرة قُبيل رحيلهم عن مصر بأن يوجد مَن بإمكانه مساعدتهم على البقاء في مصر ممن يشغلون مناصب عليا في الدولة، حتى لو اضطروا لتقديم الرشوة لهم، وهذا ما كان يقوله كل يهودي لزوجته مؤكداً لها أن هذا الوقت العصيب سيمرّ بلا شكّ". [47]

وبعد مضيّ سنة على حرب السويس خرجَ قرابة خمسة وعشرين ألف يهوديّ من مصر، حيث كانت هذه خطوة انتقامية من قبل الرئيس المصري جمال عبد الناصر نتيجة قيام إسرائيل باجتياح صحراء سيناء بتاريخ التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول سنة 1956م [48]. وقد تم طردُ يهود مصر على مرحلتين: المرحلة الأولى كانت بمنحهم مدة اربعة وعشرين ساعة لمغادرة مصر، وتم منحهم هذه المدة لأن ما تعداده خمسمائة يهودي مصري منهم كانوا يُعتبرون من الرعايا البريطانيين والفرنسيين في مصر، أما المرحلة الثانية فكانت عبر منح اليهود مدة خمسة إلى سبعة أيام للخروج من مصر برفقة عائلاتهم. حينها تم إغلاق خمسة وتسعين بالمئة تقريباً من المحلات والمصالح التجارية والمكاتب التي كان يمتلكها يهود مصر، ولاحقاً تمت مصادرتها جميعها لتصبح أملاكاً للدولة المصرية.

وفي هذا السياق هنالك قصة مأساوية لليهودية المصرية ليليان عبده التي كانت تسكنُ في السويس، والتي أجبرت على الرحيل منها بأبشَع وأقسى الطرق، حيث تم اعتقالها في البداية أثناء قيامها بالاستجمام في السباحة في قناة السويس، ومن ثم تم اتّهامها بأنها عميلة تحاول تسريب معلومات للجيش الإسرائيليّ الذي كان يتقدّم تدريجياً في شبه صحراء سيناء. تقول ليليان عبده في وصفها ما حدث حينها: "لقد تم اعتقالي وإحضاري إلى مركز الشرطة بملابس السباحة، وتم التحقيق معي بقسوة ووحشية حتى أجبروني على الاعتراف بالتُّهم التي وجّهوها إليّ، وفي اليوم التالي قاموا بطردي أنا وعائلتي خارج مصر، وقد أطلقوا عليّ "اسم ماتا هاري فتاة القناة "، وكتبوا هذا الاسم في ملف التحقيق الخاص بي". [49]

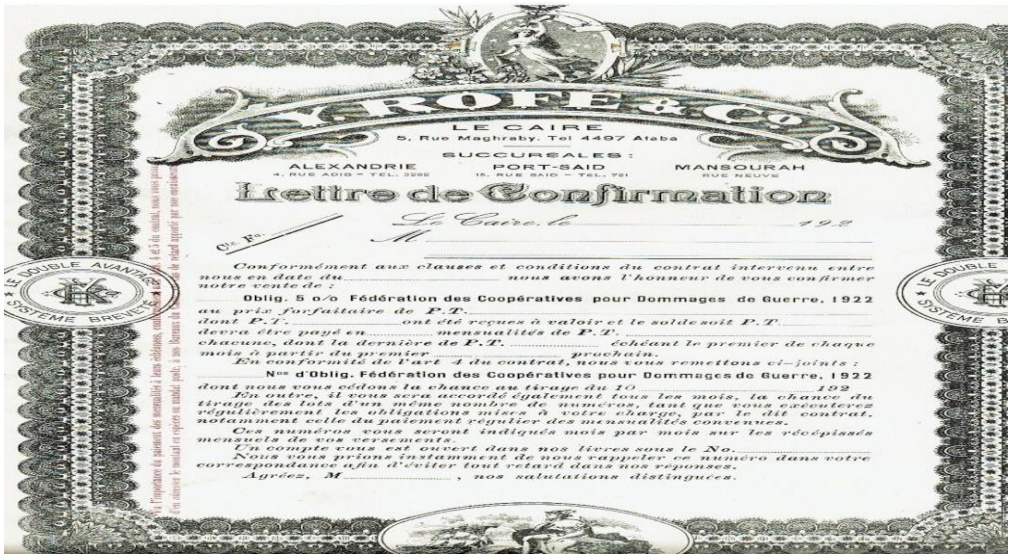
LE CAIRE
5, Rue Maghraby. Tel 4497 Alaba
SUCCURSALES :
ALEXANDRIE — PORT-SAID — MANSOURAH
Lettre de Confirmation
Le Caire, le 192
M
Conformément aux clauses et conditions du contrat intervenu entre nous en date du nous avons l'honneur de vous confirmer notre vente de :
Oblig. 5 o/o Fédération des Coopératives pour Dommages de Guerre, 1922
au prix forfaitaire de P.T.
dont P.T. ont été reçues à valoir et le solde soit P.T.
devra être payé en mensualités de P.T.
chacune, dont la dernière de P.T. échéant le premier de chaque mois à partir du premier prochain.
En conformité de l'art 4 du contrat, nous vous remettons ci-joints :
Nos d'Oblig. Fédération des Coopératives pour Dommages de Guerre, 1922
dont nous vous cédons la chance au tirage du 10 192
En outre, il vous sera accordé également tous les mois, la chance du tirage des lots d'un même nombre de numéros, tant que vous exécuterez régulièrement les obligations mises à votre charge, par le dit contrat, notamment celle du paiement régulier des mensualités convenues.
Ces numéros vous seront indiqués mois par mois sur les récépissés mensuels de vos versements.
Un compte vous est ouvert dans nos livres sous le No.
Nous vous prions instamment de nous rappeler ce numéro dans votre correspondance afin d'éviter tout retard dans nos réponses.
Agréez, M , nos salutations distinguées.

وثيقة خاصة بالتعويضات نتيجة الحروب تعود لشركة واي روفي المساهمة، يعود تاريخ هذه الوثيقة إلى سنة 1922م، حيث كان يهود مصر يمتلكون ما نسبته تسعين بالمائة من الأسهم الموجودة في البورصة قبل أن يتم طردهم من مصر سنة 1956م.

آنذاك لم تكُن ليليان عبده وحدها، فقد تم إجبار عشرين ألف يهوديّ مصري على الرحيل عن مصر في الفترة الممتدة من تشرين الثاني 1956م وحزيران 1957م بعد أن تم سحبُ جنسيتهم المصريّة وسحبُ جواز السفر المؤقت الذي كان مكتوباً عليه عبارة "لا يُسمح لحامل هذا الجواز بالعودة". وحتى تاريخ السابع من كانون الأول من سنة 1956م كانت السلطات المصرية قد اعتقلت تسعمئة يهوديّ مصريّ على الأقل، وفي الفترة الأولى لبداية ترحيل يهود مصر كانت السلطات المصرية تُمارس ضدّهم أقسى أساليب الترويع والإرهاب والحرب النفسيّة [50]، كما كانت أسماء اليهود تُكتبُ في القوائم السّوداء بشكل عشوائي دون أي ذنب أو جريمة اقترفوها، وقد بلغ الأمرُ إلى درجة أن اليهودي كان يذهبُ إلى عمله بعد قضاء إجازته ليجدَ شخصاً آخر من مسلمي مصر قد حَلّ محَلّهُ وأخذَ وظيفته. [51]

في الوقت نفسه كانت السلطات المصرية تمارس الضغوط والتضييق على التجار اليهود، فكان يتم سحب رخص الاستيراد والتصدير منهم، كما كانت تُشرّع القوانين والتشريعات المتعلقة بالجنسية المصرية بما يتلائم مع منع اليهود من الحصول عليها. وفي سنة 1959م تم إضافة خانة الديانة إلى بطاقة الهوية، الأمر الذي شكّل عقبة كبيرة أمام اليهود في إيجاد فرص للعمل، ذلك لأن عدداً كبيراً من الشركات والمصالح التجارية المصرية كان يرفضُ تشغيل اليهود. [52]

ومن وجهة نظر أخرى يدّعي البعضُ بأن قيام السلطات المصرية بطردِ يهود مصر هو تصرّفٌ مبررٌ في ظل سعي مصر للاستقلال والتحرر من كل ما له علاقة بالاستعمار الأجنبي، حيث تم طرد جميع الرعايا البريطانيّين والفرنسيّين بعد حرب سنة 1956م نتيجة لمشاركة كلٌ من فرنسا وبريطانيا في الحرب على مصر. لكن ما لا يمكنُ تبريره هو قيام السلطات المصرية بطرد يهود مصر وعوائلهم على الرغم من أنهم يهود مصريون ولا يحملون أي جنسية إسرائيلية ولم توجد أي علاقة تربطهم بإسرائيل، حيث كان جميع يهود مصر حينها موجودين تحت الإقامة الجبرية التي فرضها عليهم الأمن المصري [53]، فيما أصدر وزارة الأوقاف المصرية قراراً ينص على أن "جميع يهود مصر هم صهاينة، بالتالي فهم أعداء للدولة المصرية". [54]

لقد كان لسياسات جمال عبد الناصر أثرٌ اقتصاديّ كارثيّ على يهود مصر فيما يتعلق بالتجارة، خاصة وأنهم كانوا روّاد هذا المجال، كما أدت سياساته أيضاً إلى إقصاء اليهود الأطباء والمهندسين والمحامين وحرمانهم من الحصول على الوظائف، كما تم طردُ الموظفين والعمال اليهود من المصالح التجارية التي كان يمتلكها اليهود وغير اليهود في مصر بعد أن تم إجبار اصحاب تلك المصالح على طردهم. في الوقت نفسه لم يتم طردُ الأرمن أو اليونان أو الإيطاليين من غير اليهود، خاصة بعد أن أعلنت دولة اليونان أنها تقف بجانب دولة مصر، إلا أن هذا لم يشفع للرعايا لليونان، فلاحقاً صار اليونانيّون مَكروهين ومنبوذين من قبل المصريين، تماماً مثلما حدث مع يهود مصر.

وفي شهر تموز من سنة 1957م أصدرت السفارة الأمريكية في القاهرة تقريراً جاء فيه أن "اليونان والطليان والأرمن وغيرهم من الأقليات المسيحية الأخرى في مصر جميعهم تأثروا سلباً بنتيجة حرب السويس سنة 1956م [55]، إلا أن قيام دولة إسرائيل والحروب التي نشبت بينها وبين مصر قد تركت أثراً سلبياً كبيراً على يهود مصر بالتحديد، وقد دفعوا ثمناً أكبر بكثير من الثمن الذي دفعته الأقليات الأخرى عقب الحرب"، بالتالي تم طردُ يهود مصر جميعهم ولم يتبقّ في مصر في تلك الفترة سوى سبعة آلاف يهوديّ فقط. [56]

ويقول جورج نَلدرت الذي شغل منصب نائب مدير الشرطة البريطانية في مدينة القاهرة واصفاً السياسات القمعية الشنيعة التي ارتكبتها السلطات المصرية ضد اليهود الذين لم تكن لهم ايّ صفة قانونية في البلاد: "لقد عومل يهود مصر سواءاً كان أولئك الذين كانوا يوصفون بأنهم صهاينة أو غير صهاينة بنفس الطريقة، كما كانت القيود المالية والإقامات الجبرية ومصادرة الأملاك ومظاهر الاستقواء وغيرها من السلوكيات التي تُثبتُ وجودَ سياسة تنكيل متعمدة انتهجها النظام المصري في تعامله مع الأقلية اليهودية، هذه الأقلية التي يفترضُ أن تكون محميةً بموجب القانون". [57]

حينها ازداد الوضع سوءاً بالنسبة ليهود مصر لدرجة لا يمكن تخيلها، خاصة بعد أن بدؤوا يتعرّضون لهجمات واعتداءات انتقامية عقب انتهاء حرب الأيام الستة، فيما راح ضحيّتها قرابة ثلاثة عشر يهودياً مصريّاً.في الوقت نفسه قام جمال عبد الناصر بتبني سياسة الإصلاح الزراعي وسياسة التأميم الاشتراكية للعديد من الممتلكات الخاصة خلال ستينيات القرن الماضي، الأمر الذي ألحق ضرراً كبيراً بأكثر من ستمائة عائلة مصرية من العائلات الثريّة من اليهود والأقباط اضافة إلى أصحاب الأملاك من المسلمين والأجانب.

صورة تظهر فيها سلسلة محلات سكوريل في القاهرة، وهي إحدى المصالح التجارية التي كان يمتلكها اليهود إلى أنهم تم تحويل ملكيتها للدولة المصرية بعد سنة 1956م.

الأعمال المناهضة الصهيونية: كان بالإمكان تجنّبها

يظهرُ دليلٌ للهاتف من مدينة الإسكندرية يمتلكهُ شخص يهوديّ قام بزيارة مصر أن أرقام مكاتب الحركة الصهيونية كانت مدوّنة في دليل الهاتف سنة 1941م دون أن يكون لدى المصريين أي مشكلة في ذلك، ولا غرابة في أمر كهذا لأن قرابة أربعة وعشرين الف يهودي كانوا يعيشون في دولة غالبية سكانها لا يجيدون القراءة ولا الكتابة، حيث كان اليهود يشكلون ما نسبته سبعة بالمئة من سكان الاسكندرية، فكان منهم التجار وأصحاب البنوك والمصانع والمحلات التجارية، لدرجة كان أحد رجال الأعمال اليهود حينها يملكُ مصنعاً لإنتاج العيون الاصطناعية.

إلا أن مناهضة الحركة الصهيونية ومظاهرها لم تكن حتمية وكان بالإمكان تجنبها، خاصة في مصر التي تعتبر بلداً ذا كثافة سكانية عالية إضافة إلى كونها تمتلك مكانة بارزة بين دول العالم العربيّ، لكن مثلما ذكرنا سابقاً فقد أصبح للقوى المتطرفة حضور في الساحة المصرية، الأمر الذي أدى لأن تصبح الصهيونية أحد "المحرّمات" في الحياة المصرية. بالتالي يُمكننا القول بأن وعد بلفور كان بمثابة بداية الصراع العربيّ الإسرائيليّ، حين أعلنت بريطانيا دعمها لإقامة وطن قوميّ لليهود في فلسطين بتاريخ الثاني من شهر تشرين الثاني سنة 1917م على لسان وزير خارجيتها آرثر بلفور.

وبالانتقال إلى أرض فلسطين الانتدابية آنذاك، لم يكن السكان اليهود في يهوده والسامرة - الضفة الغربية - مُهتمين أو حتى مكترثين بالحركة الوطنية العربية قبل وبعد الحرب العالمية الأولى، مثلما يوضح أحد التقرير البريطانية عن تلك الفترة الزمنية. لكن في الوقت نفسه لم يكن الازدياد المطّرَد في أعداد اليهود في أرض فلسطين الانتدابية يُقابلُ بأي معارضة حقيقية اذا ما استثنينا بعض الأعمال الفردية التي كانت تحدث بين الفينة والآخرى[59]، لكن القيادات العربية كانت تحاول بكل ما أوتيت من قوة توحيد العرب حول هدف واحد وهو كراهية اليهود أينما كانوا.

RENOUVELLEMENTS

Validité prolongée pour trois ans à partir du

Le Directeur de l'Office,

Validité prolongée pour trois ans à partir du

Le Directeur de l'Office,

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE

MINISTÈRE DES AFFAIRES ÉTRANGÈRES

OFFICE FRANÇAIS DE PROTECTION DES RÉFUGIÉS ET APATRIDES

CERTIFICAT DE RÉFUGIÉ

non bénéficiaire de la Convention du 28 Juillet 1951

Bénéficiaire de la Convention de New-York de 1954

Article 1er du décret interministériel n° 52-1094 du 25 Septembre 1952. (J. O. du 27 Septembre 1952.

N° d'enregistrement : 135247 986

Bénéficiaire de la Convention de New-York de 1954

Signature du titulaire :

NOTA. — Ce document ne dispense pas son titulaire de la carte de séjour.

Le Directeur de l'Office Français de Protection des Réfugiés et Apatrides

CERTIFIE

que Mademoiselle Racheline Vivia ACKER

demeurant à Paris

né (e) le 18.6.44

à Alexandrie (Egypte)

fils (fille) de Isaac ACKER

et de Lily SHUAL

est réfugié (e) prov.d'Egypte(Apatride)

et qu'il (elle) est placé (e) sous la protection juridique et administrative de l'OFFICE, comme réfugié (e) relevant du mandat du Haut Commissaire des Nations Unies pour les réfugiés.

Ce certificat est valable :

du 12.5.1961 au 12.5.1964

Paris, le 12.Mai 1961

Le Directeur,

صورة بطاقة اللجوء لڤيڤيان عكر ليڤي والصادرة عن الحكومة البريطانية

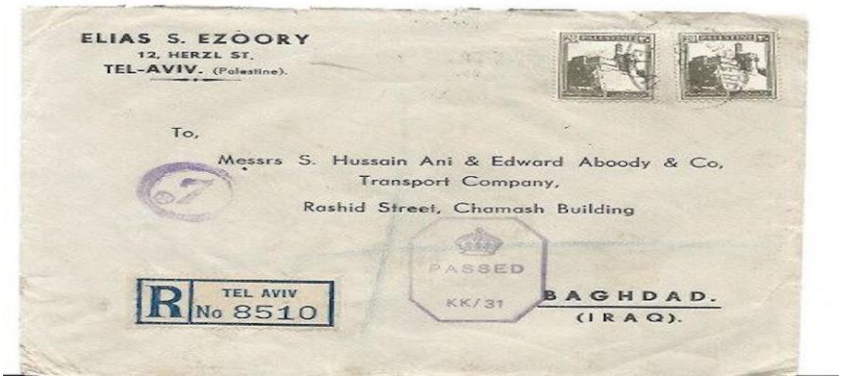

رسالة إلى بنك زِلخا في بغداد، حيث لم يكن هنالك حاجة لذكر الاسم الكامل للبنك، خاصة وأنه كانت هنالك علاقات بريدية جيدة بين العراق وفلسطين الانتدابية حتى منتصف ثلاثينيات القرن الماضي. (حقوق الصور محفوظة لمجموعة صور لورنس جوليوس).

وعلى الرغم من ازدياد حالة المعارضة التي بدأت تتشكلُ تدريجياً بين الفلسطينيّين العرب، كان هنالك فلسطينيون ممن كانوا يرغبون بالتعاون مع الحركة الصهيونية خلال تلك الفترة، ويقول الباحث هِلِل كوهين في هذا السياق: "لقد كان التعاون مع الحركة الصهيونية أمراً دارجاً حينها، وقد اتخذ هذا التعاون أشكالاً مختلفة ومن قِبَلِ مُختَلف الطبقات الاجتماعية والفئات السكانية. في الحقيقة لم يكن هذا التعاون أمراً رائجاً فحسب، بل جسّد هذا التعاون صفة بارزة من صفات المجتمع الفلسطينيّ وصِفات قيادته السياسية آنذاك". [60]

وقد صرّح مُحرر جريدة الأهرام المصرية سنة 1913م قائلاً:"هنالك حاجة ماسّة لوجود الصهاينة في هذه المنطقة، فالأموال التي سيجلبونها والفكر والذكاء الذي يتمتعون به إضافة إلى جِدّهم ومُثابرتهم هي أمور كفيلة بأن تخلق نمط حياة جديدة في هذه المنطقة دون أدنى شكّ" [61].
كذلك فقد التقى الأمير فيصل - الذي عيّنته بريطانيا حينها على العراق وسوريا- بِالدكتور حاييم وايزمان رئيس الحركة الصهيونية حينها في شهر كانون الثاني من سنة 1919م، وأصدر كلاهما المعاهدة المعروفة باسم "فيصل – وايزمان" والتي نصّت على وجود تعاون عربيّ وصهيونيّ حينها، ويقول الملك فيصل في أحد تصريحاته بعد لقاء حاييم وايزمان وتوقيع المعاهدة: "نحن العرب، ننظر بتعاطف عميق إلى الحركة الصهيونية، حيث يعترف وفدنا هنا في باريس بكامل المقترحات التي قدمتها الحركة الصهيونية إلى مؤتمر السلام، معتبرينها اقتراحات متواضعة ومنصفة، وسوف نبذل قصارى جهدنا في حدود ما يتصل بنا لتقديم يد العون، كما نتمنى لليهود استقبالاً حاراً عند عودتهم إلى موطنهم" [62].

في الواقع فقد نشطَت المجموعات الصهيونية بكل حرية في المنطقة حتى ثلاثينيات القرن الماضي، وكانت اللغة العبرية تُعلّم بكل حرية في سلسلة مدارس اتحاد المدارس الإسرائيلي العالميّ، كما كان هنالك تبادل تجاريّ بين فلسطين الانتدابية والعراق، وكان يتحرك اليهود بين الدولتين بمنتهى حرية. وفي هذا السياق أريد أن أذكر مثالاً عن شخص يهودي يدعى ر.ز اسلاني والذي زار العراق وبعث برسالة بتاريخ الثالث من شهر تشرين الأول سنة 1934م إلى صديقه الذي كان يعملُ في وزارة الداخلية العراقية حينها، حيث أراد أن يشكره على كرمه وحسن ضيافته واستقباله له في بغداد، آملاً أن يردّ له الزيارة يوماً من الأيام إذا ما نوى زيارة فلسطين. في الوقت نفسه يعبّر زاسلاني في رسالته عن صدمته العميقة من الأعمال المعادية لليهود بعد أن تم حظرُ صحيفتي "فلسطين بوست" و"السجل اليهودي" في بغداد، مُستغرباً كيف تم طردُ العديد من اليهود من وظائفهم وأشغالهم حينها. [63]

كذلك فقد دعم عددٌ من المسؤولين البارزين في الدول العربية حينها إقامة مستعمرات صهيونية على أرض فلسطين الانتدابية، آملين أن تساهم الهجرات اليهودية في تحقيق ازدهار اقتصادي في المنطقة، الأمر الذي من شأنه ان يُقرّب بين مستوى الحياة في الشرق الأوسط ومستوى الحياة في أوروبا. وكان من هؤلاء المسؤولين رئيس الوزراء المصري السابق زوار باشا والذي حضر بنفسه مراسم الإعلان عن توقيع وعد بلفور سنة 1917م، إضافة إلى الوزير المصريّ أحمد زكي والذي بارك خلال أحد تصريحاته لليهود على نجاحاتهم المتواصلة والمميزة في أرض فلسطين قائلاً: "إن انتصار فكرة الصهيونية هو بمثابة نقطة تحول على طريق تحقيق قيمة عليا هامة جداً بالنسبة لي، وهي أهميّة إعادة إحياء حضارة الشرق من جديد". [64]

وبعد مرور سنتين توجّه فريدريك كيش الرئيس التنفيذي لمنظمة (The Zionist Executive) إلى القاهرة من أجل إجراء مباحثات مع ثلاثة من كبار القيادات المصرية حول العلاقات المستقبلية بين مصر والحركة الصهيونية، فيما عبّرت عدد من الشخصيات المصرية عن تأييدهم ومساندتهم للحركة الصهيونية، كما وضّحوا أهمية الحركة الصهيونية في خلقِ حضارة شرقيّة جديدة متقدّمة ومتطوّرة بحسب ما أوضح فرديريك كيش في مذكراته [65]. وسنة 1925م قام وزير الداخلية المصري حينها اسماعيل صِدقي بقمع مظاهرة قام بها عدد من الفلسطينيّين في القاهرة احتجاجاً على وعد بلفور، حيث جرت المظاهرة في الوقت الذي كان الوزير متوجّهاً إلى القدس بهدف المشاركة في افتتاح أوّل جامعة عبريّة في أرض فلسطين الانتدابية. [66]

وسنة 1926م أقامت الحكومة المصريّة حفل ترحيب واستقبال لوفد من اتّحاد المعلّمين اليهود والذين قدِموا من فلسطين الانتدابية لزيارة مصر، كذلك فقد توجه عدد من طلاب الجامعات المصريّة في زيارة رسميّة إلى مدينة تل أبيب بهدف المشاركة في عدد من المسابقات الرياضية التي أقيمت هناك. وفي سنة 1929م عندما بدأت وتيرة أحداث العنف بين العرب واليهود في فلسطين الانتدابية بالتصاعد، أصدر وزير الداخلية المصري أوامره للإعلام المصري بإزالة المقالات والمحتوى الإعلامي المُعادي للصهيونية واليهودية. وقد سمحَت الحكومة المصرية سنة 1933م لقرابة ألف مُهاجر يهوديّ بالسفر إلى فلسطين الانتدابية عبر ميناء بور سعيد، بالتالي فإن هذه الأمور وغيرها جعلَت حركة الإخوان المُسلمين التي تحملُ الفكر النازيّ في حالة من اليأس والإحباط لعدم قدرتها على تنفيذ أفكارها ومخططاتها المعادية لليهود.

وفي هذا السياق ذكرَ أحد المُتحدّثين الرسميين باسمجماعة الإخوان المسلمين في القاهرة سنة 1933م بأن "درجةَ التعليم والثقافة التي يتمتع بها عامة الشعب في مصر كانت متواضعة إلى حد ما، بالتالي لم يكن من السهل على المصريين فهم نظريّة الأعراق بعد، أي لم يكُن هنالك أي إدراك بين عامة الشعب المصريّ لحجم الخطر الذي يشكّلهُ اليهود على مصر...." [67].

وقد قام عددٌ من الشخصيات السوريّة البارزة من الطائفة العلويّة سنة 1936م بإرسال رسالة إلى وزير الخارجية الفرنسيّ، معبّرين فيها عن قلقهم العميق على مستقبل هذه المنطقة نتيجة لحالة معاداة وكراهية اليهود. فكان مما كتبوه في هذه الرسالة: "لقد جلبَ اليهود الأمن والسلام والاستقرار إلى العالم العربيّ والإسلاميّ، وقد ساهموا في تحقيق حالة من الازدهار في أرض فلسطين الانتدابية دون أن يقوموا بإيذاء أحد أو سلب أي شيء بالقوّة. لكن على الرغم من ذلك فقد قابل المسلمون هذا بإعلان حربهم المقدّسة عليهم، فلم يتردّدوا لحظة في قتل اليهود وأطفالهم ونسائهم وارتكاب المجازر بحقّهم. بالتالي وانطلاقاً من هذه المعطيات فإن هنالك مستقبلاً أسوداً ينتظرُ اليهود في هذه المنطقة في حال انسحبَت قوى الانتداب البريطاني والفرنسي واتّحَد مسلمو سوريا مع مسلمي فلسطين". وربما يستغربُ القاريء حين يعلمُ أن أحد الموقّعين على هذه الرسالة كان جَدّ الرئيس السوري الحالي بشّار الأسد. [68]

لقد كان ليون كاسترو الذي شغل منصب السكرتير العام لحزب الوفد المصري مثالاً حياً على إمكانية أن يكون المرءُ مصرياً وطنياً مُنتمياً لبلده وصُهيونياً في الوقت نفسه، وفي هذا السياق يقولُ الصحفيّ والدبلوماسيّ مصريّ الأصل إريك رولو في مذكراته: "لقد تمتع نشطاء وأعضاء الحركة الصهيونية بمنتهى الحريّة في مصر، كما كان للوكالة اليهودية وللصندوق القوميّ اليهودي - الذي تم تأسيسه سنة 1901م - نشاط واسع في القاهرة، فكان الصندوق القوميّ اليهوديّ مكرّساً لدعم وتطوير وإصلاح الأراضي بهدف تسكين اليهود في أرض فلسطين الانتدابية، وكان يجمع التبرعات في الكُنُس والمعاهد الدينية". [69]

وعلى الرغم من أن إريك رولو كان أحد المُنتقِدين للصهيونية واصفاً إياها بأنها "حركة وطنية ذات رؤية ضيّقة" إلا أن إريك كان ينتمي إلى حركة يهودية صهيونية تُدعى هشومير هتسعير - تعني الحُرّاس الشبّاب بالعربية -، وهي حركة تصنف على أنها حركة صهيونيّة يسارية، فيقول إريك واصفاً تلك الحركة: "هنالك المئات من الشباب الصهيونيّ الذين انضموا إلى هذه الحركة، فدرسوا التاريخ اليهودي فيها وشاركوا في النقاشات الفلسفية التي كانت تطغى عليها أفكار حزب العمل اليهوديّ". [70]

ولفترة زمنية ليست بالبعيدة، كان هنالك مفكرون ومثقفون مصريّون ممن لم يكونوا يمتلكون أي شكل من أشكال معاداة السامية، بل كانوا مُحابين للسامية إلى حدٍ ما، فعبّروا بكل صراحة عن أفكارهم ومشاعرهم التي كانت مؤيدة للفكر الصهيونيّ. في الوقت نفسه كانت هنالك حالة من الصراع بين قوى الحداثة في مصر وبين القوى الدينية المتشددة والمتطرفة، فكان المفكرون والمثقفون المصريون يُحاربون الخطابات التي كان يُلقيها أئمة الإخوان المسلمين في المساجد أثناء خطبة يوم الجمعة والتي كانوا يُحرّضون فيها على اليهود، مُدّعين بأن هنالك هجمة يهودية شرسة ضدّ المسجد الأقصى في القدس، بل وأن هنالك هجمة شرسة يشنّها اليهود ضد القرآن نفسه!

لكن في الوقت نفسه كانت هناك شخصيات دينية تقف أمام هذه الشائعات الكاذبة والأخبار المُضللة والمحرضة، مثل شيخ الأزهر - الذي يعتبر أهم صرح دينيّ سُنّي في العالم العربي والإسلامي - حينها والذي منع ترويج أي أخبار كاذبة أو معلومات زائفة ومضللة تنشرُ بهدف التحريض ضد اليهود، إضافة إلى المستشار علي ماهر الذي شغل منصب كبير مستشاري الملك فاروق، والذي دعا حينها إلى إقامة دولة فلسطين الموحّدة القائمة على التسامح المتبادل والسماح للهجرات العربيّة واليهوديّة إليها على حدٍ سواء. [72]

وحتى الفترة التي اندلعت فيها الثورة العربية في أرض فلسطين الانتدابية (بين سنتي 1936م و1939م) لم يكُن يُنظرُ للانتماء إلى الحركة الصهيونية على أنه خيانة لمصر أو أنه أمر يتعارض مع الإخلاص والولاء للدولة المصرية [73].
لكن ومع الأسف الشديد، تحوّل هذا الأمر الى نقيضه بعد مضيّ قرابة عشر سنوات على اندلاع تلك الثورات، فأصبحَت كلمة صهيونية في مصر تحمل دلالات ومعاني الخيانة والعمالة والعِداء للحركة الوطنية المصرية ولدولة مصر.

قائمة الملاحظات والحواشي

1. Robert S. Wistrich, 'Islamic judeophobia: an existential threat', *Nativ*, Vol. 2, 2004, http://www.acpr.org.il/english-nativ/02-issue/wistrich-2.htm. (Last accessed 26 April 2017).

2. Association Internationale Nebi Daniel – History, http://www.nebidaniel.org/ histoire.php?lang=en. (Last accessed 26 April 2017).

3. Ruth Toledano Attias, 'La dénationisation des juifs d' Egypte' in S. Trigano (ed.), *La Fin du Judaïsme enterresd'Islam*(France: Denoël, 2009), p.63.

4. Michael Laskier, *Jews of Egypt* (New York University Press, 1992), p.9.

5. Shmuel Moreh & Zvi Yehuda (eds), *Al-Farhud*(Jerusalem: Hebrew University Magnes Press, 2010), p.120.

6. G. Bensoussan, *Juifsen Pays Arabes: Le Grand Déracinement 1850–1975* (Paris: Tallandier, 2012).p.519.

7. Kattan, *Adieu Babylone*(Montreal: La Presse, 1975), p.82.
8. 83.ص ,نفس المصدر.

9. Shmuel Moreh and Zvi Yehuda, *Al-Farhud*, p.120.

10. 1–130 ص ,نفس المصدر.

11. Stillman, *The Jews of Arab Lands*: *A History and Source Book* (Philadelphia, PA: Jewish Publication Society of America, 1979), Vol. II, p.56.

12. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.537.

13. 513 ص ,نفس المصدر

14. Harold Troper, *The Ransomed of God* (Malcolm Lester, 1999), p.2.

15. Itamar Levin, *Locked doors* (Praeger, 2001), p.170.

16. J-P. Allali, *Les réfugiéséchangés*(JIPEA, 2007), p.109.

17. نفس المصدر

18. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.532.

19. 'How Bourguiba's Tunisia pushed out its Jews', *Point of No Return*, 15 October 2008, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2008/10/how-bourguibas-tunisia-pushed-outits.html. (Last accessed 26 April 2017).

20. 'The truth about Morocco: fear made Jews leave', *Point of No Return*, 11 September 2016,http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2016/09/the-truth-about-morocco-fear-madejews.html. (Last accessed 26 April 2017).

21. Ian Buruma, 'Revolution from Above', *New York Review of Books*, 1 May 2003.

22. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.536.

23. Abitbol, *Le Passé d'uneDiscorde: Juifs et Arabesdepuis le VIIe siècle* (Paris: Perrin, 2003),p.375.

24. Rafael Medoff, 'New Research sheds light on Nazi influence in the Arab world', *JNS*, 30 April 2013, http://www.algemeiner.com/2013/04/30/new-research-sheds-light-on-naziinfluence-in-arab-world/#.(Last accessed 26 April 2017).

25. Shmuel Trigano, 'The expulsion of Jews from Muslim Countries: a history of ongoing cruelty and discrimination', *Jerusalem Centre for Public Affairs*, 4 November 2010, http://jcpa.org/article/the-expulsion-of-the-jews-from-muslim-countries-1920-1970-a-history-of-ongoing-cruelty-and-discrimination/. (Last accessed 26 April 2017).

26**.** Arab League Draft Law regarding Jews in Arab countries, 1947.
مسوّدة القانون الذي أقرته جامعة الدول العربية سنة 1947م.

27. Moreh and Yehuda, *Al-Farhud*, p.142.

28. Itamar Levin, *Locked doors* (Praeger, 2001), p.171.

29. 'Jews in Islamic lands: Syria', *Jewish Virtual Library*, February 2016, https://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/anti-semitism/syrianjews.html. (Last accessed 26 April 2017).

30. Laskier, *Jews of Egypt* (New York: New York University Press, 1992), p.264.

31. See Shmuel Trigano, 'The expulsion of Jews from Muslim Countries 1920–70: a history of ongoing cruelty and discrimination', *Jerusalem Centre for Public Affairs*, 4 November 2010, http://jcpa.org/article/the-expulsion-of-the-jews-from-muslimcountries-1920-1970-a-history-of-ongoing-cruelty-and-discrimination/. (Last accessed 26 April 2017).

32. Lyn Julius,'Rewriting Jewish history in Lebanon', *Clash of Cultures* blog, *Jerusalem Post*, 11 April 2016, http://www.jpost.com/Blogs/Clash-of-Cultures/Rewriting-Jewish-historyin-Lebanon-450703. (Last accessed 26 April 2017).

33. *Une petite histoire des juifs du Liban*', Review of Yves Turquier's eponymous film, *Point of No Return*, 25 September 2008, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2008/09/jewsof-lebanon-joie-de-vivre-in-exile.html. (Last accessed 26 April 2017).

34. 'Three little words that say apartheid', *Point of No Return*, 10 January 2014, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2014/01/three-little-words-that-say-apartheid.html. (Last accessed 26 April 2017)

35. Jacques Taïeb, 'L' échec de l'intégration des juifs de Tunisie' in S. Trigano (ed.), *La fin dujudaïsmeenterresd'Islam*(France: Denoël, 2009), p.368.

36. M. Laskier, *North African Jewry in the 20th Century* (NYU Press, 1994), p.171.

37. See Trigano, 'The Expulsion of Jews', *JCPA*, 4 November 2010.

38. See Bensoussan, *Juifsen pays arabes*, p.522.

39. Richard Ayoun,'De l' émancipation à l'éxodebrutale des juifsd'Algerie' in S. Trigano (ed.), *La fin du judaïsmeenterresd'Islam*(France: Denoël, 2009), p.224.

40. 'Jews in Islamic lands: Syria', *Jewish Virtual Library*, February 2016, https://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/anti-semitism/syrianjews.html. (Last accessed 26 April 2017).

41. See Allali, *Les réfugiéséchangés*, p.106.

42. Shlomo El-Kivity interviewed in T. Morad, D. Shasha and R. Shasha (eds), *Iraq's last Jews* (US: Palgrave Macmillan, 2008), p.22.

43. For more about the Shafiq Ades case, see Charles Tripp, *A History of Iraq* (Cambridge University Press, 2000), p.123.

44. Beinin, *The Dispersion of Egyptian Jewry: Culture, Politics, and the Formation of a Modern Diaspora* (Berkeley, CA: University of California Press, 1998), p.108.

45. Also known as the Lavon Affair, the Mishap, or the Unfortunate Business.

46. See Laskier, *Jews of Egypt*, p.144.

47. See Beinin, *The Dispersion of Egyptian Jewry*, p.209.

48. Mina Thabet, ‘Approaching end of Egypt’s Jewish community’, *Mada Masr*, 4 May 2015,http://www.madamasr.com/opinion/approaching-end-egypts-jewish-community. (Last accessed 26 April 2017).

49. Amiram Barkat, ‘Remembering the “Second Exodus” from Egypt’, *Haaretz*, 11 July 2006.

50. Laskier, *Jews of Egypt*, p.256.

51. Albert Tam, who held a senior position in an advertising agency, returned to find Anwar Sadat had taken over his post. (His son’s testimony, 9 January 2017, Centre for Egyptian Jews, Tel Aviv).

52. Levin, *Locked Doors*, p.143.

53. Laskier, *Jews of Egypt*, p.254.

54. Josh Weil, ‘The last Jews of Cairo’, *Guernica*, 8 November 2006.

55. Alexander Kazamias argues in ‘The Purge of Greeks from Nasserite Egypt’ (Journal of the Hellenic Diaspora, 35, February 2009) that the Greek community was not expelled in the wake of the 1957 nationalisations and that 15,000 Greeks stayed on until the early 1960s. The Greek foreign minister Evangelos Averoff struck a deal for the compensation of Greek nationals leaving Egypt: the Greek government would compensate them while the Egyptian government would grant equivalent compensation to Greece by allowing free imports for several years.

يوضح ألكسندر كازاميس بأن المجتمع اليوناني في مصر لم يندثر عقب حرب 1957م وتأميم قناة السويس، وبأن ما تعداده خمسة عشر ألف يوناني قد ظلوا في مصر عقب ذلك حتى بداية الستينات. وقد أبرم وزير الخارجية اليوناني حينها صفقة تعويضات لليونانيين الذين تم ارغامهم على مغادرة مصر تقضي بأن تقوم الحكومة اليونانية بتعويضهم في مقابل أن تسمح الحكومة المصرية بحرية الاستيراد والتصدير من وإلى اليونان لعدة سنوات.

56. Michael R. Fischbach, *Jewish Property Claims against Arab Countries* (Columbia University Press, 2008), p.47.

57. FO 371/125602. UK National Archives, Kew.

58. ‘Post-Weinstein Egyptian heritage at risk’, *Point of No Return*, 7 February 2014, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2014/02/post-weinstein-egypts-heritage-atrisk.html. (Last accessed 26 April 2017).

59. E. Karsh *Islamic Imperialism* (Yale, 2006), p.137.

60. Hillel Cohen, *Army of Shadows* (University of California Press, 2008), p.259.

61. Mark Tessler, *A History of the Israel-Palestinian Conflict* (Indiana University Press, 1994), p.142.

62. *The Syrian Times*,17 July 2014, http://thesyriantimes.com/2014/07/17/faisal-weizmannagreement-between-%D9%90arabs-and-jews-about-palestine-3-jan1919/. (Last accessed 26 April 2017).

63. Mayor Meir Dizengoff archive.

64. Matthias Küntzel, *Jihad and Jew-hatred*, p.6.

65. نفس المصدر

66. 7.نفس المصدر, ص.

67. G. Krämer, *The Jews in Modern Egypt 1914–52* (IB Tauris, 1989), p.278.

68. Ben-Dror Yemini, 'The Jewish Nakba – far worse than the Arab', *Maariv*(translated into English by *Iraqijews*for *Point of No Return*), 20 May 2009, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2009/05/jewish-nakba-more-serious-than.html. (Last accessed 26 April 2017).

69. Alain Gresh, tribute to Rouleau, *Cairo Review of Global Affairs*, quoted in *Point of no Return*, 13 October 2015, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2015/10/cairo-holdstribute-to-journalist-eric.html. (Last accessed 26 April 2017).

70. 'My Egyptian-Jewish childhood', *Point of No Return*, 29 August 2012, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2012/08/eric-rouleaus-egyptian-years.html. (Last accessed 26 April 2017).

71. Samuel Tadros, 'The sources of Egyptian anti-Semitism', *American Thinker*, 13 October 2015, http://www.the-american-interest.com/2014/04/21/the-sources-of-egyptian-antisemitism/. (Last accessed 26 April 2017).

72. Karen McQuillan, 'Hitler's Long Shadow over Israel', *American Thinker*, 4 May 2012, http://www.americanthinker.com/articles/2012/05/hitlers_long_shadow_over_israel.html#ixzz1uAJjQK. (Last accessed 26 April 2017).

73. See Beinin, *The Dispersion of Egyptian Jewry*, p.121.

الفصل السادِس

مُعاداة الساميّة ومُعاداة الصهيونية– أي الظاهرتين سبقَت الأُخرى؟

أعلنَ نائبُ وزير الخارجية الإسرائيلي السابق داني أيالون في خريف عام 2021م عن أوّل حملة حكومية رسميّة لإنصاف اللاجئين اليهود من الدول العربيّة، وقد قوبلَت هذه الحملة بحملة إعلامية مسعورة من قبل الفلسطينيين ومناصريهم حول العالم لتوضيح "المُغالطة الفادحة" في توصيف يهود الدول العربية على أنهم لاجئون. وقد صرَحت العضوة البارزة في منظمة التحرير الفلسطينية حنان عشراوي بأنه لا يمكن وصف يهود الدول العربيّة بأنهم لاجئون، وبأن إسرائيل تستخدمهم كورقة ضغط بهدف وضع المزيد من العراقيل امام عملية السلام، مُدّعية أن "إسرائيل تحاول تشويه الحقائق فيما يتعلّق بموضوع يهود الدول العربية لتُظهر تسامحها مع المضطهدين"، تماماً مثلما تُستَغلُ قضيّة المثليين والدفاع عن حقوقهم على سبيل المثال لإظهار تسامحها وعدم انتهاكها لحقوق الفلسطينيين. وأضافت عشرواي بأنها "حيلة جديدة تتبعها إسرائيل لتصفية قضيّة اللاجئين الفلسطينيين".

وفي تصريح آخر تبدو حنان عشراوي فيه وكأنها "صهيونية"، إلا أنها كانت فعلياً تتابع انتقادها وهجومها على الحكومة الإسرائيلية التي تحاول توصيف يهود الدول العربية على أنهم لاجئون، فتقول في هذا التصريح: "إن الفكرة الجوهرية التي تقوم عليها الحركة الصهيونية هي اعتبار أرض إسرائيل بأنها الوطن القوميّ لليهود، واستناداً إلى هذه الفكرة فإن اليهود الذين يعيشون في إسرائيل هم مواطنون في يعيشون وطنهم، بالتالي فإن صفة لاجئ لا تنطبق عليهم بأي شكل من الأشكال، إذ لا يُمكن لهُم ان يكونوا عائدين إلى إسرائيل التي تعتبر وطنهم ولاجئين من أوطان أخرى في الوقت نفسه [1]. وإن كانت إسرائيل هي وطنهُم القوميّ فهُم ليسوا لاجئين، والوصف المناسبُ لهم هو أنهم مُهاجرون عادوا إلى وطنهم دون إكراه أو إجبار، بل عادوا إلى وطنهم نتيجة قرار سياسي آنذاك". [2]

بمعنى آخر، ما كانت حنان عشراوي تريد أن تقوله هو أن الدول العربية لا تتحمّلُ أي مسؤولية عن خُروج يهود الدول العربيّة من بلدانهم التي عاشوا فيها، وهذا لا يتعارضُ مع ما يؤمنُ به الرأي العام في الدول العربية، حيثُ لا يزال العربُ غير مقتنعين بأن اليهود عاشوا في الدول العربيّة في يوم من الأيام، بل وصل الأمور إلى حد اتّهام يهود البلدان العربية بالكذب حين يقولون بأنهم عاشوا في تلك البلدان في يوم من الأيام، تماماً مثلما حدثَ مع إليس دويك عندما تحدّث عما حدث أثناء ترحيله من مدينة القاهرة إلى بريطانيا.[3]

وإضافة إلى هذا كله فإن للأنظمة العربية مصلحةٌ كبيرة في إنكار قضية لجوء وترحيل يهود الدول العربية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، "لا يذكرُ" وزير الخارجية العراقي السابق توفيق السويدي أي وجود لليهود أو نزوح لهُم من العراق في مذكراته، على الرغم من أنه كان من أبرز الشخصيات العراقية الرسمية التي ساهمَت في هذا النزوح [4]. بالتالي فإن اعتراف العرب بالمسؤولية تجاه نزوح يهود الدول العربية يعني اعترافهُم رسمياً بأن اليهود هُم الضحايا لما حدَث، ومثل هذا الاعتراف سيفتحُ الباب على مصراعية للمطالبة باعتذار الدول العربية عما فعلته باليهود إضافة للمطالبة بالتعويضات المادية عمّا حدث، والأهم من هذا كله هو أن هذا الاعتراف من شأنه أن يُضعِف الرواية الفلسطينية التاريخية بكل تأكيد.

واستناداً إلى تعريف المفوضيّة السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين فإن تعريف اللاجئ ينطبقُ على يهود الدول العربية التي نزحوا منها، حيث تُعرّفُ المفوضيّة اللاجئ على أنه "كل شخص يوجد، بسبب خوف له ما يبرره من التعرض للاضطهاد بسبب عرقه أو دينه أو جنسيته أو انتمائه إلى فئة اجتماعية معينة أو آرائه السياسية، خارج بلد جنسيته، ولا يستطيع، أو لا يريد بسبب ذلك الخوف، أن يستظل بحماية ذلك البلد، أو كل شخص لا يملك جنسية ويوجد خارج بلد إقامته المعتادة السابق بنتيجة مثل تلك الأحداث ولا يستطيع، أو لا يريد بسبب ذلك الخوف، أن يعود إلى ذلك البلد".[5]

في الوقت ذاته اعترفَت المفوضيّة السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بقضايا اللاجئين اليهود في موقفين منفصلين، الموقف الأول كان عندما اعترفَت اوغَست لِندت رئيسة المفوضيّة السابقة بقضيّة لجوء يهود مصر واعتبرتها قضيّة لجوء حقيقية وأن صفة اللجوء تنطبقُ عليهم [6]. أما الموقِف الثاني فتتعلّقُ بقضيّة يهود الليبيّين والذين وصفتهُم المفوضيّة بأنهُم لاجئون تبعاً لتعريف المفوضيّة السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين وبأنهم يَقَعون تحت وصايتها ورعايتها.

وخلافاً لما صرَحت به حنان عشراوي فإن يهود الدول العربيّة لم يكُن أمامهم أي خيار آخر سوى الرحيل من أوطانهم التي وُلدوا وترعرعوا فيها نتيجة أسباب قاهرة دفعتهم للنزوح، بدءاً بالاضطهاد والظلم الذي تعرَضوا له في بلدان العالم العربي وانتهاءاً بالطرد والنفي من تلك البلدان، بالتالي فإن تعريفَ اللاجيء ينطبقُ عليهِم دون أدنى شكّ.

لكن يهود الدول العربيّة لا يصِفون أنفسهم على أنهم لاجئون لأن الدولَ التي لجؤوا إليها قد منحتهُم الجنسيّة الكاملة، بمعنى آخر فقد كان هنالك حلٌ إنساني آنذاك لقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية. في الوقتِ نفسهِ لا يرغبُ ولا يستطيعُ يهود الدول العربيّة العودة إلى بلدانهم تحت أي ظرف، لأن تلك الأوطان التي كانت مسقطَ رأسهِم قد عرّضَتهُم لشتّى أنواع العذاب والاضطهاد، وكانت بلداناً لم يأمنوا فيها على حياتهم وممتلكاتهم حتى اليوم الأخير لنزوحهم منها. بالتالي فإن تعريفَ المفوضيّة السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين الذي ينصّ على أن اللاجيء هو أيضاً "مَن لا يستطيع العودة إلى وطنه نتيجة الخوف من الاضطهاد" ينطبقُ بكل حذافيره على يهود الدول العربيّة بكل تأكيد، بما فيهم اليهود الذين كانوا يعيشون تحت حماية الدول الاستعمارية الغربية حينما تعرّضوا للتهجير من أوطانهم.

في الوقت نفسه هنالك مُنتقدون لقضيّة لجوء اليهود من الدول العربية، حيث يدّعون بأن صفة اللجوء لا تنطبقُ عليهم لأنهم لم يخرجوا دفعة واحدة من أوطانهم، لكن يبدو أن هؤلاء نَسَوا أو ربّما تناسوا أن قرابة تسعين بالمئة من يهود العراق وسوريا وليبيا واليمن قد نزحوا من هذه الدول على مدار ثلاث سنوات بعد حرب 1948م [7]، أما الباقون فقد تم تهجيرهم من الدول العربية على مدار ثلاثين سنة بدءاً من سنة 1948م وصولاً إلى سنة 1972م، وبالنسبة للأرقام فقد انخفض عدد السكان اليهود في الدول العربية إلى النصف مع حلول سنة 1958م، ومن ثم انخفض بشكل ملحوظ جداً ليبلغ تسعة بالمئة فقط.[8]

كذلك فإن بقاء اليهود في الدول العربيّة وعدم خروجهم دفعة واحدة يُعزى إلى أنهم كانوا مُحتَجزين كرهائن لدى الحكومات العربية، ناهيك عن القيود المُشدّدة التي فُرِضَت عليهم من أجل منعهم من مُغادرة تلك الدول، حيث كان ذلك هو واقع اليهود في كلّ من سوريا والعراق منذ اللحظة التي سيطر فيها حزب البعث على مقاليد الحكم. وكذلك الحال في اليمن، حيث ظلت قيود السفر مفروضة على اليهود حتى تسعينيات القرن المنصرم، أما في المغرب فقد ظلّت تلك القيود المُشدّدة على سفر اليهود قائمة بين سنتي 1956م و1961م.

واستناداً إلى شِقّ آخر من تعريف المفوضيّة السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين لكلمة لاجيء، لم يجد اليهود أنفسهم مطرودين من أوطانهم فحسب، بل وجدوا أنفُسهم عُرضة للهجوم والاعتداء من تلك الدول باعتبارهم "خونة يتعاونون مع أعداء تلك الدول" على حدّ تعبير الأنظمة العربية في تلك الفترة. بالتالي فإن هذا التعريف ينطبقُ تماماً وبكل حذافيره على يهود الدول العربية لأن - مثلما ذكرنا سابقاً - عودتهم إلى أوطانهم ستُعَرّض حياتهم وأرواحَهُم للخطر.

هنالك ادّعاء شائعٌ جداً بين العرب لدحضِ قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية، وهو أن إسرائيل كانت تسعى لجلب اليهود من كل مكان بهدف زيادة عدد سُكّانها، خاصة بعد أن تم إبادة ثلث يهود العالم في المحرقة، بالتالي كانت تسعى إسرائيل لجلب يهود الدول العربية إليها لأنها كانت تعتمد عليهم في زيادة عدد سكانها إضافة إلى كونهم يشكلون عمالة رخيصة ستفيد إسرائيل كثيراً. لكن الردّ على هذا الإدعاء سهلٌ جداً، لأن إسرائيل عندما جلَبَت يهود اليمن والعراق وليبيا -العلَيوت- كانت تسعى لإنقاذهم من الظلم والاضطهاد والإبادة التي كانوا يتعرضون لها في تلك الدول، أضِف إلى ذلك أن إسرائيل لم تكُن انتقائية في جلبهم، فلم تكُن تجلب اليهود الأصِحّاء مثلاً وتستثني المرضى أو العاجزين أو غير القادرين على العمل [9]، بالتالي فإن قيام إسرائيل بجَلبِ يهود الدول العربية الذين كانت نسبة كبيرة منهم من المرضى وكبار السن والذين لم يكونوا يمتلكون القدرة على العمل في أي حرفة أو مهنة، الأمر الذي شكّل فعلياً عبءاً كبيراً على الدولة، خاصة وأن إسرائيل كانت دولة حديثة الولادة وفي طور البناء، الأمر الذي يجعلُ عبءهُم مضاعفاً.

الغالبيّة السكانيّة التي لم يكن لها علاقة بالحركة صُهيونيّة

لقد نزح ما تعداده 650,000 ألف يهوديّ من يهود الدول العربيّة لأنهم لم يكونوا يملكون أي خيارٍ آخر سوى النزوح، فيما لجؤوا إلى دولة إسرائيل التي ضحَت بقرابة واحد بالمئة من سكانها أثناء الحرب، تلك الدولة التي كانت تُعاني نقصاً وضعفاً شديداً في شتى المجالات. بالتالي فإنه من المنطقي أن نطرحَ هذه الأسئلة: لماذا يتركُ يهود الدول العربية أوطانهم ويُهاجرون إلى هذه الدولة الوليدة التي لا زالت في طور البناء حينها والتي كانت تُعاني النقص والضعف في شتى المجالات إن كانوا بالفعل يعيشون حياة رغيدة في تلك الدول؟ ما الذي دفعهُم إلى القيام بذلك؟

لقد كانَت الدول العربية تُلصقُ تهمة الصهيونيّة بيهود الدول العربية وبأنهم عُملاء للصهاينة، بالتالي كانوا كبشَ الفداء الذي ضحَت به الدول العربية حينها، وفي هذا السياق يقول الصحفيّ والدبلوماسي المصريّ الأصل إرِيك روليو: "لقد كان يهود مصر يشعرون فعلاً بأنهُم مصريون ينتمون لهذا البلد، ولم يكُن للحركة الصهيونيّة أي تأثير عليهِم يجعلهُم يتخلّون عن انتمائهم لمصر" [10]، وهذا ما أكد عليه الكاتب والمؤلف الفرنسي چِلي بيرُو صاحب كتاب (Un Homme Apart) والذي يُعتبرُ سيرة ذاتيّة لليهوديّ المصري الاشتراكيّ هِنري كوريل، يقول چِلي بيرُو في كتابه: "بعيداً عن الأقلية اليهودية المصرية التي كانت تنتمي للحركة الصهيونية، لم يكُن يشعرُ يهود مصر بالحاجة لوجود دولة يهودية أو التوجه إلى الله بالدعاء اليهوديّ المعروف "بإذن الربّ سنذهبُ السنة القادمة إلى أورشليم" طالما كان بإمكانهم أن يركبوا القطار الساعة 9:45 صباحاً والذهاب بسهولة من وإلى أورشليم".

من جهة أخرى، كانت تحاولُ الطبقة اليهوديّة من الأثرياء دعمَ المصالح التجارية والاستثمارات اليهودية في أرض فلسطين الانتدابية لأنه لم يكُن لديهم أي نيّة للخروج من أوطانهم، فعلى سبيل المثال كان يهود بلاد فارس ويهود مصر والعراق يشترون قطعاً من الأراضي في إيرتسيسرايل- أرض إسرائيل - ويتملّكونها بدايات القرن العشرين، لكنهم لم يكونوا يعيشون في أرض إسرائيل بل كانوا يعيشون في تلك الدول.

وبغضّ النظر عن مساعي اليهود وجهود قياداتهم لإظهار انتمائهم لبلدانهم العربية فقد تم تصنيفهُم جميعاً دون استثناء بأنهم "أعداء" من قِبل الأنظمة والقيادات العربية والإسلاميّة المعادية للساميّة، وقد اتخذت الأمور منحنىً خطيراً لدرجة أن تلك الأنظمة كانت على وشك تجريم الديانة اليهودية وتجريم مُعتنقيها في الدول العربية. في الوقت نفسهِ كانت حالة "رهاب الأجانب" (أي الخوف والاحتقار بل وحتى الكراهية لكل ما هو أجنبي) المتجذّرة في العقلية العربية أحد أهمّ الأسباب لطردِ اليهود من تلك البلدان دون استثناء، بما فيهِم اليهود الاشتراكيّون والمناهضون للقوى الاستعماريّة بل وحتى المُعارضون للحركة الصهيونيّة أيضاً. بالتالي ولولا الضغط الذي مورس على يهود الدول العربيّة للخروج من أوطانهم لكانت العَلياه - الهِجرة إلى أرض إسرائيل - أمراً لم يقُم به سوى اليهود الذين ينتمون للحركة الصهيونية والمؤمنين بفِكرها. كذلك فإن اليهود الذين تم طردُهُم من الدول العربيّة نظراً لتوجّهاتهم الصهيونيّة لم تكن تتجاوز نسبتهم العشرة بالمئة من مجموع تلك المُجتمعات اليهودية، وهي بالمناسبة النسبة نفسها لليهود الصهاينة الذين يعيشون في المجتمعات الغربية مُعتبرينها مكاناً "آمِناً" من وجهة نظرهِم.

في الوقت نفسِه فإن الفِكرة القائِلة بأن يهود الدول العربية قد جاؤوا إلى إسرائيل نظراً لكونهم صهاينة قبل أي شيء آخر هي فكرة عززّتها إسرائيل نفسها مع الأسَف، لأن دولة إسرائيل آنذاك لم ترغَب أن ينظرَ يهود الدول العربية إلى أنفُسهم على أنهم لاجئون، بل أرادت أن ينظروا لأنفسهم على أنهُم يهودٌ صهاينة عائدون إلى وطنهِم وأرض أجدادهم، أرض إسرائيل، وهو سلوك يُمكن فهمه إذا ما نظرنا للموضوع انطلاقاً من مفهوم وبُنية الأمّة اليهوديّة. وفي هذا السياق يوضّح داني أيالون كيف جاء والدهُ إلى إسرائيل إيماناً منه بالصهيونيّة قبل كل شيء، بالتالي لم يكُن يُعلّمه عن أي شيء يتعلّق بأصله في البلد الذي هاجر منه الجزائر، ولم يكن يعلم داني بأصوله الجزائرية حتى وقت متأخر.[11]

كذلك فإن منتقدي الحملة التي أطلقها نائبُ وزير الخارجية الإسرائيلي السابق داني أيالون لإنصاف يهود الدول العربيّة يستندون إلى التصريحات التي أدلت بها شخصيات صهيونية إسرائيلية رفيعة مثل ران كوهين الذي جاء إلى إسرائيل سنة 1950م كلاجئ يبلغ من العمر ثلاثين سنة، إضافة إلى يسرائيلييشعَياهو وشلومو هِلِل مِمّن جاؤوا إلى إسرائيل قبل إعلان قيامها واستقلالها سنة 1948م، بالتالي يحاول هؤلاء المنتقدون القول بأن جميع اليهود قد جاؤوا إلى إسرائيل برغبة منهم باعتبارهم صهاينة مؤمنين بالفكر الصهيوني القائم على ضرورة عودة اليهود إلى أرض إسرائيل، بالتالي لا يعتبرون لاجئين مُجبرين على اللجوء إلى دولة إسرائيل.

ومن خلال شهادات وتصريحات تلك الشخصيات يمكنُ للمرء أن يستنتج بوضوح أن مغادرتهم للدول العربيّة كانَت طواعية وبأن سببها هو الاستجابة للنداء الصهيونيّ بالتوجه إلى أرض إسرائيل، لكن في الحقيقة فإن يسرائيلييشاياهو وشلومو هِلِل وران كوهِن لا يمثّلون الغالبية العُظمى من يهود الدول العربية، وأسباب توجههم لإسرائيل لا تمثّل الأسباب الحقيقة التي دفعت بهذا العدد الهائل من يهود الدول العربية للنزوح من تلك الدول. والأمر نفسه ينطبق مع أكثر من مئتي ألف يهودي من يهود الدول العربيّة الذين انتهى بهم المطاف في أوروبا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا ودول أمريكا الجنوبيّة بعد أن تم طردهُم من الدول العربية.

الحركة الصهيونيّة هي "السبب" وراء نزوح يهود الدول العربيّة

هنالك مُغالطة أخرى رائجة جداً في العالم العربيّ تقول بأن الحركة الصهيونية كانت السبب في خروج اليهود من الدول العربية، على الرغم من أنها تتناقض بشدّة مع فكرة "خروج يهود الدول العربية من بلدانهم بمحض إرادتهم دون إجبار"، حيثُ يدّعي من يُؤمنون بهذه المغالطة بأن العملاء التابعين للحركة الصهيونية قاموا بتفجيرات العراق سنتي 1950م و1951م بهدف ترويع وترهيب يهود العراق، وفي كتابه "السلاح وغُصنُ الزيتون" يصفُ ديڤيد هيرست بالتفصيل جميع العمليات التفجيرية التي قامت بها إسرائيل بهدف ترويع وترهيب يهود العراق ومصر بهدف إجبارهم على الرحيل والهجرة إلى وطنهم "الأمن" إسرائيل. كذلك فقد قام العميل السريّ السابق في جهاز الاستخبارات الأمريكية وِلبِر كرين إيڤلاند بالكتابة عن "الجرائم الصهيونيّة ضد العرب في العراق" [12]، بالإضافة إلى كتابات اليهودي العراقيّ "الناقم" على الحركة الصهيونية نعيم جلعادي والذي دائماً ما يُستَشهَدُ بكتاباته بهدف إثبات تلك المغالطة.[13]

وفي بداية ردّي على هذه المغالطة فإنه يستحيلُ علينا معرفةُ الجاني الحقيقي الذي قام بتفجيرات العراق سنتي 1950م و1951م، لكن ما يمكننا قوله في هذا السياق بأن قرابة 80,000 يهودي عراقيّ - أي الغالبية العُظمى من اليهود - كانوا قد نزحوا أصلاً من العراق قبل أن تقع ثلاثة من أصل خمس عمليات تفجير في العراق، حيث تم إجبارهم على التنازل عن جنسيتهم العراقيّة من أجل السماح لهم بالرحيل عن العراق [14]. كذلك فإنه من الجدير بالذكر بأن جميع هذه التفجيرات لم تؤدي إلى مقتل أي شخص، والتفجير الوحيد الذي أدّى إلى سقوط ضحايا كان التفجير الذي استهدف كنيس مسعودة شيمتوڤ الذي كان يُستخدمُ كمكتب لتسجيل اليهود الذين سيتم ترحيلهم، وقد وقع هذا التفجير قبلَ ستة أسابيع من اتخاذ الحكومة العراقية قرار حظر هجرة اليهود من العراق.

في الوقت نفسه فإن المؤرّخ الإسرائيلي توم سيغيف [15]قد أثبت بالأدلة أن من كان يقفُ خلف تفجيرات كنيس مسعودة شيمتوڤ كانوا ينتمون للحركة الوطنية العراقية. واستناداً إلى يهودا تَجير الذي كان عميلاً للموساد الإسرائيلي في بغداد وتم سجنه لمدة عشر سنوات هناك فإن تفجير الكنيس قد تم تدبيره على يد نشطاء في حركة الإخوان المسلمين، وأنه لا يوجد أية صلة لليهود بهذا التفجير لا من قريب ولا من بعيد. ويضيفُ المؤرخ بِني مورِس بأنه عثرَ على وثائق تُظهر تفاصيل تحقيق سرّي أجريَ في إسرائيل سنة 1961م بعد أن أدلى يهودا تَجير بشهادته، بحيث توصلت تلك التحقيقات إلى عدم وجود أي دليل يُشير إلى ضلوع الموساد الإسرائيلي في تفجير كنيس مسعودة شيمتوڤ، بالتالي يؤكد بني مورِس هو الآخرُ أن إسرائيل ليست لها علاقة بأي تفجير من تفجيرات الكُنُس اليهودية في العراق بأي شكل من الأشكال.[16]

في الوقت نفسه ربّما يكون بنِي مورِس قد أشار في كتاباته إلى بعض التفجيرات التي استهدفَت اليهود في مصر والعراق خلال ثلاثينيات القرن العشرين، بالإضافة إلى عملية زرع لعبوة مفخخة في كنيس يهوديّ في سوريا أدى إلى مقتل أربعة عشر يهودياً، لكن بجميع الأحوال لم تقُم أي

جهة باتّهام الموساد الإسرائيلي بالوقوف خلف تلك التفجيرات. كذلك يوجّه البعضُ أصابع الاتهام في قضية هذه السلسلة من التفجيرات إلى أعضاء حزب "الاستقلال" [17]الوطنيّ المتشدد، فيما يتهم البعض الآخر أجهزة الامن بالقيام بهذه التفجيرات باعتباره أن أجهزة الأمن العراقيّة وحدها من كانت تمتلك القنابل اليدويّة المصنفة تحت رقم 36 والتي تم استخدامها في التفجيرات. وقد قامت السلطات العراقية بإعدام "الفاعلين" الصهيونيين الذين اعترفا بقيامهما بتلك التفجيرات تحت التعذيب، فتم إعدامهما في شهر كانون الثاني من سنة 1952م، كما لم يتم توجيه التهم

إليهما فيما يتعلّق بتفجيرات شهر كانون الثاني من سنة 1951م وهو التفجيرالذي خلّف الضحايا.[18]

وفي هذا السياق فقد تمت تبرئة مُردخاي بن پورات- أحد أبرز عملاء الموساد في بغداد - على يد محكمة إسرائيلية بعد أن رفع قضيّة على أحد الصحف الإسرائيلية التي اتهمته بأنه واحد من الضالعين في تلك التفجيرات، حيث استندت المحكمة في تبرئتها له إلى أدلة دامغة [19] تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى عدم ضلوع أي يهوديّ في تفجيرات التي وقعت في كانون الثاني من سنة 1951م، خاصة بعد أن شوهدَ عدد من الباعة المتجولين المُسلمين وهم يقومون بتنظيف مسرح الجريمة - كنيس مسعودة - من أية آثار قد تُشير إلى الفاعلين الحقيقيّين بعد الانفجار.

أما بالنسبة لمصر فإن تفجيرات سنة 1954م والمعروفة باسم عملية سوزانة أو أحداث لاڤون فكانت بالفعل من تدبير مجموعات تنتمي للحركة الصهيونية، حيث تم تجنيد عدد من يهود مصر على يد الاستخبارات العسكريّة الإسرائيلية بهدف وضع قنابل في عدد من دور السينما المصريّة والأمريكية والبريطانية إضافة إلى المكتبات والمراكز التعليمية الأمريكية، لكن ما حدث هو أن القنابل التي تم زرعها في تلك المواقع لم تنفجر.

لقد كان الهدف الرئيسي من وضع تلك القنابل هو اتّهام الإسلاميين ونشطاء الحركة الوطنية المصرية من الاشتراكيين بأنهم يقفون خلف تلك التفجيرات، وذلك حتى تقتنع الحكومة البريطانية بضرورة بقائها في مصر، بالتالي إبقاء قوتها العسكرية في منطقة قناة السويس. فعلياً لم توقِع تلك التفجيرات أي ضحايا، باستثناء إصابة العميل فيليب ناتانزون الذي أصيب عندما انفجرت فيه أحد القنابل التي كان يقوم بوضعها في أحد دور السينما مسببة له إعاقة دائمة. فيما قام عميلان آخران بالانتحار بعد أن تم اعتقالهما، كما تمت مُحاكمة العميل موشيه مرزوق والعميل صموئيل عازَر ومن ثم الحُكم عليهما بالإعدام على يد السلطات المصرية.

وعلى الرغم من أن أحداثاً كهذه من شأنها أن تضع يهود مصر في دائرة الشكّ، إلا أن قادة الأمن الجدد حينها لم يقوموا باتخاذ أو فرضِ أي إجراءات صارمة على اليهود إذا ما قارننا حجم الإجراءات والقرارات بعدد اليهود حينها [20]، بالتالي لا يوجدُ أي علاقة بين هذه التفجيرات وبين قيام الرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر بطردِ خمسة وعشرين ألف يهوديّ مصري بعد سنتين من قيامه بتأميم قناة السويس.

ما تعرّضَ له اليهودُ كان مجرّد "ردّة فِعل"

يدّعي بعضُ المُشكّكين فيما تعرض له اليهود من ظلم واضطّهاد في الدول العربية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بأن الغالبية العُظمى من يهود تلكَ الدول قد رحلوا إلى إسرائيل بمحض إرادتهم، وبأنه لو لم يكُن هنالك وجود لدولة إسرائيل لما اضطرّ يهود الدول العربيّة على مغادرة أوطانهم. بمعنى آخر فإن هؤلاء المُشكّكين يدّعون بأن ما تعرّضَ له يهود الدول العربية من اضطهاد كان مجرّد "ردّة فِعل"، وبأنهم دفعوا ثمنَ قيام دولة إسرائيل والذي يعتبرُ من وجهة نظرهِم أيضاً "خطأً فادِحاً"، بالتالي فإن إجبار الفلسطينيين على النزوح من أراضيهم قابلهُ تصعيد من قِبل الشعوبِ العربيّة تضمّن قمعاً واضطهاداً متواصلاً ليهود الدول العربيّة.

في الحقيقة فقد تأثّرَ يهودُ الدول العربيّة بتداعيات وعدِ بلفور وصدى هذا الوعد في الدول العربية، كما تأثّروا أيضاً بتداعيات قيام دولة إسرائيل لاحِقاً، ففي كل حرب كانت تنشبُ بين الدول العربية وإسرائيل كانت تزداد حدّة التوتّر، فيتزايدُ عدد اليهود الراغبين في الرحيل من الدول العربيّة. بالتالي أصبحَت أصابع الإتّهام توجّهُ لإسرائيل باعتبارها السبب في ردّة الفِعل العربيّة "التي يُمكنُ تفهّمها تماماً" والتي تُبرّرُ تهجير قرابة 850,000 يهوديّ من الدول العربية، أي أن اليهود هُم الوحيدون الذين يتحملون مسؤولية تلك المآسي التي حلّت بهِم.

ولو فكّرنا قليلاً في فكرة "ردة الفِعل العربيّة المُبرّرة" والتي يمكنُ "تفهّمها تماماً"، سنجدُ أنّها أيضاً مغالطة من المغالطات الخاطئة بكل المقاييس، فهذا الادعاء لا يوضّحُ لماذا تعرّضَ أكثر من ألفِ يهوديّ من يهود الدول العربية للقتل قبل قرابة عشر سنوات من قيام دولة إسرائيل، كما أنه لا يُفسر لماذا كان هنالك تصاعدٌ مُستمرٌ في مظاهر معاداة الساميّة التي اتّخذت طابعاً عنيفاً خلال أربعة عشر قرناً من "التعايش اليهوديّ الإسلاميّ" في تلكَ الدول. وإن كانَت "الصهيونيّة" هي المُبرّر للعقاب الجماعيّ الذي تعرَضَت له مُجتمعات يهودية بأكملها - على الرغم من أن الغالبية العظمى ليهود الدول العربية لم ينتموا للحركة الصهيونية - فما الذي يُفسّرُ تعرَضَ اليهود إذاً للقمع والاضطهادِ والمذابح الدمويّة قبل أن تنشأ الحركة الصهيونية وقبل قيام دولة إسرائيل؟

إن الأمثلة التي تشهد على حجم القمع والاضطهاد والظلم الذي وقعَ على يهود الدول العربية قبل نشوء الحركة الصهيونية وقبل قيام دولة إسرائيل زاخرة وعديدة، فهنالك واقعة دمشقَ الدمويّة سنة 1840م، وسلسلة المجازر التي ارتُكبَت بحقّ اليهود في الدول العربية في منطقة شمال إفريقيا بداية القرن التاسع عشر، أضِف إلى ذلكَ تدمير وحرق الكنائس في ليبيا خلال ستينيات القرن التاسع عشر، ومذبحة الدار البيضاء المعروفة سنة 1907م، ومجزرة فاس سنة 1912م،وأعمال العُنف التي استهدفت اليهود في تونس سنة 1917م، ومجزرة مدينة قسنطينة في الجزائر سنة 1934م، وأحداث الرباط وأوجدة ضدّ اليهود خلال سنة 1933م وسنة 1934م وسنة 1938م وأحداث مدينة صِفرو المغربية سنة 1944م، إضافة إلى أحداث مدينة قابِس ومجزرة الفرهود في العراق سنة 1941م والتي ارتكبها العراقيون من مؤيديالفكر النازيّ، بالإضافة إلى أعمال العُنف والاحتجاجات المُعادية لليهود في مصر وليبيا سنة 1945م والتي أدت إلى مقتل قرابة مئة وأربعين يهودياً من يهود تلك الدول. إن هذه الأمثلة وغيرها الكثير كانت نتيجة للتحريض المُمنهجِ الذي مورسَ ضدّ "الآخرين" بشكل عام وضدّ اليهود على وجه التحديد من قبل العرب والمسلمين الذين تأثروا بالفكر النازي وتحريضهم ضد اليهود، ولم يكُن لها علاقة لا من قريب ولا من بعيد بالحركة الصهيونية أو بانتماء يهود الدول العربية لهذه الحركة.[21]

صورة لطابع بريديّ من المغرب يوضّحُ بعضاً من آثار مجزرة فاس المغربية التي ارتُكِبَت بحقّ اليهود سنة 1912م (الصورة مأخوذة من مجموعة صور لورانس جوليوس).

صورة تُظهر اختباء اليهود في حظيرة الملك التي كان يضعُ فيها الوحوش المفترسة الخاصة به، وذلك عقِبمجزرة فاس سنة 1912م

بالتالي يُمكننا القولُ بأن الصهيونيةّ لم تكُن السبب الفِعليّ وراء نزوح يهود الدول العربية ورحيلهم من تلك الدول، ومثلما يوضّحُ المؤرّخُ الفرنسي جورج بن سوسان[22]في هذا الصدد فإن "القضيّة الفلسطينيّة لم تكُن وراء هذا القدر الكبير من العُنف ضد اليهود في الدول العربية، بل إن القضيّة الفلسطينيّة كانت السبب في ظهور هذا العُنف والحقد من صدور حامليه، بالتالي فإن السبب الحقيقي الذي يقفُ خلف هذا الكم الهائل

من العُنف هوَ كمية الحقدِ والكراهية المُبطّنة التي كان يبحثُ أصحابها عن السياقِ والوقتِ المُناسبِ لإخراجها إلى أرضِ الواقع" [23]. وفي السياق نفسه توضّحُ بينينا إلباز عالمة النفس اليهودية الكنديّة مغربية الأصل بأن الحركة الصهيونية كانت الحلّ لإنهاء ما يتعرضُ له اليهود من مظاهر عنف وقمع واضطهاد معادية للساميّة، خاصة بعد أن شهِدت بنفسها حجم التنمّر والإرهاب الذي كان يُحيط بحياة اليهود في المناطق المغربية ذات الغالبيّة المُسلمة، وتَضيف قائلة بأن "هؤلاء الصهاينة كانوا بِمثابة المشيح المُخلّص، لقد أنقَذوا آلاف الأرواح من اليهود".[24]

كذلك فقد كان للجماهير العربية سريعة الانفعال والتي كانت غالبيتها الساحقة من الأمّيين دورٌ هامٌ في المشاركة في ردّات الفعل العربيّة المُتطرفة بعد ظهور الحركة الصهيونية، إلا أن تلكَ الجماهير كانت تُردّد شعارات مناهِضة لليهود لا للصهاينة، مثل شعار "إذبَح اليهود" و"اليهودُ كلاب العرب" وغيرها من الشعارات المَقيتة، الأمر الذي يُشير بكل وضوح بأن السبب وراء تهييج تلكَ الجماهير لم يكُن في الحقيقة يُفرّقُ بين اليهود من جهة ونشطاء الحركة الصهيونية من اليهود من جهة أخرى، بالتالي كانت فقد تمّ إسقاطُ صِفة "الصهيوني" لتُصبح "اليهودي" دون أي تفرقة بين المفهومين، وبنهاية المطاف صارَ اليهوديّ عدوّاً للدولة من وجهة نظرهم.

لقد أصبح جميعُ المواطنين اليهود في الدول العربية بمثابة رهائن لصراعِ العرب مع الحركة الصهيونية، فصارت سياسة العقاب الجماعيّ مَفروضة عليهم على الرغم من أنهم لم يدخلوا في أي صراع مع العرب، وسببُ هذا العِقاب الجماعيّ كان أنهم يتشاركون الديانة نفسها مع مجموعة دخلَت في صراع مع العرب وقامت بممارسات - او كان يُعتقدُ أنها قامَت بممارسات - ضد العرب في فلسطين الانتدابية التي تبعدُ آلاف الأميال عن تلك البلدان العربية. بالتالي صارَت العقوبات التي يتعرَضُ لها اليهود في الدول العربية "شرعيّة" من وجهة نظر العرب على الرغم من أنها تتضمنُ خرقاً صارخاً لحقوق الإنسان.

ولعلّ أبشَع تلك الممارسات القمعية التي تعرض لها اليهود وأكثرها بشاعة كان ما حدث في مصر، حين تم جمعُ اعتقال جميع اليهود الذكور بعد هزيمة مصر في حرب الأيام الستة، فتم اعتقالهم والزجّ بهِم في زنازين العذاب المصرية بصفتهم "أسرى حرب إسرائيليين"!، حيث تعرّض العديد منهُم لأقسى درجات التعذيب والاعتداء الجِنسي، فيما ظلّ بعضهُم لسنوات طويلة خلف قضبان السجون المصرية [25].

إن سياسة العِقاب الجماعيّ التي كانت يتعرَضُ لها اليهود هي سياسة "مشروعة" حتى يومنا هذا مع الأسف الشديد، فعندما يتعرضُ اليهود لاعتداءات إرهابية في أوروبا مثلاً، يتم تبرير مثل هذه الاعتداءات بأنها "ردود فعل" على ما تقومُ به إسرائيل بحق الفلسطينيين. ويرى الكثير من علماء الإجتماع أن هنالك تفسيراً لمثل هذا التبرير، وهي عقليّة الحَمولة أو القبيلة التي تتسمُ بها المُجتمعات العربية بشكل عام [26]، فتلك العقلية تُبرّر فرضَ عقاب جماعي على أبناء عائلة بأكملها في حال وقوع جريمة ما في حال لم يتم إلقاء القبض على الجاني الحقيقي، أي أن ما اقترفه ذلك المُجرم الذي ارتكب جريمة بمفرده ستتحمل مسؤوليتهُ على عائلة أو حمولة أو قبيلة بأكملها [27].

وفي هذا السياق يوضَحُ الحاخام جوناثان ساكس – رحمه الله – والذي كان يشغلُ منصبَ كبير حاخامات بريطانيا هذه الظاهرة، قائلاً: "إن واحداً من أسباب ظهور معاداة السامية هو شعور مُجتمعات أو مجموعات معينة بفقدانها السيطرة على مُجريات حياتها" [28]، وهذا توصيف حقيقيّ لما كان ولا زال يحدثُ في العديد من المُجتمعات، حيث تصلُ مظاهر مُعاداة السامية إلى ذُروتها عندما تكون المجتمعات أو المجموعات المعادية للسامية في قمة شعورها بالخوف والقلق مما يحدثُ حولها. بالتالي كانت تندلعُ أعمال العُنف الدموية ضد اليهود باعتبارها وسيلة مشروعة "لتفريغ" مشاعر الخوف والقلق للأغلبية السكانية على حساب أقلية ضعيفة لا حول لها ولا قوة، أضِف إلى ذلك ما كان يتمّ الاستحواذ عليه من "غنائم" عندما كان يتم مصادرة وسرقة ممتلكات اليهود وأموالهم.

وقد قام المُستشار المُكري الذي كان معروفاً بمعاداته للساميّة والذي شغل منصب مستشار للسلطان المغربي بتوضيح وشرح المُشكلة اليهودية في المغرب للسيد بول بودين وزير خارجية المارشال الفرنسي فيليب بيتان سنة 1940م، حيث قام بتوصيف تلك المشكلة قائلاً:"قبل أن يتم فرضُ الوصاية الفرنسيّة على المغرب، تمكّن اليهود من جمع كميات كبيرة من الثروات والأموال خلال فترة عشرين سنة، ومن ثم استمتعوا بتلك الثروة لمدة عشر سنوات، بعدها اندلعت ثورة محلية محدودة النطاق لتنتزع منهم جميع ما قاموا بجمعه من أموال. بعد فترة وجيزة بدأ اليهود بجمع الأموال مجدداً فصاروا من الأثرياء خلال الثلاثين سنة اللاحقة، ومن ثم تم مصادرة جميع أملاكهم وأموالهم مثلما حدث في المرة الأولى. وبما أننا وقعنا تحت الوصاية الفرنسية الآن فإننا نخاف أن يتم عرقلة هذا النمط الذي اعتدنا عليه، نمط جمع اليهود للمال خلال ثلاثين سنة ومن ثم قيامنا بالإستيلاء عليه. نحنُ نقبعُ تحت حُكم الوصاية منذ ثمانية وعشرين سنة، بالتالي لم يتبقَ أمامنا سوى سنتين فقطَ للاستيلاء على أموال اليهود وممتلكاتها انطلاقاً من هذا التقليد المغربيّ العريقِ الذي يبدو بالنسبة لي تقليداً في منتهى المنطقِ والحِكمة".[29]

وعندما يتم تحريض مجموعة من الناس ضدّ مجموعة أخرى فإن المجموعة المُعتدية لا تأبه كثيراً بما قامَ به الضحايا أو لأي سبب يتم الاعتداء عليهم، فكل ما هو مطلوب هو القول بأن تلك المجموعة قامت باستفزاز أو ربما كانت تنوي القيام بأعمال استفزازية، وهذا بحدّ ذاته سبب كاف للاعتداء على تلك المجموعة، لهذا فإن عدداً لا حصرَ لهُ من الاعتداءات التي تعرّضَ له اليهود كانت نتيجة اتهامات مُلفّقة وسخيفة لم يكُن لهُم علاقة بها. كذلك كان أحد مُبرّرات اعتداءات المُسلمين على اليهود هو استخدامهم وشربهُم للكحول على سبيل المثال، فيما كان بعض تلك المُبررات مُستعاراً من الديانة المسيحية لاضطهاد اليهود، مثلما حدثَ في واقعة دمشق سنة 1840م عندما تمّ اتّهام اليهود بأنهم أقدموا على قتل عدد من الأطفال من أجل استخدام دمائهم في صَنع خبز الماتسا- الذي يُصنعُ في عيد الفصح عادة -.

والحال نفسهُ في العديد من الاتهامات الباطلة التي تم تلفيقها لليهود واتّهامهم بها، بدءاً من اتهامهم بتدنيس القرآن والاماكن الإسلامية المقدسة، مروراً باتهامهم بتشويه معالم المسجد الأقصى من خلال فرض معالم يهودية على المكان، وانتهاءاً باتّهامهم بأنهم يقومون بأمور يقوم بها المُشركون "والكُفّار". جميع هذه الاتهامات الباطلة وغيرها ساهمت كثيراً في تحشيد العامة ضد اليهود لعقود طويلة، وهي مع الأسف لا زالت مستمرة حتى يومِنا هذا.

وفي مُجتمعات مثل مُجتمعات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التي تخلو من اتّزان في حُكمها على الأمور، مُجتمعات لا يتأكد فيها الناس من صحة ما يسمعونه، فإن "الآخر" يُصبحُ بمثابة عميل ووكيل لعدوّ لتلك المُجتمعات في ذلك الوقت، فعلى سبيل المثال لا الحصر ترى تلك المُجتمعات أن المسيحيين هُم عملاء للغرب، والهندوس هُم عملاء لباكستان، بالتالي من البديهيّ أنه سيُنظر لليهود على أنهم عُملاء لإسرائيل. لقد كان صراع الطبقات الأرستقراطية والنخب السياسيّة العربيّة بمثابة ذريعة للتغطية على فشلها الذريع في شتى المجالات، بل وسبباً لإلهاء الشعوب العربيّة عن رؤية مظاهر ذلك الفشل. بالتالي أصبحَت الأقليّة اليهودية بمثابة كبش الفداء الذي يتم التضحية به لتحقيق غايات البعض من ذوي التفسيّات والعقليات المريضة، فأصبح اليهود بمثابة "السُلّم" الذي يصعدُ عليه هؤلاء للتظاهر بإنجازاتهم الوهمية، بالتالي صار اليهود بمثابة الوسيلة التي يُظهرون من خلالها إنجازاتهم.

وفي ظلّ هذه الأجواء المشحونة التي عاشها اليهود كأقلية، لم تكُن هنالك أي قُدرة أو ربّما أي نية إن صح التعبير لحماية اليهود قانونياً وتشريعياً في تلك الدول، ففي بداية ثلاثينيات القرن العشرين - مثلما وضحتُ في الفصل الثالث - كانت القوى الاستعمارية الغربيّة تستغلُ مثل هذه الثغرات في المجتمعات العربية بهدف تمرير سياسة "فرّق تَسُد"، لكنها فشِلت هي الأخرى في إنقاذ عدد كبير من اليهود خلافاً لما كانت تدّعي، فهنالك أمثلة لا حصر لها لحوادث كان يتم فيها الاعتداء على اليهود في الوقت الذي كانت تقفُ قوى الأمن والشرطة التابعة للقوى الاستعمارية مكتوفة الأيدي دون أن تحرك ساكِناً، بل وفي بعض الحوادث كان ينضم رجال الشرطة والأمن إلى مرتكبي الاعتداءات!

ومِن تلك الحوادث المُشينة بل والمخزية في التاريخ البريطاني باعتبار بريطانيا كانت القوى المُستعمرة في منطقة عدن، هو ما قام به عدد من الجنود العربِ والضباط البريطانيين في مقاطعة عدن البريطانية والذين كانوا يطلقون النار بشكل عشوائي مستهتر مُستبّبين في مقتل عدد كبير من أصل ثمانين يهودياً ممّن قُتِلوا في المظاهرات والاعتداءات التي نشبَت ضد اليهود سنة 1947م [30]. وفي مصر كان الحال نفسه، إذ لم تتدخّل قِوى الأمن المصرية لحماية يهود مصر أو ممتلكاتهم من التفجيرات التي استهدفتهم سنة 1948م "خوفاً" من مواجهة الإخوان المُسلمين.[31]

اضطهاد وظُلم لجميع الأقلّيات

في الواقع فإن من يقولون بأنه لولا إقامة دولة إسرائيل لعاش يهودُ الدول العربيّة بأمن وأمان في أوطانهم كأقليّة، عليهم أن يقدموا تفسيراً واضِحاً لماذا لم تشعرُ الأقلّيات الأخرى في البلدان العربية بالأمن والأمان ولماذا لم يكُن بإمكانها الثقة بأن الحكومات العربيّة ستحميها، ولماذا تعرَّضت الأقليات الأخرى في بلدان العالم - والتي ليس لديها حُجة "إسرائيل" كسبب لاضطهادها - لنفس الاضطهاد والقمع والعُنف الذي تعرّض له اليهود؟

إن المُتتبع لتاريخ الأقليات في دول العالم العربيّ سيجدُ أن قرابة خمسة آلاف مسيحيّ قد تم قتلهُم في دمشق أواخر القرن التاسع عشر [32]، وقرابة عشرين ألف مسيحيّ قد تم قتلهُم على يد الدروز في منطقة جبل لبنان خلال الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1860م ، وخلال تلك الحرب فقد تم تدمير قرابة 380 قرية مسيحية إضافة إلى حرق وتدمير قرابة 560 كنيسة. كذلك فقد ارتُكبت مجازر عديدة بحقّ الأرمَن والآشوريّين المسيحيّين والتراقيّين واليونان الذين كانوا موجودين في تُركيا وغيرها من الدول الإسلامية مطلعَ القرن العِشرين.

لقد بدأ الأتراك بمطاردة الأرمن والتضييق عليهم خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، الأمرُ الذي انتهى بارتكاب الأتراك مذبحة بحقّ الأرمن أدت إلى رحيلهم من تركيا [33]، وقد كانت هذه المذابح التركية بحقّ الأرمن بمثابة شرارة البداية لمجازر الإبادة الجماعية التي تعرَضوا لها هُم والآشوريّون على يد الأتراك سنة 1915م، تلك الإبادة التي بدأت فعلياً سنة 1894م واستمرَت حتى سنة 1932م [34]. كذلك لم يكُن جميع ضحايا هذه المجازر هم الأرمن وحدهم، بل كان من ضمن الضحايا أكرادٌ وشَركسٌ وتتارٌ من منطقة القِرَم وغيرهم. ومن الجدير بالذكر فإن جماعات أخرى من غير المُسلمين قد قامت أيضاً بارتكاب مجازر بحقّ المُسلمين بعد انهيار الدولة العثمانيّة خلال الحرب العالمية الأولى، كذلك فقد ارتكبَ الأرمن في مدينة قوبا في أذربيجان مجزرة دموية بحقّ اليهود سنة 1919م.[35]

كذلكَ فإن التعامل الوحشيّ لِقوى الأمن العربيّة مع الأقليات خلال بداية القرن التاسع عشر كان شاهِداً على طبيعة الحياة التي تعيشها تلكَ الأقليات، فعلى سبيل المثال لا الحصر ارتكبت الحكومة العراقيّة بمجرد نيل العراق استقلاله مجزرة بحق المسيحيين الأشوريّين في بلدة سميل سنة 1933م قُتل فيها قرابة 600 مسيحيّ، الأمر الذي يعد خرقاً صريحاً لمبدأ حماية الأقليات الذي التزمت به الحكومة العراقية آنذاك. وقد دقّت هذه المذبحة ناقوس الخطر لمستقبل الأقليات في العراق، هذا الخطر الذي استشعرته عائلة عميل الموساد الصهيونيّ العراقيّ شلومو هِلِل التي قالَت في وصفها لهذه المجزرة: "في منطقة مضطربة يخيّم عليها العنفُ من كل جهة مثل منطقة الشرق الأوسط فإن هذه المذبحة لم تكُن أمراً مُفاجئاً بالنسبة لنا، لكن ردود الفعل التي أحاطت بتلك المجزرة كانت بمثابة إنذار لما سيحلّ بنا من ويلات، لأن مُرتكبي هذه المجزرة لم يتم محاكمتهم ولم ينالوا عِقابهم، والأفظعُ من ذلك هو قيام الأمير غازي بتكريمهم!"[36]. وعندما وصلَ الأمير غازي إلى سدّة الحُكم في العراق أصبَح والد هِلِل أكثر إصراراً من ذي قبل على مغادرة العِراق والتّوجه إلى أرض فلسطين الانتدابية.

ويناقش البروفيسور مايكل فيشباخ في كتابه "ادّعاءات اليهود فيما يتعلّق بممتلكاتهم في الدول العربية"(*Jewish Property Claims Against Arab Countries*) [37]الطرح القائل بأن الممارسات الأمنية ضد يهود الدول العربية كانت انتقاماً "لطردِ وتهجير"اللاجئين الفلسطينيين العرب. وهنالك طرحٌ آخر يناقش هذه المسألة وينظرُ لها من منظور أن هذا "التبادل السكاني بين العرب واليهود" قد تم بتشجيع من القوى الاستعماريّة الغربية حينها، إذ يَعتقدُ البعض أن كلا من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية قد قامتا بممارسة ضغوطات على الحكومة العراقية بهدف تسهيل عملية نزوح وهِجرة يهود العراق، وبأن كلاهما كان يلعبُ على أكثر من حبل بهدف الوصول إلى عملية تبادل للاجئين اليهود والعرب بين مُختلف الدول العربية وإسرائيل [38]. لكن تلكَ المساعي قد فشلت في العراق عندما صار نوري السعيد رئيساً للوزراء خلفاً لتوفيق السويدي في أيلول سنة 1950م، حيثُ كان نوري السعيد "مُصِرّاً على طردِ جميع اليهود وتهجيرهم من العراق بأقصى سُرعة مُمكنة".[39]

وقد كانت أول مجموعة يهودية يتم تهجيرها من أماكن سكنها هي مجموعة اليهود الذين كانوا يسكنون في حيّ شيمون هاتساديك - المعروف حالياً بِحيّ الشيخ جرّاح - في القدس، وقد كان هذا قبل قيام دولة إسرائيل وقبلَ نشوب أي حرب بين العرب وإسرائيل، بل وقبل التهجير الجماعيّ الذي تعرض له يهود الدول العربية. ومثلما سنرى لاحقا في فصول الكتاب فإنه يوجد دليل واضحُ يُثبتُ بأن الحكومات العربيّة كانت تسعى لمصادرة أموال اليهود وممتلكاتهم قبل صدور قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة سنة 1947م [40]، الأمر الذي عبَّر عنه الصحفي والكاتب الإسرائيلي بِن درود يمين بأنه "مُخطط لقلبِ الأمور رأساً على عقِب من قبل الدول العربيّة".[41]

يوجدُ فرق كبير وواضح بين التمييز العُنصريّ وبين الاضطهاد بشكل عام، فالتمييزُ العُنصريّ ناتج عن بعض الأحقاد الاجتماعية الموجودة في مُجتمع ما، إلا أن الاضطهاد هو أمرٌ تتبناه حكومة أو نظامٌ معين رسمياً بل وتقوم بتنفيذه الحكومة، لكن من المُمكن تنفيذه على يد أحد القوى الكبيرة التي تشكلُ غالبية في مُجتمع ما لتجعل حياة الأقلية أو الأقليات جحيماً. لكن في مرحلة معينة يُصبحُ التمييز العُنصري بمثابة اضطهاد، حينها يُصبحُ هذا الاضطهاد بمثابة تهديد يشكل خطراً حقيقياً على حياة من يتعرضون له. وسواء كان هذا التمييزُ العُنصريّ يُمارسُ على المستوى الرسمي أو من قبل فئة قويّة في المُجتمع فإنه بنهاية المطاف سينعكسُ على أرض الواقع ويتحوّل إلى حالة من الخوف والإرهاب النفسي والماديّ ومن ثم سيتحوّل إلى عنف ممارس ضِدّ فئة معيّنة، الأمر الذي يشكل تهديداً حقيقياً على حياة من ينتمي لتلكَ الفئة.

إن مجزرة الفرهود - كلمة فرهود تعني انتزاع الأملاك بالقوّة - التي وقعت في العراق سنة 1941م لم تكُن في الحقيقة مجزرة فرهود واحدة، بل كانت سلسلة من مجازر الفرهود التي ارتُكبت بحق اليهود في كلّ من سوريا وعدن والبحرين والمغرب وليبيا ومصر، ففي المغرب لوحدها ارتُكبت مجازر دموية عديدة بحق اليهود بين سنتي 1947م و1948م، وفي ليبيا وعدن تعرضت الممتلكات اليهودية للتدمير والحرق وانتهى المطاف بمصادرتها على الرغم من أن تلك البلدان في تلك الفترة الزمنية كانت لا زالت خاضعة لسيطرة القوى الاستعمارية الأوروبية، ولم تقم حتى تلك اللحظة باستصدار أي قوانين مُناهضة لليهود. أما الدول العربية التي لم يكُن بها أي مجتمعات يهودية مثل الأردن فقد قامت بكل ما في وسعها حتى تظلّ خالية من اليهود وألا ينتقل إليها أي يهودي بأي شكل من الأشكال.

اليهودُ كانوا كبشَ الفِداء

في الوقت الذي حملَ فيه العربُ في فلسطين السلاح لمواجهة نشطاء الحركة الصهيونية ومن ثمّ فرّوا من أراضيهم نتيجة الفوضى العارمة التي وقعت عقِب إعلان القيادات العربية الحرب على إسرائيل والحركة الصهيونية، لم ينخرَط يهود الدول العربيّة في أي حرب أو اي أعمال عنف بأي شكل من الأشكال، بل كانوا مجرّد مواطنين مدنيين مُحايدين، وحتى أماكن تواجدهم في الدول العربية كانت تبعدُ مئات بل آلاف الأميال عن ساحة الحرب في أرض فلسطين الانتدابية. بالتالي كان ذنبُ يهود الدول العربيّة فيما حلّ بهِم حينها هو أنّهم يهودٌ يتشاركون الديانة نفسها والعِرق نفسه مع اليهود في إسرائيل.

ومن الجدير بالذكر أن وعد بلفور الذي تم الإعلان عنه سنة 1917م يقضي بإقامة وطن قوميّ لليهود في أرض فلسطين الانتدابية دون المساس بحقوق ومنزلة السكان غير اليهود في هذه الأرض، لكن المثير للاهتمام في رسالة وعد بلفور هو الجزءُ الأخير منها والذي يقول: "....على أن يُفهم جلياً أنه لن يؤتى بأي عمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى" [42]، وهذا في الغالب هو الجزءُ المَنسي من هذه الرسالة، حيث لم يُطلب من الدول العربية - التي ظهرَت عقِب انهيار المملكة العثمانية - القيام بحماية المواطنين اليهود الموجودين فيها، بالتالي قامت الدول العربية بخرق جميع الحقوق التي تمتع بها المواطنون اليهود والمنصوص عليها في دستور كل دولة.

وقد عقدَت جامعة الدول العربية اجتماعاً في سوريا نهاية سنة 1946م واجتماعاً آخر في لبنان سنة 1947م، وكانت من أهم ما تمخّضَ عن هذين الاجتماعين هوَ مسوّدة قرار تتضمنُ تهديدهم بالسجن والطرد من أوطانهم بعد أن يتم مصادرة جميع ممتلكاتهم [43]. بالتالي واستناداً إلى مُعطيات الواقع آنذاك فقد كانت الحرب على اليهود تتزامن مع تصاعد التوتّر والعنف ضد اليهود في كل من فلسطين الانتدابية والدول العربية، كما صبّ العربُ جام غضبِهم ولومهم على هيئة الأمم المتحدة التي أصدرت قرار تقسيم فلسطين.

في الوقت نفسه حذّرَ مبعوث مصر لدى هيئة الأمم المتحدة آنذاك هيكل باشا من العواقب الوخيمة والثمن الباهظ الذي سيدفعه يهود الدول العربية في حال إقامة الدولة اليهودية قائلاً: "يجبُ على هيئة الأمم المتحدة أن تعي المخاطر المترتبة على قيامها تنفيذ خطة التقسيم على قرابة مليونِ يهوديّ ممن يتواجدون في الدول الإسلامية. وإذا ما ظهرَت معاداة السامية في مثل هذه المُجتمعات فإنه سيكون من الصعب جداً إجتثاثُها، بل وسيفوق هذا صعوبة قيام دول الحلفاء باجتثاث معاداة السامية من ألمانيا. بالتالي فإن الأمم المتحدة هي من تتحملُ مسؤولية الفوضى العارمة والمذابح التي ستُرتكبُ بحق عدد كبير من اليهود في حال تم تنفيذ خطة التقسيم".

إن المتمعن في خطاب هيكل باشا سيجدُ أنه استهلّ خطابهُ بمصطلحات مثل "مذابح" و "أعمال عنف" و "حرب بين عِرقين"، ويُعلّقُ يعكوف ميرون على خطاب هيكل باشا قائلاً بأن "تهديدات هيكل باشا ما هي إلا نتاج لتنسيق وتخطيط مُسبق بين الدول العربية، وقد تم الاتفاق بين تلك الدول على التصريح بتلك التهديدات من خلال ممثليها في هيئة الأمم المتحدة" [44]، حيث أدلى مبعوث فلسطين آنذاك جمال الحسيني بتصريح مماثل قائِلاً بأن "وضع اليهود في الدول العربيّة لن يكون مُستقِراً نتيجة لخطة التقسيم، لأن الحكومات العربيّة لن تكون قادرة على ضبط الشعوب وأعمال العنفِ التي ستنشب ضدّ اليهود". وقد اقتبسَت صحيفة النيويورك تايمز بتاريخ التاسع عشر من شباط سنة 1947م جُزءاً من تصريح المبعوث السوري لهيئة الأمم المتحدة فارس الخوري الذي قال فيه بأنه "سيكون هنالك صعوبة في حماية يهود الدول العربيّة طالما لم يتم تسوية القضيّة الفلسطينية".[45]

أما في العراق فقد كان يتمّ التلويح بالتهديدات جهاراً نهاراً على الملأ، حيث صرّح وزير الخارجية العراقي آنذاك فضِل جمالي عبر خطاب له في الأمم المتحدة قائلاً: "لا يُمكن كبح جماح الشعوب في دول العالم العربي، كما أن العلاقات العربية اليهوديّة ستتحدرُ وتتأثرُ سلباً بشكل كبير جداً، خاصة وأن عدد اليهود الموجود خارج فلسطين أكبرٌ من عددهم داخل فلسطين، ففي العراق وحده يوجدُ مئة وخمسون ألف عراقي يهودي يتمتعون بحقوق سياسية واقتصادية متساوية مع نظرائهم المُسلمين والمسيحيين، إلا أن أي ظُلم وإجحاف بحق السكان العرب في فلسطين سيؤدي إلى زعزعة استقرار العلاقات بين اليهود وغير اليهود في العراق، كما سيكون لهذا عواقب وخيمة تتمثل في تفشّي الحقد والكراهية الدينيّة بينهُم".[46]

في الحقيقة فإن اندلاع المُظاهرات وأعمال العُنف ضد اليهود في كل من عدن والبحرين وسوريا خلال شهري تشرين الثاني وكانون الأول من سنة 1947م وتزامنها مع صدور قرار التقسيم يوحي بوجود حالة من التنسيق والتخطيط المُسبق لجميع هذه الأحداث، فبعد يومين فقط من إعلان إقامة دولة إسرائيل نشرَت صحيفة النيويورك تايمز خبراً على صفحتها الرئيسية في عددها المنشور بتاريخ السادس عشر من أيار سنة 1948م تحت عُنوان: "اليهود في الدول الإسلامية في خطر - أكثر من تسعمائة ألف يهودي في أفريقيا وآسيا يواجهون موجة غضب عارمة من أعدائهم"، حيث أشار كاتب الخبر مالوري براون إلى سلسلة من الإجراءات العُنصريّة التي تم اتّخاذها من قبل عدد من دول العالم العربيّ بحق المواطنين اليهود مثل مصر والعراق والأردن ولبنان والمملكة العربية السعودية وسوريا واليمن.

صورة تُظهر مدرسة جورج الخامس اليهودية للذكور بعد أن تم إحراقها عقِب أحداث عدن سنة 1947م

The New York Times.

SUNDAY, MAY 16, 1948.

JEWS IN GRAVE DANGER IN ALL MOSLEM LANDS

Nine Hundred Thousand in Africa and Asia Face Wrath of Their Foes

By MALLORY BROWNE

Special to The New York Times.

LAKE SUCCESS, N. Y., May 15. For nearly four months, the United Nations has had before it an appeal for "immediate and urgent" consideration of the case of the Jewish populations in Arab and Moslem countries stretching from Morocco to India.

Even four months ago, it was the Zionist view that Jews residing in the Near and Middle East were in "extreme and imminent danger." Now that the end of the mandate has precipitated civil war or even worse developments in Palestine, it is feared that the repercussions of this in Moslem countries will put the Jewish populations in many of these states in mortal peril.

Reports from the Middle East make it clear that there is serious tension in all Arab countries. The Jewish populations there are gravely worried at the prospect that an Arab-Jewish war may break out suddenly at any moment.

Feeling Runs High

Already in some Moslem states such as Syria and Lebanon there is a tendency to regard all Jews as Zionist agents and "fifth columnists." There have been violent incidents with feeling running high. There are indications that the stage is being set for a tragedy of incalculable proportions.

Nearly 900,000 Jews live in these Moslem and Arab countries stretching from the Atlantic along the Mediterranean to the Indian Ocean. Zionist leaders today are convinced that their position is perilous in the extreme.

When the Economic and Social Council of the United Nations meets in Geneva next July, this matter will come before it.

On Jan. 19, 1948, the World Jewish Congress submitted a memorandum on the whole problem to the Economic and Social Council, asking for urgent action during the spring session of the Council.

This plea arose to some extent from statements, made by Arab spokesmen during the General Assembly session last autumn, to the effect that if the partition resolution was put into effect, they would not be able to guarantee the safety of the Jews in any Arab land.

The memorandum of the World Jewish Congress went into considerable detail on this danger. It cited the text of a law drafted by the Political Committee of the Arab League which was intended to govern the legal status of Jewish residents in all Arab League countries.

It provides that beginning on an unspecified date all Jews except citizens of non-Arab states, would be considered "members of the Jewish minority state of Palestine." Their bank accounts would be frozen and used to finance resistance to "Zionist ambitions in Palestine." Jews believed to be active Zionists would be interned and their assets confiscated.

The memorandum gave many details of instances of persecution of Jewish individuals and whole communities. It listed the following tabulation of the Jewish residents in Arab countries:

French Morocco	130,000
Iraq	130,000
Algeria	133,000
Syria	30,000
Egypt	80,000
Tunisia	50,000
Turkey	75,000
Yemen	45,000
Libya	30,000
Spanish Morocco and Tangier	12,000
Lebanon	7,000
Aden (including refugees from Yemen)	5,000
Afghanistan (including refugees in India)	5,000
Other countries (Hadramauth, Sudan, Bahrein)	3,000
Total	899,000

Later information submitted to the Economic and Social Council was to the effect that:

In Syria a policy of economic discrimination is in effect against Jews. Virtually all Jewish civil servants in the employ of the Syrian Government have been discharged. Freedom of movement has been "practically abolished." Special frontier posts have been established to control movements of Jews.

In Iraq no Jew is permitted to leave the country unless he deposits £5,000 ($20,000) with the Government to guarantee his return. No foreign Jew is allowed to enter Iraq even in transit.

In Lebanon Jews have been forced to contribute financially to the fight against the United Nations partition resolution on Palestine. Acts of violence against Jews are openly admitted by the press, which accuses Jews of "poisoning wells," etc.

Danger Emphasized

Giving many other details of persecution, this report declares that "the very survival of the Jewish communities in certain Arab and Moslem countries is in serious danger unless preventative action is taken without delay."

Today, with a Jewish State an established fact, Jewish spokesmen at Lake Success do not conceal their anxiety that this danger to the survival of the Jewish populations of the Arab countries is even more imminent, and that the only effective solution would be to facilitate their quick transfer, in so far as is possible and practicable, to the new Jewish State.

Conditions vary in the Moslem countries. They are worst in Yemen and Afghanistan, whence many Jews have fled in terror to India. Conditions in most of the countries have deteriorated in recent months, this being particularly true of Lebanon, Iran and Egypt. In the countries farther west along the Mediterranean coast conditions are not so bad. It is feared, however, that if a full-scale war breaks out, the repercussions will be grave for Jews all the way from Casablanca to Karachi.

MONDAY, MAY 17, 1948.

PROTECTION OF U. N. SOUGHT FOR JEWS

World Congress Asks Safety for Residents of Arab Lands From Pillaging Attacks

By GEORGE BARRETT

Special to The New York Times.

LAKE SUCCESS, N. Y., May 16—The World Jewish Congress called upon the United Nations today to take emergency steps to protect Jews living in Arab countries from pillaging attacks and "mass pogroms."

In a message sent to Charles Malik, chairman of the Economic and Social Council's Committee for Non-Governmental Organizations, Jewish Congress officials requested an immediate session to do something about Jews said to be attacked by Arab mobs and forced to go into hiding to save their lives.

The urgent plea, signed by Dr. A. Leon Kubowitzki, secretary general of the organization, and Dr. Robert S. Marcus, acting political director, was transmitted to the Economic and Social Council subsidiary body because this body had been ordered on March 11 to draft a protective program when the anti-Jewish activities in Arab countries were first started.

Not only have the anti-Jewish measures been intensified, according to the complaint, but the "Arab states' declaration of war on the Jewish population of Israel is liable to result in large-scale action against the Jews of those countries."

The situation of the Jews throughout Iraq, it was contended, has become critical, and several Jewish shops in Beirut, Lebanon, were said to have been looted recently and burned. Officials of the organization declared that anti-Jewish acts had been reported also from Alexandria and Cairo, in Egypt.

3-85

صورة تُظهر العنوان الرئيسي لصحيفة النيويورك تايمز: "اليهود في الدول الإسلامية في خطر" في عددها الصادر بتاريخ السادس عشر من أيار سنة 1948م. يُشير الخبر إلى وجود خطة عربية مُسبقة لقمع اليهود ونهب ممتلكاتهم.

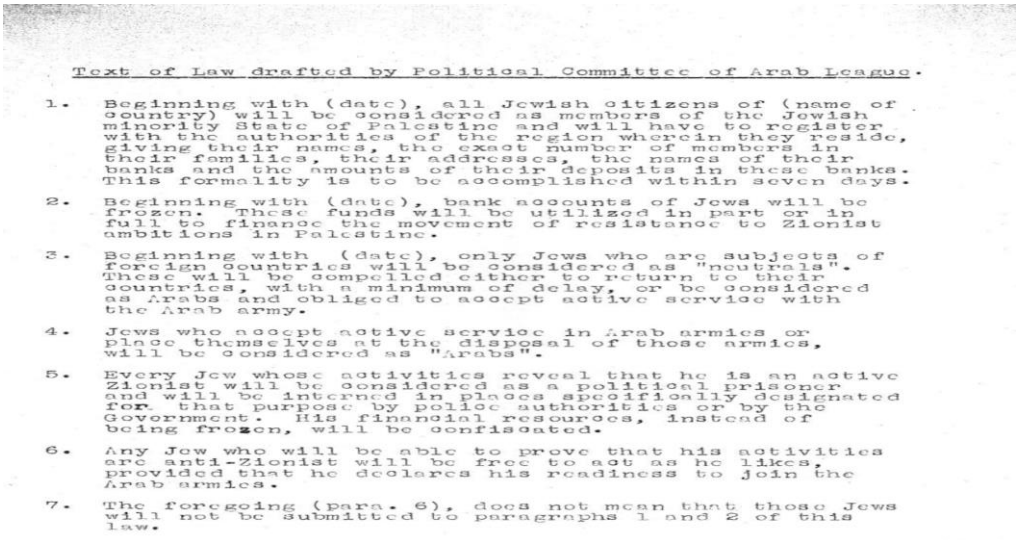

Text of Law drafted by Political Committee of Arab League.

1. Beginning with (date), all Jewish citizens of (name of country) will be considered as members of the Jewish minority State of Palestine and will have to register with the authorities of the region wherein they reside, giving their names, the exact number of members in their families, their addresses, their banks and the amounts of their deposits in these banks. This formality is to be accomplished within seven days.

2. Beginning with (date), bank accounts of Jews will be frozen. These funds will be utilized in part or in full to finance the movement of resistance to Zionist ambitions in Palestine.

3. Beginning with (date), only Jews who are subjects of foreign countries will be considered as "neutrals". These will be compelled either to return to their countries, with a minimum of delay, or be considered as Arabs and obliged to accept active service with the Arab army.

4. Jews who accept active service in Arab armies or place themselves at the disposal of those armies, will be considered as "Arabs".

5. Every Jew whose activities reveal that he is an active Zionist will be considered as a political prisoner and will be interned in places specifically designated for that purpose by police authorities or by the Government. His financial resources, instead of being frozen, will be confiscated.

6. Any Jew who will be able to prove that his activities are anti-Zionist will be free to act as he likes, provided that he declares his readiness to join the Arab armies.

7. The foregoing (para. 6), does not mean that those Jews will not be submitted to paragraphs 1 and 2 of this law.

صورة تُظهر العقوبات التي فرضتها الحكومات العربيّة على مواطنيها اليهود سنة 1947م

كما أشار مالوري براون أيضاً إلى مشروع القرار الذي أصدَرَته اللجنة السياسية في جامعة الدول العربية بخصوص الوضع القانوني للمواطنين اليهود في الدول العربية، والذي ينصّ بأن جميع اليهود باستثناء من يحملون جنسية غير عربية سيتم اعتبارهم "أفراداً ينتمون للأقليّة اليهودية في فلسطين"، علماً أنه لم يُكتب أي تاريخ محدد لبدء سَريان هذا القانون. كذلك يتضمن المشروع تجميد الحسابات البنكية لليهود فيما يتم استخدام الأموال الموجودة فيها لتمويل "مقاومة الطموحات الصهيونيّة في فلسطين"، أما اليهود الذين يُشتبهُ بانتمائهم للحركة الصهيونية فيجب اعتقالهم والتحقيق معهم ومصادرة ممتلكاتهم. ومن الجدير بالذكر أن هذه السياسات التي تبنّتها الدول العربية ضد مواطنيها اليهود لم تكُن ردة فعل لممارسات إسرائيل ضد العربِ في فلسطين، لأن الحكومات العربيّة قد تبنّت هذه العقوبات حتى قبل أن يخرجَ أي لاجئ فلسطيني من أرضه.

وقد أقرَت جامعة الدول العربية في اجتماعها المنعقد في القاهرة بتاريخ السابع عشر من شباط سنة 1947م مجموعة من الإجراءات "السياسيّة والاقتصادية والعسكريّة رداً على النكبة التي تحدث في فلسطين"، فيما يوضّحُ تقرير آخر أن جامعة الدول العربيّة قد تبنّت بالإجماع توصيات اللجنة السياسية للجامعة فيما يتعلّق بفلسطين، الأمر الذي يؤكدُ وجود اتّفاق وتنسيق مُسبق بين الدول العربيّة السَّبعة فيما يتعلّق بانتهاك حقوق مواطنيها اليهود [47] وترحيلهم وتهجيرهم من الدول العربية، وهذا ما تم الاتفاق عليه في اجتماع بيروت المُنعقد أواخر شهر آذار من سنة 1949م على مستوى الدبلوماسيين العرب من كافة الدول العربية.

وخلال الفترة نفسها كانت الدول العربيّة قد خسرت أوّل حرب تشنّها الدول العربية على إسرائيل، ومثلما يوضّح تقرير منشور في أحد الصحف السورية فإن الدبلوماسيين العرب المُجتمعين في بيروت قد اتّفقوا على الآتي: "في حال عارضَت إسرائيل عودة اللاجئين العرب إلى أراضيهم في فلسطين فإن الحكومات العربية ستقوم بتهجير وترحيل جميع اليهود".[48] وبمجرد أن تم حظر الحركة الصهيونية في الدول العربيّة أصبح من السهل على الحكومات العربيّة أن تضحّي بيهودها مثلما يتم التضحية بالخراف، بمن فيهم أولئك اليهود الذين لم يكُن لهم أي علاقة بالحركة الصهيونية، فصارت كلمة اليهودي مرادفاً لكلمة خائن وعميل في بلدان العالم العربيّ.

ويُمكننا تلخيصُ الإجراءات العقابية بحقّ يهود الدول العربية والتي تبنّتها الحكومات والأنظمة العربية في ما يلي:

- تم **سحب جنسيات اليهود** من جميع الدول العربية باستثناء لبنان وتونس.

- **الاعتقالات التعسفيّة** بحقّ اليهود كانت تتم في جميع الدول العربيّة باستثناء لبنان وتونس.

- تم فرض **قوانين دينية إسلامية** على اليهود في كل من الجزائر ومصر والمغرب وتونس واليمن.

- تم **تجريم كل من ينتمي للحركة الصهيونية**إستناداً إلى القوانين التي تم إصدارها في كل من مصر والعراق ولبنان وليبيا والمغرب وسوريا. ومن باب خلط الأوراق والتلاعب بالألفاظ فقد كان يتم استخدام مصطلح "الطائفة الإسرائيليّة" لوصف المجتمعات اليهودية في الكثير من الدول العربية، بالتالي كان يتم استخدام هذا كوصف ليهود الدول العربية ويهود إسرائيل على حد سواء. ومن الجدير بالذكر أن أحد المشرّعين اللبنانيين قد طالبَ بتعديل ذلك القانون في لبنان مؤخّراً.[49]

- تم **تقييد حرية حركة اليهود** في كل من العراق وليبيا والمغرب وسوريا واليمن.

- كان هنالك **تمييز عنصريّ** يُمارسُ ضِدّ اليَهود فيما يتعلقّ بالعمل والحُصول على الوظائف، حيث كان يتم تسريح اليهود من وظائفهم وكانوا يُمنعون من الحصول على وظائف محددة مثل الوظائف الحكومية وغيرها في كل من مصر والعراق ولبنان والمغرب وسوريا واليمن. وفي مصر على وجه الخصوص كان يُفرضَ على رجال الأعمال اليهود أن يقوموا بمشاركة رجال أعمال مسلمين، فيما كان يُفرضُ على أصحاب المحلات والمصالح التجارية أن يكون خمسة وسبعين بالمائة من موظفيهم من العرب والمسلمين.

- **تجميد الحسابات البنكية والمعاملات المالية**، وهذه سياسة انتهجتها جميع الدول العربية باستثناء المغرب.

- **مُصادرة الأملاك** وهذه كانت سياسة انتهجتها جميع الدول العربية باستثناء المغرب أيضاً.[50]

تَخطيط رسميّ مُسبق للاضطهاد والقَمع

لقد كانت القوانينُ التي أقرّتها جامعة الدول العربية سنة 1947م بمثابة نمط ينتقلُ من دولة عربية إلى أخرى، فكانت تلك المرجعية التي استندَت عليها الحكومات والأنظمة العربية في تشريع الإجراءات وإصدار القرارات التي أدت إلى تدمير المُجتَمعات اليهودية في الدول العربية، كما كانَت المصدر لتهجير اليهود وطردِهم من تلك البلدان، حيث نزحَ ما نسبته تسعون بالمئة من إجمالي عدد يهود الدول العربية مع نهاية سنة 1972م. واستِناداً إلى الصحفيّ اليهوديّ مصريّ الأصل فِكتور نحمياس فإن دول العالم العربيّ قد تبنّت بعض تلك القرارات والقوانين بشكل سريّ بين سنتي 1950م و1955م والتي كانت تهدفُ إلى ممارسة ضغط على من تبقوا من يهود العالم العربي حتى يرحلوا عن أوطانهم بطريقة لا توحي أنهم خرجوا ونزَحوا من أوطانهِم نتيجة مُمارسات معينة أدّت إلى رَحيلهم.[51]

ويوضَحُ وزيرالعدل الكنديّ السابق أروين كوتلِر بأن "الاضطهاد الذي مورسَ على يهود الدول العربية كان عملاً مُمَنهجاً رافقه انتهاك صارخٌ لحقوق الإنسان، بما فيها سنّ قوانين مشابهة لقوانين نورمبِرغ التي فُرضت على اليهود إبان حكم النازيين". ويوضّحُ الناشط ذو الباع الطويل في مجال حقوق الإنسان بأن ما مورسَ على يهود الدول العربية يمكنُ تصنيفهُ على أنه "جريمة تم ارتكابها مع وجود النيّة المسبقة والإصرار والترصّد لارتكابها، بل ويمكن توصيفه أيضاً إلى حد التآمر من أجل القيام بتلكِ الجرائم. وبالنظر إلى النمط المتكرّر في العقوبات الجائرة التي فرضتها الحكومات العربية على اليهود، مع الأخذ بعين الاعتبار التشريعات المُمَنهجة والتي جرَّمَت اليهود وحرمتهم من حقوقهم وبموجبها تمت مصادرة أملاكهم وأموالهم، فإنه التوصيف الوحيد لما مرّ به يهود الدول العربية هوَ التطهير العرقيّ".[52]

بتاريخ التاسع عشر من كانون الثاني سنة 1948م قامت منظمة المؤتمر اليهوديّ العالمي بإرسال مذكرة إلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي في هيئة الأمم المتحدة تتضمّن القرارات التي تبنّتها جامعة الدول العربية المُناهِضة لليهود من أجل إبداء اعتراضها على ما بدر فيها من إجحاف وظلم، مبينة حالة عدم الاستقرار التي خلّفتها تلك القرارات على العالم العربي. ولسوء الحظ فقد وصلت هذه المذكرة إلى رئيس المجلس الاقتصادي والاجتماعي في هيئة الأمم المتحدة آنذاك الدكتور تشارلز مالِك، والذي كان ممثل لبنان في هيئة الأمم المتحدة وأصبح يشغل هذا المنصب بعد أن تم دعمه من قبل ممثلي جميع الدول العربية في هيئة الأمم المتحدة.

لقد كانت لبنان أحد أهم الدول العربية المؤسّسة لجامعة الدول العربية، وأحد الدول الرئيسية التي ساهمت بشكل كبير في استصدار مشروع القرار المعادي للسامية الذي أصدرته اللجنة السياسية للجامعة. بالتالي قام تشارلز مالك باتخاذ جميع الإجراءات التي من شأنها أن تُحجّم تلك المذكرة التي قدّمتها منظمة المؤتمر اليهودي العالميّ وتمنع أي ردّ دولي عليها. وهنالك بعض النظريات التي تقول بأن توقفَ الدول العربية عن سن التشريعات المشابهة لقوانين نورمبرغ النازيّة لاحقاً يُعزى إلى رغبة تلك الدول بالانضمام إلى النظام العالميّ الجديد بعد الحرب العالمية الثانية، حيثُ أرادت الدول العربية الحصول على مقاعد في هيئة الأمم المتحدة التي كان هدفها الأساسي ضمان عدم وصول أنظمة مثل النظام النازي إلى مقاليد الحكم في أي مكان من العالم [53]. من ناحية عملية كانت تتخذُ الدول العربية إجراءات وسياسات معادية لليهود أدت إلى تحريض الشعوب العربية وجرّها إلى مربع العنف ضد اليهود، كما استمرت تلك الحكومات في تشريع وسنّ القوانين الظالمة التي يتم بموجبها إسقاط جنسيات يهود الدول العربية ونهب ممتلكاتهم وشن حرب اقتصادية عليهم وطردهم بنهاية المطاف.

لاحقاً بعض مضيّ عدة عقود، تحديداً سنة 1984م، جلسَ الصحفي الإسرائيلي المُختص بالشؤون العربية الدكتور چاييخوربصحبة عدد من الصحفيين مع تشارلز مالك في حديقة بيته، وحينها وجّه إليه هذا السؤال: "لماذا لم تحرك ساكناً لمنع تلك الخطة العربية المعادية للصهاينة، بل المعادية للسامية؟ "[54]، وهنا ردّ تشارلز مالك قائلاً: "لم يكُن أمام لبنان آنذاك سوى الوقوف في صفّ العرب". وهنا يؤكد تشالرز مالك بأنه كان يتوجب عليه إثبات ولائِه وإخلاصهِ للقضية الفلسطينية نظراً لكونه "مسيحيّ"، بل كان مطلوباً منه أن يُثبت بأنه يكرهُ إسرائيل أكثر من المُسلمين أنفسهم.

تجربتان مُختلفتان تماماً: التجربة العراقية والمغربية

إن نزوح اليهود من بعض الدول العربية وتهجيرهم منها كان تدريجياً مرحلياً استغرق بعض الوقت، لكن في بعض الدول العربية لم يكن هنالك أي مفرّ من الرحيل الفوريّ، وفي خضم ذلك تظل تجربة نزوح يهود العراق أقسى وأصعب تجربة نزوح من بين جميع الدول العربية، خاصة وأن السلطات العراقية كانت تقدم على شنق اليهود بعد اتهامهم بأنهم ينتمون للحركة الصهيونية.

صورة لبعض التجار اليهود ممن كان لهم حضور بارز في الاقتصادي العراقي. الصورة مأخوذة في بغداد سنة 1910م.

و بإمكاننا القول بأن يهود العراق قد تمتعوا بفترة حياة ذهبية إلى حد ما تحت حكم الانتداب البريطاني التي بدأت سنة 1917م، ومثلما ذكرنا سابقاً فإن يهود العراق كانت نسبتهم أربعون بالمئة من إجمالي سكان بغداد، فكان لهم حضور بارز في شتى المجالات من التجارة والخدمات والوظائف الإدارية، إضِف إلى ذلك إسهاماتهم الكبيرة في تحقيق النهضة الثقافية والحضارية، فكان واحد من كل خمسة كتاب عراقيين يهودياً، وكانت أول رواية خياليَة من تأليف الكاتب والروائي اليهودي العراقي يعقوب بلبول، فيما كان الموسيقيون العراقيين رواد الفن والموسيقى الشعبية العراقية.

لكن الاضطرابات بدأت تظهر خلال ثلاثينيات القرن العشرين تزامناً مع تأثير الفكر النازيّ الذي اخترق المجتمع العراقي بكافة مكوناته، حيث قام السفير الألماني في بغداد فريتز غروبا بتأسيس شبكة من المؤيدين والمناصرين للحزب النازي في العراق، وقام بتمويل عدد من الصحف التي كانت تنشر مقتطفات من كتاب أدولف هتلر المعروف "كفاحي"، كما كانت المناهج الدراسية بعيدة كل البعد عن النمط التعليمي البريطاني ناشرة الفكر والتوجهات النازية في المدارس.

وفي سنة 1934م تم طردُ عشرات الموظفين العراقيين اليهود من المحاكم العراقية [55]، فيما كانت سنة 1936م التي شهِدت اندلاع الثورة العربية الكبرى في فلسطين الانتدابية بمثابة الشرارة الأولى لبدء الاعتداءات والهجمات التي شنّها العراقيون على يهود العراق، فوقع ضحيتها عشرة يهود، كماوقعَت ثماني تفجيرات استهدفت الكنس اليهودية، عندها سارع يهود العراق إلى الإعلان على الملأ التبرّؤ من الحركة الصهيونية وبأنه لا يوجدُ أي صِلة تجمعهم بنشطائِها.

صورة تظهر كتاب هتلر كفاحي الذي تمت ترجمته للعربية والذي يعتبر حالياً أحد الكتب الأكثر مبيعاً في العالم العربي، وتظهر الصورة ايضاً مقالات ضمت مقتطفات من الكتاب وتم نشرها في الصحف العراقية خلال ثلاثينيات القرن الماضي.

لاحقاً بدأت التحضيرات لمجزرة الفرهود، تلك المجزرة التي زعزعت ثقة اليهود بمجتمعهم ومزقت الفكرة القائمة على إمكانية أن يعيش اليهود كجزء ومكوّن من مكونات المجتمع العراقي، بالتالي كان ينظر الجيل الشابّ من يهود العراقيين للحركة الصهيونية والشيوعيّة باعتبارهما المخلص والمنقذ لهم من هذا الوضع الكارثيّ.

وبعد صدور قرار التقسيم سنة 1947م أرسل العراق جيشاً من المتطوّعين للمشاركة في الحرب ضد الحركة الصهيونية في فلسطين الانتدابية، وكانت تطمح الحكومة العراقية من هذا العمل إلى حجب الأنظار عن الواقع المحلي العراقي المُزري حينها [56]، بالتالي كان اليهود أفضل كبش فداء من أجل تحقيق هذه الغاية. في الوقت نفسه تم إجبار اليهود العراقيين على التبرع لصالح القضية الفلسطينية ومقاومة الحركة الصهيونية، وبعد أن عاد الجنود العراقيون المهزومون من تلك الحرب تعمّقت مخاوفيهود العراق من حدوث مذبحة فرهود أخرى.

وفي شهر تموز سنة 1948م قام العراق بتَصنيف الحركة الصهيونية على أنها حركة إرهابية إجرامية، فيما فرضت السلطات العراقية القانون العسكري على العراق، الأمر الذي حدّ من حرية اليهود وفرض قيوداً شديدة الصرامة عليهم، خاصة بعد أن تم منعهم من السفر خارج العراق، كما كان يتم اعتقالهم بشكل تعسفي من قبل قوات الأمن والمخابرات العراقية ولم يكن يتم الافراج عنهم الا بعد دفع كفالات ورشوات مالية باهظة.

صورة من أحد الأعراس اليهودية في العراق سنة 1948م. وبعد مدة قصيرة من التقاط هذه الصورة في حفل الزفاف تم اعتقال العريس للتحقيق والاستجواب من قبل الأمن العراقي، ولم يتم الإفراج عنه إلا بعد دفع رشوة كبيرة لمسؤولي الأمن.

لقد تعرّض اليهود في العراق لصدمة مروّعة بعد رؤيتهم مشاهد الشنق في الساحات العامة في شهر أيلول من سنة 1945م، خاصة بعد رؤيتهم لمشهد إعدام رجل الأعمال العراقي اليهودي المعروف شفيق عَدَس، بعد أن تم تلفيق عدد من التهم له والتي لم يكن يوجدأي دليل يثبت صحّتها. وفي سنة 1949م صدر قانون يقضي بإعدام كل من تثبت علاقته بالحركة الصهيونية والشيوعية [57]. كما كانت أي علاقة تربط يهود العراق بأرض فلسطين الانتدابية بمثابة تهمة تستوجب الاعتقال، مثل رسالة إلى أحد الأقارب أو حتى وجود نجمة داوود على أردية الصلاة اليهودية، بل ووصل الأمر الى أن أصبح وجود نجمة داوود بجد ذاته تهمة أيضاً. بالتالي اتخذ منحنى الربط بين اليهودية والصهيونية مساراً خطيراً، حيث صدر مرسوم عراقي سنة 1948م لا يجرّم الدين والاتجاه السياسيّ فحسب، بل يُجرّم اليهود إذا ما قاموا بارتداء ساعة اليد!

لم يكن ارتداء ساعة اليد أمراً شائعاً حينها، وكان عدد قليل من اليهود يرتدي ساعات اليد، وفي أحد الحوادث قام أحد رجال الشرطة بالاقتراب من يهودي عراقيّ بعد أن رآه يرتدي ساعة يد ثمينة، وعندما وجده يهودياً قام باعتقاله على الفور. وأثناء عرضه على المحكمة قال الشرطي بأن ذلك الشخص كان يرسل شيفرات لاسلكية من خلال تلك الساعة، وإن تلك الشيفرات التي كان يرسلها تتضمن أسراراً عسكرية كان يرسلها للحركة الصهيونية في فلسطين. ودون أن يتأكد القاضي من صحة كلام الشرطي ودون حتى أن يفحص الساعة نفسها، قام بإصدار حكمه بالسجن على اليهودي، فيما قام بمنح الساعة للشرطي كمكافأة له على عمله.[58]

وبنهاية المطاف انخفض عدد اليهود في العراق مرة أخرى خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، وعندما قامت القوات الأمريكية بغزو العراق سنة 2003 م لم يجدوا سوى ثلاثين يهودياً فقط في بغداد، وفي سنة 2016م لم يتبقّ في العراق سوى خمسة يهود فقط.

صورة لشهادة مدرسية تعود لإدوين شُكُر مكتوب عليها "هوية عدم الإسقاط"، والصورة مأخوذة في ستينيات القرن الماضي.
كانت الهوية العراقية تسقطُ عن اليهود بمجرد مغادرة العراق.

وحتى مجيء الوقت الذي سمحت فيه الحكومة العراقية بخروج العراقيين من العراق، كان يتم ترحيل عدد كبير من الشباب اليهودي العراقي من العراق عبر الحدود الجنوبية مع إيران، وكان يتم تهريبهم بمعدل ألف شخص في كل شهر، فيما كان يتم اعتقال الشباب المنتمين للحركة الصهيونية منهم قبل حتى وصولهم الى الحدود.

كذلك فقد كان محظوراً على اليهود تلقي التعليم العالي والسفر للخارج بل وحتى بيع ممتلكاتهم، كما كان يتم فرض قيود مُشددة أدت إلى عدم حصولهم على وظائف حينها. وبالنسبة لمن كانوا معاقين حركيا من يهود العراق فكانوا يتجنبون السفر عبر الطائرات حتى لا يجذب هذا السلطات العراقية [59]، وهو ما وصفه السيناتور اليهوديّ عزرا مناحيم دانيال، والذي حاول الوقوف بكل ما أوتي من قوة ضد القانون العراقي الذي كان يقضي بنزع الجنسية العراقية من يهود العراق الذي صدر في شهر آذار سنة 1950م.

وعندما تم فتح باب الهجرة أمام اليهود العراقيين سنة 1951م كان قرابة 119,000 يهودي قد سجلوا أسماءهم للخروج من العراق من أصل 140,000 يهودي عراقي، الأمر الذي فاق توقعات جهاز الموساد الاسرائيلي الذي كان يتوقع بأنه عشرة آلاف يهودي عراقي كحد أقصى يسجلون أسماءهم للخروج والرحيل عن العراق [60]. ومع بدء ترحيل يهود العراق أصبح أقدم مجتمع يهودي الموجود في العراق ينزح إلى إسرائيل في رحلة ذهاب بلا رجعة.

وبتاريخ الأول من آذار سنة 1950م جاء القانون الذي كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، وهو قانون مصادرة أملاك اليهود وتجميد كافة حساباتهم البنكية، بالتالي كل من سجل اسمه للرحيل عن العراق سيرحل دون أن يصطحب معه أياً من ممتلكاته او أمواله، ولو علموا بهذا القرار المروّع ربما لم يكونوا ليفكروا بالرحيل أصلاً.

لكن هذه لم تكن نهاية القصة، لأن قرابة ستة آلاف يهودي عراقي - معظمهم ممن ينتمون للطبقات البرجوازية الثرية - كانوا قد ظلّوا في العراق ولم يغادروا، وبعد سنة 1958م تحسّنت ظروف من ظلوا بعد سقوط النظام العراقي السابق ومجيء الجنرال قاسم ليعتلي سدة الحكم في العراق، فتمتع اليهود بقدر من الحرية حينها، لكن هذا لم يدم طويلاً لأن حزب البعث العراقي سيطر على زمام الحكم في العراق سنة 1963م. عندما أمر حزب البعث أن يحمل اليهود بطاقات هوية صفراء تميزهم عن غيرهم من العراقيين، كما عادت قيود السفر والحركة على اليهود مثلما كانت عليه في السابق.

وبعد هزيمة الجيوش العراقية في حرب الأيام الستة سنة 1967م أمام إسرائيل، تم منع اليهود من العمل في عدد كبير من الوظائف إضافة إلى حرمانهم من الحصول على التعليم العالي، كما تم منعهم من استخدام الهاتف وكانت بيوتهم وحساباتهم البنكية تحت مراقبة دائمة من قبل قوى الامن العراقية.

وبلغت الأمر قمة الترويع بالنسبة لهم عندما تم شنق تسعة يهود عراقيين بتاريخ السابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1969م بعد ان تم توجيه تهمة العمالة والخيانة لهم، حيث جاء قرابة نصف مليون عراقي ليحتفلوا بإعدامهم والرقص على جثثهم في ساحة التحرير في بغداد. وخلال تلك السنوات المروعة اختفى قرابة خمسين يهودياً عراقياً ولم يتضح وجود أي أثر لهم حتى يومنا هذا. كذلك فقد نجح قرابة ألفي يهودي عراقي ممن ظلوا في العراق بالهروب خارجه عبر الحدود الجنوبية مع إيران [61]. ونتيجة لهذه الأعمال المروعة انخفض عدد يهود العراق بشكل أكبر خلال ثمانينات وتسعينيات القرن الماضي، حيث وجدت قوات الجيش الأمريكي ثلاثين يهودياً فقط في بغداد سنة 2003م، وفي سنة 2016 م انخفض العدد إلى خمسة يهود.

حماية ملكيّة وكراهية شعبية

وفي الجانب الآخر نجد دولة مثل المغرب التي كان عدد اليهود فيها يبلغ 256,000 يهودي مغربي حتى سنة 1948م [62]، فكان المُجتمع اليهودي المغربي أكبر تجمّع لليهود في كافة الدول العربية في يوم من الأيام. وبالنسبة للمغرب فإنه لم يقطع علاقته باليهود، وكذلك الحال بالنسبة ليهود المغرب الذين لم يقطعوا صلتهُم وعلاقتهم بهذا البلد الذي يزوره آلاف الإسرائيليون من أصول مغربية كل عام. كذلك فقد حافظت الحكومات المغربية على علاقة يمزية مميزة مع رعاياها اليهود، وخلال القرن العشرين حرَصَت الحكومات المغربية ضمان حالة من الاستقرار للمجتمع اليهودي هناك، وقد كان هنالك عدد من الحاشية اليهودية المُحيطة بملوك المغرب ممن كانوا من الطبقة البرجوازية والتجار ورؤوس الأموال وكانوا حلقة الوصل بين الملك والدول الأخرى [63]. وفي الوقت الذي كانت هنالك رعاية ملكيّة لليهود، كانت هنالك حالة من الحقد والكراهية الشعبية تجاههم، الأمر الذي اضطرهم للعيش في أحياء محددة تشبه الغيتوهات من أجل عزل وحماية أنفسهم، خاصة في الاوقات التي شهدت فراغاً سياسياً في المغرب.

وللمشكك في هذه الحقائق عليه أن يسأل يهود المغرب أنفسهم عن ذلك كونهم كانوا يُظهرون ولاءاً كبيراً للملك، كما سيقولون لك بأن الملك هو من أنقذهم من معسكرات الإبادة النازية وهو من منع ترحيلهم إليها، لكن في الوقت نفسه لماذا لم يحرّك ساكناً أثناء خضوعه لحكومة فيتشي التي فرضَت نفسها على المغرب؟ ولماذا لم يحرك ساكِناً عندما أجبرت تلك الحكومة اليهود المغاربة على ارتداء نجمة داوود ذات اللون الأصفر في خطوة مشابهة لما قام به النازيون في ألمانيا بهدف تمييز اليهود عن غيرهم؟

قائمةالملاحظات والحواشي

1. Khaled Abu Toameh, 'PLO's Ashrawi: no such thing as Jewish refugees', *Jerusalem Post*, 1 September 2012, http://www.jpost.com/Middle-East/PLOs-Ashrawi-No-such-thingas-Jewish-refugees (Last accessed 26 April 2017).

2. نفس المصدر

3. Interview of Ellis Douek with *Sephardi Voices UK*, 2016.

4. Y. Meron, 'Why Jews left Arab countries', *Middle East Quarterly*, September1995.

5. UN Definition, 'What is a refugee?', http://www.unrefugees.org/what-is-a-refugee/. (Last accessed 26 April 2017).

6. UNHCR Fourth Session – Geneva, 29 January to 4 February 1957, quoted in JJAC report. Urman, Cotler, Matas, 'Jewish refugees from Arab countries: the case for rights and redress (JJAC, 2007), p.37.

7. See Table showing statistics of mass displacement: ibid.

8. نفس المصدر

9. Yehuda Dominitz, 'Immigration and Absorption of Jews from Arab Countries' in Malka Hillel Shulewitz (ed.) (Continuum, 1999), p.178.

10. Alain Gresh, 'Eric Rouleau, ambassador of the World', *The Cairo Review*, 11 October 2015, http://www.thecairoreview.com/tahrir-forum/eric-rouleau-ambassador-of-theworld. Last accessed 26 April 2017).

11. Interview with *Sephardi Voices UK*.مقابلة صحفية مع مجلة أصوات سفردية– المملكة المتحدة –

12. Feuerlicht, *The Fate of the Jews* (Quartet, 1988), p.231.

13. 'Challenging Naiem Giladi's farrago of lies', *Point of No Return*, 15 June 2010, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2010/06/challenging-naieem-giladis-farragoof. html. (Last accessed 26 April 2017).

14. Elie Kedourie, (Cohen and Udovitch (eds)), *The Break between Muslims and Jews in Iraq* (Darwin, 1989), p.55.

15. Tom Segev, 'Now it can be told', *Haaretz*, 6 April 2006, http://www.haaretz.com/now-itcan-be-told-1.184724. (Last accessed 26 April 2017).

16. Benny Morris video lecture, 27 August 2009.

17. Yaacov Meron, 'Why Jews fled Arab Countries', *Middle East Quarterly*, Vol. 2. No. 3, 1995, pp.47–55, http://www.meforum.org/263/why-jews-fled-the-arab-countries. (Last accessed 26 April 2017).

18. N. Weinstock, *Une si longue présence*(Plon, 2008), p.314.

19. M. Ben-Porat, *To Baghdad and Back* (Gefen, 1998), p.180.

20. Laskier, *Jews of Egypt* (NY University, 1992), p.188.

21. Roumani, *Jews of Liby*a (Sussex Academic Press, 2008), p.52.

22. Bensoussan, *Juifsen pays arabes: Le grand déracinement 1850–1975* (Paris: Tallandier,2012), p.235.

23. Georges Bensoussan, *Juifs du monde arabe*(Paris: Odile Jacob, 2017), p.39.

24. 'The truth about Morocco: fear made Jews leave', *Point of No Return*, 11 September 2016, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2016/09/the-truth-about-morocco-fear-madejews.html. (Last accessed 26 April 2017).

25. See 'The longest ten minutes' by Rami Mangoubi, *Jerusalem Post*, Appendices.

26. For more information on Arab familism see Raphael Patai, *The Arab Mind* (Hatherleigh, NY, 2002), p.300.

28. Address to European Parliament, October 2016, https://www.youtube.com/watchv=uwN1WuDwIf0. (Last accessed 26 April 2017).

29. Abitbol, *Le passé d'unediscordeJuifs et arabesdepuis le VIIe siècle* (Paris: Perrin, 2003), p.37.30. '1947 Aden Riots', *Wikipedia*(Russian),(http://yavix.ru/%7B+(%3E%D1%81%D0%B0%D0%B9%D1%82%3C=%3E[%3Ehttp:%E2%95%B1%E2%95%B1en.wikipedia.org%E2%95%B1wiki%E2%95%B11947_Aden_riots%3C]%3C)+%7D. (Last accessed 26 April 2017).

31. J. Beinin, *The Dispersion of Egyptian Jewry: Culture, Politics, and the Formation of a Modern Diaspora* (Berkeley, CA: University of California Press, 1998), p.35.

32. N. Stillman. *Jews of Arab Lands in Modern Times* (Philadelphia, PA: Jewish Publication Society of America, 1979),Vol. II, p.46.

33. Elie Kedourie, *The Chatham House Version* (New York: Praeger, 1970), p.295.

34. Margaret Brearley, 'The forgotten Genocide', *Jewish Quarterly*, Summer 2006, no. 202, p.29.35. 'Armenians massacred Azeri Jews', *Point of No Return*, 24 May 2006, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2006/05/armenians-massacred-azeri-mountain.html. (Last accessed 26 April 2017).

36. Shlomo Hillel, *Operation Babylon* (London: Collins, 1988), p.148.

37. M. Fischbach, *Jewish Property Claims against Arabs* (Columbia University Press, 2008).

38. Abbas Shiblak, *Iraqi Jews* (Saqi, 2005), p.25.

39. Meir-Glitzenstein, *Zionism in an Arab Country* (Routledge, 2004), p.253.

40. See full text of Arab League draft law p.131.

41. Ben-Dror Yemini, *Maariv,* 2 February 2014.

42. The full text of the Balfour Declaration can be read here: http://www.jewishvirtuallibrary.org/text-of-the-balfour-declaration. (Last accessed 26 April 2017).

43. Richard Mather, 'Expulsion: Islam's solution. The forgotten Nakba', *Jewish Media Agency*, 16 May 2015.

44. Yaakov Meron, 'Why Jews fled the Arab countries', *Middle East Quarterly*, September 1995, pp.47–55, http://www.meforum.org/263/why-jews-fled-the-arab-countries. (Last accessed 26 April 2017).

45. نفس المصدر

46. نفس المصدر

48. *Al-Kifah*, 28 March 1949, today a weekly magazine in Lebanon.

49. 'Baroud proposes amending law for Jewish Lebanese', *Daily Star*, 28 April 2009, http://www.dailystar.com.lb/News/Lebanon-News/2009/Apr-28/53032-baroudproposes-amending-law-for-jewish-lebanese.ashx. (Last accessed 26 April 2017).

50. I. Cotler, D. Matas, S. Urman, 'Jewish Refugees from Arab Countries: the Case for Rights and Redress', *Justice for Jews from Arab Countries* (JJAC, 2007).

51. Moreh, *Al-Farhud*, p.143.52. I. Cotler, D. Matas, S. Urman, 'Jewish Refugees from Arab Countries: the Case for Rights and Redress', p.16, http://web.archive.org/web/20110716153155/http://www.justiceforjews.com/jjac.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

53. G. Bensoussan, *Akadem*, June 2012.

54. Dr G. Bechor, *G Planet*, 29 April 2012, http://www.gplanet.co.il/prodetailsamewin.asp?pro_id=1670. (Last accessed 26 April 2017).

55. Moshe Gat, *The Jewish Exodus from Iraq* (London: Frank Cass, 1997), p.18.

56. These included riots and protests over the Anglo-Iraqi Portsmouth Treaty.

57. See Moshe Gat, *The Jewish Exodus from Iraq*, p. 41.

58. Heskel Haddad, *Flight from Babylon* (Mcgraw-Hill, 1986), p.176.

59. N Stillman, Summary by British Ambassador of this decisive parliamentary debate, in *The Jews of Arab Lands in Modern Times*, Vol II, p.522.

60. Mordechai Ben-Porat, *To Baghdad and Back* (Jerusalem, 1998), p.80.

61. See, for example, 'The last Jews of Iraq', Morad Shasha and Shasha (eds) for personal testimonies of this era.

62. JJAC. See Appendix. – أنظر إلى الملحقات في نهاية الكتاب

63. N. Stillman, ‘ The Moroccan Jewish Experience’, in *The Legacy of Islamic Antisemitism*, Andrew G Bostom (ed.) (Prometheus, 2008), p.551.

64. Robert Satloff, Among the Righteous (New York: Public Affairs, 2006), p.61.

65. Revd J.W. Brooks, History of the Hebrew Nation (1841).

66. نفس المصدر ص.98

67. The book was published in an English version as Exile in the Maghreb: Jews under Islam, Sources and Documents 997–1912 (Rowan and Littlefield, 2016).
هذا الكتاب صدر باللغة الإنجليزية تحت عنوان "المنفى في المغرب – اليهود تحت ظلّ الإسلام".

68. Professor Paul Fenton, London lecture, ‘Exile in the Maghreb’, 13 December 2015. Summary in Point of No Return, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2014/10/thecurious-case-of-moroccan-marranos.html. (Last accessed 26 April 2017).

69. Lyn Julius, ‘When the Jews sheltered with the sultan’s lions’, Times of Israel, April 2012, http://blogs.timesofisrael.com/when-the-jews-sheltered-with-the-sultans-lions/. (Last accessed 26 April 2017).

70. Assaraf, Une certainehistoire des juifs du Maroc (Gawsewitch, 1998), p.352.

71. Saïd Ghallab, Les juifsvontenenfer (1965).

72. Boum, Memories of Absence, p.148.

73. Weinstock, Une si longue présence (Paris: Mille et Une Nuits, 2004), p.147.

74. See Assaraf, Une Certainehistoire des juifs du Maroc, (Paris: Gawsewitch, 2005), pp.578–82.

75. Comment at Ron Gerlitz,’Why Morocco can be a model for Jewish-Arab partnership’, +972 magazine, 18 April 2016, http://972mag.com/morocco-a-model-for-jewish-arab-partnership/118649/?fb_comment_id=fbc_1064561640267830_1064868626903798_1064868626903798#f15c2f240fac626. (Last accessed 26 April 2017).

76. Lela Gilbert, ‘The Nakba of Morocco’s Jews’, Jerusalem Post, 28 April 2010, http://www.jpost.com/Features/In-Thespotlight/The-Nakba-of-Moroccos-Jews. (Last accessed 26 April 2017).

77. See Boum, Memories of Absence (Stanford, CA: Stanford University Press, 2013), p.107.

78. نفس المصدر ص.90

79. Nonetheless, Jews desperate to leave at times abandoned their assets, put them in the hands of less-than-honest lawyers, or sold property at rock bottom prices. (Indeed, a film by Moroccan Muslim Younes Laghrari and produced by Simon Skira, Les destins contrariés, (http://lavieeco.com/news/culture/les-destins-contraries-des-juifs-marocains-33170.html) interviews a Jewish man who got rich on the back of fleeing Jews.) (Last accessed 26 April 2017).

80. See Assaraf, Une certainehistoire des juifs du Maroc, p.737.

81. ‘Le Maroc enterretrenteansd’arabisation pour retourner au français’, Le Monde Afrique, 19 February 2016, http://www.lemonde.fr/afrique/article/2016/02/19/maroc-le-roimohamed-vi-enterre-trente-ans-d-arabisation-pour-retourner-au-francais_4868524_3212.html#jwAu2xsWxhcgWpSf.99. (Last accessed 26 April 2017).

82. Xavier Cornut, ‘The Moroccan Connection’ Jerusalem Post, 22 June 2009, http://www.jpost.com/Features/The-Moroccan-connection. (Last accessed 26 April 2017).

83. See Boum, Memories of Absence, p.155.

84. Anne Cohen, ‘Honoring the Moroccan king who saved Jews’, The Forward, 22 December 2015, http://forward.com/news/breaking-news/327772/honoring-the-moroccan-kingwho-saved-the-jews/. (Last accessed 26 April 2017).

85. See Boum, Memories of Absence, p.164.

86. نفس المصدر ص.126

87. Marc Perelman, ‘From royal advisors to far-left militants, Moroccan Jews embody coexistence’, The Forward, 10 October 2007, http://forward.com/news/11792/from-royaladvisers-to-far-left-militants-morocca-00611/. (Last accessed 26 April 2017).

88. ‘Morocco’s Holocaust recognition rare in Islam’, AP, 25 July 2009, http://www.nbcnews.com/id/32147263/ns/world_news-mideast_n_africa/t/moroccos-holocaustrecognition-rare-islam/#.WPoljlOGNE5. (Last accessed 26 April 2017).

89. See Arie Tepper, ‘Toward a pluralistic Middle East’, Jewish Ideas Daily, 17 March 2011, http://www.jewishideasdaily.com/844/features/toward-a-pluralistic-middle-east/.(Last accessed 26 April 2017).

90. ‘Three-quarters of Jews are thinking of leaving Morocco’, Point of No Return, 12 June 2011, http://jewishrefugees.blogspot.co.il/2011/06/three-quarters-of-moroccan-jewsthink.html, (Last accessed 26 April 2017).

91. See Satloff, Among the Righteous, p.177.

الفصل السابع

اللاجئون اليهود: هل يوجدُ من يذكرهُم؟

هنالك سؤال يستحق التفكير بشكل معمّق: بما أن عدد اللاجئين اليهود من الدول العربية منذ سنة 1948م يفوق عدد اللاجئين الفلسطينيين، فما الذي يُفسّر عدم وجود قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية عن الأجندات الدولية؟[1] إن أحد أهم الأسباب التي تقف خلف ذلك هو أن قضيتهم لم تكُن تحظَ بأي شكل من الأشكال باهتمام هيئة الأمم المتحدة، مع العلم أنها المنظمة الدولية المسؤولة عن حماية اللاجئين وتوطينهم وإعادة تأهيلهم في كل بقعة من بقاع الأرض خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

لقد أصدر مجلس الأمن المنبثق عن هيئة الأمم المتحدة مئتين وتسعة وثمانين قراراً منذ تأسيسه، عشرة قرارات منها تتعلق بقضية اللاجئين الفلسطينيين، فيما لم يصدر المجلسُ أي قرار يتعلق بقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية. في الوقت نفسه أصدرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة ألفاً وثمانية وثمانين قراراً فيما يخصّ الصراع العربي الإسرائيلي، يختص مئة واثنان وسبعون منها بقضية اللاجئين الفلسطينيين، فيما لم يذكر أي من تلك القرارات قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية على الإطلاق.[2]

بالتالي لماذا هذا التجاهل لقضيتهم؟ تُجيب منظمة العدالة ليهود الدول العربية بجملة مختصرة عن هذا السؤال: "لقد لعبت هيئة الأمم المتحدة دوراً خبيثاً ومُجحِفاً عبر التجاهل المُتعمّد لقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية، والاعتراف فقط بقضيّة اللاجئين الفلسطينيين وحقوقهم".[3]

صورة تُظهر مجموعة من يهود اليمن الذين توجّهوا إلى إسرائيل، فساروا مشياً على الأقدام إلى منطقة عدن حتى ينضمّوا لرحلة الإخلاء الجوي المعروفة باسم أجنحة النسور سنة 1949م.

لقد كانت هيئة الأمم المتحدة قابعة تحت سطوة وتأثير الدول العربية والإسلامية منذ بدايات الصراع العربي الإسرائيلي، وذلك بهدف حشد الدعم لقضية اللاجئين الفلسطينيين والدفاع عن حقوقهم وحدهم دون غيرهم، فكانت نتيجة ذلك أن خصّصت هيئة الأمم المتحدة "وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين"[4] والتي تُعنى باللاجئين الفلسطينيين فقط ،، كما توجد عشر منظمات أخرى تابعة للأمم المتحدة تُعني أيضاً باللاجئين الفلسطينيين وحدهم دون غيرهم، وبالنسبة لهذه المنظمات جميعها فقط أصدرت تعريفاً خاصاً باللاجئ الفلسطيني والأساس الذي يعتبر لاجئاً بناء عليه. وتبعاً لهذه المنظمات فإنه يَكفي أن يكون من تعرّض للتهجير أثناء الحرب قد أمضى سنتين على الأقل مُقيما على أرض فلسطين حتى يُعتبر لاجئاً [5]، وهذا التعريف لا يذكر تعرّض اللاجئ لأي اضطهاد أو نزوح قصري أو غيرها من الأمور التي تدفعُ اللاجئين إلى اللجوء من أوطانهم بالعادة.

واللاجئون الفلسطينيون بالمناسبة هُم الوحيدون من أصل خمسة وستين مليون لاجئ في العالم ممن يُسمحُ لهم بتوريث صفة اللجوء لأجيالهم القادمة ولكل من انحدر من نسلهم [6] حتى لو كانوا يتمتعون بجنسية الدولة المُستضيفة لهم. ويبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين استناداً لهذا المفهوم قرابة خمسة ملايين ونصف لاجئ فلسطيني، وجميع هؤلاء اللاجئين يُطالبون بحق العودة إلى إسرائيل بدلاً من إعادة توطينهم، وهو أمر يشكّل أحد الخطوط الحمراء التي لن تسمح بها إسرائيل [7]. بالتالي فإن سياسة الأمم المتحدة في التعامل مع قضية اللاجئين الفلسطينيين قائمة على إدامة وإطالة عُمر هذه القضية بدلاً من إيجاد حلول لها.

ومن ناحية اقتصادية فقط تم تخصيص 17.7 مليار دولار كدعم دوليّ لصالح اللاجئين الفلسطينيين، أما يهود الدول العربية فلم يتلقّوا أي شيء، باستثناء مبلغ قدره ثلاثون ألف دولار قد تم منحه لهُم على َشكل "قرض" سنة 1957م من قبل هيئة الأمم المتحدة، ولم يتم الإعلان عن منح يهود الدول العربية هذا المبلغ "خوفاً" من الأعضاء العرب والمسلمين في الأمم المتحدة. لاحِقاً تم دفع هذا القرض من قِبَل منظمة ولجنة

التوزيع الأمريكية اليهودية المُشتركة باعتبارها أحد المؤسسات اليهودية التي تُعني بمساعدة اليهود الذين يحتاجون العون والمساعدة. [8]

من جانب آخر فقد اعترفَت هيئة الأمم المتحدة بقضية لجوء ونزوح اللاجئين اليهود من مصر ومنطقة شمال افريقيا، وسنة 1957م أعلن رئيس المفوضية العُليا لشؤون اللاجئين في الأمم المتحدة أوغَست لِندت بأن "يهود مصر ممن لم يتمتعوا بحماية النظام الذي يحملون جنسيته" يَقعون بالفعل تحت مسؤولية المفوضية العُليا للاجئين. وسنة 1967م تم إضافة قضية لجوء يهود ليبيا لتندرج تحت مسؤولية المفوضيّة أيضاً.[9]

وحتى يكون أي حل مُستقبليّ شاملاً وعادلاً ودائِماً فإنه يتوجّب على المُجتمع الدوليّ أن يتطرّق لحقوق جميع اللاجئين في منطقة الشرق الأوسط بما فيهم اللاجئون اليهود من الدول العربية، وعليه أن ينظر إلى قضيّتيّ اللجوء التي خلّفها الصراع العربي الإسرائيلي: قضيّة اللاجئين الفلسطينيين وقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية، كما يجبُ على الدول العربية أن تتحمل مسؤولية ما اقترفته فيما يتعلق بالنكبتين: نكبة الفلسطينيين ونكبة اليهود.

ويوضح الناشط في مجال حقوق الإنسان المُحامي إروين كوتلِر في هذا السياق بأنه "لو قبِلَت الدول العربية بقرار التقسيم الصادر سنة 1947م لما كان هناك لاجئون فلسطينيون أو لاجئون يهود، بكل بساطة" [10]. وبعد حرب الأيام الستة أصدر مجلس الأمن قرار رقم 242 في تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1967م، وقد نصّ هذا القرار على أنه من الضروري التوصّل إلى اتفاق عادل وشامل يُعالج قضيّة اللاجئين[11]. ويقول آرثر غولدبِرغ المندوب السابق للولايات المتحدة في هيئة الأمم وأحد صانعي القرار 242 في مجلس الأمن بأن "لغة القرار تتطرق إلى كلا قضيتي اللجوء العربية واليهودية التي خلّفت نفس العدد تقريباً من اللاجئين الذين نزحوا من أوطانهم نتيجة تواصل الحروب".

صورة تُظهر عدداً من الأطفال يحتفلون بعيد "تو بِشڤات" في مخيم روش هاعين (رأس العين) للاجئين سنة 1950م
(حقوق الصورة محفوظة لزولتان كلُوغر – مكتب الإعلام الرسمي الحكومي في إسرائيل).

صورة تُظهر اللاجئين اليهود أثناء حصولهم على جواز السفر الإسرائيلي

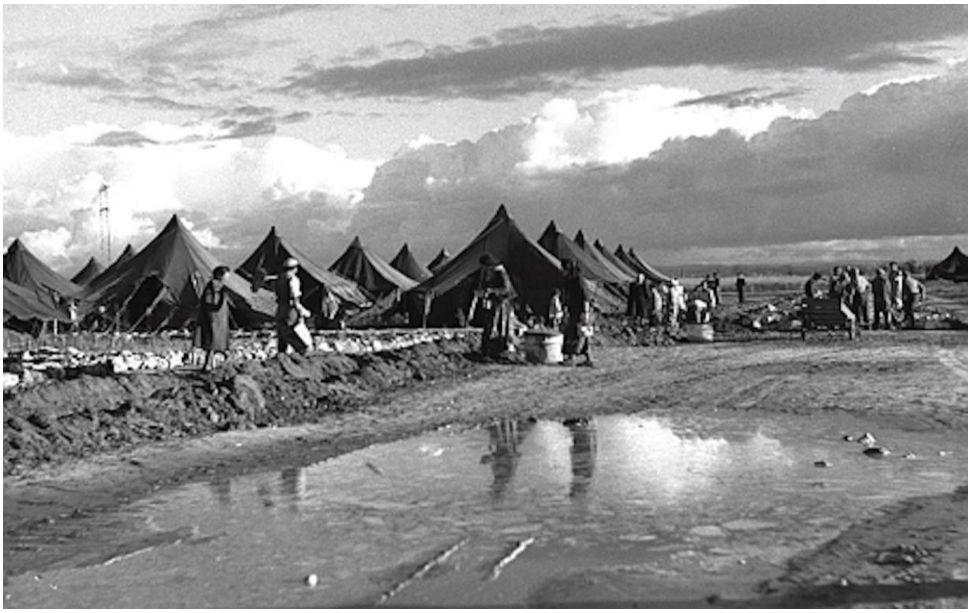

صورة تُظهر مخيم بارداس حَنا المؤقت (حُقوق الصورة محفوظة لِتِدي براونر - مكتب الإعلام الرسمي الحكومي في إسرائيل).

لكن قرار مجلس الأمن رقم 2334 الصادر في كانون الأول/ديسمبر سنة 2016م يخلو من أي نظرة متزنة إلى كلا قضيتي اللجوء العربية واليهودية، باعتباره يستند إلى المبادرة العربية كأساس لعملية السلام وحل الصراع العربيّ الإسرائيلي، فالمبادرة العربية مبادرة متحيزة للجانب العربي، وهي تنصّ على أهمية إيجاد حل مُنصف لقضية اللاجئين الفلسطينيين فقط، الأمر الذي يعني تجاهل قضية لجوء يهود الدول العربية.

وبتاريخ السابع والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة 1977م صرّح الرئيس الأمريكي السابق كارتَر تعقيباً على قضية اللجوء اليهودية قائلاً بأن "اللاجئين اليهود يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها غيرهم من اللاجئين". كذلك صرّح رئيس الوزراء الكندي بول مارتِن بتاريخ الثالث من حزيران/يونيو سنة 2005م مُعقّباً على قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية بأن "اللاجيء يظلّ لاجئاً، ولا بد من الاعتراف بقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية".[12]

فشل المبادرة العراقية لتبادل اللاجئين

تقدّم رئيس الوزراء العراقي السابق نوري السّعيد في تموز/يوليو سنة 1949م باقتراح مبادرة "تبادل طَوعي" بين اللاجئين الفلسطينيين واليهود في محاولة منه لربط القضيتين ببعضهما، وعلى الرغم من أن نزوح السكان وتهجيرهم كان أمراً شائع الحدوث في الصراعات التي اندلعت نهاية القرن العشرين، إلا أنه لم يتقدّم أحد بأي حل لقضيتي اللجوء الفلسطينية والعربية سوى مبادرة نوري السعيد.[13]

وعقب نهاية حرب سنة 1949م بل وحتى خلال الحرب نفسها كانت دولة العراق تطرح مبادرة للأمم المتحدة وللمسؤولين الأمريكيين والبريطانيين مفادها تبادل سكّاني بين يهود العراق واللاجئين الفلسطينيين يتضمن إرسال مئة ألف يهودي عراقيّ إلى إسرائيل مُقابل العدد نفسه من اللاجئين الفلسطينيين. وقد التزم نوري السعيد بتلك المبادرة إلا أنه غلّف ذلك الالتزام بالتهديد قائلاً: "إذا لم يتم ترحيل اليهود العراقيين فإن الشعب العراقي الغاضب نتيجة قيام الدولة الصهيونيّة قد يلجأ للعنف الذي سيكون له عواقب كارثية على عدد كبير من الأبرياء" [14]. ومن الجدير بالذكر هُنا أن تهديدات نوري السّعيد كان لها صدى كبير في الشارع العراقي وأدت إلى تأجيجه، الأمر الذي أدى إلى نتائج كارثية على يهود العراق لاحقاً.

لقد سَكَن يهود العراق هذا البلد منذ زمن الكتاب المقدّس، لكنهم عوملوا بقسوة ووحشية وتم طردهم من هذا البلد وكأنهم لم يكُن لهم مكان فيه أصلاً بالتالي لا يحقّ لهُم البقاء فيه. لكنهم فجأة أصبحوا يتمتعون بأهمية كبيرة لدى نوري السعيد الذي سيصبح "بطلاً" أمام العرب والفلسطينيين بعد أن يستغلّ قضية لاجئي العراق اليهود [16]. لكن نوري السعيد لم يكُن الوحيد الذي يحاول استغلال قضيتهم، إذ كانت هناك قوى خارجية أخرى ترى في استغلال قضية يهود العراق كمخرج لحلّ الصراع العربي الإسرائيلي.

ومن الجانب الإسرائيلي فقد رفض وزير الخارجية الإسرائيلي السابق موشيه شاريت بشكل قاطع الرّبط بين قضيتيّ اللجوء الفلسطينية واليهودية. وفي الوقت الذي كان يهود الدول العربية على وشك الخروج والنزوح من تلك البلدان أبرقَ ليڤيأشكول الذين كان يشغل منصب أمين صندوق الوكالة اليهودية، مُخاطباً المجموعات السرّية في العراق طالباً منها التريّث لأن إسرائيل في ذلك الوقت لم تكن تمتلك خيام كافية لاستيعاب اللاجئين اليهود، قائلا: "إذا جاؤوا إلى إسرائيل فلن يجدوا مكاناً يأويهم سوى الشوارع" [17]. بالتالي لم تبدأ رحلات الإخلاء الجوي التي قامت بها إسرائيل لجلب يهود الدول العربية إلا في سنة 1950م [18]، كما لم يكن باستطاعة إسرائيل التعامل مع الكم الكبير من اليهود الذين تم إسقاط جنسيتهم من البلدان التي عاشوا فيها، بالتالي انتظر عدد كبير منهم لمدة سنة كاملة حتى تمكّنت إسرائيل من إخلائهم.

وسنة 1950م كانت تحاول إسرائيل العمل على مبادرة تتضمن توطيناً للاجئين الفلسطينيين في ليبيا، إلا أنه لم يكتب لتلك المبادرة النجاح. وسنة 1956م حاولت إسرائيل مرة أخرى العمل على هذه المبادرة من خلال شراء مئة ألف دونم في ليبيا بهدف توطين سبعة عشر ألف لاجيء فلسطيني هناك في مقابل أن يتنازل هؤلاء اللاجئون عن تعويضاتهم التي يُطالبون بها إسرائيل [19]، لكن هذه المبادرة قد فشلت هي الأخرى.

في الوقت نفسه كانت تصرفات الحكومة العراقية واضحة وضوح الشمس فيما يتعلّق بخطّتها الرامية إلى إسقاط الجنسية العراقية عن عدد مهول من يهود العراق دفعة واحدة، وهو أن الحكومة العراقية كانت تطمح إلى الزجّ بيهود العراق إلى الحدود الإسرائيلية حتى تقوم إسرائيل بالسماح لهم بالدخول إليها، الأمر الذي يعني انهياراً اقتصادياً لإسرائيل. لكن المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين نجحوا في إقناع الحكومة العراقية بعدم القيام بذلك.[20]

وعندما نزح يهود العراق متوجهين إلى إسرائيل فإنهم لم يفعلوا ذلك في الوقت نفسه، إذ تمكّن في البداية مئة وعشرون ألف يهودي عراقيّ من النزوح والرحيل بعد ان تمت إزالة حظر السفر عنهم في آذار/مارس سنة 1950م، إلا أن قرار الحظر عاد مرة أخرى ليُطبّق بعد سنة. في المقابل تمكّن أربعة عشر ألف لاجيء فلسطيني من الوصول إلى العراق.

وفي آذار/مارس من سنة 1951م وضعَت الحكومة العراقية الشعرة التي قصمت ظهر البعير، وذلك عب اتخاذها قراراً بتجميد أرصدة وممتلكات جميع يهود العراق، فأصبح سبعون ألف يهودي عراقيّ تحت خط الفقر نتيجة لهذا القرار [21].
وقبل صدور القرار بثلاثة أيام قامت جميع المصارف في العراق بإغلاق أبوابها لمدة ثلاثة أيام حتى تمنع يهود العراق من القيام بسحب أموالهم أو بيع ممتلكاتهم.

بنهاية المطاف وبعد أن فشلت جميع المساعي لاسترجاع أموال وممتلكات يهود الدول العربية، أعلن وزير الخارجية الإسرائيلي السابق موشيه شريت من داخل الكنيست بتاريخ التاسع عشر من آذار/مارس سنة 1951م بأن "إقدام الحكومة العراقية على تجميد أموال ومصادرة ممتلكات يهود العراق يعني أنها فتحت باب الحساب بينها وبين دولة إسرائيل، وما قامت به من تجميد ومصادرة للأملاك سيتم احتسابه من الحساب المفتوح أصلاً بين إسرائيل والعرب فيما يخصّ تعويضات اللاجئين الذين خلّفهم الصراع العربي الإسرائيلي".[22]

خسائر مُتكافئة على جانبي الصراع

لقد رفضت إسرائيل في بداية الصراع التعامل مع قضيتي اللجوء الفلسطينية واليهودية على أنهما متكافئتان، باعتبار أنهما مُختلفتان من ناحية السياق الأخلاقي لحدوثهما، ويقول وزير الخارجية الإسرائيلي السابق وولتَر إيتان في رسالة بعثها إلى لجنة المُصالحة في الأمم المتحدة سنة 1951م بأن "العرب الفلسطينيين قد غادروا أرضهم وتخلّوا عن ممتلكاتهم سنة 1948م وانضمّوا إلى الدول العربية في قتالها لإسرائيل الذي تضمن أهدافاً مُعلنة بالقضاء على اليهود ومنعهم من اقامة دولتهم. وفيما يتعلّق بقضية يهود العراق فإنها تعتبر مُختلفة تماماً لأن يهود العراق لم يشتركوا في أي تصرّف عِدائي ضد الحكومة العراقية أو الشعب العراقيّ".[23]

وخلافاً لجميع الأوساط والمحافل الدولية فإن إسرائيل أصرّت على الاعتراف بقضية تهجير ونزوح يهود الدول العربية، كما أن غياب أي قرار أممي أو دولي في الأمم المتحدة بخصوص يهود الدول العربية لم يكن نتيجة لعدم سعي اليهود إلى استصدار مثل هذه القرارات [24]، فمساعي اليهود لم تتوقف في هذا الصدد، خاصة وأن إسرائيل كانت ولا زالت تعتبر قضية لجوء يهود الدول العربية جزءاً لا يتجزأ من سياستها الخارجية، ساعية إلى تخفيف الضغط الممارس عليها فيما يتعلّق بقضية اللاجئين الفلسطينيين من خلال جلب قضية يهود الدول العربية إلى طاولة النقاش حول قضايا اللجوء.

وقد كانت هنالك مبادرات عديدة لحل هذه القضايا إلا انه لم يُكتب لها النجاح، وكانت إحدى هذه المبادرات الجريئة تتضمنُ تحقيق المساواة للضحايا انطلاقاً من حصولهم على حقوقهم بناء على نسبتهم من النسبة الكلية للسكان في المجتمعات التي تواجدوا فيها، فكانت هذه المبادرة تقضي بحصول يهود العراق على نسبة من مخزون الثروة والاحتياطات المتراكمة للاقتصاد العراقي بنسبة تعادل نسبتهم من إجمالي عدد سكان العراق آنذاك.[25]

لاحقاً قامت إسرائيل باستحداث سياسة "القِزوز" فيما يتعلق بقضية يهود الدول العربية، والتي تستثني استحقاقات اللاجئين الفلسطينيين وتعويضاتهم مما صادرته الحكومات العربية من أملاك وأموال من يهود الدول العربية. لكن سياسة القِزوز كانت بمثابة سحابة سوداء تغيّم على طريق المساعي والجهود اليهودية الجماعية لإحقاق الحق والحصول على التعويضات، فهذه السياسة تَعني أنه في حال أُلغَت حقوق اللاجئين الفلسطينيين واللاجئين اليهود بعضها بعضاً فإن يهود الدول العربية لن يحصلوا على أي تعويضات على المستوى الفردي.

من ناحية أخرى فقد حذّر البعضُ من أن حالة من الغضب والهيجان داخل المُجتمع الإسرائيلي ستنشبُ لأسباب ودوافع عِرقية في حال ظلّ اليهود المزراحيون والسفرديّون في حالة من التهميش والتجاهل، خاصة وأن اليهود الأشكناز قد استقبلوا اليهود المزراحيين والسفرديين في المخيمات المؤقتة فور وصولهم لإسرائيل ومن ثم قاموا بإرسالهم إلى القرى التعاونية التي أقيمت في أرياف إسرائيل. ويرى العديد من الساسة والمسؤولين في إسرائيل بأن اليهود المزراحييونوالسفرديين لا زالوا يرون بأن إسرائيل قدّمت لهم أقل مما قدمته لفئات أخرى على الرغم من إسرائيل أنفقت الملايين في سبيل مساعدتهم على الاندماج والمضي قدماً في المُجتمع الإسرائيلي، لكن وبجميع الأحوال يظل هذا النقاش بعيداً كل البعد عن القضية الأساسية وهي ما تعرَض له يهود الدول العربية من اضطهاد وظلم خارج الدولة اليهودية، فيقول نعيم دنجور رجل الأعمال اليهودي العراقي الذي نزح من العراق إلى بريطانيا ردّا على سؤاله عن دور إسرائيل وتعاملها مع اليهود المزراحوالسفرديين قائلاً: "ما دخل الحكومة الإسرائيلية بكلّ هذا؟".[26]

لقد كان البروفيسور اليهوديّ العراقي الأصل يُهودا شِنهاڤ أحد المُحاضرين في جامعة تل أبيب ومن أوائل الشخصيات التي لفتت الأنظار إلى عدم معقولية هذا الطرح، أي ربط الظلم الذي تعرّض له اليهود في الدول العربية بسياسة إسرائيل وتعاملها معهم داخل الدولة اليهودية، فيقول في أحد تصريحاته بأن "أملاك يهود الشرق الأوسط المنهوبة ليس لها علاقة بدولة إسرائيل، وبأن مثل هذه الأفكار تهدف إلى التضليل والمراوغة لأجندات وأهداف خفيّة" [27]. وعندما سُئِل يهودا شِنهاڤ عمّا يتوجّب القيام به لحلّ قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية أجاب بأنه يجب على اليهود على المستوى الفردي التوجه لاتّخاذ إجراءات قضائيّة ضد الدول العربية.

إن الفكرة التي طرحها شِنهاڤ كانت تواجه عقبة كبيرة، فمثل هذه الفكرة لم تكن غريبة على اللاجئين اليهود الذين نزحوا إلى فرنسا وبريطانيا مثلاً، إلا أنه لا يوجد يهوديّ واحد من اللاجئين اليهود الموجودين في إسرائيل قد سبق له وأن رفع أي دعاوى على الدول العربية، على الرغم من وجود بعض المُحامين الإسرائيليين من أمثال ديڤيد ناوي ممن حاولوا رفع قضية جماعيّة ضد الحكومة العراقية بالنيابة عن يهود العراق وذلك عقِب الغزو الأمريكي لها [28]. بالتالي كان يهود الدول العربية في إسرائيل يؤجّلون القيام بأي تحرّك ضد الدول العراقية واسترجاع ممتلكاتهم التي تم نهبها وسرقتها وذلك من أجل إفساح المَجال أمام دولة إسرائيل للتعامل مع هذه المسألة بالنيابة عنهُم.

وقد كانت الحكومة الإسرائيلية في حالة من التردّد والحيرة فيما يتعلّق بمسألة اللاجئين اليهود، واستمرت هذه الحالة لمدّة خمسين سنة تقريباً، حيث كانت تدعي الحكومة الإسرائيلية بأنه لم يأت الوقت المُناسب بعد لحلّ هذه المسألة [29]. في الوقت نفسهكان اللاجئون الفلسطينيون يبذلون جهوداً حثيثة من أجل الحصول على تعويضات من إسرائيل[30]، مُتجاهلين بل ومُنكرين لوجود أي صِلة بين قضيّة لجوئهم وبين قضيّة لجوء يهود الدول العربية، قائلين بأنه يتوجّب على إسرائيل الحديث بشكل مباشر مع الدول العربية والتفاوض معها بخصوص مسألة اللاجئين اليهود، بالتالي لا علاقة للفلسطينيين بما حدث. لكن ما حدثَ هو قيام الحكومة الإسرائيلية أثناء مفاوضات الحلّ النهائي سنة 1999م ببدء حملة لإقناع يهود الدول العربية بتسجيل ممتلكاتهم التي كانوا يملكونها أثناء وجودهم في الدول العربية.

الدعم الماليّ الدولي

مع حلول سنة 2000م أصبحت فكرة "القِزوز" عديمة الجدوى، فتم تجاوزها واستبدالها بمبدأ التعويضات الفردية للاجئين، وكان الحافز وراء المضيّ قُدُماً في هذا التوجّه هو مباحثات كامب ديفيد بين الفلسطينيين والإسرائيليين والتي تمّت برعاية أمريكية، حيث استضاف الرئيس الأمريكي السابق بِل كلينتون كلّاً من رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك إيهود باراك ورئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات. وعندما تم توجيه سؤال من قبل صحفي إسرائيلي للرئيس كلينتون بخصوص قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية أجاب قائلاً: "في حال تمّ التوصل لاتفاق بين الجانبين فإنه سيتم حشد دعم ماليّ من قبل المَجتمع الدوليّ بهدف تعويض اللاجئين، وباعتقادي هنالك قبول لدى الجانبين الفلسطينيّ والإسرائيلي لفكرة حشد الدعم المالي المناسب لتعويض اللاجئين اليهود من الدول العربية والذين نزحوا من بلدانهم عقِب قيام دولة إسرائيل. إن دولة إسرائيل مليئة بالناس، وجزء من هؤلاء الناس هم يهود الدول العربية الذين عاشوا لفترة طويلة في تلك الدول وتم تهجيرهم إلى إسرائيل بعد أن وجدوا أنفسهم مطرودين من بلدانهم".[31]

وقد كانت الفكرة تقوم على حشد مبلغ عشرة مليارات دولار أمريكي يتم جمعُها من إسرائيل والدول العربية والمُجتمع الدوليّ على أن تكون حصّة الأسد مدفوعة من قِبَل الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الجدير بالذكر هُنا أن اقتراح الرئيس الأمريكي بيل كلينتون ليس بالجديد، فقد سبقَ وأن تم دفع تعويضات مالية من قبل المجتمع الدولي لعدد من الضحايا الكويتيين والعراقيين والإسرائيليين الذين قُتلوا في هجمات صواريخ سكود سنة 1991م.[32]

بالتالي ضخّت هذه المبادرة الدم في عروق الحملة المُطالبة بإنصاف اللاجئين اليهود من الدول العربية، كما أكدت العديد من المنظمات والمؤسسات اليهودية أهمية التعويض على المستوى الفرديّ تماماً مثلما حدثَ مع الناجين من المحرقة – الهولوكوست -، خاصة وأن فكرة التعويض الفردي من شأنها أن تشمل مئات الآلاف من اليهود الذين تم تهجيرهم من الدول العربية ونزحوا منها إلى دول أخرى غير إسرائيل. كذلك تظلّ مسألة دفع تلك التعويضات للأجيال الجديدة التي انحدرت من نسل أولئك اللاجئين مطروحة على الطاولة إذا ما تم المضيّ قدماً في هذه الفكرة.

الخطأ الكارثيّ الذي ارتكبته إسرائيل

لا زالت تتعرض للحكومة الإسرائيلية للاتهام بالتقصير في قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية حتى يومنا هذا، حيث لم تستغل الحكومة الإسرائيلية فرصة خلال توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل سنة 1979م والتي تضمنت بنداً للتعويضات التي يجب أن يعوض بها الآخر المتضرر (البند الثامن من المعاهدة). ولم تطرح إسرائيل قضية يهود مصر خوفاً من أن تطالب الحكومة المصرية إسرائيل بدفع مبالغ مالية مقابل ما قامت باستهلاكه من حقل نفط أبو رديس الموجود في سيناء.

في الوقت نفسه وصفَ الصحفيّ والكاتب عَدي شڤارتز تقاعس الحكومة الإسرائيلية وصمتها الطويل تجاه مسألة اللاجئين اليهود من الدول العربية وعدم اعتبارها كقضية مركزية في الصراع العربيّ الإسرائيلي بأنه أمر "مريب". لاحقاً قام وزير العدل الإسرائيلي بالاعتراف بحجم الخطأ الفادح على المدى البعيد والذي سبّبهُ فشل إسرائيل في تسليط الضوء بشكل كافٍ على قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية، كون هذا الفشل قد أدّى إلى دعم الخرافة القائلة بأن اليهود في الدول العربية ارتكبوا أعمالاً مُعادية للعرب بالتالي قام العرب بطردهم، الأمر الذي كان له تبعات سلبية أيضاً فيما يتعلق بمدى شرعيّة إسرائيل، فقال في أحد تصريحاته بأن عدم إثارة قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية يشكّل أحد الأخطاء الكارثية والتاريخية التي ارتكبتها إسرائيل.[33]

في الواقع هنالك أسباب تقف خلف تهميش قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية الذين يشكّلون ما نسبته خمسون بالمائة من عدد سكان اليهود في إسرائيل، وهذه الأسباب عديدة ومعقدة، وسأستعرض ثلاثة أسباب منها وأتحدث عنها بالتفصيل. السبب الأول يُعزى لكون إسرائيل تتبنى توجّها وأسلوباً واقعياً براغماتياً في تعاملها مع العرب، وهذا التوجّه يقوم على نقاش أي قضية عندما يأتي دورها، خلافاً للعرب الذين يقوم أسلوبهم في علاقتهم وتعاملهم مع إسرائيل على فكرة المطالبة بحقوقهم قبل كل شيء. وهذا التوجّه الإسرائيلي هو توجّه مرنٌ إلى حد ما، كما أنه لا يمنعُ الإسرائيليين من تقديم "تنازلات مؤلمة" إذا ما تطلب الأمر ذلك. إن تبنّي إسرائيل لهذا التوجّه قد يبدو من وجهة نظر الكثيرين بأنها في موضع الدفاع عن ذاتها دوماً، وبأن الفلسطينيين يمتلكون أحقيّة أكثر من أحقّية الإسرائيليين.

إن هذا التوجه نابع من تبنّي الإعلام الإسرائيلي للرواية التاريخية العربية لهذا الصراع، هذه الرواية التي حجّمَت الصراع واختزلته ليُصبح محصوراً في الخلاف الإسرائيلي الفلسطيني فقط، واستثنت منه البُعد العربي الذي نتجَ عنه تهجير يهود الدول العربية، بالتالي حدث نوع من الاجتزاء والتهميش لهذه القضية على الرغم من أنها قضية مركزية في هذا الصراع. كما أن اختزال الصراع العربي في الخلاف بين الفلسطينيين والإسرائيليين قد أدى إلى تعميق هوية الضحية على الجانب الفلسطيني، بالتالي صار من حقّهم أن يتساءلوا: ما علاقتنا بطرد وتهجير يهود الدول العربية؟

أما السبب الثاني لتهميش وتجاهل قضية يهود الدول العربية هو حالة التردّد والتخبّط التي طغت على سياسة وزارة العدل الإسرائيلية فيما يتعلّق بهذا الموضوع، وذلك خوفاً من أن تكون قضية اللاجئين اليهود سبباً في أن تُصبح قضية اللاجئين الفلسطينيين القضية في مقدمة قضايا هذا الصراع. لكن وعلى الرغم من الصمت الإسرائيلي الرسميّ تجاه قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية إلا أن العرب كانوا ولا زالوا يعتبرون قضية اللاجئين الفلسطينيين وما حدث لهم من "نكبة" من أهم قضايا هذا الصراع، وسيظلون يعتبرونها كذلك سواء سكتت إسرائيل عن قضية اللاجئين اليهود أم لم تسكُت.[34]

أما السبب الثالث وراء هذا التهميش والتجاهل فهو أن قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية قد تم حلّها من الجانب الإسرائيلي، حيث أن هؤلاء اللاجئين قد تم إدماجهم بنجاح في المجتمع الإسرائيلي، ولن يكون هنالك أي يهودي إسرائيلي يرى نفسه على أنه لاجئ بعد الآن. ومن وجهة النظر الإسرائيلية الرسمية فإن إطلاق صِفة لاجئين على اليهود يعد تناقضاً كبيراً مع المباديء الصهيونية الأساسية، فهؤلاء اليهود بنهاية المطاف قد عادوا إلى وطنهم الأم، أي أرض إسرائيل، بغض النظر عن الأسباب التي دفعتهم إلى المجيء إليها. وفي هذا السياق يقول عضو الكنيست ذو الأصل العراقي قان كوهين: "لن أسمح لأحد بأن ينعتني باللاجيء، لأنني جئت هُنا امتثالاً لما تمليه عليّ صهيونيتي، وكان مجيئي إلى هُنا نتيجة للجهود التي بذلتها إسرائيل من أجل العودة إلى أرض صهيون".[35]

وقد قامت مؤسسة العدالة ليهود الدول العربية بإرسال وقد سنة 2001م إلى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل حشد الدعم والتأييد لقضية حقوق اللاجئين اليهود، لتجد الردّ الأمريكي في عبارة "هُم ليسوا لاجئين بعد الآن لأنهم موجودون في وطنهم إسرائيل" [36]. لكن وانطلاقاً من القوانين الدولية لحقوق الإنسان فإن مؤسسة العدالة ليهود الدول العربية تؤكد على أنه لا يوجد أية تشريعات تحدّد الفترة الزمنية التي لا يحق للاجئين اليهود بعدها بالمطالبة بحقوقهم.

ردود الفعل العربية

هُناك أصوات عربية تُنادي بتحقيق الإنصاف للاجئين اليهود من الدول العربية والاعتراف بالظلم الذي وقع عليهم، مثل أحد مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية صبري جريس الذي وجّه انتقاداً لاذعاً للدول العربية نتيجة قيامها بتهجير يهودها بتلك الطريقة المأساوية، كما انتقد إقدام الحكومات العربية على مصادرة أملاكهم والسيطرة على ملكيتها بأبخس الأثمان [37]، كما أضاف صبري جريس بأن "إسرائيل ستقوم بلا شكّ بإثارة قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية خلال أي مباحثات جدّية لتسوية الصراع، وربما سيؤدي هذا إلى إضعاف قضيّة اللاجئين الفلسطينيين". ويقول الصحفي المصريّ نبيل شرف الدين في هذا السياق: "إننا نَدينُ لإخوتنا من يهود مصر بعميق الأسف والاعتذار عن الظلم والإجحاف الذي اقترفناه بحقّهم، هذا الظلم الذي أدّى إلى طردهم من البلد الذي تعود جذورهم فيه إلى عهد النبي موسى". [38]

بالتالي فإن المتأمل في تصريح صبري جريس سيجدُ تشجيعاً من قبله على فكرة التبادل السكاني للاجئين، لكن هنالك العديد ممن لا يوافقون على هذا الطرح، خاصة وإن قبول مثل هذه الفكرة من شأنه أن يُزعزع أحد الثوابت الفلسطينية وهي قضيّة اللاجئين الفلسطينيين وعودتهم إلى إسرائيل، هذا الحق الذي يُصرّ العرب والفلسطينيون على عدم التنازل عنه نهائياً. كما أن الاعتراف العربي والفلسطيني بقضية اللاجئين اليهود من شأنه أن يُظهر نقاط الضعف في المطالبة الفلسطينية بحق العودة، هذا الحق الذي وضّحه الميثاق الوطني الفلسطيني سنة 1946م (وتم تعديله سنة 1968م) والذي يتحدّث عن فكرة إعادة اليهود إلى البلدان التي طُردوا منها.[39]

فعلياً فإن كلا قضيّتي اللجوء العربية واليهودية كان لهما حضور في جميع القرارات والمبادرات الدولية المتعلقة بالسلام وإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي، خاصة في القرار 242 الصادر عن مجلس الأمن والذي ينص بصريح العبارة على أهمية إيجاد حل عادل وشامل للاجئين دون أن يُحدّد إن كان يقصدُ قضيّة لجوء دون غيرها، وعقب صدور هذا القرار قام آرثر غولدبرغ مندوب الولايات المتحدة الأمريكية بمساعي حثيثة من أجل الوقوف أمام محاولات الروس لتخصيص هذا القرار وإسقاطه على قضية اللاجئين الفلسطينيين فقط، من خلال إضافة كلمة "فلسطينيين" بعد كلمة "لاجئين" المذكورة في القرار.

وخلال مؤتمر مدريد سنة 1991م فقد تم تشكيل لجنة تختصّ باللاجئين الذين أُجبروا على النزوح من أوطانهم أو تم ترحيلهم قصراً لبلدان أخرى نتيجة الصراع العربي الإسرائيلي، وكانت لغة الخطاب العامة لمنهجية عمل هذه اللجنة تتحدّث عن كلا القضيتين، أي اللاجئون الفلسطينيون واللاجئون اليهود. أما خلال مباحثات خطة الطريق سنة 2002م والتي كانت تهدف لإيجاد حلّ سلميّ ينهي الصراع في الشرق الأوسط فإن المرحلة الثالثة من الخطة تؤكد على أهمية وجود "حلّ عادل وشامل وواقعي ومتفق عليه لقضايا اللاجئين"، وبالطبع فإن لغة الخطاب كان يُقصد بها اللاجئون الفلسطينيون واللاجئون اليهود على حد سواء.[40]

كما عَرَضت المبادرة العربية للسلام التي تقدّمت بها المملكة العربية السعودية سنة 2002م مبادرة لتطبيع كامل للعلاقات العربية مع إسرائيل مقابل إيجاد حلّ لقضية اللاجئين الفلسطينيين استناداً إلى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 194، هذا القرار الذي ينصّ على أهمية الوصول إلى حلّ دبلوماسي للصراع يُنهي قضية اللجوء من خلال السماح لأي لاجئ يرغبُ بالعودة إلى بلاده بالعودة إليها والعيش بسلام مع جيرانه، وفي حال لم يرغب بالعودة إلى بلاده فيجبُ تعويضه مادياً. وعلى الرغم من ان القرار يتحدث عن كلا قضيتيّ اللجوء إلا أن المبادرة العربية تتحدّث عن قضية اللاجئين الفلسطينيين وحدهم وتستثني قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية. وقد جاء الردّ الإسرائيلي على هذه المبادرة بتغيير جملة "العودة إلى وطنهم" وان يتم استبدالها بجملة "الحق الفلسطيني بالعودة"، لأن هذا يمثل فعلياً أحد الخطوط الحمراء بالنسبة لإسرائيل والتي لا يُمكنها التنازل عنها بأي شكل من الأشكال.[41]

وخلال سبعينيات القرن المُنصرم كانت الدول العربية تطلق الدعوات هُنا وهُناك ليهودها للعودة إلى أوطانهم، لكن الدافع وراء تلك الدعوات لم يكن حُباً في اليهود، بل كان نتيجة إدراك تلك الدول بأنه لا يُمكن للعرب المُطالبة بحق العودة للاجئين الفلسطينيين دون أن يمنحوا نفس الحق ليهود الدول العربية الذين تم طردهم من بلدانهم [42](طبعاً هذه الدعوة لم تشمل اليهود الذين ينتمون للحركة الصهيونية). واستكمالاً لهذه الدعوات صرّح القيادي الراحل في منظمة التحرير الفلسطيني فاروق القدومي سنة 1975م بأن منظمة التحرير تُرحّب بكل يهوديّ يرغبُ بالعودة إلى وطنه وممارسة حقّه الطبيعي في ذلك، وبعد ذلك بأسبوعين ظهرت دعايات في العديد من الصحف والمجلات الغربية تدعو اليهود للعودة إلى بلدانهم، والأمر نفسه حدث في ليبيا سنتي 1970م و1973م إضافة إلى السودان ومصر سنة 1975م، وقد تجاهل اليهود هذه الدعوات باعتبارها دعوات زائفة مُضلّلة.[43]

وجهة النظر الإسرائيلية: يهودُ الدول العربية هُم صهاينة عادوا إلى وطنهم الأم

وبالإضافة إلى الأسباب العديدة التي تقفُ خلف عدم وجود أي اعتراف بقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية فإن إسرائيل تعتقدُ بأن إثارة قضيتهم من شأنها أن تخلق حالة انقسام وشرخ اجتماعي في المُجتمع الإسرائيلي، فالهدف الأساسي لإسرائيل بعد قيامها كان دمج اليهود الموجودين فيها والقادمين إليها من أكثر من مئة وعشرين دولة دون أن تميز مجموعة من اليهود عن الأخرى، الأمر الذي يُفسّر وصفَ إسرائيل لجميع اليهود على أنهم "مُهاجرون صهاينة عائدون إلى وطنهم"، بالتالي لم ترغب إسرائيل بأي شكل من الأشكال في إبراز أي فروقات اجتماعية بين السكان، الأمر الذي من شأنه أن يخلق بلبلة عميقة في المُجتمع الإسرائيلي إذا ما حدث.

لقد كان طموح إسرائيل يتجلّى في خلق وتعميق فكرة المواطن الإسرائيلي الجديد، هذا المواطن الذي لا يجبُ عليه أن يكون مُنشغلاً بماضيه بقدر ما يجبُ عليه أن يركّز في عملية بناء دولته ومستقبله في وطن آبائه وأجداده، وأن يتحوّل اليهوديّ "الذليل" الذي عاش في الشتات إلى اليهوديّ القويّ الذي يتكلّم اللغة العبرية بكل فخر دون خوف من أحد.

وقد أثبتت هذه الرؤية الإسرائيلية فعاليتها ونجاعتها بالفعل، فكان هناك الزواج المختلط بين اليهود من خلفيات أشكنازية ومزراحية تجاوزت نسبة خمسة وعشرين بالمئة من حالات الزواج، كما أصبحت العوائق الاجتماعية تتلاشى بسرعة كبيرة بين المجموعات اليهودية ذات الخلفيات الثقافية المُختلفة. لكن في الوقت نفسه فقد دفعت إسرائيل ثمناً باهِظاً من أجل إنجاح عملية الاندماج تلك، وكان هذا الثمن تحديداً على حساب اللاجئين اليهود والرأي العام العالمي حول هذه القضية، وذلك من خلال إفساح المجال للخرافات والأكاذيب بالانتشار حول قضية اللاجئين اليهود العادلة، والسماح لتلك الخرافات أن تظل منتشرة دون أن يتم دحضها والردّ عليها.

كذلك فإن اللاجئين اليهود من الدول العربية يؤمنون بأن قضيّتهم لا تتجاوز في أهميتها ما حدث في الهولوكوست، بالتالي عليها ألا تكتسب زخماً أهمية أكبر من الذي تحتلّه قضية الهولوكوست، فبنهاية المطاف ورغم معاناة اليهود المزراحيّون إلا أنهم – على الأقل - خرجوا من تلك البلدان على قيد الحياة. كذلك يعتقدُ عدد من اليهود المزراحيين بأن إعادة استذكار الذل والمهانة التي تعرّضوا لها في الدول العربية هو أمر يهين كرامتهم الإنسانية، وهذا لا يعني إنكارهم لحقيقة كونهم ضحايا لما حدث، إلا انهم رفضوا أن يتم وصفهُم باللاجئين من الآن وصاعداً. أضِف إلى ذلك انشغال يهود الدول العربية ببناء حياتهم الجديدة في إسرائيل، فلماذا ينشغلون عن بناء المُستقبل عبر استذكار الماضي البائِس؟

لم يكُن نمط التفكير هذا موجوداً لدى يهود الدول العربية الذين نزحوا إلى إسرائيل، بل لدى أولئك الذين نزحوا إلى بلدان ودول أخرى، حيث تقولُ الكاتبة اليهودية الفرنسية كوليت فيلوس متحدثة عن تجربة والديها الذين رحلا من تونس سنة 1967: "لم يتحدّث أبي عن الماضي نهائياً، لقد رحل إلى فرنسا وهو يبلغ من العمر واحدا وستين عاماً، وبعد مضي عدة شهور لحِقت به والدتي تاركة خلفها وطنها الأم، الوطن الذي عاش به أجدادها لقرون طويلة. لقد كان والدي مُضطراً للالتحاق بأبنائه في فرنسا تاركاً خلفهُ نمط الحياة الذي عاشه طويلا ومهنته وعاداته وتقاليده والموسيقى التي أحبّها، والأهم من هذا كله ترك خلفه محلّه الذي كان يعني له الحياة بأكملها. لقد امتنع والداي عن الحديث عن أي شيء له علاقة بالماضي وعملية الاجتثاث من وطنهما، لم يكونا يتذمّران بل واصلا حياتهما وكان شيئاً لم يكُن. لقد كانت ترتسم تلك الضحكة الخجولة على شفاههما مهما كانت قسوة الظروف، لم يكونا يريدان إزعاجنا بهمومهما. لقد كانت ابتسامتهما ساحرة لكنها في الوقت نفسه تشعرني بالحزن العميق عندما استذكرها".[44]

وكلما مرّ الوقت كلّما كانت مشاعر الكبت الموجودة بداخلها إلى إحباط ويأس، الأمر الذي كانت تقلّ معه رغبتهم بالمطالبة بالاعتراف بما حصلَ لهُم من مآسي، حيث كانت هذه الرغبة تندثر شيئاً فشيئاً بين أبناء وأحفاد اللاجئين اليهود من الدول العربية. وقد مرّ الناجون من الهولوكوست بتجربة مماثلة، لكن اللاجئين باعتقادي جاهزون بعد مضي كل هذا الوقت للحديث عن تلك القصص المروعة للمآسي والظلم الذي وقع عليهم. وفي هذا الصدد يقول مئير من تونس خلال مقابلة صحفية مع صحيفة الجيروزاليم بوست: "لقد كان أبي يعمل في المجوهرات وكان لديه محلّان للذهب والمجوهرات، لقد عشنا حياة جيدة، ووالداي لم تكُن لديهما أي رغبة بمغادرة تونس بأي شكل من الأشكال، لكن لم يكُن أمامهما أي خيار آخر سوى الرحيل. لقد كانا خائفين جدّاً، تماماً مثلما شعر جميع اليهود في ذلك الوقت. لقد انقلبت حياتنا رأساً على عقب، كُنا أغنياء وأصبحنا فُقراء، وبعد أن أمضينا بضع سنوات في فرنسا توّجهنا للحياة في إسرائيل. لم يتحدّث والداي أبداً عن حياتهما السابقة ومشاعر الحزن والمرارة التي كانت تنتابهما كلما تذكرا تلك الحياة. لكني كلما تذكرت طفولتي كلما تذكرت لجوءنا، وكيف كنّا نُحاول نُخفي حالة الفقر التي عشناها في كل مكان كنا نذهب إليه في إسرائيل. إنني أتفهّم سبب عدم حديث والداي عن الماضي، وما زالا لا يرغبان في الحديث عن هذا الماضي، لكنّي أريد لقصّتهما أن تُسمع وتُحكى للجميع ".[45]

هنالك سبب آخر يقف خلف صمتِ دولة إسرائيل عن قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية، وهو المساعي الحثيثة التي كانت تبذلها حتى تسعينيات القرن الماضي لإنقاذ ما تبقّى من يهود في المُجتمعات العربية مثل سوريا، فكانت تجري المُباحثات على المستوى الرسمي بين الوفود المختلفة خلف الكواليس من أجل إنقاذ هؤلاء اليهود التي كانوا يُعاملون مُعاملة الرهائن، بالتالي فإن الحديث عَلَناً عن هذه المَساعي من شأنه أن يُؤدي إلى عدم نجاح إسرائيل في إنقاذهم.

وخلال سنوات التسعينيات من القرن الماضي وبعد انطلاق مُباحثات أوسلو للسلام، كان يعتقدُ العديد من الإسرائيليين اليساريين بأن قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية ستضيف عقبة أخرى في طريق السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وهي عقبة نحن بغنى عنها، بالتالي أهملوا هذه القضية وتجاهلوها بشكل كامل. في الوقت نفسه قام وزير العدل الإسرائيلي حينها يوسي بيلين – الذي كان ينتمي إلى حزب ميرتس الإسرائيلي اليساري – بإغلاق الدائرة المسؤولة عن قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية، بل وأمر أن توضع جميع الملفات المتعلقة بهذه القضية في أحد الأقبية المُغلقة في الوزارة. لاحِقاً أدرك وزراء العدل الذين جاؤوا بعده مدى الخطأ الفادح الذي ارتكبه يوسي بيلين، فقاموا بإعادة تفعيل تلك الدائرة من جديد، لكن الدمار كان قد حصل فعلياً ولا يمكنُ تداركه.

وقد اكتشفَ مُدقّق الحسابات المالية العامّ في إسرائيل جوزيف شابيرا من خلال عدد من التحقيقات التي أجراها عن الفترة الممتدة من آب 2012م إلى أيار 2013 وجودَ "نقص مهول في الأوراق المتعلقة بجمع وتوثيق المعلومات الخاصة بملف قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية وإيران".[46]

وقد كان هنالك عائق كبير يقف أمام المساعي والمحاولات لإثبات إدعاءات ومُطالبات يهود الدول العربية، وهو عدم القدرة على الوصول إلى أية مستندات ووثائق رسمية في الدول العربية وإيران لإثبات ملكية اليهود لما تركوه خلفهم وما تم مصادرته حينها، خاصة الوثائق والمصادر المتعلقة بقرارات الدول العربية خلال أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي إضافة إلى وثائق تسجيل الممتلكات الخاصة والعامة ليهود الدول العربية، فالوصول إلى مثل هذه الوثائق والمستندات يكاد يكونُ ضرباً من ضروب الخيال.[47]

ومع مرور الوقت كان يُطلبُ من المُهاجرين اليهود من الدول العربية وإيران تعبئة استمارات خاصة بهدف التفريق ما بين ممتلكاتهم الخاصة والممتلكات اليهودية العامة، فقامت وزارة العدل الإسرائيلية بين سنتي 1969م و2009م بجمع قرابة أربعة عشر ألف وثيقة ومستند تتعلق بهذا الشأن، لكن هذه الوثائق والمستندات كانت بشكلها الورقي ولم يتم أرشفتها وإدخالها إلى الحواسيب، فيما لا يزال عدد كبير من هذه الوثائق موجوداً في أرشيف وزارة العدل الإسرائيلية بانتظار أن يتم إدخالها إلى الحواسيب والانظمة الرقمية، كما اندثر عدد كبيرٌ من هذه الوثائق فأصبحت بلا قيمة فعلية. وما زاد الطين بلّة هو إن الموظف المسؤول عن جميع هذه الوثائق والمستندات في وزارة العدل الإسرائيلية لم يقُم بتدريب الموظف الذي جاء بعده بشكل جيد عندما تقاعَد، الأمر الذي أدى إلى اختفاء وفقدان عدد كبير من هذه الوثائق والمستندات المُتعلقة بقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية.[48]

قضية حقوق إنسان بامتياز

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوّة الآن: لماذا بعد هذه السنين الطويلة من التجاهل تقرّر دولة إسرائيل إزالة الغبار عن ملف قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية؟ في الواقع فإن إزالة الغبار عن قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية لم يأتِ من إسرائيل نفسها بل جاء من خارجها، فسنة 1975م تم تأسيس المنظمة العالمية ليهود الدول العربية والتي كان هدفها الأساسي تسليط الضوء على قضية لجوء يهود الدول العربية [49]، وهذه المنظمة هي بمثابةمظلة لعدد من المؤسسات والمنظمات اليهوديّة التي أسسها يهود الدول العربية والتي تنشطُ في إسرائيل وخارجها. وكان أول رئيس للمنظمة هو مُردخاي بِن بورات الذي يُعدّ واحداً من أبرز الشخصيات اليهودية السفرديّة، كما كان أحد الوزراء في الحكومة الإسرائيلية.

وخلال بداية ونهاية سبعينيات القرن الماضي شهدت إسرائيل ظهور عدد كبير من المؤسسات التي أسسها يهود الدول العربية والإسلامية، حيث كانت تهدف هذه المؤسسات جميعها إلى المطالبة بتمثيل عادل لهم في مؤسسات الدولة. وقد عملت المنظمة العالمية ليهود الدول العربية على جمع العديد من الأوراق والمستندات التي تثبت ما امتلكه اليهود قبل مغادرتهم لدول العالم العربي، إلا أن جهود المنظمة ذهبت سُدىً بعد أن أوقفَت الحكومة الإسرائيلية تمويلها لهذه المنظمة سنة 1999م.

من ناحية أخرى، بدأت قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية تظهرُ في سياق قوانين حقوق الإنسان التي بدأت تظهرُ عقِب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وسنة 2001م تم تأسيس منظمة العدالة ليهود الدول العربية وضمت تحت مظلّتها قرابة اربعة وعشرين مؤسسة ومنظمة يهودية من شمال أمريكا وأنحاء مختلفة في العالم بينما كان مقرها الرئيسي في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تناوب على رئاسة هذه المؤسسة عدد من الشخصيات اليهودية البارزة في المُجتمع اليهوديّ السفردي وفي المهجر، فيما تمكّنت المنظمة من إعداد ملف دعوى لقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية [50]، حيث لم يكن لهذا المجهود أن يرى النور لولا مساعدة بعض المُحامين ورجال القانون الكنديين مثل المُحامي أيروين كوتلِر الذي يعد نشاطاً بارزاً في مجال حقوق الإنسان وشغل منصب وزير العدل الكندي سابقاً.

وقد تم عقد عدد من المؤتمرات الدولية سنة 2003م بالتنسيق مع المنظمة اليهودية العالمية، حيث نجحت هذه المؤتمرات بتعريف المُجتمعات اليهودية الأشكنازية بقضية ومطالب يهود الدول العربية، حيث كان عدد كبير منهُم يجهل بهذه القضية ومطالبها العادلة. في الوقت نفسه بدأت مؤسسات ومنظمات جديدة تظهرُ بهدف دعم الحشد والتأييد والتعريف بهذه القضية حول العالم، مثل منظمة (JIMENA) في كاليفورنيا ومنظمة حريف في المملكة المتحدة. وبتاريخ الثالث من حزيران/يونيو سنة 2005م صرّح رئيس الوزراء الكندي بول مارتِن مُعقّباً على قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية بأن "اللاجئ يظلّ لاجئاً، ولا بد من الاعتراف بقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية".[51]

وسنة 2008م بدأت تظهرُ نتائج الجهود والمساعي الحثيثة التي بذلتها منظمة العدالة ليهود الدول العربية، حين أصدر الكونغرس الأمريكي قراره رقم 185 والذي طالبَ الحكومة الأمريكية بضرورة التأكد من أن جميع الوثائق والمستندات المتعلقة بالصراع العربي الإسرائيلي تذكرُ بشكل واضح وصريح قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية في كل موضع يُذكر فيه اللاجئون الفلسطينيون [52]. وسنة 2016م تقدّم أربعة أعضاء من نواب الكونغرس الأمريكي بمشروع قانون يستكمل ما هو مذكور في القرار رقم 185، والذي أطلق عليه "العمل من أجل اللاجئ اليهودي"، وبمقتضى هذا القانون فإنه يتوجب على الرئيس الأمريكي أن يقوم بإعلام الكونغرس أولاً بأوّل بكافة المُستجدات المتعلقة بهذه القضية.

وفي شهر آذار/مارس من سنة 2014م صرّح وزير الشؤون الخارجية الكنديّ جون بيرد عقِب اجتماع مجلس النواب الكندي ومناقشة التوصيات المذكورة في تقارير لجنة الشؤون الخارجية والتنمية الدولية فيما يخصّ قضية اللاجئين اليهود من الشرق الأوسط وشمال افريقيا والذين تم نزحوا من بلدانهم بعد سنة 1948م [53]، فيقول في تصريحه: "إن الاعتراف العادل بجميع قضايا اللجوء التي خلّفتها الصراع العربي الإسرائيلي يستوجب علينا الاعتراف بقضيّة اللاجئين اليهود أيضاً، ومثل هذا الاعتراف لا يُلغي أو يتناقض مع قضيّة لجوء الفلسطينيين نتيجة لهذا الصراع".

لكن ومع الأسف أوقفت كندا بعد وقت قصير مطالبها لإدراج قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية في مباحثات السلام، حيث صرّحت الحكومة الكندية حينها بأنها "تتفقُ من حيث المبدأ مع التوصية الثانية التي ذكرتها اللجنة والتي تنصّ على وجوب أن تؤخذ قضية اللاجئين اليهود بعين الاعتبار كجزء من أي حل عادل وشامل لإنهاء الصراع، في الوقت نفسه تؤمن الحكومة الكندية بأن الصيغة الحالية التي تجري من خلالها عملية السلام تمثل أفضل حلّ يمنح الأمل للجميع ويُرضي جميع الأطراف".

صورة لمظاهرة في لندن للمطالبة لحقوق الأقليات، حيث قامت بتنظيمها منظمة حريف التي تم تأسيسها في المملكة المُتحدة لتمثيل مطالب وحقوق اللاجئين اليهود من دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا

كذلك فإن مباحثات أوسلو للسلام قد أجَّلت الحديث عن قضايا اللجوء واعتبرتها جُزءاً من قضايا الحل النهائي، لكن بتاريخ الثاني والعشرين من شهر شباط/فبراير سنة 2010م أصدر الكنيست الإسرائيلي قانوناً يَقضي بعدم توقيع أي اتفاقية سلام لإنهاء الصراع دون حصول اللاجئين اليهود من الدول العربية وإيران على التعويضات المناسبة لما سُلب منهم من أموال وممتلكات، إضافة إلى التعويضات اللازمة عوَضاً عن الممتلكات اليهودية العامة التي تم سلبها في تلك الدول. وقد تقدّم بمشروع القانون النائب في الكنيست نيسيمزيف الذي ينتمي لحزب شاس، هذا الحزب الذي يضم في غالبيته يهودا مرزاحيّين مُتدينين. ولم يكن هذا هو القانون الأول من نوعه الذي يتطرّق لحقوق اللاجئين اليهود، بل أصدر الكنيست الإسرائيلي منذ سنة 1957م ستة عشر قانوناً فيما يخص هذه القضية [54]، لكنه كان القانون الأول من نوعه الذي يشترط حصول اللاجئين اليهود من الدول العربية على التعويضات قبل توقيع أي اتفاق سلام نهائي.

قضية اللاجئين اليهود هي قضيّة جوهرية من قضايا الصراع

لقد كانت نقطة التحول في الطريقة التي تعاطت بها الحكومة الإسرائيلية مع قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية هي اللحظة التي وصل فيها بنيامين نتنياهو إلى رئاسة الوزراء في اسرائيل، حيث قال خلال حديث له أثناء تواجده في جامعة بار إيلان سنة 2009م بأنه يقبلُ بحل الدولتين كنموذج للمفاوضات مع الفلسطينيين، وعندها ردّ نتنياهو على خطاب الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما الذي قارن ما حدث في النكبة الفلسطينية بما حدث في الهولوكوست قائلاً: "إن دولة إسرائيل الصغيرة نسبياً قد احتضنت مئات الآلاف من اللاجئين اليهود الذين تم اقتلاعهم من جذورهم في الدول العربية" [55]. لاحقاً قام مستشار رئيس الحكومة عوزي عراد بتشكيل طاقم من الأكاديميين والمسؤولين الحكوميين من أجل العمل على بلورة موقف إسرائيلي جديد يتعلق بقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية.

صورة تُظهر رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو أثناء حضوره احتفال عيد الميمونة برفقة عدد من اليهود المغاربة في كريات عتا (حقوق الصورة محفوظة لموشيه مِلنر – مكتب الإعلام الحكوميّ الإسرائيلي الرسمي)

وبتاريخ الرابع والعشرين من شهر أيار/مايو سنة 2011م اجتمعت اللجنة التي شكّلها عوزي عراد لتقديم توصياتها القائمة على جعل قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية قضية جوهرية في أي مباحثات سلام مستقبلية مع الفلسطينيين، وبان استراتيجية التفاوض الإسرائيلية ستكون أفضل في حال تم الربط ما بين قضيّة اللجوء الفلسطينية وقضية لجوء يهود الدول العربية.

كما أوصَت اللجنة باعتبار قضيّة تعويضات اللاجئين اليهود جزءاً لا يتجزأ من هذه المُفاوضات، وبأنه يجبُ على جميع اللاجئين من كلا الجانبين إسقاط مطالبتهم بالعودة مقابل الحصول على تعويضات مادية مناسبة، فيما يكون أساس التعويضات هو ثلثين لثُلُث لصالح اللاجئين اليهود باعتبار أن عدد اللاجئين اليهود كان أكبر وبأن قيمة الممتلكات التي تعود ملكيتها للاجئين اليهود تفوق قيمة الممتلكات التي تعود ملكيتها للاجئين الفلسطينيين. ويقول أحد الصحفيين مُعقباً على توصيات اللجنة: "إن الفكرة من وراء هذه التوصيات هي التخلّصُ من حالة عدم الوضوح التي تتصف بها مسألة اللجوء وتحويل المطالب الفلسطينية غير الواقعية بالعودة إلى إسرائيل لتُصبح أكثر واقعية من خلال التعويض الماديّ لكلا الجانبين. وحتى هذه اللحظة لم يُبدِ أي مسؤول فلسطيني استعداده للقبول بالدخول في مفاوضات تتضمن مثل هذا الطرح.[57]

وسنة 2012م عقدَ نائب وزير الخارجية الإسرائيلية داني أيالون- الذي وُلد والده في الجزائر - مؤتمراً في القدس بعنوان "إنصاف اللاجئين اليهود من الدول العربية"، في أمر لم يسبق لأي مسؤول في وزارة الخارجية الإسرائيلية القيام به مِن قبل. وقد تعرّض هذا المؤتمر الذي تضمّن مبادرة داني أيالون لانتقاد كبير من شتى وسائل الإعلام الإسرائيلية، إلا أن داني أيالون لم يكترث بذلك وتابع مسيرته متوجّها إلى هيئة الأمم المتحدة بتاريخ الحادي والعشرين من شهر أيلول/سبتمبر سنة 2012م بهدف التحضير لمؤتمر دولي يُسلّط الضوء على قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية. وقد تعرَض داني أيالون للانتقاد من قبل سامي أبو زهري المتحدث باسم حركة حماس الذي قال بأن "اليهود اللاجئين من الدول العربية يتحمّلون المسؤولية عن تهجير اللاجئين الفلسطينيين، وبأن هؤلاء اليهود يُعتبرون مُجرمين، لا لاجئين".[58]

بطبيعة الحال بدأت تتقدّم تلك الحملة الإسرائيلية الرسمية لتسليط الضوء على قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية بسرعة كبيرة، حيث أصبحت إسرائيل تعقدُ اجتماعات سنوية لاستذكار مطالب اللاجئين اليهود في هيئة الأمم المتحدة، وسنة 2015م عيّن الكنيست اليهودي لجنة خاصة لمتابعة استعادة الأملاك اليهودية المسلوبة في الدول العربية، إضافة إلى لجنة أخرى مهمتها الحفاظ على التراث الثقافي للمجتمعات اليهودية التي عاشت في تلك الدول.

وسنة 2014م نشرت صحيفة ذا إيكونوميست أول مقالة في تاريخها تتحدث عن قضية اللاجئين اليهود، كما تمّ عرضُ فيلم "ظِلّ في بغداد" و فيلم"مطيّر الحمام" الذين يستعرضان المآسي والويلات التي عاناها يهود العراق أمام حشد كبير من المُتفرّجين. وبتاريخ الثالث والعشرين من شهر حزيران/يونيو من السنة ذاتها أقرّ الكنيست الإسرائيلي قانوناً جديداً يَقضي بإضافة يوم ذكرى رسميّ جديد للتقويم الرسمي في الدولة، وهو يوم الثلاثين من تشرين الثاني/ نوفمبر [60]، حيثُ تقوم المؤسسات والمنظمات اليهودية في كل سنة في هذا التاريخ بتنظيم فعاليات تُساند فيها الفعاليات التي تُحييها إسرائيل رسمياً في هذا اليوم. وقد تقدّم بمشروع القانون النائب نيسيمزئيف النائب عن حزب شاس، وبدعم من النائب في الكنيست عن حزب "يسرايلبيتينو" شمعون أوحايون.

وفي صيف سنة 2016م اجتمعَت اللجنة المعروفة باسم لجنة بيتون والتي يترأسها الشاعر الضرير أيريزبيتون الذي تعود أصوله لمنطقة شمال افريقيا، فيما أقرّت اللجنة توصياتها المتعلقة بتسليط الضوء على قضية التاريخ اليهودي المزراحيّ وثقافته وإرثه في إسرائيل من خلال إدخال هذه الموضوع في المناهج الدراسية الإسرائيلية. وفي شهر كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها وصلَت جهود اللجنة إلى أوج نجاحِها عندما قامت وزيرة التنمية الاجتماعية الإسرائيلية جيلا جَمليل- التي تعود أصولها لأب وأم من الجزائر وليبيا- بجمع مبلغ 2.6 مليون دولار أمريكي لصالح مشروع يهدف لتوثيق التاريخ الشفويّ ليهود الشرق الأوسط وشمال افريقيا، وهنالك حديث عن مشروع مستقبليّ لإنشاء مركز تراث وطنيّ لهذه الغاية أيضا.

وقد صرّحت جيلا جَمليل في هذا الصدد قائلة: "إن مثل هذه الخطوة ليست لمصلحة اليهود المزراحيين فقط، بل إنها خطوة تخدمُ إسرائيل واليهود والصهيونية أيضاً". من الآن وصاعِداً ستكون القصة اليهودية حاضِرة ومُكتملة بشقّيها الشرقيّ والغَربيّ، وسيتعلّم كلٌ من الجيل القديم والجيل الجديد في إسرائيل عن الجانب الشرقيّ والغربيّ للتراث الخاص بالشعب اليهوديّ بجميع مكوّناته".[62]

وفي آذار/مارس من سنة 2017م قام هِلِل نوير من منظمة (NGO Watch) بتوبيخ الدول العربية خلال اجتماع مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة في جنيف أثناء خطابه المتعلّق بموضوع "الأبارتهايد الإسرائيلي" موجّهاً سؤاله للأعضاء العرب والمُسلمين: "أين اليهود الذين كانوا يعيشون في بلدانكم؟" عندها صمتَ الجميع ولم يجب أحد منهم عن هذا السؤال.[36]

هل تُعدّ قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية مفتاحاً للسلام؟

هنالك سؤال هامّ مطروحٌ على طاولة النقاش: هل تشكّل قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية عقبة أم مفتاحاً للسلام في المنطقة؟ في الحقيقة هنالك العديد من وجهات النظر والآراء التي ترى ان قضيّة اللاجئين الفلسطينيين وقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية غيرُ مُتكافئتين نهائياً، وهذا أحد الأمور التي يجب إدراكها وأخذها بعين الاعتبار عند النظر إلى القضيتين. في الوقت نفسه يرى الكثير من المُحلّلين بأنه القضيّتين غيرُ مُتكافئتين عندما نتطرّق لجانبٍ واحد فقط، وهو الجانب المتعلّق بنزوح اليهود من الدول العربية وتوطينهم في إسرائيل وبعض دول الغرب، فأصبحوا يتمتعون بجنسية تلك الدول وبحقوقهم الكاملة فيها، وعدا عن هذه الجزئية فقضيتا اللجوء اللفلسطينية واليهودية تُعتبران مُتكافئتان تماماً، لأن ما حدث مع اللاجئين الفلسطينيين هو أمر نادر الحدوث إذا ما قارننا ذلك بقضايا لجوء أخرى في العالم، حيثُ أن اللاجئين الفلسطينيين لا زالوا يعيشون في مخيمات اللجوء على الرغم من مضي قرابة ستين سنة على الحرب (حتى هذه المخيمات تبدو وكأنها بلدات عادية إلى حدٍ ما). كذلك فإن اللاجئين الفلسطينيين يعتمدون على الدعم المقدم لهم من منظمة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين المعروفة بِـالأونروا، وهُم محرومون من الحصول على العديد من الحقوق المدنية مثل حقّ التملّك والحق في الحصول على وظائف معينة والحق في الحصول على الجنسية في الدول العربية المستضيفة لهم باستثناء الأردن.

وقد أصدرَت الجامعة العربية قراراً سنة 1959م يحمل رقم 1457 وينص على أن "الدول العربية لن تمنحَ جنسيتها للاجئين الفلسطينيين المُطالبين بها من أجل منع انصهارهم واندماجهم في الدول المستضيفة لهُم" ". وتبعاً للاتفاقية الخاصة باللاجئين والصادرة عن المفوضية العليا للاجئين في الأمم المتحدة فإن الأشخاص الذين لا يحملون جنسية ويعيشون بدون صفة قانونية فإنهم يعتبرون لاجئين، إلا ان هذه المُعضلة من الممكن حلها بمنتهى السهولة إذا ما أرادت الدول العربية حلّها، فدولة مثل الأردن قامت بمنح الجنسية الأردنية للاجئين الفلسطينيين، فيما مُنِح اللاجئون المسيحيون الفلسطينيون الجنسية اللبنانية، ومنحت مصر جنسيّتها للاجئين الفلسطينيين الذين ينحدِرون من أب فلسطيني وأم مصرية.[65]

وانطلاقاً من هذه الحقائق على الأرض فإنه يجبُ المُقارنة بين كلا القضيتين من هذا المنظور، وبالنسبة لقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية فقد تم دمجهُم في المجتمع الإسرائيلي وتمت مساعدتهم للانطلاق والمضي قدماً في حياة جديدة، الأمر الذي جعلهم يُسهمون بشكل كبير وفعّال في الثقافة الإسرائيلية والمجتمع الإسرائيلي. أما على الجانب الآخر للمقارنة فنجدُ أن اللاجئين الفلسطينيين يورثون هويّة اللجوء من الآباء إلى الأبناء استناداً لما سمحَت به منظمة الأمم المتحدة من "توريث" لهذه الهوية، لدرجة ارتفع فيها عدد اللاجئين الفلسطينيين من سبعمائة ألف لاجيء ليصل إلى قرابة خمسة ملايين ونصف المليون لاجئ، مع العلم أن ثلاثين ألفاً منهُم فقط هم الذين ولِدوا فِعلياً في فلسطين.

إن مسألة توريث هوية اللجوء بين الفلسطينيين لا تشكّل عقبة حقيقية أمام عملية السلام والوصول إلى حل ينهي الصراع فحسب، بل إنها تتركهُم يعيشون في حالة مستمرة من انتهاك حقوقهم كبشر بهدف تحقيق مصالح وأجندات سياسية معينة عبر استغلال قضيّة لجوئهم، بالتالي يجبُ أن يتم مُحاسبة الدول العربية على تقصيرها في أداء دورها الإنساني تجاه اللاجئين الفلسطينيين الموجودين على أراضيها، في الوقت نفسه لا يحقّ لهؤلاء اللاجئين العودة إلى إسرائيل ولا يجب عليهم أن يدفعوا ثمن ذلك نتيجة تواجدهم في الدول العربية. ومن هذا المُنطلق فإن إعادة توطين اللاجئين اليهود من الدول العربية ينبغي أن تكون درساً تتعلّم منه بلدان العالم العربي، لأن منحَ الجنسية للاجئين الفلسطينيين من شأنه أن يكون حجر دعامة تستند عليه الدولة الفلسطينية المستقلة عند قيامها.

واستناداً إلى منظمة العدالة ليهود الدول العربية فإن أي انتهاك للحقوق المنصوص عليها في القانون الدولي وأي انتهاك لحقوق الإنسان المكفولة بموجب اتفاقية حقوق الإنسان فإنه يستوجب الحق في المطالبة بالمساءلة وإصلاح ما ترتب هذا الخرق أو الانتهاك، والحقّ في المطالبة بالتعويض مثلاً هو شكل من أشكال إصلاح ومعالجة ما يترتب على انتهاك الحقوق، وهذا الحقّ مكفول للضحيّة أو من ينحدرون من نسله حتى لو لم يكُن النظام الحالي موجوداً وقتَ حدوث ذلك الانتهاك [66]. وتُضيف المنظمة بأن الأنظمة الناجحة ينبغي عليها تعويض ضحايا عن أي انتهاكات لحقوقهم، وإن حرمان البشر من التملّك دون وجه حقّ هو بحدّ ذاته واحد من الانتهاكات لأبسط حقوق الإنسان، كما أنه يُحظرُ على الدولة القيام بمثل هذا الانتهاك بموجب الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان.

لقد تُركت قضيّة اللجوء الفلسطينية عمداً دونما حلّ، ففي أسوأ الأحوال كان بإمكان الفلسطينيين قبول العروض التي عَرضَت عليهم بإقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وغزة وكان بإمكان هذه الدولة أن تستوعب اللاجئين الفلسطينيين في كل مكان بالتالي حلّ قضيتهم، لكن ومع الأسف الشديد لم تقبل القيادة الفلسطينية بهذا الحل أيضاً[67].

وفي سنة 2014م رفض الرئيس الفلسطينيّ الحالي محمود عباس عرضاً من الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي بإضافة ستمائة وثمانية عشر دونماً من أراضي سيناء إلى قطاع غزة لكي يتم استيعاب عدد من اللاجئين الفلسطينيين فيها [68]. لقد رُفِضَت هذه المبادرات جميعها، كما رفضت الدول العربية دمج اللاجئين الفلسطينيين ليصبحوا مواطنين في تلك الدول على الرغم من أنه سهولة مثل الاندماج، باعتبارهم يتشاركون اللغة والثقافة نفسها بل والدين نفسه أيضاً، وهي البلدان التي ولدوا فيها وولد أبناءهُم فيها أيضاً.

ولو قارنّا قضيّة اللجوء الفلسطينية بقضية لجوء حديثة مثل قضية اللجوء السورية لوجدنا اختلافاً كبيراً بين القضيتين، ففي الحالة السورية لم يقُم المُجتمع الدولي بمنح السوريين صفة اللاجئ ووقف عند ذلك، بل قام المُجتمع الدولي بمساعدة اللاجئين السوريين على الاندماج في المُجتمعات التي عاشوا فيها عبر إعادة تأهيلهم وتعليمهم ومساعدتهم في الحصول على عمل من أجل ضمان نجاح وتحقيق هذا الاندماج والانصهار في المجتمع على المدى البعيد، خلافاً لما يحدث فيما يتعلّق باللاجئين الفلسطينيين الذين يتم النظر إليهم على أنهم قضية يتوجب على إسرائيل حلّها من خلال حلول سياسية فقط.

وبجميع الأحوال فإن الحملة الإسرائيلية المتعلّقة باللاجئين اليهود من الدول العربية ستلحقُ ضرراً كبيراً بقضية اللجوء اليهوديّ من تلك الدول إذا ما تم مساواتها بقضيّة اللاجئين الفلسطينيين، إذ لا يُمكن المقارنة بين اللاجئين الفلسطينيين الذين نزحوا من أراضيهم نتيجة وجودهم في ساحة حرب، وبين اللاجئين اليهود الذين تم إجبارهم على الرحيل من أوطانهم بعد أن أصبحوا عُرضة للعنف والذبح والقتل، بالإضافة إلى العقوبات التي كانت تُفرض عليهم من قبل الحكومات والأنظمة العربية. وبعيداً عن الخسائر المادية التي لحقَت بهم عندما تم سلبُ ممتلكاتهم ومصادرة أموالهم، وبعيداً عن القتل والتعذيب والإهانة التي تعرّضوا لها في الدول العربية، فإن هؤلاء اللاجئين قد خسروا أموراً أكبر بكثير من مجرد ذلك: لقد خسروا حضارتهم وثقافتهم، لقد خسروا لغتهم واللهجة اليهودية العربيّة الخاصة التي كانت تميّزهم ثقافياً عن غيرهم.

إن تهجير اللاجئين اليهود من الدول العربية قد حدث في سياق أوسع بكثير مما هو عليه في حالة اللجوء الفلسطينية، كما أن خسائرهم الماديّة كانت أكثر بكثير من الخسائر الماديّة التي تكبّدها اللاجئون الفلسطينيون. وفي الوقت الذي نزح فيه الفلسطينيون نتيجة الحرب التي أشعلها قادتهُم، فقد نزح اليهود من الدول العربية لأنهم كانوا ضحايا العنف والوحشية والعقاب الجماعيّ الذي تعرَضوا له على يد الأنظمة العربية لا لسبب أو جر اقترفوه سوى أنهم يهود، والدليل على هذا بإمكاننا جلبهُ من الواقع الذي نعيشه: قرابة مليون ونصف المليون عربيّ يعيشون في إسرائيل [69]، بينما لا يوجد سوى أربعة آلاف وخمسمائة يهودي في بلدان العالم العربي من أصل مليون يهودي كانوا يعيشون في يوم من الأيام في هذه الدول قبل سنة 1948م.[70]

بالتالي هنالك سؤال يفرضُ نفسه بقوّة بعد سرد هذه المُعطيات: لماذا يُطالب القرار رقم 185 الأمريكي بالمساواة بين قضيّة لجوء يهود الدول العربية وقضيّة لجوء الفلسطينيين، على الرغم من أن المساواة بين القضيتين فيه ظلم وإجحاف بحق اللاجئين اليهود؟ والإجابة عن هذا السؤال تكمنُ في أن الفلسطينيين قد احتلّوا موقعاً خالياً من أي منافسة مع قضيّة اللجوء اليهودية في الأجندات الدولية.

وفي ختام هذا الفصل أود القول بأن من يسعون لحشد الدعم والتأييد لقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية لا يهدفون بأي شكل من الأشكال لمحاربة شرعية المطالب الفلسطينية فيما يتعلّق بقضية لجوئهم، بل أن مطالبتهم بحقوق اللاجئين اليهود تهدف بالأساس إلى عدم تجاهل أو إنكار المطالب اليهودية وحقوق اللاجئين اليهود لأنها كانت موضع إنكار وتجاهل لفترة زمنية طويلة جداً باعتبارها "عقبة في طريق السلام" من وجهة نظر البعض، في الوقت الذي كانت فيه قضيّة اللجوء الفلسطينية ومطالبة العرب والفلسطينيين بحق العودة للاجئين الفلسطينيين، بالتالي لا يوجد أي سبب عقلانيّ يدفعُ أياً ما لتفضيل قضيّة اللجوء الفلسطينية على قضيّة اللجوء اليهودية بل وحتى تجاهلها، ووحده من لا يمتلك المعلومات عن الصورة الكاملة للصراع هو فعلياً من يقوم بذلك.

قائمة الملاحظات والحواشي

1. According to UN figures, there were 726,000 Palestinian refugees, http://web.archive.org/web/20110716153155/http://www.justiceforjews.com/jjac.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

2. Stanley Urman PhD, 'The United Nations and Middle Eastern Refugees: the differing treatment of Palestinians and Jews', http://www.justiceforjews.com/stan_phd.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

3. Cotler, Matas, Urman 'The case for rights and redress' (JJAC report, 2004), p.7.

4. According to Don Peretz ('Who is a refugee?', *The Palestine – Israel Journal*, Vol. 2 no. category.

قامت منظمة الأنروا بتعريف اللاجيء الفلسطيني على أنه "أي شخص أصبح بحاجة للمساعدة نتيجة للحرب التي وقعت في فلسطين ونتج عنها خسارته لمنزله ومصدر رزقه. هذا التعريف ينطبق على قرابة سبعة عشر ألف يهودي ممن عاشوا في فلسطين بعد أن سيطرت القوات العربية على المناطف التي سكنوها سنة 1948م مثلما ينطبق على قرابة خمسين ألف عربي كانوا يعيشون في إسرائيل وكانت مناطق سكناهم على الجبهات الامامية للقتال. وقد تحمّلت إسرائيل مسؤولية هؤلاء وتمت إزالتهم من قائمةالأنروا للاجئين الفلسطينيين مع حلول سنة 1950م. وقد ظلّ في قوائم اللاجئين التابعة للأنروا حينها بضع مئات من المسيحيين العرب بالإضافة إلى العرب الذين تواجدوا خارج إسرائيل.
(http://www.pij.org/details.php?id=592)

5. UNWRA, 'Who is a Palestinian refugee?', https://www.unrwa.org/palestine-refugees. (Last accessed 26 April 2017).

6. 'UNHCR displaced peoples' report, 20 June 2016, http://edition.cnn.com/2016/06/20/world/unhcr-displaced-peoples-report/. (Last accessed 26 April 2017).

7. See Peretz, 'Who is a refugee?'

8. Stan Urman of JJAC, transcript of speech at House of Commons, March 2014, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2014/03/peace-without-refugee-recognitionwont.html. (Last accessed 26 April 2017).

9. Cotler, Matas, Urman, 'Jewish Refugees from Arab Countries: the case for rights and redress', *JJAC report*, 5 November 2004, p.3, http://web.archive.org/web/20110716153155/http://www.justiceforjews.com/jjac.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

10. نفس المصدر، ص.p.21

11. For full text of UNSC 242, see http://www.un.org/Depts/dpi/palestine/ch3.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

12. Adi Schwartz, 'A tragedy shrouded in silence: the destruction of the Arab world's Jews', *Azure*, no. 45, Summer 2011, http://azure.org.il/include/print.php?id=581. (Last accessed 26 April 2017).

13. نفس المصدر

14. Telegram from the American embassy in Baghdad to Washington D.C., 9 May 1949, cited in Y. Meron, 'Why Jews fled Arab Countries', *Middle East Quarterly*, September 1995; http://www.meforum.org/263/why-jews-fled-the-arab-countries. (Last accessed 26 April 2017).

15. Elie Kedourie, 'The break between Muslims and Jews in Iraq' in Cohen and Udovitch (eds) *Jews among Arabs* (US: Darwin, 1989), pp.21–63.

16. Elie Kedourie, 'The Break between Muslims and Jews in Iraq'; p.47'

17. نفس المصدر, ص.54.

18. Edwin Black, 'When Iraq expelled its Jews', *Front Page Magazine*, 6 June 2016, http://www.frontpagemag.com/fpm/263069/when-iraq-expelled-its-jews-israel%E2%80%94-inside-story-edwin-black. (Last accessed 26 April 2017).

19. Michael R. Fischbach, *Jewish Property Claims against Arab Countries* (NY: Columbia University Press, 2008), p.117.

20. See Kedourie, 'The Break between Muslims and Jews in Iraq' p.55.

21. Gat, *The Jewish Exodus from Iraq 1948–1951* (London: Cass, 1997), p.151.

22. Levin, *Locked Doors*, p.302.

23. See Adi Schwartz, 'A tragedy shrouded in silence'.

24. Cotler, Matas, Urman, 'Jewish Refugees from Arab Countries: the case for rights and redress', p.39.

25. '15,000 square kilometres of land, compared to 5,200 square kilometres for the Arabs who left the smaller Israel': Eylon Aslan-Levy, 'The Forgotten Refugees', *The Tower*, No. 41, August 2016, http://www.thetower.org/article/the-forgotten-jewish-refugees-of-iraq/. (Last accessed 26 April 2017). According to an alternative proposal, Aslan-Levy writes, Jews were 'entitled to 80,000 square kilometers [four times the size of Israel] on an Arab reading of a fair post-World War settlement' as a 'successor element' of the Ottoman Empire.

استناداً إلى مصدر آخر، يكتب أسلان ليفي بأن اليهود في الدول العربية كانوا يمتلكون أراضي تبلغ مساحتها ثمانين ألف كيلو متر مربع، أي اربعة أضعاف مساحة دولة إسرائيل الحالية، وهذا استناداً لمعطيات الدول العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

26. *The Scribe*, abridged from article in the *Jerusalem Post*, September 1999, p.72, http://www.dangoor.com/73page72.html. (Last accessed 26 April 2017).

27. YehoudaShenhav, 'Spineless book-keeping: the use of Mizrahi Jews as pawns against Palestinian refugees', *+972magazine*, 25 September 2012, http://972mag.com/spinelessbookkeeping-the-use-of-mizrahi-jews-as-pawns-against-palestinian-refugees/56472/.(Last accessed 26 April 2017). Reprinted from 'Hitching a ride on the magic carpet',*Haaretz*, 15 August 2003.

28. Ronen Tal, 'Claiming Babylon's stolen treasures', *YNet News*, 29 May 2006, http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-3256437,00.html. (Last accessed 26 April 2017).

29. Bobby Brown quoted in Isabel Kershner ‘The Other Refugees’, *Jerusalem Report*, 12 January 2004.

30. See Levin, *Locked doors*, p.223.

31. See Schwartz, ‘A tragedy shrouded in silence’.

32. See Urman, ‘The United Nations and Middle Eastern Refugees’.

33. See Fischbach, *Jewish Property Claims against Arab Countries*, p.232.

34. See Schwartz, ‘A tragedy shrouded in silence’.

35. ‘Girls discriminated on grounds of culture, not skin, *Point of No Return*, 4 May 2010, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2010/05/girls-discriminated-on-grounds-of.html. (Last accessed 26 April 2017).

36. See Urman, ‘The United Nations and Middle Eastern Refugees’.

37. *An-Nahar*, May 1975.

38. *Al-Masry Al-Youm*, 2008.

39. Y. Meron, *Why Jews fled Arab Countries*, p.96.

40. L. Julius/ S. Urman, ‘Arab refugees and Jewish refugees: the inextricable link’, *Jerusalem Post*, 9 March 2014, http://www.jpost.com/Opinion/Op-Ed-Contributors/Arab-refugeesand-Jewish-refugees-the-inextricable-link-344808. (Last accessed 26 April 2017).

41. ‘Arabs offer Israelis peace plan’, BBC News, 9 March 2014, http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/1898736.stm. (Last accessed 26 April 2017). Arab insistence on using UNGA 194 as a template for the resolution of the refugee problem is ironic, given that Arab states voted against the resolution at the time, lest it infer Arab recognition of Israel.

> أصرّ العرب على اعتبار قرار مجلس الأمن رقم 194 كأساس لحل قضية اللاجئين، لكن المفارقة هو ان العرب قاموا بالتصويت ضد هذا القرار في مجلس الأمنأثناء مرحلة التصويت عليه بزعم أن هذا يشكل اعترافاً بإسرائيل.

42. Others characterise the initiative as a plan to bring about Israel’s collapse through the emigration of Jews from Israel (Moreh, *Al-Farhud*, p.145).

43. J.E. Katz, ‘Discrediting Jewish refugees from Arab Countries, official Arab “invitation” to return’, *Eretz Yisroel* website, 2001, http://www.eretzyisroel.org/~jkatz/discredit.html. (Last accessed 26 April 2017).

44. Colette Fellous, *’Pièces détachées’* (Gallimard: Paris, 2007), p.156.

45. Eetta Prince-Gibson, ‘Right of return’, *Jerusalem Post*, 7 August 2003.

46. ‘Report condemns Israel’s refugee policy’, *Point of No Return*, 5 February 2014, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2014/02/report-condemns-israels-refugeepolicy.

html. (Last accessed 26 April 2017).

47. See Schwartz, ‘A Tragedy Shrouded in Silence’.

48. Ofer Aderet, ‘Comptroller blasts state for neglecting Jewish property restitution in Arab states’,*Haaretz*, 6 February 2014, http://www.haaretz.com/israel-news/.premium-1.572665. (Last accessed 26 April 2017).

49. Roumani, *Jewish refugees from Arab countries: a neglected issue* (WOJAC, 1983).
50. See Cotler, Matas and Urman, ‘Jewish refugees from Arab Countries’.

51. نفس المصدر

52. انظر إلى الملحقات

53. ‘Government accepts Canadian refugee report’, *Point of No Return* 4 March 2014, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2014/03/government-accepts-canadianrefugee.html.(Last accessed 26 April 2017).

54. Figure produced by Levana Zamir, head of the MerkazIrgunim, the umbrella organization of associations of Jews from Arab Countries in Israel.

55. Full text of Netanyahu’s Bar Ilan speech, *Haaretz*, 14 June 2009 http://www.haaretz.com/news/full-text-of-netanyahu-s-foreign-policy-speech-at-bar-ilan-1.277922. (Last accessed 26 April 2017).

56. *Haaretz* article by Adi Schwartz, quoted in ‘Jews were also refugees in 1948’, *Point of No Return*, 6 February 2014, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/search?q=adi+schwartz&updated-max=2014-05-12T12:38:00%2B01:00&max-results=20&start=11&bydate=false. (Last accessed 26 April 2017).

57. Leslie Susser, ‘Changing the Refugee Paradigm’, *Jerusalem Post*, 31 October 2012, http://www.jpost.com/Jerusalem-Report/Israel/Changing-the-refugee-paradigm. (Last accessed 26 April 2017).

58. ‘Hamas: “Arab Jews” are not refugees but criminals’, *Jerusalem Post*, 23 September 2012, http://www.jpost.com/Middle-East/Hamas-Arab-Jews-are-not-refugees-but-criminals. (Last accessed 26 April 2017).

59. ‘Don’t forget what we lost, too’, *The Economist*, 15 February 2014.

60. ‘Knesset confirms 30 November as Refugee Day’, *Point of No Return*, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2014/06/knesset-confirms-30-november-asrefugee.html. (Last accessed 26 April 2017).

61. ‘Key Committee recommends recognition of Mizrahi culture’, *New Israel Fund*, 14 July 2016, http://www.nif.org/stories/social-and-economic-justice/keycommitteerecommends-recognition-mizrahi-culture/. (Last accessed 26 April 2017).

62. Ofer Aderet, ‘Israel Launches $2.6m Project to Document Lives of Mizrahi, Sephardi Jews’, *Haaretz*, 13 December 2016, http://www.haaretz.com/israel-news/.premium-

1.758554. (Last accessed 26 April 2017).

63. Hillel Neuer, ‘Algeria, where are your Jews? UNHRC’s Israel apartheid debate, *Times of Israel* blogs, 22 March 2017.

64. Fateh Azzam in a ‘Bold Proposal: Palestine should give its Refugees Citizenship’ (*Al-Shabaka*, 5 May 2015), tried to break with orthodox Arab thinking by advocating that an internationally-recognised state of Palestine should ‘create facts on the ground’ and give refugees citizenship.

لقد قام فاتح عزّام في مقالته المنشورة على صحيفة الشبكة بعنوان "حلّ أعمى: يجب أن يحصل الفلسطيني على الجنسية " بمناوشة ضد المتشددين وأصحاب الفكر المتزمّت من العرب، وذلك عبر ترويجه وتأييده لفكرة إقامة دولة فلسطينية باعتبار أنها ستفرض حقائق على الأرض وبأنها ستمنح اللاجئين الفلسطينيين الجنسية.

65. ‘Palestinians born of an Egyptian mother get Egyptian nationality’, *Egypt Independent*, 8 May 2011, http://www.egyptindependent.com/news/palestinians-born-egyptianmother-get-egyptian-nationality. (Last accessed 26 April 2017).

66. JJAC. منظمة العدالة ليهود الدول العربية

67. Annie Slemrod, ‘Interview: refugees will not be citizens of Palestinian state’, *Beirut Daily Star*, 15 September 2011, http://www.dailystar.com.lb/News/Politics/2011/Sep-15/148791-interview-refugees-will-not-be-citizens-of-new-state.ashx. (Last accessed 26 April 2017).

68. Jonathan Tobin, ‘Egypt offers to absorb Palestinians. Why did Abbas refuse?’ *Jewish World Review*, 5 September 2014, http://www.jewishworldreview.com/0914/tobin 090514.php3. (Last accessed 26 April 2017).

69. Israel Central Bureau of Statistics, 2012.

70. انظر إلى الملحقات

الفصل التاسع
الصراعات السياسية والثقافية لليهود المزراحيّين

هُنالك كلمة واحدة تختزلُ تجربة اللاجئين اليهود المزراحيّين في إسرائيل خلال خمسينيات وستينيات القرن المُنصرم: المَعبرا. والمَعبرا (مُفرد كلمة معبروت) هي كلمة عبرية يُقصدُ بها مخيمات اللجوء المؤقتة التي عاش فيها اللاجئون في خيامٍ مصنوعة من القماش وسقائف مصنوعة من الخشب والصفيح. وفي ذلك الوقت أوكِلت مهمة تشغيل وتسكين اللاجئين في مساكن مؤقتة إلى ليڤي‌أشكول بالنيابة عن الوكالة اليهودية، فيما أُقيم أول مخيم إقامة مؤقت - معبَرا - في إسرائيل في شهر أيار/مايو سنة 1950م في منطقة كِسَلون في منطقة يهودا والسامرة. [1]

وبالنظر إلى الأرقام فإننا سنجد أن جميع دول الاتحاد الأوروبي قاطبة ذات الثلاثمائة مليون نسمة قد استوعبت تقريباً نفس العدد من اللاجئين الذي استوعبته دولة إسرائيل خلال خمسينيات القرن المنصرم، على الرغم من أن عدد سكان إسرائيل حينها كان بالكاد يصل نصف مليون نسمة. وخلال تلك الفترة استوعبت إسرائيل حوالي 585,000 لاجئاً يهودياً من الدول العربية والإسلامية بالإضافة إلى مائة ألف من الناجين من المحرقة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن دولة إسرائيل حينها كانت دولة حديثة الولادة تواجهُ العديد من التحديات والمصاعب في شتى المجالات.

ومع حلول الستينيات أدى نزوح هذا العدد الهائل من اللاجئين القادمين إلى دولة إسرائيل لمضاعفة عدد سكانها ثلاث مرات [2]، كما شكّلت مساحة إسرائيل الصغيرة نسبياً تحدّياً كبيراً بالنسبة لها فيما يخص استيعاب هذا العدد المهول من اللاجئين، فهذه الدولة الذي كان عدد سكانها 650,000 إسرائيلي استوعبت 685,000 لاجئاً ونازحاً يهودياً ممن كان يعاني غالبيتهم من سوء التغذية ومرض الزحار بالإضافة إلى الأمراض الجلدية والتراخوما [3] ومرض السلّ [4] وغيرها من الامراض.

وخلال السنوات القليلة الأولى من قيام دولة إسرائيل، تقدّم قرابة ثلثي أولئك اللاجئين بطلب الجنسية الإسرائيلية استناداً لقانون العودة الذي أقره الكنيست الإسرائيلي سنة 1951م، كما أنهم قدِموا إلى إسرائيل من خلال رحلات إخلاء جويّ تعتبرُ الأضخم عبر مرّ التاريخ. وقد كان وصول هذا العدد الهائل من اللاجئين عبر الطائرات إلى إسرائيل بسلام بمثابة المعجزة، خاصة وأن الطائرات التي أجرت عمليات الإخلاء كانت تحمل عبر متنها عدداً من اللاجئين يفوق قدرتها، بالإضافة إلى النقص في الوقود اللازم لتشغيلها في ذلك الوقت، كما أدت طبيعة البيئة الصحراوية إلى إحداث ضرر كبير بمحركات تلك الطائرات. استغرق وصول يهود اليمن إلى إسرائيل عبر الطائرات مدة ستة عشر ساعة، والحال نفسه بالنسبة ليهود العراق لأنه لم يكُن مسموحاً للطائرات بالتحليق من العراق إلى إسرائيل بشكل مباشر.

صورة يظهر فيها مخيم الإقامة المؤقت الذي أطلق عليه اسم بيت لِد سنة 1949م، وهو واحد من أصل مئة وثلاثة عشر مخيم إقامة مؤقت أقيم في إسرائيل. عاش عدد كبير من اللاجئين في تلك المخيمات لمدة ثلاثة عشر سنة قبل مغادرتها. (حقوق الصورة لزولتاك كلوغِر– مكتب الإعلام الحكومي الرسمي الإسرائيلي).

صورة تُظهر مخيم إقامة مؤقت للاجئين اليهود القادمين من اليمن بالقرب من عين شيمر. لم يكُن في مخيمات الإقامة المؤقتة كهرباء أو مياه، واقتصرت الخدمات الموجودة فيها على المنافع الأساسية وخدمات الصرف الصحيّ البدائية (حقوق الصورة محفوظة لهانس بين - مكتب الإعلام الحكومي الرسمي الإسرائيلي).

وقد كانت الظروف المعيشية في تلك المخيمات مزرية للغاية، فكانت الخيام لا تقيهم حرّ الشمس ولا برد الشتاء القارس أو رياحه العاتية ومطره الغزير، وكانت الخدمات المقدّمة إليهم من مياه نظيفة وغذاء بالكاد تلبّي احتياجاتهم. كما كان يتوجبُ عليهم الوقوف في طوابير طويلة امام صهاريج المياه للحصول على حصتهم، فيما كان يجبُ غلي تلك المياه جيداً قبل استعمالها، أما بالنسبة للمراحيض وأماكن الاستحمام فكانت في قمة البدائية.

لقد استوعبت تلك المخيمات المؤقتة البالغ عددها مئة وثلاثة عشر مخيماً قرابة ربع مليون لاجيء يهودي سنة 1954م، ومع مرور الوقت تحوّلت تلك المخيمات إلى قرى وبلدات يسكنها أولئك اللاجئون، لدرجة أن بعضهُم ظلّ موجوداً في تلك المخيمات لفترة ثلاثة عشر سنة [5].
في الوقت نفسه كان يهود الدول العربية ممن ظلّوا موجودين في تلك الدول يمتنعون عن الانضمام إلى أولئك الذين توجّهوا إلى إسرائيل بعد معرفتهم بهذه الظروف المعيشية المُزرية التي يعيشها اللاجئون في مخيمات الإقامة المؤقتة، في الوقت نفسه كان اللاجئون اليهود القادمون من العراق ينشرون أخباراً مفادها بان الموساد الإسرائيلي قد قام بعمليات تفجير تهدف إلى ترهيبهم حتى يُغادروا "الجنّة" التي عاشوا فيها في العراق، وذلك بعد أن أصيبوا بخيبة أمل كبيرة نتيجة الظروف المعيشية المُزرية التي عاشوها في مخيمات اللجوء في إسرائيل.

صورة يظهرُ فيها ملصق دعاية للفيلم الساخر "صلاح شباتي" والذي يستعرضُ عملية استيعاب اللاجئين اليهود في إسرائيل بطريقة ساخرة. هذا الفيلم من تأليف افرايمكيشون وبطولة الممثل الإسرائيلي حايم طوبول.

لاحِقاً بدأ اليهود المغاربة بالتوافد إلى إسرائيل الذين وُصِفوا بأنهم "سكين المغرب" [6] والذين كانوا يمجّدون سلطان المغرب باعتباره الحامي والمُخلّصَ لهُم على الرغم من جميع العذابات والمآسي التي مرّوا بها في ظل حُكمه.

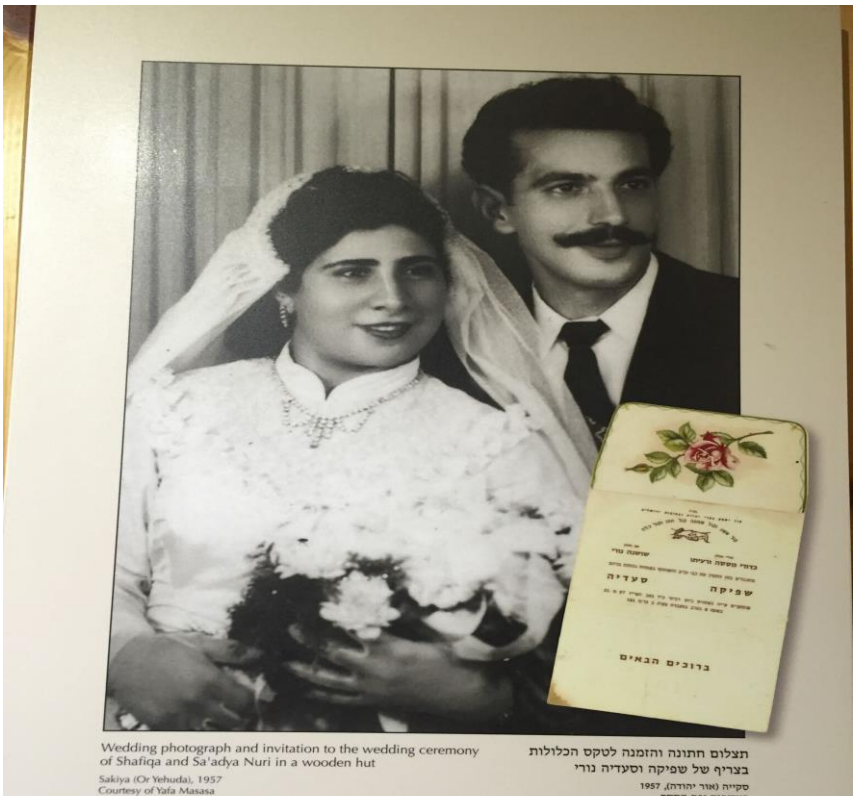

صورة تُظهر بطاقة دعوة لحضور حفل زفاف اللاجئ العراقي شفيق نوري وسعدية نوري في أحد السقائف الخشبية في مخيمات الإقامة المؤقتة في منطقة أور يهودا في يافا.

وبطبيعة الحال لم يستوعب أرباب العائلات اليهودية من اللاجئين هذه الظروف المزرية التي حلّت بهم في مخيمات الإقامة المؤقتة، فيقول رفاييل لوزون واصِفاً حال أبيه الذي كان يمتلك عدداً من الصيدليات ومحلات الإكسسوارات في مدينة بنغازي في ليبيا قبل أن يتم إجبار عائلته على الرحيل سنة 1967م: "بعدّ أن انهارت معنويات والدي أمام هذا الواقع المرزي، بدأ جسده بالانهيار شيئاً فشيئاً، فحلّ به المرض ومن ثم أصابه الفشل الكلوي. لقد رفضَ والدي العملَ بعد أن رفضَ استلام المبالغ الزهيدة التي كانت تُعرض عليها من مكتب البطالة، ولم يكُن يستوعب كيف انحدر مستوى حياته من كونه رجلاً ثرياً إلى لاجيء ينتظر أمام مطبخ المخيم في طابور طويل من أجل الحصول على بعض كوبونات الطعام ليسد جوع عائلته. لقد حاولَت والدتي مراراً وتكراراً تشجيعه ورفع معنوياته حتى يقف على قدميه مجدداً، لكن بلا فائدة، لقد فقد والدي أيّ رغبة في البقاء على قيد الحياة". [7]

في الوقت نفسه كانت مجموعات أخرى من اللاجئين يواجهون تلك الظروف المُزرية بطريقة فلسفية دون أي تذمر، فمثلاً كان اللاجئون اليهود الذين نزحوا من مصر يواصلون نمط الحياة البرجوازية التي اعتادوا عليها، فكانوا يلعبون الورقَ ويرقُصون ويغنون ليلة الجمعة مثلما كانوا يفعلون في السابق. [8]

لقد كانت تطمحُ دولة إسرائيل إلى تأسيس هويّة جديدة تضمّ جميع النازحين إليها، فكانت تلكَ الهوية تطغى عليها الملامح الغربيّة بامتياز. كذلك كان عدد كبير من أولئك اللاجئين يحاوِلون الاندماج في تلك الهوية بكل شغف بهدف المساهمة في بناء الأمة اليهودية من جديد، فكانوا على سبيل المثال يمنحون مواليدهم أسماء عبرية، فيما كانوا يبذلون قُصارى جهدهم من أجل الحديث باللغة العبرية فقط، خاصة وأن استخدامهم للغة العربية يذكرهم بالتجربة المَريرة التي مرّوا بها. كذلك كان يتمّ إرسال الجيل الشاب منهُم إلى الكيبوتسات من أجل تعلّم اللغة العربية والقيم الغربية العلمانية التي كانت إلى حد ما تناقضُ الأسس والقيم التي اعتادوا عليها في الدول العربية التي جاؤوا منها، حيث انهم لم يعتادوا على ارتداء السراويل القصيرة مثلاً، ولم يكونوا مُعتادين على الاختلاط بالجنس الآخر كثيراً، وهذا ما تطرّق إله إيلي عَمير في كتابه "كبشُ الفِداء". [9]

من ناحية أخرى، كانت تلك القيم التي ينبغي عليهم تعلّمها غربية في قشورها فقط، وهذا ما وصفهُ يتسحاق بار موشيه اللاجىء اليهودي القادم في العراق أثناء معيشته في أحد الكيبوتسات. لقد كانت إسرائيل في تلك الفترة دولة ليهود أوروبا الشرقية، وباستثناء عدد قليل من الشخصيات اليهودية مثل يتسحاق بِن زفي، لم تكُن قيادات إسرائيل ترغبُ فعلياً بالتعرّف أو الانفتاح على الشخصيات اليهودية الشرقية، والأسوأ من هذا هو عدم وجود رغبة لدى إسرائيل حينها بالإنفتاح على اليهود المِزراحيّين ولا بالتعرّف على حاخاماتهم وقياداتهم الدينية وأُدبائهم وشعرائهم وقُضاتهم، فيقول يتسحاق بار موشيه واصِفاً هذا الواقع: "لقد أدرَكنا أننا جماعة تنتمي إلى عدد من الجماعات ذات الأصول والخلفيات المُختلفة، وقد غادرنا العِراق باعتِبارنا يهوداً، لكن إسرائيل لم تنظر إلينا باعتبارنا يهوداً، بل باعتِبارنا عِراقيّين". [10]

كذلك كان هنالك ضرورة حتميّة لإحداث تأقلم واندماج ثقافيّ بين اليهود في إسرائيل في شتّى مناحي الحياة، وفي هذا الصدد يقولُ شموئيلموريه (سامي المُعلّم) واصِفاً عدم قُدرة والده على التأقلّم مع نظام يخلو إلى حدٍ ما من الفَساد: "اعتاد والدي أن يقول لنا وهو يشدّ على أسنانه: أنا لا أستطيع فهم هذه الدولة المقلوبة رأساً على عَقِب، رحِم الله أيام العِراق، حينها كُنا نفهُم جيداً كيف نتدبّر أمور حياتنا، فكان كلّ ما عليك القيام به هو أن تُخرج بعض الدنانير من جيبك وتعطيها للموظف الحكومي لكي تسير أمورك على ما يرام. أما في دولة إسرائيل فلا توجد رشوة ولا محسوبية، ولا أحد يستمع إليك حين تقول له "ساعِدني مشان الله" أو ساعِدني مشان النبي محمّد". الأمور في هذه الدولة تسيرُ حسب قانون "مُظلم" يحكُم السكان جميعاً، قانون لا أستطيع أن أفهمه!". [11]

أما بالنسبة لعائلة شوشانةبوخبصة التي جاءت إلى إسرائيل قادمة من فرنسا بعد أن تم طردُها من مدينة سفاقس التونسية فإنها كانت ترى جوانب طريفة للاختلافات الثقافية بين سكان إسرائيل، فتروي شوشانة أحد القصص لجدّها الذي كان يعملُ جزّاراً يذبحُ الذبائح تبعاً للشريعة اليهودية حتى يكونَ حلالاً أكلُها في تونس، وعندما جاء إلى إسرائيل جلبَ معهُ سكاكينه الحادّة، ولم يكُن من السهل عليه أن ينسى نمطَ الحياة الذي اعتاد عليه في تونس. تقولُ كوخانا: "لقد دفعَت جدّتي ثمناً باهِظاً نتيجة ما قام به جدّي حين جلبَ ديكاً إلى البيت من إحدى ضفاف نهر السين في منطقة ري دي لا ريقي وقام بتخبئته تحت مغسلة المطبخ، وكان يصيحُ دوماً وقت الفجر وأثناء الغروب، الأمر الذي أزعجَ الجيران، فكانوا يأتون إلى منزلنا مراراً وتكراراً ليسألونا إن كنا قد نعرف مكان وجود هذا الديك المُزعج، وفي كل مرة كان يأتي فيها الجيران كانت والدتي تقول لهم لا، لا نعرفُ مكانه. وبمجرد أن تُقفل الباب وراءهم كانت تقول لجدّي: عليك أن تذبح هذا الديك بأسرع وقت ممكن، ففي هذه المدينة تقوم الشرطة باعتقال من يقتني طيوراً في بيته". [12]

كبتٌ واحتقارٌ للثقافة اليهوديّة المزراحيّة

تتطرقُ المؤلفة راشيل شابي عبر كتابها "ليسوا أعداء: يهودُ إسرائيل من الدول العربية" إلى ما أطلقت عليه "الإجحاف الأوروبي الأشكنازيّ الذي واجهه اللاجئون المزراحيون اليهود عندما قدِموا إلى إسرائيل خلال خمسينيات وستينيات القرن المُنصرم" [13]، موضحة بأن "القيادة الإسرائيلية آنذاك كانت قلقة جداً إزاء إمكانية سيطرة الثقافة الشرقية على دولة إسرائيل" [14]. كما وتوضّح عبر كتابها بأن الإجحاف الذي عومل به اليهود المزراحيّون كان يستندُ إلى طبيعة هويتهم، فاليهود الأشكنازيون من ذوي البشرة البيضاء والعيون الزرقاء أجبروا اليهود المزراحيين – ذوي البشرة الداكنة – على الحديث باللغة العربية في مجالسهم الخاصة فقط حتى لا يتمّ الخلطُ بينهُم وبين العرب، فيما منحوهم تعليماً رديئاً وأماكن سكن مزرية في القرى التعاونية، بالتالي أصبحوا ينتمون للطبقات الدنيا من المُجتمع والتي تضمّ عادة الفقراء والمُهمّشين.

وتتابع راشيل عبر كتابها الحديث عن معاناة اليهود المزراحيين، فتنتَقي بعض الأمثلة التي توضّحُ مدى الظلم الثقافي الذي تعرّضوا له، فبعض الممثلين المزراحيين تم رفض مشاركتهم للعمل في أدوار فنية فقط بسبب لهجتهم، فيما تستعرضُ كيف كانت أشرطة الموسيقى العربية غير الأصلية تُباع في محطات الباصات العامة في تل أبيب باعتبارها "موسيقى الأعداء" وبيع أشرطتها الأصلية يعتبر أمراً مَحظوراً، تماماً مثل كل ما هو متعلق بالثقافة الشرقيّة. [15]

وقد قام الشاعر اليهوديّ المولود في المغرب سامي شالوم شتريت برفقة عالم الإجتماع اليهودي العراقيّ يهوداشِنهاڤ بتأسيس ائتلاف قوس قُزح المِزراحي للديمقراطيّة سنة 1996م [16]بهدف مجابهة هيمنة اليهود الأشكنازيين على دولة إسرائيل، ومُجابهة الفكرة النمطيّة السائدة بأن اليهودي الغربيّ أكثر تحضّراً من اليهوديّ الشرقي. كذلك فإن الشاعر اليهوديّ العراقي المعروف - والذي أصبح في التسعينيات من عمره - سامي ميخائيل قد بدأ برفقة عدد من المثقفين والمفكرين من يهود الدول العربية مثل ريئوڤينأبيرجيل وتوم بيصه بالكشف عمّا أسموه "عنصرية" دولة إسرائيل ومحاولة التصدّي لها [17]، بالإضافة إلى ألموجبيهار الذي يترأس لجنة رماتڤان[18] والتي تدّعي أنها مهتمة بقضايا اليهود العراقيين، بينما هي فعلياً تتكون من عدد من مجموعة صغيرة من دارسي الأدب العربي سابقاً في جامعة تل أبيب اليساريين.

وعلى الرغم من أن النظرة الدونية التي نظر بها اليهود الأشكناز لليهود المزراحيين كانت بالفعل موجودة في السنوات الأولى لقدومهم لإسرائيل، إلا أن رواية "التمييز العُنصري" أصبحت بمثابة كلمة دائمة الحضور في خطاب "التقدّميين" واليساريين بهدف تشويه سُمعة الحركة الصهيونية. ويحاولُ عددٌ محدود من اليهود المزراحيين اليساريين تعميقَ الفكرة القائلة بأن يهودَ الدول العربية قد أُجبِروا على ترك بلدانهم والتخلّي عن إخوتهم العرب على يد الحركة الصهيونية، الأمر الذي أدى إلى منعهُم من الوقوف بجانب الفلسطينيين وقضيتهم، بالتالي يتظاهرُ هؤلاء اليهود المزراحيّون بأن لديهم "ضميراً" يؤنبهُم ويمنعهُم من رؤية الحقيقة القائلة بأنهم كانوا مُستعبدين مضطهدين من قِبَلِ العرب. [19]

إن مثل هؤلاء المزراحيّين المُتطرّفين في أفكارهم اليسارية يضعون أنفُسهم في خانة المُعادين والمُناهضين للحركة الصهيونية، حيث يدافعون عما يُسمى بالهوية اليهودية العربية لا لسبب سوى التنكّر لفكرة القوميّة اليهودية، باعتبارهم يفترضون أن الشعب اليهودي هُم جماعة دينية لا قوميّة، وأن انتماء يهود الدول العربية هو بالأساس للقومية العربية لا اليهودية، بالتالي فهم يقفون في خندق واحد مع القومية العربية [20]مُدّعين بأن عرب ويهود الدول العربية كلاهما ضحايا للاستعمار اليهوديّ الأشكنازي، بل ويذهب مثل هؤلاء إلى ما هو أبعد من ذلك مُعتبرين أنفُسهم ضحايا لإسرائيل التي خدعتهُم وجَلَبتهُم إلى أرضها لأن الأشكناز كانوا يبحثون عن العمالة الرخيصة لا أكثر ولا أقل. [21]

بالتالي يتم تصوير الحركة الصهيونية من قبل هؤلاء على أنها حركة استعمارية أوروبية، وبأن اليهود المزراحيّين ليس لهُم أي صِلة بالحركة الصهيونية، وبأن الانتماء لهذه الحركة قد اقتصرَ فقط على اليهود الأشكناز [22]. في المقابل، فإن الحركة الصهيونية لم تكترث كثيراً باليهود المزراحيين ولم تُعِرهِم القدر المطلوب من الاهتمام باعتبارهم لا يُشكلون سوى عشرة بالمئة من إجمالي عدد اليهود في العالم.

صورة تظهر فيها المجموعة الكشفية اليهودية المغربية والتي ضمّت في بُنيتها أفكاراً وتوجّهات صهيونية خلال خمسينيات القرن المُنصَرم (حقوق الصورة محفوظة للمتحف اليهودي في مونتريال).

في الحقيقة لم تتلقّ الحركة الصهيونية قدراً كبيراً من الدعم والتأييد من قِبل يهود الدول العربية على الرغم من التمثيل الذي حَظي به المنتمون للحركة الصهيونية في دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا في المؤتمر الصهيونيّ الأول في بازل، حيث حضرَ المؤتمر وفدان أحدهما من مدينة الجزائر والآخر من مدينة قسنطينة، بالإضافة إلى عدد من الوفود التي حضرت من تونس والمغرب وافغانستان ومصر [23]. في الوقت نفسه لم تحظَ الأفكار العلمانية والاشتراكية التي قامت عليها الحركة الصهيونية بأي اهتمام من قِبل اليهود المزراحيين باعتبارهم يحملون عقليات مُحافِظة وتقليدية إلى حدٍ ما، ولربّما يُعزى هذا إلى عدم اهتمام الحركة الصهيونية - قبل الحرب العالمية الثانية - باستقطاب الأقليّة اليهودية المزراحيّة، وذلك لسببين: الأول هو أن نُشطاء الحركة الصهيونية في الدول العربية كانوا ذوي نشاط محدود جداً واقتصر نشاطهم على الحركات السرية نتيجة للقيود التي فرضتها الدول العربية عليهم، أما السبب الثاني فهو القيود المشددة التي فرضها الإنجليز على الهجرات اليهودية إلى أرض فلسطين الانتدابية.

كذلك هيمَنت شخصيات يهودية أشكنازية على قيادة الحركة الصهيونية خلال فترة الانتداب البريطاني في فلسطين، كما كانت هناك مَعايير صارمة جداً للانتساب إلى الحركة آنذاك، فيما كانت الأفضلية تُعطى لليهود الأشكناز فيما يتعلق بالحصول على تصاريح الهجرة إلى فلسطين والتي منحها الإنجليز لليهود بشكل محدود جداً، باعتبار أن اليهود الأشكناز في أوروبا كانوا بحاجة ماسّة إلى الهجرة والهروب من جحيم أوروبا، وهذه الحاجة تفوق حاجة اليهود المزراحيين لمغادرة دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا، بالتالي كانت الأولوية في منح تلك التصاريح تُعطى لليهود الأشكنازيين. لكن ما حدث في سنة 1944م - عقب الأحداث المروّعة في الهولوكوست - هو أن الوكالة اليهودية في فلسطين أقرّت الخطة المعروفة باسم خطة المليون يهودي، والتي كانت تهدف لاستقطاب وجلبِ ثمانمائة ألف مُهاجر يهودي من الدول العربية. [24]

كان هناك شعورٌ مُشتركٌ يختلجُ صدور جميع اليهود في العالم عَقِب الحرب العالمية الأولى [25]، وهو الشعور باللهفة والحنين إلى العيش في وطن يهوديّ على أرض فلسطين الانتدابية، وبالنسبة لليهود المزراحيين الذين هاجروا من الدول العربية إلى إسرائيل بعد سنة 1948م فهُم لم يكونوا صهاينة بمعنى أنهُم ينتمون للحركة الصهيونية الحديثة التي ظهرَت قُبيل تلك الفترة، ولو تتبعنا ما حدث حينها لرأينا أن الحركة الصهيونية لم تكُن تجد تقبّلاً بين اليهود المزراحيين لأسباب قاهرة، أهمها أن يهود الدول العربية يريدون الحفاظ على حياتهم في تلك الدول، الأمر الذي دفعهُم لإبداء تحفّظهم على ما تقوم به الحركة الصهيونية بل وانتقاد الحركة وإدانتها، ففي العراق على سبيل المثال ترأس اليهود الاتحاد المُناهض للحركة الصهيونية، فيما أسس عدد من اليهود المصريين من أعضاء الحزب الشيوعي اتّحاداً من أجل النضال ضدّ الحركة الصهيونية [26]، والحال نفسه كان في سوريا، حيث أعلن عددٌ من القيادات اليهودية السورية تحالفهم ومساندتهم لفوزي القاوقجي، على الرغم من أنه كان قد خدم في السابق مع جيش المُفتي الحاج أمين الحُسيني في أرض فلسطين الانتدابية. [27]

تحقّق النبوءات التوراتية

مثلما ذكرتُ سابقاً فإن اليهود المزراحيّين الذين عاشوا في الدول العربية والإسلامية لم يكونوا صَهاينة بمعنى انتمائهِم للحركة الصهيونية المُعاصرة، بل كانوا صَهاينة بمعنى امتلاكهم تلك عاطفة الحنين للعودة إلى أرض إسرائيل، فكانت عاطفة الحنين هذه تتملكُ صدور يهود اليمنِ والمغربِ وغيرهم من اللاجئين اليهود من الدول العربية الذين اضطروا لمغادرة تلك البلدان نتيجة سببين: الأول هو معاداة السامية التي كانت ولا زالت تتغلغل في تلك البلدان، والثاني هو عاطفة الشوق والحنين لإيرتزيسرايل - أرض إسرائيل -. بالتالي فإن عودة اليهود المزراحيين إلى أرض صهيون لم تكُن تلبية لدعوة ديفيد بن غوريون واليهود الأشكنازيين بقدر ما كانت تحقيقاً لنبوءات التوراة واستجابة لدعواتهم المُتواصلة بالعودة إلى هذه الأرض، تلك الدعوات التي لم تنقطع لقرون عديدة مضَت.

كذلك لم يكُن هناك أي نوع من التنافر أو التناقض بين الديانة اليهودية من جهة وبين النموذج المزراحيّ للصهيونية من جهة أخرى، باعتبار أن الدول التي عاش فيها اليهود المزراحيّون لم تشهَد ظهوراً للتنوير العِلماني. في الوقت نفسهِ عُرِفَت المُجتمعات اليهوديّة الشرقية بأنها مُجتمعات متدينة مُحافِظة، فوصِفوا بأنهم مُجتمعات القُدس الصُغرى نتيجة لهذا التدين والإلتزام، ولطالما كان لديهم ذلك الشعور العميق بانتمائهم إلى أرض يهودا في فلسطين الانتدابية. ومع ظهور التعليم الغربي في مدارسهم برز عدد من الشخصيات اليهودية المزراحية العِلمانية، لكن كونهم عِلمانيين لم يؤدّ إلى تخليهم عن التقاليد والعادات اليهودية المُحافِظة.

لقد شعرَ اليهود في شتّى أنحاء العالم خلال قرابة ألفي سنة من الشتات عن أرض إسرائيل بأنهم بالفعل موجودون في الشتات، وبأنهم يمتَلكون أواصرَ روحيّة عميقة تجمعهم بتلك البقعة من الأرض دون غيرها. وما يزيدُ من أهمية هذه البقعة من الأرض بالنسبة لليهود هو إيمانهم بأن عودة جميع اليهود في العالم إلى أرض إسرائيل يمثل شَرطاً أساسياً لظهور المشيح (المُخلّص) اليهودي، أَضِف إلى ذلك أن إحدى وعشرين وصيّة من أصل ستمائة وثلاثة عشر وصية من وصايا التوراة لا يُمكن تطبيقها إلا في أرض إسرائيل، لهذا يُصلّي اليهودُ المُتديّنون أينما تواجدوا في العالم ثلاث مرات في اليوم مُتَضرعين لله أن يُعيدهم إلى أرض صهيون، ومثلما تقول إحدى دعوات عيد الفَصح اليهودي: "السنة القادمة في أورشليم".

كذلك فإن أورشليم حاضرة دوماً في جميع المُناسبات اليهودية، في مُناسبات الطُهورِ وفي حفلات الزفاف اليهودية، حيث يقوم العروسان بكسر كأس زجاجيّ استذكاراً لدمار الهيكل في أورشليم، أما في الجنازات فيقوم المُشيّعون بنثر حفنات من تراب الأرض المُقدّسة فوق جثّة الميت، فيما يتضرّعُ اليهود المُتديّنون - وحتى بعضُ العلمانيين - بدعواتهم إلى الله أن تكون آخر أيامهم في هذه الحياة فوق أرض إسرائيل وأن يُدفنوا في ترابها، بالتالي ماذا بإمكان الفرد منا أن يجلِبَ من دلائل وشواهد ليُثبتَ عُمق الصِلة الروحيّة لليهود المزراحيين بأرض صهيون، وبأن عودتهم إلى أرض إسرائيل بالنسبة لهُم تمثّل تحققاً لِنبوءات التوراة واستجابةً منَ الله لأدعيتهم وصلواتهم بالعودة إليها؟

ويستذكرُ اليهودُ المُتديّنون في شتّى بقاع العالم ما حلّ بالهيكل اليهودي من خراب ودمار في ذكرى التاسع من آب (تيشَع بي آف)، فكان يهودُ جِربة في تونس -على سبيل المثال – يستحضرون هذه الذكرى الأليمة التي حلّت بأورشليم قبل ألفي سنة، فكانوا يلبسون الرداء الأسوَد المعروفبالساواضعينه على أقدامهم طوال أيام الأسبوع باستثناء يوم السبت، حيث كانوا يستبدلونه برداء أبيض في هذا اليوم [28]، أما يهودُ اليمن فكانوا يعتبرون أن الألبسة المُحدّدة التي فُرِضَ عليهم ارتداؤها باعتبارهم من "أهل الذمة" هي رمزٌ للحُزن والحداد على خراب ودمار الهيكل قبل ألفي سنة. أما في المغرب فهناك قصة معروفة عن أحد حاخامات اليهود الذي كان يجمعُ في زجاجة دموعَهُ التي كان يذرفَها حُزناً وأسىً في ذكرى خراب الهيكل.

وبحسب ما يُحدّثنا شموئيلموريه خلال مقابلته مع صحيفة مانشستر تيليغراف اليهودية، فقد كان يهودُ العراقِ يذرفون دموع الحُزن والأسى كلّما حلّت ذكرى التاسع من آب (تيشع بي آف) كما وكأن الهيكل قد دُمّر أمام أعينهم، كانوا يبكون بحرقة وهم يردّدون مَزْمُور" على أنهار بابِل"، كما كانت تُعلّقُ قطع قماش سوداء على جُدران البيوت اليهودية حُزناً وحِداداً على خراب الهيكل. [29]

إن الطقوس الدينية والاحتفالية للمناسبات اليهودية في أرض إسرائيل القديمة كانت ولا زالت حاضرة في وقتنا الحاضر بنفس الروح التي كان يتم تأديتها قبل آلاف السنين، كما أن استخدام اللغتين العبرية والآرامية في تأدية الشعائر الدينية كان ميزة من ميزات القبائل اليهودية الشرقية. في الوقت نفسه لم ينقطع الوجودُ اليهوديّ من أرض إسرائيل أبداً بالرغم من جميع الظروف القاهرة وسياسات الحُكام التي حدّت من تواجدهم فيها [30] حتى نهاية القرن العشرين، فيما تواجدُ اليهودُ السّفَرديّون في أرض إسرائيل منذ القرن الخامس عشر للميلاد، أي منذ زمن محاكم التفتيش الإسبانية، أما مَن تبقّوا في إسبانيا فيصفهُم الشاعر اليهوديّ يهودا هاليفي كما وصفَ نفسه حينما قال: "أنا موجودٌ في الغرب لكن قلبي موجودٌ في الشرق". أما الحاخام يهودا بيباس – الذي عُيّن كبيراً لحاخامات مدينة كورفو اليونانية سنة 1831م – كان أحد أبرز روّاد الفِكر الصهيونيّ القائم على أساس عُمق الارتباط الروحيّ لليهود بأرض إسرائيل، فكان يجوب البُلدان الأوروبية حامِلاً هذه الرسالة: "نحنُ يهودٌ ويتوجّبُ علينا العودة إلى أرض إسرائيل". وقد قضى الحاخام آخر أيامه في أرض إسرائيل ودُفِن في ترابها، تحديداً في مدينة الخليل.

لقد شهِد القرنُ التاسع عشر للميلاد وجودَ أغلبية سكانية يهوديّة في مدينة أورشليم، حيث وصلَ اليهود اليمنيّون والفارسيّون إلى أرض إسرائيل وسكنوا فيها قبل وصول مُهاجري العَليا اليهود القادمين من روسيا في تلك الفترة. كما جاءت مجموعة من يهود سوريا إلى أرض إسرائيل هاربين من الاعتداءات التي تعرّضوا لها عقبَ ما أطلق عليه واقعة دمشق أو أحداث فِرية الدم حينها، وكان هذا قبل ظهور وتأسيس الحركة الصهيونية المُعاصرة بسنوات. وبالنسبة ليهود اليمن فقد فرّوا من بلادهم إلى أرض إسرائيل مشياً على الأقدام خلال ثمانينات القرن التاسع عشر، حيث اضطروا للفرار هرباً من الظروف الحياتية المُزرية في اليمن، حيث بلغ عدد اليهود اليمنيين الذين جاؤوا إلى أرض إسرائيل في الفترة الممتدة بين الحرب العالمية الأولى والثانية قرابة خمسة عشر ألف يهودي يمنيّ، وهذا الرقم يعتبر كبيراً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الحركة الصهيونيّة في اليمن كانت حديثة الولادة في تلك الفترة. وخلال بداية الانتداب البريطاني على أرض فلسطين شكّل اليهود المزراحيّون والسفرديّون ما نسبته أربعون بالمئة من إجمالي عدد سكان فلسطين. [31]

صورة يظهرُ فيها كنيس عدس في منطقة نحالوت والتي أسسها عدد من اليهود السوريين في القرن التاسع عشر (حقوق الصورة محفوظة لِروث كورمان).

كما كان الحاخام اليهوديّ السفرديّ يهودا الكالاي أحد أبرز روّاد الفكر الصهيونيّ المُعاصر، وهو الحاخام الذي تتلمذَ على يده جدُّ رائد الفكر الصهيوني ثيودور هِرتزل في كنيس البلقان مثلما يقول البعض. أما الحاخام التونسيّ موشيه كلفون من جنزيه فقد ألّفَ كتاباً أطلقَ عليه "خَلاصُ موسى"، هذا الكتاب الذي حمل الأفكار ذاتها الموجودة في كتاب ثيودور هرتزل المعروف "الأرض القديمة الجديدة" الذي يتحدث فيه عن مُستقبل هذه الأرض وشخصيّة الدولة اليهودية الجديدة. [32]

وبشكل عام لا يُمكننا القول بأن عاطفة الشوق والحنين لأرض إسرائيل هي السبب الوحيد لهجرة يهود الدول العربية إلى إسرائيل، لأنه بالطبع لا يُمكننا استثناء ما تعرضَ له اليهود من قمع واضطهاد باعتباره أحد الأسباب التي دفعَتهُم للهجرة إلى إسرائيل، لكن ما يُمكننا قوله هُنا هو أن يهودَ الدول العربية توجّهوا لإسرائيل باعتبارها الدولة الوحيدة التي ستستقبلهُم بكل صدر رحب بعد أن وصلوا لمرحلة استحالة الحياة في تلك الدول.

عربٌ يدينون بالديانة اليهودية؟

تنتشر الفكرة القائلة بأن يهود الدول العربية هم أتباع ديانة لا اتباع قومية كانتشار النار في الهشيم في الاوساط العربية واليسارية، بمعنى آخر تقول هذه الفكرة بأنه لا يحق لليهود تعريف أنفسهم على أنهم أبناء أمّة، بل هم مُتّبعو ديانة سماوية فقط ولا يحق لهم تقرير مصيرهم كشعب شأنه شأن سائر شعوب الأرض. كما يدّعي مناهضو الحركة الصهيونية بأن الميكافيلية الصهيونية (أي أن غاية الصهيونية تبرّر أي وسيلة من أجل تحقيقها) قد أجبَرت يهود الدول العربية على مغادرة أوطانهم ومَسْقَط رأسهم، وبأن اليهود هم مجرد "متطفّلين" على هذه الارض باعتبارهم ينتمون للعرق الأبيض الأوروبي والأمريكي الغربي ممن جاؤوا "كاللصوص المستعمرين" يطمحون لسرقة الارض من سكانها "الأصليين"، أي "الفلسطينيين".

وقد اكتسبت هذه الخرافة نوعاً من الشرعية مستخدمة بعض المصطلحات الماركسية خاصة عقب حرب 1967م وقيام إسرائيل بضمّ القدس الشرقية والسيطرة على الضفة الغربية، حينها فقط ظهر مصطلح "الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية" ومصطلح "الاستيطان" ايضاً باعتباره أداة "للاستعمار" الإسرائيلي للأرض العربية.

بالتالي فإن خرافة الاستعمار هذه قد عمقت من فكرة كون اليهود هُم متّبعو ديانة سماوية فقط، وبأنه لا يحق لهم التعريف عن أنفسهم كأمة مُنفصلة عن غيرها من الأمم، وفي هذا السياق تحدث كرومونتونور خلال الثورة الفرنسية عن فكرة تحرر اليهود قائلاً:[33] "يجب علينا أن نرفض كل ما يتعلق بتصنيف اليهود على أنهم شعب او امة بحد ذاتها، ومايجب علينا فعله هو التأكيد على كل ما يتصل بفكرة كونهم أفراداً"، وهذه الفكرة بالتأكيد ستؤدي الى اندثار المجتمع اليهودي واعتبار اليهود مجموعة من المواطنين الفرنسيين الذين يدينون بالديانة اليهودية. [34]

وقد تبدّل المنظور الذي أصبح يُنظر به إلى اليهوديّ مع ظهور فكرة القوميّة لتُصبح هذه النظرة ذات مدلول عُنصري، كما عاد وصفُ اليهود باعتبارهم متّبعي ديانة لا أبناء شعب للظهور مجدداً، لهذا عادة ما نجدُ مُناهضي الحركة الصهيونية يستخدمون وصف المواطنين اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية أو المواطنين اليهود في ألمانيا، بالتالي اتّسع هذا المفهوم ليَصبح "المواطنين العرب اليهود".

وهنالك اقتباسات عديدة لأكاديميين يساريين يهوديين مزراحيين من أمثال الأكاديمية الأمريكية إيلا شوحات[35]، وهذه الاقتباسات مصدُرها كتاب إدوارد سعيد المعروف باسم "الاستشراق" [36]، والذي يقسّم العالم أجمع من منظور مؤلفه إلى قسمين: الغربُ من جهة، وباقي العالم من جهة أخرى، واصِفاً اليهود المزراحيين على أنهم "عربٌ يدينون بالديانة اليهودية"، أما العرب واليهود الشرقيين فهم ضحايا للحركة الصهيونية الغربية.

وقد بدأ نجمُ إيلا شوحات بالسطوع عقب صدور فيلم "إنسَ بغداد" سنة 2002م الذي أخرجه واحدٌ من يهود العراق ممن كانوا ينتمون للحزب الشيوعي حينها. ويسلط هذا الفيلم الضوء على تجارب أربع شخصيات ممن كانوا أعضاء سابقين في الحزب الشيوعي العراقي، وكان من ضمنهم شمعون بلاص مؤلف كتاب "معبَرا" الذي يُعدّ أول كتاب يتطرّقُ لتجربة اللاجئين اليهود في مخيمات اللجوء، موضحّاً كيف تم إجبار جميع اليهود على مغادرة بُلدانهم متوجهين إلى اسرائيل التي واجهوا فيها تحدّيات عديدة كان من أبرزها محاولة الهيمنة على ثقافتهم الشرقية كيهود مزراحيين. وخلال إحدى دراساتها توضحُ إيلا كيف أن السينما الإسرائيلية كانت ترسمُ صورة نمطية لليهود الشرقيين في أذهان الجميع مفادها بأنهم مُتخلّفون ومغفّلون وبربريون كالحيوانات. [37]

بالتالي فإن شخصيات يهودية مزراحية مُناهضة للحركة الصهيونية من أمثال إيلا شوحات وراشيل شابي ترى أن اليهود المزراحيين يعيشون حالة صراع نتيجة هويتهم الثنائية بشقيها اليهودي والعربي، كما يَرون أن اليهود المزراحيين قد تعرضوا للذل والتحقير نتيجة تأسيس وقيام دولة إسرائيل على أيدي اليهود الأشكناز، فتكتُب راشيل شابي في هذا الصدد: "لو وجدَت إسرائيل طريقاً لإعادة التواصل مع هويتها الشرق أوسطية لأدى هذا إلى اختلاف العلاقات كلياً بين إسرائيل ودول المنطقة، خاصة وأن العرب واليهود كان لهُم ثقافة مشتركة عاشوا في ظلها كجيران وأصدقاء قبل أن يُصبحوا ألدّ الأعداء لبعضهم البعض" على حسب زعمها [38]. وفي إحدى المُقابلات التي نشرتها إيلا تستضيفُ يهودية عراقية كانت تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً عند مغادرتها العراق وتُدعى نعيمة، فتقول لها: "لقد عشنا مع بعضنا البعض عرباً ويهوداً بمنتهى السعادة". [39]

في الوقت نفسه فإن فكرة الهوية العربية اليهودية لا زالت موضع جدل كبير، ومثلما يصوّرهاأحد المُفكّرين المزراحيين فإن "اليهود المزراحيين ليس لديهم أدنى اهتمام بما هو عربي إلا عندما يتعلّق الأمر بالطعام والموسيقى، أما اليهود الأشكناز فالكثيرُ منهُم لم يكُن مهتماً بكونه يهودياً أصلاً" [40]. كذلك لا يُمكننا إنكار تأثر عدد كبير من اليهود أثناء تواجدهم في الدول العربية بالثقافة الغربية بشكل عام والثقافة الفرنسية على وجه الخصوص، فكانت تُطلق الأسماء الغربية على المواليد، فيما فضّل العديد منهُم أغاني ومقطوعات شانسون للمغنية إيديتبياف على أغاني أم كلثوم.

أما بالنسبة ليهود المَغرب فلم يسلبهُم أحدٌ ثقافتهم العربية لأنهم باختصار خسروا تلك الثقافة قَبل فترة طويلة من قدومهم إلى إسرائيل [41]، وعندما وصلوا إلى أرض إسرائيل أصبحوا يُعرفون بلقب "فرنكيم" نسبة إلى كلمة فرنسي. ويقول أندريه أكيمان في هذا السياق: "فرنسا هي موطن روحي" [42]، وهذا بالفعل كان حال الكثير من اليهود المغاربة الذين لجأوا إلى الغرب ولا زالوا يعرّفون عن أنفسهم على أنهم فرنسيو الهوية حتى لا يضطرّوا لتفسير سبب اختلاف لهجاتهم أو الحديث عن قصصهم المؤلمة.

أما الكاتبة جاكلين كاهانوف فقد كانت أول من استعمَل مُصطلح (Levantinism) لتصف الطبقات المُتعددة لهويّتها أثناء نشأتها وحياتها في دولة كانت خلال فترة من الفترات دولة متعددة الجنسيات والأطياف كمصر، وذلك أثناء خطاباتها التي تُلقيها باعتبارها نموذجاً للتعايش الشرق أوسطي بين العرب واليهود، مُستلهمة خطاباتها من واقع تجربتها الشخصية.

وقد كان غالبية يهود مصر يتحدثون عدة لغات، فكان متوسط اللغات التي يتحدثها أحدهُم هو أربع لغات، لكنهم كانوا ملمّين بالأساسيات فقط في اللغة العربية [43]. كما كان من الشائع جداً حصولهم على جنسية بلد أجنبي والتحاقهم بالمدارس الفرنسية بالإضافة إلى استقدام ربات الأطفال من البلقان والدول الغربية للعناية بأطفالهم، فيما كانت هناك نسبة لا يُستهان بها ممن كانوا يتزوجون زواجاً مُختلطاً بين اليهود الأشكناز واليهود السفرديين. وفي هذا السياق يقول الطبيب إليسدويق- والذي تم إجباره على الرحيل إلى المملكة المتحدة لأن عائلته كانت من رعايا المملكة في مصر منذ القرن الثامن عشر للميلاد– بأنه لم يُحاول أبداً أن يتظاهر بأي شكل من الأشكال بأنه بريطاني، لكنه يشعرُ حالياً في بريطانيا بأنه بين أحضان وطنه، وهذا لا يُعزى إلى أنه أصبح بريطانياً أكثر من ذي قبل، إلا أن السبب الحقيقي وراء ذلك هو أن بريطانيا أصبحَت بلداً أكثر غُربة بالنسبة له من ذي قبل.

ويوضح الدكتور إليس بأن مرضاه دوماً يشعرون بالحيرة عندما يُخبرهُم بأنه مصري، أما مرضاه من العرب فلا يُصدّقون أصلاً أن اليهودَ عاشوا بالفعل في مصر في يوم من الأيام. بالتالي أصبَح الدكتور إليس يُخفي هويته كيهوديّ أمام البريطانيين باعتبار أن الدين أصبح موضوعاً يُحاول الكثير من البريطانيين تجنّب الخوض فيه[44]. وتقول إحدى اليهوديات من أصل جزائري واصفة هويتها قُبيل قدومها من فرنسا إلى إنجلترا بأنها هوية يهودية قبل أي شيء آخر، وبأن يهوديتها كانت الجُزء الأصيل الذي لم تتخلّ عنه رغم تِرحالها من بلد لآخر قائلة: "لقد كُنت ولا زلت يهوديّة، وهذا هو الجُزء الوحيد من هويّتي الذي لم ولن يتغيّر". [45]

وخلال مؤتمر ليهود العراق سنة 2008م [46]أجمعَ الحُضورُ على رفضهِم لمُصطلح "عربيّ يهوديّ" باعتباره وصفاً لهويتهم، خاصة وأن يهود العراق كانوا أكثر مُجتمع يهوديّ تعرَض لعملية "تعريب" من بين المُجتمعات اليهودية الشرقيّة، فيما أكّد بعضهُم على أن مُصطلح "العربي اليهودي" لا ينطبق إلا على اليهوديّ المُلمّ باللغة العربية لا أكثر ولا أقل، على الرغم من معارضة البروفسور رؤوفين‌سنير للربط بين هذا المُصطلح والإلمام باللغة مُستشهداً بحقيقة أن العديد من اليهود الذين ألفوا أعمالاً أدبية كثيرة باللغة العربية خلال بدايات القرن العِشرين لم يعرّفوا أنفُسهم على أنهم عرب بأي شكل من الأشكال. بالتالي قد يكون من المُناسب إسقاط مُصطلح "العربي اليهودي" على اليهود الذين يتحدّثون اللغة العربية ممن انصهروا واندمجوا في الثقافة العربية بشكل كامل.

ولو افترضنا جدلاً أنّ بعض اليهود يرغبون بالتعريف عن أنفسهم بهويّة "العربي اليهودي"، فإننا سنجدُ مُعضلة في شمولية هذا المُصطلح ليهود بابل و"المُستَعرَب" والقرائيين بالإضافة إلى اليهود الأكراد والفُرس والبربر ومنطقة بُخارى وأفغانستان وغيرها من دول الاتحاد السوفييتي سابقاً، باعتبار أن هذا المُصطلح لا ينطبق عليهم لأنهم يتكلّمون اللغة الآرامية واللهجة الحُكيتيّة وغيرها من اللهجات الفارسية العبرية، فكيف يُستثنى هؤلاء من هذه الهوية على الرغم من أن وجودهم في هذه المنطقة يعود إلى زمن مملكة بابل العُظمى، أي إلى الحقبة الزمنية للسبي البابلي الأول؟

وفي هذا السياق يقول الكاتب والأديب عراقي المولد والنشأة إيلي عَمير اليهودي واصِفاً مُعضلة الهوية العربية اليهودية قائلاً:"مَن أنا؟ أنا عُصفورٌ يترنّحُ بين عالَمين، تارة في الشرق وتارة في الغرب، أنا رجلٌ يقفُ بصلابة على هذه الأرض لأن لي جذران فيها رغم أن أقدامي لا زالت تائهة بين هذين العالمين، إلا أنني في نهاية المَطاف يهوديّ صُهيونيّ إسرائيلي". [47]

واستناداً إلى الواقع والتاريخ فإن الغالبية العُظمى من يهود الدول العربية لم يُعرّفوا عن أنفُسهم على أنهُم عرب، وقد يشعرُ غالبيتهم بنوع من الإهانة في حال وصفهُم أحدٌ ما بأنهم عرب، خاصة وأن مُصطلح "العرب اليهود" يُمثل مُغالطة تاريخية كبيرة باعتبار أن وجود اليهود في العديد من دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا قد سبقَ الغزو العربي لهذه البُلدان بألف سنة على الأقل، بالتالي تقتصرُ احتمالية إسقاط هذا المُصطلح على اليهود الذين عاشوا في الجزيرة العربية فقط. كما أن مَدلول كلمة عربي في أماكن أخرى من بقاع العالم تعني بالنسبة لهُم البدويّ الذي يمتاز بالترحال من مكان لآخر في الصحراء متردياً الزيّ البدوي الذي يشتهر به البدو.

كما يوجد إشكالية كبيرة في هذا المُصطلح من منظور عِرقيّ، فهو يُساوي بين اليهوديّ والعربيّ على الرغم من أن هذه المساواة لم تكُن موجودة أصلا بينهما سواء في ظل حُكم الشريعة الإسلامية أو حُكم القوميات العربية. أضِف إلى ذلك أن مفهوم العالم العربي قد بُني بالأساس على أساس اللغة العربية والثقافة العربية اللتان تشكلان قاسماً مُشتركاً يجمع بين العرب، إلا أن هذه القواسم المُشتركة لم تكن سبباً كافياً لخلق وحدة سياسية واحدة تمثل جميع العرب، بالتالي لم تُفلح الجهود الرامية إلى خلق كيان سياسيّ واحد تجتمع تحت مظلته جميع الدول العربية. بالتالي ومن هذا المنطلق يُمكننا القول بأن يهود العراق ومصر على سبيل المثال هم مواطنون في دول تنتمي لقوميّة محددة، كذلك يُمكننا إسقاط نفس الفكرة على اليهود الإسبانيين - أي اليهود الذين يحملون الجنسية الإسبانية -، لكن لا يُمكننا إسقاط هذه الفكرة على اليهود الهِسبان– اليهود من أصل إسباني ولاتيني – إذ لا يوجد شيء اطلاق لفظ "اليهود الهسبانيون" على اليهود فقط لأنهم يتكلمون اللغة الإسبانية وينتمون للثقافة الإسبانية، والقائمة تطول بالأمثلة التي تُثبت فشل تطبيق هذا المُصطلح وإسقاطه على يهود الدول العربية.

مُقارنةُ اليهود بالمسيحيّين

ولتسليط الضوء أكثر على جميع هذه التساؤلات المُتعلقة بهوية يهود الدول العربية فإنه بإمكاننا إجراء مُقارنة بين اليهود وغيرهم من سكّان منطقة الشرق الأوسط من غير المُسلمين، حيث أننا سنجدُ أن عدداً كبيراً من المسيحيّين - الذين كانوا مُتحمسين جداً لفكرة العِلمانية والقوميّة العربية في القرن التاسع عشر- ممن يُعرفون عن أنفسهم على أنهم "عربٌ مسيحيون" هُم في الحقيقة ينتمون إما للكنيسة البطريركية الأرثوذوكسية في أنطاقيا وسائر المشرق أو للكنيسة الملكية الكاثوليكية اليونانية، وهاتان الطائفتان تواجدتا بشكل رئيسي مثل لبنان وسوريا والأراضي الفلسطينية. وسنة 2005م صرّح بطريرك الكنيسة الكاثوليكية الملكية اليونانية جريجوري لحام الثالث مُعبراً عن هويته قائلاً: "نحنُ كنيسةُ الإسلام". [48]

وعندما يتعلّق الأمر بالأقليات المسيحيّة الأخرى الموجودة في هذه المنطقة مثل الآشوريين والموارنة والأقباط فموضوع الهوية مُبهمٌ إلى حدٍ ما، فبعضُ المَوارنة مثلاً يُعرّفون عن أنفسهم على أنهم "فينيقيون"، إذ يربطون بين تاريخ لُبنان الحالي وبين الحضارة الفينيقية القديمة، أما بالنسبة للأقباط فنجدُ أن بعضهُم يعرّف عن هويته باعتباره "فرعونياً"، إذ يُصرّ هؤلاء على أهمية الربط بين الحضارة المصرية الفرعونية القديمة والهوية المصرية الحالية باعتبارها جُزءاً لا يتجزأ من الحضارة الفرعونية. ولو تتبعنا موضوع الهوية في مصر تاريخياً لوجدنا أن مصرَ ترفضُ كُلّ ما يجمعها بالحضارات الشرق أوسطية بشكل عام وتؤكد على انفصالها الوطنيّ والقوميّ الكامل عن تلك الحضارات.

أما بالنسبة لمسيحيين العراق فهُم يرفضون رفضاً قاطِعاً التعريف عن هويتهم على أنهم "عرب مسيحيّون"، ويُصرّون على أن هويتهم العِرقيّة الحقيقة هي الآشورية، فيما يُفضل بعضهُم التعريف عن نفسه بهوية أخرى وهي الكلدانيّة الكاثوليكيّة. وبطبيعة الحال يتواجد بين مسيحيي العراق آشوريون وكلدينيون ممن لا يُمانعون فكرة القومية والوطنية باعتبارها جزءاً من هويتهم.

اليهود المزراحيّون كانوا أبطالاً

لقد كان مُستنقعُ الفقر والبؤس الذي عاشه اللاجئون اليهود من الدول العربية في إسرائيل خلال خمسينيات وستينيات القرن المُنصرم جُزءاً من واقع مُزرٍ عانوا منه بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ونتيجة لهذا الواقع المُزري ظهرَت حركة الفهود السود في إسرائيل خلال سبعينيات القرن المُنصرم. حينها شكّل حزب الليكود الحكومة الإسرائيلية برئاسة مناحيم بيغين سنة 1977م بعد دعم اليهود المزراحيّين لها، فكان ذلك بمثابة كسر لحالة احتكار وهيمنة حزب العمل على السياسة الإسرائيلية.

صورة يظهرُ فيها عضو الكنيست الإسرائيلي شالوم كوهين خلال إحدى مُظاهرات حركة الفهود السود في شهر أيار 1973م (حقوق الصورة محفوظة لموشيه ميلنِر– مكتب الإعلام الحكومي الرسميّ الإسرائيلي)

ويُعزى هذا التغيّر الدراماتيكيّ الملحوظ في رئاسة الحكومة الإسرائيلية إلى ما قام به الإعلامي والكوميدي دودو طوباز خلال إحدى جولات انتخابات حزب العمل سنة 1981م [49]حين ألقى خِطاباً عنصرياً وضيعاً مُهاجماً فيه اليهود المزراحيين. في الفترة نفسها أثبت اليهود المزراحيون جدارتهم بعد انتصار إسرائيل في حرب 1967م وحرب 1973م، الأمر الذي لم يُعجب دودو طوباز الذي قال في خطابه: "إن قيادة الليكود من اليهود المزراحيين الجالسين خلف مكاتبهم في مقر الحزب في تل أبيب بالكاد يستطيعون حراسة قاعدة عسكرية إسرائيلية، هذا على فرض أنهم تجنّدوا في الخدمة العسكرية أصلاً. هؤلاء ليسوا جنوداً، لأن جنود وضباط إسرائيل موجودون هُنا في هذه القاعة (في إشارة منه إلى أعضاء وقيادات حزب العمل).

وقد كانت تصريحات دودو طوباز تتناغم مع تصريحات رئيس الأركان الإسرائيلي آنذاك مُردخاي غور الذي صرّح في مقابلة أجراها مع إحدى الصحف سنة 1978م بخصوص العقلية العربية المزراحيّة قائلاً: "لن يتمكن اليهود المزراحيون من إدارة شؤون البلاد في حال تولّوا السلطة خلال الثلاثين سنة القادمة، وجميع الأموال التي استثمرتها إسرائيل في اليهود المزراحيين لم تعُد عليها بأي نتيجة تُذكر فعلياً". [50]

في المُقابل ردّ رئيس حزب الليكود حينها مناحيم بيغين على تلك التصريحات في واحد من أروع خطاباته قائلاً: "اليهود المزراحيون؟ إنهم أبطال بكل ما تعنيه الكلمة من معنى"، وتابع خطابه رافعاً كلتا يديه عالياً: "لقد قاتلنا جنباً إلى جنب عندما كُنا في الحركات السريّة، كُنا يهوداً أشكناز وسفرديين نقاتلُ في نفس الخندق". وعقِب هذا الخطاب التاريخيّ لمناحيم بيغين فاز حزبُ الليكود بالانتخابات الإسرائيلية سنة 1981م، أما دودو طوباز فقد أمضى حياته تائهاً هائماً على وجهه حتى انتهى به المطافُ مُنتحراً في السجن .[51]

إن المُتتبع لعقلية وتصرّفات اليسار الإسرائيلي يجدُ تشابها كبيراً بينها وبين عقلية وتصرفات اليسارَ الغربيّ المُعاصر، خاصة وأنه لا يتعاطى مع قضايا اليهود المزراحيين بنفس أسلوب التعاطف والاهتمام الذي يُبديه مع الفلسطينيين. وفي هذا السياق يوضّحُ مُخرج الأفلام اليهوديّ مصريّ الأصل أيالساغوبيصاوي قائلاً:" لا يوجدُ لدى اليسار اليهودي الأشكنازيّ أي رغبة في الاستماع أو الإصغاء أو حتى معرفة أي شيء يتعلّقُ باليهود المزراحيّين. هنالك أمر مُزعجٌ للغاية بالنسبة لنا كمزراحيين، وهو أن اليهود الأشكناز على استعداد للشراكة والحديث مع الفلسطينيين والمضي قُدُماً لإيجاد الحلول، بينما يتجاهلون بشكل كامل قضايا اليهود المزراحيين". [52]

ويُؤكدُ الكاتب اليهودي العراقي المعروف سامي ميخائيل - والذي كان عُضواً في الحزب الشيوعيّ الإسرائيلي خلال خمسينيات القرن الماضي - على الأفكار نفسها التي ذكرها أيالبيصاوي، فيقول في هذا السياق:" لقد كان كل يهوديّ شيوعيّ في العراق شيوعياً بمعنى الكلمة لأنه كان يهودياً قبل كل شيء، ولأنه كان يعتبر أن المساواة بين الجميع هي حق إنساني بغض النظر عن الانتماء الديني للإنسان، أما في إسرائيل فإن الحزب الشيوعيّ يدعمُ فكرة المساواة لكن للعربِ فقط دون غيرهم". [53]

كما أسهم عدد كبيرٌ من الإعلاميين والمثقفين إلى حدٍ كبير في تصوير الفلسطينيين على وجه التحديد بصورة الضحية الوحيدة للصراع العربي الإسرائيلي، خاصة وأن الرواية التي تصفُ اسرائيل "بالدولة المُستعمرة" طاغية جداً على نقاشات ومبادرات السلام والتعايش وحوار الأديان بين الجانبين، الأمر الذي أدى استثناء اليهود المزراحيين من نظرية "تقاطع أشكال التمييز"، هذه النظرية التي راجَت في الولايات المتحدة خلال ثمانينيات القرن المنصرم وتعني أن تُساند المجموعات المُضطهدة بعضها بعضاً، فعلى سبيل المثال لا الحصر تقفُ مجموعة "حياة السود مهمة" في أمريكا موقف مساندة وتأييد لحركة مقاطعة إسرائيل، في الوقت نفسه تتجاهل الحركة حالة التشابه الكبير بين مطالب الأمريكان ذوي الأصول الافريقية بحقوقهم المدنية والصراع الطويل الذي خاضه اليهود للمطالبة بنفس الحقوق، خاصة وأن كلا الجانبين يمتلكان تاريخاً طويلاً من الظلم والاستعباد على يد العرب. [54]

غيابٌ تامّ مِن مشاريع ومبادرات السلام

ليس لقصة اليهود المزراحيين أي وجود في مبادرات ومشاريع السلام والتعايش، وهُنا توضح جانيت دلّال ناشطة السلام اليهودية العراقية ما حدث عندما حضرت إحدى لقاءات التعايش في إحدى القرى العربية اليهودية المشتركة المعروفة باسم واحة السلام قرب القدس، فشاركت في فقرة أطلق عليها "الشفاء من الجراح المُشتركة من أجل تحقيق المصالحة"، عندها صُعِقت من أن هذه الفقرة لم تتطرّق بأي شكل من الأشكال لمعاناة وجراح يهود العراق ولا لقضية اليهود المزراحيين بشكل عام، فيما كان جميع الحُضور يركّزون على مسألتين فقط: الهولوكوست والنكبة الفلسطينية! [55]

وقد عاشت جانيت أثناء وجودها في العراق الصَّدمة النفسية العميقة التي سببها ظُلم وقمع نظام صدام حسين لليهود خلال ستينيات وسبعينيات القرن المُنصرم، حيث كانت شابة يافعة حينما رأت صديقتها في المدرسة جويس كشكوش تُقْتَلُ هي وعائلتها سنة 1972م في بيتهم، فقُطِّعت أجسادهم إرَباً وتم وضعُها في حقائب السفر التي كان من المفترض أن يحملوها عند مغادرتهم للعراق.

وبعد أن عرَّفت جانيت بنفسها وبالمعاناة التي مر بها يهود الدول العربية، قال مُنسق ذلك اللقاء بأن "أولى خطوات شفاء الجراح هي الاعتراف بها". لاحِقاً لم تتمالك جانيت نفسها عندما رأت كمية التجاهل لمعاناتها وما رأته من ويلات بدأت بحديث مُرتجل قالت فيه:"هذا أمرٌ لا يُصدق! هنالك أناس عانوا وقُتِلوا وذُبِحوا كالخراف ولا أحد يتحدّثُ عنهُم! "، عندها وعدها منسق الفقرة بأن يتطرّق لهذا الموضوع في اللقاءات القادمة، لكن هذا الوعد ليس كافياً، والمطلوب هو إحداث تغيير جذري في أسلوب التعامل مع قضية اللاجئين اليهود المزراحيين.

إن أجندات مبادرات السلام والتعايش بحاجة إلى تصحيح وإعادة توجيه كونها تتجاهل التطرقُ لقضيّة هامة مثل قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية الذين يُشكلون هُم وجميع من انحدر من نسلهم قرابة نصف عدد سكان دولة إسرائيل وتتعامل مع هذه القضية والصّدمة المهولة التي خلفتها وكأنها غير موجودة أصلاً.

وبالعادة يُشاركُ في لقاءات ومبادرات السلام والتعايش يهود أشكنازيون ينتمون لليسار الإسرائيلي [56] ممن يضعون إسرائيل في موضع الجلاد اللئيم بينما يضعون الفلسطينيين في موضع الضحية البريئة، في الوقت الذي يجهلُ فيه بعض هؤلاء الحُضور قضية اللاجئين اليهود الذين نزحوا من الدول العربية تاركين كل شيء خلفهم باستثناء حقيبتي سفر سُمِح لهم بأخذها معهم عند مغادرة أوطانهم، أما البعض الآخر منهم فربما لا يتمتعون بالمصداقية الأخلاقية أصلاً لهذا يتجاهلون عمداً الحديث عن هذه القضية، خاصة وأنهم على استعداد للإصغاء للفلسطينيين "الضحايا" من وجهة نظرهم، وعلى استعداد للإصغاء للمواطنين العرب في إسرائيل وسماع قضاياهم ومشاكلهم، وهم على استعداد أيضاً للاستماع لقضايا اليهود الأفارقة في إسرائيل، لكنهم ليسوا على استعداد لسماع أي شيء يتعلق باليهود المزراحيين بأي شكل من الأشكال.

بالتالي هنالك سؤال يطرح نفسه بقوّة في ظل هذه المُعطيات: لماذا يُسارع هؤلاء إلى إبداء تعاطفهم وتأييدهم لنيل الفلسطينيين لحقوقهم، بينما يضربون بعرض الحائط الحقوق التي يُطالب بها اليهود المزراحيون؟ يُجيب البعض على هذا السؤال بالقول أن الجهل التام بقضيتهم وبمطالبهم يقف وراء ذلك، فيما يعزي آخرون هذا إلى النظرة التي يرى بها اليهود الأشكناز أنفسهم "كيهود أوروبيين من العرق الأبيض"، وهي نظرة يحاول البعض استحضارها من خلال ربطها بخرافة "الاستعمار الإسرائيلي" لهذه الأرض.

في الحقيقة فإن الباحثين في مسألة الاستعمار المُعاصر لا يعترفون بأن العلاقة التي كانت قائمة بين الحُكام المسلمين ورعاياهم من اليهود والمسيحيين تُشبه إلى حد كبير العلاقة بين المُستعمِر والمُستَعمَر، وفي هذا السياق يوضح أحد المُختصين بهذا الشأن قائلاً :"لا يتطرقُ اليسارُ الغربيّ لمسألة معاداة السامية الإسلامية لأن التطرق لهذه القضية سيجلبُ بالضرورة الحديث عن الاستعمار الإسلامي، الأمر الذي من شأنه أن يضرب أركان الخطاب اليساري الغربي فيما يتعلّقُ بالعالمين العربي والإسلامي" بل ويُسقطه كلياً [57]، وحتى عندما أظهرت الحكومة الإسرائيلية اليمينية برئاسة بنيامين نتنياهو تأييدها رسمياً لحملة المطالبة بإنصاف اللاجئين اليهود من الدول العربية فإن البعض نظرَ إلى تلك المساندة من منظور سياسي ساخر.

كذلك فإن غالبية اليسار "يتأفأف" مُتذمّراً من موضوع تسييس قضية اللاجئين اليهود وحقوقهم ويضع عليها مئات علامات الاستفهام، في الوقت الذي لا يتذمرون من أي جزئية مهما كانت عندما يتعلق الأمر بقضية اللاجئين الفلسطينيين. بالتالي فإن اليسار المُتطرف يُساند بقوة الرواية الفلسطينية التي نتج عنها جيلٌ ثالث بل ورابع من الفلسطينيين الذين لم يروا فلسطين في حياتهم أصلاً، بينما يتجاهلُ قضيّة اللاجئين اليهود الذين طُردوا من أوطانهم ومسقط رأسهم ومُنعوا بالقوة والعنف والقمع من دخول وزيارة تلك الدول!

من جهة أخرى ينظر اليسار إلى العرب واليهود المزراحيين على أنهم إخوة، خاصة وأن بعضَ الباحثين من أمثال الناشطة النسوية اليهودية ذات الأصل العراقي لولوا خزوم [58]يَرون وجود نوع من التعاطف والتفهم المشروط لقضيّة اليهود المزراحيين من قبل العرب، إذ يقترن هذا التعاطف العربي بموافقة اليهود المزراحيين على الوقوف مع إخوتهم العرب ضدّ اليهود الأشكناز، الأمر الذي يعني تنازل اليهود المزراحيين عن هويتهم اليهودية.

وترى لولوا خزوم أنه يُمكن للمرء أن يكون مؤيّداً للفلسطينيين وقضيتهم وفي الوقت نفسه مؤيداً لحقوق اللاجئين اليهود المزراحيين ومطالبهم، على الرغم من أن بعض الناشطات النسويات يُحاولن ربط هاتين القضيتين بمناهضة الحركة الصهيونية، فتقول لولوا خزوم في هذا الصدد: "لماذا لا يتكلم العرب عن الإجحاف والظلم الذي لحق باليهود المزراحيين على يد العرب أنفسهم؟ لماذا يوجدُ في إسرائيل وخارجها مُنظمات يهودية تُكرس جهدها لإنصاف الفلسطينيين عبر إعادة جزء من الارض لهم او تعويضهم مادياً نتيجة الظلم الذي وقع عليهم، بينما لا نجدُ أي منظمة عربية أو فلسطينية تكرّس جهدها وتطالب بنفس المطالب لإنصاف اليهود المزراحيين؟ إنني مُتسعدة للوقوف ضدّ الظُلم الإسرائيلي للعرب والفلسطينيين بل والقتال من أجل إنهائه، لكني في الوقت نفسه أطالبُ أخوتي وأخواتي العرب باتخاذ نفس الموقف عبر العمل على إنهاء الظُلم والإجحاف الذي وقع على اليهود المزراحيين من قِبل العرب".

وقد تحدّثت لولوا خزوم في أكثر من لقاء ضمّ نساء عربيات مُسلمات ومسيحيات ويهوديات أشكنازيات، وتقول عن تجربتها في هذه اللقاءات قائلة: "في كل مرة كنتُ أتحدث فيها عن تهميش النساء اليهوديات المزراحيات كانت تقتربُ مني إحدى النساء العربيات فتحتضنني وتقول لي: "نحنُ أخوات ولا فرق بيننا، ولولا هؤلاء الصهاينة لما كان هناك أي خلاف بيننا"، وتتابع لولوا: "وفي أحد اللقاءات بعد أن أنهيت حديثي اقتربت مني امرأة عربية قائلة لي بأن هؤلاء اليهود الأشكناز هُم مجرد خنازير!، وهذه إحدى العبارات التي تذكرني بصعوبة موقفي، بل وتذكرني بأنني مقسومة إلى نصفين، لأن من يتحدث إلي بهذه الطريقة يطلبُ ببساطة أن أبلورَ هويتي حول جذوري الشرق أوسطية وأن أتناسى كلياً الشقّ الآخر من هويتي وهو الشقّ اليهودي، بمعنى آخر: من يتحدث إلي بهذه الطريقة يريدُني أن أبني هويتي استنادا إلى أساس واحد وهو العروبة فقط ولا شيء آخر". [59]

وهنا تؤكدُ الكاتبة اليهودية الإيرانية الأصل رؤيا حقاقيان[60] على ما ذكرته لوليا خزوم، خاصة عندما يتعلق الموضوع بالطريقة التي ينظرُ بها الإيرانيون في الغرب إلى اليهود وتجاهلهم حقيقة أن اليهود المزراحيون هُم ضحايا أيضاً لهذا الصراع، فإيران نفسها كانت تضم عدداً كبيراً من اليهود، أما اليوم فلا يوجدُ فيها سوى عشرة آلاف يهوديّ إيراني يُشكلون ما نسبته عشرة بالمئة فقط من عدد يهود إيران قبل حرب 1948م. تقولُ رؤيا حقاقيان في هذا السياق: "لو انحدر عدد سكان أي أقلية في الغرب بنفس الطريقة التي انحدرَ فيها عدد اليهود من إيران لقامت أوروبا بوضع هذا الأقلية على قائمة الأقليات المُعرضة لخطر الاندثار، ولوضعَت مئات المنشورات والمُلصقات التي تتحدث عن هذه القضية".

لكن على ما يبدو فإن دولة مثل بوليفيا كانت أولى باهتمام إيران من يهود الجبيرة في أصفهان الذين قاموا بحفر الأنفاق أسفل بيوتهم حتى يُحذروا بعضهم البعض عند اندلاع أعمال العُنف وارتكاب المذابح ضدهم من قبل الإيرانيين. كان أولى بإيران أن تولي اهتماماً بهذا المُجتمع اليهوديّ الإيراني أكثر من أي جهة أخرى باعتبارهم جُزءاً أصيلاً من التركيبة المجتمعية الإيرانية، لكن مع الاسف لم تولي القيادات والنُخب الإيرانية أي اهتمام بهم، بالتالي فإن خسارة إيران لهذا المُجتمع اليهودي يُبطل ادعاءات إيران بأنها دولة مُتسامحة، وسيكون من الصعب تصديق أي ادعاء مماثل من قبل إيران التي ترى نفسها فارسية بالدرجة الأولى، لهذا لا يزال التاريخ اليهودي الممتد لثلاثة آلاف عام في إيران طيّ النسيان".

رواية التمييز العُنصريّ

إن المدرسة الفكرية التي تدعم مُصطلح "العربي اليهودي" بقيادة إيلا حبيبة شوحات[61]وعدد آخر من الأكاديميين والمفكرين هي مدرسة حديثة الظهور، وهي تمثل مذهباً فكرياً يُحاول فرضَ هذه الهوية على يهود الدول العربية على الرغم من رفضهم المُطلق لها [62]، وحتى في المُجتمعات العربية نفسها لم يكُن ينظرُ العربُ إلى اليهود على أنهم عربٌ مثلهم، فلم يكُن هنالك زواج مُختلط بين الجانبين حتى نقول بأن العرب كانوا ينظرون لليهود من منظور العروبة. ومن الجدير بالذكر أن مَن يُساندون فكرة هوية "العربي اليهودي" يضمّون عدداً ضئيلاً جداً ممن يتحدثون اللغة العربية باعتبارها لغتهم الأم، وبالكاد يوجدُ بينهم من عاش كيهوديّ في الدول العربية في الماضي.

ثانياً: إن التمييز الذي يحدثُ في إسرائيل هو في الحقيقة تمييز بين الطبقات أكثر منه تمييز بين الأصول والإثنيات العرقية، بالتالي عندما يتحدث أحد ما عن التمييز في إسرائيل فإنه يجب عليه أن يُفرق في حديثه بين الطبقة المخملية من كبار التجار العراقيين والمغاربة والمصريين الذين كانوا ينتمون أصلاً لطبقات راقية كان يدرس أبناؤها في اتحاد المدارس العالمي الإسرائيلي فكانوا يتحدثون أكثر من لغة ويتمتعون بتعليم راقٍ، وبين اليهود الأكراد والمغاربة من جبال أطلس الذين يُصنفون على أنهم أُمّيون ومثلما يصفهُم البعض "لم يسبق لهم أن رأوا مِرحاضاً في حياتهم" (هذا تعبير مجازيّ شائع تستخدمهُ المجموعات الإثنية المُختلفة ضد بعضها البعض لوصف التمييز بين الأصول المُختلفة في إسرائيل من جهة، ومن جهة أخرى يستخدمه أبناء كل مجموعة إثنية لوصفِ بعضهِم البعض أيضاً). [63]

ثالثاً: لو تطرقنا لموضوع الشتات اليهوديّ لوجَدنا أن إسرائيل كانت مُجحفة بحقّ الثقافة اليديشية التي كانت ثقافة يهود شرق أوروبا، فعلى سبيل المثال لم يكن مسموحاً بوجود مسارح تُعرض عليها أعمال باللغة اليديشية، فيما كان يشعرُ يهود شرق أوروبا بالحرج من استخدام لغتهم الأم – اللغة اليديشية – للحديث في إسرائيل، ومثلما وصفها ديفيد بن غوريون: "سماعُ هذه اللغة المُزعجة يُؤذي أُذُنيّ". [64]

رابعاً، لم يكُن ازدراء الثقافات الأخرى موجوداً بشكل فعليّ في إسرائيل خلال الخمسة وعشرين الأولى من تأسيسها، وفي هذا السياق يُشير معهد الديمقراطية الإسرائيلية خلال إحدى الإحصائيات التي أجراها بأن نسبة 4.4 بالمئة من عينة البحث يرون بأن التمييز العُنصري الذي يمارسه الأشكناز ضد المزراحيين ليس سبباً حقيقياً للخلافات بينهم [65]، حيث يرون أن الأسباب الحقيقية للصراعات الداخلية في إسرائيل تتمثل في الخلافات بين المتدينين والعلمانيين، واليمين واليسار، والفقراء والأغنياء، بالإضافة إلى الصراع بين اليهود والعرب.

ويوضح الدكتور إليس بأن مرضاه دوماً يشعرون بالحيرة عندما يُخبرهُم بأنه مصري، أما مرضاه من العرب فلا يُصدّقون أصلاً أن اليهودَ عاشوا بالفعل في مصر في يوم من الأيام. بالتالي أصبَح الدكتور إليس يُخفي هويته كيهوديّ أمام البريطانيين باعتبار أن الدين أصبح موضوعاً يُحاول الكثير من البريطانيين تجنب الخوض فيه[44]. وتقول إحدى اليهوديات من أصل جزائري واصفة هويتها قُبيل قدومها من فرنسا إلى إنجلترا بأنها هوية يهودية قبل أي شيء آخر، وبأن يهوديتها كانت الجُزء الأصيل الذي لم تتخلّ عنه رغم تِرحالها من بلد لآخر قائلة: "لقد كُنت ولا زلت يهوديّة وهذا الجُزء الوحيد من هويّتي الذي لم ولن يتغيّر". [65]

قائمة المُلاحظات والحواشي

1. Jonathan Kaplan, ‘Absorbing the Exiles’, *My Jewish Learning* (no date), http://www.myjewishlearning.

com/article/absorbing-the-exiles/. (Last accessed 26 April 2017).
2. Joint Distribution Committee archives, ‘The 1950s’, http://archives.jdc.org/search-thearchives/.(Last accessed 26 April 2017).

3. Eli E. Hertz, ‘Arab and Jewish Refugees: the Contrast’, 2007, http://www.mythsandfacts.org/conflict/8/refugees.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

4. Joint Distribution Committee archivesvhttp://search.archives.jdc.org/multimedia/Documents/NY_AR_45-54/NY_AR45-54_Count/NY_AR45-54_00004/NY_AR45-54_00004_01102.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

5**.** Gabriel Lipschitz, *Country on the Move: Migration to and within Israel, 1948–1955* (Kluwer Academic Publishers 1998), Chapter 2.

6**.** Rebecca L. Torstrick, *The Limits of Coexistence: Identity Politics in Israel* (University of Michigan, 2000), p.235.

7. Raphael Luzon, *Libyan Twilight* (Darf, 2016), p.27.

8. Neta Alexander, ‘Alexandria of the 1940s was like Tel Aviv of the 1990s’, *Haaretz*, 19 September 2015, http://www.haaretz.com/israel-news/.premium-1.676412. (Last accessed 26 April 2017).

9. Eli Amir, *Scapegoat*, (Am Oved, 2012).

10. Yitzhak Bar-Moshe, *Exodus from Iraq*, in Ora Melamed (ed.) *Annals Of Iraqi Jewry: A collection of Articles and Reviews* Translated by Edward Levin, (Jerusalem: Eliner Library, 1995), pp.35765.

11. Yossi Sadan, ‘In exile from paradise’, *Haaretz*, 20 August 2010.
12. ChochanaBoukhobsa,’Rien sur l’enfance’ in Leila Sebbar (ed.) *Une EnfanceenMéditeranéemusulmane*(Bleu autour, 2012), p.186.

13. Rachel Shabi, *Not the Enemy: Israel’s Jews from Arab Lands* (London: Yale University Press, 2009).

14. Lyn Julius: ‘Rachel Shabi’s Mizrahi Post-Zionism: a critique’, *Fathom*, Autumn 2015, http://fathomjournal.org/rachel-shabis-mizrahi-post-zionism-a-critique/. (Last accessed 26 April 2017).

15. نفس المصدر

16. ‘HaKeshetHaDemocratitHaMizrahit’,*Wikipedia*, https://en.wikipedia.org/wiki/Mizrahi_Democratic_Rainbow_Coalition. (Last accessed 26 April 2017).

17. Sami Michael, ‘Israel, the most racist state in the industrialised world’ *+972 Magazine*, 9 August 2012, http://972mag.com/author-sami-michael-israel-is-the-most-racist-statein-

the-industrialized-world/52602/. (Last accessed 26 April 2017). Inter-ethnic tensions could be said to have boiled over in the Wadi Salib riots, Haifa, in 1959.

18. The Ramat Gan Committee of Baghdadi Jews, https://baghdadijews.wordpress.com/english/. See 'Ramat Gan Committee challenges Campaign', *Point of No Return*, 17 September 2012, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2012/09/ramat-gan-committeechallenges-refugee.html. (Last accessed 26 April 2017).

19. See Shabi, *Not the Enemy*, p.229.

20. See, for example, Ella Shohat 'The Invention of the Mizrahim', *Journal of Palestine Studies,*Vol. 29, No. 1 (Autumn, 1999), pp.5–20, http://www.jstor.org/stable/2676427. (Last accessed 26 April 2017).

21. See Meyrav Wurmser, 'Post–Zionism and the Sephardi Question', *Middle East Quarterly*, Spring 2005, pp.21–30, http://www.meforum.org/707/post-zionism-and-the-sephardiquestion. (Last accessed 26 April 2017).

22. Abbas Shiblak, *Iraqi Jews: A History* (Saqi, 2005), p.58.

23. Norman Stillman, *The Jews of Arab Lands*: *A History and Source Book*, Vol. II (Philadelphia, PA: Jewish Publication Society of America, 1979), p.23.

24. Esther Meir-Glitzenstein, *Zionism in an Arab Country: Jews in Iraq in the 1940s* (Routledge, 2004), pp.35–47.

25. G. Bensoussan, *Juifsen pays arabes: le grand déracinement*(Tallandier, 2012), p.436.
26. Achcar, *The Arabs and the Holocaust: The Arab-Israeli War of Narratives* (New York: Metropolitan, 2009), p.64.

27. Lewis, *Semites and anti-Semites* (New York: Norton, 1986), p.205.

28. Conversation with Rabbi I. Elia, 2015.

29. Doreen Wachmann, 'Shmuel Moreh goes from horrors of Iraq to prizewinning professor', *Jewish Telegraph*, July 2009.

30. Revd J. Parkes, *Arabs and Jews in the Middle East: A tragedy of errors* (London: Gollanz,1967).

31. Ofer Aderet, 'When Arabs and Mizrahi Jews dreamed of a joint homeland', *Haaretz,* 19 March 2017, http://www.haaretz.com/life/books/.premium-1.777951. (Last accessed 26 April 2017).

32. Yuval Avivi, 'Why is Middle Eastern culture missing from Israeli schoolbooks?' *Al-Monitor*, 8 March 2016, http://www.almonitor.com/pulse/originals/2016/03/mizrahiidentity-school-litterature-poets-arab-countries.html#ixzz42UM5szPg. (Last accessed 26 April 2017).

33. 'Deux acteurs de la Revolution Française', *Akadem*, http://www.akadem.org/medias/documents/Doc1_deux_acteurs_Revolution_Fr.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

34. A group of French- Jewish intellectuals belonging to the Cercle Gaston Crémieux have

taken this idea further, relinquishing both synagogue and Zionism to pursue the ideals of the French republic. See J. Friedman, 'Les juifs et le droit à la difference: entre l'idéal de l'état nation et le nationalisme des minorités', https://ccrh.revues.org/2811. (Last accessed 26 April 2017).

توسّع عدد من المفكرين واليهود الفرنسيين ممن ينتمون إلى المذهب الفكري لغاستون كريميكس بهذه الأفكار عبر محو أي صلة تربط بين الكُنُس اليهودية وبين الحركة الصهيونية من أجل إظهار التمسك والولاء للقيم الفرنسية.

35. E.H. Shohat, 'Reflections by an Arab Jew', *Bint Jbeil*, http://www.bintjbeil.com/E/occupation/arab_jew.html. (Last accessed 26 April 2017).

36. Edward Said, *Orientalism*, (Penguin, 2003).

37. Stephen Holden, 'Film review: born in Iraq, living in Israel, pondering issues of identity', *New York Times*, 5 December 2003, http://www.nytimes.com/movie/review?res=9E01E0D8173DF936A35751C1A9659C8B63. (Last accessed 26 April 2017).

38. See Julius, 'Rachel Shabi's Mizrahi Post-Zionism: a critique', *Fathom*, Autumn 2015.

39. See Shabi, *Not the Enemy*, p.102.

40. Remark attributed to the apostate Jew Abdullah Schaffer in *Al-Arabiya*. Quoted by Rodin New York *Point of No Return* blog, 14 August 2016, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2016/08/mizrahi-studies-to-be-mandatory-in.html?showComment=1471203358068#c9212166224335098127. (Last accessed 26 April 2017).

41. Oded Lifshitz, 'The flawed narrative of Israel's deprivation activists', *Haaretz*, 20 July 2016, http://www.haaretz.com/opinion/.premium-1.732108. (Last accessed 26 April 2017).

42. André Aciman, 'An Alexandrian in search of lost time', *Newsweek*, 2 June 2011.

43. RachelineBarda, 'The Second exodus of the Jews of Egypt 1948–67', unpublished PhD thesis submitted to Sydney University.

44. Ellis Douek interviewed by Bea Lewkowicz, *Sephardi Voices UK*, 2016.

45. Jocelyne Shrago interviewed by Bea Lewkowicz, *Sephardi Voices UK*, 2015.

46. Vered Lee, 'Conference asks: Iraqi-Israeli, Arab Jew or Mizrahi Jew?' *Haaretz*, 18 May 2008, http://www.haaretz.com/print-edition/features/conference-asks-iraqi-israeli-arabjew-or-mizrahi-jew-1.246035. (Last accessed 26 April 2017).

47. Eli Amir in conversation with Tsionit Fattal Kuperwasser at the Babylonian Heritage Center, Israel, April 2017.

48. Interview in *30 Days in the Church and the World*, no.10, 2005, published by the Synod of Bishops.

49. ‘Dudu Topaz arrested for ordering attack on TV executives’, *The Jerusalem Post*, 31 May 2009.

50. Lily Galili,’Up the down escalator’ *Haaretz* ,25 January 2007.

51. نفس المصدر.
52. Alex Shams interviewing Eyal Sagui Bisawe in *Jadaliyya*, 7 July 2015, http://www.jadaliyya.com/pages/index/22090/arab-film-on-israeli-television_an-interview-with-n. (Last accessed 26 April 2016).

53. T. Morad, D .Shasha and R. Shasha (eds), *Iraq’s last Jews*, (Palgrave Macmillan, 2008), p.70.

54. Micha Danzig, ‘The real intersectionality of European and Arab oppression and persecution of Jews and Africans’, *Times of Israel*, 22 August 20126, http://blogs.timesofisrael.com/the-real-intersectionality-european-and-arab-oppression-and-persecution-of-jews-and-africans/. (Last accessed 26 April 2016).

55. Lyn Julius, ‘How coexistence projects can hinder peace’, *Jerusalem Post*, 23 November 2011, also at *Point of No Return* http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2011/11/how-coexistence-projects-can-hinder.html. (Last accessed 26 April 2017).

56. Tom Mehager, ‘Why Mizrahim don’t vote for the Left’, *+ 972 Magazine*, 24 January 2015.

57. Daniel Greenfield, ‘Don’t excuse Muslim antisemitism’, quoted in *Point of No Return*, 24 January 2015, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2015/01/dont-excuse-muslim-antisemitism.html. (Last accessed 26 April 2017).

58. LoolwaKhazoom blog, ‘A piece is missing from this peace’, http://www.loolwa.com/archive/articles/pgs/piece.html. (Last accessed 26 April 2017).

59. نفس المصدر.

60. Roya Hakkakian, ‘Smelly little orthodoxies’, *Tablet*, 4 September 2014, http://www.tabletmag.com/jewish-news-and-politics/182845/iran-intellectual-left. (Last accessed 26 April2017).

61. Shohat, ‘Sephardim in Israel: Zionism from the Standpoint of its Jewish victims’, *Social Text*, Autumn 1988, https://palestinecollective.files.wordpress.com/2013/10/sephardimin-israel_-zionism-from-the-standpoint-of-its-jewish-victims.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

62. See Lee, ‘Conference asks’.

63. The snobbery of those who claimed to be *Sephardi tahor*(pure Sephardi) is legendary. Until the twentieth century it was unthinkable for a Sephardi to marry an Ashkenazi *todesco*(German). [‘A Spanish attitude’: Elias Canetti’s childhood reminiscences of Bulgaria 1905–1911’ in Julia Phillips Cohen and Sarah Abrevaya Stein (ed.) *Sephardi Lives* (Stanford University Press, 2014), p. 80]. Those Ashkenazim who had moved to Egypt were known by the majority Sephardi community as *schlechtes*(dirty). [1925 report by Julius Berger quoted in Gudrun Krämer, *The Jews in Modern Egypt* 1914 –52 (IB Tauris, 1989), p.87].

تكبُّر السفرديين وتعاليهم على الآخرين باعتبارهم "اليهود الأطهار" هي مجرد خرافة، وحتى مطلع القرن العشرين لم يكُن أي يهوديّ أو يهودية سفرديّ يفكر حتى بمجرد التفكير بالزواج من اليهود الأشكناز. وبالنسبة لليهود الأشكناز الذين انتقلوا للحياة في مصر فقد كان اليهود السفرديون يُطلقون عليهم إسم "اليهود القذرون".

64. Eli Kavon, 'When Zionism feared Yiddish', *Jerusalem Post*, 5 November 2014, http://www.jpost.com/Opinion/Op-Ed-Contributors/When-Zionism-feared-Yiddish-351939. (Last accessed 26 April 2017).

65. 'The social realm', *Israeli Democracy Index 2015*, p.69, http://en.idi.org.il/media/4256544/democracy_index_2015_eng.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

الفصل العاشر
خُرافات وأكاذيب وسَهَوات

ارتُكِبَت المُجزرة الشهيرة والمعروفة باسم الفرهود خلال العيد الشفْوعوت - عيد الأسابيع - اليهودي في الأول والثاني من شهر حزيران/يونيو من سنة 1941م، فحصدت هذه المذبحة أرواح المئات وأصيب خلالها الآلاف، وحتى اليوم لا يُعرف الرقم الحقيقي للضحايا، لكنه يتراوح ما بين مئة وخمسة وأربعين إلى ستمائة يهودي، هذا عدا عن النساء اليهوديات اللواتي تم اغتصابهن والبيوت والمصالح التجارية اليهودية التي تم نهبها وسرقتها، وفي الوقت الذي قام فيه عدد من العرب والمسلمين بمساعدة اليهود للنجاة بحياتهم، كان عدد آخر يقوم بمساعدة المُعتدين في هجومهم على جيرانهم اليهود. استمرت أحداث هذه المجزرة على مدار يومين متتالين حتى تدخّلت القوات البريطانية وبدأت بالاحتشاد على مشارف مدينة بغداد ومن ثم قامت بإيقاف المُعتدين. بالتالي فإن مجزرة الفرهود تشكل علامة فارقة في تاريخ يهود العراق،إذ نزح جميع يهود العراق عن بكرة أبيهم بعد مضي عشر سنوات على ارتكاب هذه المجزرة، فكانت بمثابة جرح نازف لم يُفارق مخيلة من عاصروا أحداث المجزرة ونجوا منها.

لقد كانت هذه جميعها المُعطيات والحقائق المتعلقة بهذه المجزرة إلى أن حاولَ بروفسور إسرائيلي تغييرها [1]. بدأت القصة عندما سمعتُ مُحاضرة للبروفيسور ساسون سومِخ في جامعة فاندربيلت الأمريكية، وهو أستاذ فخريّ ومُحاضر للأدب العربي المُعاصر في جامعة تل أبيب، وقد بدَت إحدى الفقرات التي ذكرها في محاضرته مثيرة للجدل بالنسبة لي حينما قال: "على الرغم من مقتل قرابة مئة وخمسين يهودياً في أحداث الفرهود، إلا أننا على ما يبدو نسينا أن هنالك مئتا مسلم قُتلوا في الأحداث نفسها لا لسبب سوى أنهم كانوا يُدافعون عن جيرانهم اليهود، وهذه حقيقة يجبُ أن تُدوّن في التاريخ ويتم تسليطُ الضوء عليها بكل وضوح". [2]

لاحِقاً تحدّثتُ مع سليم فتّال بخصوص هذه الجُزئية التي ذكرها البروفيسور ساسون سومِخ في محاضرته بعد أن استشعرت وجود مغالطة فيما ذكره. وسليم فتّال هو إعلامي وكاتبٌ يهودي عراقي قام بإجراء عشرات المُقابلات مع يهود نَجوا من أحداث الفرهود. لاحِقاً قام سليم بمُراجعة البروفيسور ساسون حول هذه الجُزئية، فادّعى البروفيسور ساسون بأن صحفياً من جريدة فاندربيلت هو الذي سبّب سوء التفاهم لأنه لم ينقُل خطابه في المحاضرة بشكل دقيق، لكن البروفسور لم يكُن يعلم بأن محاضرته قد تم تسجيلها بالتالي بإمكان الجميع أن يسمع ذلك الجُزء من خطابه بكل وضوح. [3]

وقد قام سليم فتّال بالردّ على ادّعاءات البروفيسور ساسون وتفنيدها قائلاً: "إن هذه النظرية الجديدة التي تفضّلت بها حول تضحية مئتين وخمسين مُسلماً بأروحهم من أجل إنقاذ حياة اليهود هي مُجرد هُراء، وهي مُحاولة سخيفة لتجميل الصورة الدموية التي ارتُكِبَت بها المجزرة، وفي أحسن أحوالها ربما تهدف محاولتك هذه لتغيير الحقيقة القائلة بأن المُجتمعات العربية لا تُكِنّ مشاعر الحقد والعداء لليهود ولا تكترثُ كثيراً بما يحلّ باليهود من ويلات ومآسي. ولا يخفى على أحد بأن مذبحة الفرهود قد ارتُكِبَت في وقت كان الرأي العام في العراق وفي عدد آخر من الدول العربية مؤيّداً للنظام النازيّ في ألمانيا ومُعادياً للإنجليز واليهود. لقد تعرَضَ خالي مئيرخاليف وشريكه ناحوم قزّاز للاغتيال خلال هذه المذبحة، ولم نتمكن من إيجاد جثثهم حتى يومنا هذا، ولم نكلّ أو نملّ من البحث عن جثثهم وتتبع آخر آثار لهُم خلال سنوات طويلة، وخلال بحثنا الدؤوب عن جُثّتيهما لم نسمع أبداً عن مثل هذه الخرافة التي ذكرتها في مُحاضرتك".

ومثلما ذكرتُ سابقاً فقد قام سليم فتّال خلال عمله في التلفزيون وخلال الأفلام الوثائقية التي أنتجها بإجراء مُقابلات مع أكثر من مئة يهودي عراقيّ من الناجين من مذبحة الفرهود، ولم يسبِق له أن سمع من أي منهُم عن مُسلمين قُتِلوا أثناء دفاعهم عن جيرانهم اليهود أثناء ارتكاب المذبحة، بل ولم يذكُر أيٌّ منهم مقتلَ أي مسلم حينها لأي سبب كان، وما سمعه منهُم كان مُختلفاً تماماً عن هذا الإدعاء، حيث انضمّ العراقيون المُسلمون من أحياء مُجاورة إلى الحشود التي ارتكبَت المذبحة بهدف قتل اليهود وسلب ممتلكاتهم وبيوتهم ومصالحهم التجارية. من جهة ثانية فإن هذا الادعاء الكاذب ومحاولة قلب الحقائق تشكل إهانة للمُسلمين الأبطال الذين قاموا بالفعل بإنقاذ جيرانهم اليهود.

يُتابع سليم ردّهُ على ادعاء البروفيسور ساسون قائلاً: "لو افترضنا جدلاً مقتل مئتين وخمسين مُسلماً خلال مذبحة الفرهود، فهذا يعني أن العدد الإجمالي للضحايا يبلغ أربعمائة ضحية بعد إضافة مئة وخمسين ممن قُتلوا من اليهود، بالتالي فإن نسبة المُسلمين القتلى تبلغُ خمسة وستين بالمائة في حين تبلغ نسبة القتلى اليهود خمسة وثلاثين بالمئة، الأمر الذي يعني أن المذبحة كانت تستهدفُ المُسلمين لا اليهود إذا فكرنا منطقياً في هذه الأرقام! بالتالي هل تعتقدُ أن أي شخص عاقل سيصدقُ هذا الادعاء السخيف الذي تدّعيه؟ لا أحد يُنكر قيام عدد من المُسلمين بحماية جيرانهم اليهود وإيوائهم في بيوتهم حتى لا يتعرضوا للقتل، لدرجة بلغت ببعضهم أن يقف في وجه من يُحاول الإعتداء على اليهود قائلاً لهم: إذا أردَت أن تقتل جاري اليهودي فعليك أن تقتلني أولاً! لقد كان هؤلاء أناساً نُبلاء بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ولم يُقتل منهُم أحد على الإطلاق. بالتالي لم يقُم حشدُ المسلمين الذي ارتكبَ المذبحة بقتل أي مُسلم أبداً، وما حدثَ حينها هو مقتل بضع مئات من المسلمين في اليوم التالي من أحداث مذبحة وكان هذا على يد قوى الأمن التي حاولت فرض النظام، بالتالي مَن قتلوا من المُسلمين كانوا من مُرتكبي المذبحة".

كان يسعى هذا "المؤرخ الإسرائيلي الجديد" جاهِداً لضربِ وتزييف ثوابِت الرواية الإسرائيلية الصهيونية وحقائق ما حدث من مجريات في حرب الاستقلال سنة 1948م، ومُعطيات رواية أحداث الفرهود والسرد الحقيقي للأحداث، خاصة بعد أن بدأ التاريخ اليهودي العراقيّ يُكتبُ بما فيه من أحداث ومذابح واعتداءات مُعادية لليهود. وقد قرّر سليم فتّال تأليف كتاب لتسليط الضوء أكثر على هذه المواضيع وغيرها بعد أن أدركَ أن الحقل الأكاديمي الإسرائيلي يشوبه خلل ما إذا ما كان يسمحُ لشخص مثل ساسون سوميخ بأن يُحاضر ويعمل في الجامعات الإسرائيلية، مُعتبراً أن وجود شخص بهذه العقلية في الجامعات الإسرائيلية يُشبه وجود صنمٍ في الهيكل اليهودي المُقدّس، خاصة وأنه لا يُحاول تشويه الحقائق المتعلقة بمذبحة الفرهود فحسب، بل يُقوم أيضاً بمهاجمة الأكاديميين والمؤرخين الآخرين الذين يقومون بتوثيق أحداث التاريخ عبر أجنداته السياسية المُناهضة للفكر الصهيوني". [4]

بالتالي فإن تزوير الحقائق فيما يتعلّق بما ذكرناه حول مذبحة الفرهود يتحمّلُ مسؤوليتهُ يهود الدول العربية، لأن بعضهُم يقوم فِعلاً بتزوير الحقائق بهدف "تجميل صورة العرب"، وهذا أمر يُمكننا رؤيته على أنه أحد الأعراض الجانبية لُمتلازمة أهل الذمة التي عاشها يهود الدول العربية لحقبة طويلة من الزمان رأوا فيها الإهانة والإذلال والاضطهاد بكافة أشكاله. في الوقت نفسه فإن وجودَ يهود الدول العربية في دول يتمتعون فيها بالحرية مثل إسرائيل والدول الغربية ليس كفيلاً بإعادة ثقتهِم بأنفسهم، كما أنه ليس كفيلاً بأن يمنحهُم القوّة الكافية للشعور والتمتع بهذه الحرية والبوح أكثر عماً عاشوه من تجارب مروّعة، فعلى سبيل المثال يذكرُ أحد اليهود المغاربة ويُدعى مُردخاي بأنه لم يُحدّث أحفاده عن قصّة حياته في المغرب، وكيف أنه اضطر للتخلّي عن بيته وممتلكاته ومصنعه الكبير الذي كان يمكله في مراكش بل وتخلّى عن وطنه لينتهي به المطاف في إسرائيل بلا شيء. وبالنسبة لابنته راشيل فقد كانت تُعاني من أحد الأمراض النادرة عندما كانت في المغرب ورفض الأطباء علاجها لأنها كانت يهودية، وانتهى بها المطاف إلى فقدان بصرها لأنها لم تتلقّ العلاج المُناسب. لكن بطبيعة الحال لا زال يُخفي مُدرخاي السبب الحقيقي وراء نزوحه من المغرب إلى إسرائيل، فيقول لأولاده وأحفاده بأن دافعه الوحيد للمجيء إلى إسرائيل هو أنه يهوديّ صُهيوني". [5]

وهنالك مجموعة أخرى من اليهود ممن يُحبون لعب دور "سُفراء النوايا الحسنة" للدول العربية، خاصة دولتي تونس والمغرب، وبالعادة يكون هؤلاء من اليهود الذين كانوا ينتمون للطبقات البرجوازية والذين تمكنوا عبر دفع الرشاوى هُنا وهناك من الخروج بسلام من تلك الدول وتجنب المآسي والويلات التي تجرّع مرارتها من كانوا ينتمون للطبقات الفقيرة. كذلك فإن المصالح التجارية المُتبادلة تُحتّم على أمثال هؤلاء أن يُقلّلوا من شأن معاناة اليهود والمرارة التي تجرّعوها في تلك الدول، والتأكيد مِراراً وتِكراراً على العلاقات "الأخويّة" التي جمعَت اليهود والعرب في الدول العربية. [6]

في الوقت نفسهِ توجدُ مجموعة ثالثة من يهود الدول العربية ممن يتنكّرون لمعاناتهم حسب تعبير روبرت سَتلوف المذكور في كتابه "بين الصالحين" والذي يذكر فيه وجود عدد من اليهود الذين يمدحون مُعاملة الدول العربية لهم، بل ووصلت بهم الأمور إلى درجة القول بأن النازيين لم يكونوا بتلك الدرجة من السوء!

يقول روبرت سَتلوف في كتابه: "لقد كانوا آخر ما تبقى من المجتمع اليهودي الذي احترف فنّ الصراع من أجل البقاء، أحياناً تمتعوا ببعض الحماية والازدهار لكنهم في غالبية الأحيان عوملوا بشتى انواع الاساءة كمواطني درجة ثانية خلال ألف وأربعمائة سنة من الحكم الإسلامي. وعلى الرغم من تلك المعاملة المهينة إلا أنهم كانوا متقبلين لجلاديهم. إن صمتهم حيال ما تعرضوا له من قمع واضطهاد من قبل حلفاء النازيين والفاشيين في حكومة فيتشي كان آخر حلقة من مسلسل هذا الصمت الطويل". [7]

وبصراحة فإنني لا أجد ما يُبرر إنكار اليهود لما عانوه من مآسي، لكن اليهود الذين عاشوا في منطقة بلاد الشام معروفون بتردّدهم في البوح والحديث عن تجاربهم الخاصة، وذلك لأسباب تُعزى الى الثقافة التي نشأوا فيها، أي ثقافة "الشرف والعار" التي تُقيّد حديثهم عن تلك الذكريات المأساوية، فهم يعتبرون أن الحديث عما تعرّضوا له من ألم وإذلال أمراً مُهيناً لكرامتهم. من ناحية أخرى فإن هذا الصمت قد يُعزى إلى حالة "الاستعمار الداخلي" التي يشعرون بها نتيجة متلازمة أهل الذمة التي عانوا الأمَرّين منها في البلدان العربية والاسلامية، هذه المتلازمة التي تجلعهُم يعبّرون عن "تقديرهم وامتنانهم" لما رأوه من "تسامح" في تلك البلدان.

إن بقاء اليهود في البلدان العربية والإسلامية كان مرتبطاً بدرجة وثيقة في اصطفافهم مع من يمسك بزمام الدكتاتوريات في تلك الدول، وهنا استحضر مثالاً على هذا التملّق عندما أقام المُجتمع اليهودي المصري - على الرغم من عدده المحدود جداً - إفطاراً للمسلمين في شهر رمضان سنة 2014م [8]، وقيام المُجتمع اليهودي - الذي يتضاءل عدد اليهود فيه مع مرور الوقت - في تركيا بالأمر نفسه سنة 2015م. [9]

وهنالك أيضاً من يقوم بمثل هذه الأفعال المتملّقة مثل روجر بيسموث، وهو أحد كبار الشخصيات اليهودية في تونس والذي عبّر عن عظيم تقديره وامتنانه للرئيس التونسي السابق زين العابدين بن علي - الذي تسلّم الحكم في تونس منذ انقلاب سنة 1987 - خلال مقابلة أجراها معه لاري لَكسنر من صحيفة "جِويش تيليغراف"، فيقول روجر في المقابلة:" الرئيس يُعاملنا بشكل جيد، وقد قام باستعادة وترميم الكُنُس اليهودية وضمان الأمن والأمان لليهود في تونس"[10]. لكن المَحك في الموضوع هو ما حدث بعد سقوط زين العابدين بن علي وعزله من الرئاسة التونسية سنة 2011م واتهامه بالفساد والمحسوبية أثناء حكمه الدكتاتوري، حيث غيّر روجر بيسموث رأيه في زين العابدين بن علي كلياً وذلك حتى تتلاءم مواقفه مع الوضع الجديد في تونس، فيقول روجر: "لقد كان زين العابدين بن علي شخصاً مُلتوياً، فقام هو وعائلته بسرقة ممتلكات الشعب والدولة، فقاموا بتدمير كل شيء في سبيل بقائهم في السلطة". [11]

الصمتُ والتَحريف

بدأت الخُرافات والأكاذيب تنتشرُ في النار كالهشيم فيما يتعلق بيهود الدول العربية خاصة في ظلّ عقود من الصمت المُدقع عمّا عايشوه من تجارب مريرة في تلك الدول، ومثلما يقول جين كلود نِدّام الرئيس السابق للوحدة القانونية في وزارة العدل الإسرائيلية: "لقد سمَحنا للفلسطينيين والعرب بكتابة تاريخ اليهود في الدول العربية لأننا ببساطة لم نكتبه بأنفسنا" [12]. في الواقع، لم تبذُل إسرائيل والدول الغربية جهوداً كافية بهدف التعريف بقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية، بل كانت مساعيهم في هذا الصدد خجولة ولم تتلقّ التمويل اللازم لها، وبدأت تواجه عقبات ومصاعب منها ما كان سببهُ أيديولوجياً مُتعمّداً ومنها ما لم يكن متعمّداً، فحدث ما يُمكننا وصفه بعملية "استعمار وقَرصنة للحقائق".

وهنالك سببٌ آخر يُقفُ خلف تغييب وتهميش النكبة التي تعرّض لها يهود الدول العربية، وهو أن المُجتمعات اليهودية وقياداتها في الشتات خارج إسرائيل يبذلون جهوداً مُضنية للدفاع عن إسرائيل ومُحاربة ظاهرة معاداة السامية خاصة في الدول الغربية، حيث تنصبُّ جهودهم بشكل مُباشر على التعريف بالهولوكوست وما يحدثُ حالياً في أوروبا، لا على الدمار الذي لحق بالمُجتمعات اليهودية في الدول العربية والإسلامية. بالتالي تنظرُ المُجتمعات اليهودية في الشتات - والتي يُهيمنُ عليها اليهود الأشكناز- إلى قضيّة اليهود المزراحيين على أنها شأن خاص باليهود المزراحيين والسفرديين، حيثُ لم يُكُن حُبّ اليهود المزراحيين للثقافة والفلكلور الشرقي من فن وعادات وتقاليد وموسيقى في الإعلام والصحافة وتعلّقهم بها مُجدياً بأي شكل من الأشكال لإظهار مأساوية ما تعرضوا لها في المُجتمعات العربية.

أما بالنسبة لليهود الليبراليين في الولايات المتحدة الأمريكيةفإنهم يتعاملون مع إسرائيل من منظور الصراع العربي والإسرائيلي، ويُعطون لمخاوفهم في تعاملهم معها بُعداً حضارياً واجتماعياً على المستوى العالمي، وفي هذا الصدد أذكر قصّة لصحفيّ لم يستطع نشر مقالة له في الصحف الأمريكية اليهودية لأنها تتحدث عن مستوى الفقر في الأوساط اليهودية المزراحية في إسرائيل، فيعلق على ما حدث قائلاً :"يبدو أن قضيّة الفقر في إسرائيل ليست مُثيرة للاهتمام أبداً بين الأوساط اليهودية، وربما ستحظى باهتمامهم في حال تم تغليفها بغطاء لقضية عالمية مثل إصلاح وتغيير العالم".

والحال نفسه بالنسبة لليهود الأفارقة الذين ليسوا بتلك الدرجة من الأهمية حتى يحظوا بانتباه اليهود الليبراليين في أوروبا، في حين أن قضية اللاجئين الأفارقة من عير اليهود تحظى بانتباههم واهتمامهم بدرجة كبيرة [13]. أما بالنسبة لمعاداة العرب والمُسلمين لليهود ومعاداتهم للسامية فهي أيضاً قضية ليس لها نصيب في سلم أولوياتهم واهتماماتهم [14]، حيث يتعاملون معها وكأنها غير موجودة أصلاً عندما يكون مصدرها من المسلمين. من ناحية أخرى نرى كيف تحتلّ ظاهرة معاداة الإسلام - الإسلاموفوبيا - حيزاً كبيراً من اهتمامِهم.

وحتى عند التطرّق لقضيّة النزوح والتهجير الجماعي لليهود من الدول العربية فإنه لا يُنظر إليهم على أنهم ضحايا أبداً، فيعتبرون أن قضيتهم قد تمت تسويتها منذ زمن طويل. كذلك يتواجدُ اليهود أعلى هرم المجموعات التي أصبحَ يطلقُ عليها حديثاً لقب "منظومات الظُلم والقمع"، فيُنظر إليهم على أنهم مجموعة تتمتع بالقوة والسلطة على الرغم من تاريخهم الطويل الذي أمضوه كأقلية مُستضعفة بين المُجتمعات على اختلافها، ويُنظر إليهم على أنهم "جُزء من العرق الأبيض" على الرغم من أصولهم العِرقية الضاربة في أعماق منطقة الشرق الأوسط.

وعندما قامَت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بإضافة خانة "الشرق الأوسط" إلى المجموعات العرقية للسكان في الولايات المتحدة، شعرَ المواطنون اليهود الأمريكيون بالتردّد حيال إضافة أسمائِهم في هذه الخانة حتى لا يتم تصنيفهم بناءاً على لون بشرتهم [15]، حيثُ كانوا يَطمحون إلى التأكيد على هويتهم اليهودية قبل أي تصنيف آخر بالتالي لا تسهلُ عملية انصهارهم في الولايات المتحدة. وكان من ضمنهم يهودٌ مزراحيّون ممن شعروا أيضاً أن عدم إضافتهم في خانة السكن الشرق أوسطيين ستُشعرهم بنوع من عقدة الذنب لأن سطان الشرق الأوسط تعرضوا لشتى أشكال المعاناة المبنية على أساس إثنيّ بينما لم يتعرّضوا هُم لمثل هذه التجارب. [16]

أما في إسرائيل فلا زالت النخبة السياسية اليهودية الأشكنازية ترفضُ الحديثَ والتطرّق لقصةِ اليهود المزراحيين على الرغم من أنهم يشكلون هُم وجميع من انحدَر من نسلهم غالبيةَ سكان المُجتمع الإسرائيلي، وحتى المنظومة التعليمية فإنها لم تبذل جُهداً كافياً من أجل تسليط الضوء على قصة اللاجئين اليهود من الدول العربية وتاريخهم وثقافتهم. في الوقت نفسه لو سألتَ أي طالب مدرسة إسرائيلي عن مظاهرات كيشنيف سنة 1903م التي راح ضحيتها تسعة وأربعون يهودياً فإنه سيُخبرك بأدقّ التفاصيل عنها، لكن لو سألت غالبية الطلبة في إسرائيل عن مذبحة الفرهود التي حصدت أرواح مئة وتسعة وسبعين يهودياً عراقياً فستجد أنهم بالكاد يعلمون أي شيء عنها. كما أن الطلبة يدرسون بإسهاب عن تاريخ الهجرات اليهودية الأشكنازية الأولى لأرض إسرائيل – المعروفة باسم بيلئيم - وكيف أسس الروّاد الأشكناز الأوائل اليشوڤ وغيره، لكنهم لا يدرسون عن المُهاجرين اليمنيين الاوائل والذين سبقوا اليهود الأشكناز إلى إسرائيل.

وسنة 1997م قام الفنان اليهودي مئير غال بالتقاط صورة ساخرة أطلق عليها اسم "تسعة من أصل أربعمائة"، حيث ظهر مئير في الصورة وهو يضعُ بين يديه تسع صفحات من داخل أحد الكتب المدرسية، موضّحا أن هذه الصفحات التسعة فقط هي التي تتحدّث عن تاريخ اليهود في الدول العربية والإسلامية من أصل صفحات الكتاب البلغ عددها أربعمائة صفحة. [17]

كما أن هذا الرفض اليهودي الأشكنازيّ لأي منهجية مُتوازنة في تعليم التاريخ تنعكسُ أيضاً على مظاهر الحياة العامة والإعلام أيضاً، بل ووصل الأمر إلى حد حذفِ أجزاء من التاريخ عندما يتعلق الموضوع بالتاريخ المِزراحي، وبالنسبة للمسؤولين الرسميين في إسرائيل فإنك بالكاد تجدُ أياً منهُم يتحدّث عن اللاجئين اليهود من الدول العربية على الرغم من أن عددهم قد بلغ 850,000 لاجئ يهودي. وباستثناء بعض المُحاولات المتواضعة لإدخال المزيد من المُحتوى اليهودي المزراحي التعليمي في المناهج الدراسية - استناداً إلى توصيات وتقرير بيتون -، فإن السياسة الإسرائيلية العامة في مجالي التعليم والدبلوماسية التي يُهيمن عليها اليسار الأشكنازي لا زالت تؤكد على أن النكبة اليهودية لا وجودَ لها على الإطلاق، بالتالي يجبُ ألا يتم التطرّق لها في كتب التاريخ.

كذلك وجّهَ المُخرج السينمائي ذو الأصول العراقية دوقي ضرور الاتهام إلى اللجنة الفنية المسؤولة عن اختيار الأعمال الفنية في النظام التعليمي الإسرائيلي - المعروفة باسم سَلّ تَربوت بالعبرية والتي تُعنى بالمشاريع الثقافية والتعليمية في المدارس الإسرائيلية - قائِلاً بأن هذه اللجنة تُحاولُ أن تمسحَ ألفي سنة من التاريخ اليهودي في دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا من خلال رفضها لتدريس فيلم "ظِلٌ في بغداد"، هذا الفيلم الذي يتحدّث عن الرحلة الطويلة التي خاضتها اليهودية العراقية لِندا منوحين من أجل البحث عن أي أثر لوالِدِها الذي تم اختطافه سنة 1972م، ومنذ ذلك الحين لم يُعرَف عَنه أي شيء.

وبالرغم من أن اللجنة أقرّت بأن فيلم "ظِلٌ في بغداد" - الذي تم عَرضُه في العديد من المحافل الدولية والعالمية - هو أحد الأفلام القليلة التي تسلّط الضوء على حياة اليهود في الدول العربية والإسلامية، إلا أنها رفضت إدراج الفيلم في النظام التعليمي لأن المشاهد العنيفة للشنق والإعدام الموجودة في هذا الفيلم لا يجبُ أن تُعرَضَ أمام الأطفال. والفيلم يتطرّقُ لأحداث الشنق التي تعرّض لها اليهود في بغداد عارضاً مشاهد حقيقيّة لإعدام تسعة يهود عراقيين في ساحة التحرير في العراق سنة 1969م بعد أن تم توجيه الاتهامات لهم بأنهم عُملاء. وهُنا يُعلّقُ ضرور على سبب رفضِ اللجنة لهذا الفيلم قائلاً بأن الأطفال في المدارسة الإسرائيلية يرونَ دوماً مشاهد العنف التي حدثت أثناء الهولوكوست والتي يتم عرضها أمامهم في الأفلام الوثائقية.

كذلك تُعاني إسرائيل من تبعات سيطرة تيار يساريّ على وزارة التربية والتعليم الإسرائيلية [18]ممن لا يجدون أي مُشكلة في تعليم طلبة المدارس الإسرائيلية عن النكبة الفلسطينية، بينما يُعارضون تعليمهم عن الثقافة والتاريخ اليهوديّ المزراحيوالسفرديّ الذي يُشكل جزءاً لا يتجزّأ من التاريخ اليهودي ككل. بالتالي فإن مثل هذه العقليات تقوم عملياً "بتعريب" المناهج الدراسية الإسرائيلية، الأمر الذي يعني إطلاق حُكم الإعدام على كل ما له علاقة بالثقافة اليهوديّة في البلدان العربية بل واختفاءها تماماً من المناهج الدراسية وكأنها لم تكن موجودة أصلاً.

صورة يظهر فيها نصبٌ تذكاري موجود في منطقة رماتغان لليهود العراقيين الذين تم اعدامهم في بغداد سنة 1969م

والأمثلة زاخرة وعديدة على العواقب الكارثية لمثل هذه العقلية، فاللهجات المميزة ليهود الدول العربية والتي تم الحفاظ عليها لآلاف السنين ستختفي من الوجود إذا لم يتم تدريسها في المدارس، أضِف إلى ذلك أن المحاولات الحثيثة لتدريس اللغة العربية لليهود في المدارس الإسرائيلية [19] من شأنها أن تقضي على أي محاولة للحفاظ على اللهجات اليهودية العربية وتعليمها للطلبة اليهود في حال كان هنالك إصرار على تعليم اللهجة الفلسطينية في المدارس الإسرائيلية. بالتالي فإن السؤال الذي يطرحُ نفسه بقوّة في ظلّ هذه المُعطيات: إذا كان اليهودُ أنفسهم يُخفونَ الحقائق ويخجلون من توثيق تاريخهم بل ويتجاهلونه وبالكاد يتطرقون له في الكتب التعليمية الإسرائيلية، كيف سيكون بإمكاننا الوقوف أمام محاولات تزييف وتحريف الرواية الحقيقية ليهود الدول العربية والإسلامية؟ وكيف بإمكاننا إقناع العالم بعدالة قضيّتهم ومشروعية مطالبهم؟

وبالنسبة للكُتُب والمؤلفات التي تتطرّقُ للصراع العربي الإسرائيلي فإنه بالكاد يوجدُ أي مُحتوىً يتطرّقُ لقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية والإسلامية، والأمر نفسه يحدث في وسائل الإعلام الإسرائيلية التي بالكاد تتطرق لهذه القضية أيضاً، خاصة في ظل استحواذ وهيمنة قضية اللاجئين الفلسطينيين على مُحتوى وسائل الإعلام. وفي محاولة لتفسير مثل هذه التصرفات فإن البعض يعتقدُ بأن مصدرها هو حالة الهَوَس التي يعيشها اليهود الأشكناز نتيجة ما تعرَضوا له في الهولوكوست، خاصة وأن الصراع الفلسطينيّ الإسرائيلي يمثل فُرصة لإظهار القيم والأخلاق الفاضلة من خلال التأكيد على أن الفلسطينيين هُم الضحايا الوحيدون للصراع وهم الذين دفعوا ثمن الظلم الإسرائيلي. وحتى يتم وضع حدّ لما يحدث من قرصنة وتحريف للحقائق فإنه يجبُ تقديم الرواية الفلسطينيّة بصورة مُختلفة وأكثر اتّزاناً، خاصة وأنه عادة ما يتم إظهار النكبة الفلسطينية والهولوكوست على أنهما وجهان لعملة واحدة، مما يجعلُ الإسرائيلي يأتي إلى الدنيا حاملاً في رقبته خطيئة الفلسطيني وكأنه السبب في جميع المآسي الفلسطينية، وما يجبُ أن يحدثَ فعلاً هو تصوير النكبة الفلسطينية والنكبة اليهودية للاجئين اليهود من الدول العربية على أنهما وجهان لعملة واحدة، وهي قضية اللجوء.

وعلى الرغم من كون قضية نزوح اللاجئين اليهود من الدول العربية تعتبرُ واحدة من أكبر قضايا اللجوء والنزوح في العالم العربي - قبل أن تندلع الحرب الأهلية السورية وقبل ظهور الدولة الإسلامية في العراق -إلا أن القصة المَنسيّة للاجئين اليهود تكادُ تكون مُختفية تماماً من أي تغطية إعلامية عربية للصراع الفلسطيني الإسرائيلي، فعلى سبيل المثال رفضَت صحيفة الواشنطن بوست تغيير أحد الرسومات البيانية التي تُظهر عدد اللاجئين في العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية [20] ، حيثُ حذفَت من هذا الرسم البياني أي معلومة تتعلّقُ باللاجئين اليهود من الدول العربية. [21]

من ناحية أخرى فإن عملية القرصنة و"الاستعمار" للحقائق المُتعلقة بقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية تؤثر سلباً على المجال الأكاديمي أيضاً، خاصة في تظل تسييس كل الدراسات الأكاديمية والبحوث المُتعلقة بالتاريخ المُعاصر لمنطقة الشرق الأوسط نتيجة لأموال النفط العربي التي يتم إغداقُها في الجامعات والكليات الأوروبية المُتخصصة بالدراسات الشرق الأوسطية، مؤدية إلى إفساد منهجيتها العلمية وموضوعيتها في البحث العلمي في هذا السياق، حيث يتم استخدام الشماعة الفارسيّة لإخفاء حقيقة تهجير اليهود المِزراحيّين على يد الحكومات العربية. وعندما يتمّ التطرّق أكاديمياً لِموضوع العَلاقات اليهودية الإسلامية فإن تلك الجامعات عادة ما تستخدمُ منهجاً يقوم بتنقية نقاط الاختلاف والفرقة بين الجانبين أو يتحاشاها كُلياً بما يُمكننا وصفه على أنه "إنكار لأهل الذمة"، أي النسخة الشرقيّة من إنكار ما حدثَ في الهولوكوست، ومَن يتجرّأ على التطاول والحديث عن معاداة السامية الإسلامية فإنه سيتهمُ فوراً بالإسلاموفوبيا (مُعاداة للإسلام). [22]

كَما أن أي مُحاولة لتصحيح وتقويم المنهج العلمي للدراسات الشرق أوسطية ستُقابلُ بحاجز يمنع استمراريتها على الفور، وفي هذا السياق يقولُ البروفيسور جِفري هيرف: "إن تجاهلَ الحقيقة بخصوص القواسم المُشتركة العديدة بين الديانة الإسلامية والحركة النازية والتيار اليمينيّ الأوروبي قد أصبحَ نَهجاً يسارياً أكاديمياً يتجاهل وجود الفكر الاستعماري لدى تلك الأيديولوجيات، ومن يرغبُ في دراسة تاريخ مُعاداة الساميّة فإنه لن يجدَ مواداً ثرية لبحثه سوى الأبحاث والدراسات اليسارية التي تتذرّعُ دوماً أنها أبحاث "مُناهضة للعنصرية"[23]. بالتالي فإن جميع الجهود والظروف المُحيطة بهذا المجال تقودُ أولاً وأخيراً إلى مُحاربة أي دراسة مُتزنة وموضوعية لهذه القضية وما شملته من أحداث التاريخية، خاصة وأن أرشيف هذه القضية الموجود في الدول العربية لا يزال في طيّ الكِتمان حتى يومنا هذا.

وقد رافقَ ثورات الربيع العربي ظهور قدر أكبر من الاهتمام بقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية، اهتمام رافقه رغبة كبيرة لدى المُثقفين والمفكرين العرب بالتعبير عن آرائهم بخصوص هذه القضية بكل حرية. في الوقت نفسهِ لم يكن هناك أي تغيير يذكرُ في عقلية الأكاديميين العرب الذين كانوا ولا زالوا يتبعون ما يُمليه عليهم حُكام أنظمتهم لأن الدول العربية باختصار ترفضُ رفضاً قاطِعاً تحمل مسؤولية طرد وتهجير اليهود والاعتراف بهذه الحقيقة، وحتى بعض الدول التي تعترف بما حدث مثل المغرب فإنها تُحمّل اليهود مسؤولية ما حلّ بهم تبعاً لتصريحات بعض المؤرّخين والباحثين في التاريخ اليهودي مثل الباحث محمد قنبيب.[24]

وإذا ما استثنينا الأستاذ مارتِن غِلبرت صاحب كتاب "في بيت إسماعيل"، فإننا سنجدُ أن عدد الباحثين والمؤرخين الغربيين المُختصين في التاريخ اليهودي في منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا محدودٌ جداً، وأبحاثهم بالكاد يوجد لها أي تأثير في الرأي العام الغربي. كما سنجدُ أن الباحثين المُختصين بقضايا الشرق الأوسط يتجاهلون قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية ويقللون من حجم مأساويتها، بل ويصل الأمر ببعضهم إلى درجة تبرير هذا الاضطهاد الذي تعرّض له اليهود، وهذا ما وصفهُ الصحفي بن ضرور يَميني عبر قوله "قوّة الجَهل"، حيث أنه قلبَ العبارة المعروفة لميشيل فوكو "الجهلُ بالقوّة" لتوضيح ما يحدث [25]. وبالعادة يستغلّ ناشرو الأخبار المُضللة والبروباغندا هذا الجهل المُدقِع بقضية اليهود المزراحيين من أجل تعميق الكذبة القائلة بأن يهود إسرائيل قد جاؤوا من أمريكا وأوروبا فقط ولم يأتوا من أي مكان آخر.

ويقومُ الأكاديميّون والنشطاءُ "التقدّميون" و"المُنفتحون" بمقارنة أقل ما توصفُ به على أنها كارثية ومُدمّرة، وهي المقارنة بين ما حلّ باليهود في الهولوكوست على أيدي النازيين وما حلّ بالفلسطينيين في النكبة على يد إسرائيل، بالتالي ينظرون للمسألتين وكأنهما بنفس الدرجة من التكافؤ، بل ويذهبون بهذه المُقارنة إلى ما هو أبعد من ذلك قائلين بأن "الفلسطينيين" هُم من دفعوا ثمن الهولوكوست وما حلّ بيهود أوروبا عقب ذلك.

إن طبيعة الحوار والنقاش حول الصراع في الشرق الأوسط دوماً ما تضعُ إسرائيل في موضع الجلّاد، بالتالي تظلّ الاتهامات التي يتم توجيهها لها من "الفصل العُنصري" المعروف بالأبارتايد والعنصرية بالإضافة إلى تُهمة "تزوير الحقائق" تظلّ جميعها دون ردّ، في الوقت نفسه قلّما ما تجدُ أناساً يَطرحون هذا السؤال الهام: لماذا لا يُمكن لأي إنسان يهودي أن يُمارس شعائره الدينيّة اليهودية في الدول العربية بحُريّة؟ ولماذا يخافُ اليهوديّ من التعريف عن نفسهِ على أنه يهوديّ في هذه الدول؟

في الوقت نفسه ينظرُ الكثيرون من المُثقفين والمفكرين وصُنّاع الرأي بالإضافة إلى الإتحادات والكنائس العالمية إلى الصراع العربي الإسرائيلي من منظور واحد وهو "الاحتلال الإسرائيلي" [26]، أما العُنف الذي تتعرضُ له إسرائيل واليهود بشكل عام عادة ما يتم تبريره من خلال "المأساة" التي يعيشها الفلسطينيون دون أن يتم التفكير ولو للحظة في ظاهرة معاداة السامية الموجودة في هذه المنطقة حتى قبل قيام دولة إسرائيل. فعلى سبيل المثال، لا أحد يذكرُ دور الحاج أمين الحسيني مفتي القدس في التحريض على اليهود في فلسطين ودول العالم العربي، ولا أحد يذكرُ الدور البارز الذي لعبه في النكبة اليهودية في الدول العربية، خاصة وأنه يوجد عدد من المفكرين والمحللين ممن يَرون أن تأثير دوره في التحريض على اليهود في الدول العربية خلال ثلاثينيات القرن المُنصرم يُشكل أساساً في ظاهرة معاداة السامية وكراهية اليهود المُتفشيّة في الدول العربية في الوقت الحاضر.

كذلك فإن العديد من المفكرين والأكاديميين لا زالوا يبنون تحليلاتهم وأفكارهم ووجهات نظرهم حول الصراع في الشرق الأوسط استناداً إلى معلومات زائفة وغير دقيقة لا تضع الأمور في نصابها الصحيح، بل واعتماداً على صور مُجتزئة لا تأخذ بالاعتبار السياق الكامل للأحداث والذي يقول بأن جذور هذا الصارع ترجعُ إلى حالة التعصّب الديني المُتفشيّة والمُتجذرة في هذه المنطقة. في الوقت ذاته فإن المُتتبع لمحتوى المتاحف التي تتطرق لأحداث المحرقة فإنه سيجد غياباً تاماً لكل ما ستطرق لتحالف العرب مع النازيين خلال الحرب العالمية الثانية وذلك خوفاً من أن تُصبح هذه المتاحف عُرضة للهجمات الارهابية من قبل المُتطرفين الإسلاميين.

وفي بعض الأحيان يصوّر الإعلام الغربي خروجَ اليهود من الدول العربية على أنه مدفوع بعاطفة الحنين لوطنهم الجديد إسرائيل تماماً مثلماً تَحنّ السمكة لموطنها الأصلي، أي البحر، فعلى سبيل المثال لا الحصر يذكرُ عيزرا ليفي خلال أحد التقارير التي بثتّها قناة الجزيرة باللغة الإنجليزية - وهو واحد من أصل ستة يهود ظلّوا في بغداد حتى الغزو الأمريكي للعراق سنة 2003م- بأنه رحل إلى إسرائيل حتى يجد حبّ حياته، حبيبته ديزي، وأن هذا هو السبب الوحيد الذي يقف خلف رحيله من العراق. كما يذكرُ عيزراً أيضاً بأنه يشعرُ براحة كبيرة حين يُجلسُ مع عاملة التنظيف العربية التي تقوم بتنظيف بيته من حين لآخر، وبأنه يقوم بحضور المُناسبات التي تدعوه إليها عائلتها. [27]

كذلك فإن سلوك اليسار بشكل عام يمتاز بانحطاطه ووضاعته في تصوير معاداة السامية على أنها "شيوعية الأغبياء"، بمعنى أن اليسار يقوم مراراً وتكراراً بوضع معاداة الصهيونية ومعاداة اليهودية تحت نفس الخانة ونفس التوصيف، واستناداً إلى هذا التوصيف الذي ظهر بعد ظهور الحركة الصهيونية فإن اليسار يدعو إلى تحالف "اليهود العرب" مع إخوتهم العرب من أجل التصدي لمُستعمرهم الحقيقي وهو "اليهودي الأشكنازي الأبيض"، بالتالي فإن المعيار والمنظور الكلاسيكي للصراع العربي من وجهة نظر اليسار الليبرالي هو تشبيهه بصراع الملك ديفيد مع جالوت، فالفلسطيني في هذا التشبيه يمثّل الملك ديفيد، بينما يُجسّد الإسرائيلي دور جالوت.

كما فإن المُتَتبع لأفكار ونظريات ووجهات نظر اليسار الليبرالي "المُتقَدّم" سيجدُ تأثّره الشديد بنظريات وأفكار ليونارد ومايكل فوكو وإدوارد سعيد، فالصراع بين الطبقات - على سبيل المثال - قد تحوّل من وجهة نظرهم إلى صراع بين الأديان والأعراق، وخلال سبعينيات القرن المُنصرم أصبَحت إسرائيل المحور الرئيسي "للامبريالية" التي تم تصويرها بها، خاصة بعد انطلاق حملات مُنظمة ومكثفة مُناهضة للحركة الصهيونية تصوّر إسرائيل بهذه الصورة من قبل الاتحاد السوفييتي سابقاً [28]. وحتى الثقافة الإسرائيلي لم تسلم من الاتهامات الزائفة أيضاً، حيثُ عادة ما يتم اتّهام الإسرائيليين بسرقة الأكلات العربية مثل الفلافل والحمص على الرغم من أن يهود الدول العربية الذين عاشوا في دول الشرق الأوسط كانوا يأكلون مثل هذه الأطعمة منذ قرونٍ طويلة.

كذلك فإن رؤية حلّ الصراع من منظور قوميّ يُعطي نوعاً من الشرعية والحماية لليسار بشتى أطيافه لمواصلة الهجوم على إسرائيل [29]، أَضف إلى ذلك أن تسليط اليسار سيوف انتقاداته اللاذعة على كل مُشكلة صغيرة كانت أو كبيرة في إسرائيل يجعلُ من الإنسان الغربي يقفُ موقف التبرير لما تمرّ به دول العالم الثالث من مشاكل وأزمات، بل ومبرراً للأخطاء الفظيعة التي تُقترفُ في هذه الدول، فعلى سبيل المثال ليذكرُ القانون المعروف باسم قانون طوبيرا الذي تبنته فرنسا سنة 2011 - والذي يختصّ بالحديث عن جرائم الرقيق واستعباد البشر - أن ما تعداده أحد عشر مليون إنسان تعرّضوا للرق والاستعباد بين الدول المختلفة عبر المحيط الأطلسي، فيما يتجاهل القانون أي ذكر لما تعداده سبعة عشر مليون إنسان ممن تعرضوا للرقّ والاستعباد بين الدول العربية والإسلامية.

وتبعاً لما يقوله أحد المُحللين الغربيين فإن "الإعلاميين والمُحللين الغربيين يشعرون بعقدة الذنب نظراً لكونهم ينتمون للعراق الأبيض من جهة ولكونهم غربيين من جهة أخرى، وذلك نتيجة للتاريخ الاستعماري الغربي لدولهم في منطقة الشرق الأوسط، حيثُ يصوّرون إسرائيل على انها دولة غربية تنتمي للعرق الأبيض، فيما يتم تصوير الفلسطينيين على أنهم شرقيّون لا يمتّون بصلة للعرق الأبيض، على الرغم من أن الفلسطينيين يمتلكون بشرة تفوق في بياضها الكثير من الإسرائيليين الذين يمتلكون بشرة داكنة".[30]

في الواقع فإن توصيف إسرائيل بالدولة الاستعمارية الإمبريالية يظهرُ فقط في حال تم طمسُ الحقائق والمعلومات الصادقة وانتشار المعلومات الزائفة التي تصوّر إسرائيل على انها دولة "الأمر الواقع" التي تسعى لفرض الحقائق على الأرض بالتالي تصوّر اليهود على انهم شعبٌ فرض نفسه على شعوب ودول الشرق الأوسط. إن الواقع والتاريخ يقولُ بأن اليهود كنوا بالفعل ضحايا للعقلية العربية والإسلامية العُنصرية، وبأن خروجهم من الدول العربية كان نتيجة لهذه العقلية التي أدّت إلى ارتكاب جرائم دموية ومذابح جماعية بحقّهم تفوق حجم الدموية الذي تعرّض له الفلسطينيون الذي خرجوا من أراضيهم إسرائيل. بالتالي فإن الحديث عن قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية والتطرق لأحداثها الحقيقية يُمثّل "الضربة القاضية" للرواية التاريخية التي يتحدث بها العربُ والمسلمون حول الصراع تبعاً لتوصيف إحدى المجموعات النرويجية المُناصِرة لإسرائيل. [31]

بالتالي فإن الحديث عن معاداة السامية الموجودة في الدول العربية والإسلامية من شأنه أن يُحدث خرقاً كبيراً واختلالاً واضحاً في ميزان الأخلاقيات التي اعتاد العالم على سماعها، خاصة لدى أولئك الذين اعتادوا على رؤية هذه الصراع بصورته النمطية المعروفة بوصفه "استعماراً" يهودياً للأراضي العربية، خاصة لدى أولئك الذين ينظرون للعرب والمسلمين من منظور "الضحية"، بالتالي يُبرّرون ما يقترفونه من أخطاء وفظائع بحجة أنهم الضحية، الأمر الذي يعني أن إسرائيل وحدها هي من تتحمل مسؤولية المبادرة لإيجاد حلّ لهذا الصراع، وهي وحدها من يجب عليها تقديم التنازلات في سبيل ذلك. بالتالي فإن الحديث عن الحقائق والوقائع الصحيحة لما حدث في منطقتي الشرق الأوسط وشمال افريقيا بعد الاستعمار الغربي الأوروبي لها سيقلبُ طاولة الحقائق رأساً على عقب، لأنه سيوضحُ بشكل لا يدع مجالاً للشك بأن الاستعمار العربي والإسلامي لدول هذه المنطقة يسبقُ الاستعمار الغربي لها.

إخفاء جميع ما له علاقة بالنكبة اليهودية

إن عملية القرصنة و"الاستعمار" للحقائق متفشية بدرجة مشينة، لدرجة أن الشخصيات اليهودية والنشطاء والمفكرين ممن يعلمون تمام المعرفة ما حلّ بيهود العربية أصبحوا يمتثلون للضغوطات الممارسة عليهم من أجل السكوت عن هذه القضية، فعلى سبيل المثال لا الحصر أقام مركز سيمون وزينتال معرضاً في أروقة اليونِسكو سنة 2014 تحت عنوان "الشعب والكتابُ والأرض: ألفان وخمسمائة سنة من الجذور اليهودية في الأرض المقدسة". وعلى الرغم من أن إقامة معرضٍ في أروقة المحافل الدولية يعدّ انجازاً بحد ذاته وانتصاراً لشرعية الوجود اليهوديّ في الارض المقدسة، إلا ان المعرض كان يخلو من قضية هامة جداً: قضيّة تهجير اللاجئين اليهود من الدول العربية ونزوحهم إلى إسرائيل. وهنالك عبارة طرحها أحد المتحدثين في فقرة من فقرات المعرض تحت عنوان "إسرائيل بين باقي الأمم" قد استوقفت انتباهي، حيث قال: "مع حلول سنة 1968م كان يُشكّل اليهود الشرقيّون ما نسبته ثمانية وأربعين بالمئة من تعداد اليهود في إسرائيل"، ومن ثم لاذ بالصمت ولم يذكر أي شيء آخر يتعلق بهم [32]، فكان هذا هو الرقم الوحيد الذي طلب عدد من المسؤولين الرسميين في اليونسكو مصدراً موثوقاً يُثبت صحته، وحينها تم تزويدهم بمصدر هذا الرقم وهو جهاز الإحصاء المركزي الإسرائيلي.

أما بالنسبة للأكاديمي المعروف روبرت ويستريتش الذي قام بإعداد الفقرات المُختلفة للمعرض، فقد قام بالفعل بترتيب فقرة كاملة تتطرّق لقضية اليهود من الدول العربية، إلا أن مسؤولي اليونسكو لم يسمحوا بعرض تلك الفقرة، حيث بات من الواضح لكل من مركز سيمون وزينتال وروبرت ويستريتش أن أي ذكر لقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية يعني منع إقامة المعرض بأكمله. [33]

وكلّما تطرقنا للحديث عن التجاهل والإنكار لظاهرة معاداة السامية المُتفشيّة في الدول العربية، كلّما تذكّرنا خرافة التعايش السلمي بين اليهود والعرب في تلك البلدان، لدرجة أن بعض القيادات اليهودية المعروفة مثل حاييم وازيمان كان يُصدّق مثل هذه الخرافة، فخلال أحد تصريحاته أثناء انعقاد لجنة التحقيق الانجليزية الأمريكية المنعقدة سنة 1946م قال وايزمان: "لا أريد أن أظلِم أحداً، بالتالي ينبغي علي القول بأن الدول الإسلامية عاملَت اليهود بكل طيب وتسامح، لقد رحَبَت الامبراطورية العثمانية التي كان معظم دولها من الدول العربية باليهود واستقبلتهم بكل صدر رحب عندما طُردوا من إسبانيا وأوروبا، ولا ينبغي على اليهود أن ينسوا هذا الموقف".

في الوقت نفسِه فإن خرافة التعايش في العالم الإسلامي وعدم وجود معاداة للسامية في الدول العربية الإسلامية قبل ظهور إسرائيل هي خرافة تنتشر حتى بين المُدافعين عن إسرائيل، خاصة وأن العديد منهم ينظر لظاهرة معاداة السامية على أنها قضية أوروبية بَحتة. كذلك هنالك حالة رائجة تتعلق بالأسباب التي تقفُ خلف كل قضية، فعلى سبيل المثال يوضّحُ اليهودي الجزائري ألدو نعوري كيف أن أستاذ مدرسته التي كان طالبا فيها خلال خمسينيات القرن المُنصرم كان يُحاول مراراً وتكراراً وضع العقبات في طريق نجاحه وذلك لسبب بسيط وهو أنه يهودي، ولا يُمكن لليهوديّ في الجزائر أن يتفوّقَ على زملاءه العرب والمسلمين، ويُتابع ألدو قائلاً :"إنني لا أستغربُ أبداً ما يحدثُ من محاولات طمسِ الحقيقة عندما يتعلق الموضوع بمعاداة السامية في الدول الإسلامية وذلك حتى لا يفهم البعضُ أن معاداة السامية هي الدافع الحقيقي وراء الصراع الإسرائيلي الفلسطيني". [34]

سرابُ التعايش بين اليهود والعرب

هنالك عدد كبير من مُبادرات ومشاريع التعايش والسلام التي تؤكد على أهمية البُعد الإنساني في الصراع بين العرب واليهود، بالتالي من المهم أن ينظر كل منهما إلى الآخر بعين الانسانية حتى يتم تحقيق السلام والتعايش بين الشعوب أولاً ومن ثم سيتحقق هذا السلام على المستوى الرسمي. في الوقت نفسه فإن غياب اليهودي بشكل شبه كلّي من دول العالم العربي والإسلامي يعني وجود احتمالية ضئيلة جداً بأن يُقابل العربي والمسلم أي يهوديّ في حياته. [35]

ومما لا شكّ فيه أن مثل هذه المبادرات والمشاريع هي غاية في الاهمية، خاصة في ظل ما أظهرته إحدى الدراسات الإحصائية والتي تُشير ألى أن ما نسبته أربعة وسبعون بالمئة من سكان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يحملون مشاعر الحقد والكراهية لليهود، حيث استهدفت هذه الدراسة عينة مُختلفة من منطقتي الشرق الأوسط وشمال افريقيا[36]. لكن التحيّز الإعلامي يصِفُ حالة اعتناء العرب والمُسلمين ببعض الأماكن الدينية اليهودية - التي تخلو من أي يهود - أو اعتنائِهم بقبور اليهود، على أنها حالة من "التعايش" بين العرب واليهود!

وقد نشرت وكالة "المغرب والعالم" الإخبارية عبر صفحاتها خبراً في شهر تموز/يوليو سنة 2015م تحت عنوان:" أكثر من ألفي يهوديّ يعيشون في المغرب" [37]، ولو دققنا بموضوعية في عنوان هذا الخبر لوجدنا أنه عنوان كارثيّ بكل ما تحمله الكلمة من معنى! فمن أصل ثلاثمائة ألف يهودي كانوا يعيشون في المغرب حتى سنة 1948م في يوم من الأيام لم يتبقّ سوى ألفان يهودي، أي أقل من واحد بالمئة فقط من العدد الأصلي ليهود المغرب.

كذلك يوجدُ حالة من الحماسة الشديدة بين العديد من الكتاب العالميين عندما يتعلّق الموضوع بالمغرب، فيسلطون الضوء على التراث المغربي اليهود المُشترك بشكل كبير. وفي أحد المقالات المنشورة في صحيفة نيويورك تايمز يوضح الكاتب جمالية أحد المواقف حين شارك عدد من المسلمين في إحدى المُناسبات اليهودية التي تخلّد ذكرى سوليكاهاشول التي لقيت حتفها على أيدي المُسلمين لأنها اختارت الموت على أن تعتنقَ الإسلام! [38]

لوحة فنية تُظهر اعدام اليهودية سوليكاهاشول في القرن التاسع عشر والتي دفعَت حياتها ثمناً لرفضها اعتناق الإسلام، صاحب هذه الرسمة هو الفنان ألفرد ديهوديتق.

وعندما يتم التطرق ليهود إيران البالغ عددهم عشرة آلاف يهودي، فإننا نرى الإعلام الغربي مُتحمّساً في وصفها على أنها الدولة التي تضم "أكبر مُجتمع يهوديّ في الشرق الأوسط" [39]، لكن وسائل الإعلام تلك تتجاهل بشكل فاضح حقيقية أن إيران قد أجبَرت قرابة ثمانين بالمئة من سكانها اليهود على مغادرة إيران، وبأن من تبقوا يشكّلون أقل من عشرين بالمئة من عدد السكان اليهود الذين عاشوا في إيران سابقاً.

وحتى الدول التي بالكاد يوجد فيها عدد محدود من اليهود على أراضيها فإها تحاول التسلّق على موضوع التعايش عبر وصف نفسها بأنها أماكن للتعايش العربي اليهودي، والدول التي تخلو تماماً من اليهود فإنها تحاول أيضاً التغني بنغمة التعايش عبر إقامة مؤسسات ومنظمات تُعني بشؤون اليهود، كيف لا ولا يوجدُ من يردعها عن التظاهر بالاكتراث باليهود الذين هُم غير موجودون أصلاً على أراضي تلك البلدان؟ [40]

أضف إلى ذلك ما تقوم به بعض الدول من عملية استعادة وترميم للكُنُس اليهودية، هذا الموضوع الذي يجده الكثيرُ من الأمريكيين مثيراً جداً، فهو يُظهر تلك الدول بمظهر لائق وجميل، على الرغم من أن تلك الكُنُس ستظل خاوية سواء رُمّمت أم لا، ولن تجد أي يهوديّ يُؤدي صلواته فيها لأنه باختصار لا يوجد أي يهود في تلك الدول. فعلى سبيل المثال تم ترميم كنيس موسى بن ميمون في القاهرة، لكن سُرعان ما تم اقفاله لدواعٍ أمنية بعد فترة وجيزة من انتهاء عمليات الترميم، والحال نفسه بالنسبة لكنيس نجمة ابراهيم في بيروت الذي تم ترميمه بالفعل، لكنه لا زال مُقفلَ الأبواب حتى تاريخ نشر هذا الكتاب.

أما الحكومة المغربية فإنها تعملُ بشكل متواصل منذ عدة عقود على إظهار المغرب بصورة بلد التعايش والازدهار الحضاري والثقافي بين الجماعات المُختلفة، وذلك عبر عمليات الترميم واعادة بناء الكُنُس والمقابر والمواقع الدينية المختلفة، لكن ما تطمحُ الحكومة المغربية عبر عمليات الترميم هذا هو أن يظهر المغرب بمظهر لائق أمام الغرب لا أكثر ولا أقل.

من جهة أخرى فإننا بالكاد نسمعُ من يتحدثُ عن المشاكل التي كانت بين اليهود والعرب والقضايا الخلافية بينهم، خاصة قضية النكبة اليهودية التي من شأنها أن تحدث ردود أفعال مُزلزلة إذا ما تطرّق أحدٌ إليها، فيما يتم تسليط الضوء بشكل كبير على القواسم المشتركة بين اليهود والعرب، فعلى سبيل المثال وخلال ورشة من ورشات عمل السلام التي انعقدت في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية شهر حزيران/ يونيو سنة 2015، تم تسليط الضوء على القواسم المشتركة التي تجمع اليهود والعرب كالموسيقى والفولكلور والطعام وغيرها من الأمور التي ساهمَ بها اليهود كأقلية في بلدان العالم العربية وشكلت مظهراً من مظاهر التعايش بينهم، فيما طغى ذلكَ على قضيّة نزوح اليهود من الشرق الأوسط وشمال افريقيا التي بالكاد كان لها أي ذِكر في ورشة العمل هذه. [41]

وفي أحد المؤتمرات التي أُقيمت برعاية معهد وولف سنة 2009 تم وضعُ اليهود اللاجئين من الدول العربية والفلسطينيين اللاجئين في نفس الخانة ونفس التوصيف، وذلك انطلاقاً من المنظور "الاستعماري" نفسه الذي يرى أن اليهود المزراحيين والعرب يمتلكون العديد من القواسم المشتركة التي تجعلهم أصحاب قضيّة واحدة أمام الاستعمار اليهودي الأوروبي.

صورة تظهر أعمال الترميم المستمرة التي تقوم بها الحكومة المغربية للمواقع اليهودية من كُنُس ومقابر، مثل كنيس رؤوفين بن سعدون في مدينة فاس (حقوق الصورة محفوظة لِ ب.ف. مارسول– موقع dafina .net)

صورة تُظهر تفجير مدرسة من مدارس الاتحاد العالمي الإسرائيلي في بيروت والذي وقع في شهر كانون الثاني سنة 1950م (حقوق الصورة محفوظة لمكتبة الاتحاد الإسرائيلي العالمي – باريس)

وهنالك مثال آخر يوضح الفكرة ذاتها، وهو ما حدث في المؤتمر الذي عقده المعهد ذاته - معهد الدراسات الشرقية والأفريقية - برعاية بحرينية في لندن سنة 2010م [42]والذي كان الهدف منه التركيز على مساهمات اليهود في الدول العربي في مجالات الأدب والموسيقى وفن العمارة، حيث سلّط المؤتمر الضوء على هذه المظاهر بالفعل، لكنه تجاوز القضيّة الهامة والمحورية في الموضوع كله وهو معاداة السامية في الدول العربية والإسلامية التي أدت إلى نزوح اليهود من تلك الدول. كما صوّر المتحدثون في المؤتمر يهودَ الدول العربية بصورة الانسان الممزق نتيجة ما قامت به الحركات القومية العربية من جهة، والفكر الشيوعي من جهة أخرى، لكن المؤتمر تجاهل بشكل صريح ظهور الحركة الصهيونية وما حَظيت به من دعم وتأييد بين اليهود نتيجة لمعاداة السامية التي ادت إلى تهجير ونزوح اليهود في الدول العربية.

ويقول ألبِرت مِمّي في إحدى مقالاته مُعقباً على مثل ما يحدثُ في هذه المؤتمرات والتي كتبها بعنوان "مَن هوَ العربي اليهوديّ؟"، يقول فيه: "لقد كُنا نودّ كثيراً ان نوصفَ بأننا عربٌ يهود، وإن كان هنالك سبب لتخلينا عن عدم تعريف أنفسنا بأننا عربٌ يهودٌ فهو الوحشية والقسوة التي عوملنا بها في الدول العربية، والتي أدت إلى أن يُصبح تبنّينا لهذه الهوية أمراً من سابع المستحيلات". [43]

وهمُ "الثقافة المُشتركة" بين العرب واليهود

لقد ساهمَت الأعمال الأكاديمية والدراسات المُختلفة للمُفكرين والباحثين والأكاديميين المُختصين في فترة ما بعد الاستعمار الأوروبي للدول العربية في عملية تزوير الحقائق التاريخية المُتعلقة بيهود الدول العربية، خاصة تلك الدراسات التي تسلط الضوء على الجوانب الثقافية والإجتماعية والاقتصادية والتاريخية للمُجتمعات العربية، وهنالك مثال على مثل هذه الأعمال وهو كتاب "البابليون الجُدد" للكاتبة أوريت باشكِن، فيقول نورمان ستيلمان في مُستهلّ تعقيبه على مُحتوى الكتاب: "إن تطرّقَ أوريت باشكِن للأحداث المُتسلسلة خلال أربعينيات القرن الماضي والتي أدّت إلى النزوح الجماعي ليهود الدول العربية سنة 1951م هو أُسلوب يفتقرُ للنظرة التحليلية المُعمقة، وافتقارها لهذه النظرة التحليلية يُعزى من وجهة نظري إلى أسلوبها السطحيّ في التطرق للقضايا الثقافية وقراء النصوص المتعلقة بها، كما أن أسلوبها لا يأخذ بعين الاعتبار الأحداث الحقيقية وارتباطها بالشعوب والسياسيات المتعلقة بالحقبة التي تتحدث عنها، أضِف إلى ذلك غياب الفرضيات المنطقية من منهجها ككل. وعلى الرغم من ادعائها بأنها تمتلك منظوراً فكرياً وتحليلياً معمّقاً إلا أن المُتأمل في أسلوبها وأفكارها سيُدركُ تأثرها الكبير بأفكار سامي زبيدة وإيلا شوحات وجلبرت أشقر وإدوارد سعيد على الرغم من عدم ذِكرها لذلك. إن عملها هذا لا يختلفُ كثيراً عن الكثير من الأعمال والمؤلفات التي تطرّقَت لأوضاع اليهود في العالم العربي من منظور سطحيّ ساذج يصف البلدان العربية والإسلامية على أنها الأماكن التي "ازدهرت فيها الثقافات" أو بُلدان "الصراع الأزلي" لأنها جاءت من منظور استشراقي بَحت.

وبطبيعة الحال هنالك عُنصرٌ سطحيّ ساذج يُحاول تصوير بعض فترات التعايش التي تكيّف فيها اليهود في البلدان التي عاشوا فيها، وحالة الانفتاح التي يُبديها بعض الليبراليون والمثقفون والسياسيون العرب على اليهود، على أنها دليل قاطع على أن القوى الراديكالية العربية المُتطرّفة لم تكُن تمتلك ذلك القدر من القوّة والتأثير في تلك الفترة التي نزح فيها اليهود من دول العالم العربي". [44]

من ناحية أخرى فإن الثقافة المُشتركة بين العرب واليهود في العراق لم تشفَع لهُم من المذابح والمجازر التي تعرّضوا لها آنذاك، تماماً مثلما لم تكُن الثقافة المُشتركة بين اليهود والألمان في ألمانيا ولا إسهاماتهم في تلك الثقافة سبباً يشفعُ لهُم من الويلات التي حلّت بهم على أيدي النازيين. بالتالي فإن ما تعرّضَ لهُ اليهود المزراحيين من تهجير ونزوح ومعاناة على أيدي العرب قد خلقَ حالة من المرارة وانعدام الثقة بالعرب انعدم فيها أي نوع من انواع التعاطف مع اللاجئين الفلسطينيين، الأمر الذي يجعلُ اليهود المزراحيين يكنون مشاعر حقدٍ على العرب أكثر من تلك التي يُكنّها اليهود الإشكناز للعرب، الأمر الذي يُفسّرُ تصويت اليهود المزراحيين للأحزاب اليمينية الإسرائيلية في كل جولة انتخابات، وذلك عقِب هذه التجربة الماسأوية في الدول العربية من جهة، وحالة التمييز التي تعرّضوا لها على يد اليسار الإسرائيلي ممثلاً بحزب العمل.

كذلك فإن المُتتبع لما يحدث في مبادرات السلام والتعايش سيجدُ أن مبادرة مثل مشروع "علاء الدين" والتي تهدف للتصدي لظاهرة إنكار المحرقة اليهودية، قد انتهى بها المطاف بتعميق عقلية الضحية التي عادة ما تغلّف أسلوب تفكير الجانب الفلسطيني في مثل هذه المبادرات، وذلك عبر تصوير ما حدث في المحرقة اليهودية على أنه أمر لم يحدُث سوى في أوروبا فقط، باعتبار أن هذه المبادرة لم تسلط الضوء مثلاً على تعاون الفلسطينيين مع النازيين، أضِف إلى ذلك التجاهل التام للفكر المعادي لليهود والمعادي للصهيونية والذي يتغلغل بشكل كبير في أعمال الكثير من المؤلفين والمفكرين الإسلاميين. وفي إحدى المؤتمرات التي نُظمت تحت مظلة "مشروع علاء الدين" فقد تم إغلاق الباب تماماً أمام كل ما يتطرّقُ لقضية نزوح اللاجئين اليهود من الدول العربية [45]. بمعنى آخر، لو وضعنا معاناة اليهود المزراحيين والِسفردين في كفة، ومعاناة اليهود الأشكناز في كفة أخرى، فأن كفة اليهود الأشكناز هي التي ترجحُ دوماً في مثل هذه اللقاءات، وما يتم تسليط الضوء عليه هو معاناة اليهود الأشكناز فقط في "مشاريع التعايش والسلام".

كذلك فإن بعض الدول العربية والإسلامية تستنكرُ رسمياً ما حدثَ من أعمال مأساوية في المحرقة اليهودية، لكن هذا الاستنكار يأتي على حساب الحقائق التاريخية وعلى حساب اليهود في إسرائيل، وفي هذا الصدد تقول الصحفية فيرونيكا شِملا قائلةً: "يجبُ علينا أن نمضي إلى ما هو أبعد من تلك الشعارات الطنانة مثل "نحن إخوة وأبناء عم" أو شعارات "شلوم - سلام"، وذلك عبر نقاش وحوار جادّ ومُعمّق مع دول العالم الإسلامي، نقاشٌ لا يتطرّقُ فقط إلى ما يوحّدنا بل يتطرق أيضاً إلى ما يُفرّقُنا، بالتالي يجبُ علينا تسليطُ الضوء على الإشكاليات ونقاط الاختلاف بيننا حتى نتمكن من بناء علاقة إسلامية يهودية وطيدة ذات أساس راسخ وصحيح". [46]

وفي أحد المؤتمرات التي نُظمت كجزء من مشروع علاء الدين برعاية اليونسكو، تحدّث المُحاربُ الفرنسي سيرج كلاسفيلد - الذي كان معروفاً بمطاردته وقتله للنازيين والذي كان والده أحد ضحايا مُعسكرات الموت النازية - عن رحلته وجولته في بعض البلدان العربية [47]، وخلال حديثه عن تلك التجربة ارتكبَ سيرج مُغالطة أخلاقية فظيعة تمثلت في مقارنته بين مُعاناة اليهود على أيدي النازيين، ومعاناة الفلسطينيين على أيدي الإسرائيليين. كما تحدّث خلال إحدى محاضراته التي ألقاها في بغداد عن أهمية أن يتعلم اليهود والمسلمون من معاناتهم من أجل تحقيق التقارب بينهم قائلاً:"يجبُ علينا أن نعملَ على نشرَ وتعميق كل ما له علاقة بالقواسم المشتركة بين اليهود والمسلمين، خاصة وأن المسلمين قد تعرّضوا للمعاناة والإذلال هم أيضاً على أيدي المُستعمرين. إنني اتفهّم رغبة أولئك الذين عاشوا تحت وطأة الاستعمار البريطاني والفرنسي بالحديث عن معاناتهم، تماماً مثلما أتفهم رغبة أولئك الذين يُعانون من الوجود الإسرائيلي فوق الأرض التي يؤمنون أنها أرضهُم [48]". بالتالي فإن حديث سيرج بهذه الطريقة وهذا الأسلوب الذي يربطُ بين معاناة الجانبين فإنه لم يُقلل من شأن معاناة اليهود والويلات التي عاشوها تحت حُكم النازيين فحسب، بل إنه ساهم في تصوير إسرائيل على أنها دولة النازيين الجُدد.

وهنالك أسئلة التي تتبادر إلى ذهني بعد قراءة مثل هذه التصريحات لأشخاص مثل سيرج: هل يعرفُ هذا الرجل ما حدث في بغداد عندما قام عراقيون من موالي النازيين بانقلاب سنة 1941م مؤدياً بشكل مباشر إلى مقتل مئات من اليهود بدرجة تفوق عدد اليهود الذين قُتلوا في كرستلاخ مثلاً؟ وهل يعرفُ سيرج ما كانت تنوي القيام به الحكومة العراقية الموالية للنازيين من نفي لليهود إلى الصحراء والزج بهم في معسكرات الموت؟ وهل يعلم أن الدول العربية رحّبت بكل صدر رحب بالنازيين الفارين من ألمانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبأن تلك الدول منحتهم أسماءاً وهمية بهدف حمايتهم؟

وما يزيدُ الموضوع سُخرية هو أن هذه المحاضرة التي ألقاها سيرج في مدينة بغداد قد أقيمت في السفارة الفرنسية، والتي تعود مُلكيتها فعلياً إلى عائلة لاوي اليهودية العراقية التي أُجبِرَ أفرادها على مغادرة العراق بعد ارتكاب مذبحة الفرهود بحق يهود العراق.

المبالغة في البطولات العربية

هنالك ظاهرة انتشرت مؤخراً تتمثل في تمجيد البطولات العربية للعرب الذين أنقذوا اليهود خلال اندلاع المذابح المُرتكبة ضدهم في الدول العربية بطريقة مبالغ فيها، وذلك بهدف الترويج لما يسمى "بالعصر الذهبي للتعايش السلمي بين العرب واليهود" في تلك الدول، وذلك بأسلوب يتجاهل الظلم الذي تعرض له اليهود وبطريقة تنفي أي صلة بين يهود الشتات وأرض اسرائيل حتى يُقال بأن الفضل يعود للاسلام وسماحته في كل ما يتعلق بانجازات غير المسلمين تحت ظل الحكم الاسلامي.

وهنالك أمثلة عديدة على هذع الظاهرة، مثل المعرض الذي يُظهرُ ميثاق الشرف الالباني المعروف بـ "باصة" والذي يقضي بحماية اليهود في البانيا خلال الحرب العالمية الثانية، مع العلم ان هذا الميثاق لم يكن مقتصراً على مسلمي ألبانيا فقط بل ضم غير المسلمين أيضاً، هذا عدا عن فيلم (Les Hommes Libres) الذي يتحدث عن أحد أئمة المساجد في باريس والذي يدعى سي قدور بن غبريت والذي قام بمنح اليهود بطاقات هوية مزيفة تظهر بانهم مسلمون من اجل حمايتهم من النازيين، حيث يوجد العديد من الأدلة التي تثبت عدم قيامه بذلك، بل هنالك ادلة تشير الى قيامه بخلاف ذلك عبر كشف هويات اليهود للنازيين [49]. وهنالك مثال آخر يتعلق بطلب اضافة اسم التونسي خالد عبد الوهاب الى قائمة الشرف في متحف الهولوكوست ياد فاشيم في اسرائيل باعتباره من الأبطال الذين أنقذوا اليهود من الموت، إلا ان هذا الطلب قد تم رفضه كونه لم يُعرض حياته للخطر من أجل انقاذ عائلات يهودية في بُخارى وأوزان مثلما يدّعي البعض. [50]

وهنالك كتابٌ ضخمٌ يُعرف باسم "موسوعة العلاقات الإسلامية اليهودية" منشور باللغة الإنجليزية لكاتبٍ يُدعى برنسيتون[51]، وتبِعاً لعالم الإجتماع الفرنسي شموئيلتريغانو فإنه يمثل "محاولة مذهلة للتأثير على الرأي العام فيما يتعلق باليهود السفرديين– عُذراً، أقصدُ اليهود العرب!" [52]. ومن بين الداعمين لهذا العمل نجدُ مؤسسة "تحالف الحضارات" التي تعتبرُ واجهة لمنظمة التعاون الإسلامي، والتي تحاولُ تغيير الرواية التاريخية وتزييف الحقائق فيما يتعلق بتاريخ الديانات الثلاثة في اسبانيا من أجل إظهار الأندلس على أنه "العصر الذهبي" للتعايش بين الديانات. كما حصلَ هذا العمل على دعم ماليّ سخيّ من الحكومة الفرنسية كونه يُحاول خلق تقارب بين اليهود والمسلمين في فرنسا في ظلّ حالة التوتر والتجاذب الدينيّ بين يهود ومُسلمي فرنسا والتي تشكل تهديداً للسلم الإجتماعي في المُجتمع الفرنسي، بالتالي فإن أعمالاً ومُبادرات كهذه من شأنها أن تُزيل الخلافات بين الأطراف المُتصارعة عن طريق تحقيق هوية مدنية واحدة للجميع.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الموسوعة لم تذكر أحداث العُنف التي نشبت ضدّ اليهود في مدينة فاس سنة 1099م في مستهل وصفها لذلك العصر الذهبي، هذا عن المُغالطات الكثيرة الموجودة في الموسوعة [53]، بالإضافة إلى حذف الكثير من الأمور المتعلقة بالتاريخ والإسهامات اليهودية، مثل إسهامات العلماء اليهود في مجال الرياضيات وغيرها من العلوم. في الوقت نفسه فإن هذه الموسوعة تُبالغُ في الحديث عن تأثر الحاخام اليهودي الكَبير موسى بن ميمون بالإسلام، كما أنها لم تذكر أن والده كان أحد أكبر علماء التلمود اليهود، وذكرت أيضاً أن مكان دفن الحاخام موسى بن ميمون هو في مصر(الفسطاط) وليس في طبريا، في محاولة من ناشر الموسوعة إزالة أي عَلاقة تربط اليهود بالأرض المقدسة حتى لو كانت مجرد قبر!

وعدا عن هذا كله فإن الموسوعة بالكاد تذكر ما اقترفه المُفتي الحاج أمين الحسيني من فظائع كأحد الموالين للنظام النازيّ الألماني، حيث يوجدُ فصلٌ كتبه البروفسور هنريلورنز في هذه الموسوعة سلَط فيه الضوء على ما قام به الحاج أمين الحسيني فيما تعداده ثمانية وأربعون سطراً فقط، في الوقت الذين تحدث فيه عن إنقاذ المُسلمين لليهود في المغرب في قرابة مئة سطر، وعن إنقاذ المُسلمين لليهود في الجزائر في اثنين وخمسين سطراً، وعن إنقاذ المُسلمين لليهود في تونس في تسعة وثمانين سطراً.

وفي ختام هذا الفصل فإنني أود التأكيد على أن إسرائيل قد تكون انتصرت في الكثير من المواجهات العسكرية ضد الدول العربية، لكن الحقيقة كانت الضحية الأولى على الجانب الإسرائيلي لهذه الانتصارات، خاصة في ظل حالة الهيمنة العربية على الرأي العام العالمي فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي، وهذا خطرٌ يُهدد دولة إسرائيل ولا يقلّ في خطورته عن أي تهديد عسكريّ لها، ومن وجهة نظر بعض المُفكّرين فإن أكبر خطر يُهدد إسرائيل في الوقت الحالي هو خطرُ تزوير وتحريف التاريخ وتدليسه.

قائمة الملاحظات والحواشي

1. ‘Fighting revisionism and this blog’s part in it’, *Point of No Return*, 19 May 2010, http:/jewishrefugees.blogspot.co.uk/2010/05/fighting-revisionism-and-this-blogs.html. (Last accessed 26 April 2017).

2. نفس المصدر.

3. Recording of lecture by Sasson Somekh at Vanderbilt University, January 2007, http://www.vanderbilt.edu/News/newsSound/SassonSomik.mp3. (Last accessed 26 April 2017).

4. Bat Ye’or, *The Dhimmi* (Associated University Presses, 2003), p.143.

5. Adi Schwartz, ‘Reasons for the Moroccan exodus erased’, *Point of No Return*, 2 June 2013,http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2013/06/reasons-for-moroccan-exoduserased.html. (Last accessed 26 April 2017).

6. Penina Elbaz, ‘The truth about Morocco: fear made Jews leave’, *Point of No Return*, 11 September 2016, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2016/09/the-truth-aboutmorocco-fear-made-jews.html. (Last accessed 26 April 2017).

7. Robert Satloff, *Among the Righteous* (Public Affairs New York, 2006), p.178.

8. ‘Jewish synagogue hosts Ramadan iftar in Cairo’, *Egyptian Streets*, 10 July 2014, http://egyptianstreets.com/2014/07/10/jewish-synagogue-hosts-ramadan-iftar-in-cairo/. (Last accessed 26 April 2017).

9. Fatih Semsettin Isik, ‘Turkish Jews host Iftar in landmark synagogue,’ *Daily Sabah*, 22 June 2015, http://www.dailysabah.com/politics/2015/06/22/turkeys-jews-host-iftar-inlandmark-synagogue. (Last accessed 26 April 2017).

10. Uriel Heilman, ‘Reluctant exiles: Jews from North Africa and the Middle East’, *B’nai B’rith magazine*, Spring 2011, http://www.urielheilman.com/0411-jews-in-arablands.html. (Last accessed 26 April 2017).

11. نفس المصدر.

12. Eetta Prince-Gibson, ‘Right of Return’, *Jerusalem Post*, 8 August 2003.

13. Seth J. Frantzman, ‘A blindspot of Diaspora Jews on Israel’, *Jerusalem Post*, 24 July 2016,http://www.jpost.com/Opinion/A-blind-spot-of-Diaspora-Jews-on-Israel-462249. (Last accessed 26 April 2017).

14. Michelle Huberman, ‘Who are the Ashkenazim?’ *Clash of Cultures* blog, *Jerusalem Post*, 3 March 2012.

15. Binyamin Arazi ‘Reclaiming Jewish identity: An aboriginal people of the Middle East,’ *Huffington Post*, 2 July 2016, http://www.huffingtonpost.com/binyamin-arazi/reclaiming-jewish-identit_b_7715528.html. (Last accessed 26 April 2017).

16. Taly Krupkin, ‘Mizrahi is the new Black for American Jews’, *Haaretz*, 18 October 2015.

17. See artwork by Meir Gal, ‘Nine Out of Four Hundred (The West and the Rest)’, 1997,

http://meirgal.squarespace.com/exhibitions/nine-out-of-four-hundred-the-west-andthe-rest-1997/5060044. (Last accessed 26 April 2017).

18. Education ministers have included Shulamit Aloni, Amnon Rubinstein and Yossi Sarid of the Meretz Party and Yuli Tamir of the Labour Party (source: *Wikipedia*).

19. Lahav Hartov, 'Ministers approve mandatory Arabic studies from first grade', *Jerusalem Post*, 25 October 2015, http://www.jpost.com/Israel-News/Politics-And-Diplomacy/Ministers-approve-mandatory-Arabic-studies-from-first-grade-430017. (Last accessed 26 April 2017).

20. 'A visual guide to seventy-five years of major refugee crises around the world', *Washington Post*, 21 December 2015,https://www.washingtonpost.com/graphics/world/historicalmigrant-crisis/. (Last accessed 26 April 2017).

21. Maurice Roumani, 'The Case of the Jews from Arab Countries: A Neglected Issue', (WOJAC, 1987), http://www.asfonline.org/portal/ArabLandsDisplay.asp?article_id=8&. (Last accessed 26 April 2017).

22. In January 2017, the French historian Georges Bensoussan was tried in a criminal court for 'hate speech': he was paraphrasing an Arab sociologist's words to the effect that Arabs imbibe anti-Semitism 'with their mother's milk'. He was acquitted.

بتاريخ السابع عشر من شهر كانون الثاني سنة 2017م تم مُحاكمة المؤرخ الفرنسي جورج بن سوسان في المحكمة الجنائية بتُهمة "التحريض على الكراهية" بعد أن قام بالتعقيب على بعض الكلمات التي صدرت عن عالم اجتماع عربي تضمنت محتوى مُعادياً للسامياً، فقال جورج مُعلقا بأن "العرب يرضعون معاداة السامية مع حليب أمهاتهم"، لكن تم تبرئته من التهمة الموجهة إليه لاحقاً.

23. Jeffrey Herf, 'Middle East Studies blind spot', *History News Network*, 27 September 2015,http://historynewsnetwork.org/article/160546#sthash.2K6xP1nn.dpuf. (Last accessed 26 April 2017).

24. G. Bensoussan, 'L'histoireenchantée des juifs du Maroc' *CRIF*, 13 June 2012, http://www.crif.org/tribune/l%E2%80%99histoire-enchant%C3%A9e-des-juifs-dumaroc/31573. (Last accessed 26 April 2017).

25. Ben-Dror Yemini, speech at the UN, 2 December 2015, http://webtv.un.org/watch/theuntold-story-of-850000-refugees-%E2%80%93-the-tale-of-ancient-jewish-cultures-in-arab-lands/4641983532001. (Last accessed 26 April 2017).

26. Supporters of the Arab position include prominent figures such as Archbishop Desmond Tutu, ex-US President Jimmy Carter, the UK National Union of Teachers, the African National Congress and the Presbyterian, Methodist and Episcopal churches. See also Robin Shepherd: *A State beyond the Pale: Europe's Problem with Israel* (W&N, 2009).

هنالك العديد من االشخصيات والمنظمات ممن يدعمون المواقف العربية مثل المطران دسموند توتو والرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر واتحاد المعلمين في بريطانيا ومنظمة المثتمر الوطني الافريقي واتحاد الكنائس المشيخية والأسقفية وغيرها.

27 'The last Jew of Babylon' Pt 1, *Witness*, 15 July 2007, interview by Inigo Gilmore, https://www.youtube.com/watch?v=X7kJIkW1r3A. (Last accessed 26 April 2017).
The BBC talks of 'Arab Jews', forcibly torn from their natural habitat, the Arab world. 'BBC asks: will Arab Jews return?', *Point of No Return*, 27 April 2013, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2013/04/bbc-asks-will-arab-jews-return.html. (Last accessed 26 April 2017).

28. Stan Crooke, 'Stalinist roots of left antisemitism', *Workers' Liberty* site, http://www.workersliberty.org/story/2004/02/24/stalinist-roots-left-anti-zionism-1/ in alliance with the authoritarian Arab states and parts of the Western New Left. Quoted by Alan Johnson, 'The left and the Jews: time for a rethink', *Fathom*, Autumn 2015, http://fathomjournal.org/the-left-and-the-jews-time-for-a-rethink/. (Last accessed 26 April 2017).

29. See Giulio Meotti, 'The Israel-bashing industry's "intellectuals"', *The Gatestone Institute*, 16 March 2016, https://www.gatestoneinstitute.org/7610/israel-bashing-intellectuals. (Last accessed 26 April 2017).
30. Dafna Maor, 'Why journalists say Israeli-Arab reporting is rigged', *Haaretz*, 14 September 2014. Dispatch by Tom Gross, 'Why journalists say Israeli-Arab reporting is "rigged"'

14 September 2014, http://www.tomgrossmedia.com/mideastdispatches/archives/001485.html. (Last accessed 26 April 2017).

31. David M. Weinberg, 'The winning issues', *Jerusalem Post*, 6 June 2013, http://www.jpost.com/Opinion/Op-Ed-Contributors/The-winning-issues-315754. (Last accessed 26 April 2017).

32. David Matas, 'UNESCO silence on Jews from Arab Countries', *Jerusalem Post*, 21 June 2014, http://www.jpost.com/Opinion/Columnists/UNESCO-silence-on-Jews-from-Arab-countriesdav-360130. (Last accessed 26 April 2017).

33. Conversation with R. Wistrich at the exhibition opening, UNESCO, Paris, June 2014.

34. Aldo Naouri, 'Saufvotre respect' in Leila Sabbar (ed.), *Une EnfancejuiveenMéditerranéemusulmane*(Bleu autour, 2012), p.259.

35. According to a 2015 ADL poll – *ADL Global 100: an index of antisemitism*, http://global100.adl.org/ – 74 per cent harbour negative attitudes towards Jews.

36. The figure is 93 per cent in the West Bank or Gaza.(الرقم هو 93 بالمائة في الضفة الغربية أو غزة)

37. 'Over 2,000 Jews live in Morocco', *Morocco World News*, 5 July 2015, https://www.moroccoworldnews.com/2015/07/162537/over-2000-jews-live-in-morocco-report/. (Last accessed 26 April 2017).

38. Michael Frank, 'In Morocco, exploring remnants of Jewish history', *New York Times*, 30 May 2015, http://www.nytimes.com/2015/05/31/travel/in-morocco-exploringremnants-of-jewish-history.html?_r=0. (Last accessed 26 April 2017).

39. See for example Kim Sengupta, 'Iran's Jews on life inside Israel's enemy state: "We feel secure and happy"', *The Independent*, 16 March 2016, http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/irans-jews-on-life-inside-israels-enemy-state-we-feel-secureand-happy-a6934931.html. (Last accessed 26 April 2017).

40. 'Algeria creates Jewish Association for phantom Jews', *Point of No Return*, 30 July 2009, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2009/07/algeria-creates-jewish-association-for.html. (Last accessed 26 April 2017). There was also created a Directorate for Jewish Affairs in Kurdistan, even though no Jewish community has existed there since the mass airlift of 18,000 Kurdish Jews to Israel in 1950–1.

41. Woolf Institute, June 2015 workshop programme, http://www.woolf.cam.ac.uk/uploads/General%20Programme.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

42. 'Bahrain sponsors conference on Jews from Arab lands', *Point of No Return*, 10 November 2010, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2010/11/bahrain-sponsors-conference-onjews-of.html. (Last accessed 26 April 2017).

43. A. Memmi, 'Who is an Arab Jew?' February 1975, http://www.sullivan-county.com/x/aj1.htm. (Last accessed 26 April 2017).

44. Norman A. Stillman, 'Review' in Orit Bashkin, *Research Gate* of *New Babylonians: A History of Jews in Modern Iraq*, http://www.researchgate.net/publication/265697032_New_Babylonians_A_History_of_Jews_in_Modern_Iraq_by_Orit_Bashkin_. (Last accessed 26 April 2017).

45. Véronique Chemla, 'La conférenceislamiquementcorrecte de lancement du Projet Aladin', *Véronique Chemla*blog, 25 February 2015, http://www.veroniquechemla.info/2009/10/la-conference-islamiquement-correcte-de.html. (Last accessed 26 April 2017).

46. Véronique Chemla interviewed on *Radio ChalomNitsan*, 25 March 2010, http://www.veroniquechemla.info/2010/04/interview-par-radio-chalom-nisan.html. (Last accessed 26 April 2017).

47. 'Holocaust: a call to conscience', *Aladdin* website, http://www.projetaladin.org/holocaust/en/newsletters-3/reading-primo-levi-in-the-muslim-world.html. (Last accessed 26 April 2017).

48. نفس المصدر.

49. See G Bensoussan, *Les juifs du monde Arabe: la question interdite*, p.100.

50. Irena Steinfeldt, 'Why Khaled Abdul Wahab does not deserve to be called righteous', *Jerusalem Post*, 8 April 2009, http://www.pbs.org/newshour/among-the-righteous/2010/03/op-ed-2.html. (Last accessed 26 April 2017).

51. Abdelwahab Meddeb and Benjamin Stora (eds), *Histoire des relations entre Juifs et Musulmans des origines à nosjours*(Albin Michel, 2013).

52. Lyn Julius, 'A perplexing rewriting of history', *Times of Israel*, 16 April 2014, Also at *Point of No Return*, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2014/04/a-perplexing-rewriting-ofhistory.html. (Last accessed 26 April 2017).

53. Rudi Roth, 'Réécriture de l'histoire des juifs et des arabes', *Philosemitisme*blog, in 'Qu'estcequ'unacte antisemite?' *Pardès*55, pp.273–303.

54. Shmuel Trigano, 'Les Juifssont des arabes "comme les autres", uneopération de grande ampleur', *DesInfos*website, 11 November 2013, http://www.desinfos.com/spip.php?article38444. (Last accessed 26 April 2017).

55. Rudi Roth, 'Réécriture de l'histoire des juifs et des arabes', *Philosemitisme*blog, in 'Qu'estcequ'unacte antisemite?' *Pardès*55, pp.273–303.

الفصل الحادي عشر
البحثُ عن الإنصافِ للسكّان الأصليّين

"حينما لا توجدُ الذكريات فلا وجود للحقيقة، وحينما لا توجدُ الحقيقة فلا وجودَ للعدالة، وحينما لا توجد العدالة لن تتحقق المُصالحة، وعندما لا تكون هناك مُصالحة حقيقيّة بين الأطراف المُتنازعة نفسها، لا بين الحكومات، فلا وجود للسّلام الحقيقي".

إروين كوتلِر
المُحامي والناشط في مجال حقوق الإنسان ووزير العدل الكنديّ سابِقاً

لقد وقعَ اللاجئون اليهود من الدول العربية ضحيّة الظُلم والإجحاف الذي عومِلت به قضيّتهم، ولن يكون هناك أي اتّفاق سلام عادل وشامل يُرضي جميع الأطراف دون الاعتراف بقضيّتهم وتعويضهم عن معاناتهم وآلامهم، وهذا ما أدركته الحكومة الإسرائيلية على الرغم من أن هذه القناعة جاءت مُتأخرة بعض الشيء.

وفي ظلّ التطوّرات الأخيرة التي شهدتها المنطقة مؤخراً فإنه يتوجبُ على الحكومة الإسرائيلية أن تبذُل جُهداً مضاعفاً من أجل خلق حالة من التوازن بين قضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية وقضية اللاجئين الفلسطينيين، لأن الإطار الوحيد الذي يظهرُ فيه اللاجئون اليهود من الدول العربية هو في سياق خرافة "التعايش" بين العرب واليهود في تلك البلدان قبل ظهور الحركة الصهيونية. بالتالي، وبدلاً من أن يتم تصوير وجود إسرائيل على أنه ردٌ فعل طبيعي لظاهرة معاداة السامية العربية والإسلامية، أصبح يتم تصويرها على أنها الوحشُ المُستعرُ الذي دمّر حالة "التعايش" المزعوم بين العرب واليهود.

والدارس لما مرّ به اليهود في الشرق والغرب سيجدُ أن اليهودَ قد تعرّضوا للخيانة في كلا المنطقتين، ففي الشرق تعرّضوا للخيانة والغدر على أيدي القوميين العرب، وفي الغرب على يد أوروبا التي فرّ اليهود إليها هاربين من مطرقة قوانين "أهل الذمة" ليجدوا أنفُسهم تحت سندان المذابح الجماعية مُجدداً في القرن العشرين.[1]

وبالنسبة لليهود المزراحيين فإنهم لم يكترثوا كثيراً في بداية الأمر بالاعتراف بقضيتهم في ظلّ انشغالهم بحالة "التمييز العُنصري" الذي مورس بحقّهم فور وصولهم إلى إسرائيل. لكن ما قامت به إسرائيل هو أنها حلّت قضيّة اللاجئين اليهود بنجاح، والدليل على هذا هو عدم وجود أي يهوديّ يُعرّف عن نفسه على أنه لاجئ، لكن في الوقت نفسه فشِلت إسرائيل في التعامل مع قضيّة اللجوء في جانبين آخرين، الجانب الأوّل هو عدم حلّ قضيّة اللاجئين الفلسطينيين، بالتالي تراكمَت تبِعات هذه القضية وأصبحَت كالجرح المُتقرّح الذي يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، مما جعلّ قضيّتهم تمتلك شرعيّة دولية. أما الجانب الآخر للفشل فتمثّل في عدم تسليط الضوء على الجانب الأخلاقي الذي تم انتهاكه أثناء تهجير اللاجئين اليهود من الدول العربية وطردهم منها، بالتالي فشلها في إنصافهم وتحقيق العدالة لقضيتهم، خاصة وأن دولة إسرائيل لم تقُم بالضغط والمجهود اللازم للمضيّ قُدُماً في توعية الرأي العام العالميّ بهذه القضية ولفت الأنظار إليها كما يجب. أضِف إلى ذلك استخدامها لقضيتهم باعتبارها الطريقة الملائمة لتسوية قضيّة اللاجئين الفلسطينيين في الدول العربية، أي عبر توطينهم فيها.

لهذا تظلّ قضيّة اللاجئين اليهود مسألة حقوق إنسان بالدرجة الأولى، فهي قضيّة ترتبطُ بتعرّض مئات الآلاف من البشر للظلم الشديد، بالتالي فإن أبسط حقوقهم تتمثل في الاعتراف بقضيتهم وبمعاناتهم وتعويضهم، خاصة في ظل عدم وجود أي تشريعات أو قوانين تمنعهُم من المطالبة بذلك، سواء كانوا في إسرائيل أو في دول الغرب.

وبغضّ النظر عن تجاهل العرب وإنكارهم لهذه الحقيقة، إلا أن المشروع النازي الذي كان يهدفُ للقضاء تماماً على اليهود هو مشروعٌ مُرتبطٌ ارتباطاً مباشراً بتهجير ونزوح اللاجئين اليهود من الدول العربية، خاصة وأن الأنظمة العربية الحاكمة كانت تعمل بكل ما أوتيت من قوة على طرد اليهود وتنظيم رحلات الإخلاء الجوي من أجل ترحيلهم خارج تلك البلدان، هذه الأنظمة التي لم تُظهِر أي نوع من الأسف أو الأسى على الدمار الذي حلّ بالمُجتمعات اليهودية العريقة التي تواجدَت في تلك البُلدان لألف سنة وأكثر. كذلك فقد تمّ مسحُ التاريخ اليهوديّ من تلك الدول عن بكرة أبيه بطريقة توحي وكأن اليهود لم يتواجدوا أبداً في تلك الدول، بل وبلغت مشاعر الحقد والكراهية ضد اليهود إلى درجة اعتبار كلمة يهوديّ وصفاً لأي قياديّ أو سياسيّ عربي فاسِد [2]. ويُمكننا القول عموماً بأن نظرية المؤامرة المُتعلقة بسيطرة اليهود على العالم من جهة، وإنكار ما حلّ باليهود في الهولوكوست من جهة أخرى، هماسِمَتان طاغيتان بل ومُتجذرتان في العقلية العربية والإسلامية.

وحتى يومنا هذا لم تعترف الدول العربية بما اقترفته بحق اليهود ولم تُبدِ أيّ شكل من أشكال الأسف أو الاعتذار عنانتهاكات حقوق الإنسان التي اقترفتها بحقّ اليهود الذين كانوا مواطنين مُخلصين فيها في يوم من الأيام. في الوقت نفسه لم يتلقّ اللاجئون اليهودُ من الدول العربيةّ أي تعويضٍ عن الخسائر المادية المهولة التي ترتّبت على طردهم من تلك البُلدان والتي تمّت سرقتها والاستيلاء عليها من الأنظمة والحكومات العربية، بالتالي فإن قمة السُخرية تكمنُ في تصوير الصراع العربي الإسلامي مع إسرائيل على انه صراع مع قوة "إمبريالية" حين نعرفُ أن ما صادرته الأنظمة العربية والإسلامية من أراضٍ وعقارات من اليهود يُعادلُ أربعة أو خمسة أضعاف مساحة دولة إسرائيل الحالية والتي بالكادتبلغُ واحداً بالعشرة من المئة من مساحة العالم العربي.

وقد خسرت إسرائيل فرصة ذهبية لتسوية قضيّة يهود مصر وتعويضهم عن الأملاك التي تركوها خلفهم بعد أن وقعَت اتفاقية كامب ديفيد سنة 1979م مع مصر، حيث لم يتم تسوية قضية تعويضات يهود مصر منذ ذلك الحين. إن دولة كمصر هي أفقرُ من أن تتمكنَ من دفع تعويضات لليهود، بالتالي فان الحكومة المصرية في حالة قلق دائم من إمكانية أن تضطر لإعادة الأملاك والعقارات التي نُهبت من اليهود قبل طردهم منها. والحال نفسه في العراق الذي فشلت الحكومات المُتعاقبة على حكمه بعد سقوط نظام صدام حسين في تسوية قضيّة اليهود العراقيين وتعويضهم عما فقدوه، خاصة وأن الحرب الضارية بين النظام العراقي من جهة واليهود العراقيين من جهة أخرى والمتعلقة باستعادة أرشيفهم وإرثهم الفكري والديني الذي يضم الكُتب والمخطوطات والوثائق والمذكرات والسجلات، حيث ترفضُ الحكومة العراقية تزويداليهودبأي شيء يتعلق بهذا الأرشيف تحت أي ظرف.

وباعتقادي يجبُ تذكير الفلسطينيين وهم يطالبون بالعودة الجماعية للاجئين الى إسرائيل بأن التاريخ شهد حالات تبادل سكانيّ بأعداد مُتساوية [3]، فعلى سبيل المثال حدث تبادل سكاني بين اليونان وتركيا، وتبادل سكاني بين الهند وباكستان وغيرها من التبادلات السكانية التي خلّفتها الصراعات الاستعمارية في العصر الحديث، مع العلم بأن هذه التبادلات كانت أبدية ولا رجعة فيها. بالتالي يظلّ الصراع العربي الإسرائيلي هو الصراع الوحيد العالق فيما يخصّ قضيّة اللاجئين نظراً للرفض العربي القاطع لتوطين اللاجئين الفلسطينيين، باستثناء دولة الأردن بالطبع والتي منحتهم جنسيتها.

اللاجئون وعملية السلام

لا تزال عملية السلام عالقة بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي حتى تاريخ نشر هذا الكتاب، فيما انزلق هذا الصراع في منحدر خطير نتيجة حالة الحروب والصراعات الداخلية التي تشهدها العديد من الدول العربية، وفي حال جلس الجانبان وتوصلا إلى حل سياسيّ يُنهي هذا الصراع فإنه لا بُدّ لهذا الحلّ أن يتطرق لقضية جوهرية وهي قضية اللاجئين. وباعتقادي فإن رؤية الفلسطينيين لأنفهسم على أنهم الضحايا الوحيدون في هذا الصراع تشكّل عائقاً كبيراً أمام تحقيق السلام والمصالحة مع اليهود، وكلّما أنكروا التاريخ الاستعماري الإسلامي الطويل لمنطقتي الشرق الأوسط وشمال افريقيا وما تعرّض له اليهود من تطهير عِرقي حينها، كلما قلّت إمكانية تفهّمهم لحاجة اليهود إلى دولة يهودية ذات سيادة مستقلة في الشرق الأوسط. في الوقت نفسه فإن تأثر العرب والمسلمين بالمُفكّرين الغَربيين الذين لا زالوا يُصِرّون على أن اليهود لا يمتّون لمنطقة الشرق الأوسط بصلة وأنهم غُرباء عن هذه المنطقة، الأمر الذي يُقلل من احتمالية تحقيق السلام.

وقد ألزمَ الكنيست الإسرائيلي الحكومة الإسرائيلية بقانون ينصّ على عدم إبرام أي اتفاقية سلام تُنهي الصراع مع العرب دون أن تشملَ قضيّة تعويضات اللاجئين اليهود، حيث أقر الكنيست هذا القانون سنة 2010م. بالتالي يحقّ للاجئين اليهود من الدول العربية - والذين يُشكّلون بالإضافة إلى جميع من انحدر من نسلهم قُرابة نصف تعداد سكان دولة – أن يشعروا بأن ما مروا به من قسوة واضطهاد في الدول العربية لن يتم تجاهله والمرور عنه مرور الكرام، وبأنه جزء لا يتجزأ من أي اتفاقية سلام مستقبلية. كذلك فإنه لا يُتوقعُ منهُم أن يُبدوا تأييدهم لأي اتفاقية سلام تُعطي الحقوق والتعويضات للاجئين الفلسطينيين بينما تتجاهل وتُنكر حقوق اللاجئين اليهود من الدول العربية وتُنكر ما يستحقونه من تعويضات مقابل ما خسروه مادياً من أملاك وعقارات تركوها خلفهم عقب نزوحهم من تلك الدول.

ومثلما جرى الاعتقاد السائد في الأوساط السياسية فإنه لا يوجدُ من يحملُ الفلسطينيين مسؤولية تهجير اليهود من الدول العربية، وحتى وزيرة العدل الإسرائيلية السابقة تسيبي ليفني كانت قد نفَت عبر أحد تصريحاتها سنة 2013م وجودَ أي علاقة بين قضيتي اللاجئين الفلسطينيين واللاجئين اليهود [4] ،مؤكّدة على مشروعية مُطالبة الفلسطينيين بحلّ قضيّة اللاجئين الفلسطينيين عبر المُفاوَضات مع إسرائيل، وعلى حق اللاجئين اليهود بالتعبير عن أحزانهم ومآسيهم التي تعرّضوا لها، لكن عليهم أن يوجهوا ذلك النواح إلى الدول العربية التي طردتهم وهجّرتهم.

ومن منظور الحقائق فإنه لا يوجد أي مجال للشك بأن الدول العربية هي المُسبّب الرئيسي وراء قضيتي اللجوء الفلسطينية واليهودية نتيجة رفضها لقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة سنة 1947م، فاللاجئون من كلا الجانبين قد نزحوا وطُردوا من أراضيهم في نفس الفترة الزمنية تقريباً، وكلاهما مُعترفٌ به رسمياً كلاجئين من قبل المُنظمات المُختصة بقضايا اللاجئين في هيئة الأمم المتحدة مثل المفوضية السامية للاجئين وهيئة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين.

وبالنسبة للفكرة القائلة بأن اللاجئين الفلسطينيين ليس لهُم علاقة بما حلّ باللاجئين اليهود فهي تشكل مغالطة كبيرة لا بد من تصحيحها، فمن يتتبع أحداث التاريخ يجدُ أن سبع دول عربية قد شنّت حرباً على إسرائيل عقب صدور قرار التقسيم، في الوقت نفسه كان الفلسطينيون يلعبون دوراً بارزاً في التحريض ضد يهود الدول العربية بعد تحالف قياداتهم مع النظام النازي الألماني بهدف التخلّص من اليهود. كما ان القيادات الفلسطينية لعبت دوراً بارزاً أيضاً في إقحام الدول العربية في حرب ضد إسرائيل، بالتالي عليهم تحمّل عواقب خسارة تلك الحرب. بالتالي لا يمكن للفلسطينيين التهربُ من مسؤولية وقوع النكبتين الفلسطينية واليهودية على حد سواء.

في الواقع فإن الفلسطينيين كانوا يعتبرون طرد اليهود من الدول العربية بمثابة سياسة يجب تنفيذها في أقرب وقت ممكن، واستناداً إلى الصحفي اليهودي مصري الأصل ڤيكتورنخمياس فإن الفلسطينيين كانوا يلعبون دوراً بارزاً في عملية تهجير اللاجئين اليهود من الدول العربية بين سنتي 1950م و1951م [5]. وحتى يومنا هذا لا يزال الفلسطينيون يتخذون موقفاً مُتزمّتاً يخلو من أي نية لتقديم التنازلات بهدف حل هذا الصراع، لهذا اقترحَ بعض السّاسة أن يتم السماح بالعودة لعدد محدّد من اللاجئين الفلسطينيين دون أي ذِكر لقضيّة اللاجئين اليهود أو إنصافهم بأي شكل من الاشكال، الأمر الذي يُعفي الفلسطينيين وقياداتهم من أي مسؤولية تجاه ما حدث.

ولو افترضنا جدلاً موافقة إسرائيل على مطالب الفلسطينيين بإقامة دولة مستقلة ذات حدود واضحة يتم بموجبها إزالة كافة المستوطنات من الضفة الغربية بما فيها القدس، فإن هذا جميعه لا يعني لهم شيئاً دون حلّ قضية اللاجئين الفلسطينيين ولن يلغي مطالبتهم "بحق العودة"، فهم يعتبرون أن حق العودة يشكل أحد الثوابت الراسخة للقضية الفلسطينية ولا يُمكن التنازل عنه شكلاً ولا مضموناً[6]. بالتالي فإن هذا المطلب يُشكل أحد أهم العقبات في طريق تحقيق السلام، بل ويعد عاملاً رئيسياً في استمرار شلال الدماء بين الجانبين. وحتى حركة فتح التي تعتبرُ نفسها حركة "مُعتدلة" إذا ما قورنت بغيرها من المُنظمات والأحزاب الفلسطينية فإن قادتها يصرّحون مراراً وتكراراً بأنهم لن يتنازلوا عن حق العودة بأي شكل من الأشكال، الأمر الذي يعني عملية "تعريب" لإسرائيل من خلال إغداقها بملايين السكان العرب من اللاجئين والأجيال التي انحدرت من نسلهم.[7]

وخلال مقابلة مع موقع "الانتفاضة الالكترونية" سنة 2009م أدلى عمر البرغوثي مؤسس حركة المُقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات على اسرائيل المعروفة باسم "بي دي إس" قائلاً: "إن مَن يُقاتلون من أجل حقوق اللاجئين من أمثالي يُدركون جيداً أنه لا يوجد أي إمكانية للتنازل عن حق العودة وتسوية قضيتهم عبر حلّ الدولتين، هذه حقيقة واضحة وضوح الشمس على الرغم من أن الجميع يُصرّ على تجاهلها" [8]، بالتالي لا يمكنُ مواجهة هذا التعنّت الفلسطيني بخصوص حقّ العودة للاجئين سوى بقضيّة اللاجئين اليهود من الدول العربية.

كذلك فإن العلاقة بين قضيتي اللجوء الفلسطينية واليهودية من شأنها أن تفتح الباب لإيجاد بعض المرونة السياسية للتعاطي مع كلا القضيتين، على الرغم من أن حق العودة للاجئين الفلسطينيين إلى إسرائيل هو أمر غير قانوني استناداً إلى القانون الدولي باعتبارهم لم يكونوا أصلاً من مواطنيها عندما نزحوا من أرضهم [9]، كما أن الخلطَ بين اللاجئين الفلسطينيين من جهة، والمواطنين العرب في إسرائيل هو أمر لا يُساهم بأي شكل من الأشكال في الوصول إلى الحل المناسب للصراع، كما أن منحَ جماعة من اللاجئين الحقّ في العودة دون منح جماعةٍ أخرى الحق ذاته هو أمر يخلو من أي قيم أخلاقية، على الرغم من أن عودة اليهود إلى الدول العربية تشبه "عودة الأسير إلى سجنه بعد أن يتذوّق طعم الحرية" على حد تعبير الأديب العراقي سامي موريه الذي تابع وصف هذه العودة قائلاً: "لقد تحطمت قواربُ العودة إلى العراق ولم يعد لنا أي مكان فيه، وإن كان المسلمون يقتلون بعضهم البعض في الدول العربية بهذه الطرق الدموية، فكيف سيكون مصيرنا نحنُ اليهودُ إن عُدنا إلى هذه الدول؟"[10]

بالتالي يعيشُ اللاجئون اليهود من الدول العربية منذ ثلاثة أجيال في إسرائيل ودول الغرب، وباعتقادي لن تجدَ أي يهوديّ منهُم يرغبُ بالعودة إلى أي من تلك الدول العربية ليعيش فيها، خاصة في ظل الظروف المزرية التي تُخيّم عليها، وفي حال امتلكَ أي منهم الرغبة لزيارة تلك الدول فإنها ستكون كزيارة السائح لأي بلد يرغبُ بزيارته والتعرف عليه لا أكثر ولا أقل، إلا في حال كان من اليهود الذين نُهِبَت بيوتهم من القدس سنة 1948م قبلَ أن تُصبح تحت حُكم إسرائيل.

ولربما يقولُ البعضُ بأنه لا يوجدُ أي مجال للمقارنة بين قضيّة اللجوء الفلسطينية وقضيّة اللجوء اليهودية باعتبار أن الأخيرة قد تم إيجاد حلّ لها، بينما لا زالت الأخرى عالقة دون حل حتى يومنا هذا. وفي هذا السياق ربما يكون من الصعب تبريرُ أي موقف يدّعي حلّ قضيّة اللاجئين الفلسطينيين وواقع انتهاك حقوق الانسان الذي يعيشونه في الدول العربية المُستضيفة لهم، لكن إذا ما أردنا الحَديث عن العقبات التي تقفُ أمام عملية دمجهم في المُجتمعات التي يعيشون فيها فإن العقبة الكُبرى في هذا الطريق هي وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين المعروفة باسم "الأونروا" باعتبارها المؤسسة الأممية الوحيدة المخصصة لقضيّة اللاجئين الفلسطينيين فقط، وتمنحُهُم هويّة اللجوء بصفة متوارثة من الأجداد إلى الأبناء، مع العلم بأن ميزانية الأونروا تشكل قرابة ثُلث ميزانية المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين والتي تتعامل مع جميع قضايا اللجوء في جميع أنحاء العالم باستثناء قضية اللجوء الفلسطينية، والتي يجبُ أن يكون عدد العاملين فيها أربع أضعاف عددهم حالياً نظراً لحجم المسؤوليات والأعباء المُلقى على عاتقها. [11]

في الوقت نفسه لا يجبُ أن تُعاقبَ إسرائيل لأنها قامت بم يجبُ القيام به فيما يتعلّقُ بعملية استيعاب اللاجئين اليهود من الدول العربية ودمجهم في المُجتمع الإسرائيلي، وينبغي على القيادات العربية والفسطينية القيام بما قامت به إسرائيل بالنسبة للاجئين، حيث يجب عليهم منحُ اللاجئين الفلسطينيين صفة المواطنة الكاملة في الدولة الفلسطينية وفي كافة الدول العربية التي يتواجد فيها اللاجئون الفلسطينيون، وهو حقّ للفلسطينيين اللاجئين إلا أن القيادات العربية والفلسطينية لا زالت ترفض منحه للفلسطينيين حتّى يومنا هذا [12]، وعِوضاً عن هذا لا زالوا يوهِمون الفلسطينيين "بحقّ العودة" إلى إسرائيل، هذه الأرض التي لم يرَها أولئك الذين يُطلقون على أنفسهم "لاجئين".

وباعتقادي أيضاً أن حشدَ الدعم المالي دولياً استناداً إلى مبادرة الرئيس بيل كلينتون التي تحدثتُ عنها في الفصول السابقة من شأنه أن يُعوّض كلا اللاجئين الفلسطينيين واليهود عما فقدوه من أملاك، كما من شأنه أيضاً أن يُساهم بشكل كبير في عملية دمج اللاجئين الفلسطينيين في الدول المُضيفة لهم، وهذا ما تؤكده ليفانا زمير المسؤولة عن المنظمات الإسرائيلية التي تُمثّلُ اللاجئين اليهود من الدول العربية حين قالت بأن "تحقيق السلام لن يجلبَ الدعم الماليّ الدولي، بل إن الدعم المالي الدوليّ هو الذي سيجلبُ السلام"[13]. وباعتقادي أن دولة إسرائيل ودول الغرب بشكل عام ستساهم في هذا الدعم، لكن من الضروريّ أيضاً أن تُساهم الدول العربية في حشد هذا التمويل حتى لو كانت مساهماتها بسيطة، كما يجبُ أن يُخصص جُزءٌ من هذا الدعم المالي لقرابة مئتي ألف لاجىء يهودي ممن استقروا في دول الغرب لا في إسرائيل لتعويضهم عن بعض ما فقدوه من ممتلكات نتيجة طردِهم وتهجيرهم من الدول العربية.

مُعاداة الساميّة: سببٌ رئيسيّ من أسباب الصراع

إن الوصف الذي نستخدمه عادة لوصفِ الصراع القائم في الشرق الأوسط على أنه صِراع فلسطيني- إسرائيلي ليس وصفاً دقيقاً لحقيقة الصراع، بل علينا وصفهُ بأنه صراع عربي- إسرائيلي إن صحّ التعبير، أو صِراع بين المُسلمين وغير المُسلمين، فالإسلاميّون يسعون لقتلُ غير المُسلمين أياً كانت ملّتهم أو ديانتهم في حال رفضوا اعتناق الدين الإسلاميّ والانصياع للأحكام والقوانين الاستعمارية للشريعة الإسلامية [14]. بالتالي يجبُ علينا أن نُدركَ تماماً بأن ظاهرة معاداة السامية في الدول العربية والإسلامية هي سببٌ من أسباب هذا الصراع وليست نتيجة له، وفي حال تم الاعتراف بهذه الحقيقية فإنه لن يُنظر من الآن وصاعداً إلى تحالف العرب مع النازية الألمانية ضد اليهود على أنه مجرد تحالف براغماتي بين الجانبين ضد الاستعمار الأوروبي، لأنه لو لم يخسرُ الألمانُ الحربَ أمام دول الحلفاء لكانت الإبادة هي المصيرَ الوحيدَ الذي ينتظرُ يهودَ دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، خاصة وأن المُفتي الحاج أمين الحُسيني كان قد ابتكرَ نهجاً جديداً مُعادياً للسامية عبر إقحامه للدين الإسلامي في قضيّة عِداء وكراهية اليهود، وهو نهجٌ لا زال يؤثّرُ بشدّة على عقول وأفكار الكثير من العرب والمسلمين حتى يومنا هذا. لهذا يجبُ إدراك هذه الحقيقة الي تقولُ بأن عدم تقبّل فكرة الإختلاف والتعددية في دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا قد أدّى إلى تسميم العلاقات بين العرب واليهود، وبين المُسلمين والمسيحيّين، بل وحتى بين المُسلمين أنفسهم.

صورة تُظهرُ مقهى من مقاهي منطقة لاجوليت في تونس وازدحام الزبائن فيه، هذه المنطقة التي يخشى الكثير من السواح في يومنا هذا الاقتراب منها خوفاً من الهجمات الإرهابية التي يشنها المتطرفون الإسلاميون (حقوق الصورة محفوظة لكورتيزي تونس هوستل)

وعلى الرغم من أن فكرة الجهاد الإسلاميّ قد تسببت في مقتل الكثير من المُسلمين في عدد كبير من الدول وبأعداد تفوق أعداد اليهود، إلا أن راية معاداة الساميّة التي ترفعها العديد من الحركات الإسلامية المُتطرفة والمستوحاة أصلاً من الفكر النازيّ تظلّ السبب الرئيسي الذي يقفُ خلف الكثير من الهجمات الإرهابية في الدول الغربية والتي وقعت خلال العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين. بالتالي لن يتمكنَ الغرب من مواجهة ومكافحة هذا الارهاب قبل أن يتم توصيفه بوصفه الحقيقي وهو الإرهابُ الفاشيّ الإسلاميّ.

ثلاثُ استعمارات مُتتالية

يُسلّطُ هذا الكتاب الضوء على ثلاثة قوى استعمارية مُتتالية خضعَ لها اليهودُ باعتبارهم سكاناً أصليين لمنطقتي الشرق الأوسط وشمال افريقيا، فالاستعمارُ الأول تمثّلَ في الغزو العربي والإسلامي لهاتين المنطقتين خلال القرن السابع للميلاد، أما الإستعمار الثاني فكان الاستعمار الأوروبي خلال القرن التاسع عشر والذي وعدَ اليهود "بتحريرهم" من الاستعمار الأول ولم يفعل ذلك، لكن هذه الحقيقة لم تُغيّر من أفكار القوميين العرب الذين ينظرون لليهود على أنهم أذيال للقوى الاستعمارية الأوروبية ومُتعاونون معها.

وبالنسبة للإستعمار الثالث الذي خضع له اليهود فهو استعمارُ الحقائق وعملية تحريفها وتزييفها، سواء كان ذلك في الإعلام أو في المحافل الأكاديمية والدينية وكُتب التاريخ وغيرها، خاصة قصّة اليهود المزراحيين من الدول العربية والذين تمّ تزييف الحقيقة المُتعلقة بقضيتهم وما مرّوا به من مآسي، بل وصل الأمر إلى مسح تاريخهم كلياً وكأنهم لم يكونوا موجودين أصلاً في يوم من الأيام في هذه الدول والمُجتمعات. وبجميع الأحوال فقد تعاطَت هيئة الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان مع هذا التزييف والتحريف للحقائق، مُتناسين أن التجاهل والإنكار لمثل هذه القصة المأساوية لا يقلّ في قسوته عن الظلم والمآسي التي تعرض لها اليهودُ في الدول العربية.

وبمقارنة اليهود مع مسيحيي الشرق الأوسط، سنجدُ أن اليهود قد تمّكنوا من إقامة دولة مستقلة لهم فوق أرض أجدادهم، خلافاً للمسيحيّين الذين لم ينجح سوى المَوارنةُ منهُم في تحقيق ذلك عبر إقامة دولة لهم في منطقة جبل لبنان بعد مساعدة فرنسا لهمُ واقتطاعها من سوريا حتى تكون الملاذ الآمن لجميع الموارنة والمسيحيين في هذه المنطقة، لكن ما يشهدهُ لبنان في الوقت الحالي هو تحوّل الموارنة من أغلبية دينية إلى أقليّة دينية في ظل سيطرة مليشيات حزب الله المدعومة إيرانياً على مقاليد السلطة والحُكم في لبنان.

وقد أدلى المُطران الماروني اللبناني أغناطيوس مبارك بشهادته أمام لجنة اليونسكوب التي تم تشكيلها سنة 1947م لدراسة وضع أرض فلسطين الانتدابية بعد انسحاب الانتداب البريطاني، وخلال هذه الشهادة عبر عن تأييده لإقامة دولة يهوديّة في فلسطين مُعبّراً عن أن المسيحيين الموارنة في لبنان قد شعروا خلال لحظة معينة بما شعرَ به اليهودي عبر التاريخ قائلاً: "هنالك أسباب اجتماعية ودينية وإنسانية تقتضي بإقامة وطنين لأقليتين دينيتين في هذه المنطقة: وطنٌ للمسيحيين في لُبنان ووطنٌ لليهود في فلسطين مثلما كان الحال عليه قديماً" [15]. فعلياً تمكّن اليهود من إقامة دولتهم المستقلة بينما لم ينجح المسيحيون في ذلك.

في الوقت ذاته حاولَ المسيحيّون العربُ البحثَ عن حلول لمُعضلاتهم تحت ظلّ الدكتاتوريات والقوميّات العربية من خلال الفكر الشيوعيّ، وفي الوقت الذي كان لليهود حركة صهيونية تلبي طموحاتهم القومية تأقلم المسيحيون مع وضعهم بين الأغلبية السكانية المسلمة في المجتمعات العربية، بل وكان عدد كبير منهُم من أشد المُتحمسين للدفاع عن القضية الفلسطينية، كما كان هنالك عدد من الشخصيات المسيحية التي تولّت قيادة الحركات القومية العربية في عدد من الدول العربية مثل سوريا والعراق، وهذا أمر ربما يُمكننا تفهّمه باعتبارهم يُحاولون البحث عن هويّة أقليمية مقبولة بين العرب وفي الوقت ذاته بعيدة كل البعد عن الهوية الإسلامية المفروضة عليهم [16]، بالتالي كان الفكر الشيوعيّ والفكر القوميّ العربي هو مخرجهُم الوحيد من أجل الخلاص من تشريعات وقوانين أهل الذمة.

وقد فشلَ هؤلاء القوميون المسيحيون فشلاً ذريعاً في الوصول إلى أي قدرٍ من المساواة بينهم وبين القوميين المُسلمين، فكان المسيحيون في القرن الحادي والعشرين عُرضة مراراً وتكراراً لهجمات الدولة الإسلامية - داعش - واضطهادها الوحشيّ لهُم، بالتالي كان مصيرهُم محصوراً بين خيارين أحلاهُما مُر: إما اعتناق الإسلام أو البقاء على دياناتهم والخضوع للمُسلمين لكن مع دفع ضريبة الجزية والخضوع لقوانين أهل الذمة.

لقد سيطرَ المُتشددون على جميع التيارات الفكرية الليبرالية والمعتدلة في العالم العربي، فعلى سبيل المثال تم إقصاء عدد كبير من المؤلفين والأدباء والمفكرين العرب تماماً من المشهد الفكري والثقافي خلال السنوات الأخيرة من حُكم الامبراطورية العُثمانية، من أمثال الشاعرين العِراقيين جميل صِدقي الزهاوي ومَعروف الرصافي وغيرهم ممن كانوا يُطالبون بتحقيق المساواة وبتطبيق حقوق الإنسان، وقد اندلعَت أحداث عُنف دموية عَقِب أحد خطابات معروف الرصافي التي امتدَح فيها القوانين العُثمانية باعتبارها تمنحُ الأقليات الدينيّة والعِرقيّة حقوقاً مُتساوية مع غيرهم .[7]

في الوقت نفسه ظهرَت أيديولوجية الإسلام السياسيّ المتشدد من بين حُطام الفكر القوميّ العربي بعد فشله، وخير من يُمثّل وجود هذه الأيديولوجية المُتطرّفة هُم مُجاهدو تنظيم الدولة الإسلامية داِعش، بالإضافة إلى التيار الديني المُتشدد في الجمهورية الإيرانية، وهؤلاء لا زالوا جُزءاً من واقع هذه المنطقة ولم يتم هزيمة أيديولجياتهم حتى الآن على الرغم من الهزائم العديدة التي تكبّدها تنظيم داعش على الأرض. من ناحية أخرى فإننا نجدُ أن الهوية العربية العِلمانية هي هوية مُرتبطة بالإسلام أيضاً، خاصة وأن الديانة الإسلامية هي الديانة الرسميّة التي يستندُ إليها الدستور في جميع الدول العربية، بالتالي فإن غير المُسلمين لا يملكون أي خيار آخر سوى القبول بالأمر الواقع والانصياع لهذه القوانين والتشريعات باعتبارهم مواطنين "درجة ثانية" في هذه الدول.

ويُمكننا القولُ عُموماً بأن جميع الدول العربية والإسلامية لم تُظهِر اي احترام حقيقيّ لمُتّبعي الديانات الأخرى على الرغم من "السماحة" التي كانت تُظهرها تلك الدول تجاههم من وقت لآخر، ويُمكننا استثناء تُركيا تحت حُكم أتاتورك من هذا الواقع خاصة وأن حُكمه شهد احتراماً للأقليات عير الإسلامية في عهده، ويقولُ الكاتب اليهوديّ التونسي ألبِرت مِمّي في هذا السياق:"لم يكُن العربُ يُظهِرون أي سماحةٍ تِجاه المُجتمعات اليهودية في البُلدان العربية، ولم يستفق اليهود العربُ بعدُ من حالة الصدمة التي تعرضوا لها نتيجة رؤيتهم لليهود الذين كانوا أذلاء صاغرين في الدول العربية يوماً وهُم يرفعون رؤوسهم ويتخلصون من حالة الإذلال تلك، بل وحصولهم على دولة مُستقلة أيضاً! لأنه يصعبُ على العرب تقبل فكرة أن اليهود لم يعودوا أذلاء مُطاطأي رؤوسهم من الآن وصاعِداً".

وعلى الرغم من أن الفلسطينيين يصوّرون أنفسهم على أنهم أقليّة تعرّضت لشتى أنواع المآسي والعذابات، إلا أنهم فعلياً جزءٌ من الأمة العربية التي يمتدّ وجودها في جميع دول الشرق الأوسط كأغلبية سكانية، بالإضافة إلى تحالفهم مع قوى عديدة لديها الإرادة لسحقِ جميع الأقليات في هذه المنطقة وجعلِها خاضعة ومُستسلمة تماماً لحكم الأغلبية العربية الإسلامية [19]. ومن الجدير بالذكر هُنا هو أن القضيّة الفلسطينية قد ترعرت في بداية الأمر في أحضان القوميين العرب باعتبارها قضيّة عربيةً بَحتة، ولاحقاً أصبح لها بُعدٌ آخرُ معادٍ للسامية تجسّد في دعم الإسلاميين لها انطلاقاً من إيمانهم الراسخ بأنه لا يحقّ لليهود الوجودُ على شبرٍ واحدٍ من أرض فلسطين. [20]

ومثلما وضّحتُ في الفصول السابقة فإن خلافَ العرب والمُسلمين مع إسرائيل يتخذُ طابعاً تطغى عليه معاداة السامية انطلاقاً من المنزلة المُهينة التي كان اليهود في الدول العربية يندرجون تحتها باعتبارهم من "أهل الذمة"، لكن ما حدثَ في القرن العِشرين هو تطوّرُ حالة الازدراء والمهانة تلك إلى حقد وكراهية ضدّ اليهود، خاصة في ظل العقلية العربية المُستبدة القائمة على شيطنة الآخر، وهي العقلية ذاتها التي تُدعو إلى مُقاومة دينية وثقافية شَرسة لفِكرة الدولة اليهودية [21]. إن هذه العقلية المُستبدة هي التي أدت بنهاية المطاف إلى إفراغ العالم العربي والإسلامي من سكانه اليهود وغيرهم من الأقليات الدينية والعِرقية الأُخرى، وهي العقلية نفسها التي لا زالت تُدير الصراع العربي مع إسرائيل، وباعتقادي لن يتحقّق السلام طالما ظلّت هذه العقلية التي تأثرت بالفكر النازيّ الألماني المُعادي للسامية وشغفه بارتكاب المذابح الجماعية ضد اليهود موجودة في هذه المنطقة.

لهذا تظلّ جميع الأحاديث والنقاشات حول إيجاد حلّ للصراع العربي الإسرائيلي في إطارها النظريّ طالما ظلّت العقلية الإسلامية مؤمنة بوجوب قيامه بشنّ حربٍ دينية على اليهود من أجل تحرير كل شبر من الأرض التي يعتقدون بأنها كانت "وقفاً إسلامياً" في يوم من الأيام. كذلك فإن الأصولية الإسلامية ترفضُ رفضاً قاطِعا قبول فكرة أي حكم أو سيادة يهودية فوق أي جُزء من الارض التي كان يحكمها الإسلام يوماً ما، ومن وجهة نظر الجهاديين المُسلمين فإنه لا يوجد أمر مدعاة للضحك والسخرية أكثر من فكرة خُضوع المُسلم للحُكم اليهوديّ!

من جهة أخرى فإن ثقافة الشرف والعار التي تهيمنُ على العقلية العربية تشكل عقبة أخرى أمام التوصّل إلى حل سلمي يُنهي الصراع كونها تلعبُ دوراً بارزاً في المواقف التي يتّخذها العربُ من إسرائيل واليهود بشكل عام، واستناداً إلى ثقافة الشرف والعار فإنه لا يوجدُ أمرٌ أكثرُ عاراً ومهانة من أن يُهزَم العربي على يدِ أولئك اليهود الذين كانوا في يومٍ من الأيام خاضِعين مُذعنين لقوانين وتشريعات أهل الذمة في البُلدان العربية [23]. والأخطر من هذا كله هو أن هذه الثقافة ترى إقامة "أهل الذمة" دولة خاصة أمراً فيه إهانة للشرفِ الإسلامي وسيادة المُسلمين على غيرهم، بالتالي فإن ما ارتكبه اليهود - من وجهة نظر العرب والمسلمين - هو بمثابة الخطيئة التي لا تُغتفر، حيث تمرّدوا على أسيادهم، بل وتمكّنوا من هزيمتهم في عدة حروب، الأمر الذي يجعلُ هذ الواقع الذي يُهينُ فيه "العبدُ" اليهوديّ "سيّده" المُسلم أمراً من المستحيل احتماله، بالتالي فإن دولة إسرائيل ذات الأغلبية السكانية اليهودية هي مسألة تؤرّقُ المُسلمين وتقضّ مضاجِعهُم.

وحتى يتم إنهاء هذا الصراع لا بد للعالم العربي أن يتحمّل مسؤولية ما اقترفه من أخطاء، كما أن عدم قدرة العرب على استبدال السؤال الذي يشغل تفكيرهم دوماً "مَن ارتكبَ هذا بحقّنا؟" بالسؤال "ما هي الأخطاء التي ارتكبناها نحن؟" تعني بقاءهُم غارقين في مستنقع "عقليّة الضحية"، بالتالي سيدفعُ كل من هو غيرُ مسلم في الشرق الأوسط ثمن هذه العقلية وسيكونون كبش الفِداء في هذه الحالة. كذلك فإن تحقيق السلام الحقيقي يتطلّبُ ثورةً نفسيّة واجتماعية وثقافية في العالمين العربي والإسلامي بهدف استئصال حالة الحقد والكراهية ضدّ اليهود ودولتهم، كذلك يجبُ اجتثاث الأفكار النازية المُتغلغلة في العقلية العربية والتي تصوّر اليهود ودولتهم بأبشع الصور الشيطانية، إذ كيف يتحقّق السلام في هذه المنطقة وهنالك ملايين العرب ممن لا زالوا يؤمنون بمثل هذه الأفكار حتى الآن؟

إن أحد الاختبارات التي يجبُ أن يخضعَ لها العالمان العربي والإسلامي للتأكد من جاهزيته لتحقيق السلام الحقيقي يتمثّل في الاعتراف بما حدثَ في المحرقة اليهودية المعروفة بالهولوكوست، والمقصودُ هُنا اعترافٌ صريحٌ يخلو من أي مقارنات سخيفة تشبّهُ ما فعله النازيّون باليهود بما يحدثُ بين الفلسطينيين والإسرائيليين، باعتبار أن إنكار ما حلّ باليهود في المحرقة يشكل ظاهرة ذات تبعاتٍ كارثيّة على العقلية العربية والمسلمة التي ترى بأن الاعترافَ بالمحرقة لا يهدفُ إلا لزيادة التضامن والتأييد لإسرائيل وحشد حالة من التعاطف مع اليهود، ومثلما يوضّحُ ماثياسكُنتزل في هذا السياق فإن "إنكار ما حدث في المحرقة يزيدُ من احتمالية حدوثها مرّة أُخرى". [24]

صورة يظهرُ فيها ديڤيد غَربي الذي تم طردهُ من ليبيا بعد زيارته لها بسبب دخوله إلى موقعٍ أثري قديم وهو كنيس دار البيشي في طرابلس سنة 2011م (حقوق الصور محفوظة لصهيب سالم - رويترز).

في الوقت نفسه فإن الواقع ليس بتلك الدرجة من السواد والسلبية، خاصة بعد أن بدأت تطغى الواقعية البراغماتية على بعض السياسات العربية، هذه النظرة الواقعية المُختلفة التي بإمكاننا رؤيتها بين الفينة والأخرى في جوانب مُختلفة، فعلى سبيل المثال قامَت كلٌ من مصر والأردن بتوقيع اتفاقيات سلام مع إسرائيل، فيما بدأت العلاقات غير الرسمية بين إسرائيل وعدد من الدول العربية تتخذٌ منحى إيجابياً في عدة مجالات، أضِف إلى ذلك أن التهديد النوويّ الإيراني لدول المنطقة أصبح سبباً للتعاون المُشتركِ بين العديد من الدول التي كانت تُعادي بعضها البعضِ في السابِق.

وفي الوقت الذي بدأت فيه العلاقات بين دول وحكومات المنطقة تشهدُ تقارباً كبيراً نتيجة وجود مصالح مُشتركة تجمعُ بينها، يظلّ إحلال التقارب بين شعوب المنطقة تحدّياً قائماً ويتطلّبُ جُهداً كبيراً من أجل الوصول إليه، ولربما يشعرُ أحدُنا بأن تحقيق هذا التقاربِ يكادُ يكونُ مُستحيلاً في بعض الأحيان، خاصة عندما يَرى مشهداً ليهوديّ ينجو من الموت بأعجوبة بعد أن قام عددٌ من الأشخاص بالاعتداء عليه أثناء زيارته لدولة ليبيا [25]، وهو الشعور ذاته الذي يختلجُ صدري عندما أسمعُ عن التشريعات والقوانين التي تُحرّضُ على دولة إسرائيل واليهود والتي لا زالت مع الأسف موجودة في العديد من الدول. بالتالي يتوجّبُ على العرب والفلسطينيين أن يُولوا اهتماماً كبيراً لتعليم السّلام الحقيقي وكيفية الوصول إليه لأبنائهم إذا ما أرادوا فِعلاً تحقيق السلام.

التنكّر للحقوق السياسية الأقليات

إننا بحاجة ماسّة لأن نرى تغييراً جذرياً في الطريقة التي ينظرُ بها العالم العربي والغربي للحقوق السياسيّة في هذه المنطقة، فعلى الرغم من أن الغرب قد أسهمَ في تأسيس اثنين وعشرين دولة عربية إلا أن دولة إسرائيل هي الدولة الوحيدة في هذه المنطقة التي يُنظر إليها على أنها نتاجٌ لجهود الحركة الصهيونية التي ساهم بها "الاستعمار الأوروبي"، وبعد هزيمة الامبراطورية العثمانية عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى طالبَت العديدُ من الأقليات غير العربية مثل الأكراد والآشوريين بحقّ تقرير المصير [26]، لكن القوى الاستعمارية لم تفي بوعودها لهم، بالتالي ظلّت هذه الأقليات على وضعها الحالي دون أي سيادة خاصة بها حتى يومنا هذا، بالتالي خضعَت هذه القوى بالإضافة إلى العرب "المُعتَدلين" لمطالبِ القوميّين العرب فيما يخصّ عدم منح تلك الأقليات أي كيانات ودول مُستقلة.

وبالعودة إلى فترة حُكم الدولة العُثمانية فإننا نرى أنها كانت غارقة في مُستنقعٍ من الدماء التي سُفِكَت نتيجة عدم تقبّل الأتراك لفكرة وجود "الآخر" نتيجة لتقاطع أيديولوجية الفِكر القوميّ من جهة والإسلام من جهة أخرى، ولم يكن هذا الواقع حِكراً على الدول العربية فقط، بل على الدول غير العربية مثل تُركيا التي تَعتبرُ مُجرد كونك تركياً يعني تلقائياً أنكَ شخص مُسلم، بغضّ النظر عن مدى عُمق وتأثير عِلمانية أتاتورك في نظام الدولة [27]، كما أن مذابح التطهير العِرقي التي ارتكبتها تركيا بحقّ اليونان البونتكيين لا تختلفُ كثيراً عن المذابح التي ارتُكبَت بحقّ اليهود في الدول العربية وحتى في تُركيا نفسها، حيثُ انخفضَ عدد اليونان البونتكيين في تُركيا من مليون وثمانمائة يوناني إلى ألف وسبعمائة فقط، أما بالنسبة لليهود فقد ارتكبَ الأتراك بحقهم عدداً من المجازر والمذابح مثل مجزرة سنة 1995م.

واستناداً إلى ما نراه في في الوقت الحالي على أرض الواقع، فإن تقبّل الأقليات غير المُسلمة وغير العربية في العالمين العربي والإسلامي مرتبطٌ بتخلّي تلك الأقلّيات عن هويّتها الخاصة بها، بعبارة أخرى يجبُ على تلكَ الأقليات أن تتخلّى عن فكرة تعريفها عن نفسها بأي هوية أخرى سوى العربية والإسلامية. في الوقت نفسه فإن فِكرة التنكّر للحقوق الجماعية للأقليات عبر عدم منحها كيانات وسياداتٍ مُستقلّة هو أمرٌ متجذرٌ في التاريخ العربي والإسلامي، وفي أحسَن الأحوال كان يمنحهُم الإسلام قَدَراً من الحرية الدينية فقط، إلا أنه لم يمنحهُم أي حقّ لتقرير مصيرهم وبناء كيانات مُستقلة ذات سيادة خاصة بهم أبداً.

إن القيمَ التي يؤمنُ بها القوميّون العربُ لا تحترم تعدّدية الأقليات ولا حقّهم في أن يكونوا مُختلفين عن العرب، بل إن هذه القيم والاخلاقيات قد وضعَت جميع القوى والسلطات في أيدي طبقة مُسلمة سُنيّة مُتنفّذة قامَت بقمع واضطهاد الأقليات الدينية والعرقية في العالم العربي، بِدءاً من الأقباط ومروراً بالامازيغ والأشوريّين وانتهاءاً بالأكراد وغيرهم، كما أن هنالك مثالاً آخر على هذه العقلية القمعية التي تستهدفُ الأقليات: إنها الطائفة الشيعيّة وفِكرها العُنصريّ التمييزي وما قامت به من أعمال قمع وظلم واضطهاد عقب الثورة الإسلامية في إيران سنة 1979م، حيث قام الشيعةُ بقمع الأقليات وقتل المِثليين بالإضافة إلى كل من اعتنق ديناً آخر عن غير الإسلام، ناهيك عما قامت به من تضييق للخِناق على المؤسسات اليهودية وحرمان اليهود من المُشاركة في الحياة السياسية، باستثناء السماح بوجود عضو يهوديّ واحد في البرلمان الإيرانيّ، مع العلم أن هذا العضو يقتصرُ دوره على كونه بوقاً للحكومة الإيرانية، بحيثُ لا يتفوّه بأي كلمة دون أن تُملى عليه.

وفي هذا السياق يُعلّق بِرنارد لويس قائلاً: "هل يوجد لدى الإسلام المُعاصر أي جاهزية لتقبّل واستيعاب فكرة وجود دول مُستقلة لغير المُسلمين في قلبِ العالم الإسلاميّ، أقصدُ دولة إسرائيل باعتبارها كياناً مُستقلاً لليهود، ودولة لُبنان باعتبارها كياناً مُستقلاً للمَسيحيين؟ لقد كان الإسلام - ولا زال - ومنذ البداية ديناً يسعى للاستيلاء على السلطة والقوة، ومن وجهة نظر المُسلمين فإن السلطة لا يجبُ أن تكون في يد أحد سوى المُسلمين، فيما يرى البعضُ الآخر منهُم أن تسامح الإسلام يكمنُ في هيمنته على الآخرين، وبأن حُكم المُسلمين لغير المُسلمين هو أمرٌ طبيعيّ جداً بل هو الصّوابُ بعينه، لأن حُكم غير المُسلمين للمُسلمين يُجسدُ مُخالفة لتعاليم وتشريعات الله بل ومخالفة للفطرة الإنسانية أيضاً، بالتالي يجبُ أن يحكمَ المسلمون غيرَ المُسلمين في كل بقاع الأرض سواء كان هذا في كشمير أو فلسطين أو لبنان أو قُبرص أي مكان آخر. ومن الجدير بالذكر أن الغربَ لا زال ينظرُ للإسلام نظرة سطحية من منظور ضيق جداً، كون الغرب يعتبرُ الإسلامَ مجرّد دينٍ فقط، بينما يُعدّ الإسلام فعلياً ديانة ومُجتمع وانتماء وأسلوب حياة شامل. كما أن الغربَ لا زال يجهلُ حقيقة أن المُجتمعات الإسلامية لا زالت تعيشُ مرحلة الصّدمة التي خلّفها انهيار الحكومات والامبراطوريات الإسلامية، الأمر الذي جعلَ المُسلمين يخضعون لحُكم غير المُسلمين ولقوانين الكُفار من وجهة نظرهم. ولا زال اليهود والمسيحيون يدفون ثمنَ تبعاتِ هذه الصّدمة حتى الآن".[28]

كذلك فإن جُهودَ العَرَب والمسلمين من أجل تدمير إسرائيل لم تتوقّف حتى يومنا هذا، ويُمكننا القولُ بأن الفلسطينيين هُم مُجردُ أداة يستخدمها العربُ والمسلمون من أجل تحقيق غايتهم الكُبرى، أي مسحَ الوجود اليهودي ودولة إسرائيل بهدف "تحرير" فلسطين وإقامة دولة ذات غالبية سكانية عربية مُسلمة فوق أرضها، وهي غاية واضحة وضوح الشمس خاصة عندما نسمعُ بحلّ "الدولة الواحدة" الذي يتكرر مراراً وتكراراً على ألسنة العرب والمسلمين، وهو حلّ يَقضي بإقامة دولة إسلامية أحادية القومية [29]، وفي حال سيطرة حركة إسلاميّة جهادية مثل حركة حماس على مقاليد الحُكم في هذه الدولة فإن من سيتبقى من يهود فوق هذه الأرض بعد "زوال إسرائيل" سيعيشون بصفتهم أقلية دينية خاضعة ومُذعنة لحُكم الشريعة الإسلامية.

إن جميع الأقليات في دول منطقة الشرق الأوسط تتعرض لانتهاك متواصل لحقوقها الإنسانية، وجميعها تعيش حرب الصراع من أجل البقاء في هذه المنطقة، الأمر الذي يُشكل انتهاكا صارخاً للمادة الثامنة عشر من ميثاق الأمم المُتحدة والذي يؤكد على ضرورة احترام حقوق هذه الأقليات من قبل الأغلبية، لكن يُمكننا القولُ بأن اليهودُ كانوا من ضمن بضع أقليات أخرى ممن تعرضت لتطهير عرقيّ مُمنهجٍ، بالتالي اختفى وجودها تماماً من دول العالم العربي.

كذلك فإن مُصطلح أقليّة في دول العالم العربي عادة مايحملُ مدلولات الأسى والتعاسة لأصحابه، ومثلما يوضّحُ رجل الدين القبطيّ كريستوف عياد فإن "إنتماءَكَ لأقليّة في مصرَ يعني اعترافَك ضمنياً بأنك ضيفٌ في وطنِك، يعني تنازلكَ عن فكرة انتمائِك لأي قوميّة أُخرى وبأنه ليس لك أي علاقة بالفراعنة" [30]، وهو توصيفٌيُلائمُ ما تعرّضَ له اليهود عندما كانوا في البُلدان العربية، حيث أنهم عوملوا كالضيوف في أوطانهم على الرغم من أن الثقافة اليهودية كانت تُشكّل مكوناً رئيسياً من مكوّنات الهويّة الإنسانية لهذه المنطقة، وفي حال استمرَ الحال على ما هو عليه في كل من إيران وتُركيا فإن هنالك خطر وجودي يُهدد الأقليات الدينية في هذين البلدين، تماماً مثلما حدثَ في باقي الدول العربية.

ومن باب المُفارقة فإن عدداً مُتزايداً من الدول الإسلامية مثل باكستان وماليزيا هي دولٌ تخلو تماماً من أي وجودٍ يهودي، إلا أنها في الوقت نفسه تُلقي باللوم على اليهود في كل مُصيبة تحلّ بالعالم، صغيرة كانت أم كبيرة، خاصة وأن مثل هذه الدول لا زالت غارقة في مُستنقع المؤامرة التي تصوّر اليهود على أنهم المُسيطِرون والمُتحكّمون في العالم. [31]

إن استهداف الأقليات وانتهاك حقوقها في مُجتمعٍ هو أحد الدلائلِ التي تشيرُ إلى أن هذا المُجتمع هو مُجتمعٌ مريضٌ ومُختلّ بكلّ ما تحملهُ الكلمة من معنى، فالمُجتمع السّليمُ لا يُعامل الأقليات بهذه الطريقة ولا يقوم بإقصائِها من كل ما له علاقة بالسلطة والحُكم مُمارساً المحسوبية والمُحاباة في تعامله معهُم. كذلك فإن المُجتمع المدنيّ السليم يضمنُ لأقلياته حقوقهم المدنية والإنسانية بالإضافة إلى قيامه بحمايتهم من أي خطر مُحدقٍ بهم، وإن قيام مُجتمع ما بارتكاب تطهير عِرقيّ بحقّ أقليّة مُعيّنة هو خطرٌ جسيم مُحدقٌ بمكوّنات ذلك المُجتمع ككلّ، لأن المُجتمع الذي يلتهمُ يهودهُ أو مسيحييه أو شيعتهُ سيأتي عليه يومٌ يلتهمُ فيه نفسَه.

حقوق السكّان الأصليّين

يُمكننا القول عموماً بأن الاضطهاد والظلم والتطهير العرقيّ الذي تعرّضَت له الأقليات غير المُسلمة في منطقتي الشرق الأوسط وشمال افريقيا كان سيحدثُ بجميع الأحول حتّى لو لم تكُن إسرائيل موجودة، وقد كان اليهودُ بمثابة فأر التجارب الذي مورسَ عَليه القمعُ والتطهير العَرقي قبلَ أن يُمارَسَ على الزرادشتيّين والبهائيّين والأقباط والآشوريين والمسيحيّين الكِلدانيين وغيرهم من الأقليات الدينية التي بدأ وجودُها بالاندثار تدريجياً من هذه المناطق. وعلى الرغم من أن عدداً من الأقليات الدينية والعرقية مثل اليزيديّين والمِندائيّين والكِلدانيّين لم يُطالبوا بحقّ تقرير المصير ولا بدولٍ وكيانات مُستقلة لهم، إلا أنهم كانوا يأملون بالحصول على حقوقهم الإنسانية البسيطة باعتبارهم يشكّلون مكوّناً أصيلاً من نسيج هذه الدول والمُجتمعات، وجُزء من هذه الحقوق التي كانت تحلمُ بها تلك الأقليات هوَ حقّهم في الحماية وحقّهم في الانخراط في الحياة السياسية للدولة التي يعيشون فيها، وباعتقادي لن تشعرَ الغالبية في أي مجتمع بأنها تتمتع فِعلاً بحقوق مدنية وسياسية دون أن تتمتّعُ الأقليات بنفسِ القدر من تلك الحقوق.

ومثلما تحدّثتُ في الفصولُ السابقة، فإن المغربَ هي الدولةُ الوحيدة التي قامت ببعضِ المحاولات الرامية إلى إعادة تعريف هويّتها الوطنية باعتبارها بلداً شمولياً تعدّدياً يتكوّنُ هويّات وثقافات مُختلفة لا هويّة واحدة، لكن الواقع يقولُ غير ذلك مع الأسف، وفي هذا السياق يقولُ أحد الطلبةِ الأمازيغ أثناء حديثه مع الباحثِ عُمَر بُوم [32]: "يُمكنني تَشبيهُ حالِ اليهودِ بحال عقارٍ غالٍ لا أحد يستطيعُ دَفعَ ثَمَنه، فالمغاربةُ يتحدثون عن اليهود عن الثقافة اليهودية وأنها مكوّن أساسي من ثقافتهم المغربية واصفين تاريخهم الطويل من التسامح والتعايش، لكنهُم في الوقتِ نفسِه يرفضون قُبولَ اليهود كمواطنين مغاربة لهُم نفسُ الحقوق وعليهم نفسَ الواجبات كأي مواطن مغربيّ آخر. إن تأييدَنا المُطلقَ للقضيّة الفلسطينيّة وتعاطفنا مع الشعب الفلسطينيّ قد أعمى بَصيرتنا فيما يخصّ تعامُلنا مع اليهود مما مَنَعنا من تقبّلِ اليهود المغاربة. وإذا كُنا نؤمنُ فِعلاً بأن التاريخ اليهوديّ المغربيّ هو كالعقار الثمين الذين يجب علينا أن نتاجرَ به من أجل تحقيق منافعٍ اقتصاديّة فإنه يتوجّبُ علينا أن نمنح اليهود حقوقهم كاملة، وإن لم نفعلَ ذلك فالأولى بِنا أن نتوقفَ عن المتاجرة بهذه الشعارات الطنّانة التي لا تهدفُ إلا لجني بعض المكاسب المادية لا أكثرَ ولا أقل".

حال الإسرائيليّين كحال اليزيديين لكن مع فارق وجود جيش يحميهم

في ظلّ بقاء عدد قليل جداً من اليهود في الدول العربية يُقدّرُ بحوالي أربعة آلاف وخمسمائة يهوديّ، فإن نزوحَ واندثار المُجتمعات اليهوديّة من تلكَ الدول يُعتبرُ درساً يجبُ على الأقليات المُضطهدة أن تأخذ العبرة منه، لأن الطريقة الوحيدة التي ستمكّنُ الأقليات من حماية نفسها في هذه المنطقة هي نيلها لاستقلالها وسيادتها فقط، ومثلما يوضّحُ الصحفي ماتي فريدمان في سياق حماية الأقليات لنفسها: "من الأفضلِ أن تمتلكَ مساحةً من الأرضِ والقوّة الكافية لحمايتها". [33]

في الحقيقة، لم تكُن المحرقة اليهودية وحدها هي السبب الوحيد الذي جعلَ اليهودَ يُدركون استحالة وجودهم تحت حُكم أي نظام غير يهودي، بل إن النكبة اليهودية في البُلدان العربية قد عمّقت هذه القناعة، مما جعل اليهود يبذلون كلّ ما بوسعهم من أجل الدفاع عن دولتهم وسيادتهم في هذه المنطقة، خاصة بعد ما تعرّضوا له من إعدامات في العِراق وزجّ في المُعتقلات في مصر وعُنف وقَمع سياسيّ واقتصاديّ في شتّى مجالات الحياة، الأمر الذي دفعهُم للبحث عن ملجأ من كل هذه العذابات.

بالتالي فإن قيام دولة إسرائيل هو بمثابة دليل قاطع يُثبتُ استحالة حياة اليهود في البُلدان العربية والإسلامية في ظلّ الاستعمار الإسلاميّ لهذه المنطقة منذ قرون عديدة، ومثلما يُعلّقُ أحد المُفكّرين على الفاجعة التي حلّت باليزيديين عندما وقعوا في قبضة داعش في شمالي العراق حين قال: "لن يكون هناك فرقَ بين ما يتعرّضُ له اليزيديون وما كان سيتعرّضُ له اليهود لو كانوا في العراق في حال لم يكُن لليهود جيشٌ يحميهم". [34]

في الوقت نفسه فإن دولة إسرائيل ليست مُجرّد ملجأ نزحَ إليه اليهود لأنهم كانوا يحتاجون الحماية فحسب، بل هي أرضهُم وأرض أجدادهم التي عاش فيها اليهود منذ زمنٍ طويل وكانوا جُزءاً من سُكانها الأصليين، وإن فِكرة قيام دولة إسرائيل على أساس قوميّ فوق هذه الأرض كان الوسيلة الوحيدة من أجل حِماية اليهود، حتّى لو كلّفَ الثمنُ أن تخوض إسرائيل معارك وحروباً عديدة من أجل البقاء في هذه المنطقة. وفي هذا السياق يوضّحُ القوميّ الإيطالي المَعروف جوزيبيمازيني مُخاطِباً اليهود: "بِدون دولة لن يكون لكُم إسمٌ ولا صوتٌ ولا حقوق، ولن تعترفَ بكُم شُعوب الأرضِ كإخوة لهم في الإنسانية لأنهُم ينظرون إليكم على أنكُم أبناء الزّنا ولستُم أبناء شرعيين للإنسانية مثلَهُم". [35]

وبما أن اليهود هُم سكّان أصليّون من سُكان الشرق الأوسط فإنهم يمتلكون حقّاً شرعياً في إقامة دولتهِم المُستقلة على أرض أجدادهم في منطقة الشرق الأوسط، وهذا ما يُؤكدُ عليه ميثاق الأمم المُتحدة المُتعلق بحقوق الأقليات [36]، وفي هذا السياق يقولُ أليِرت ميمّي: "لو افترضنا جدلاً أننا نستندُ إلى شرعيّة الأمم المُتحدة في هذا الموضوع، فإن أحقيّة اليهود لا تقلّ عن أحقية العرب والمُسلمين في التواجد عليها". [37]

إن المُتأمل في واقع منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا سيجدُ أن القوى الامبريالية الحقيقية تتجسدُ فعلياً في العرب والمُسلمين، لهذا تجدُ العديد من الأقليات كالبلوش والأكراد والأمازيغ في هذه المنطقة يُكنّون احتراماً وتقديراً خاصاً لإسرائيل باعتباره نموذجاً لتنيلِ السيادة والاستقلال للأقليات، هذا النموذج الذي يتطلّعون لتحقيقه يوماً ما [38]. لكن وبجميع الأحوال لا زال هنالك صراع مرير يتعلّق بحقوق الإنسان والحقوق السياسية للأقليات في هذه المنطقة، وهو صراع يحدثُ بالتوازي مع ما حققته إسرائيل من نصر لنيل حُريّة اليهود واستقلالهم، نصرٌ تم تحقيقه على الرغم من وجود الكثير من المصاعب والتحدّيات.

شَرعيّةُ الاختلاف والتعدّدية

يُشكّل اليهودُ بشقّيهم الشرقيّ والغربيّ شعباً شرق أوسطيّ أصليّ، لا تقلّ أصالته في هذه المنطقة عن باقي الشعوب الشرق أوسطية الأخرى، وباعتقادي فقد توحّد الشّقّان بعد تجاوز الكثير من التمييز الذي تعرّض له اليهودُ المزراحيّون خلال السنوات الأولى لقيام دولة إسرائيل، وبالنظر إلى واقع حياة اليهود المزراحيّين والسفّرديين في الوقت الحاليّ فإننا سنجدُ انهم يعيشون حياة كريمة ويتمتعون بحقوقهم في إسرائيل كاملة ويمارسون حياتهم بكلّ حرية، وفي حال تعرّضت إسرائيل لأي خطر فإنهم سيُدافعون عنها يداً بيد إخوتهِم اليهود الأشكنازيّين.

وقد عومِلَ اليهود في مُعاملةَ الغُرَباء والأجانبَ خلال فترة ألفي سنة من الشتات في الغرب، واليهودَ الأشكناز تربطهُم صِلة وقرابة دم وثيقة باليهود المزراحيّين والسفرديّين أكثر من تلك التي تربطهُم بسكّان أوروبا من غير اليهود. لكن وعلى الرغم من صلة الدم الزثيقة هذهِ إلا أننا أصبحنا نسمعُ مؤخراً على أيدي الكثير من المُفكّرين "التقدميّين" بأن اليهود الأشكناز هُم مُجرد مُعتنقين للديانة اليهودية بعد أن كانوا ينتمون أصلاً لقبيلة الخَزر التركية، بالتالي - واستناداً إلى مثل هذه الخرافة - فإنهم لا يمتلكون أي أصول في منطقة الشرق الأوسط، واستناداً إلى الطريقة التي يُصوّر بها هؤلاءُ خروج الفلسطينيّين من أراضيهم فقد أصبحَ "المسيحَ" عيسى رمزاً للفلسطينيّ، فيما أصبحَ الفلسطينيون في مثل هذه الخرافات بمثابة "اليهود الجُدد". وعلى الجهة المقابلة يتمّ تصويرُ اليهودي على أنه "المسُتعمر الأوروبي الأبيض" الظالمُ صاحبُ القوّة والسيطرة والهيمنة.

أما في أوروبا فقد كانت الصورة مُتناقضة تماماً في السابق، فعلى سبيل المثال لا الحصر يقول الروائيّ الإسرائيلي المعروف عاموس عوز: "عندما كان والدي طفلاً صغيراً في أوروبا كان يرى الشوارع ممتلئة بالرسوم الغرافيتية والكتابات والجداريّات التي تقول لليهود "عودوا إلى فلسطين"، بل وكان يَرى كتابات أسوأ من ذلك مثل "أيها اليهود القذرون انصَرفوا إلى فلسطين". من جهة أخرى أذكرُ أن والدي عندما قدِم إلى أوروبا قبل حوالي خمسين سنة كان يرى كتابات مُختلفة تماماً على الجدران تقول: "أيها اليهود، أخُرجوا من فلسطين"! [42]

وفي الوقت الذي تفكّكت فيه وحدةُ بعض الدول العربية مثل سوريا وليبيا والعراق عقب ثورات الربيع العربي نتيجة الحروب الأهلية وظهور حالة من التناحر بين الجماعات والقبائل المُختلفة، لا زالت إسرائيل تُحافظ على تماسكها ووحدتها بالرغم من القدر الكبير من الاختلافات بين مكوّناتها. وهذا التفكّك بين مكوّنات تلك الدول العربية قد يكون بمثابة فرصة ذهبية لانهيار ما تبقّى من معاهدة سايكس بيكو لمصلحة الأقليات والعرقيات غير العربية في هذه المنطقة، هذه المعاهدة التي قسّمت منطقة الشرق الأوسط بين بريطانيا وفرنسا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى [43]. فعلى سبيل المثال قد يصبّ هذا في مصلحة الشعب الكُردي الذي يبلغ تعداده حوالي ثلاثين مليون كردياً، ولا زال يُطالب بدولة مُستقلة حتى تاريخ كتابة هذا الكتاب، ولم يُمنح هذه الدولة على الرغم من امتلاك الأكراد جميع مقوّمات السيادة والاستقلال. لكن الحال مُختلف بالنسبة لبعض الأقليات الأخرى مثل الآشوريين المسيحيين والأمازيغ والذين يُحاولون بكل ما أوتوا من قوّة نيل استقلالهم وحرّيتهم. بالتالي وفي ظلّ هذه الصراعات الدموية التي يشهدها الشرق الاوسط وشمال افريقيا، تظلّ دولة إسرائيل هي الملاذ الآمن لليهود، وحماية هذا الملاذ الآمن بالنسبة لليهود أصبح أمراً مُلِحّاً أكثر من أي وقت مضى.

وقد وصفَ البعضُ تأثير الأقلية الإسرائيلية في هذه المنطقة بتأثير المغناطيس، كونه جذب انتباه الكثير من الأقليات إلى مسألة السيادة من جهة، ومسألة التعاون بين الأقليات من أجل نيل حقوقها المشروعة [44]من جهة أخرى، فعلى سبيل المثال قامت إسرائيل بدعم ومساندة الجيش اللبناني عندما كان تحت قيادة الأقلية المسيحية، كما دعمت إسرائيل أيضاً المسيحيين في شمال السودان من أجل نيل حريتهم وإقامة دولتهم المستقلة. بالتالي فإنه من المؤسف أن نرى كيف أجبرت مُعطيات الواقع السياسي مؤخراً إسرائيل على تخفيضِ دعمها للأقليات الأخرى في هذه المنطقة وعدم دعمها في حروب الاستقلال التي تخوضها، فعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كانت إسرائيل على وشك الاعتراف بمذبحة الأرمن، إلا أنها لم تقم بذلك من أجل الحفاظ على العلاقات القائمة مع تركيا. وبالنسبة للأكراد فقد مدّت لهُم إسرائيل يد العون والمساعدة، ولم يُخفِ الأكراد رغبتهم الصادقة في تقوية علاقاتهم مع إسرائيل، لكنها بنهاية المطاف لم تتمكن من دعمهم سياسياً بشكل كافٍ في صراعهم من أجل الاستقلال.

ولو تعمّقنا جيّداً في التاريخ لوجدنا أن الغالبية العُظمى من اليهود لم يُغادروا منطقة الشرق الاوسط، بل كانوا فِعلياً ينتقلون من مكانٍ لآخر في منطقة الشرق الأوسط نفسها بهدف بناء دولة ذات غالبية سكانية يهودية فوق بقعة صغيرة من حوض البحر الأبيض المتوسط، وما ينبغي على الغرب فعلهُ هو دعم هذه الدولة التي تُعتبرُ الدولة الديمقراطية الوحيدة في منطقة غارقة بالدكتاتوريات والأنظمة المُتطرفة، لهذا فإنه من المؤسف أن نجدَ العديد من الشخصيات الغربية الليبرالية التي لا ترى في مسألة تقرير المصير لليهود وحقّهم في إقامة دولتهم المستقلة قضيّة تقدّمية بأي شكلٍ من الأشكال، على الرغم من إقامة اليهود لدولتهم فوق الأرض التي كانوا ولا زالوا جُزءاً من سكانها الأصليين، بل نرى أنهم ينظرون إلى إقامة دولة إسرائيل على أنها مُجرّد تكفير عن المحرقة اليهودية التي ارتُكبتها أوروبا بحقّ اليهود.

من جهة أخرى فإن الغربَ لديه سوء فهمٍ كبير يتعلّق بالتاريخ المسيحي فوق هذه الأرض، هذا التاريخُ الذي يعودُ لأكثر من ألفي سنة، فالغربُ ينظرُ للمسيحيين في منطقة الشرق الأوسط على أنهم مُجرّدُ "بقايا" من مُخلّفات الفترة الاستعمارية الأوروبية التي غزت هذه المنطقة في القرن التاسع عشر، بالتالي فإن الغربَ لا يكترثُ كثيراً بما يتعرّضُ له المسيحيّون في الشرق الأوسط من ظُلم واضطهاد على يد المُسلمين مُتجاهلاً صرخات استغاثتهم وهم يتعرَّضون لشتّى أنواع العذاب. كذلك فإن تاريخ فترة ما بعد الاستعمار الأوروبي لهذه المنطقة لا يعترفُ بأن العلاقة بين الحُكام المُسلمين وبين رعاياهم من اليهود والمسيحيين - سابقاً - هي علاقة المُستَعمِرِ بالمُستَعمَر، وعدا عن هذا كله فإن الغربَ لا زال يُعاني من مُتلازمة فرانز فانون [45]، أي لا زال يرى بأنه من المستحيل أن يكون سُكّان العالم الثالث هم الجلادون لأنهم كانوا ولا زالوا "الضحايا"، بالتالي يرى من لا زالوا يُعانون من هذه المُتلازمة بأن ظاهرة مُعادة السامية هي ظاهرة موجودة في الغربَ فقط وقد ظهرَت بعد عصر التنوير.

كما يجبُ على الخطاب الفكريّ العامّ أن يتغيّر، خاصة وأنه مُتأثرٌ جداً بكتابات إدوارد سعيد وكتابه المعروف "الاستشراق" والذي أدّى إلى أن يبتلعَ الغربُ الطُعم ويقع في المصيدة التي تصوّرُ إسرائيل على أنها دولة استعمارية دخيلة على منطقة الشرق الأوسط. وبدلاً من الخروج من هذه المصيدة فإن الغرب يُعمّقُ من تواجده فيها عبر الدعم المُطلق للفلسطينيين ضد إسرائيل تحت شعار دعم الغرب "لحقوق الإنسان". ويُمكننا القولُ هُنا بأن الغرب صار بطريقة غير مُباشرة يدعمُ المُحاولات الحثيثة للعرب والمُسلمين من أجل إعادة هيمنتهم وتحكّمهم "بأهل الذمة" كما كان في السابق.

كذلكَ فإن الغربَ عادة ما يتجاهلُ أو يقُلل من شأن أي قضيّة إنسانية تخصُّ أي أقلية غير عربية أو غير مُسلمة موجودة في الشرق الأوسط، وهذا التجاهلُ هو نتيجة طبيعية وحتمية لحالة "التنويم المغناطيسي" والتغييب التي يتعرّضُ لها الغربُ تحت تأثُير القضية الفلسطينية التي استحوذت على تفكيره، فعلى سبيل المثال لا الحصر هنالك الأقباط الذين يبلغ عددهم ضِعف عدد الفلسطينيين، وهم يتعرضون بشكل مستمر للقمع والظلم والاضطهاد [46]، لكننا لا نرى أي مُظاهرات في الغرب تُندد بما يتعرّض له الأقباط من تنكيل وانتهاكات لحقوق الانسان، والحال نفسه بالنسبة للأكراد الذين يبلغ علددهم ثلاثة أضعاف عدد الفلسطينيين، لكننا بالكاد نسمعُ من يؤيّد حقوقهم السياسية والثقافية في العالم [47]، أما بالنسبة للكنيسة المسيحيّة في أوروبا فبالكاد نسمعُ تنديدها للمعاملة المُهينة والاضطهاد الذي يتعرّضُ له المسيحيّون في الشرق الأوسط بشكل عام.

كذلك فإن ما حدثَ في المحرقة اليهودية وما قامت به الأنظمة العربية من اجتثاث لليهود من جذورهم ليسا سببين كافيين حتى يستيقظَ العربُ أخيراً ليروا ويُدركوا أن الغالبية العُظمى من اليهود قد أصبحوا صهاينة، وبأن إسرائيل تُجسّدُ مكوّناً أساسياً بل وجوهرياً من مكوّنات هويّتهم اليهودية، وفي هذا السياق يذكرُ الكاتبُ المسرحيّ المصريّ علي سالم قصة لناشطٍ يهوديّ عراقيّ من نُشطاء الحزب الشيوعي في العراق يُدعى عبد الله، وذلك أثناء مُشاركته في مُظاهرة صاخبة ضد الحركة الصهيونية، حيثَ أدركَ بعد أن قام الحشدُ بتغيير الهتافات من "الموتُ للصهيونية" إلى "الموت لليهود"، أدركَ بأنه لم يعد له أي مُستقبل في مكان كالعراق، فغادره متوجّها إلى إسرائيل على الفور، وهُناك قام بتغيير إسمه من عبد الله إلى عُفْاديا. [48]

وباعتقادي فإنه يوجدُ عدد لا بأس به من العرب الذين يتحلّون بالجُرأة الكافية للاعتراف بأن طردَ اليهود من الدول العربية كان بمثابة كارثة سياسية وثقافية واقتصادية دفعت ثمنها باهظاً شعوب تلك البلدان، وقد بدأ هذا التوجه بالازدياد شيئاً فشيئاً مع سقوط الأنظمة الحاكمة في عدد من الدول العربية عقبَ ثورات الربيع العربي، فأصبح هؤلاء يُظهِرون شوقهم وحنينهُم إلى فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر والتي شهدت قدراً من التنوّع والتعدّدية والازدهار بين شتّى مكوّنات المُجتمعات العربية، كما أنهم يعترفون بإسهامات اليهود في المُجتمعات التي عاشوا فيها لدرجة أصبحوا يَنظرون لليهود الذين خرجوا من تلك البلدان على أنهم المكوّن الثقافي الوحيد الذي تمّ الحفاظ عليه بعد أن تعرّضت العديد من المكوّنات الثقافية الأخرى للاندثار عقب تلك الثورات. [50]

وفي الوقت الذي يَرى العديدُ من العرب أن خروج اليهود من البُلدان العربية كان بمثابة لعنة إلهية حلّت على تلك البلدان، لا زال عدد كبيرٌ منهُم غير قادرٍ على استيعاب وجود دولة إسرائيل كجزء من هذا الواقع، بعبارة أخرى فإن هؤلاء عاجزون عن مجرّد تخيّل فِكرة وجودَ دولة غير عربية وغير إسلامية بين الدول العربية والإسلامية، بالتالي فغنهم يسعون لتغيير هذه الواقع عبر إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء والعودة بالزمن وعدم طرد اليهود من الدول العربية بل وإحياء الوجود اليهوديّ مُجدداً في تلك البُلدان.

صورة من داخل مقام النبي حسقيل سنة 2010، والسؤال الذي يطرح نفسه: هل سيبقى تصميمه المميز ذو الكتابات العبرية موجوداً أم سيتم مسحه من الوجود هي الآخر؟ (حقوق الصورة محفوة لكانون أندرو وايت)

صورة يَظهرُ فيها الكنيس اليهودي الكبير في تونس والذي تم استعادته وترميمه بعد الخراب الذي لحقَ به في مَظاهرات سنة 1967

صورة يظهر فيها قبر الحاخام أبرهام أبي حصيرة الموجود في مقبرة بد مراكِش - الدار البيضاء

صورة تظهرُ فيها الساحة الخارجية من الكنيس اليهوديّ الكبير في حلب، ويُعتقدُ أن الحرب الأهلية السورية قد ألحقت المزيد من الخراب في الموقع.

صورة يظهرُ بها نموذج توضيحيّ لكنيس كراتِر في مُتحف عدن للتراث اليهودي في تل أبيب

وفي الختام، أريد أن استحضر آخر كلمات قالها الدبلوماسي المسيحيّ العربي جورج ديك الذي كان يعملُ في وزارة الشؤون الخارجية الإسرائيلية: "إن لم يكن هنالك مكانٌ لدولة يهوديّة في الشرق الأوسط فإن هذا يعني أنه لا مكان لكل ما هو مختلفٌ في هذه المنطقة، ولهذا السبب فإننا نرى ما يتعرّضُ له اليزيديّون والمسيحيّون والبهائيّون وحتى بعض المُسلمين السنيين، ولسبب نفسه نرى هذا الصراع القائم بين السنة والشيعة أيضاً. إن مُفتاح تغيير هذا الواقع يتمثّلُ في قبولنا كعرب لشرعية وجود الآخرين في هذه المنطقة، لهذا فإن قبول شرعية الدولة اليهودية يُجسّد أحد أكبر التحدّيات أمامنا كونها دولة ذات قومية مُختلفة وديانة مُختلفة وثقافة مُختلفة أيضاً. إن اليهودَ يجسدون تحدّياً بالنسبة للعرب كونهم أصرّوا على انتزاع حقّهم في أن يكونوا مُختلفين، وباعتقادي أن اليوم الذي سنقبلُ فيه الدولة اليهودية كما هيَ، سيكون أوّل يوم لنهاية الظُلم والقمع والاضطهاد في الشرق الأوسط". [52]

قائمة الملاحظات والحواشي

1. G. Bensoussan, *Juifsen pays arabes: le grand déracinement*, (Tallandier, 2012), p.383.

2. See Khaled Diab,' Al-Sisi the Jew?', *Haaretz*, 8 May2014. 'ISIS leader is a Jewish Mossad agent named Simon Elliot', Harry Hibs, *24 USA*, 7 February 2016.

3. Some estimate that there were no more than 300,000 Palestinian refugees. (Yehoshua Porat, quoted by Richard Mather in his blogpost 'Palestinian refugees from 1948' contends they may have numbered less than 300,000', 13 January 2016, https://richardmatherblog.wordpress.com/2016/01/13/palestinian-refugees-from1948-may-have-numbered-less-than-300000. (Last accessed 26 April 2017)).
Others claim that many could not be described as refugees at all, but internally displaced (see Benny Morris letter to *Irish Times*, http://www.irishtimes.com/opinion/letters/israeland-the-palestinians-1.896017. (Last accessed 26 April 2017).

يُقدر البعض عدد اللاجئين الفلسطينيين بثلاثمائة ألف لاجيء فقط، فيما يقولُ البعضُ بأن عدداً كبيراً منهُم لا ينطبقُ عليهم وصفُ اللاجئين لأنهم لم ينتقلوا من دولة لأخرى بل انتقلوا من مكان لآخر من الأرض نفسها.

4. 'Tzipi Livni: no linkage of refugees', *Point of No Return*, 23 October 2013, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2013/10/tsipi-livni-no-linkage-of-refugees.html. (Last accessed 26 April 2017).

5. Moreh, and Yehuda (eds), *Al-Farhud*(Hebrew University Magnes Press, 2010), p.143.

6. Hunter Stuart ('How a pro-Palestinian reporter changed his view of the conflict', *Jerusalem Post*, 15 April 2017) reports: 'First of all, even the kindest, most educated, upper-class Palestinians reject 100 percent of Israel – not just the occupation of East Jerusalem and the West Bank. They simply will not be content with a two-state solution – what they want is to return to their ancestral homes in Ramle and Jaffa and Haifa and other places in 1948 Israel, within the Green Line. And they want the Israelis who live there now to leave. They almost never speak of coexistence; they speak of expulsion, of taking back "their" land.'This view is born out by a 2015 poll which found that over 80 per cent of Palestinians denied Jewish rights in Palestine (Daniel Polisar, 'Do Palestinians want a two-state solution?' *Mosaic*, 3 April 2017, https://mosaicmagazine.com/essay/2017/04/dopalestinians- want-a-two-state-solution/). (Last accessed 26 April 2017)).

يقول هنتر ستيوارت في مقال منشور له تحت عنوان كيف قامَ صحفيّ مُناصر للفلسطينيّين بتغيير وُجهة نظري في الصراع الفلسطينيّ الإسرائيلي: "حتى الطبقة المُتعلمة والمثقفة من الفلسطينيين ترفضُ بشكل قاطع وجود إسرائيل من الأساس، بالتالي لن يقبلوا بحلّ الدولتين بأي شكل من الأشكال، ما يبدونه فعلاً هو العودة إلى أرض أجدادهم في الرملة ويافا وحيفا وغيرها من المدن الواقعة داخل حدود الخطّ الأخضر. إنهم يُطالبون الإسرائيليين بالمغادرة، وبالكاد نسمعهم يتحدثون عن التعايش، وخلافاً لذلك تراهم يتحدّثون عن إقصاء اليهود وطردهم إلى "بُلدانهم" الأم. وبإمكاننا أن نجد أن هذه الأفكار في أكثر من خمسة عشر استبياناً أشارت بأن ما نسبته ثمانون بالمئة من الفلسطينيين يُنكرون أي حق لليهود في فلسطين.

7. Efraim Karsh, 'Why the Oslo process doomed peace', *Middle East Quarterly*, 29 September 2016, http://eliasbejjaninews.com/2016/09/29/efraim-karshmiddle-eastquarterly-why-the-oslo-process-doomed-peace/. (Last accessed 26 April 2017)

8. Ali Mustafa, 'Boycotts work: an interview with Omar Barghouti', *Electronic Intifada*,

31 May 2009, https://electronicintifada.net/content/boycotts-work-interview-omarbarghouti/8263. (Last accessed 26 April 2017).

9. Critics cast doubt on the Palestinian claim to a ‘Right of Return’ under Article 13 of The Universal Declaration of Human Rights: they were not citizens of Israel at the time of their flight.10. Doreen Wachmann, interview with Shmuel Moreh, *Manchester Jewish Telegraph*, July 2009.

يشكّك بعض النقاد في مشروعية مطالبات الفلسطينيين "بحق العودة" استناداً إلى المادة 13 من الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، حيث أنهم لم يكونوا مواطنين إسرائيليين خلال وقت نزوحهم من أراضيهم.

11. Refugee comparison chart, *Israel Behind the News* (UN data), http://israelbehindthenews.com/library/pdfs/UNRWAchartcomparison.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

12. Interview with Palestinian ambassador Abdullah to Lebanon: ‘refugees will not be citizens of a new state’, *Daily Star*, 15 September 2015.

13. Conversation with the author, 17 April 2017.

14. Samuel Shahid, ‘Rights of non-Muslims in an Islamic state’, *Answering Islam,* concludes that his study ‘shows us that non-Muslims are not regarded as citizens by any Islamic state, even if they are original natives of the land’. http://www.answeringislam.org/NonMuslims/rights.htm. (Last accessed 26 April 2017).

15. Ignace Moubarac, ‘Letter To Mr. Justice Sandström, Chairman, UNSCOP Geneva, Switzerland.’The Two Homelands’, Beirut, 5 August 1947, *Ha-historion*blog, February 2007, http://ha-historion.blogspot.co.uk/2007/02/relations-between-first-zionist.html. (Last accessed 26 April 2017).

16. A Christian, Michel Aflaq, was the ideologue behind the nationalist Ba’ath party. Constantine Zureiq was a Christian intellectual moderniser who advocated Arab unity based on reason and science.

17. Moreh and Yehuda (eds), ‘Introduction’ to *Al-Farhud*(Hebrew University Magnes Press, 2010), p.3.

18. Albert. Memmi’s essay, ‘Who is an Arab Jew?’, February 1975, http://www.sullivancounty.com/x/aj1.htm. (Last accessed 26 April 2017).
19. Mordechai Nisan, ‘Minorities in the Middle East’ in Shulewitz (ed.) *The Forgotten Millions* (Continuum, 2000), p.10.

20. See Hamas (Islamic Resistance Movement) Covenant, https://www.memri.org/reports/covenant-islamic-resistance-movement-%E2%80%93-hamas. (Last accessed 26 April 2017).
21. In the 1950s, the Grand Mufti of Egypt, Sheikh Hasan Mamoun, issued a *fatwa* – signed by the major representatives of all four Islamic schools of jurisprudence – which stated that because ‘Jews have taken a part of Palestine and there established their non-Islamic government’ it followed logically that *jihad* against the Jews was ‘the duty of all Muslims’. (http://www.discoverthenetworks.org/viewSubCategory.asp?id=762). (Last accessed 26 April 2017).

أصدر مُفتي مصر الشيخ حسن مؤمن فتوى خلال خمسينيات القرن الماضي موقعة من قبل جميع ممثلي المدارس والمؤسسات الدينية الإسلامية للفقه في مصر تنصّ على أن الجهاد ضد اليهود فرضٌ على جميع المسلمين بعد أن أقاموا دولتهم فوق أرض فلسطين.

22. Bernard Lewis, 'The Return of Islam', *Commentary*, 1 January 1976, https://www.commentarymagazine.com/articles/the-return-of-islam/. (Last accessed 26 April 2017).

23. See David Pryce-Jones, *The Closed Circle*: An Interpretation of the Arabs (New York: Edward Burlington, Harper & Row, 1988).

24. Karmel Melamed, Q&A with Matthias Küntzel, 'Roots and development of the Iranian regime's antisemitism', *Jewish Journal of Los Angeles*, 26 August 2015, http://www.matthiaskuentzel.de/contents/q-a-kuentzel-on-roots-and-develoment-of-theiranian-regimes-antisemitism /. (Last accessed 26 April 2017).

25. The case of David Gerbi, who was thrown out of his native Libya in 2011 for wanting to open a synagogue, springs to mind ('My harrowing Yom Kippur', *Point of No Return*, 19 October 2011, http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2011/10/my-harrowing-yomkippur-and-escape-from.html. (Last accessed 26 April 2017)).

26. Arab League Profile, *BBC News*, 5 February 2015, http://www.bbc.co.uk/news/worldmiddle-east-15747941. (Last accessed 26 April 2017) .

27. Harold Rhode, review of 'Turkey, the Jews, and the Holocaust' by Corry Guttstadt, *Sephardic Horizons*, http://www.sephardichorizons.org/Volume4/Issue1/turkey.html. (Last accessed 26 April 2017).

28. Bernard Lewis, 'The Return of Islam', *Commentary*, 1 January 1976, https://www.commentarymagazine.com/articles/the-return-of-islam/. (Last accessed 26 April 2017).

29. Daniel Polisar, 'Do Palestinians want a two-state solution?' *Mosaic*, 3 April 2017, https://mosaicmagazine.com/essay/2017/04/do-palestinians-want-a-two-state-solution/ (Last accessed 26 April 2017).

30. Christine Chaillot, *Les Coptesd'Egypte*(Paris: L'Harmattan, 2013), p.15.

31. For examples see Jon Emont, 'How Malaysia became one of the most anti-Semitic countries on earth', *The Tablet*, 8 February 2016, http://www.tabletmag.com/jewishnews-and-politics/196642/anti-semitism-in-malaysia. (Last accessed 26 April 2017); Bilal Ahmed, 'Antisemitism in Pakistan' *Souciant*, 20 February 2013, http://souciant.com/2013/02/anti-semitism-in-pakistan/. (Last accessed 26 April 2017). See also Mehdi Hasan, 'Why the virus of antisemitism has infected the British Muslim community', *New Statesman*, 21 March 2013, http://www.newstatesman.com/politics/uk/2013/03/sorrytruth-virus-anti-semitism-has-infected-british-muslim-community. (Last accessed 26 April 2017).

32. Aomar Boum, *Memories of Absence*, (Stanford, CA: Stanford University Press, 2013), p.155.

33. Matti Friedman, 'Mizrahi Nation', *Mosaic*, 1 June 2014, http://mosaicmagazine.com/essay/2014/06/mizrahi-nation/. (Last accessed 26 April 2017).

34. Jonathan Spyer quoting a colleague, 'Ottomania', *ISBlog*, 1 October 2014, https://jackscohen.wordpress.com/2014/10/01/ottomania/. (Last accessed 26 April 2017).

35. Quoted by Barbara W. Tuchman, *Bible and Sword* (London: Macmillan, 1982), p.225.

36. http://www.un.org/esa/socdev/unpfii/documents/DRIPS_en.pdf. (Last accessed 26 April 2017).

37. See Memmi essay, 'Who is an Arab Jew?'

38. Dr Mohamed Chatou, ('Moroccan Jews' Departure to Israel regretted by Morocco' *African Exponent,* 10 January 2017) testifies to Amazigh sympathy. See also Sharon Udasin and Jan Koscinski, 'Algeria Craves Friensdhip with Israel', *Jerusalem Post,* 27 May 2012. Seth Frantzman, 'Deep in Kurdish Heartland, Finding an Enduring Bond with Israel', *Forward,* 22 June 2015, writes about the positive attitude he found among Kurds.

39. This claim, by radical professor Shlomo Sand among others, was rebutted in this article by Ofer Aderet, 'Jews are not descended from Khazars, Hebrew University Historian Says', *Haaretz,* 26 June 2014, http://www.haaretz.com/jewish/features/1.601287. (Last accessed 26 April 2017).

40. Melanie Phillips, 'Jesus was a Palestinian: The Return of Christian Anti-Semitism', *Commentary,* 1 June 2014, https://www.commentarymagazine.com/articles/jesus-wasa-palestinian-the-return-of-christian-anti-semitism/. (Last accessed 26 April 2017).

41. Rachel Frommer, 'Anti-Semitic "End Jewish Privilege" fliers distributed at Chicago University Rattle Students: School Issues Condemnation', *The Algemeiner,* 16 March 2017, https://www.algemeiner.com/2017/03/16/end-jewish-privilege-fliers-distributedat-illinois-university-have-students-up-in-arms/. (Last accessed 26 April 2017).

42. Quoted by Stephen Daisley in 'Jeremy Corbyn is no antisemite: he's much worse than that', STV.TV, 28 August 2016, http://stv.tv/news/politics/1327077-stephen-daisley-onjeremy-corbyn-the-left-anti-semitism-and-israel/. (Last accessed 26 April 2017).

43. A Century On: why Arabs resent Sykes-Picot, *Al-Jazeera,* 2016, http://interactive.aljazeera.com/aje/2016/sykes-picot-100-years-middle-east-map/. (Last accessed 26 April 2017).

44. See Mordechai Nisan, 'Minorities in the Middle East', p.9.

45. David Aaronovitch, opinion piece, *Jewish Chronicle,* 28 August 2015.

46. CIA World Fact Book 2017

47. BBC News Middle East, 'Who are the Kurds?', 14 March 2016.

48. See Ali Salem, *A Drive to Israel: an Egyptian meets his Neighbors*(Dayan Center Papers 128, 2003).

49. Dr Mohamed Chatou, 'Moroccans bitterly regret Departure of their Jews', *African Exponent,* 10 January 2017, https://www.africanexponent.com/blogs/braveafrica/4528-moroccan-jews-departure-to-israel-regretted-in-morocco. (Last accessed 26 April 2017).
50. Samuel Tadros, 'Once upon a time Jews lived here', *Hudson Institute,* 16 March 2017, https://www.hudson.org/research/13456-once-upon-a-time-jews-lived-here. (Last

accessed 26 April 2017).

51. Edy Cohen, ‘The Jewish Expulsion – and its Revenge’, *Israel Hayom*, 30 November 2016, http://www.israelhayom.com/site/newsletter_opinion.php?id=17777. (Last accessed 26 April 2017).

52. Adi Schwartz, ‘Israel’s best diplomat: George Deek’, *Tablet*, 28 July 2015, http://www.tabletmag.com/jewish-news-and-politics/190615/israels-best-diplomat-george-deek. (Last accessed 26 April 2017).

قائمة الملاحِق

ملحق توضيحي لعدد السكان اليهود في الدول العربية قبل أن يتم طردهم منها والفترة الزمنية التي بدأت فيها المجتمعات اليهودية بالتواجد في تلك الدول، والمصدر (JJAC)، وتم تحديث البيانات في هذا الجدول من قبل المؤلفة.

الدولة	الفترة التي تعود إليها بداية تواجد المجتمع اليهودي في كل دولة	عدد السكان اليهود سنة 1948م	عدد السكان اليهود سنة 2016م
الجزائر	القرن الأول – القرن الثاني للميلاد	140,000 نسمة	0
مصر	القرن الثاني قبل الميلاد	75,000 نسمة	أقل من 15 نسمة
إيران	القرن الثالث قبل الميلاد	100,000 نسمة	8,000 نسمة
العراق	القرن الثالث قبل الميلاد	150,000 نسمة	5 أفراد فقط
لبنان	القرن الأول قبل الميلاد	20,000 نسمة	أقل من 20 نسمة
ليبيا	القرن الثالث قبل الميلاد	38,000 نسمة	0
المغرب	القرن الأول قبل الميلاد	265,000 نسمة	2,000 نسمة
سوريا	القرن الأول قبل الميلاد	30,000 نسمة	أقل من 15 نسمة
تونس	القرن الأول قبل الميلاد	105,000 نسمة	1,000 نسمة
اليمن	القرن الثالث قبل الميلاد	55,000 نسمة	50 نسمة

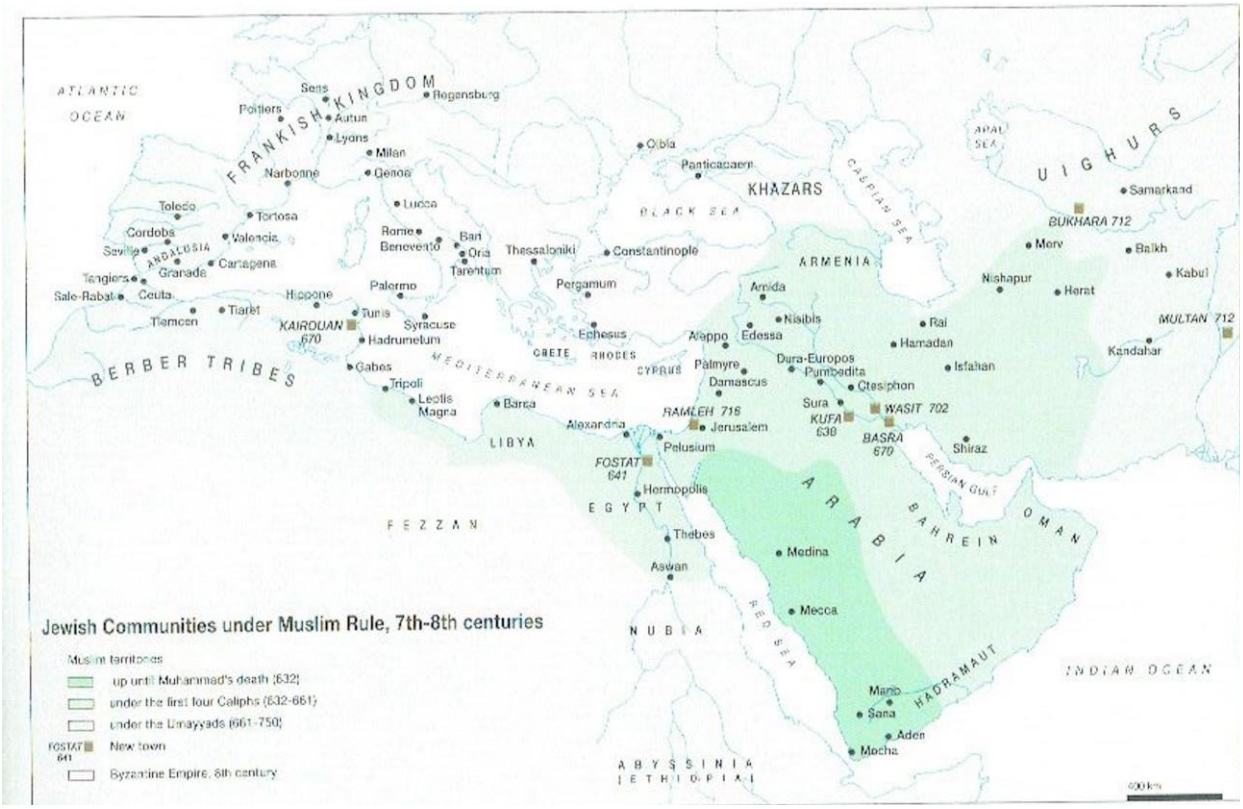

خريطة توضيحية للبلدان التي قام المسلمون بغزوها (قياس الرسم 1:750). الخريطة توضح أيضاً التجمعات اليهودية الكبرى في كل منطقة (المصدر: كتاب مارتن غِلبِرت "في بيت إسماعيل – صفحة 365 ,2001 – Yale)

جدول توضيحي يبيّن عدد اليهود الذين تم طردهم من الدول العربية بين سنتي 1948م – 2012م،المصدر (JJAC)

المنطقة/ السنة	1948م	1958م [1]	1968م [2]	1976م [3]	2001م [4]	2005م [5]	2012م (أرقام تقريبية)
منطقة عدن	8,000	800	0	0	0	0	0
الجزائر	140,000	130,000	3,000	1,000	0	0	0
مصر	75,000	40,000	2,500	400	100	100	75
العراق	135,000	6,000	2,500	350	100	60 [6]	50
لبنان	5,000	6,000	3,000	400	100	50	40
ليبيا	38,000	3,750	500	40	0	0	0
المغرب	265,000	200,000	50,000	18,000	5,700	3,500	3,000
سوريا	30,000	5,000	4,000	4,500	100	100	50
تونس	105,000	80,000	10,000	7,000	1,500	1,100	1,000
اليمن	55,000	3,500	500	500	200 [8]	200	100
المجموع	**850,000** [9]	**475,050**	**76,000**	**32,190**	**7,800**	**5,110**	**4,315**

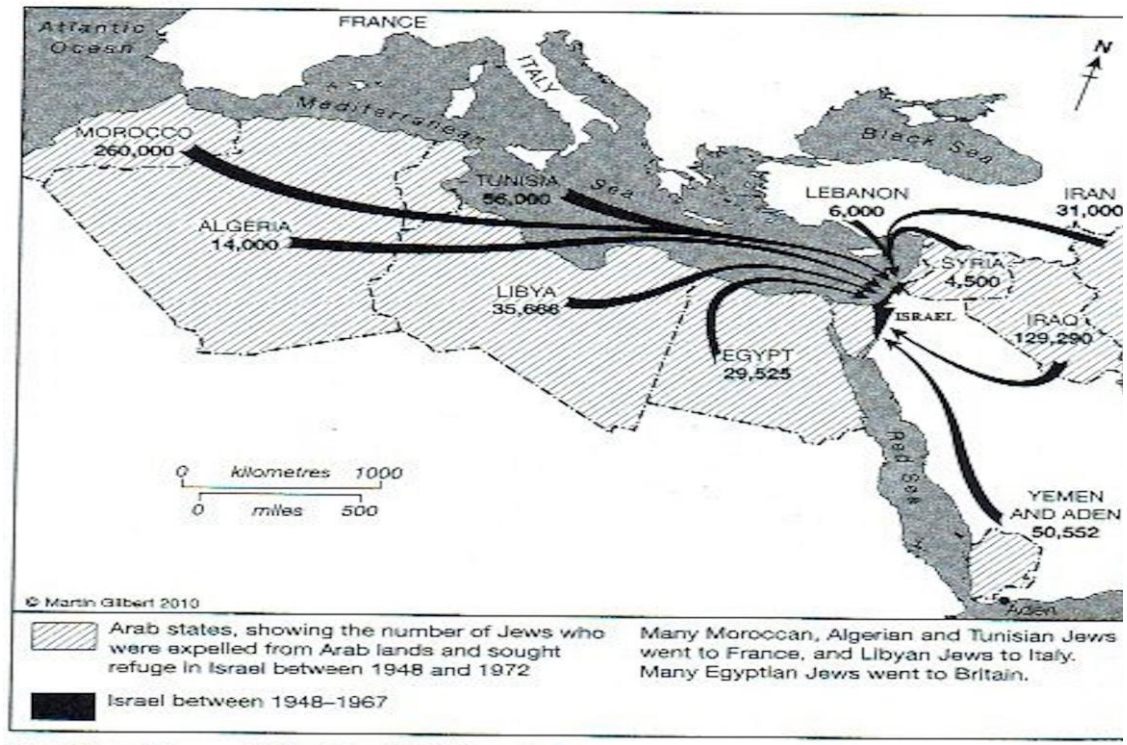

20. The 'Second Exodus,' 1947–1957.

صورة تُظهر عدد اليهود الذين نزحوا من إسرائيل بين سنتي 1948م – 1957م
(المصدر: كتاب مارتن غِلبِرت "في بيت إسماعيل" – صفحة 374 ,2001 – Yale)

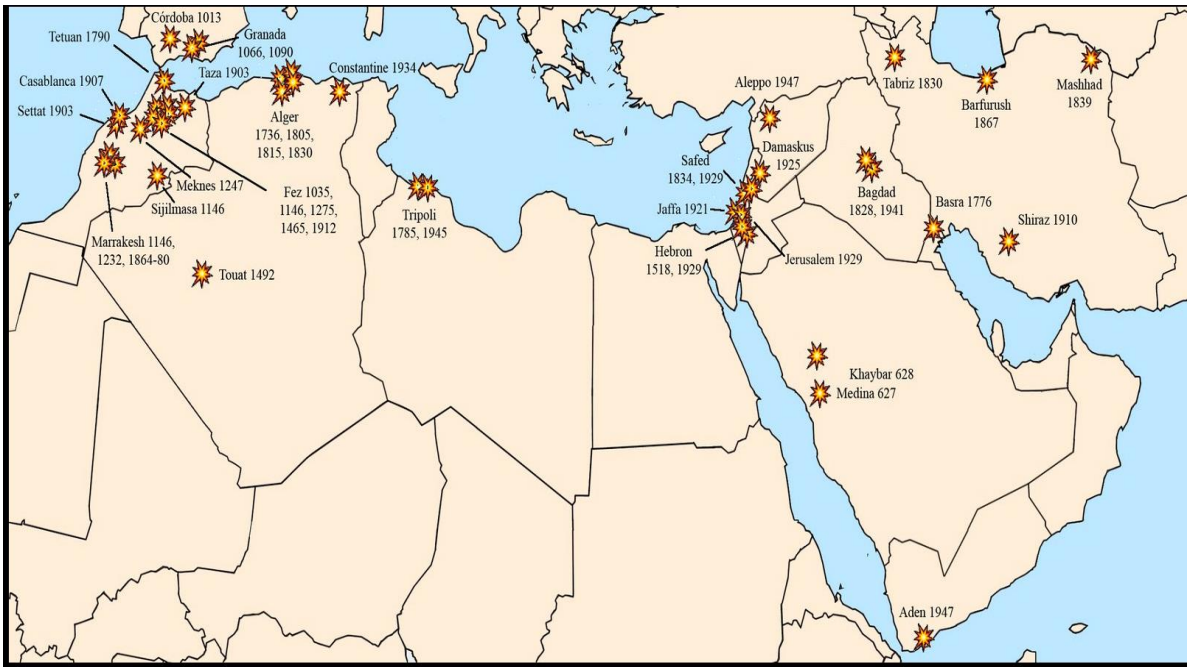

خريطة توضيحية للمناطق التي تعرّض فيها اليهود للمذابح في الدول العربية والإسلامية بشكل عام قبل سنة 1948م.
المصدر طوبور جورن كَرفونكِل.

مشروع القانون الذي طرحته اللجنة السياسية في جامعة الدول العربية سنة 1947م

وُجِدت نسخة من هذه الوثيقة التي تحمل عنوان "مشروع قانون مُقدّم من قبل اللجنة السياسية في جامعة الدول العربية" كملحق لبيان الجامعة العربية الذي صدر بتاريخ 1948/1/19م، وتم إرسال هذه الوثيقة إلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي لهيئة الأمم المتحدة من قبل منظمة المؤتمر اليهودي العالمي. وقد حذرت هذه الوثيقة من الخطر المُحدق بيهود منطقتي الشرق الأوسط والشرق الأدنى والذي يتمثل في طردهم وتهجيرهم من بلدانهم.

نص القانون الذي قدمته اللجنة السياسية في جامعة الدول العربية (ملخص)

قدمت اللجنة السياسية في جامعة الدول العربية مشروع قانون لترتيب الوضع القانوني للمواطنين اليهود في جميع الدول العربية سنة 1947م، وقد تم اعتماد هذا القانون في كل من مصر والمملكة العربية السعودية والعراق. وينص هذا القانون على أنه "بدءاً من تاريخ سيتم تحديده لاحقاً، فإنه سيتم اعتبار المواطنين اليهود في الدول العربية بصفتهم جزءاً من الأقلية السكانية اليهودية التي تسكن في دولة فلسطين، وبناء عليه يتم تجميد كافة حساباتهم البنكية وإرسال ما تحتويه من أموال لدعم وتمويل مقاومة الأطماع الصهيونية في فلسطين، ويُستثنى من هذا القانون المواطنون اليهود الذين يحملون جنسية الدول غير العربية. أما بالنسبة لمواطنين اليهود الذين يعتبرون ناشطين في الحركة الصهيونية فيتم احتجازهم بصفتهم معتقلين سياسيين ويتم مصادرة كافة ممتلكاتهم. أما المواطنون اليهود الذين يقومون بالالتحاق في الخدمة العسكرية في الجيوش العربية أو الذين يضعون أنفسهم تحت تصرف الجيوش العربية فتتم معاملتهم معاملة المواطنين العرب". [1]

بعض المُقتطفات من النصوص الأصلية لبُنود مشروع هذا القانون:

1- "يتم اعتبار جميع المواطنين اليهود في الدول العربية على انهم أفراد ينتمون للأقلية السكانية اليهودية في دولة فلسطين، ويجب عليهم القيام بتسجيل بياناتهم كلٌّ في دولته ومنطقته خلال فترة سبعة أيام، ويجب ان تتضمن البيانات أسماءهم وعناوينهم وعدد أفراد عائلاتهم وأموالهم المودعة في البنوك".[2]

2- "يتم تجميد كافة الحسابات البنكية لليهود. ويتم استغلال جزء من هذه الأموال الموجودة في حساباتهم للتمويل الجزئي أو الكلي لمقاومة الأطماع الصهيونية في فلسطين".[3]

3- "بالنسبة لليهود الذين يُعتبرون رعايا لدول أجنبية فيُنظر إليهم بصفة الحياد، ويتم تخيير هؤلاء بين العودة إلى دولهم في أسرع وقت ممكن أو بقبول الخدمة العسكرية في صفوف الجيوش العربية بصفتهم مواطنين عرب".[4]

4- "كل يهودي يثبت قيامه بنشاطات تتعلق بالحركة الصهيونية يتم اعتقاله على الفور ويعامل معاملة المعتقل السياسي، ويتم إيداعه في سجون يتم تحديدها من قبل الأجهزة الأمنية أو الحكومة، ولا يتم تجميد حساباته البنكية بل يتم مصادرة كافة أملاكه" [5].

5- "أي يهودي يثبت أنه في موضع عداء مع الحركة الصهيونية يمنح كامل الحرية بعد إبداءه الالتزام الكامل بالانضمام إلى الجيوش العربية" [6].

6- البنود السابقة لا تعني إعفاء المواطنين اليهود الذين ينطبق عليهم البند الخامس من البند رقم 1 وبند رقم 2 من هذا القانون" [7].

الملاحظات والحواشي

---

[1] بيان جامعة الدول العربية الذي صدر بتاريخ 1948/1/19م، وقد تم إرسال هذه الوثيقة إلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي لهيئة الأمم المتحدة من قبل منظمة المؤتمر اليهودي العالمي. الفقرة 1 – أ التي تذكر تاريخ الثاني من شهر كانون الثاني سنة 1948م مأخوذة من المصدر (ZIIC)، وهذا المصدر موجود في وثيقة (IJJC) وربما يكون هنالك خطأ في هذا المصدر.

[2] نص القانون الذي قدمته اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية – الفقرة 1

[3] نفس المصدر – البند رقم 2

[4] نفس المصدر – البند رقم 3

[5] نفس المصدر – البند رقم 5

[6] نفس المصدر – البند رقم 6

[7] نفس المصدر – البند رقم 7 (ينص البند 1 والبند 2 من القانون على انه يجب على جميع المواطنين اليهود تقديم كشف ببياناتهم الشخصية وحساباتهم البنكية، ويتم تجميد هذه الحسابات لتستغل الأموال المودعة فيها لدعم وتمويل مقاومة الحركة الصهيونية).

قرار الكونغرس الأمريكي رقم 185 لسنة (2008)

في الوقت الذي خلفت فيه الصراعات في الشرق الأوسط ملايين اللاجئين من أصول عرقية وخلفيات دينية وقومية مختلفة، وفي الوقت الذي عاش فيه اليهود كأقلية سكانية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ومنطقة خليج فارس لأكثر من ألفين وخمسمئة سنة، وفي الوقت الذي كانت تعبّر فيه الولايات المتحدة مراراً وتكراراً عن قلقها الشديد لما يحدث من انتهاكات لحقوق الإنسان في الشرق الأوسطوأماكن أخرى، فإن الولايات المتحدة تسعى جاهدة لإنهاء الصراع العربيّ الإسرائيلي في الشرق الأوسط ودفع عملية السلام التي ستصُبّ في مصلحة جميع شعوب المنطقة بنهاية المطاف.

كذلك فإن الولايات المتحدة والقيادات الأمريكية المُتعاقبة كانت ولا زالت تدعم حلاً عادلاً وشاملاً لقضية اللاجئين الفلسطينيين، على الرغم من أن قضية اللاجئين الفلسطينيين قد اكتسبت قدراً كبيراً من الاهتمام من قبل دول العالم، خلافاً لقضيّة اللاجئين اليهود الذين نزحوا من الدول العربية والإسلامية والتي لم تحظَ بذلك القدر من الاهتمام. إن السلام العادل والشامل في هذه المنطقة يتطلّبُ حلاً يتطرّق لجميع القضايا العالقة بين الجانبين من خلال مفاوضات ثنائية بين طرفي الصراع الرئيسيين، بالإضافة إلى مفاوضات متعددة الأطراف تشمل جميع الأطراف ذات الصلة بهذا الصراع.

لقد نزحَ قرابة 850,000 يهوديّ ممن تم تهجيرهم وطردهم من الدول العربية منذ إعلان تأسيس واستقلال دولة إسرائيل سنة 1948م، الأمر الذي جعل الولايات المتحدة تولي اهتماماً بالغاً وقلقاً شديداً نتيجة لانتهاكات حقوق الإنسان وسوء المعاملة والتهجير القسري للأقليات في الشرق الأوسط إضافة إلى الهيمنة على ممتلكاتهم، خاصة بعد ما تعرّضت له الأقليات اليهودية التي كانت موجودة في الدول العربية، وبعد أن تم إثبات هذا الظلم والاضطهاد الذي تعرّضت له الأقليات اليهودية في الدول العربية من خلال إثباتات ودلائل عديدة، مثل:

أولا: بيان التفاهم الموقع بين الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر ووزير الخارجية الإسرائيلي موشيه ديّان والذي تم توقيعه بتاريخ الرابع من شهر أكتوبر/تشرين الأول سنة 1977م، والذي ينص على أن "حلّ مشكلة اللاجئين العرب واللاجئين اليهود سيتم مناقشته استناداً إلى القوانين التي يتم الاتفاق عليها...".

ثانياً: بيان الرئيس الأمريكي جيمي كارتر عقب انتهاء مباحثات كامب ديفيد التي كانت تشكل إطاراً لمؤتمر السلام، حيث عقد الرئيس كارتر مؤتمراً صحفياً بتاريخ السابع والعشرين من شهر أكتوبر/ تشرين الثاني سنة 1977م موضحاً فيها أن "للفلسطينيين حقوق مثلما هنالك للاجئين اليهود حقوق أيضاً، وكلاهما يتمتع بحقوق متساوية...".

ثالثاً: خلال مؤتمر مقابلة صحفية أجراها الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون عقب مباحثات كامب ديفيد الثانية في شهر تموز من سنة 2000م، أدلى الرئيس كلينتون بتصريح يتعلق بقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية قائلاً: "يجب أن يتم تخصيص قدر من الدعم المالي من قبل المجتمع الدولي للاجئين، وباعتقادي توجد نيّة واضحة لدى الجانبين لتخصيص دعم مالي لتعويض الإسرائيليين الذين أصبحوا لاجئين نتيجة للحرب التي اندلعت عقب الإعلان عن قيام دولة إسرائيل. هنالك عدد كبير من اليهود الذين يعيشون في إسرائيل بعد أن عاشوا لفترة طويلة في الدول العربية، والذين اضطروا للنزوح لإسرائيل لأنهم ببساطة طُردوا من بلدانهم وأوطانهم".

ومما لا شكّ فيه أن التعريف العالمي لكلمة لاجئ ينطبق تماماً على اليهود الذين فرّوا من ظلم واضطهاد الأنظمة العربية، خاصة وأن تعريف كلمة لاجئ يتضمنُ أيضاً أي شخص يشعرُ بالخوف من الاضطهاد نتيجة لوجود أفعال اضطهادية على أرض الواقع تُمارسُ ضد عِرقه أو جماعته أو دينه أو قوميته أو انتمائه لفئة اجتماعية معينة،أوتُمارسُ ضدّه شخصياً لأنه يحمل رأياً سياسياً معيناً، الأمر الذي يُجبره على مغادرة وطنه الأم للنجاة بحياته نتيجة عدم قدرته على تحمل هذا الاضطهاد الواقع عليه وعدم قدرته على حماية نفسه في ذلك الوطن (معاهدة سنة 1951م التي تتعلق بصفة وتعريف اللاجئ).

وفي تاريخ التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1957م أقرّت المفوضية السامية في الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين بأن اليهود الذين نزحوا من الدول العربية يحملون صفة لاجئين، وأن قضية لجوئهم حدثت في فترة زمنية كانت فيها المفوضية قائمة، كما أصدر مجلس الأمن الدوليّ القرار رقم 242 سنة 1967م والذي نصّ على "أهمية إيجاد حلّ عادل لقضيّة اللاجئين"دون تمييز بين اللاجئين الفلسطينيين واللاجئين اليهود، وهو الأمر الذي تم إثباته من خلال الآتي:

1- حاول ممثل الاتحاد السوفييتي (سابقاً) في الأمم المتحدة أن يحصر قرار مجلس الأمن رقم 242 في اللاجئين الفلسطينيين فقط، (S/8236 جلسة نقاش للسفير السوفييتي كوزنِتزوف في مجلس الأمن عبر جلستين بتاريخ الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة 1967م لنقاش الفقرة رقم 117). وقد فشل السفير السوفييتي في محاولة حصر هذا القرار في اللاجئين الفلسطينيين وحدهم، مما يثبت وجود إجماع دوليّ لإيجاد حل شامل يتطرق لجميع اللاجئين في الشرق الأوسط.

2- بيان للقاضي آرثر غولدبِرغ رئيس الوفد الذي يمثل الولايات المتحدة الأمريكية في هيئة الأمم المتحدة في ذلك الوقت، حيث لعب دوراً هاماً من أجل إزالة اللُّبس الموجود في القرار 242، فقال موضّحاً في بيانه أن "الهدف من هذا القرار هو تحقيق حلّ عادل لقضية اللاجئين، ولُغة القرار تشير بوضوح لا يدع مجالاً للشك بأنه يتطرق لقضية اللاجئين العرب واليهود على حد سواء، كما يتطرق لنفس العدد تقريباً من اللاجئين من كلا الجانبين ممن اضطروا للنزوح من أوطانهم نتيجة للحروب التي نشبت آنذاك".

كما أكّد جيمس بيكر السكرتير العام للإدارة الأمريكية في كلمته الافتتاحية خلال اللقاء المنعقد بتاريخ الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1992م بخصوص ترتيب إجراء المفاوضات متعددة الأطراف في الشرق الأوسط في موسكو، أكد على انه لا يوجد فرق بين قضية اللاجئين الفلسطينيين وقضية اللاجئين اليهود فيما يتعلق بمهمة مجموعة العمل من أجل اللاجئين، مؤكدا على أن "مجموعة العمل من أجل اللاجئين ستبحث عن سُبُل عمليّة وواقعية لتحسين حياة أكبر عدد ممكن من سكان منطقة الشرق الأوسط ممّن تم طردهم وتهجيرهم من أوطانهم".

بالتالي فإن أي خطة طريق لتحقيق سلام دائم وحلّ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي يجب أن تستند على فكرة حلّ الدولتين القائمة على أساس الاتفاق والعدل والمساواة والواقعية وحل قضية اللاجئين، وهذا ينطبقُ على كل من لجأ أو تم تهجيره من وطنه نتيجة للصراع القائم في الشرق الأوسط.

كما أكدت الاتفاقيات المُبرمة بين إسرائيل ومصر والأردن والفلسطينيين أن الحل العادل والشامل للصراع العربي الإسرائيلي يتطلب حلاً عادلاً ومُنصفاً لقضية اللاجئين، كما أن ضمان حقوق اللاجئين اليهود وإنصافهم لا يتعارض بأي شكل من الأشكال مع حقوق اللاجئين الفلسطينيين وإنصافهم.

إنه لمن الضروري أن تكون دول العالم على دراية بمطالب اللاجئين اليهود ومطالب الأقليات الأخرى التي تم تهجيرها من أوطانها في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ومنطقة خليج فارس. ولهذه الغاية فقد انطلقت حملة على مستوى العالم أجمع في أكثر من أربعين دولة بهدف توثيق تاريخ وإرث اللاجئين اليهود من الدول العربية.

إن أي حل عادل وشامل لتحقيق السلام وإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي يتطلب الأخذ بعين الاعتبار قضية اللاجئين اليهود ومجتمعاتهم العريقة التي تم اقتلاعها من جذورها الضاربة في أعماق دول العالم العربي وشمال افريقيا وخليج فارس. كما أن اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بقضية اللاجئين الفلسطينيين وحقوقهم دون اعتراف بقضية اللاجئين اليهود من الدول العربية وحقوقهم يعتبر ظلماً وإجحافا كبيراً بحقهم، لهذا:

أولاً: حتى تكون أي اتفاقية سلام في الشرق الأوسط شاملة ودائمة وذات مصداقية فإنها يجب أن تتطرق لجميع القضايا العالقة في هذا الصراع، ومن أهمها الحقوق الشرعية لجميع اللاجئين بما فيهم اليهود والمسيحيون وغيرهم ممن نزحوا من أوطانهم في دول الشرق الأوسط.

ثانياً: يتوجّب على الرئيس الأمريكي أن يقوم بتوجيه ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية في هيئة الأمم المتحدة وكافة المحافل الدولية والمحادثات الثنائية أو المتعددة الأطراف للقيام بالآتي:

أ- استخدام حق التصويت الخاص بالولايات المتحدة للتأثير على أي حلّ مستقبلي يتعلق بالصراع في الشرق الأوسط وقضية اللاجئين، بحيث أن أي حل مستقبلي لقضية اللاجئين الفلسطينيين يجب أن يتضمن مرجعية محددة وواضحة لحلّ قضية اللاجئين اليهود من الدول العربية.

ب-التأكيد على أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها طرفاً محايداً في الصراع تدعم حلاً شاملاً للصراع العربي الإسرائيلي، وبأن هذا الحل يجب أن يتطرق لقضية جميع اللاجئين من الدول العربية وشمال أفريقيا وخليج فارس، وبأن الوصول إلى هذا الحل يجب أن يتضمن اعتِرافاً بحقوقهم الشرعية وبالخسائر المادية التي لحقت بهم نتيجة تهجيرهم من أوطانهم في الدول العربية بما فيهم اليهود والمسيحيون وغيرهم.

أبرم هذا القرار وتم توقيعه بتاريخ الأول من نيسان سنة 2008م

كاتب القرار

النصّ الكامل لمَشروع القانون الذي أقرّه الكنيست بتاريخ الثاني والعشرين من شهر شباط سنة 2010م

قانون حقّ اللاجئين اليهود من الدول العربية وإيران في التَعويض – الثاني والعشرين من شهر شباط سنة 2010م

1-الغاية من هذا القانون:

غاية هذا القانون هي حماية حقّ اللاجئين اليهود من الدول العربية وإيران بالحصول على التعويضات الماديّة في إطار مباحثات ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط.

2- تعريفات:

استناداً إلى هذا القانون يُعرّفُ "اللاجئ اليهودي من الدول العربية وإيران " بأنه مَن ينطبقُ عليه الآتي:
1- من يحمل الجنسية الإسرائيلية * أوعاش في إسرائيل قبل قيام دولة إسرائيل.
2- من كان يسكن في الدول العربية وإيران وتعرض للقمع والاضطهاد نتيجة لكونه يهودياً ونتيجة لعدم قدرته عن الدفاع عن نفسه أمام هذا الاضطهاد.
3- من تركَ ممتلكاته في دولته التي نزح منها (يُقصد بالممتلكات الأرض أو الأُصول أو النقود أوأي مُمتلك آخر تمت مصادرته بأمر حكومي).

3- مُفاوضات السلام

من أجل تحقيق السلام في الشرق الأوسط فإن الحكومة الإسرائيلية مُلزمة خلال أي مفاوضات أو مباحثات مُستقبلية للسلام بإدراج قضيّة تعويض اللاجئين اليهود من الدول العربية وإيران عمّا فقدوه من ممتلكات بما فيها الممتلكات اليهودية العامة في تلك الدول.

4-التنفيذ

يتحمّل رئيس الوزراء الإسرائيلي مسؤولية تنفيذ هذا القرار

تم توقيع هذا القرار من قِبل:
رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو
الرئيس الإسرائيلي شمعون بيرِس
رِؤوفْتريفْلين المتحدث الرسمي باسم الكنيست

---

* على الرغم من أن هذا القانون ينطبق على المواطنين اليهود الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية فقط إلا أنه تم التوصل إلى آلية من أجل تضمين اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل في هذا القانون، تماماً مثلما تم تضمين الناجين من المحرقة الذين يعيشون خارج دولة إسرائيل في قانون تعويضات الناجين من المحرقة.

مصر

لقد تواجد اليهود في مصر منذ فجر التاريخ، وكان المُجتمع اليهودي المُعاصر يضمّ كلاً من اليهودية الحاخامية واليهودية القرائية ومتّبعيها، بالإضافة إلى السكان الأصليين من اليهود الذين جاؤوا إلى مصر لاحِقاً قادمين من أراضي الإمبراطورية العثمانية، وهذا توضيح للتسلسل الزمنيّ لعملية الاضطهاد الممنهجة التي تعرّض لها يهود مصر وعلى رأسها سلب جنسيتهم المصرية منهم خلال القرن العشرين:

1880م: تم تشكيل مجلس شورى النواب في مصر والذي وضع تعريفاً لمفهوم "المصري"، وعلى الرغم من حداثة هذا المفهوم إلى أن اليهود في مصر ظلّوا يُعاملون على أنهم من أهل الذمة، بالتالي حاول اليهود الذين ينتمون للطبقة العُليا والوسطى حماية أنفسهم من قمع النظام المصري عبر الحصول على جوازات سفر الأوروبية.

1914م: وصل إلى مصر 10,000 يهودي "أجنبي" بعد أن تم طردهم من فلسطين.

1918م: يُقدّر عدد اليهود الموجودين في مصر بين ثمانين إلى مئة ألف يهودي، وشهدت هذه السنة تصنيف سكان مصر تصنيفاً عِرقياً.

1922م: حصلَت مصر على استقلالها (نظرياً).

1927م: أول قانون رسمي للجنسيّة المصرية، وكان يُطلِب من السكان تقديم طلب رسمي للحصول عليها.

أواخر عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين: قيام جماعة الإخوان المُسلمين التي تم تأسيسها سنة 1928م على يد حسن البنّا بشنّ هجمات متفرّقة استهدفت غير المُسلمين في مصر ضد كل من الآشوريين المسيحيين والأرمن واليونان واليهود). كذلك قام النازيّون بتمويل حملات مناهِضة لليهود في مصر سنة 1933م.

1929م: إنفاذ قانون الجنسية المصرية الذي يستند إلى صِلة الدم والقرابة في منح الجنسية، فيما تم منح الأولوية في الحصول على الجنسية للعرب والمسلمين. حصل خمسة آلاف يهوديّ فقط على الجنسية المصرية فيما بقي أربعون ألفاً بدون جنسية. لم يتمكّن اليهود الذين ينتمون للطبقات الفقيرة من دفع رسوم الحصول على الجنسية والبالغة خمس جنيهات مصرية حينها، بالتالي لم يحصلوا على أي أوراق ثبوتية رسمية.

1937م: انتهاء عهد الامتيازات الأجنبية في هذه السنة، وبعد سنة 1949م أصبحت مسؤولية حماية الأقليات تقع على عاتق الحكومة المصرية.

1938م: رئيس جمعية "مصر الفتاة" الموالية للنازيين يلتقي بأدولف هِتلر ويدعو لطرد اليهود من مصر.

1942م: جماعة الإخوان المسلمين تصدر بياناً مُناهِضاً لوعد بلفور.

الثاني والثالث من شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1945م: اندلاع مُظاهرات وأعمال عنف مناهِضة لليهود والأقليات الأخرى في مصر، وتعرّض خلالها الكنيس الأشكنازي الكبير وعدد آخر من المؤسسات اليهودية للحرق، كما تعرّضت المحلات التجارية للسلب والنهب، فيما قُتِل ستة يهود نتيجة أعمال العُنف هذه.

1946م: مئتا يهوديّ من الإسكندرية غادروا مصر متوجهين إلى إسرائيل بطريقة "شِبه" شرعية.

1947م: مندوب مصر في الأمم المتحدة هيكل باشا يُهدّد في خطاب له بأنه في حال تم تنفيذ قرار التقسيم في فلسطين فإن حياة مليون يهودي في الدول العربية ستكون مُعرضة للخطر.

1947م: صَدور قانون تعريب الشركات والمصالح التجارية، وبموجب هذا القانون فإنه يجب ألا تقلّ نسبة العمالة العربية أو المسلمة في أي شركة أو مصلحة تجارية عن خمسة وسبعين بالمئة من إجمالي عدد العمال أو الموظفين.

1948م: قوى الأمن المصرية تشرع بملاحقة اليهود الذين ينتمون للحركة الصهيونية، فيما بدأت الحركات السرية نشاطها بهدف تنظيم رحلات الهجرة إلى إسرائيل.

أيار/مايو 1948م: اعتقال وملاحقة ألف وثلاثمائة مصري، ألف مُعتقل منهم كانوا من اليهود، كما تمت مصادرة ما يمتلكه المعتقلون من أموال وممتلكات. تم وضع المدارس اليهودية تحت إدارة الحكومة المصرية وفُرض عليها تطبيق المنهاج المصري، كما تم حرمان عدد من يهود مصر من حقّ التعليم في الجامعات.

حزيران/يونيو1948م: تم فرض القانون العسكري وبموجبه أصبح اليهود يُصنفون قانونياً على أنهم طابور خامس. تمت مصادرة الأملاك اليهودية الخاصة والعامة خلال الحرب العربية الإسرائيلية، فيما غادر قرابة عشرون ألف يهودي مصري متوجهين إلى أوروبا وإسرائيل، وتم سحب الجنسية المصرية ممن كانوا حاصلين عليها.

العشرون من حزيران/يونيو 1948م: مقتل اثنين وعشرين يهودياً مصرياً في تفجير وقع في ساحة القرائيين في القاهرة.

تموز/يوليو 1948م: قرابة خمسمائة محل تجاري يهودي من ضمنها مجموعة محلات سيكرلوأوريكو تتعرض للاعتداء والنهب والتفجير، وتم تحميل "الصهاينة" وحدهم المسؤولية عما حدث، كما قُتِل حوالي مئتا يهوديّ مصري في أعمال العُنف التي تواصلت خلال صيف تلك السنة.

أيلول/سبتمبر 1948م: مقتل تسعة عشر يهودياً مصرياً، فيما تعرَض عدد كبير من المصالح التجارية اليهودية للنهب والسرقة.

تشرين الأول/ نوفمبر 1948م: تعرّض عدد كبير من المحلات والمصالح التجارية للنهب والسرقة في القاهرة.

1950م (تكرّرت هذه الأحداث سنة 1951م و1953م و1956م): قانون الجنسية المصرية يَحرمُ اليهود من الحصول على الجنسيّة المصرية ويَسمحُ بسحب الجنسية المصرية من "الصهاينة" الذين يحملونها.

السبت الأسود – السادس والعشرين من كانون الثاني/يناير سنة 1952م: القوميّون والأصوليّون المصريون يعتدون على الممتلكات الخاصة بالأرمن واليونان واليهود.

1956م – 1957م: طرد خمسة وعشرين ألف يهوديّ مصري عقِب وقوع أزمة قناة السويس ووصول جمال عبد الناصر وحركة الضبّاط الأحرار إلى السلطة.

1961م – 1962م: تم تأميم ما تبقّى من أملاك يهودية في مصر.

1967م: تم زجّ جميع الرجال اليهود في مصر في سجون الاعتقال، وانخفاض عدد اليهود في مصر إلى بضعة آلاف فقط.

2016م: لم يتبقّ في مصر سوى ثمانية يهود في القاهرة وخمسة يهود في الإسكندرية.

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لروث توليدانو أطياس والتي أمدّتني بالكثير من المعلومات من خلال مقالتها التي تحمل عنوان:
" La denationalisation des Juifsd'Egypte' in *La fin du Judaismeenterresd'Islam*(Ed. S Trigano). "

*****

اليمن وعدن

اندثرَ المُجتمع اليهوديّ اليمني بعد تاريخ عريق في هذا البلدِ يمتدّ لأكثر من ثلاثة آلاف عام، فمع بدايات القرن العشرين كان اليمن الشمالي خاضعاً لحكم العثمانيين الزيديّين الشيعة، والذين كانوا يفرضون قوانين إسلامية شديدة الصرامة على سكان البلد، أما اليمن الجنوبي فكان بمثابة مُقاطعة خاضعة للسلطة البريطانية، وهذا تسلسل أحداث الاضطهاد والعُنف التي أدّت بنهاية المطاف إلى اندثار المُجتمع اليهوديّ اليمنيّ بأكمله:

1881م: بدأ يهود اليمن بالمغادرة متجهين إلى إسرائيل في الوقت الذي كان الشافعيون السنّة يُجبرون يهود الشمال على اعتناق الديانة الإسلامية، حينها كان اليهود يفضّلون العيش تحت حُكم الزيديين.

1849م – 1972م: العثمانيون والزيديون يتصارعون من أجل الاستحواذ على مقاليد الحُكم.

1904م: الإمام يحيى الزيدي يستحوذ على مقاليد الحكم، وخلال تلك الفترة توفّيّ سبعة آلاف يهودي (ما نسبته ثمانون بالمئة من اليهود حينها) بالإضافة إلى عشرة آلاف مسلم في إحدى المجاعات في صنعاء، حينها قام عدد كبير من اليهود باعتناق الديانة الإسلامية من أجل الحصول على الطعام. في الوقت نفسه فرّت مجموعة من اليهود إلى عدن لكنّهم تعرّضوا للسلب والنهب في الطريق.

1911م: الإعلان رسمياً عن الشروق بتطبيق قوانين الشريعة الإسلامية، وبناء على ذلك صار يندرج اليهود تحت منزلة أهل الذمة، وهي منزلة وضيعة تفوق منزلة العبيد السود بشيء بسيط، وهي منزلة لا تختلف كثيراً عن منزلة طبقة المُهمّشين في الهند. وبموجب قوانين أهل الذمّة فقد تم فرض ضريبة الجزية على اليهود، بحيث تعتمد قيمة هذه الضريبة على مهنة كل يهوديّ. كان اليهود أيضاً يتعرضون للإهانة والرشق بالحجارة على يد الأطفال الصغار، ولم تكُن عائلات القَتلى اليهود تتلقّى أي تعويضات مادية تُذكر في حال تعرّض أحد أبناء العائلة

للقتل، خلافاً لما كان يحدثُ في حال تعرض أحد المسلمين للقتل. وكان يُسمح لليهود في تلك الفترة بالتملّك، لكن كان التملّك مُحدداً بحيثُ كان يُمنعُ على اليهوديّ أن يتملّك ما من شأنه أن يكون "مُستفزّاً لمشاعر المُسلمين".

1913م: تم تعيين مجموعة من اليهود للقيام بأعمال الصرف الصحيّ والمجارير، وكان هؤلاء ينتمون لطبقة من طبقات اليهود الفقراء حينها.

1920م: الزيديّون يعلنون استقلالهم.

1922م: صدور مرسوم الأطفال الأيتام، وهو مرسوم يقضي باعتناق الأطفال الأيتام للديانة الإسلامية، وفي السنة نفسها قام الإنجليز بحظر الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين الانتدابية.

1923م: اعتناق اثنين وأربعين يتيماً للديانة الإسلامية.

1928م: سبعة وعشرون يتيماً يعتنقون الإسلام بعد تعرّضهم للتعذيب الشديد.

1929م: تم تهريب خمسين طفلاً إلى منطقة عدن على أمل النجاح في تهريبهم إلى أرض فلسطين الانتدابية. في السنة ذاتها بدأ الفلسطينيون في اليمن بترويج الإشاعات والأكاذيب المُحرّضة على اليهود، فقام عدد كبير من اليهود بالفرار إلى منطقة عدن بعد أن تم إجبارهم على ترك جميع ممتلكاتهم. نتيجة لهذه المُعطيات أصبح يهود اليمن يفرّون منها في كل حد وصوب، فرّ ألفان منهم إلى مصر وألفان إلى منطقة أريتيريا وسبعة آلاف إلى الهند.

1934م: مُفتي القدس يزور اليمن، وخلال تلك السنة تم منع اليهود من المُغادرة إلى فلسطين خوفاً من أن يُقاتلوا الجيوش العربية هُناك.

1935م: ازدياد وتيرة القمع الذي تعرّض له اليهود بعد ترويج إشاعات في اليمن مفادها بأن المسجد الأقصى في خطر، وبعد أن فرّ ثلاثة وعشرون ألف يهودياً إلى منطقة عدن تم إغلاق المرفأ أمام هجرة اليهود.

1947م: اندلاع مُظاهرات عنيفة في منطقة عدن، وخلال تلك المُظاهرات لقي اثنان وثمانون يهودياً مصرعهم (استناداً إلى الإحصائيات الموجودة في متحف تراث يهود عدن فقد بلغ العدد سبعة وثمانين قتيلاً).

1948م: اغتيال الأمام يحيى، الأمر الذي أدّى إلى اندلاع الحرب الأهلية.

1949م: إلغاء قرار حظر الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين الانتدابية.

1949م – 1950م: إسرائيل تقوم بدفع فدية لافتداء خمسين ألف يهودي يمني وقامت بإنقاذهم في عملية إخلاء جوي أطلق عليها اسم "أجنحة النسور". في الوقت نفسه تم الإبقاء على اليهود الذين يمتلكون مهارات وحرفاً خاصة إلى أن يتمكّن المسلمون من تعلم تلك الحرف على أيديهم.

2009م: أكثر من مئة يهودي يمنيّ يفرّون من اليمن هاربين من الحرب الأهلية اليمنية وحالة التطرّف لتي هيمنت عليه، ومع حلول سنة 2016م لم يتبق سوى أقل من خمسين يهودياً يمنياً هناك.

*أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لروث توليدانو أطياس والتي أمدّتني بالكثير من المعلومات من خلال مقالتها التي تحمل عنوان:

"**Sous la dureté de la *dhimma*: les juifs du Yemen', in *La fin du Judaïsme enterresd'Islam,* (edited byS. Trigano)** "

******

سوريا ولبنان

يمتدّ التاريخ اليهودي في كلّ من سوريا ولبنان لأكثر من ألفي عام، حيث بلغ عدد اليهود سنة 1948م في سوريا ثلاثين ألف يهودي، وفي لبنان بلغ عددهم في السنة ذاتها عشرون ألفاً، ولطالما كان هذان المُجتمعان مُرتبطين ببعضهما ارتباطاً وثيقاً أكثر من أي منطقة أخرى، وهذا هو التسلسل التاريخيّ لاندثارهم من تلك البلدان حتى وصل عدد اليهود لأقل من عشرين يهودياً في كلا البلدين:

القرن التاسع عشر: شهدت تلك الفترة نزوحاً جماعياً كبيراً للسوريين من جميع الأديان نتيجة الحرب المسيحية الدرزية بالإضافة إلى الأزمة الاقتصادية التي شهدتها البلاد حينها، الأمر الذي دفعهم للنزوح إلى مصر ودول العالم الجديد.

1909م: بدأ الجيل الصغير من اليهود بالفرار هرباً من قانون التجنيد العسكري الإجباري العثماني.

1917م: الهجرات اليهودية من أرض إسرائيل تساهم في تعريف اليهود في الشتات بالحركة الصهيونية.

1918م: خُضوع كل من لبنان وسوريا للانتداب الفرنسي.

ثلاثينيات القرن التاسع عشر: الشروع باتخاذ إجراءات وقوانين مُناهضة لليهود، في الوقت نفسه شهد الاقتصاد أزمة كبيرة دفعت بـِ 2868 يهودياً للهجرة إلى إسرائيل. كما شهدت تلك الفترة انتشارالبروباغندا وأعمال التحريض النازيّ ضد اليهود على يد مفتي القدس، الأمر الذي أجبر 5286 يهودياً على المغادرة.

1945م: ألف طفل يهوديّ يؤدّون العليا اليهودية (العليا هو مصطلحٌ عبريّ يُقصدُ به الهجرة إلى أرض إسرائيل).
في السنة ذاتها أصبح تعليم المنهاج السوري في المدارس اليهودية إلزامياً.

1947م: مظاهرات عارمة تندلع في جميع أرجاء حلب تخلّلها تدمير ثمانية عشر كنيساً يهودياً وخمس مدارس يهودية بالإضافة إلى دار للأيتام ونادي للشباب، كما لحقت أضرار جسيمة بالكنيس اليهودي الكبير في حلب. وفي السنة ذاتها تم منع اليهود من التملّك، وتم اعتقال المئات وطرد الطلاب اليهود الذين كانوا يدرسون في جامعة بيروت.

1948م: تعرّض عدد من اليهود للقتل في بيروت، وفي شهر تشرين الثاني من هذه السنة تعرَض اثنا عشر يهودياً للقتل في مدينة طرابلس شمال لبنان.

1949م: تمّ تجميد حسابات اليهود في سوريا، كما تمّت مصادرة أملاكهم وعقاراتهم وفُرضت قيود شديدة على حركتهم. في السنة ذاتها تم إلقاء عدد من القنابل اليدوية على كنيس المناشي في دمشق/ ونتيجة هذا الهجوم لقي ثلاثة عشر يهودياً مصرعهم وجُرح اثنان وثلاثون شخصاً.

1950م: تم منع يهود القامشلي من العمل في الزراعة، كما شهدت هذه السنة نزوحاً كبيراً ليهود سوريا إلى بيروت، ولم يتبقّ في سوريا سوى خمسة آلاف وسبعمائة يهودي، في الوقت نفسه نزح عشرة آلاف يهوديّ من لُبنان إلى سوريا والعراق. وقد شهدت هذه السنة أيضاً إصدار الحكومة السورية قانوناً يقضي بمصادرة جميع الأملاك اليهودية في سوريا، في الوقت نفسه نزح اللاجئون الفلسطينيون إلى الأحياء اليهودية وقاموا بالاعتداء على اليهود في كل من دمشق وحلب والقامشلي، كما تعرّضت المحلات والمصالح التجارية للنهب والسرقة، وتعرّضت أيضاً مدارس الاتحاد الإسرائيلي العالمي في بيروت للتفجير وتم حظر أنشطة المؤسسات الشبابية اليهودية، فيما تم طرد الموظفين اليهود من الوظائف الحكومية. في الوقت نفسه قامت المليشيات المسيحية بحماية اليهود ومنحتهم حرية الحركة في لمناطق الخاضعة لسيطرتها.

1958م – 1962م: تمّ السماح لليهود بمغادرة سوريا مُقابل دفع الفدية، وفي هذه السنة تمكّن ألفان وثمانمائة يهودي من الفرار إلى إسرائيل.

1962م: إصدار قرار حظر مغادرة اليهود لسوريا.

1965م: تم اعتقال الجاسوس الإسرائيلي إيلي كوهين، وعقب ذلك ازدادت وتيرة الاعتداءات على اليهود.

1967م: اندلاع مُظاهرات وأعمال عُنف ضد اليهود في سوريا، كما قام المسلمون هناك بالاستحواذ على مدرستين يهوديتين، وتم حظر سفر اليهود خارج سوريا، كما تم أيضا طردُ الأطباء وعلماء الكيمياء اليهود من وظائفهم، وتم منح وظائف اليهود للاجئين القادمين من هضبة الجولان. شهدت هذه السنة أيضاً نزوح 2264 يهودي إلى إسرائيل.

1967م – 1970م: لم يتبقّ في لبنان سوى بضع مئات من اليهود من أصل ستة آلاف يهودي.

1971م: شهدت هذه السنة موجة من عمليات اختطاف اليهود في لبنان، فعلى سبيل المثال تم اختطاف وقتل أحد الشخصيات اليهودية البارزة ويدعى ألبِرت إليا.

1973م: تم قطع كافة خطوط الهاتف من منازل اليهود عقب حرب الغفران، كما تم منع اليهود من اقتناء أجهزة الراديو، وتم منعهم أيضاً من التواصل مع أي شخص خارج سوريا بأي شكل من الأشكال.

1975م: تنفيذ مهمة إنقاذ لمن تبقّى من اليهود في سوريا بما فيهم عدد كبير من الفتيات، وقد بادر إلى هذه المهمة الكندية جودي فيلد كار.

1978م: أربعمائة وخمسون يهودياً يُغادرون لبنان، ويُعتقد بأنه تم قتلُ ثلاثين يهودياً في الحرب الأهلية اللبنانية بين سنتي 1978م و1980م فقط.

1992م: الرئيس السوري حافظ الأسد يسمح لألفين وثمانمائة يهودي بمغادرة سوريا باستخدام تأشيرة السياحة لكن دون أن يصطحبوا معهم أياً من ممتلكاتهم.

1994م: سُمح في هذه السنة لليهود بمغادرة سوريا مُصطحبين أملاكهم ومقتنياتهم، كما شهدت هذه السنة مغادرة الحاخام اليهودي الأكبر في سوريا أبراهام حَمرة متوجّهاً إلى إسرائيل.

1999م: لم يتبقّ في لبنان سوى ستون يهودياً فقط، أما في سوريا فلم يتبقّ سوى مئة يهودي أو أقلّ.

2017م: لم يتبقّ سوى خمسة عشر يهودياً فقط في كل دولة.

*أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لروث توليدانو أطياس والتي أمدّتني بالكثير من المعلومات من خلال مقالتها التي تحمل عنوان:

" 'Comment la Syrie et le Liban se sonttotalementvidés de leursJuifs' by Yaron Harel, in *La fin du judaïsmeenterresd'Islam*by (ed. S. Trigano)"

******

المغرب

شكّل اليهود ما نسبته ثلاثة بالمائة من أصل خمسة ملايين مواطن مغربي قبل سنة 1948م، وفي الوقت الحاضر لا يتواجد على أرض المغرب سوى ألفان وخمسمائة يهودي أو ربّما أقلّ، ومصيرهم مُرتبط بمدى حماية العائلة الملكية المغربية لهم، وبطبيعة الحال فإن المجتمع اليهودي المغربي ليس بذلك الازدهار والقوّة التي كان عليها سابقاً، وهذا هو المخطط الزمنيّ لتسلسل الأحداث التي أدّت بنهاية المطاف إلى انخفاض عدد اليهود في المغرب بهذا الشكل المهول:

1912م: ارتكاب مذبحة فاس التي قُتل فيها خمسة وأربعون يهودياً مغربياً، وفي السنة ذاتها خضعت المغرب للانتداب الفرنسي، وهذه هي الفترة الزمنية التي انتهت فيها حُقبة خضوع مئتين وثلاثين ألف يهودي مغربي لقوانين أهل الذمة، لكنهم في الوقت نفسه مُنعوا من الحصول على الجنسية الفرنسية مع بعض الاستثناءات بالطبع.

ثلاثينيات القرن العشرين: معاداة السامية تطغى على قوانين الحكومة الفرنسية بقيادة اليمين المُتطرّف، في الوقت نفسه بدت نزعة معاداة السامية ظاهرة على خطاب الحركة الوطنية المغربية.

1934م: حاكم المغرب يطلب من السلطات الفرنسية أن تمنع اليهود من الحركة في مناطق محددة يمرّ منها المسلمون مثل المدينة الجديدة (أو المعروفة باسم ساحة حَبّو) بالإضافة إلى بعض أحياء الدار البيضاء.

1936م: انتشار إشاعات مفادها أن البنات اليهوديات يؤثّرن سلباً على تربية البنات المُسلمات، وهذه الإشاعات كان شرارة البداية التي أشعلت مذبحة 1937م التي ارتُكبت بحق يهود مدينة مكنس، وخلال تلك المذبحة قام المسلمون بنهب وسرقة أربعين محلاً يهودياً، في المقابل ردّ اليهود على هذا الاعتداء بالدعوة لمقاطعة البضائع الألمانية.

الثالث من أكتوبر/تشرين الأول 1940م: تشريع قوانين ڤيشي التي تم بموجبها طرد اليهود الذين يحملون الجنسية الفرنسية من الوظائف الحكومية والتعليم والقضاء والطبّ والإعلام.

الحادي والثلاثين من أكتوبر/تشرين الأول 1940م: السلطان العثماني يوقّع مرسوماً يقضي بتجميد عمل المدارس واللجان والجمعيات اليهودية بالإضافة إلى حظر الصحف اليهودية بشكل كامل، ويُستثنى من هذا الحظر اليهود الذين اعتنقوا الإسلام.

تشرين الثاني 1940م: حظر عمل النساء المُسلمات في بيوت اليهود.

1941م: السلطان يعبّرعن رفضه القاطع للقوانين المُناهِضة لليهود أمام وفد من يهود المغرب، وعلى الرغم من تأخر السلطان في تنفيذ بعض القوانين المُناهِضة لليهود إلا أنه قام بالتوقيع على خمسة مراسيم في شهر أغسطس/آب 1941م تمنع اليهود من العمل في قطاع المال والمصارف والعقارات والقضاء، كما تقضي هذه المراسيم بضرورة أن يُفصح اليهود عن ممتلكاتهم من الأصول والعقارات. كذلك تم وضع سقف محدد لعدد الطلاب اليهود المسموح لهم بالتعليم في المدارس الحكومية.

الثامن من أغسطس/آب 1941م: طرد اليهود من المدينة الجديدة (الأوروبية) إلى المَلاح (اللقب الذي يُطلق على الحارات اليهودية في المغرب).

1942م: السلطان يُصَرّح:"لا يوجد ما يُسمى باليهود وغير اليهود في المغرب، فالجميع مغاربة قبل أي اعتبار آخر".

1948م: مظاهرات وأعمال عُنف تعمّ منطقتي وجدة وجرادة راح ضحيتها أربعة وأربعون يهودياً مغربياً، وشهدت هذه السنة نزوح عشرة بالمائة من يهود المغرب إلى إسرائيل.

1948م – 1949م: نزوح ما تعداده 22,000 يهودياً من المغرب إلى إسرائيل.

1949م – 1957م: نزوح 110,000 يهوديّ من المغرب.

1953م: مقتل أربعة يهود خلال الاضطرابات التي شهدتها منطقة وجدة.

1954م: مذبحة الأمير جون (Petit Jean) والتي راح ضحيتها سبعة يهود.

1955م: نزوح ألف وسبعمائة يهودي إلى المدينة الجديدة بعد تعرّض مئات المنازل اليهودية للحرق والهدم، فيما ظلّ قرابة مئتي يهوديّ بدون سكن أو مأوى نتيجة موجة العنف تلك. في السنة نفسها ارتُكبت مذبحة وادي زمّ والتي راح ضحيتها عائلة يهودية بأكملها مكونة من خمسة أفراد بالإضافة إلى يهوديّين آخرين من عائلة أخرى.

1956م: إعلان استقلال المغرب، وتعيين الدكتور ليون بن زاكين وزيراً للاتصالات والبريد، كما تم تعيين خمسة يهود كمستشارين في المجلس الوطنيّ المغربي.

سبتمبر/أيلول 1956م: فرضت المغرب حظراً على السفر والهجرة إلى إسرائيل، لكن هذا لم يمنع 29,472 يهودياً مغربياً من الخروج سراً من المغرب بمساعدة النشطاء الصهاينة الذين عُرفوا باسم "*Misgueret*".

1958م: انضمام المغرب إلى جامعة الدول العربية وشروعها بعملية تعريب للدولة، كما شهدت هذه السنة قطع العلاقات البريدية المغربية مع إسرائيل.

1961م: الرئيس المصري جمال عبد الناصر يزور المغرب، وعقب الزيارة بدأت السلطات المغربية بتضييق الخناق على اليهود، كما شهدت هذه السنة أيضاً إرغام عدد كبير من النساء اليهوديات على اعتناق الإسلام نتيجة ضغوط مارسها نشطاء الحركة الوطنية المغربية. وفي شهر كانون الثاني من هذه السنة فُقِدت آثار سفينة بيسكاس إيغوز(Egos) التي كانت تقلّ على متنها مُهاجرين يهود لتهريبهم خارج المغرب، لاحقاً أُعلن عن وفاة اثنين وأربعين مُهاجراً يهودياً بالإضافة إلى مقتل شخص من طاقم السفينة. وشهدت هذه السنة حدثاً هاماً وهو عملية ياخين التي تم خلالها إخلاء 87,707 يهوديّ مغربي ونقلهُم إلى إسرائيل بعد أن تلقّت الحكومة الغربية مبلغ عشرين مليون دولار مقابل السماح بإخلائهم.

1948م – 1967م: بلغ عدد اليهود المغاربة الذين نزحوا إلى إسرائيل 237,813 يهوديّاً، فيما توجّه حوالي أربعون ألف يهودي مغربي إلى فرنسا.

السادس عشر من أغسطس/آب 1972م: مُحاولة انقلاب فاشلة لإزاحة الملك حسن الثاني من الحكم.

1972م: عدد اليهود في المغرب بلغ ثلاثين ألفاً.

2003م: أقل من خمسة آلاف يهوديّ يعيشون في المغرب.

*أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لجوليان جوبنوديفيد بن سوسانوالذين أمدّاني بالكثير من المعلومات من خلال مقالتيهما:

*'Mohamed V et sesjuifs*by Guillaume Jobin (*Information juive*Fev/Mars 2015)- *"Il étaitunefois le Maroc* by David Bensoussan; Yigal Ben Nun in *'La fin du Judaïsme enterresd'Islam'*, (ed. S. Trigano)

*****

ليبيا

تعود أصول يهود منطقتي طرابلس وبرقة في ليبيا إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وخلال الاحتلال الإيطالي لليبيا سنة 1911م برز دور اليهود في قطاعي التعليم والتجارة، لكنهم عانوا الأمرّين خلال الحرب العالمية الثانية وحتى بعد انتهائها. وقد شكّل اليهود رَبع سكان منطقة طرابلس سنة 1941م، أما في وقتنا الحاضر فلا يوجد أي يهوديّ في ليبيا بأكملها، وهذا هو المخطط الزمنيّ لتسلسل الأحداث التي ادّت إلى اندثار المُجتمع اليهوديّ من هذا البلد:

1938م: خُضوع ثلاثين ألف يهوديّ ليبي للقوانين العُنصريّة التي شرّعتها الحكومة الإيطالية.

1942م: احتلال ألمانيا للحيّ اليهوديّ في منطقة بنغازي وإرسال ألفي يهوديّ ليبي إلى الصحراء المغربية، وشهدت هذه السنة وفاة ستمائة يهوديّ في معسكرات العمل الإجباري النازية.

1945م: مذبحة دموية استمرت ليومين قُتل خلالها مئة وثلاثون يهودياً ليبياً فيما تم تدمير خمس كُنُس يهودية.

1948م: مقتل أربعين يهودياً وتدمير أكثر من ثلاثمائة منزل يهوديّ، كما تم تهريب ثلاثة آلاف يهوديّ إلى خارج ليبيا.

1949م - 1952م: تسعون بالمائة من يهود ليبيا ينزحون إلى إسرائيل.

1951م: إعلان العمل بالدستور الليبي، ورئيس الوزراء محمود منتصر يصرّح بأن لا يوجد مستقبلٌ لليهود في ليبيا.

1952م: ليبيا تنضمّ لجامعة الدول العربية وتحظر الهجرة بعد نيلها استقلالها.

1953م: ليبيا توقّع على الاتفاقية الاقتصادية التي تقضي بمقاطعة اليهود، كما شهدت هذه السنة مداهمة قوى الأمن لبيوت اليهود ليلاً بحجة البحث عن أي شيء يتعلق بالحركة الصهيونية.

1954م: إغلاق نادي مكابي الرياضي.

1958م: حلّ المجلس اليهوديّ الليبي بموجب القانون.

1961م: القانون الليبي يطلبُ من اليهود إثبات صحّة وقانونيّة جنسيّتهم الليبية، وقد رفضت السلطات الليبية منح المواطنة لجميع يهود ليبيا باستثناء ستة أشخاص فقط، وفي السنة ذاتها قامت الحكومة الليبية بمصادرة ممتلكات اليهود الذين نزحوا إلى إسرائيل.

1963م: الناصريّون يَضغطون باتجاه إجبار ليبيا على إغلاق القواعد الأمريكية والبريطانية، وشهدت السنة ذاتها مقتل الشخصية اليهودية البارزة خلف الله ناحوم عن عُمر ناهز الأربعة وثمانين عاماً.

1967م: خلال حرب الأيام الستة تم إجبار ما تبقّى من يهود ليبيا على التبرّع بالأموال لصالح دعم القضيّة الفلسطينية، كما تم تدمير ما نسبته ستون بالمئة من ممتلكات اليهود في منطقة طرابلس وحرق المحلات الإيطالية واليهودية، وشهدت هذه السنة مقتل عشرة يهودياً واعتقال ثلاثمائة يهوديّ بحجّة حمايتهم. وشهدت تلك السنة أيضاً ارتكاب مذبحة بحقّ عائلتين يهوديتين تتكونان من أربعة عشر فرداً، وبلغ تعداد ما تبقّى من يهود ليبيا في هذه السنة قرابة خمسة آلاف يهوديّ فقط.

1970م: السلطات الليبية في عهد القذّافي تُصادر جميع ممتلكات اليهود الموجودين خارج ليبيا.

2002م: شهدت هذه السنة وفاة إسمرلدامغناجي وهو آخر يهوديّ في ليبيا.

*أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لموريس رومان والذي أمدّني بالكثير من المعلومات من خلال مقالته التي تحمل عُنوان:

'Le processus de discrimination des juifs de Libye' by Maurice Roumani, in *La fin du judaïsmeenterresd'Islam*(ed. Shmuel S. Trigano)

*****

العراق

بدأت الأوضاع المعيشية تزداد سوءاً في العراق خاصة في ثلاثينيات القرن الماضي نتيجة تأثير الألمان النازيين، على الرغم من أن العراقيُعتبر أقدم وأعرَق مجتمع يهوديّ في مُجتمعات الشتات. وقد عانى ما تبقّى من يهود العراق في ظلّ حُكم نظام صدام حُسين بعد النزوح الجماعي للغالبية الساحقة منهم خلال سنتي 1950م و1951م، لذلك حاول عدد كبير منهم الهروب للخارج، بالتالي ليس من المستغرب أن نجد خمسة يهود فقط في العراق مع حلول سنة 2016م، وهذا هوالمخطط الزمني لتسلسل الأحداث التي أدت بنهاية المطاف إلى نزوح يهود العراق:

1918م ،1919، 1920م: مشاعر الخوف والقلق بدأت تسيطر على يهود العراق نتيجة وصول المُسلمين إلى مقاليد الحُكم، لهذا بعثوا بعريضة إلى الحاكم المدني البريطاني في بغداد مُطالبين بمنحهم الجنسية البريطانية، لكن طلبهم قوبل بالرفض.

1932م: العراق يُعلن رسمياً حماية حُقوق الأقليات، لكن في الوقت نفسه رفضت الحكومة العراقية تعيين مراقب خاص يُعنى بمتابعة مدى احترام حقوق الأقليات في العراق، وفي السنة ذاتها بدأ السفير الألماني غروبافي العراق بنشر مُقتطفات من كتاب هتلر "كفاحي" في الصحف والجرائد العراقية اليومية وباللغة العربية.

1933م: شهدت هذه السنة مقتل ستمائة مسيحي آشوري عراقي.

1934م – 1936م: شهدت هذه السنة طرد ستمائة يهوديّ عراقيّ من الوظائف العامة (تمإعادة عدد كبير منهم إلى وظائفهم لاحقاً).

1934م: فرض إجراءات تُرغم اليهود على إيداع مبلغ خمسين جنيهاً إسترلينياً من أجل السماح لهم بالسفر خارج العراق.

1935م: السلطات العراقية تُضع أعداداً مُحددة (كوتا) للطلاب اليهود المسموح لهم بالدراسة في المدارس الثانوية، فيما تم حظر تدريس اللغة العبرية والتاريخ اليهودي، وسُمح فقط بقراءة الكتاب اليهوديّ المُقدّس باللغة العبرية دون ترجمة.

1936م: شهدت هذه السنة مقتل ثلاثة يهود في بغداد ويهوديّ واحد في البصرة، بالإضافة إلى إلقاء قُنبلة على أحد الكُنس اليهودية في يوم الغفران.

1939م: النظام التعليمي في العراق يبدأ بتطبيق نموذج مماثل لنظام التعليم الألماني النازيّ.

1936م – 1939م: شهدت هذه السنة وقوع سِتّ عمليات تفجيرية ومقتل سبعة يهود على الرغم من إعلان كبير حاخامات العراق عدم وجود أي صِلة بين يهود العراق والحركة الصهيونية، هذا الإعلان الذي وَقّع عليه ثلاثة وثلاثون شخصية عراقية من كبار شخصيات يهود العراق.

1941م: شهدت هذه السنةمقتل مئةوتسعة وسبعين يهودياً، فيما تم نهب وسرقة أكثر من 911 بيتاً يهودياً خلال مذبحة الفرهود، وقد وقعت هذه الأحداث في فترة الفراغ السياسيّ بعد قيام قيادات عراقية موالية للنازيين بالانقلاب على السلطة.

1947م: وزير الخارجية العراقي يُهدّد بطرد يهود العراق كجزء من خطة على مستوى الدول العربية جميعها في حال تم تنفيذ خطة تقسيم فلسطين.

1948م: إعلان حالة الطوارئ في العراق وخضوع 310 يهود لمحاكم عسكرية بالإضافة إلى إعدام رجل الأعمال اليهوديّ المعروف شفيق عدس شنقاً.

مايو/أيار سنة 1948م – ديسمبر/كانون الأول 1949م: طرد ما بين 800- 1500 يهوديّ عراقي من الوظائف الحكومية، وتم سحب رخصة التداول بالعملات الخارجية من المصارف اليهودية، فيما تم فرض إجراءات مشددة على المدارس اليهودية وطلاب الجامعات من اليهود، وتم أيضاً إجبار يهود العراق على التبرّع بمبلغ 113,000 دينار عراقيّ لصالح الحربّ التي شنّها العرب ضد إسرائيل، وتم أيضاً جمع غرامات من يهود العراق تقدر بثمانين مليون دولار أمريكي. وشهدت هذه الفترة أيضاً منع اليهود من بيع وشراء العقارات وفرض ضرائب باهظة عليهم بأثر رجعي، بالإضافة إلى مصادرة أملاك اليهود الذين هاجروا من العراق منذ سنة 1933م، كما قامت السلطات العراقية بتقنين خدماتها المُقدّمة للأحياء والمناطق اليهودية وقامت أيضاً بإغلاق الصحف والمجلات اليهودية.

فبراير/شباط – مارس/آذار 1949م: اعتقال مئة يهوديّ عراقي بتهمة علاقتهم بالحركة الصهيونية.

مارس/آذار 1950م: البرلمان العراقيّ يسمح بهجرة يهود العراق مقابل تخلّيهم عن جنسيتهم العراقية، فقام مئة وعشرون ألف يهوديّ عراقي بتسجيل أسمائهم في لائحة الهجرة إلى إسرائيل، وكان من ضمنهم ثمانية عشر ألف يهوديّ كردي.

مارس/ آذار 1951م: شهدت هذه السنةفرض "القانون رقم خمسة" والذي تم بموجبه مصادرة أملاك جميع اليهود غير الحاصلين على الجنسية العراقية.

1963م: وصول حزب البعث إلى مقاليد الحُكم، الأمر الذي أدّى إلى فرض المزيد من القيود على من تبقّى من يهود العراق، حينها فُرض على اليهود حمل بطاقة صفراء تميّزهم عن غيرهم، كما مُنعوا من بيع وشراء العقارات.

1967م: عدد كبير ممّن تبقّى من يهود العراق يقبعون في معسكرات الاعتقال ويُطردون من وظائفهم عَقب حرب الأيام الستة، فيما تمّ فرض المزيد من الإجراءات العقابية عليهم تشمل مصادرة العقارات وتجميد الحسابات البنكية وإغلاق المصالح التجارية وسحب رُخص مزاولة التجارة بالإضافة إلى منعهم من استخدام الهواتف. كما شهدت هذه السنة فرض الإقامة الجبرية في المنازل وعدم السماح لهم بمغادرة المدن التي يقطنون فيها، واستمر هذا الحال لفترة طويلة.

1968م: الاضطهاد الذي تعرّض له اليهود يبلغُ قمّته، فيتم اعتقال أعداد كبيرة وزجّهم في السجون بتهم التجسس، فيما تم إعدام أحد عشر يهودياً عراقياً حتى الموت بعد أن خضعوا لمحاكمات سرية.

السابع والعشرين من كانون الثاني سنة 1969م: أربعة عشر يهودياً - بما فيهم الأحد عشر المذكورين سابقاً - يُعدمون على الملأ وسط مدينة بغداد، فيما تعرّض عشرات آخرون للاعتقال والتعذيب.

1970م – 1971م: شهدت هذه الفترة تهريب ألف وتسعمائة يهوديّ عبر الحدود الكردية باتّجاه إيران.

1972م: عدد محدود من يهود العراق يُهاجرون باستخدام جوازات السفر العراقية.

2003م: الجيش الأمريكي يكتشف وجود أربعة وثلاثين يهودياً في بغداد.

2016م: لم يتبقّ في العراق سوى خمسة يهود فقط.

*أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لكارول بصري والذي أمدّني بالكثير من المعلومات من خلال مقالته التي تحمل عُنوان:

'*The Jews of Iraq: A Forgotten Case of Ethnic Cleansing* by Carole Basri. (Policy Study no. 26, Institute of the World Jewish Congress)

******

تونس

عاش اليهود في شمال جزيرة جربة التونسية منذ عهد الملك سليمان، لكن ما يُشاع عن هذه الجزيرة هو أنها لا زالت مكاناً تزدهر فيه حياة المُجتمع اليهودي، وهذا أمرٌ عارٍ تماماً عن الصحة تماماً باعتبار أن عدد اليهود في تونس انخفض من مئة وخمس آلاف يهودي سنة 1948م ليصل إلى ألف وخمسمائة يهودي فقط في وقتنا الحاضر، وهذا هو المُخطط الزمني لتسلسل الأحداث التي أدّت بنهاية المطاف إلى هذا الانخفاض المهول في عدد يهود تونس:

1881م: تونس تقبع تحت الوصاية الفرنسيّة.

1898م: شهدت هذه السنة اندلاع أعمال العُنف بين اليهود والمسلمين، وعلى إثرها تعرّضت منازل اليهود ومحلاتهم للنهب والسرقة، فيما تمت محاكمة اثنين وستّين مُسلماً بالإضافة إلى عشرين يهودياً على خلفية أعمال العنف هذه.

1910م: تأسيس منظمة أحرار صهيون (أغوداتتسيون)، كما ظهر تحالُف المُنظمات الصهيونيّة في تونس سنة 1920م.

1917م: عودة الجنود التونسيين من القتال بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وقيامهم بالتظاهر احتجاجاً على إعفاءاليهود من الخدمة العسكرية، وشهدت هذه الاحتجاجات تعرض البيوت والمصالح التجارية اليهودية للنهب والسرقة، كما قُتل يهوديّ وأصيب ثمانية آخرون خلال تلك الأحداث.

1923م: تحرير اليهود الذين كانوا يحملون الجنسية الفرنسية، ومع بداية الحرب العالمية الثانية كان هنالك ما تعداده 6667 يهوديّ تونسيّ ممن يحملون جوازات سفر فرنسية.

1940م: سَرَيان قوانين ڤيشي العُنصرية والتي كانت تستثني اليهود من الحصول على الوظائف الحكومية، كما تمّ حل المجلس اليهوديّ المحلّي، وتم تجهيز قائمة بأسماء الممتلكات اليهودية تمهيداً لمصادرتها.

مايو/أيار 1941م: شهدت هذه السنة ارتكاب مذبحة قابس بحقّ اليهود، هذه المذبحة التي قُتل فيها سبعة يهود.

نوفمبر/تشرين الثاني 1942م: شهدت هذه السنة قيام النازيّين باحتلال بعض المناطق في تونس وخضوع من كانوا يحملون الجنسية الإيطالية للقوانين الفاشية العُنصرية. كما طلب النازيّون من اليهود جمع مبلغ ثمانية وثمانين مليون فرنك، فيما قاموا بإرسال ألفي يهوديّ إلى معسكرات العمل الإجباري والتي لقي خلالها ستون يهودياً حتفهم نتيجة الضربات الجوية لهذه المعسكرات.

أبريل/نيسان 1943م: ترحيل أربعين يهودياً عبر الجوّ إلى معسكرات الموت الأوروبية.

1948م – 1949م: تهريب ستة آلاف ومئتي يهوديّ تونسي إلى إسرائيل من أصل مئة ألف يهوديّ كانوا موجودين في تونس في تلك الفترة، فيما تولّت الوكالة اليهودية مسألة ترتيب إجراءات الهجرة الشرعية ليهود تونس، فقامت بترتيب هجرة خمسة وعشرين ألف يهوديّ تونسي بين سنتي 1948م و1955م.

1952م: مُحاولة فاشلة لارتكاب مذبحة بحق اليهود في إحدى حارات اليهود، لكن اليهود تصدّوا للمُعتدين عليهم، كما شهدت هذه السنة اندلاع أعمال عُنف دموية ضد اليهود على يد نشطاء الحركة الوطنية.

1952م – 1957م: هجرة عشرة آلاف يهودي إلى فرنسا.

1954م: إعلان يوم الغفران اليهوديّ مناسبة رسميّة في البلاد.

1956م: تعرّض اليهود والأوروبيون للاعتداءات والنهب والسرقة خلال هذه الفترة التي شهدت حالة من الفوضى العارمة وعدم إنفاذ القانون.

العشرون من مارس/آذار سنة 1957م: تعيين الوزيرين اليهوديّين أندريه بسيس وأندريه باروخ، كما قام الرئيس التونسيّ بورقيبة بزيارة حارات اليهود، وشهدت هذه السنة أيضاً انضمام اليهود إلى حزب الدستور الجديد التونسيّ، فيما ظلّ عدد قليل منهم متمسكاً بالفكر الشيوعي. وشهدت هذه السنة تعرّض المقبرة اليهودية القديمة في تونس للاعتداء بالإضافة إلى حلّ المحاكم الشرعية اليهودية التي عُرفت باسم "بيت دين".

1958م: تشكيل عدد من اللجان محلّية عِوضاً عن المجلس اليهوديّ المحلّي الذي تم حلّه في السابق.

1960م: تجميد العلاقات البريديةّ مع إسرائيل، كما شهدت هذه السنة هدم أكبر وأقدم كنيس يهوديّ في تونس.

1961م: شهدت هذه السنة وقوع أحداث بنزرت والتي بدأت باندلاع أعمال عنف بين التونسيين والفرنسيين والتي أدّت إلى ردود فعل مُعادية لليهود، كما شهدت هذه السنة نزوح ألف وخمسمائة يهوديّ تونسي.

1962م: نزوح عشرة آلاف يهوديّ تونسي إلى فرنسا، ولم يُسمح لهم سوى بحمل مبلغ دينار واحد و11,75 فرنك فقط.

1962م – 1963م: تأميم الشركات اليهودية والأوروبية.

1967م: مع حلول هذه السنة لم يتبقّ في تونس سوى ستة وعشرين ألف يهوديّ فقط، وبتاريخ السادس من حزيران من هذه السنة تعرض عدد كبير من المحلات والمصالح التجارية اليهودية للنهب والسرقة. كما شهدت هذه السنة أيضاً نزوح ثمانية عشر ألف يهودي إلى فرنسي، أي ما نسبته ثلاثة وستون بالمئة من اليهود الذين تبقّوا في تونس.

1976م: عدد اليهود في تونس لا يتجاوز ستة آلاف وسبعمائة يهودي، منهم ألف ومائة يهودي في منطقة جربة، وأربعة آلاف وستمائة يهودي في مدينة تونس، فيما توجّه غالبية المهاجرين اليهود إلى إسرائيل.

1982م: منظمة التحرير الفلسطينية تفتح مكتباً لها في تونس، وقد شهدت تونس في تلك الفترة مغادرة المزيد من اليهود.

1985م: شهدت هذه السنة مقتل عدد من يهود تونس.

*أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لجاك طايبوالذي أمدّني بالكثير من المعلومات من خلال مقالته التي تحمل عُنوان:

'L'échec de l'intégration des Juifs de Tunisie' by Jacques Taïeb in *La Fin du Judaïsme enterresd'Islam*(ed. S. Trigano)

*****

الجزائر

على الرغم من وجود اليهود في الجزائر لفترة امتدّت لأكثر من ألفي عام، إلا أن اندثار المجتمع اليهودي الذي بلغ تعداده مئة وأربعين ألف يهوديّ استغرق فترة قصيرة جداً لم تتجاوز ثلاثة أشهر، وقد تزامن هذا مع نيل دولة الجزائر استقلالها سنة 1962م، وهذا هو المخطط الزمنيّ لتسلسل الأحداث التي قادت إلى اندثار المُجتمع اليهودي بأكمله من الجزائر:

1830م: الغزو الفرنسيّ للجزائر، وتم إعلان جميع المواطنين الأصليّين للدولة سواسية أمام القانون استناداً إلى الفقرة الخامسة من اتفاقية استسلام الجزائر.

1845م: تسمية الكونسستير (*Consistoire*) كمجلس حاكم لإدارة الشؤون اليهودية في الجزائر.

الرابع والعشرين من فبراير/شباط 1862م: محكمة الاستئناف الجزائرية تقبل طلب اليهود بحصولهم على الجنسية الجزائرية.

الرابع عشر من يوليو/تموز 1865م: صدور مرسوم يقضي باعتبار كلا المُسلمين واليهود مواطنين جزائريين، كما يسمح لهم هذا المرسوم لكلا الجانبين بالخدمة في الجيش الفرنسي.

الرابع والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول 1870: صدور مرسوم كريميو الذي اعتبر اليهود مواطنين جزائريين، إلا أن هذا المرسوم استثنى يهود منطقة مزاب في الجنوب، واعتبر أن شؤونهم المدنية ستتم إدارتها بموجب القانون الفرنسي.

تسعينيات القرن التاسع عشر: اليمين الفرنسيّ المتشدد يُطالب بإبطال مرسوم كريميو.

مايو/أيار 1897م: عمليات نهب وسرقة للممتلكات اليهودية في حارة اليهود في مدينة مستغانم وأوران، كما شهدت هذه السنة انتخاب أربعة برلمانيين يَمينيين متشدّدين من الذين عُرف عنهم عِداؤهم الشديد لليهود، وكان منهم إدوارد دروموَنت.

1914م: استدعاء يهود الجزائر للخدمة في الجيش الفرنسي.

1929م و1933م: مواجهات بين اليهود والمسلمين نتيجة أعمال استفزازية قام بها بعض اليمينيين المتشدّدين.

الثالث إلى السادس من أغسطس/آب 1934م: شهدت هذه السنة أعمال نهب وسرقة للعديد من المحلات التجارية اليهودية، كما شهدت هذه السنة مقتل خمسة وعشرين يهودياً في عدد من المدن الجزائرية وعدم تدخل الجيش لمنع هذه الأحداث. كما كان للأزمة الاقتصادية التي شهدتها الجزائر في هذه الفترة أثر سلبي على علاقة المسلمين واليهود.

أكتوبر/تشرين الأول 1940م: حكومة فيشي تُشرّع عدداً من القوانين المُناهضة لليهود، وكان من ضمنها إلغاء مرسوم كريميو.

يونيو/حزيران 1941م: حكومة فيشي تفرض نظام مُحاصصة (كوتا) يُحدد بموجبه عدد اليهود المسموح به في النظام التعليمي والوظائف.

نوفمبر/تشرين الثاني 1942م: اليهود يقودون المُقاومة الجزائرية ضد الانتداب الفرنسي.

أكتوبر/تشرين الأول 1943م: الحكومة الفرنسية تُعيد اعتماد مرسوم كريميو، كما سُمح لليهود بالخدمة في الجيش الفرنسي مجدداً. في الوقت نفسه شهدت هذه السنة بدايات ظهور الحركة الوطنية الجزائرية بقيادة جبهة التحرير الوطني.

1956م: جبهة التحرير الوطني تطلب من اليهود إثبات ولاءهُم للشعب الجزائري.

الأول من نوفمبر/تشرين الثاني 1956م: أكثر من سبعين هجوماً مُفاجئاً تستهدف اليهود في الجزائر، وأعلنت الدولة استنكارها ومعارضتها التامة لجميع أعمال العنف. شهدت الفترة بين سنتي 1954م و1962م مقتل بعض اليهود وانضمام بعضهم إلى المليشيات المسلحة الموالية للفرنسيين.

الثاني عشر من ديسمبر/كانون الأول 1960م: شهدت هذه السنة تدمير الكنيس الجزائريّ الكبير.

1961م: شهدت هذه السنة تدمير المقبرة اليهودية في أوران، كما شهدت أيضاً تعرض عدد من اليهود للموت طعناً خلال توجههم إلى الكُنُس للاحتفال بيوم رأس السنة اليهودية. وشهدت هذه السنة أيضاً مقتل الموسيقار شيخ ريموند ليريس.

الثالث من تموز 1962م: إعلان استقلال الجزائر، وفرنسا تُعلن أنها ستسحب مواطنيها الفرنسيين من الجزائر بما فيهم الذين ليس لهم أصول فرنسية.

مايو/أيار حتى يوليو/تموز 1962م: نزوح جماعي هائل ليهود الجزائر، حيث نزح في هذه السنة مئة وستون ألف يهودي ولم يتبقّ في الجزائر سوى أربعة آلاف يهودي فقط، وقام مئة وخمسة وثلاثون ألفاً منهم بالنزوح إلى فرنسا، بينما توجّه عشرة آلاف منهم إلى إسرائيل.

مارس/آذار 1963م: شهدت هذه السنة صدور مراسيم تقضي بحصول المسلمين فقط على الجنسية الجزائرية.

1971م: مع حلول هذه السنة لم يتبقّ في الجزائر سوى ألف يهوديّ فقط.

1992م: لم يتبقّ في الجزائر سوى خمسين يهودياً فقط.

2007م: لم يتبقّ في الجزائر سوى عشرين يهودياً فقط.

2011م: وفاة آخر يهوديّ في الجزائر.

*أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لريتشارد أيونوالذي أمدّني بالكثير من المعلومات من خلال مقالته التي تحمل عُنوان:

'De l'émancipation à l'éxodebrutale des Juifsd'Algérie' by Richard Ayoun,in *La Fin du Judaïsme enterresd'Islam*(ed. S. Trigano).

******

قوانين أهل الذمة في القرن التاسع عشر

(لُندن، 1841، هذا النص مُقتبس من كتاب "تاريخ الأمة العبرية من جذورها حتى وقتنا الحاضر" للكاتب رِڤرندج.و. بروكس، والذي تم نشره سنة 1841م، ص554 –558)

يبدو أن الرأي العام في حالة ذهول وصدمة شديدتين جراء توثيق ما يتعرّض له يهود دمشق وجزيرة رودس من عذابات وظلم واضطهاد، وكأن تعرّضَ البشر للاضطهاد والظلم هو أمر نادر الحدوث في أيامنا هذه! لقد كان ولا زال يهود الشرق يتعرّضون لهذا العذاب والاضطهاد منذ زمن طويل، ومع الأسف الشديد لم يجد اليهود من يلتفت لهم أو يكترث بمعاناتهم. وبالعودة إلى دمشق، تحديداً سنة 1823م، تمّ الزجّ بجميع اليهود من أصحاب الأملاك في السجون، واشترط سجّانوهم فِدية مقدارها أربعون ألفاً عن كل شخص حتى يتم إطلاق سراحهم، وفي حال لم يدفعوا ذلك فإن أرواحهم هي الثمن. وفي منطقة صفَد، تحديداً سنة 1834م، تمت مُصادرة البيوت التي يمتلكها اليهود، فيما تعرّضوا لمعاملة قاسية جداً لنفس السبب الذي زجّ باليهود في سجون دمشق، وهو الضغط عليهم وابتزازهم من أجل دفع النقود لسجّانيهم. كما كان اليهود يعملون لدى الأتراك ولا يتلقون أي أجر مُقابل عملهم، وفي اللحظة التي كان أي يهوديّ يتذمّر مُعترضاً على هذا الاستعباد كان مصيره الضرب المُبرّح بالعصيّ والهراوات.

ولم تكُن مُعاملة عامة الشعب مُختلفة عن مُعاملة الحكومات، فكان أي فلاح عادي يعترضُ طريق اليهودي طالباً منه الأتاوة حتى يُسمح له بالمرور، هذه الأتاوة التي كان يعتقدُ أن من حقه فرضها على غير اليهود بالقوّة لأنه "مسلم"، بل بلغ الأمر إلى مرحلة تُطلبُ فيها هذه الأتاوة من نفس اليهوديّ عدة مرات في اليوم نفسه!

لقد كان يجبُ على اليهود أن يتظاهروا بالفقر حتى يلا "يستفزّوا مشاعر المُسلمين" من جهة، ومن جهة أخرى لأن الحُكام المُسلمين في تلك الحُقبة كانوا يقومون بكلّ ما بوسعهم من أجل نهب ومصادرة ما يعثرون عليه من أموال. وعلى الرغم من السماح لليهود بتملّك الأراضي إلا أنه كانت تُفرضُ عليهم ضرائبُ باهظة جداً أدّت إلى عدم عمل اليهود في مجال الزراعة، فكانت الضرائبُ المفروضة على المُنتجات الزراعية تصل قيمتها إلى ثُلث ما تُنتجه الأرض، في الوقت الذي كان يدفعُ فيه المُسلمون ضريبة تبلغ مقدارها عشرة بالمائة فقط.

كما أن الاحتلال المصريّ لسوريا لم يُخفّف من الظروف القاسية التي خيّمت على حياة اليهود في منطقة فلسطين، فظلّوا يتعرّضون للإهانة والنهب والسرقة، وحتى أقلّ الجنود رتبة كان بإمكانه إهانة أي شخصيّة يهودية مهما عَلا شأنها، بل كان يأمرُ اليهودي بمسح الشوارع بينما يقومُ بضربه بمنتهى الذُلّ والإهانة. وقد بلغَ ازدراء المُسلمين لليهود درجة فاقَت الذل والمهانة التي تعرّضُ لها اليهودُ في الدول المسيحيّة، لدرجة أصبحت كلمة اليهودي في دول الشرق بمثابة تشبيه يُستخدم للتعبير عن أدنى درجات الذل والمهانة في المُجتمع، وهذا الازدراء لم يكُن على يد المسلمين فحسب، بل أن مسيحيي الشرق أيضاً كان لهم نصيبٌ كبيرٌ في إهانة وازدراء اليهود، خاصة الطائفة المسيحية النسطورية التي تُضمِرُ حقداً شديداً على اليهود، وبلغ هذا الحقدُ لدرجة قيام جميع المسيحيين من كافة الطوائف برجم أي يهوديّ يقوم - ولو عن طريق الخطأ -بالدخول إلى كنيسة القيامة في القدس.

أيضاً لم يكُن حال اليهود في بلاد فارس أفضل من حالهم في سوريا، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان يدخلُ جندي فارسي من جنود الشاه إلى أي كنيس يهودي أثناء تأدية اليهود للصلاة طالباً منهُم المال بالقوّة، وكان يُفرضُ عليهم العمل الإجباري - السخرة - دون أن يتلقّوا مُقابله أي أجر ودون حتى أن يجرؤوا على التفوّه بأي كلمة، ولربّما يُمكننا استيعاب مدى البؤس والفقر المُدقِع الذي عاشوا فيه من خلال هذا الوصف الدقيق للدكتور وولف والذي تحدّث فيه عن حياة يهود شيراز تحت حُكم المُسلمين، حيث يقول في وصفِه: "كُل بيت مُنخفض ومدخله ضيّقٌ هو بيتٌ يهودي، وكل من كان يرتدي معطفاً رثّاً كان يهودياً، وكل رجل كان يرتدي عمامة مصنوعة من شعر الإبل المُتسخ كان يهودياً، وكل من كان يرتدي نظارات مكسورة ويبحثُ عن أي حذاء قديم ممزّق ليرتديه كان يهودياً". وقد شاهدَ الدكتور وولف هذه المشاهد بأمّ عينه، خاصة عندما كان يمشي بين حارات اليهود الذين كانوا يمدّون أياديهم مُتوسّلين للغرباء المارين من أمام بيوتهم كي يُعطوهم أي شيء قائلين: " فلسٌ واحداً يسدّ ظمأ يهوديّ فقير".

وفي المغرب كان جميع اليهود سواسية في الظلم والاضطهاد الذي تعرّضوا له نتيجة استبداد وهمجية المسلمين الأفارقة، والذين كانوا يعتبرون أن اليهودي وُجِد على هذه الأرض لخدمة المُسلم، وبأنه يجبُ أن يظلّ اليهود عُرضة للإهانة والاحتقار دوماً، فكان أولاد المُسلمين يضرِبون أطفال اليهود من باب التسلية، والبالغون يضربون البالغين من اليهود، وهكذا. كما كان المسلمون يستبيحون حُرمة بيوت اليهود ويفعلون ما يشاؤون بنسائهم في أي وقت، وفي حال قام أحد رجال اليهود بمقاومة ما يفعله المسلمون كان يتعرّض للضرب المُبرح.

وفي سنة 1804م كان يتعرّض يهود الجزائر يهود لشتّى أنواع القسوة والتعذيب على أيدي المسلمين، فلم يكُن يُسمح لليهود بالمشي في الطرقات، وحين كانوا يتواجدون في الشوارع فلم يكونوا فيها سوى وهم مُعلّقون أمواتاً على المشانق والأعمدة، وذلك بعد اتهامهم بأنهم كانوا يُقرضون الأموال لأشخاص تآمروا على الداي حاكم الجزائر، وعندما كان يتم الزجّ بهم في السجون لم كانت طلباتهم بإخلاء السبيل تُرفض على الفور إذا لم يدفعوا مبالغ طائلة مقابل الخروج من السجن.

وفي سنة 1827م قام داي الجزائر باعتقال أحد أثرياء اليهود لا لسبب سوى أنه يريده أن يدفع له مبلغاً وقدره نصف مليون دولار إسباني، أما في طرابلس فكان من يشغل منصب الباشا يفرضُ على اليهود دفع مبالغ طائلة بعد أن حلّ الجفاف بالأرض، كما كانوا يتهمون اليهود بأنهم السبب الرئيسي لهذا الجفاف بالتالي ينبغي عليهم دفع الأموال. وفي هذا السياق يقول الدكتور إيوالد بعد أن وصف جمال وخصوبة وازدهار جزيرة جربة: " أينما ذهبت في أرجاء هذه الجزيرة ستجدُ الجميع يتمتع بحياة هنيئة، الجميع هُنا يعيشون حياة هادئة رغيدة"، ومن ثم يُتابع قائلاً:

"واليهود هُم الفئة الوحيدة المُستثناة من هذه الحياة الرغيدة"، وبالفعل لم يكن هناك حينها أفقر ولا أسوء حالاً من اليهود، لدرجة أن الدكتور إيوالد اعتقدَ أنه لا يعيش في الوقت الحاضر، بل يشهدُ بنفسه حُقبة حُكم فرعون التي كان اليهود مُستعبدين فيها!

لقد عمل اليهود حينها في أكثر الأعمال بؤساً وقَسوة، فعملوا في المقالع وفي جمع الحطب ونقل الماء، فيما كان طعامهم مُقتصراً على شيء بسيط من الشعير والملح والماء فقط لا غير، وكانوا جميعهم بلا استثناء خاضعين لنفس الدرجة من العبودية التي فرضتها عليهم الدولة. وخلال فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر تحسَّنت الأوضاع السياسية لليهود هناك، إلا أن التضييق على ممارستهم لشعائرهم الدينية ظلّ موجوداً باعتباره أنهم "كافرون" استناداً إلى العقلية الدينية المسيحيةّ الفرنسية آنذاك.

*المَصدَر:

Elder of Ziyon http://elderofziyon.blogspot.com/2016/01/persecution-of-jews-inmuslim-countries.html (Last accessed 26 April 2017)

******

1967م – معاناتي في سُجون المغرب

تُحدّثنا اليهودية المغربية بِنينا إلباز عن مُعاناتها عندما تم الزجّ بها في أحد سجون المغرب وهي ابنة أربعة عشر عاماً. وتعود أصول بِنينا إلباز إلى مدينة صافي المغربية، وهي تعيش حالياً في مدينة مونتريال في كندا. تقول بِنينا قبل الخوض في تفاصيل تجربتها في السجن:"أُهدي هذا العمل إلى أخي إدموند إلباز الذي كان يتجرّع معاناة بيروقراطية النظام المغربي وتهديداته له عندما كان شاباً لم يتجاوز عمره خمسة وعشرين عاماً، ولولا تضحيته لما تحرّرنا من هذا الظُلم".

بَعد قرابة شهر من انتهاء حرب الأيام الستة سنة 1967م قرّرنا الذهاب إلى شاطئ البحر بعد اختبائنا لعدة أيام كان المسلمون فيها يلقون فيها الحجارة على بيوتنا، بل وكانوا يلقونها علينا أيضاً أثناء مرورنا في الشوارع، حيث جاءت ردة الفعل تلك نتيجة تحريض إعلامي كان يُعوّل كثيراً على انتصار العرب في هذه الحرب، بالتالي تدمير إسرائيل ومسح اليهود عن الخارطة كان أمراً مضموناً استناداً إلى الإعلام العربي، وبالفعل فقد كان العرب مُقتنعين تماماً بأنهم سيهزمون إسرائيل ومن ثم سيُلقون بها وباليهود إلى البحر، وهذا ما كان يعِدهم بهم جمال عبد الناصر في خطاباته الناريّة التي كانت تُذاع طيلة الوقت عبر محطات الراديو في كل مكان، بالتالي صبّ العرب جام غضبهم على من تبقى من يهود الدول العربية عقب خسارتهم الحرب أمام إسرائيل وبدأوا بالانتقام من يهود الدول العربية.

وفي أحد الأيام بعد خروجنا من المنزل وأثناء تواجدنا على الشاطئ كان هُناك عدد من البحارة الهولنديين الذين كانوا يتحدّثون مع بعض الفتيات اليهوديات، ثم قاموا بغناء الأغنية اليهودية المعروفة "هاڤاناغيلا". لم أكُن بعيدة جداً عنهم وكنت على وشك ركوب إحدى الأراجيح الموجودة هناك، لكنني تركت الأرجوحة، وأدركت تماماً خطورة أن يقوم أحد ما بالغناء باللغة العبرية على الملأ في مكان عام كهذا، وحدث ما كنت أتوقعه. شعرتُ حينها بالخوف الذي يشوبه الفضول الشديد لمعرفة ما سيحدث.

وبعد قليل حاصرنا رجال الشرطة المغربية وهم يصوّبون رشاشاتهم باتجاهنا ويصيحون: "فليتوجّه جميع اليهود إلى سيارة الشرطة". حاول العديد من الناس التدخل وإنقاذنا من هذا الموقفلكن مُحاولاتهم باءت بالفشل، فاستجبنا لأوامرهم وركبنا سيارة الشرطة بعد أن رفضوا سماعنا نهائياً. ولأننا كنا نرتدي بدلات السباحة فقد سُمح لنا بتغيير ملابسنا، فذهبت إلى أحد الأماكن المخصصة لتغيير الملابس وقمت بتغييرها ببطء شديد، شعرتُ أن تغيير ملابسي قد استغرق مني دهراً كاملاً، وعندما تأخرت جاء رجال الشرطة إلّي وزجّوا بي في السيارة.

لقد تعرّضت للاعتقال في مدينة صافي عندما كنتُ في سن الرابعة عشرة مع مجموعة من اليهود بتهمة غناء "هاڤاناغيلا"علناً احتفالًا بانتصار إسرائيل، كما وُجِّهت إلينا تهمة التجسّس لحساب الصهاينة، وأذكر أنه كان من بين المُعتقلينمعيراكيل وسيمون ودانيال إسرائيل وبوبي وأرماندوغاي وسوزي وليسون ودولي ونيكول وروبي مع طفليها التوأم،بالإضافة إلى إليانور التي كانت تحاول التوضيح لهمبأنها صَمّاء وبَكماءوليس لها علاقة بما حدث، لكن مُحقّق الشرطة أخبرها أنها كانت تصفّق احتفالًا بانتصار إسرائيل، بالتالي فهي صهيونية.

شعرنا أثناء تواجدنا في سيارة الشرطة بأننا في طريقنا إلى الجحيم، وفي مركز الشرطة خرج البحارة الهولنديون بوجوه بيضاء شاحبة بعد استجوابهم بقسوة، وتمّت إعادتهملاحقاً إلى بلادهم، أما نحن فوقفنا في الطابور بعد أن نادى علينا أحد المُحقّقين ويدعى برادة. بصراحة فإنني أكره الظلم بكل أشكاله، كما أنني صريح جداً بطبيعتي، وعندما سألني المُحقّق إن كنت أتحدث العبرية أجبتهُ بِـ لا، لكني قلتُ له بأنني أدرسفي مدرسة من مدارس الاتّحاد العالميّ الإسرائيلي، حيث كان مسموحاً لنا أن نتعلم اللغة والأغاني العبرية، بالتالي نحنُ لم نقترف أي جرماً عندماً قُمنا بغناء هذه الأغنية!تفاجأ المُحقّق من سماعه هذا الكلام، فسألني عن مكان هذه المدرسة، بينما كان كاتب المحضَر يكتبُ بسُرعة كل كلمة أذكرها، حينها فقدت اتّزاني وشعرتُ بالذنب لما بدا لي وكأنه خيانة لأهلي وأصدقائي اليهود.

وفي أثناء التحقيق تعرّض دانيال إسرائيل البالغ من العمر 17 أو 18 عامًالمعاملة قاسية جداً، لا لسبب سوى أن اسم عائلته هو إسرائيل. وكنتُ أسأل نفسي كيف بإمكان دانيال أن يُحافظ علىهدوئه ورزانته في موقف كهذا؟ في الوقت نفسه أظهر الصبيان الآخران، أرماندوغاي، قدراً هائلاً من المرونة مع المحققين، إلا أنهما لم يسمحا لهم بإهانة كرامتهما بالرغم من المعاملة الهمجية والاتهامات الظالمة التي وجهّها المحققون لكليهما. لقد كنا نفعل ما بوسعنا لتحمّل قسوة التحقيق، لهذا حاولنا دعم بعضنا بعضاً حتى نخرجَ من هذا الكابوس المُرعِب، وهُنا ظهرت موهبة ليسون الكوميدية وقدرتها على إضحاكنا في مثل هذه الظروف القاسية، فكانسحر الضحك ينقلنا إلى مكان مختلف تماماً عن هذا المكان الموحش.

وقد تم استجوابنا واحداً تلو الآخر حتى وقت متأخر من الليل، كان هذا التحقيق مروعاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، خاصة وأن مُحقق الشرطة لم يدّخر جُهداً ليجعلنا نعترف بِـ "جريمة" غناء أغنية إسرائيليةفي مكان عام احتفالاً بانتصار إسرائيل، وبأننا جواسيس وصهاينة، على الرغم من أننا لم نتجرأ يوماً على الغناء باللغة العبرية في الأماكن العامة في الأيام العادية، فكيف سنجرؤ على الغناء باللغة العبرية في مكان كهذا وظرف كهذا؟وما حدث فعلاً هو أن البحارة الهولنديون هُم وحدهم من قاموا بالغناء،وبينما كنا نتعرّض لهذه المعاملة القاسية كنا نسأل أنفسنا: كيف ستؤثّرُ هذه التجربة المُرعبة علينا نفسياً؟ ليس علينا فقط بل وعلى عائلاتنا أيضاً.

لاحِقاً تم تصويرنا وأخذ بصماتنا كما لو كنا مجرمين، كنا نسأل المُحققين: هل لدينا قضيّة؟ كما أننا لم نخضع لمحاكمة ولم يكن لدى أي محام مغربي الجرأة الكافية لتمثيلنا أو الدّفاع عنا. أما خارج بوابات السجن فكان المسلمون الغاضبون يصبّون جام غضبهم علينا عبر الصّراخ وترديد الهتافات التي لا تحمل أي مشاعر سوى كراهيتهم لنا. لقد كانوا حاضرين طوال الوقت خلف بوابات السجن، لقد كانوا على استعداد لقتلنا بكل بساطة. لقد كان من المخيف جداً رؤيتهم وسماع صراخهم وهتافاتهم المملوءة بالحقد والكراهيةتتسلّل إلى مسامعنا كلما فُتِحَت بوابات السجن.

لم يقبل أيّ محام الدفاع عنا في هذه القضية لأنهم كانوا جميعاً خائفين، بالتالي ذهب أخي إدموند والسيد ميران إلى الرباط للترافعأمام المحكمة وتقديم طلب إخلاء سبيلنا، وكان هذا بمنتهى السرية نظراً لأنهم كانوا يُحاولون الوصول إلى الملك من أجل أن يعفو عنّا ويُطلق سراحنا. كانت محاولة الوصول إلى الملك محفوفة بالكثير من المخاطر، إلا أنهم شقّوا طريقهم إلى الملك لإطلاق سراحنا بالرغم من بيروقراطية النظام، فقاموا بالترافع عنّا وقاموا بدفع الرشاوى وتعرّضوا للكثير منالمضايقات، بل تعرّضوا أيضاً للترهيب والتهديد المباشر بالاعتقال إذا استمرّوا في ذلك، ولم يكن بإمكان أي يهودي أن يُندّد أو يستنكر ما يحدث من ظلم وإجحاف بحقنا وذلك خوفا من استفزاز المسلمين المُتشددين.

كما كنّا ننام في السجن على إسمنت بارد على مدار اثني عشر يوماً من الاعتقال، وكنا نأكل ما كانت تجلبه لنا عائلاتنا كل مساء، فكان أفراد عائلاتنا يأتون إلينا كل يوم على الرغممما تعرّضوا له من إهانات وتهديدات. كما كنا ننام بالملابس نفسها التي تم اعتقالنا بها عندما كنا على الشاطئ، لذا كنا نرتجف من شدّة البرد عندما يحلّ الليل. ولم يكن في السجن أي مكان بإمكاننا الاغتسال فيه، فيما كان يتناوب الرجال اليهود الثلاثة الذين كانوا معنا على حراستنالياً خوفاً من أن يتعرّض لنا المجرمون ومدمنو الكحول الذين كانت تجلبهم الشرطة كل ليلة وتلقيهم في الممرّالموجود بجانب زنزانتنا.

لقد كنّا ننتظر لحظة إغلاق باب هذه الزنزانة كُلّ يوم بفارغ الصبر، كوننا تعرضنا للتهديد بأن يتم ترحيل القُصّر الموجودين بيننا وإيداعهم في سجن خاص بالقُصّر. وقد فقدت روبي صوابها مع مرور الوقت، كونها أم لعدة أطفال، فكانت تصرخُ كل يوم معبّرة عن غضبها الشديدمن عبثية ما تقوم به الشرطة، خاصة وأنها اشتاقت جداً لأطفالها وإلى مدرستها التي كانت تتعلم فيها السكرتارية، لهذا عاقبتها الشرطة بعزلها في زنزانة مظلمة وضيّقة جداً لم تتجاوز مساحتها متراً مربعاً وبها فتحة صغيرة جداً في المنتصف لاستخدامها بدل المرحاض، لكن الشرطة وافقت لاحقاً على إرسال طفلتيها التوأم إلى والدهما.

وبعد مضيّ اثني عشرَ يومأًفي المعتقل جاء أحد عناصر الشرطة في منتصف الليل ليُخبرنا بأنه سيتم إطلاق سراح اثنين منا، أنا وبوبي، وفي تلك اللحظة شعرنا بأن مُجرّد التفكير في أن نكون لوحدنا في الخارج بعد منتصف الليل قد أصابنا بالذعر الشديد. وقبل مغادرتنا السجن قدّم لما عدد من المساجين بعض المناشف لنغطّي أنفسنا بها وبعض المال كي ندفع لسيارة الأجرة،وطلبوا منا مغادرة هذا السجن في أسرع وقت ممكن. كان السجن بعيداً جداً عن مكان سَكَني، لكن همّي الوحيد كان العودة إلى البيت ورؤية عائلتي قبل أي شيء،لكنني وعقب وصولي لم أتمكّن من معرفة مكان تواجد عائلتي التي انتقلت للعيش في مكان آخر عقِب التهديدات التي كانوا يتلقّونها باستمرار.

وبينما نحن خارج السجن كنا نحاول إيقاف سيارة أجرة ولفتَ انتباه السائقين، ولم يكن أمامنا أي وسيلة لفعل ذلك سوى من خلال بوبي التي كانت تقف في كامل أنوثتها وشعرها الأشقّر أمام السجن مُحاولة لفت انتباه أي سائق ليقف ويُقلّنا، وعلى الرغم من خوفي الشديد وعدم موافقتي على هذا التصرف إلا أنني اضطررت لذلك، وبعد مضي فترة قصيرة توقّفت سيارة أجرة بمحاذاتنا وأقلّتنا إلى بيت عائلتها، وفور دخولنا للبيت بدأت والدة بوبي بالصراخ موبّخة إياها: "مزروبة ياك قلت لك ماتزربيش" (ألم أطلب منكِ ألا تستعجلي في الخروج من البيت؟).

بنهاية المطاف غادرنا جميعاً المغرب بأسرع ما يُمكن، وحتى نتمكن من المغادرة كان علينا أن ندفع رشاويضخمة للحصول على جوازات السفر، الأمر الذي كلّف والدي راتِبه كاملاً لعدة أشهر، ولو لم نقُم بدفع تلك الرشاوى لما تمكّنا من المغادرة. لقد أردنا الذهاب إلى كندا حينها، وفي تلك الفترة لم يتمكن الكثير من سكان مدينتي صافي من الحصول على جوازات سفر، لكن اليهود المغاربة لم يكونوا بحاجة إلى جوازات سفر للذهاب إلى إسرائيل، ومن كانوا يحتاجون جوازات السفر هم من أرادوا المُغادرة إلى أي دولة أخرى سوى إسرائيل.

*المصدر: مقالة مُترجمة من اللغة الفنرسية قام بترجمتها ديفيد شوارتزمان وهي منشورة في موقع حَريف.

From Harif 's *Clash of Cultures* blog, Jerusalem Post, 15 December 2014, http:// www.jpost.com/Blogs/Clash-of-Cultures/My-ordeal-in-a-Moroccan-jail-384642. (Last accessed 26 April 2017)

******

يهوديّ من سكان القدس يَروي تجربة العيش فيها قبل سنة 1948م

يروي أهارون نِحماد البالغ من العمر ستة وثمانين عاماً تجربته الشخصيّة كأحد سكان القدس قبل أن ينزح للعيش في أمريكا اللاتينية، حيث شهِد بنفسه حجم التحريض المَقيت ضدّ اليهود والذي مارسه مُفتي القدس الحاج أمين الحسيني والقيادات العربية التي جاءت بعده. إستقرّت عائلة نِحماد في أرض إسرائيل منذ أكثر من ثمانية عشرَ جيلاً، أي منذ أن غادروا حلب متوجّهين إلى طبريا ومن ثمّ إلى القدس. وقد تحدّث أهارون لمدوّنة نُقطة اللاعودة (Point of no return) عن مواقف وأحداث شهدها بنفسه قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وفي تلك الفترة كانت الثورة العربية في أوجِها، ولم يكن حال جبل الهيكل مُختلفاً عن حاله الآن، فكانت تُحيطه دوماً الإشاعات والدسائسُ والأكاذيب.

وخلال حديثنا عن أهارون يجبُ علينا أن نذكر البروفيسور بيمينتا، وهو رجل يهوديّ يبدو كشخصية من شخصيات مُسلسل تان تانالكرتوني عند سماعه يتحدّث باللغة العربية، إلا أنهيتحدثها بطلاقة وكأنها لغته الأم، وكان قد عمل في السابق مدرّساً للغة العربية في الجامعة العبرية في القدس، كما عمل أيضاً أيضاً في دائرة الهجرة، لكنه كان يعمل بشكل سرّي مع أجهزة الأمن، ونظراً للمحاولات الدائمة والمتواصلة لاستهداف اليهود والاعتداء عليهم فقد كان يحاول كلّ ما بوسعه لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات الاستخبارية عن عمليات أو اعتداءات على اليهود قبل وقوعها.

وكان حضوره للخطابات التحريضيةالمقيتة التي كان يُلقيهاالحاج أمين الحسيني من على منبر قبة الصخرة والمسجد الأقصى من أفضل مصادر المعلومات لمُهمته، فكان يدخل المسجد مرتدياً زي رجل عربي ويستمع لما يُقال ومن ثم يُبلغُ عن أي مخططاتمُحتملة لاستهداف اليهود. ومع إعلان المُفتي مُعارضته للبريطانيين بحلول سنة 1936م كان تحريضه ضدّ اليهود قد بلغ ذروته، في الوقت نفسه كان البروفيسور بيمينتاكان يُجازِف مراراً وتكراراً للدخول إلى المسجد وسماع تلك الخطب التحريضيّة، فقد كان عُرضة لأن يتم اكتشافه من قبل المُصلّين على الرغم من طلاقته في الحديث باللغة العربية. وفي سنة 1937م كان أهارون نِحماد يرافق البروفيسور بيمينتا في مهمته داخل المسجد،وكان يبلغ من العمر ثماني سنوات حينها وكان هو الآخر يتحدث اللغة العربية بطلاقة.

كان أهارون نِحماد- الذي كان يرتدي زِيّ صبيّ عربي - يتسكّع ويلعبُ مع الأطفال العرب خارج المسجد، وقد اتّفقبيمينتامع أهارون على شيفرة سرية، وهي أنه في حال شعَر بأن المُصلّين قد اكتشفوا أمره فإنه سوف يحملُ المنديل الذي كان يضعهُ في جيبه وسيقوم بتحريكه بيده ثلاث مرات، عندها يجبُ على أهارون أن يبدأ بالصراخ والبكاء بصوتٍ عالٍ مُدّعياً بأن حِذاءهُ قد سُرق فيقوم بإلقاء أحذية المُصلّين في كل اتجاه لكي يُشتّت انتباههم، وعندها يقوم كل منهما بالهرب على الفور، وكان هذا تماماً ما حدث في أحد الأيام من سنة 1937م، حين أُصيب أهارون بالذعر لرؤية الأستاذ بيمينتا وهو يهز منديله داخل المسجد، فبدأ بالصراخ والبُكاء لتشتيت انتباه المُصلّين ومن ثم فرّ كلاهُما إلى الحي اليهودي الواقع أسفلَ جبل الهيكل.

ويستذكر أهارون حادثة أخرى وقعت في يونيو/حُزيرانسنة 1941م ، حين كان النازيّون على أعتاب دخول مصر، حينها امتلأت القُدس بالمنشورات والكُتيّبات النازية التي كُتب فيها بأن مدينة القدس ستكون الهدف القادم لهم،فبدأ العرب بالتخطيط لطرد السكان اليهود وقتلهم وتقسيم منازلهم التي كانوا يُخططون لنهبها وسرقتها، فكان السكان اليهود يَرون كتابات باللغة العربية على جُدران منازلهم: "هذا المنزل لأحمد"، "هذا البيت لمحمد"، وهكذا.

كان أهارون يبلغ الثانية عشرة من عمره حينها، وعلى ضوء تلك المخاوف أعلن اليهود عن يوم صيام وحُزن بينما هم ينتظرون هجوم النازيين على للقدس، فافترشوا الأرض يندبون وينوحون على ما هو آتٍ، لكن رجلاً يهودياً من بينهم كان مُقتنعاً بأن النازيين لن يتمكنوا من دخول القدس، وهو الحاخام الأكبر للطائفة السفاردية بن تسيونعوزيئيل، فكان يخطبُ في اليهود قائلاً لهم: "لا تَبكوا"، مقتبسًا من الآية التوراتية السابعة من الإصحاح السابع من سفر هوشَع:" **وَأَمَّا بَيْتُ يَهُوذَا فَأَرْحَمُهُمْ وَأُخَلِّصُهُمْ بِالرَّبِّ إِلهِهِمْ، وَلاَ أُخَلِّصُهُمْ بِقَوْسٍ وَبِسَيْفٍ وَبِحَرْبٍ وَبِخَيْلٍ وَبِفُرْسَانٍ**".

ومَع حلول سنة 1929م كان تحريضُ المُفتي ضدّ اليهود قد بدأ يؤتي ثِماره، مُتسبّباًباندلاع سلسلة من أعمال العُنف والقتل في الخليل وصفد ومنطقة مستشفى هداسا في القدس، وكان يستغل في تحريضه حالة الخلاف القائم حول الحائط الغربي ومخاوف العرب والمُسلمين من الهجرات اليهودية وبيع الأراضي لليهود. وقد وصف المُؤرّخ أبراهام سيلع أعمال العُنف التي اندلعت حينها بأنها "الأعنف في تاريخ الصراع العربي اليهودي في فلسطينمن حيث مدّتها ونطاقها الجغرافي والأضرار المادية والبشرية التي خلّفتها". ونتيجة هذه الأحداث نزحَت عائلة أهارون من منطقة المصرارة المحاذية للبلدة القديمة في القدس إلى فُندق معراڤوالذي تحوّل لملجأ لليهود الفارّين من فظاعة هذه الأحداث.

في الوقت نفسه رَفضَت امرأة يهودية الخروج من منزلها تحت أي ظرف، حيث كانَت تعمل قابِلةً وساعدت في ولادة مئات بل آلافَالأطفال من اليهود والعرب. لقد كانَت معروفة ومحبوبة من الجميع، وكانت على قناعة تامّة بأن العرب لن يمسّوها بأي سوء، خاصة وأنهاساعدت أمهاتهم أثناء ولادتهم ولم تكن تأخذ منهم أي نقود عندما كانت ترى أن عوائلهملا تملكُ المال. لاحقاً قام عدد من العرب بإقناعها بمغادرة منزلها، وقاموا بوضعجميع أغراضها في عربة وأخذوها إلى الفندق، ومن باب الصدفة كانت والدة أهارون نِحماد حاملاً به في ذلك الحين، فساعدتها هذه القابلة على إنجاب ابنها الأوّل أهارون في الفندق الذي لجأت إليه هاربة من قسوة وعُنف تلك الأحداث.

*المَصدر: مقالة مُترجمة من مدوّنة نُقطة اللاعودة.

***Point of No Return,* 1 November 2015**
http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2015/10/a-witness-to-80-years-of-incitement.html
(Last accessed 26 April 2017

******

قصة الفتاة يهودية التي تركتها عائلتها في مصر

في الواقع لا يوجدُ قصص كثيرة لنساء يهوديّات ممن تركتهن عوائلهن خلفهنّ عقب الهجرة من الدول العربية، أما النساء اليهوديات اللواتي تزوجن من رجال مسلمين فقد طَلَبن إعادة لم شملهنّ مع عوائلهن في إسرائيل، وبالنسبة لأبناء الجيل الذي انحدر من نسل هذا الزواج المُختلط بين نساء يهوديات ورجال مسلمين فقد اكتشفوا لاحقاً أنهم ينتسبون لعائلات يهودية.

حدثت هذه القصة تحديداً سنة 1979م، أي عقب توقيع اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية، وبدأت القصة حين كان رجل أعمال مصري سنطلق عليه لقب (واو) يقوم بترتيب زيارة لمجموعة من كبار السن من اليهود المصريين لإسرائيل، وكانت غالبيتهم ممن تم سحب جنسيتهم المصرية عقب أحداث قناة السويس سنة 1956م، فكان هذا الشخص يُنظّم رحلات كهذه كونه يتمتّع بعلاقات جيّدة مع مسؤولين رفيعين في مُختلف الدول العربية. وأثناء ترتيبه لتلك الرحلة توجّه إليه رجل مصريّ طويل القامة طالباً منه الانضمام إلى هذه الرحلة، فسأله واو قائلاً: "هل أنت يهودي؟" أجاب الرجل: "لا، لستُ يهودياً".

عندها شكّ (واو) في أمر هذا الرجل، وتوقّع أن يكون عميلاً أرسلته المخابرات المصرية للتجسّس على من قاموا بالمشاركة إلى هذه الرحلة، فطلبَ منهُ الانضمام إلى الرحلة القادمة التي سيقوم بتنظيمها لمجموعة من المفكرين والمثقفين المصريين، عندها ردّ عليه قائلاً: "يجب على زوجتي أن تُسافر إلى إسرائيل في الحال، لأنها يهودية لكنها لا زالت تجهلُ ذلك"، وأخبره القصة الكاملة لزوجته، موضّحاً له بأنها كانت طفلة صغيرة عندما تركتها عائلتها اليهودية خلال الفوضى العارمة التي شهدتها فترة خروجهم من الإسكندرية، بالتالي قامت عائلة من جيرانهم المُسلمين بتربيتها والاعتناء بها كابنة من أبنائهم، ولاحقاً عندما كبرت تزوّجت من رجل مصري.

قام (واو) على الفور بترتيب أمور زيارة الزوج وزوجته إلى إسرائيل، وفي المطار كان في استقبالهم الصحفيّ الإسرائيلي المعروف ناحوم بَرني، وتم إجراء مقابلة تلفزيونية معهم على الهواء مباشرة، وخلال هذه المقابلة روَت الزوجة قصتها كاملة. وبعد فترة قصيرة جاء أفرادُ عائلتها الحقيقيّة إلى المطار مُصطحبين معهم صورة لها وهي طفلة، حيث تمكّنوا من التعرّف عليها أثناء مشاهدتهم المقابلة التلفزيونية، واجتمعت الفتاة أخيراً مع عائلتها بعد تلك الفترة الطويلة.

لكن وبعد مضيّ أسبوع على اجتماعها مع عائلتها، طلبت الزوجة مُغادرة إسرائيل والعودة إلى مصر، فعلاقتها بعائلتها اليهودية قد انقطعت منذ فترة طويلة، وعقارب الساعة لا تعود إلى الوراء لتعويض ما فات، بالتالي شعرت بأن مصر هي وطنها الوحيد. وبعد قرارها بالعودة إلى مصر تنفسّت الحكومة المصرية الصّعداء، لأن بقاء الفتاة في إسرائيل هو بمثابة إحراج للحكومة المصرية، وكان سيتسبب بالتأكيد في حدوث بعض المشاكل في علاقاتها الخارجية مع بعض الدول.

وهنالك قصة أخرى مماثلة حدثت سنة 2008م، عندما احتُجزَت امرأة مصرية على يد أحد جيرانها المُسلمين، لكنها نجحت باللحاق بعائلتها في إسرائيل بعد خمسة وخمسين سنة من الانفصال عنها.

*المَصدر: مقالة مُترجمة من مدوّنة نُقطة اللا عودة

From *Point of No Return*, 22 July 2009 html (Last accessed 26 April 2017)
http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2009/07/jewish-girl-was-abandoned-by-herfamily

******

تيدي نَحمياس: أيّامه الأخيرة في الإسكندرية– 1957م

على الرغم من أن تيدي نحمياس وعائلته كانوا من الرعايا اليونانيين في مصر إلا أنهم كانوا جُزءاً من خمسة وعشرين ألف يهوديّ مصري ممّن أُجبِروا على الخروج من مصر بعد مضيّ فترة وجيزة من انتهاء حرب السويس سنة 1956م، يَقول تيدي: لربما تبدو لكم هذه المعلومة مُبالغاً فيها، لكني كنتُ واحداً من أوائل موسيقيي الروك اند رول عندما كنتُ مراهِقاً، فكنا نُعرّف عن أنفُسنا بأسماء نجوم هذه الموسيقى مثل جيمس دين وإلفيس بريسلي وغيرهم، وكان هذا قبل أن نُشاهد حياتنا الرائعة تنهار أمام أعيننا وخروجنا من هذا البلد. لقد استشعرنا أن هذا الانهيار قادم لا محالة، وبأن موعده يقتربُ أكثر وأكثر وأنها مسألة وقت لا أكثر، لكننا أردنا أن نستمر في حياتنا هُنا لأطول فترة ممكنة، أن نواصل حفلاتنا على الشاطئ ونواصل مشاهدة الأفلام كالعادة.

لقد كانت شريحة سكانية بأكملها تُجهّز نفسها للرحيل، وأوروبا - وجهة الرحيل - كانت باردة جداً في الشتاء، لهذا طلبوا منّا أن نُجهّز أنفسنا جيّداً لهذا البرد القارس. بدأ الجميع بشراء اللفحات والمعاطف الثقيلة من الصوف والقُطن لدرجة أنها نفذت من الأسواق، والحال نفسه بالنسبة لحقائب السّفَر، وبدأ الجميع بتوديع بعضهم البعض على أمل اللقاء مُجدداً في مكان ما خارج مصر. كان الأصدقاء يودّعون بعضهم بالدّموع، والأصعب من هذا هو أن أفراد العائلة نفسِها كان عليهم التوجّه إلى بُلدان مختلفة، فالأبناء والبنات كانوا يلحقون بآبائهم وأمهاتهم، بينما الأجداد والجدّات في مكان آخر، وما أصعب هذا الحال عليهم عندما يجد كبار السنّ أنفسهم مضطرين لبدء حياة جديدة في بلد مُختلف كأستراليا أو البرازيل بعد هذا العُمر!

كذلك بدأ الجميع بدهان شبابيك منازلهم باللون الأزرق الداكِن لحماية البيوت من الهجمات الجويّة التي كانت تشنّها الطائرات ليلاً على الإسكندرية، في الوقت نفسه بدأت الأجواء بالتّوتر أكثر وأكثر، فكان على كل شخص يحملُ جنسيّة أوروبية أن يكون حذراً جداً. وبالنسبة لي فقد كان يتخلّل شعري بعض الخُصل الشقراء، فكان بعض العرب يهتفون عندما يروننني في الشارع قائلين: "إنجليزي!"، مما كان يُشعرني بالرعب الشديد والخوف من أن يقوموا بالاعتداء عليّ.

وخلال حرب السويس بين فرنسا وبريطانيا وإسرائيل من جهة، ومصر من جهة أُخرى، تمّ إجلاء الرعايا البريطانيين والفرنسيين من مصر خلال اثنين وسبعين ساعة، فيما أدرك اليهود ممن كانوا يحملون الجنسيات اليونانية والإيطالية والبلجيكية والإسبانية بأنه لم يعد لهم أي مُستقبل في مصر، خاصة وأن الحكومة المصرية بدأت حينها بمصادرة أملاكهم وطردهم من وظائفهم وإغلاق مؤسساتهم الدينية، كما فرضت الحكومة المصرية إجراءات مُشدّدة على المغادرين لمصر بحيث لا يُمكنهم حمل الكثير من الأمتعة عند المغادرة، بالتالي تركوا جميع مُقتنياتهم خلفهم و"خَلَص"، لقدغادروا بلا رَجعة.

وقد شهدت تلك الفترة صعوداً مُتنامياً للحركات القومية العربية التي كانت بطبيعتها مُعادية لليهود، وأذكر في أحد الأيام عندما صعدت للحافلة برفقة أحد أصدقائي أننا كُنّا نتحدث باللغة الفرنسية كالمُعتاد، لكن بعض رُكاب الحافلة اعترضوا على حديثنا باللغة الفرنسية وطلبوا منا عدم استخدامها، وعندها لوحّت بيدي لهم مُبدياً عدم اكتراثي بما يطلبون لهُم وقلتُ لهم "معلشّ"، عندها تدخّل رجل مصري يرتدي بدلة رمادية وتبدو عليه ملامح العصبية وقال لي: "سوف أقطع يدك أن تفوهّت بكلمة معلشّ مرة أُخرى!"، ولحسن حظّي توقف الباص ونزلنا منه بسرعة.

لقد كنا نتحدث اللغة الفرنسية كثيراً، وكان والدي يقرأ الجريدة الفرنسية اليومية " *Le progrèsEgyptien* "، لكنه كان يُغطيها بجريدة يونانية تُدعى "*Taxidromos*" حين أراد قراءتها، حيث كان من المقبول جداً قراءة جريدة يونانية لأن اليونان وقفت بجانب مصر أثناء الحرب.

إن أحد أبرز الأمور المثيرة للاهتمام في عقلية الجيش المصري هو الأهداف التي كانوا يستخدمونها أثناء تدريبات الرماية واستخدام السلاح، فكانوا يضعون صوراً ورموزاً فرنسية وبريطانية وإسرائيلية، مثل علم فرنسا وعلم بريطانيا وصوراً لجنود يضعون نجمة داوود على صدورهم، كما كان يُظهر الجنود المصريون حماسة كبيرة في التصويب على تلك الأهداف وإطلاق النار عليها.

كما شهدت تلك الفترة أيضاً انتشار الجنود المصريين في كل مكان بشكل يؤجج مشاعر الخوف لدى أي إنسان، ولا أنسى حالة الخوف والذعر التي أصِبت بها في شارع الرملة عندما أوقفتني مجموعة من الجنود المصريين وقام أحدهم بتصويب سلاحه باتّجاهي، شعرتُ بأن ركبي بدأت ترتجفُ من شدّة الخوف، فيما أصبحَ وجهي مُصفراً كحبّة الليمون. كان هذا الجندي هو جابر أبن بوّاب عمارتنا، وكان يُحاولُ الاستعراض ببزّته العسكرية وسلاحه قائلاً لي بسخرية: "إزّيك يا تيدي؟"، بعدها انفجر ضاحكاً هو ورفاقه بينما أنا أرتعشُ من شدّة الخوف. لوّح لي بعدها بيديه وابتعد عني فرحاً بهذه السُلطة الجديدة التي أصبح يتمتّع بها نظراً لوجوده في الجيش.

وما أريد أن أقوله هنا هو أن هذه ليست مدينة الإسكندرية المُسالمة الودودة التي كنّا نعرفها، وهذا ما أدركناه لاحِقاً مع الأسف الشديد.

*المَصدر: مقالة مُترجمة من مدوّنة نُقطة اللا عودة.

From *Point of No Return*, 12 June 2007
http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2007/06/khalass-end-of-my-charmed-lifein.
html (Last accessed 26 April 2017)

*****

ذكريات من مذبحة الفرهود –1941م

هذه شهادة حيّة كتبها ستيف آكر ونقلها عنه إيڤي فِشَر، وهي واحدة من أهم الشهادات المثيرة للاهتمام لكل من أراد التعرّف على الكثير من أحداث تلك المجزرة. فرهود هي كلمة كردية الأصل وتعني انتزاع الملكية بالقوة، ولهذه الكلمة وقعٌ كبيرٌ على قلوب يهود العراق بعد أحداث الأول والثاني من يونيو/حزيران سنة 1941م، فكانت هذه الأحداث بمثابة شرارة البداية لاحتراق المُجتمع اليهودي العراقي واندثاره عن بكرة أبيه، هذا المُجتمع الذي كان حاضراً في العراق منذ أكثر من ألفين وستمائة عام.

أنا صبيح عِزرا عقيرب الذي شهد أحداث الفرهود بنفسه عندما كنت في التاسعة من عمري، حينها لم يكن لدي أدنى فهم للعواقب الوخيمة لما كنت أراه، لكني أدركت بأن ما أجهلُه الآن وما لم أستطع فهمه في ذلك الوقت هو أمر منطقي بطريقة أو بأخرى. لقد ولِدت في العراق، وهذا وطني الوحيد الذي عرفته، كما كنت فخوراً بكوني يهودياً، لكنني كنت أعرف جيداً أنني مُختلف، وكان هذا الاختلاف أمراً لم يتقبله غيرُ اليهود المُحيطون بي.

وفي ذلك العام كان الأول والثاني من يونيو/حزيران هُما بداية عيد الأسابيع اليهودي - عيدالشفوعوت - اليوم الذي أُنزل الله فيه التوراة على أسلافنا، وهواليوم الذي أصبح فيه بنوإسرائيل أُمّة بحدّ ذاتها. إن التناقضَ الكبير بين هذين الحدثين التاريخيين لا زال حاضراً في مخيّلتي وبقوّة، فبينما يرمزُ عيد الشفوعوت إلى اليوم الذي ولِدت فيه الأمة اليهودية، فإن الفرهود يرمز إلى الموت، موت الوَهم وموت الهويّة، واليهود الذين شعروا بقدر من الأمان في بلد ما تم تهجيرهم منه مرة أخرى.

في الحقيقة كنا نستشعر الخطر القادم يلوح في الأفق، وقبل أيام من ارتِكاب لمذبحة عاد أخي إدموند - الذي كان يبلغ من العمر عشرين عاماً حينها-إلى المنزل طالباً من والدتي شفيقة عقيرب أن تتوخّى الحذر الشديد، حيث كان أخي يعمل في المخابرات البريطانية في الموصل حينها، بينما ازدادت الشائعات التي تحذّرنا من خطر قادم لا محالة. بعد ذلك بفترة قصيرةرأينا إشارة الخمسة الحمراء (بصمة النخيل) مرسومة على باب بيتنا الأمامي، وهذه إشارة دموية تميّز منازل اليهود عن غيرها، لكن كنّا نتساءل: لماذا هذه الإشارة موجودة على بيتنا وما الغرضُ منها؟

كان صباح عيد الشفوعوتطبيعياً ولم يكن هناك ما يدعو للريب، ونظراً لأن توفي والدي عزرا قد توفّى قبل ثلاث سنوات لم يكن لدي أب يصطحبني إلى الكنيس. لذلك بقيت في المنزل مع والدتي التي كانت تعد وجبةالشفوعوت الخاصة بهذا العيد، مع العلم أن والدي رحل تاركاً خلفه والدتي الأرملة التي لديها تسعة أطفال.

وفجأة صارت الأصوات الغاضبة تتصاعد من الخارجبينما تتقدّم تجاهنا ببطء، كنا نسمعها عبر نوافذ بيتنا، فجأة وتحت لهيب شمس الظهيرة اندلعت الأحداث وبدأنا نسمع أصوات العُنف والدموية، أصوات دناءة وخيانة الجيران لجيرانهم، عندها جمعتني والدتي مع شقيقاتي الأربع وشقيقي الأصغر في غرفة الضيوف وبقينا هُناك. كان صوتها رزيناً جداً، وكان الوقتُ يمرّ بمنتهى البطء، لكنني كنت طفلاً فضولياً جداً، لذاقمت باستغلال غياب أمي لفترة قصيرة وركضت إلى الطابق العلوي متوجّهاً إلى السطح، وعند مدخل الفناء الموجود وسط منزلنا كانت هناك نخلة طولهاخمسة عشر قدماً تقريباً، غالبًا ما كنت أتسلق تلك الشجرة، وفي الأوقات التي لم يكن بحوزتنا أي طعام كانتمرهايساعدنا بعض الشيء. لقد كنتُ أشكر تلك الشجرة وأعبر لها عن امتناني بشكل يوميّ. وفي يوم المذبحة تسلقتُ تلك الشجرة واختبأتُ بين أغصانها محدقاً في المشهد الذي يتكشف في الأسفل، ما رأيته كان يفوق الخيال!

رأيت في الطريق الترابي الضيق ما بين أربعمائة إلى خمسمائة مسلم يحملون المناجل والفؤوس والخناجر والبنادق بينما كانوا يصرخون بأعلى صوتهم: "أُقتلوا اليهود، اذبحوا اليهود!" وهُم يُطلقون الرصاص في الهواء. كانت الصرخات المنبعثة من منازل اليهود تقشعر لها الأبدان، في الوقت نفسه كنت أسمع صوت أمي التي كانت تصرخ باحثة عني: "وينك! وينك!"، لكنني لم أستطع الإجابة كوني كنتُ خائفاً جداً من أن يلتفت إليّ أحد ويلاحظ وجودي فوق الشجرة.

ووسط هذه الفوضى العارمة رأيت صاحب المنزل جالساًأمامالباب مرتدياً عمامته الخضراء المميزة، كان حاجّاً ينظرُ إليه الجميع بنظرة "القداسة"باعتبارهقام بتأدية فريضة الحج في مكة المكرمة. كان الرجال الغاضبون يتحدّثون إليه وبدا وكأنهم يطلبون منه شيئاً، لكنهم ولسبب غير مفهوم استمروا في التقدم وتركوا منزلنا دون أي يُلحقوا بنا أي أذى، وعلِمنا في وقت لاحق بأن صاحب المنزل قال لهُم بأن المرأة الموجودةفي المنزل هي أرملة لديها تسعة أطفال وقد طلبت حمايته، فتركونا وشأننا.

وفي هذا الموقف رأيت المُروءةلدى هذا الرجل مع أنّي لم أكن أتوقعها، لهذا شكرتُ الله على حمايتنا منهم، في الوقت نفسهكانت أعمال القتل الفظيعة مُتواصلة، فقُتِل للرجال والأطفال والنساء اليهوديات. وعلى بُعد أربعة منازل من منزلنا يقع بيت صبيحة صديقة أمي، ومن هناك ظهر رجلٌ مسلم يحمل ما بدا أنه قطعة لحم ملطخة بالدماء، وعلمنا بعد ذلك أن صبيحة قُتلت وشُوّهت ملامحها، فكانت أمي تتأوّه بنبرة حُزن شديد: "صبيحة! لقد قتلوها وانتزعوا حَلقَها! لقد شوّهوا جُثّتها!"

في الوقت نفسه كان اليهود يُهرولون هاربين من هول هذه المذبحة فوق أسطح بيوتهم، كانوا يركضون مُحاولين النجاة بأرواحهم، ولولا أعمال النّهب التي رأيناها أمام عيوننا والتي أخذت قدراً من وقتِهم لكان قُتِل المزيد من اليهود. لم تحضُرقوات الأمن والشرطة لمساعدتنا، فكانت القوّة بيد هؤلاء الهَمَج، وكانت هذه الأحداث الدموية بمثابة اللحظة التي خرجت فيها مشاعر الحقد والغيرة التي كانت مَكبوتة في قلوبهم منذ قرون. لقد تحوّل جيراننا الذين شاركنا معهم الضحك والابتسامة إلى وحوش، وهؤلاء الذين شاركوهُم لحظات فرحهم في حفلات بلوغ أبنائهم قد تحولوا إلى طابور طويل من الناس الذي ينتظرون دورهم في هذه المجزرة الفظيعة.

ومع مرور الوقت بدأت تندلع الحرائق من كل مكان، كانت المنازل تحترق وسط صُراخ وهتافاتحارقيها، فبدأ دخان أسود كثيف يتصاعد نحو السماء، وملأت رائحة الدخان الكريهة أنفي تصاحبها رائحة اللحم المحترق، لن أنسى تلك الروائح ما حييت. سألت نفسي حينها: كم من الوقت أمضيت فوق الشجرة؟ ساعة واحدة؟ ساعتان؟ لهذا قفزت أخيراً إلى سطح بيتنا وركضت بين ذراعي أمي المُرتجفتين، صفعتني حينها، لكنّي كنتُ أعرف أنها صفعتني من بابحبّها علي وقلقها عليّ.

وعلمنا عقِب مغادرتنا لمنطقة حلة الدهانةبأن هذه الحشود الغفيرة من الرجال قد توجّهت إلى الأحياء اليهودية الفقيرة الأخرى، ومن ثمّ شق المُهاجمون طريقهم إلى الأحياء اليهودية الأكثر ثراء لنهبها وسرقتها. كانت إشارة الخمسة الحمراء تعني لهم أن هذا البيت هدفٌ لهم، فكانوايقتحمون ويسرقون المتاجر اليهودية على امتداد شارع الرشيد في بغداد، مع العلم أن جميع هذه المحلات كانت مغلقة بمناسبة عُطلة عيد الشفُوعوت، وما لم يتمكّن أولئك الهمجُ والرّعاع من سرقته كانوا يدمّرونه على الفور. كذلك قاموابحرق وتدمير عدد كبير من الكُنُس اليهودية، فرأينا الدخان المُنبعث من كتب وأسفار التوراة وهي تحترق، لقد كان دماراً شامِلاً لا يستثني كل ما له علاقة باليهود. وفي يوم الثاني من يونيو/حزيران، أي اليوم الثاني من مذبحة الفرهود ساد الهدوء المُريب مرة أخرى، فركضتُإلى الطابق العلوي وتسلّقتُ الشجرة لأرى ما يحدث، حينها سمعت أزيز الطائرات ورأيتها تُلقي بالقنابل على مناطق بعيدة عَن بيتنا.

لقد كانت تلك طائرات بريطانية، لكن البريطانيين أقاموا معسكرات لهم على مشارف مدينة بغداد وكانوا يتفرّجون على بيوتنا ومحالنا وكُنُسنا وهي تحترق، لكنهم بدأوا أخيراً بالدخول إلى المدينة مُحاولين استعادة وضبط الأمن بعد هذه المجزرة، وبالنسبة ليهود بغداد فإن ما قام به البريطانيّون به لم يكن كافياً أبداً كونهُم تدخّلوا بعد فوات الأوان.

ختاماً، فإن ما شاهدناه بأم أعيينا خلال الساعات الأربع والعشرين من ارتاب مجزرة الفرهود كان بمثابة رؤيتنا لملك الموت يطرق أبوابنا في العراق، لهذا أدرك الكثير منا أنه بعد مضي ألفين وستمائة عام من الحضارة والتاريخ العريق في هذا البلد قد حان الوقت الرحيل منه وبدء حياة جديدة في مكان آخر.

*المصدر: مقالة مترجمة من مدونة نقطة اللا عودة

‘On Fire in Baghdad: An Eye-witness Account of the Destruction of an Ancient Jewish Community’, Steve Acre as told to Effy Fisher - *AMI magazine*, 3 August 2011
http://www.mikecohen.ca/files/steve-acre-farhud-article.pdf (Last accessed 26 April 2017)

*****

قِصة يهوديّ ليبي نجا من الهولوكوست

لا يعلم كثيرٌ من الناس أن المحرقة اليهودية النازية كانت ستجلبُ ويلاتها على يهود منطقة شمال أفريقيا، لا على يهود أوروبا وحدهم، والسبب أن الإعلام ليس معنياً بالحديث عن هذه الحقيقة ولا تسليط الضوء عليها أبداً، ولو قام الإعلام بواجِبه لعلِم الكثيرون عن التجربة المريرة لشمعون تشوڤا اليهودي الليبي الذي نجا بكل أعجوبة من المحرقة، وهذه هي قصة شمعون التي نُشرت في صحيفة معاريف الإسرائيلية والتي قامت بترجمتها الصحفية الراحلة أورنا موزِس.

عندما نتحدث عن الهولوكوست فإن أول ما يتبادر إلى أذهاننا هو الصورة الشهيرة لمعسكر الموت المعروف بأوشڤيتز، أو رُبما معسكر الموت في بيركناو، كما يتبادر إلى تفكيرنا على الفورحقيقة مقتل ستة ملايين شخص في المحرقة، وهذا أمر طبيعي لأن معظم الأدلة والأفلام تُسلّط الضوء على ما مرّ به يهود أوروبا من ويلات، لكن في الوقت نفسه يجبُ علينا أن نسمع قصة مثل قصة شمعون تشوڤا (خمسة وثمانون عاماً) مِن مخمورت والتي تسلّط الضوء على جريمة قتل وإبادة مُمنهجة تمّت في مكان آخر وفي نفس الفترة الزمنيّة. بدأت قصّة شمعون تحديداً في عام 1940م في بنغازي، عندما كانت عائلة تشوڤا واحدة من العائلات التي لها حضور بارز في المجتمع آنذاك، كانت بنغازي قد تنقّلت خمس مرات ما بين حُكم الإيطاليين والألمان والبريطانيين، وفي كل مرة يحكم فيها أحدهم كان يحدثُالنهب وتُرتكبُ المذابح وتُحرقُللبيوت والمحلات التجارية.

"أذكر جيداً إحدى الليالي عندما كان أحد الجيران يطرقُ باب بيتنا بقوّة حتىكُسِر، حينها اقتحم حشدٌ من الناس منزلنا بحثًا عن الذهب والأشياءالثمينة فيه. انتقلنا بعدها إلى بويرتا بارِدا، وهي بلدة صغيرة بالقرب من الحدود المصرية، وأذكر جيّداً أن موسوليني جاء لزيارتنا هناك. كانت تطغى على تلك الفترة حالة من مُعاداة السامية، إذ أذكر كيف كان يتم إجبار اليهود على فتح متاجرهم يوم السبت - اليوم المُقدّس لدى اليهود من كل أسبوع-، أما في المدرسة فكان يُطلَقُ على أطفال المدارس من اليهود لقب "حمار"، وكان يتمّ إجبارهم على الزّحف على أربع أرجل كالحيوانات، لهذا لم أرجِع إلى تلك المدرسة أبداً".

بعدها أعادني والدي إلى بنغازي لأُكمِلَ تعليمي، لكنه لم يكن يعلم أن الوضع قد بدأ يزداد سوءاً هناك، حيثُ لم يعُد يُسمح للأطفال اليهود بالدراسة في المدارس الإيطالية، لذلككنا نتتلمذُ في المنزل على أيدي المدرّسين الخصوصيّين. وفي أبريل/نيسان من سنة 1942م أصدر موسوليني أمراً بإرسال جميع اليهود إلى معسكر اعتقال في الصحراء، ولم يُسمح لهم سوى بأخذ بعض الملابس والأغطية، واستغرقت هذه الرحلة إلى المعسكر مدةخمسة أيام. أذكر كيف تم زجّنا في الشاحنات كما لو كُنّا قطيعاً من الماشية، وخلال النهار كنا نتجرّعُ لهيب شمس الصحراء الرهيبة، أما في الليل فكنّا نرتجفُ من برد الصحراء القارِس. كنتُأبلغ من العمر اثني عشر سنة حينها، وبعد أن وصلنا إلى قاعدة عسكرية في وسط الصحراء المحاطة بالجبال رأينا حوالي ألفين وسبعمائة عائلة كان أفرادها مُعتقلين في معسكر چيادو.

"لقد تم تقسيم هذا المعسكر بين العائلات، فتم تحديد مساحة متر مربع واحد لكل عائلة، وتم تحديد كل مساحة بواسطة حبل، فيماتم وضع لوح خشبي طويل به عدد من الفتحات ليتم استخدامه بدلاً من المرحاض. لم تكن هناك أماكن مخصصة للاستحمام، كما لم يكن لدينا مياه نظيفة، ونتيجة لذلك تفشّى القمل بيننا وأصيب غالبية سكان المخيم بمرض التيفوئيد، في الوقت نفسه لم يكن هناك أطباء بين اليهود حينها لأنهم كانوا يعملون بالعادة في الوظائف العامة المدنية أو في التجارة، وما يُمكنني قوله هنا هو أنني نَجوتُ بمعجزة مِن هذا المكان!"

تمكّن بعض اليهود من تهريب بعض الذهب والأشياء الثمينة أثناء اعتقالهم، وكانوا يستخدمونها لمقايضة البدو من سكان المنطقة المحيطة بالمعسكر، فقامت والدتي بتهريب ماكينة خياطة صغيرة كانت تستخدمها في خياطة أوشحة ملونة للنساء البدويات، لكن بشكل عام لم يكن هناك شيء يمكن القيام به للهروب من هذا المعسكر، وعلى فرض أننا تمكنّا من الهروب فإننا لم نكن نملك أي مكان نذهب إليه أصلاً. لقد فقدتُ والدي وأخي وخمسة آخرين من أفراد عائلتي بسبب تفشّي الأمراض والأوبئة هناك".

وقد أُقيم هذا المعسكر فعلياً في شهر أبريل/نيسان من سنة 1942م، واستمرّ وجوده حتى شهر مارس/آذار من سنة 1943م، أي عندما تمكن البريطانيون من هزيمة الألمان. وعندما عادت أسرة شمعون إلى بنغازي اكتشف أفرادها ما حلّ بعائلتهم من ويلات، حيث توفّيَعددٌ منهم وكان من ضمنهم والده شمعون، أما والدتهفكانت تعمل في الخيّاطة طيلة فترة احتجازها في المعسكر، كان شمعون يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا فقط، ورغم صِغر سِنّه إلا أنه أدرك بعد هذه التجربة المريرة عدم وجود أي مستقبل لليهود في ليبيا، لكنه كان مضطراً للبقاء هناك من أجل إعالةأسرته الفقيرة.

حاول شمعون الحصول على أي وظيفة في معسكر الجيش البريطاني، وبعد محاولات حثيثة حصل على وظيفة هناك، يقول شمعون عن تلك الفترة: "خلال تلك الفترة بدأت أفكر في الهجرة إلى أرض إسرائيل- العَليا- وعندما هاجرتُ إلى إسرائيل تمكّنتُمن زراعة قطعة أرض صغيرة بالخضراوات، مما جعل الجنودَ الإسرائيليين يرونَ أنني شخص جادّ، وفي عام 1945م حصلت على زيّ رسمي وأوراق ثبوتية".

أمضى شمعون السنة الأولى في إسرائيل في منطقة عين ڤيرِد ثم انتقل إلى مدرسة بن شيمن الداخلية، وخلال تلك الفترة كان العربُ يتجمّعون حول طلاب المدرسة ويرشقون حافلاتهم بالحجارة. لاحقاًالتحقَ شمعون بالجيش الإسرائيلي عام 1948م وقاتل فيعدّة حروب في صفوف الجيش الإسرائيلي. عندما سُئِل شمعون عن سبب جَهل الكثير من الناس بهذا الجانب من الهولوكوست، أجاب بأنه لو اهتمت وسائل الإعلام بهذا الجانب وقامت بواجبها بكل موضوعية وصدق لعرف الجميع بما حدث في ليبيا،لا يعرف الناس هذه القصة لأن وسائل الإعلام بشكل عام اختارت عدم تسليط الضوء عليها. ويختم شمعون قصّته قائلاً: "أنا فخور جداًبنفسي كوني تمكنتُ من تجاوز جَميع هذه الصعوبات، وإسرائيل هي وطني الوحيد".

*المصدر: مقالة مترجمة من مدونة نقطة اللا عودة.

English translation by Orna Moses of article in *Ma'ariv, Point of No Return,*
5 April 2013
http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2013/04/a-libyan-holocaust-survivorsstory.
html (Last accessed 26 April 2017)

******

الهروب من صدّام حسين سنة 1970م - قصّة إميل سوميخ

عائلة سوميخ- مثل باقي اليهود الممنوعين من مغادرة العراق - مهدت الطريق سنتي 71-1970 للهروب نحو إيران بعد أن عقد الأكراد هدنة مع نظام صدّام، حيث نجح حوالي ألفي يهودي بالهرب إلى إيران، فيما اعتقلت العائلات التي بقيت تنتظر في إربيل. يقول إميل: "لقد كانت رحلة طويلةوشاقة دامت عدة ساعات، وفي المساء وصلنا أخيراً لمنطقة السليمانية، وأخذتنا سيارة الأجرة إلى مطعم مفتوح في الهواء الطلق حيث انتظرنا هناك لعقد الصفقة مع المهرب، لكننا لم نجده، الأمر الذي أثار ريبتي بسبب خلو المكان تقريبا من الناس. ومع مرور الوقت كشف عن نفسه بكل هدوء واقترب منا ليخبرنا بأنه قد رأى بعضاً من المُخبرين في الجوار، لذلك السبب لن يتمكّن من اصطحبنا في تلك اللحظة. عوض ذلك، أخبرنا بأن نجلس ونطلب شيئا لنأكله، وبأنه سيأتي لاحقاً ليقلّنا.

وبينما كنا نأكل بعض المقبّلات، كنت أتساءل عمّا إذا كانت هذه وجبتنا الأخيرة، لذلك طلبنا بعض أسياخ اللحم المشويّ، إلّا أن تحضيره قد استغرقَ وقتاً طويلاً، فتوجّهتُ للمكان الذي يحضرون فيه اللحم وطلبتُ منهم أن يحاولوا الإسراع قدر الإمكان، ذلك لأنالمُهرّب قد يأتي في أية لحظة ولم أكن أريد أن تفوتني فرصةُ تناول وجبة لذيذة كهذه. وبالفعل، ظهر المهرّب فجأة! واضطررنا أن نأخذ أسياخ اللحم المشويّ معنا لنأكلها لاحقاً في الطريق.

ومع خروجنا من المطعمرأينا شاحنة المُهرّب، وقد كانت شاحنة عادية كأيّ شاحنة أخرى تُستعمل في نقل البضائع مع حجرة قيادة لا تتّسع إلا لشخصين بجانب السائق، لذلك اضطرّ كلّ من أبي وأمي وأختي الصغيرة زيتا للجلوس في المقعد الضيّق بجانبه. الشيء المضحك هنا هو أنّ أختي الصغيرة زيتا- التي تبلغ من العمر اثني عشرة سنة - كانت ترتدي آنذاك تنورةً قصيرةً وكعباً عالياً فاضطرت أمي لأن تغطي ركبتيها بقطعة قماش! حاولَت أمي قبل خروجنا من بغداد اقناعها بارتداء ملابس مُحتشمة بعض الشيء إلا أن زيتا رفضت. وبالنسبة للي ولأخي تيري فقد تسلّقنا - بطلب من السائق- فوق حجرة القيادة بملابسنا البغدادية التي تبدو غريبة في هذه المنطقة، خاصة وأن جميع الناس هنا يرتدون ملابس كرديّة.

أخبرنا السّائق بأنه في حال أوقفه أحد أفراد الجيش سيخبرهم بأن كل ما في الأمر هو أن سيّارتنا قد تعطّلت وأنه يقلّنا في سيارته من باب المساعدة لا أكثر. لكن الأمر بدا لي وكأنه كان ينوي أن يتخلى عنّا في أول حاجز للجيش العراقي يصادفه – وقد كان وقع إحساس الريبة هذا الذي أصابني ذا وقع شديد عليّ، إذ لا زلنا في المرحلة الثانية فقط من رحلتنا المحفوفة بالمخاطر نحو المجهول! وما زاد من خوفي وريبتي هو قيام السائق بالتوجه نحو الطريق الذي يمر من وسط معسكرات الجيش العراقي، لكن تبيّن لنا فيما بعد أنّ السّماح بعبور المقاتلين الأكراد كان شرطاً من شروط الهدنة الموقّعة بين الثوّار الأكراد والجيش العراقيّ في شهر مارس من نفس العام.

لقد كانت عملية هُروبنا محفوفة بالمخاطر، بدا الأمر وكأنه مشهد من أحد أفلام جيمس بوند، حيث كنتُ أنا وأخي جالسين فوق حجرة قيادة الشاحنة على مرأى جنود المعسكرات العراقية، فها أنا أنظر من فوق الشاحنة وأكاد لا أُصدّق عينيّ بأننا نمرّ من بين الجنود العراقيين دون أن يكترثوا بنا، خاصة وأننا كُنا قبل بضع ساعات في بغداد نرتجفُ خوفاً من خيالنا. استغرق عبورنا عبر عدة قواعد عسكريّةبضعة دقائق، وهناك لمحنا مختلف الدبّابات والشاحنات والجنود والحواجز العسكرية الموجودة في هذه المعسكرات. بعد ذلك طلب منّا السائق أنا وأخي أن نغير مكاننا لنجلس هذه المرة داخل الجزء المغلق من الشاحنة حيث تخزّن َالبضائع، لأنه يظنّ أن وجودنا فوق الشاحنة ليس آمنا، فمن المحتمل أن يكون أحد الجنود قد بلغ عنّا في الراديو من آخر معسكر مررنا به، لكن كلّ من أبي وأمي وأختي لم يغيّروا مكانهم قُرب السائق وكانوا في مرأى من الجميع.

ومع اجتيازنا لآخر معسكر بدأ المُهرّب يدعو الله، وحينها أدركتُ أننا في أخطر مرحلة من هروبنا. كان هنالك ثقب في الشاحنة كنا نرى من خلاله أخي ما يجري، وكنتُ أسأله بين الفينة والأخرى عمّا إذا كنّا قد اجتزنا المعسكر أم لا. لقد كان مُعسكراً كبيراً جدّاً باعتباره موجوداً على الحد الفاصل مع منطقة الحُكم الذاتيّ للأكراد، واستغرق عبورنا هذا المعسكر وحده عشرة دقائق. وأخيراً وبعد عناء طويل وصلنا إلى جسر على نهايته حاجز يقيمه الجيش العراقي، في البداية لوّح لنا الجنود بأيديهم في إشارة تسمحُ للسائق بالعبور، لكن ما إن شارفنا على مغادرة نهاية الجسر حتى أعطوا السائق إشارةالتوقف.

في هذه اللحظة بالذات، عوضاً عن التوقف، ضغط السائق على دعسة الوقود بكل ما أوتي من قوة وهرب مُسرعاً من بينهم، واشتدّ الصراخ بين الجنود العراقيّين وبين السائق ومساعده المقاتل الكرديّ الذين كانا يتدلّيان من الحافلة لبرهة من الزّمن. كنت أنتظر بدء إطلاق النار مع ابتعادنا أكثر فأكثر عن الجنود، وهذا ما لم يحدث أبداً لحسن الحظ، مما سمح لنا بالمضي قدماً عبر المُنعطفإلى الطريق التي تمرّ من بين الجبال. الشيء الذي فهمته شخصيّاً ممّا حدث هو أن الجنود قد قابلوا المهرّب وفريقه من قبل، وتبعاً لاتفاقية الهدنة لم يكن من المُفترض أن يُوقفوا أيّة شاحنة كرديّة، لكن رؤيتهم لأشخاص بغداديّين معه كان أمراً غريباً بالنسبة لهم، ولولا أن تجرأ السائقُ وفرّ مسرعاً من بينهم لما نجحت عملية هروبنا.

إنها الساعة الثانية صباحاً ونحن لا زلنا على الطريق الجبلية الوعرة في ليلة حالكة الظلام، لكن السائق فجأة ودون سابق إنذار قام بإطفاء الأضواء الأمامية للشاحنة. سألته عن السبب فأخبرنا بأنه الآن في منطقة لا يحكمها أحد وأنها نتيجة لذلك مليئة بالعصابات الخطيرة. مضينا في طريقنا بلا ضوء لنتجنّب رؤية العصابات، وبعد ما يقارب ساعة من الزمن توقفنا لنأخذ استراحة قصيرة قرب أحد الجبال.

كان المكان هادئا، لا صوت سوى خرير المياه، واستطعنا أخيرا أن نأكل وجبة اللحم التي اشتريناها من المطعم بالسليمانية. كنت متوتّراً جدّاً وبدأتأتبادل أطراف الحديث مع المهرّب، فبدأ يتفاخر بالحديث عن السّلاح الذي كانت تزود به إسرائيل المقاتلين الأكراد وعن عمليات تهريبه لتلك الأسلحة. طلب مني سرّا أن أرمي بعض الأغراض التي لا نحتاجها لنخفف من ثقل الحقيبة التي ملأتها أمي بالملابس، بحجة أنها ستكون ثقيلةً علينا لحملها بعد نهاية هروبنا من العراق، لكنّي رفضت، ولم يطلب مني ذلك مجدّداً.

وصلنا أخيراً لمكان جبلي آخر حيث توقفت الشاحنة هذه المرة وانطلقنا مشياً على أرجلنا لنصف ساعة، وساعدنا خلالها المهرّب في حمل الحقائب. أختي الصغيرة كانت ترتدي حذاء ذا كعبٍ عالٍ، مماعرقلها خلال المشيء على الممر الجبلي. وبينما كنّا نمشي طلب منا المُهرّب أن نتوقف فجأة: كنا قد اقتربنا من الحدود الإيرانية ولم يعد بإمكانه المضي معنا. حسب كلامه، فإنه من الممكن أن يقبلنا الإيرانيون، ومن الخطر عليه الاقتراب منهم. أخبرنا قبل مغادرته بأنه سيتركنا، وأنه يجب علينا انتظار الفجر ثم التوّجه إلى النقطة الحدودية، وفي حال لم يقبلنا الإيرانيون فإنه سيكون في انتظارنا بقرية كردية صغيرة تدعى طُوَيْلَة ليعيدنا إلى بغداد! لقد كان من الجنون أن يضيع كل المجهود الذي بذلناه في القدوم إلى هنا سدىً ونعود أدراجنا إلى بغداد بخفّي حُنين، هذا كان من سابع المستحيلات!

أراد المهرب أن يذهب لكن أمي رفضت، لذلك بقي معنا، ورغم بقائه معنا لم يستطع إخفاء توتّره الشديد، فقد كنا نحن الخمسة نجلس جميعا بجانب طريق جبلية مهجورة مرتدين ملابسنا البغدادية وحقائبنا حولنا في هذا المكان الذي كان يدّعي المهرّب أنه الحدود الإيرانية، آملين أن تكون تلك هي الحقيقة. ومع مرور الوقت ازداد توتّر المهرّب وظلّ يطلب من أمّي أن تسمح له بالرحيل خوفاً مما سيفعله به الإيرانيون إذا اكتشفوا وجوده، لكنّ أبي لم يستطع التحكّم في أعصابه وطلب من أمي غاضباً أن تسمح له بالرحيل.

بعد موافقة أمي حان موعد دفع نصف المبلغ المتبقّي كما اتفقنا معه، وهو ما مقداره 1000 دينار وكلمة سرية يخبرها في بغداد لخالي نعيم كي يمنحه النصف الآخر، أي 1000 دينار أخرى! وكنت قد اتفقت مع خالي نعيم على الكلمة السرية لتوضّح أيضاً ما إذا كانت طريقالهروب التي سلكناها آمنةً أم لا باعتبار أننا كُنّا أول من يجرّبها، ولحاجة اليهود الآخرين لها بعدنا. ففي حال كانت طريقنا آمنة فالكلمة السرّية هي TV – أي تلفاز، وفي حال كانت طريقاً عادية فالكلمة حينها هي RADIO – أي جهاز راديو، أما إن كانت الطريق وعرة ومحفوفة بالمخاطر فحينها سنستخدم كلمة قررتها زوجة خالي وهي ضاحكة GRAMOPHONE – أي جهاز الغراموفون (أو الفونوغراف، وهو قارئ صوتي لأقراص الفنيل الموسيقية).

في هذه المرحلة كان من الصعب عليّ أن أقرّر ما إذا كانت الطريق آمنةً للآخرين أم لا، فالرحلة كانت محفوفة بالمخاطر خاصة عند مرورنا بالمعسكرات العراقية، ولم يكن المهرّب صريحا معنا منذ البداية بخصوص هذا الأمر لعلمه بأننا كنا سنرفض لو أخبرنا مسبقاً بما ينتظرنا. لقد كان من الواضح جدّاً أن المُهرّب قد استعملنا كفئران تجاربهدف تجربة ما إذا كانت هذه الطريق سالكةً له أم لا، كما لم يطلب منا أن نقوم بتغيير ملابسنا البغدادية، فقد كان يعوّل على تسليمنا للجيش العراقي مباشرةً في حال لم تنجح خطته. كان هنالك أيضا خطر الإصابة بطلق ناريّ على يد الجنود العراقيّين الموجودين في آخر الجسر المؤدّي إلى المنطقة الكرديّة. ولأختصر الحديث، كان هنالك أيضا خطر الحدود الإيرانية المجهولة التي وضعنا المُهرب في مواجهة شخصية معها دون أي برهان، فكان من المفترض أن أقول كلمة السر الأخطر وهي الغراموفون. لكنني آمنت به واعتقدت فعلا أنه يقول الحقيقة حيال الحدود، وظننت أنني إن قلت كلمة غراموفون فإن جميع يهود بغداد سيظنون أننا لم نصل إلى وجهتنا، وسيكونون في غاية القلق عمّا يمكن أن يكون قد حدث لنا! لذلك قررت أن آمل الأفضل وآمنت بكلماته، لأنه، في حال كان يقول الحقيقة، فإن ما مررنا به خلال رحلتنا ثمن مقبول مقابل حريّتنا في إيران، ولا يقارن بتاتاً بالجحيم الذي عشناه في العراق!

لذلك أعطيت المهرب ألف دينار وأخبرته أن الكلمة السرية هي تلفاز! ثم ودّعناه، لكن قبل رحيله، ذكرنا بأنه يجب علينا انتظار قدوم الفجر، حينها فقط يجب أن نذهب للنقطة الحدودية. أخبرنا كذلك بأن أمي وأختي يجب أن تسبقانا نحو المركز بقرابة مئة متر، وذلك حتى يرى الجنود الإيرانيون النساء أولاً ولا يطلقوا النار. حذرنا كذلك من أنه في حال مرّ أي شخص ورآنا في الطريق، بأن نتوجه بسُرعة للنقطة الحدودية الإيرانية.

جلسنا هناك في منتصف اللامكان منتظرين حلول الفجر. مر الوقت بكل بطء، أمضيناه ونحن نسمع فقط أصوات الحيوانات البرية التي تجوب الغابة المجاورة للحدود العراقية-الإيرانية. وبينما نحن ننتظر، لمحنا رجلاً كردياً قادماً نحونا ليحيينا قائلا "السلام عليكم" ثم يذهب في سبيله. اضطررنا حينها لنمضي في حالنا نحن أيضا كما أرشدنا المُهرّب، انطلقت أمي وأختي أولاً وتبعناهم نحن حاملين الحقائب. وفعلاًرأينا عند أول منعطف نقطة الحدود الإيرانية، وبما أن أمي وأختي لم تكونا مثقلتين بالحقائب، فقد سبقتانا، وفُتحت بوابة النقطة الحدودية لهما، فأسرعنا بدورنا لنلحق بهما ومع دخولنا رافقنا الجنود الإيرانيون إلى مكتب قائدهم الذي يتربع على قمة الجبل مراقباً كل المنطقة. ما إن صعدنا إليه، كانت الشمس قد طلعت ورأينا أجمل المشاهد التي رأيناها في حياتنا، هنالك تحتنا في المنحدر الجبلي، رأينا تلك الطريق التي كنا نقطعها طوال الليل مع المُهرّب. وحين التقينا بالقائد طلب منّا أن نرى روعة العراق عبر مِنظاره العسكريّ.

أما أبي - الذي قضى بعض الوقت في بلاد فارس قبل ثلاثين عاما مضت- فقد ابتهج لدرجة أنه صار يتحدث الفارسية! تذكّر كل ما كان يعرفه من الفارسية قبل ثلاثين عاماً. علمنا فيما بعد أن السبب وراء الترحيب الحارّ الذي استقبلنا به الإيرانيون كان الشاه الإيراني آنذاك الذي كانت له علاقات طيبة مع إسرائيل، وأنه قد أوصى بيهود العراق الذين يحاولون الفرار. وبالرغم من ذلك، كنا نحن اليهود الوحيدين الذين تمكنوا من الهروب عبر هذه النقطة الحدودية.

بعد فترة قصيرة من الزمن تم نقلنا في سيارة عسكرية لأقرب ثكنة عسكرية إيرانية ليتم استجوابنا. كان هنالك تُهمتان وحيدتان يعاقب عليهما بالموت في إيران حينها: تهريب المخدرات والشيوعية. أخبر والدي المُحقّقين العسكريّين بأننا يهود ولسنا شيوعيين أوتُجار مخدرات. استقبلنا الجنود بحفاوة في المعسكر وأعدّت لنا زوجة القائد طعام الغذاء. وفي الليل، منحنا بعض الجنود أماكنهم للمبيت فيها. في الصباح التالي، أحضروا لنا حافلة نقل صغيرة ورافقنا جندي مسلح فيها إلى أقرب مدينة كبيرة، وهي مدينة كرمانشاه لتتم عملية استجوابنا، حيث تم اعتقالنا في فندق وقُدّمت لنا أطباق شهية – ألأرز أبيض وشيلو كباب كانتا وجبتيّ المفضلتين.

قبل مغادرتنا العراق كنتُ قد اشتريت أحذية ذات نعال عريضة وفتحتها ثم وضعت بعض الأوراق النقدية من فئةالمئة دولار في كل فردة حذاء، وبهذه الأحذية المليئة بمئات الدولارات قطعنا الحدود الإيرانية. كان الحذاء الخاص بأبي قد اتسخ وقرر إرساله إلى ملمّع أحذية محليّ دون إخراج الأموال التي بداخل الأحذية، ورغم محاولتي المستميتة لإقناعه بأن هنالك الكثير من المال بداخل الأحذية بهما إلا أنه أصرّ على ذلك، وأعتقدُ أن ذلك الفتى التي لمّع حذاء أبي لن تلمس يداه مبلغاً ضخماً كهذا مرة أخرى في حياته!وبعد أن أمضينا ثلاثة أيام معتقلين في الفندق دون الخروج منه، سُمح لنا أخيراً بالمغادرة إلى طهران. لقد أصبحنا أخيراً أحراراً.

*المصدر: مقالة مترجمة من مدوّنة نقطة اللا عودة

From Point of No Return, 5 April 2013
(Last accessed 26 April 2017)
Reprinted from Emilsomekh.com
http://jewishrefugees.blogspot.co.il/2013/03/escape-from-iraq-emil-somekhsstory.Html

حقّي في العودة إلى العقل والمنطق – لحظات من طفولة اليهوديّ التونسيّ جون پيير شِملا

لقد حان الوقت لهدم الخرافة التي لطالما أقنعنا بها أنفسنا لقرابة مئة سنة تقريباً، خرافة التعايش بين اليهود والعرب في دول المغرب. لقد ولدت سنة 1952م في مقاطعة إدارية بالعاصمة تونس، وترتبط أقدم ذكرياتي في هذا البلد بالأضواء والروائح والأصوات، بالعربات والخيول وأصوات حوافرها على أرضية الشارع ومختلف صرخات الباعة المتجولين.

كنا أسرةً مكوّنة من عشرة أفراد، نحن الثمانية ووالدانا، كنا نعيش في شقة مكونة من ثلاث غرف في مقاطعة إدارية بتونس العاصمة. كانت الضوضاء في كل مكان، لم يكُن هنالك أي معنىً للصمت أو للأحاديث الخاصة، وكانت تسود البيت أصوات قعقعة الأواني في المطبخ وصفير الطناجر وتحطم الزجاج ممتزجة بأصوات نقاشات محتدة حول الأخبار والسياسة والرياضة. كل متر مربّعٍ من بيتنا كان يعم بالحياة والحماسة والمرح والحب، وباعتباري الطفل الأصغر لهذه العائلة الرائعة فقد استفدت من التنوع الحضاري الذي كانَ يحظى به كل أقاربي.

أما مستوانا المادي فكان أعلى من الذي كان يحظى به أجدادنا، فالعيش في شقة مشمسة تطل على واجهة شارع كبير – رغم بنائها على أنقاض مقبرة يهودية قديمة مع الأسف (أضاف أخي جيرارد فيما يخص المقبرة اليهودية بأنهذه الحديقة كانت أحد الأسباب التي تقف وراء رحيلنا. لقد كانت مقبرة يهودية تم شراؤها في القرن التاسع عشر بأموال المجتمع اليهودي من خارج مدينة تونس، لكن المدينة الحديثة كانت تمتد من باب فرنسا إلى بلفيدير، ملتهمة المقبرة أيضاً حيث دفن فيها عدد من الصالحين مثل الحاخام إسحق حايطيّب، والذي "أنقذ" عائلتنا خلال فترة الامتحانات بعد أن استحضرت والدتي بركته أثناء دعائها لي.

إن العيش في بيت كهذا كان يبدو كالحلم لجدي، والد أبي، الذي اعتاد على العيش في الحارة الحفصية، ذلك الغيتو اليهودي الذي كانت توصد أبوابه في المساء لمنع اليهود من التجول ليلاً بين السكان العرب. أما أبي فقد كان معلّماً بمدارس الاتحاد العالمي الإسرائيلي، وباعتقادي كان أول فرد من عائلتنا يحظى بفرصة الحصول على عمل راقٍ مثل هذا، بالتالي فإن الارتقاء لهذه المكانة الاجتماعية مكّنأبنائهمن الحصول على تعليم أفضل والحصول على وظائف بعيدة كل البعد عن المجالات التي اعتاد اليهود العمل فيهاخلال القرن التاسع عشر، كالجزارة والنجارة والبقالة وغيرها...

وبطبيعة الحال، فإن تحسّن أوضاعنا المعيشية لم يكن من قبيل الصدفة، أو لأن الحكام العرب سمحوا به، بل لأن موازين الحكم قد تغيرت سنة 1881م، ففي تلك الفترة، اعتاد اليهود على العيش في أكواخ تخلو منالإضاءة و التهوية والصرف الصحي، كانوا ضحايا للأوبئة، وتلقّوا تعليمأديني فقط على أيدي الحاخامات، باعتبارهم يندرجون تحت منزلة أهل الذمة ولا يحق لهم الوصول إلى أي مؤسسة تعليمية، كما كانوا مُلزمين بدفع ضريبة خاصة دون غيرهم من السكان، وكانوا عُرضة مراراً وتكراراً لمختلف أشكال الإهانة والسخرية والإذلال (لقراءة المزيد عن منزلة أهل الذمة يمكنكم قراءة كتاب "الذمي" للمؤلفة بات يور).

إن الوجود اليهودي في هذه البلدان- رغم أنه سبق تواجد العرب فيها - هو حقيقة تاريخية ربما لم يكن يعلم بها أحد في تلك الحقبة، وحتى إن كان يعلم بها بعضهم فإنهم سيتعاملون معها بحذر شديد لكي تبقى حقيقة مدفونة بهدف الحفاظ على علاقاتهم الحضارية مع العرب، فقد كان اليهود أقلية في تونس لا يتجاوز عددها قرابة اثنين بالمائة (أي مئة ألف يهودي من أصل خمسة5 ملايين مواطن تونسي).

كانت الجزائر حينها تمر بفترة احتلال دام مدة خمسين سنة، استغلت فيها فرنسا بعض الحوادث على الحدود الجزائرية-التونسية كذريعةً للتدخّل وجعل تونس خاضعة للانتداب الفرنسي، إذ فُرض على الباي التونسي آنذاك توقيع اتفاقية باردو لترسيم نظام الحماية الفرنسي على تونس، وكانت فرنسا قلقةً للغاية من نيل أبناء المجتمع التونسي لحقوق متساوية، بالتالي صارت تلعب على وتر السلم الاجتماعي، فأمرت السلطات الفرنسيةلليهود بالخروج من سجنهم التاريخي بتونس والغيتوهات التي كانوا يعيشون فيها، ونتيجة لذلك قام العديد من اليهود حينها بالالتحاق بمنقذيهم المزعومين في فرنسا، متخلّين عن هويتهم اليهوديةالعربية مقابل الفرنسية، فصاروا يرتدون الملابس ذات الطابع الغربي، بل حتى أنهم قاموا بتغيير أسمائهم وألقابهم إلى أخرى فرنسية. لقد أغوتهم فترة الازدهار الاقتصادي للنظام الفرنسي في تونس، لكن هذا كان على مرأى التونسيين العرب المسلمين، مما ساعد في تأجيج مشاعر الحقد والغيرة في صدورهم، خاصة وأن فرنسا قامت باغتصاب قوة العرب، وهذا ما لم يكونوا معتادين عليه أبداً.

ومع كل صورة كانت تنشبُ هناك كان لا بد من وجود تجاوزات بحق اليهود، فكان إنكار وطمس أي شيء له أي صلة بما عاناه اليهود في الماضي، وكان بعض اليهود يرفضون التحدث بلغتهم الأم بمنتهى التصنّع والامتهان، فكان هؤلاء بمثابةالحثالة ممن أصبحوا موضوع النكت اليهودية-التونسية. وبشكل عام، فإن المجتمع اليهودي-التونسي لم يخسر هويته، بل قام باكتشاف وإعادة إحياء تراثه في الفترة الممتدة بين سنتي1881م و1956م، وهي السنة ذاتها التي تولى فيها الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة مقاليد حكم تونس، وقد عرف عنه أنه كان صديقاً لليهود، إلّا أنه لم يستطع منع المجتمع التونسي من إقصائهم واضطهادهم.

لازالت ذاكرة هذا البيت وهذا الشارع وهذه الحديقة تلازمني حتى يومنا هذا، لازلت أذكر طريقي إلى إعدادية كارنو، ولا زالت ذكرياتي مع نوى المشمش وديدان القز وفطائر العسل وأكاليل الياسمين محفورة في مخيّلتي، وحدّثت أطفالي عن هذه الذكريات مراراً وتكراراً لئلا تضيع في غياهب النسيان ولكي أحتفظ بشيء من تلك الذكريات التي صبغت طفولتي وصقلت شخصيتي، لقد أمضيت السنوات الإحدى عشرة الأولى فقط من حياتي في تونس، لكنها بالنسبة لي مرّت وكأنها مئة سنة، وأنا اليوم على ما أنا عليه بفضل ذلك الطفل الذي كنتُ عليه في تونس. وعلى الرغم من تلك التجارب المريرة إلا أنالأونروالم تكن تبحثُ عنا ولم نكن على قائمة اهتماماتها أصلاً، فنحن لم نحتفظ بالمفتاح ولا بلقب اللاجئلكي نستغلهممن خلاله فيما بعد.

وفي التاسع والعشرين من يونيو 1964م ركبنا الطائرة متجهين نحو مدينة مارسيليا الفرنسية لأننا اخترنا أن نبحث عن مستقبل جديد لأنفسنا. لم نخسر إنسانيتنا عندما قمنا بذلك، وإنما كان ذلك خيارنا الوحيد لأن البقاء في تونس كان حينها خياراً مُميتاً. أذكر قصتي هذه ليعلم الفلسطينيون اليافعون أن حقهم في العودة إلى "الأرض التي يملكون حق ملكيتها" هي محض لعبة سياسية قذرة، وبإنه الوقت الأنسب ليسحب المجتمع الدولي اعترافه بذلك الحق، وإنني اليوم أعلن أنني أمارس حقي في العودة إلى عقلي وصوابي ومصداقيتي.

وبعد الاستقلال قامت الحكومة التونسية بهدم المقبرة دون أي تعويض، لكن تم الاتفاق على استخراج الجثث ونقلها إلى إسرائيل. وقد أمضيتُ عدة ساعات وأنا أشاهدهم يستخرجون الجثث من المقبرة. عند استخراج عظام الحاخام خاي الطيب كان هنالك موكب كبير يصليّ حول المقبرة، لكن عملية استخراج البقايا والجثث استغرقت كثيرا من الوقت، لذلك قامت السلطات التونسية في أحد الأيام بنقض وعدها وأدخلت الجرافات لتقلب الأرض بمن فيها دون اكتراث لبقايا أسلافنا. تم القيام بهذا رغما عن أنف المتظاهرين، حينها علمنا بأن لا كلمة ولا مكانة لنا في تونس، فقام رئيس الطائفة اليهودية التونسية السيّد حدّاد بمغادرة تونس إلى الأبد، مع العلم أنه لو حدثت مثل هذه الواقعة في مقبرة إسلامية في إسرائيل لقامَت الدنيا ولم تقعُد!

كان يمثل المجتمع اليهودي في تونس آنذاك من قبل مجلس للنواب، لكن تونس ما بعد الاستقلال قامت بحلّه، واصفة إياه بِـأنه "دولة داخل دولة"، كما حظرت كل جمعية أو منظمة مدنية كانت تسعى لتمثيل المجتمع اليهودي، وتم السماح بإقامة المحاكمالدينية اليهودية لكن تحت إشراف مباشر من الدولة. ينص أول فصل من الدستور التونسي على أن تونس جمهورية إسلامية، وهذا يعني أن جميع التونسيين من غير المسلمين - أي قرابة خمسة وسبعين ألف يهودي - يعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية.

ويدّعي العرب اليوم بأنه من المشين لإسرائيل أن تعتبر نفسها دولةً يهودية، وأنه يجب علينا اقتسام الأرض بين اليهود والعرب. وسؤالي لهم: ما هو الأساس الذي يستندون عليه حين يطلبون ذلك؟ نحن اليهود لا حقّ لنا في تونس تبعاً للدستور التونسي، نحنُ الذين عشنا في تونس لألف عام تقريباً، نحن الحاملين للجنسية التونسية من غير المسلمين ليس لنا أي حق في أرض تونس! أنا الذي عشت في تونس خلال فترة الاستقلال لم أستطع أن أرى نفسي جزءاً من هذا الوطن، لذلك لجأت لفرنسا كوني حاملاً للجنسية الفرنسية، ويا لها من ورطة وقع فيها اليهود ذووا الجنسية التونسية فقط!

إن الاعتداءات التي تعرّضتُ لها طوال فترة وجودي في تونس هي ما دفعتني بعيداً عن هذا البلد، إذ لم يعد لدينا أي حقوق، حتى عندما كانت الشرطة تعتدي علينا دون وجه حقّ كُنا نحن المذنبين! وهو ما أشرت إليه سابقا بأننا صرنا أهل ذمة مجدداً، لذلك أقول اليوم وداعاً يا تونس، ودمتِ لنا يا فرنسا.

*المصدر: مقالة منشورة عبر مدونة هريسة بتاريخ 26-4-2017

Point of No Return in English translation, 12 July 2005
http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2005/07/my-right-of-return-by-tunisianjew.html
(Last accessed 26 April 2017)

*****

السويس سنة 1956م- كيف فرّت عائلة يهودية من مصر

وصلت كليمي (منير) لازاروس إلى إنجلترا لأول مرة في حياتها سنة 1957م كلاجئة صغيرة في العمر، وهذه قصة هروب عائلتها من مصر. لم تكن سنة 1956 الفترة الوحيدة التي تم فيها تشريد عائلة منير من مسقط رأسها مصر، حيث تشير موسوعة جودايكا إلى أن هذه العائلة عاشت في السابق في تطيلة في إسبانيا في القرن الثالث عشر، وبقدوم محاكم التفتيش الإسبانية سنة 1942م اضطررت لمغادرة إسبانيا نحو مصر برفقة الحاخام اليهودي المعروف موسى بن ميمون.

"ولدتُ في القاهرة سنة 1951م، وسنة 1956م تم اعتقال عائلتي خلال حرب السويسلسببين، أولهما أننا كنا يهود، والثاني أن أمي بريطانية الأصل. حصلت أمي على الجنسية والجواز البريطانيين لأن والدها عمل عند الإنجليز في الهند قبل عقودٍ مضت. أما أبي، فلم تكن له أي صفة قانونية أو وثائق شخصية كمواطن بالرغم من أن أجداده وأجداد أجداده جميعهمولدوا وعاشوا في مصر، لكنهم كباقي اليهود كانوا محرومين من جميع الحقوق التي يتمتع بها المواطن المصري، لا لسبب سوى لأنهم يهود، وهذا ما يطلق عليه اسم "أهل الذمة".

لقد تعرّضنا للاضطهاد، وعوملنا كمواطنين من الدرجة الثانية، لكننا بالرغم من ذلك نجحنا في تأمين حياة محترمة. كان والدي يملك مشروعاً ناجحاً لصناعة علب الكرتون في القاهرة، لكنه التحق بأمي بإنجلترا في نهاية المطاف، كما كان أكبر أشقائه الأربعة، بينما تمكّن ثاني أكبر إخوته من تأمين حياة جديدة في باريس، والثالث هاجر إلى إسرائيل في أوج عدم استقرارها، فعاش ظروفاً صعبة في أكواخ من الصفيح في ما يسمى بالمعبرا، أي مراكز الإقامة المؤقتة للاجئين في إسرائيل. أما أختُ والدي - وهي الرابعة وأصغر أشقائه سناً - فقد ظلّت في مصر مع والديها المسنين حتى توفي جدّي وانتقلت مع جدتي إلى إسرائيل.

ونتيجةً لأزمة السويس، تم طرد كل المواطنين البريطانيين والفرنسيين بشكل تعسّفيّ من مصر، ولا زلت أتذكر كيف دخل الجنود إلى شقتنا ليبلّغونا بأمر الطرد. حطمت هذا الفاجعة قلوب والديّ وجدّيّ معاً، إذ كان لوالديّ خمسة أطفال وكانت أمي حاملا بالسادس في بطنها، وتم إجبارها على مغادرة مصر دون زوجها برفقة أبنائها الخمسة. كان عمرها لا يتجاوز الرابعة والعشرين عاماً آنذاك، وكانت تتحدث العربية والفرنسية، لكن لم تكن تتحدث اللغةالإنجليزية نظراً للبيئة اليهوديةالمصرية التي نشأت فيها.

تم طردها مجرّدة من الأموال أو أي ممتلكات ذات قيمة، لكنها بالرغم من ذلك نجحت في تهريب عدد من الأساور الذهبية التي كانت ترتديها والتي اضطرت لبيعها عن وصولها لتأمين حاجياتنا. وبمجرد وصولنا إلى إنجلترا سكنّا في مخيمين للاجئين، الأول في منطقة ليدز والثاني في منطقة كيدرمنستر. وكانت تلك المخيمات عبارة عن أكواخ خشبية للجيش، وحين أتى موعد ولادة أميتكفل بها الصليب الأحمر البريطاني وأخذها إلى المستشفى لتضع مولودها. لقد كانت هذه الفترة عصيبةً جدّاً عليها لأنها لم تكن تتحدث اللغة الإنجليزية، بالتالي لم تتمكن من التواصل مع طاقم الأطباء والممرضين، وفي هذه الفترة، تم نهب حقائبنا، وسُرقت لأمّي ملابس ذات ماركةCarachel. إضافةً إلى ذلك وجدت أمّي أن أحد أبنائها مفقود عند عودتها من المستشفى، أما ابنتها الصغرى ڤيڤيان، فقد أصيبت بالحصبة وتم وضعها في الحجر الطبيّ.

وبعد ستة أشهر نفذ صبر والدتي بالرغم من أنها تعتبرُمن أكثر لطفاً وأدباً وخجلاً، إلّا أنها وجدت القوة اللازمة لتدخل بيت قائد مخيم اللجوء وتضرب بيدها على مكتبه وترمي بعيدا كل الأوراق التي على مكتبه وقالت له بإنجليزيتها الركيكة:"! Captain Marsh, bring my husband!" ــ أي :"أيها الكابتن مارش، أحضر لي زوجي! "

قام الكابتن مارش بكل ما بوسعه لإحضار أبي، وبالفعل، وبعد مضيّ فترة قصيرة، التحق بنا والدي في المخيّم ومُنح حق مغادرة مصر شرط أن يتخلى عن عمله ومنزله وكل ممتلكاته. تمت مصادرة كل ما كان يملكه أبي من قبل السلطات المصريّة، وإلى يومنا هذا لم نحصل على أي تعويض. كانت السنوات الأولى في إنجلترا صعبة على والديّ، إذ لم يكن لديهم لا مال ولا منزل ولا أي مصدر رزق، لكن ورغم جميع هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية المُزرية نجح والداي في إبقاء أسرتنامُتديّنة، وبعد مدة قصيرة قام مجتمع برمنغهام اليهودي بمدّ يد المساعدة لنا، إذ تم إسكاننا في بيت ڤِكتوريّبرفقةست عائلات يهوديّةمصريّة أخرى مقابل دفعنا لأجرة رمزية كل شهر.

لقد عمل والداي معاً وعاشا حياة من الحرمان والتضحية، وخصصوا كل جهدهم ووقتهم من أجلنا لنعيش حياة كريمة، وبعد عدة محاولات للبحث عن عمل، تمكّن أبي أخيراًمن إنشاء مشروع صغير لصناعة علب الكرتون، وشيئاً فشيئاً أصبحمشروعا ناجحاً جدّاً، وهكذا استطاع أبي أيضاً تأمين عمل لأناس آخرين ممن هم في أمسّ الحاجةإليه.

ومنذ اللحظة التي قدم فيها والداي إلى إنجلترا كانا حريصين كل الحرص على إظهار امتنانهما للبريطانيين لاستضافتهما، فسمّيا ابنتهما الحديثة إليزابيث تيمناً بالملكة البريطانية، فيما نجح أبي في الانضمام إلى مدرسة تقدم دروساً ليليّةً ليتعلم الإنجليزية، وصار في وقت قصير يتحدثها بطلاقة أفضل من الإنجليز أنفسهم. لقد كان أبي رجلا إنجليزياً أنيقا، لكن لكنته كانت مصرية، وحين استطاع تأمين المال اشترى لأمي أكثر الثياب أناقةً، واشترى لنفسه أيضا بدلاتذات تصميم خاص به بقبعاتها الدائرية التي كان يرتديها بكل سلاسة، فيما بلغت سعادته ذروتها حين استطاع شراء سيارة رولز رويس!

وباعتبار أن والدي رجل متديّن، وباعتبار أن التوراة أوصتنا بمساعدة الآخرين كوصية من الوصايا التوراتية - والتي تعرف في العبرية بالميتزڤاه - فقد كان يقوم في كل حفلة زفاف يحضرها بإيصال العروس بسيارته الفاخرة من بيتها إلى الخوباه (كلمة عبرية يُقصد بهاالعريشة التي تقف تحتها العروس مع زوجها أثناء عقد قرانهما).

ختاماً، كان بإمكاننا أن نعتبر نفسنا أنا وإخوَتي"لاجئين منسيّين"، لكن بيت القصيد يكمن في أن والديّ لم يقوما بتربيتنا على أن نكون لاجئين، ولم يلصقوا هوية اللجوء إلى عائلتنا. لم يستعمل هذا اللقب أبداً علينا لئلا يربط مستقبلنا بماضينا المؤسف، وذلك لأن والديّ قد تقبّلا حياتهما الجديدة وعملا بكل جُهدٍ حتى يحسّنا من وضعهما نحو الأفضل.

*المصدر: مقالة مترجمة من مدوّنة نقطة اللا عودة.

Clash of Cultures, Harif blog at the Jerusalem Post, 18 February 2017
http://www.jpost.com/Blogs/Clash-of-Cultures/Suez-1956-one-Jewish-familysflight-from-Egypt-481882 (Last accessed 3 April 2017)

******

يهوديّ في سوريا – قصة جوزيف عِسس

تُحاور ميشيل دڤوراه كاهِن جدّها اليهوديّ سوريّ الأصل جوزيف عِسس خلال أحد مشاريع البحث التي طُلبت منها في المدرسة، لاحقاً تحوّلت هذه المحاورة إلى فلم وثائقيّ يتحدّث فيه والدها عن حياته في سوريا.

"كل ما تطلبه الأمر للتنقّل بين أرجاء الغرفة كان خطوة بسيطة إلى الأمام (في إشارة إلى ضيق الزنزانة التي تم زجّه بها)، كان السجان يمرّ بجوار زنزانته كل ساعتين ويبصق عليه، لم يكن هناك طعام ولا ماء، لم يكن هناك نور يُنهي عتمة السجن ولا كلمات تخفف من وطأة هذا الظلم. لكن في خضمّ هذه القسوة لم يخلُ الأمر من بضع لحظات من التفاؤل هُنا وهُناك، ومنذسنة 1948م حتىسنة 1950لم يكُن جدي يشغل سوى وظيفة واحدة: مُعتقل في السجن بتُهمة كونه يهودياً.

ولد جوزيفأڤراهامعِسِسبتاريخ السادس عشر من شهر أكتوبر/تشرين الأولسنة 1919م في حلب بسوريا، وكان والده تاجر قماش، فيما كان ترتيبه الثامن من بين أربعة عشر طفلاً. وعلى الرغم من أنه تجربة طفولته كانت مليئة بالحب والضَحك والرخاء و"البقلاوة" حينكان يعيشفي نفس الحيّبجوار جيرانه العرب المسلمين، إلا أن طبيعة العلاقة بين اليهود والمسلمينلاحِقاًاتّخذت مُنحىآخَرَ مُختلفاً تَماماً عن السابق، فكانت هذه هي المرحلة الوحيدة منحياته التي لم يتحدث عنها أبداً، لهذا شعرتُ بالفضول الشديد لمعرفة المزيد عن تلك الفترة، فأجريتُ معه مقابلة عام 2007م من أجل مَشروع بحثيّ طُلِبَ منّي في المدرسة، فجلبتُ كرسيّين ووجّهت الكاميرا إلى جدي وبدأت بطرح الأسئلة عليه.

كان جدّي في ذلك الوقت رجلاً منغلقاًعلى ذاته وحَذِراً للغاية، وبعد نقاش طويل بدأتُ أفهمُسَبَببانغلاقه على ذاته، حين وضّح لي أنه خلال نهاية الأربعينيات من القرن الماضي انقلبَتالحياة رأساً على عَقِب بعد أن ظهرت مشاعر عداء وكراهية اليهود في سوريا، فصارالعربوالمسلمين فجأة يكنّون مشاعر الكره والعداء لليهودُ الذين كانوا يعتبرونهم في يوم من الأيام "إخوة وأخوات" لهم. وخلال فترة قيام دولة إسرائيل كان جدّي- الذي كان شاباًيافعاً حينها - يمتلك متجره الخاص ويبيع فيه الملابس والنثرياتمثل العطور والكولونيا والإكسسوارات وغيرها.

وقد مَرّ المُجتمع اليهوديّ بأكمله في حلب بتجارب قاسية ومروّعة جداً، حيث كان يختفيالأصدقاء وأفراد الأسرة فجأة دون سابق إنذار، فيما كان بعضهم يُقتَلُفي وضح النهار حتى يُصبح عبرة للجميع! ويستذكر جدّي قصة رجل من عائلة يهودية كان يختبئ في مكانٍ ما هرباً من المسلمين، فقاموا باختطاف بناته الثلاثة من السوق واحتجازهن كرهائن لعدة أيام وتعرضّن للتعذيب الشديد الذي أدّى إلى مقتلهن بنهاية المطاف. وبعد مضيّ عدة أيام تم تسليم جثثهنّ المُقطّعة إرباً لعائلتهن، حيث تُرِكَت الجُثثداخل كيس بلاستيكي على عتبة باب البيت.

بالتالي أصبح مُجرّد كون الإنسان يهودياً جريمة بحدّ ذاتها، فأدين جدّي اليهوديّ بارتكابه تلك الجريمة، وكثيراً ما كانت تُعلّقُ المشانق في ساحة البلدة "للمُجرمين اليهود" وسط هتافات العرب والمسلمين، هذه المشانق التي لم تُميّز بين الرجال والنساء والأطفال من اليهود. كان جدّي أكثر حظاً من غيره، كونه كان يتمتّع بعلاقات جيّدة مع الجميع، وكان يتفاخر دوماً بصداقته مع ابن مسؤول الشرطة السورية،لكن في ظلّخوف أصدقائه العرب من الظهور بمظهر الخونة أوعدم الولاء للنظام السوري، لم يكن أمام الجميع أي خَيارسوى التخلي عن مشاعرهم الشخصية وعلاقاتهم الجيّدة مع اليهود ووضعها جانباً، والانصياع لما تمليه عليهم مُتطلبات السياسة، لذلك لم يتعرّض جدّي للقتل لكن تم الزجّ به في السجن لفترة طويلة، حيثُكان يقبع عدد كبير من اليهود في المُعتقلات لأيام دون طعام ولا ماء، فيما كانوا يتعرّضون هناك لأشد أنواع العذاب والإهانة في الزنازين الرثّة بين القمامة والبراز. وبالنسبة لجدّي فإن علاقته الجيّدة مع العرب مكّنته من مُغادرة السجن ليلاً، لكن كان عليه أن يعود كل صباح إلى نفس الزنزانة المقززة.

بالتالي لم يكن أمام عائلة جدّي أي خيار سوى المغادرة، فلا أحد كان يعرفُ إن كانت الظروف ستتحسن أم أنها ستسوء أكثر وأكثر، لهذا بدأ جدّي بالتحضير سِراً لتأمين هروب والدته وإخوته الصغار، وبالفِعل قام بتهريبهم خارج سوريا. وفي إحدى الليالي قام جدّي بتشغيل جميع أضواء المنزل وترك صوت الراديو عالياً، ثم فتح الباب وهربتاركاً هذا المنزل إلى الأبد. تمكّن جدّي من الهرب عبر الحدود مع لبنانمُستخدماً جواز سفر مزوّر مذكور فيه أنه ولد في ولاية فيلادلفيا الأمريكية، فهرب تاركاً خلفهُإرثوتاريخ عائلته وذكرياتها في سوريا، كما تركَ جميع ممتلكات العائلة وأموالها، وعندما عبر الحدود بأمان إلى لبنان خرج من السيارة وركعَ مُقبّلاً الأرض وبدأ يغني أغنية الحرية.

لم تكن تلك المقابلة سهلة أبداً بالنّسبة لي، كانت هذه هي المرة الأولى - وربما الوحيدة - التي تحدث فيها جدّي عن هذا المرحلة من حياته، كما لم يعلم أفراد عائلتي عمّا قاله جدّي في هذه المقابلة، كنت أدركُ تماماً أنه يتألم، وكنتُ أُدركُ أيضاً أنه يخشى من معرفة الناس للحقيقة. لكنني في الوقت نفسهُ أدركتُضرورة تأديتي واجبي تجاه أسلافي وتجاه تاريخ عائلتيفي سوريا عبر نشر الحقيقة، لهذا بدأت بإجراء المقابلات مع أفراد العائلة وبدأت بجمع القصص والصور والمعلومات المُتعلقة بتلك الفترة من حياتهم، وفي نهاية المطاف صار لدي فيلم وثائقيّ كاملٌ عن حياة جَدّي أطلقت عليه عنوان: "مطلوبٌ للعدالة -قِصّة جوزيف عِسس".

*المصدر:

Michelle Devorah Kahn: 'Tales of a Convicted Jew's Escape from Syria'
***National Post (Canada*), 1 December 2014**
http://news.nationalpost.com/full-comment/michelle-devorah-kahn-tales-of-aconvicted-jews-escape-from-syria (Last accessed 26 April 2017)

عائلة جيني ستيوارت – قصة عائلة يهوديّة مصرية أُجبِرَت على مغادرة القاهرة سنة 1956م

تقول جيني ستيوارت في حوارها الذي أجرته معها مدوّنة "نُقطة اللا عودة" عن قصّة رحيلها من مصر: اسمي جيني ستيوارت (اسم عائلتي الأصلي هو سيطون)، ولدتُ في القاهرة سنة 1935م ودرستُ في مدرسة تابعة لأحد الأديرة المسيحية هناك، وعائلتي كانت من أوائل العائلات المصرية التي أجبرت على الرحيل من مصر سنة 1956م. كنت أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة حينها، وكنت أعمل معلمة في مدرسة أساسية وقت اندلاع حرب السويس وهجوم بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر بقيادة جمال عبد الناصر بعد أن قام بتأميم قناة السويس. أذكر حينها أن عددنا كان حينها خمسة وعشرين ألف يهودي مصري ممن تم طردهم وترحيلهم من البلاد رغماً عنهُم في تلك الفترة.

وقعت هذه الأحداث في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من سنة 1956م، وأذكر جيداً حين طرقَت السيّدة كروموڤيسكي باب بيتنا متوّسلة إيانا أن نسمح لها بالدخول - وهي يهودية أشكنازية بولندية بالمناسبة -، حيث قام الجيش المصري بالاستيلاء على بيتها بحجّة أن السويس بأكملها قد تحوّلت إلى منطقة عسكرية. وبعد قدومها بعدة أيام إلى منزلنا جاء عدد من ضباط الجيش المصري وطلبوا منا مغادرة البيت خلال موعد أقصاه ثلاثة أيام، ولا ندري حتى هذه اللحظة إن كان ما حدث لنا نتيجة وجود السيّدة كروموڤيسكي في بيتنا أم لا، لكن وبجميع الأحوال قُمنا بحزم أمتعتنا والرحيل. بالنسبة لوالدتي فقد كان لديها جواز سفر بريطاني، أما والدي فلم يكن لديه إقامة في مصر ولم يكن يملك أي أوراق ثبوتية، وبالنسبة لي فقد كان يتوجّب علي استخراج تصريح سفر من السفارة السويسرية حتى أتمكن من المغادرة.

لم يكن مسموحاً لنا بأخذ مبلغ كبير من النقود، وحصر المبلغ المسموح لنا بحمله بعشرين جنيهاً مصرياً لكل فرد، لكني قمتُ بخياطة وإلصاق عشرة جنيهات أخرى في فستاني، فيما أصرّت والدتي على اصطحاب مجوهراتها التي تمتّ مصادرتها منها من قبل ضباط الأمن المصري أثناء مغادرتنا من المطار.

وبعد رحلة طويلة ومعقدةتمكّنا من مغادرة مطار القاهرة على متن طائرة نقل تابعة للأمم المتحدة. أذكر تماماً لحظة وصولنا إلى مطار لندن الذي كان يتألف حينها من عدد قليل من المباني، وكيف تسبّب الطقس البارد والرطب في إصابة زوج أمي بالإعياءالشديد،وبعد أن أصيب بالسلّ في السابق أصبح لديه كلية واحدة فقط، لذا شعر بالإعياء الشديد وطلب من العاملين في المطار أن يُرسلوه إلى المستشفى اليهودي في منطقة إيستإند في لندن على الفور، وهناك أمضى فترة ستة أشهر أصيبت خلالها والدتي بالاكتئاب الشديد لدرجة أنها تعرّضت لعدة نوبات هستيرية في مستشفى للأمراض العقلية، مما جعل الأطباء يضعونها تحت التخدير في كثير من الأحيان.

وبالنسبة لليهود الذين وصلوا بعدَنا إلى إنجلترا فقد تم إرسالهم إلى مخيمات اللاجئين في شمال البلاد، أما والدي الذي كان يعمل في مجال الاستيراد والتصدير فقد تم اعتقاله في مصر بعد قام ضابط في الجيش المصري بتلفيق عدد من الاتهامات له حتى يستولي على شقته. أمضى والدي قرابة ثمانية أشهر في السجن مع اللصوص والمُجرمين، وعندما أُطلِقَ سراحه تم وضعه على متن سفينة متوجهة إلى إيطاليا ومن ثم توجّه عبر سفينة أخرى إلى إسرائيل. لقد كانت حياته شاقة جداً في البداية، حيث بدأ بالعمل كساعي بريد، ولأنه كان متعلماً ويتحدّث عدداً اللغات بطلاقة فقد تمكن من إعادة بناء حياته مُجدداً في إسرائيل.

كانت عائلتي تمتلكُ في مصر محلّين لبيع الملابس ذات الماركات الفرنسية بالإضافة إلى ملابس الأطفال، وعند مغادرتنا تركنا المتاجر جميعها لشقيق زوجي، لكنه اضطر لاحقاً للخروج من مصر هو الآخر تاركاًخلفهُ جميع مُمتلكاتنا. وقد اكتشفنا لاحقًا أننا نمتلكُ قطعة أرض في الإسكندرية أقيم عليها موقع معبد يوناني قديم، وباعتقادي قامت عائلتي بشرائها قبل وصول الملك فاروق إلى سِدّة الحُكم، لأنه خلال فترة حُكمه لم يُسمح لليهود بتملّك أي شيء.

تمكنّا لاحقاً من زيارة مصر بعد توقيع مصر وإسرائيل معاهدة السلام عام 1979م، وأذكر حينهاأنني مكثتُ في قصر في الزمالكتم تحويله إلى فندق، وهو قصر أذكره جيداً لأنني كنت أمرّ من أمامه كثيراً عندما كنت طفلة. وقد رحب المصريون بنا بحرارة شديدة، لكنني شعرتُ أن حال مصر تراجع إلى الوراء كثيراً، لكن ورغم تغيّر الكثير من الأمور هناك إلا أن المتاجر لا زالت تحمل أسمائها الأصلية، أما أسماء الشوارع فقد تغيرت كلياً. وبالنسبة لعدد من اليهود من أصحاب المتاجر الكبيرة مثل جاتيجنووسيكوريلفقد نزحوا من مصر دون أن يُسمح لهم باقتناء أي شيء. وخلال فترة لاحقة قمنا بتوكيل أحد المحاميناالمصري حتى نرفع قضيّة تعويض عن خسائرنا، وبالفعل دفعنا له أجره لكن لم يتم تعويضنا عن أي شيء، فعُدنا إلى بلادنا بُخفّي حُنين.

المصدر:

From *Point of No Return*, 20 November 201http://jewishrefugees.blogspot.co.il/2012/11/

إحياء ذكرى تيشَع بآف/التاسع من شهر آف في عَدَن

قام أحد اليهود الأشكناز بتوثيق رحلته إلى الكُنُس الرئيسية في عدن خلال خمسينيات القرن الماضي، تحديداً خلال إحياء ذكرى تيشَعبآف الذي يُعتبر واحداً من أكثر المُناسبات الحزينة في التقويم اليهودي، نظراً لأنهم يستذكرون في هذا اليوم الخراب الأول والثاني للهيكل اليهودي في القدس، يقول هذا الرجل في مذكراته:

"استحضرتُ مشهداً من مشاهد "ألف ليلة وليلة" بعد أن خيّم الليل علىكنيسٍ سأحيي فيه شعائِر وطقوس ذكرىتيشَعبآف، كان الرجال يرتدون طرابيش حمراء ودشاديش بيضاء واسعة، فيما كان أبناؤهم وأحفادهم يتبعونهم إلى الكنيس، وهناك تبدأ العائلات بالانتشار داخله بحيث يجلس الجدّحافي القدمين على سجادة متوسّطاً أبناءه وأحفاده، ويتكيء مستريحاً على وسادة أو صندوق مرتفِع ويجلسُ أحدُ أبنائه بجانبه.

في الوقت نفسه يتجمّعُ الأطفال من جميع الأعمار على شكل حلقات تُحيط بآبائهم وأجدادهم، فينام أصغرهم أثناء تنافس بقيّة الأطفال في ترديد عدد من الصلوات الحزينة التي يتم ترديدها في هذه المناسبة تحديداً والتي يُطلق عليها اسم كينوت باللغة العبرية. لقد بُني هذا الكنيس ليستوعب آلاف المُصلين، وبالفعل كان يؤمّه آلاف المُصلّين يوماً ما، لكن مع الأسف لم يتبق سوى بضع مئات منهم، وهذه الرحابة الكبيرة للكنيسالمبني من حجارة البازلت تُفسِحُ المجاللحوالي مائة شخص للاختباءخلف زواياه الضخمة والمُتباعدة.

وبالنسبة للصغار فهذه المُناسبة تشبهُالاحتفال بمناسبات سعيدة مثل عيد المساخر أو عيد سِمحات توراة - اليوم الذي تكتمل فيه قراءة التوراة من كل عام-، حيث ترى في الكنيس هؤلاء الأطفالفرحينَ بارتداء ملابس العيد وهم حُفاة القدمين، كما تراهم يضعون القُبّعات على رؤوسهم وهم يركضون من مكان لآخر. كما رأيتُ شاباًذو لحية سوداء يرتدي الطربوش ويلهو مع الأولاد مُستخدماً عوداً رَفيعاً يصدرُ صوت صفيرٍ خفيف كلما حرّكه تجاه الأولاد، لكنهم يتحركون بخفّة ورشاقة من بين مجموعات المُصلّين فلا يتمكنُ من إصابتهم بالعود.

وخلف الساتِر الذي يفصلُ بين الرجال والنساء والممتد على طول الجناح الشرقي تجدُ النساء يردّدن الصلوات في قاعة مظلمة. ولاحظت أن وجوهنّ مكشوفة رغم أن رؤوسهنّمُغطاة بالمناديل، وباعتقادي أن هؤلاء النسوة امتلكن قدراً كبيراً من الشجاعة والجرأةللظهور بهذا المظهر، خاصة وأنهنّ مُحاطاتٌ بالمسلمين الذين يفرضون على نسائهم ارتداء الحجاب والنقاب ولا يتهاونون أبداً مع مسألة كشف الرأس والوجه.

ومع استمرار تلاوة أدعية وصَلوات الرثاء فقد دُهِشتُ حين سمِعت اللفظَ اليمني الغريب لهذه النصوص، حيثُ أن كل كوماتز (حركة الفتحة باللغة العبرية) مثلاً تُلفظُ وكأنها حرف الواو كما في كلمة "لون"، أي أنها تُلفظُ على غِرار الطريقة الأشكنازية، كما أن اليهود الشرقيين يتميّزون بطريقة لفظهم لعدد من الحروف العبرية مثل حرف القاف وحرف العين، بالإضافة إلى تميّزهم في التفريق بين الحروف الصامتة وحروف العلة، هذا المزيج الرائع من الحروف الساكنة الشرقية وحروف العلة الأشكنازية يجعلُ من اللغة العبرية باللهجة اليمنية تبدو غريبةإلى حدٍ ما، وعند سؤالهم عن هذا المزيج أجابوني بأن أجدادهم عاشوا في عدن منذ أكثر من ألفي عام، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تناقلوها من جيل لآخر لتلاوة الأدعية والصلوات اليهودية.

وعند سؤالي لهم عن سبب إقامة مقابرهم وكنيسهم باتجاه الشمال بدلاً من الشرق بدأوا يتبادلون النظرات فيما بينهم، بينما بدت عليهم ملامح الذهول من سؤالي، لأنهم ببساطة لم يسمعوا أبداً عن أي اتجاه آخرللصلاة أو لدفن موتاهم سوى الشمال، كون اتّجاه إسرائيل هو الشمال باعتبار أن اتجاه عَدَن هو الجنوب بالنسبة لإسرائيل. كما زرتُ عدداً من مدارسهم الدينية - اليشيڤا - التي يدرسُ بها الأولاد حتى سن الخامسة عشرة، وفيها يتعلمون الكثير من قوانين الشريعة الدينية مثل قوانين الشخيتاه - قوانين الذبح الحلال تبعاً للشريعة اليهودية -. وهناك قابلت كبير الحاخامات اليهود، الحاخام زخارياهو، وهو رجل دين جليل حكيم ذولحية بيضاء طويلة، ومن يتحدّثُ معه سيشعرُ منذُ الوهلة الأولى بالقدر الذي يتمتّع به هذا الحاخام من الحكمة ومعرفة، وخلال حديثي معه أخبَرني عن الحياة المُزرية التي يعيشها حوالي ألف يهودي ممن ما زالوا يعيشون في اليمن المجاورة، حيث يرفضُ ملكُ عدن السماح لهم بالهجرة والخروج منها بأي شكل من الأشكال".

المصدر:

Reprinted from JJAC website.
From *Point of No Return*, 24 July 2015
http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2015/07/tisha-b-av-with-jews-of-aden.html
(Last accessed 26 April 2017)

مُظاهرات عدن - 1947م

ستجدون في النصّ التالي توثيقاً لتسلسل أحداث العنف في اليمن والتي اندلعت سنة 1947م، وهذا النص مأخوذ من نص منشور في صحيفة جيويشكرونوكِل في طبعتها المنشورة بتاريخ الثاني من يناير/كانون الثاني سنة 1948م، والنص موقّع من قبل شخص نشره تحت إسم "العَدني". يقول العدنيّ في المقال الذي نشره:

"بِمُنتهى الهدوء مرّ اليوم الأول من أيام الإضراب الذي أعلن عنه العرب لمدة ثلاثة أيام احتجاجاً على قرار التقسيم، حيث بدأ الإضراب بتاريخ الثاني من ديسمبر/كانون الأول، ولم يشهد هذا اليوم سوى مظاهرة واحدة بالقرب منحارة اليهود الموجودة في منطقة كريتر في عدن. وفي مساء ذلك اليوم ألقى القادة العرب كلمة في أحد خطاباتهم الساعة السادسة مساء أمام حشد يضمّ آلاف العرب، وعقب انتهاء هذه الكلمة قاموا بالهجوم على حارة اليهود، فاضطرّاليهود الذين تواجدوا في الشوارع للاحتماء بأقرب منزل في طريقهم، واستمرت هذه الاعتداءات حتى الساعة حوالي الساعة العاشرة والنص مساءاً عندما قام عدد من قوات البحرية البريطانيةبتطويق وحماية حارة اليهود وتفريق المُحتجّين.

وفي صَباح اليوم التالي خرجَ اليهود إلى الشوارع وعادوا لممارسة حياتهم بشكل طبيعي، ظناً منهم أن قوات الأمن تُحافظ على الهدوء وستمنعُ أي اعتداءات عليهم، خاصة بعد أن تمركزت قوات الأمن العربيةلمنطقة عدن في الحي اليهودي لحمايته، لكن وبعد فترة قصيرة بدأت ترِدنا الأخبار عن وقوع عمليات نهب وسرقة للمحلات والمتاجر يهودية في الأسواق الرئيسية في عدن، كما رأى شهود عيان مجموعة من العربوهم يُضرمون النار في عدد من المباني اليهودية، وكان هذا تحت مرأى ومسمع قوات الأمن العربية، كماشاهدوا التّجار الهنود وهم يقومون بسرقة بالات من المنسوجات والأقمشة من المستودعات الموجودة في حارة اليهود أيضاً على مرأى ومسمع قوات الأمن العربية.

وبعد ذلك قام المُتظاهرون بإضرام النار في العديد من المنازل اليهودية والكنيس، ويعود السبب في عدم وجود خسائر بشرية كبيرة بين اليهود إلى فرارهم من بيوتهم قبل اندلاع الأحداث بفترة وجيزة. في الوقت نفسه كانت الخسائر المادية جسيمة، فقد تم تدمير ونهبما لا يقل عن ثلث البيوت والمحلات في حارة اليهود، وقام المُتظاهرون العربُ باقتحام العديد من البيوت وضرب ساكنيها إن وُجِدوا بداخلها، وفي بعض الحالات هدّدوهم بالقتل إذا رفضواااعتناق الإسلام، كما اختطفواعدداً منهم، فعاد جزءٌ منهم إلى بيوتهم لاحقاً بينما ظلّ خمسة في عِداد المفقودين.

وقد بلغ إجمالي عدد الضحايا اليهود أربعة وسبعين قتيلاً (تِبعاً لإحصائيات متحف عدن للتراث اليهودي والموجود في مدينة تل أبيب فإن عدد القتلى اليهود نتيجة تلك الأحداث بلغ سبعة وثمانين قتيلاً)، وكان من ضمنهم الرجال والنساء والأطفال، أما بالنسبة لعدد المصابين فكان كبيراً جداً. وقد قُتل عدد كبير من اليهود والعرب على يد قوات الأمن العربية، وربما قُتل عدد آخر منهُم على أيدي اللصوص أثناء سطوهم على المنازل. عموماً فإن قوات الأمن العربية تتحمّلالمسؤولية كاملة عن جميع الأرواح التي أُزهِقَت في هذه الأحداث كونهم كانوا يُطلقون النار بشكل عشوائي ومُتواصل على منازلنا...

وخلال برقية أرسلها الحاكم البريطاني لعدن السير ريجنالد ستيوارت تشامبيون إلى وزير خارجية المستعمرات البريطانية آرثر كريش جونز بتاريخ الخامس من ديسمبر/كانون الأول، فإننا نجدُ افتراء وقِحاً يقفُ المرء مذهولاً أمامه من شدّة تحريفه للحقائق! حيث يقول في الرسالة: "...تم الإبقاء على حالة حظر التجول في كريتر، والوضع هناك مُستقرّ بشكل عام، لكن النشاط العدائي لليهود قد خلقَ توتراًشديداً في المنطقة، خاصة بعد مقتل أحد رجال الأمن العرب ومقتل طبيبهندي مُسلم على يد قَناصين يهود....".

لكن وباعتباري شاهد عيان رأى بأمّ عينه تفاصيل تلك الأحداث فإنني أؤكدُ "لفخامة الحاكم البريطاني" بأن هذا الادعاء عارٍ تماماً عَن الصحّة، وبالنسبة للطبيب الذي ذكره في رسالته فهو شخص معروف لدى اليهود ومعروف بحبهم واحترامهم له، كما كان صديقاً مُقرّباً لرجلٍ يهودي يدعى موري داود، وبالنسبة لحيثيات مقتله فقد كانت كالآتي: تعرّضَ أحد أطفال اليهود ويدعى يحيى لإطلاق نار يوم الأربعاء في منزله على يد رجال الأمن العرب، حينها جازف عدد من أفراد عائلته بحياتهم وخَرَجوا من المنزل رغم إطلاق النار الكثيف من أجل الوصول إلى منزل شخص يهودي يمتلك هاتفاً لكي يتّصلوا بسيارة الإسعاف لنقليحيى إلى المستشفى،لكن خطوط الهاتف كانت جميعها "مشغولة" أو تطلبُ منهم الانتظار. كما حاولت العائلة الاتصال بأحد الموظفين في المستشفى لكن عبثاً.

استغرقت سيارة الإسعاف حتى صباح اليوم التالي لتُسعف يحيى المصاب، ورافق سيارة الإسعاف الطبيب الهندي، وبينما كان يُحاول الطبيب نقل يحيى - الذي كان إلى جانب شقيقه حاييم بالقرب من المنزل- قام رجال الأمن العرب بإطلاق النار عليهما فقُتل الطبيب الهنديّ على الفور، بينماأُصيب حاييم بجروح خطيرة، أما يحيى فتوفي في وقت لاحق في المستشفى. بالتالي فإن المطلوب من هذا الحاكم هو تحقيق محايد وموضوعي يوثّق بكل صراحة نيّة المُتظاهرين المُسبقة للهجوم على حارة اليهود وقتلهم وحرق بيوتهم، ولو لم تكن هنالك نيّة مُسبقة لفعل كل هذا، فكيف بالإمكان تفسير الهجوم الجماعي للعرب على اليهود في كل مِن منطقةالتواهي ومنطقة الشيخ عثمان ومنطقة ميناء المعلا في الوقت نفسه؟

وفي منطقة الشيخ عثمان على بعد حوالي أحد عشر ميلاً من كريتر قُتلأربعة عشر يهودياً، وفي منطقة التواهي كان هناك خمسة قتلى يهود، وقامت الحكومةبإجلاء حوالي تسعمائة يهوديّ إلى أحد مخيمات اللاجئين اليمنيين في منطقة حاشد. أما في ميناء المعلا فلم يكن فيها أي سكان يهود، لكنها كانت مليئة بالمخازن التي تعود ملكيتها لليهود والتي تم نهب البضائع والسلع الموجودة فيها. يجبُ على الحكومة إيجاد اللصوص الذين سرقوا ملايين اللكات - اللك هو عملة هندية - والتي نُهبت من البيوت والمخازن والمصالح التجارية اليهودية، فهل ستتخذ الحكومة قرارات جدّية للعثورعلى هؤلاء اللصوص؟ في الوقت نفسه تردنا الأخبار بأن العرب يبيعون ما نهبوهمن بيوتنا ومحلاتنا بِخُمس إلى عُشر قيمته الحقيقية، وأن الكثير من هذه البضائع المنهوبة قد تم نقلها إلى داخل عدن على الرغم من وجود "حواجز تفتيش" للشّرطة.

بالتالي يتوقع يهود عدن المنكوبة أفعالاً لا أقوالاً وتعازي من يهود العالم، إنهم بحاجة ماسّة للمال من أجلاستعادة مصادر رزقهم، كما أنهم بحاجة للمساعدة فيما يتعلّق بالجانب القانوني المتعلق بإجراء تحقيق كامل ونزيه فيما حدث، إنهم بحاجة لمن يدافع عن حقوقهم ويستعيدها بموجب القانون الدولي. بل إن ما هم بأمسّ الحاجة إليه هو أن تولي الوكالة اليهودية اهتماماً خاصاً بهم حتى يتمكّنوا من استصدار شهادات للهجرة إلى فلسطين في أسرع وقت ممكن..

لقد قام إيلي إليَشار وهو الحاخام الأكبر لليهود السفرديين في فلسطين - والذين كان يبلغُ تعدادهم مئة وستين ألف يهوديسفرديّ - بتقديم تقرير أثناء زيارته إلى لندن، موضّحاً فيه أن عدد القتلى اليهود في تلك المجازرالدموية بلغ مئة وخمسة وأربعاً قتيلاً، كما تطرّق أيضاً إلى قضيّة اللاجئين اليمنيين في مخيم الشيخ عثمان والذين ينتظرون ترحيلهم إلى أرض إسرائيل، كونهم يتعرّضون لاعتداءات متواصلة من قِبل العرب، بالتالي فهُم قلقون جداً من أن تقوم الحكومة البريطانية بوضع العراقيل في طريق هجرتهم إلى إسرائيل، بالتالي إعادتهم إلى اليمن مرّة أخرى".

*المصدر:

***Daphne Anson* blog, 16 May 2011**
http://daphneanson.blogspot.co.uk/2011/05/eyewitness-account-of-aden-pogromof.
Html(Last accessed 26 April 2017)

*****

من بغداد إلى خيمة في إسرائيل

يَروي أفراهام بيها قِصّة شخص يهودي من العراق يُدعى إيلي، وإيلي هو صاحب البيت الذي يسكن فيه أفراهام، موضّحاً عبر هذه القصة الصعوبات التي واجهها إيلي من أجل إعادة بناء حياته مُجدداً في إسرائيل، يقول أفراهام:

"وَلِد إيلي في بغداد بعد أشهر قليلة من مذبحة الفرهود، وهو يذكر جيّداً تفاصيل مدينته كونه عاش فيها لمدة طويلة برفقة والده الذي كان يعمل سائقاً لسيارة أجرة، وكانت أسواق بغداد المميزة هي أكثر الأمور العالقة في ذاكرته، لقد كانت استثنائية جداً مثلما كان يصفها دوماً. كان تعليمه من سِنّ السادسة حتى التاسعة في الكنيس الموجود في حارته، ولم يكن يذهب إلى الكنيس لوحده، بل كان يذهب دوماً برفقة الكبار أو أولاد آخرين نتيجة للإساءة اليومية الي كان يتعرض لها من الأطفال والشباب العرب، إساءات لفظية وجسدية مهينة لا يطيقها أحد. تنهّد إيلي قائلاً: "كان الأمر صعبًا للغاية"، لكنه لاحظ أن جيرانه العرب دائماً ما كانوا يهتمون بعائلته، ولكثرة احتكاك العائلات ببعضها كان الجيران المُسلمون يعرفون تماماً المسموحات والمحظورات خلال يوم السبت اليهودي - الشبات -، لهذا كانوا يعدّون لهم الشاي في هذا اليوم.

هاجرَ إيلي وعائلته العراق في شهر في مارس/ آذار من سنة 1951م، تاركينوراءهم جميع ممتلكاتهم متوجّهين إلى إسرائيل، لم يكن بحوزتهم سوى بضعة حقائب يضعون فيها ملابسهم، وهُنا يعبّر إيلي عن صدمته الشديدة لرؤيته مشهد الجنود العراقيين وهم يطلبون من والديه تسليمهم البطانية التي كانوا يلفّون بها شقيقه الرّضيع!

إنّ مغادرة العراق كانت تجربة مؤلمة جداً بالنسبة لإيلي وعائلته، كما أنحياتهم الجديدةفي إسرائيل لم تكُن أقلّ قسوة وألماً، حيث اضطرّوا للعيش مع عائلتين أخريين في خيمة واحدة في منطقة شعاريروشالايم بالقرب من عَتليت، وهُنا يُعلّق إيلي قائلاً: "لقد كانت صدمة لم يكن بإمكاني استيعابها! انتقلنا من شقة واسعة مكوّنة من غُرفتي نوم للعيش في خيمة لا توجد فيها مياه أو كهرباء ولا حتى حمامات، ولم نكن لوحدنا بل كُنّا نعيش فيها برفقة مع عائلتين أخريين! لم نكن غاضبين حينها، بل كنا سُعداء لمجرد الخروج من العراق، لكن هذه التجربة كانت صعبة ومريرة للغاية". ويُتابع إيلي واصفاً الطعام في مخيم الإقامة المؤقت قائلاً: "لقد كان الطعام رَديئاً جداً، لكنك عندما تكون جائعاً جداً فإنك ستلتهمُ أي طعام يُعرضُ عليك مهماً كان رَديئاً".

وبعد مضيّ بضعة أشهر انتقلَت عائلة إيلي إلى مخيم إقامة مؤقت بالقرب من منطقة مجدّو، حيث كان لديهم خيمة خاصة بهم هُناك، ومن ثمّ انتقلوا إلى مخيم القسطل بالقرب من منطقة مڤاسيرتتسيون في القدس، وهُناك عاشت العائلة في بيت صغير مصنوع من الصفيح. وعلى الرغم من أن بيت الصفيح كان أفضل بكثير من الخيمة، إلا أن الحياة فيه كانت صعبة جداً، يقول إيلي مُعلّقاً على الحياة في هذا البيت:"لقد كُنّا نتجمّد من شدة البرد في الشتاء، وفي كل مرة تمطر فيها السماء كانت المياه تتسرّبُ إلى داخل البيت، أما في الصيف فكنّا نحترقُ من شدّة لهيب الصفيح كلّما ارتفعت درجة الحرارة".

لكن وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات إلا أن إيلي وعائلته ظلوا متفائلينحتى اللحظة الأخيرة، وكان مصدر قلقهم الدائم حينها يتمثّل في معاناتهم المادّية المستمرة نظراً لعدم قُدرة والده على العمل في وظيفةثابتة في القدس. لاحِقاً انتقلت عائلة إيلي إلى منطقة بيت يوسف في وادي بيت شان، وفي هذه الفترةوصلَت العائلة إلى حالة يُرثى لها من الفقر والبؤس.

لاحقاً بدأ والد إيلي العمل في الزراعة، حيث كان بالإمكان العمل في هذا المجال خلال أشهر الخريف والشتاء فقط، لكن الحظّ لم يُحالف والده في هذا المجال أيضاً. وبعد مضيّ سبع سنوات تم تجنيد إيلي في سلاح المدرعات، بالتالي لم يكن لديهأي وقت لمساعدة والده، وبعد ذلك بعامين توفي والد إيلي، فقام الجيش بإعفائه من الخدمة العسكرية وأصبح بمثابة "الأب" لعائلة مكونة من تسعة أفراد (والدته وخمسة إخوة وثلاث أخوات).

وبعد تسع مواسم زراعية لم يُكتب لها النجاح ابتسمت الحياة أخيراً في وجه الأسرة، ونتيجة إدارة إيلي لأمور العائلة فقد تمكّنوا من تجميع مبلغ عشرة آلاف ليرة، فقام بعدها إيلي بشراء شقة لعائلته في القدس وهُناك عمِلَ في العديد من الوظائف لإعالة أسرته. كذلك الحال بالنسبة لإخوته الذين بدؤوا شيئاً فشيئاً يعملون ويُنتجون ويتقدّمون في حياتهم كما فعل إيلي، وبعد مضيّ فترة من الوقت أصبح إيلي يعمل في قطاع البناء ويمتلك شركة مُقاولات خاصة به، وهُنا يُعلّق إيلي مُبتسماً: "أنا فخور جدًا بأسرتي، كل حفيد من أحفادنا تمكّن من دخول الجامعة وأنهى تعليمه هُناك، هُنا أدركتُ جيّداً أننا فعلناها ومضينا قُدُماً بالفعل".

وفي الختام أنهيت مقابلتي معه بهذا السؤال: "هل تودّ العودة إلى بغداد في يوم من الأيام؟"، فأجاب قائلاً: "أودّ من كل قلبي أن أزور بغداد، إنها مدينتي ومسقط رأسي التي عشت فيها حتى بلغت تسعة سنين، لكني لا أعتقد أن بإمكاني القيام بذلك نتيجة أسباب صحيّة". عندها ودّعتهُ بابتسامة وقلت له: "صحيح أنك لاجئ، لكنك فعلتها ومضيت قُدُماً في حياتك"، فابتسم هو الآخرُ وغادر متوجّهاً إلى سيارته.

*المصدر:

‘From Baghdad with Love’, ***Times of Israel*** **blog by Avram Piha, 13 July 2013**
http://blogs.timesofisrael.com/from-baghdad-with-love/(Last accessed 26 April, 2017)

******

من ماعزِ اليمن إلى نبات الأترَج في القدس

(الأترَج هي ثمرة من أصل أربع نباتات أخرى ارتبط ذكرها في التوراة بمناسبة عيد العُرش أو عيد السُكوت باللغة العبرية)

جودي مالتز - سنتعرّفُ من خلال هذا المقال على قصة عوزي إيلي، وهو رجل يهوديّ يمني كان يبلغ اثنين وسبعين عاماً عند كتابة هذه المقال، وعمل في مجال بيع وتسويق ثمرة الأترَج التي تشبهُ الليمون، وهي ثمرة يوجد عليها طلب كبير باعتبارها ثمرة مرتبطة بعيد العُرش اليهودي، فكانت هذه مِهنته في إسرائيل بعد هجرته إليها قادماً من اليمن، حيث كان يعمل هناك في رعي الماشية وتربية النّعاج. وبعد أن ذبح آخر نعجة من نعاجه لإطعام عائلته الفقيرة هاجر برفقة عائلته من منطقة عدن والانتقال للعيش في إسرائيل سنة 1949م، ومنذ ذلك الحين لم يتمكّن عوزي من تجاوز هذه الصدمة الفظيعة التي عاشها هُناك.

يُطلقون عليه لقب "رجل الأترج"، وهنالك بالتأكيد سبب وجيه لذلك، فعوزي إيلي هو صاحب المتجر الوحيد في سوق مَحَني يهوده في القُدس الذي يبيع ثمرة الأترَج، هذه الثمرةالتي ترتبطُ ارتباطاً وثيقا بعيد العرش اليهوديّ. بالعادة لا تؤكلُ هذه الثمرة أثناء العيد، إلا أن وجودها هو أمر أساسي لتأدية شعائر هذا العيد باعتبار أن هذه النبتة هي واحدة من أنواع النباتات الأربعة التي ذُكرت في التوراة والتي يتمّ حملها وتحريكها في كافة الاتجاهات أثناء تأدية تلك الشعائر. ووفقًا للتقاليد اليهودية فإن ثمرة الأترَج ترمز إلى القلب بشكلها الذي يُشبه ثمرة الليمون، مع وجود فارق في الشكل وهو أن الأترج مليء بالتجاعيد والانثناءات. كما أن شجرة الأترَج تُثمرُ مرة واحدة في السنة قُبيل حلول عيد العُرش، لكن عوزي كان يقوم بتخزين الأترج وحفظه بطريقة معينة في عبوات حتى يظلّ متوافراً للمُشترين طوالالعام.

وبالإضافة إلى مجموعة المنتجات المُشتقّة من نبات الأترج يوجد مُنتج مكوّن من علبة رذاذ مصنوع من قشور ثمرة الأترَجوالذي يُستخدمُ لعلاج حبّ الشباب والتجاعيد وتقرّحات الفم والصلع بل وحتى لعلاج التلعثم عند الأطفال الصغار. وهنالك مُستحضرٌ آخر لإزالة التجاعيد مصنوع من بذور الأترَج المهروسة وزيت جوز الهند، كما يوجد صابون خاص مصنوع من الأترج أيضاً ويُستخدمُ للقضاء على قشرة الرأس والحكّة بشكل عام، بالإضافة إلىوجود مرهم مصنوع من مستخلص الأترج والنعناع والزنجبيل ونوع محدد من البهارات والذي يُستخدمُ في علاج مشاكل الجيوب الأنفية والبواسير والآلام المزمنة، أما مشروب الأترَج فيباع في عبوات مُجّمدة، وهذا المشروب يساعدُ في إيقاف غثيان الصباح التي تشعر به المرأة الحامل عادة، ويقول عوزي مُعلّقاً على مشروب الأترَج: "إذا شَرِبَت المرأة هذا المشروب أثناء الحمل فإن طفلها سيخرجُ برائحة عَطِرة مثل رائحة هذه الفاكهة".

وبالإضافة إلى مجموعة المُنتجات السابقة يوجد مُنتجٌ خاص مكوّن من نبتة الحِلبة اليمنية الشهيرة مع القليل من مستخلص الأترَج، بحيث يحدّ هذا المُنتج مِن إطلاق الروائح القوية المرتبطة عادةً بالحِلبة وغيرها من النباتات. وأخيراً، هناك مشروب خاص بهذا المتجر مكوّن من شراب ثمرة الأترَج والقات -وهو نبات يمني تقليديّ يُؤكلُ مضغاً وهو معروفٌ بتأثيره المحفز للجسم والأعصاب -مُضافاً إليه عدد من أنواع الكحول، هذا الخليط الذي يُضفي على شراب الأترَج طعماً مُميّزاً جداً.

عادة ما يكون متجرُ عوزي ممتلئاً بالزبائن قُبيل حلول عيد العُرش اليهودي، فيرتاده زبائنه الدائمون الباحثون عن مُستحضرات الأترج وعلاجاته الطبيعية بالإضافة إلى الباحثين عن ثمرة الأترَج التي يجب أن تكون موجودة في كل بيت أثناء عيش العُرش، ليس الأترَج وحده بل لشراء ثلاث نباتات أخرى من ضمنها سعف النخيل ذو الفروع الثلاثة، ووجود هذه النباتات الأربعة مُجتمعة هو أحد الأمور الأساسية في هذا العيد. وحتى يتمّ اعتباره ثمرة الأترَج كوشير - الكوشير هو كل ما هو حلال تبعاً للشريعة اليهودية - فلا بدّ أن تكون قمّة الثمرة وامتدادها العُلوي سليماً مائة بالمائة، وبالنسبة للثمرات التي لا تنطبق عليها قوانين الثمر الحلال فأن عوزي يستخدمها في أمور أخرى مرتبطة بهذا العيد مثل تزيين العريشة التي يقوم اليهود ببنائها خارج منازلهم ويتناولون فيها طعامهمكل يوم خلال أيام العيد السّبعة التي تبدأ مع غروب شمس يوم الأربعاء هذا العام (يحلّ عيد العُرش يوم الأربعاء في السنة التي كتبت بها هذه المقالة، وليس بالضرورة أن يحلّ كل عام في نفس اليوم).

ومن يدخلُ سوق محني يهوده فإنه سيميّز فوراً عوزي بشخصيّته القوية والمرحة وشيبته البيضاء المُجعدة ذات الاثني وسبعين عاماً، إنه واحد من أعمدة هذا السوق وأركانه الأساسية. وبإمكانك تَمييز محله عندما ترى مجموعات من الناس تدخل وتخرجُ من المتجر واحدة تلك الأخرى، حيث يستقبلُ عوزي في متجره من خمس إلى عشرين مجموعة من مجموعات الزوار يومياً، معظمهم في جولات منظمة في سوق القدس ومتاجره المتنوّعة، حيث يُشاركهم تجربة طفولته في اليمن، يخبرهم عن جدّه والد أبيه وجدّه والد أمه والذين كانوا أشقاء أيضاً، وكلاهما كانا يعملان في مجال العِلاج الطبيعي.

كما يُوضّح عوزي للمجموعات التي تزور متجره كيف قام أحد جدّيه بتحضير جرعة لتجفيف حليب أم عوزي إيلي عندما رفضالفطام عن الرضاعة من صدرها، ويخبرهم عن النّعجة التي كان يرضعُ منها، موضحاًلهم كيف كان يقوم بدفع ساقها لأعلى حتى يتمكن من الزحف تحت جسدها والرضاعة من أثدائها، ويخبرهم كيف اضطرّوا لذبح تلك النعجةوكيف جففت الأسرة لحمها لتتناوله في طريق رحلتهم الطويلة إلى مدينة عدن الساحلية، حيث استقلوا من هناك طائرة متجهة إلى إسرائيل عام 1949م، ويوضح لهم أنه لم يتمكّن من تجاوز هذه التجربة المريرة حتى يومنا هذا. وبعد الانتهاء من حديثه قام عوزي برشّ رذاذ الأترَج الذي يُستخدم لعلاج حب الشباب على وجه أحد زواره والذي وافق على تجربته، بينما أخض شخص آخر علىرشّة منه في فمه، وآخر حصلَ على جزء من مرهم الجيوب الأنفية الخاص ويُدخله مباشرة في أنفه.

*المصدر:

‘From Sukkot to morning sickness: the magic of the Etrog’ by Judy Maltz,
***Haaretz*, 5 October 2014** http://www.haaretz.com/jewish/high-holy-days-2014/.premium-1.619254 (Lastaccessed 26 April 2017)

******

يهود العراق كانوا الأفضل في كل شيء

سنستعرضُلافي هذا الجزء مقتطفات من كتاب "بغداد كما أعرفها - 1930م" للمؤلف أمين المُميّز، حيث يتحدث عن حياة يهود بغداد وكيف كانوا في طليعة المُساهمين في حداثة العراق وتقدّمه. وأثناء قراءة هذه المقتطفات لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار أن الطبقة البرجوازية اليهودية كانت تمثل نسبة ضئيلة جداً من المجتمع اليهودي ككُلّ، وغالبيتهم العُظمى -استناداً للسيرة الذاتية لنيسم رجوان وسليم فتّال -كانوا ينتمون للطبقة الفقيرة.

"لقد كان يهود العراق يأكلون أغلى أنواع الفواكه والخضار بل وأندَرَها، وفي اللحظة التي كانت تتوافر فيها الفاكهة في الأسواق كان يشتريها اليهوديّ العراقي مهما بلغ ثمنها. وما لاحظته هو أن اليهوديّ يأكل طعاماً صحيًا حلالاً استناداً لشريعته اليهودية، خاصة عندما يتعلّق الأمر باللحوم والدجاج الذي يتوجّب على الحاخام فحصه أولاً قبل تناوله. كما تأمرُهم الشريعة اليهودية بأن يشكروا الله دوماً قبل تناول الفواكه في بداية موسمها، وبالنسبة للّحمِ الحلال فيجبُ فحص الحيوان المذبوح والتحقّق من عدم وجود أي كسور في عظامه وأضلاعه وبأنه خالٍ من أية أمراض مُعدية قبل ذبحه.

كما يرتدي غالبية اليهود أجوَدَ أنواع الملابس التي ينسجها الخياطون البغداديون المَهَرة من الأرمن والمسلمين واليهود بالإضافة إلى مخيطة فارما الهندية، خاصة عندما كانوا يحتفلونبأعيادهم الدينية التي أقرّتها التوراة. ويحتفل معظمهم في منازلهم، فيقومون بتحضير أفضل وأشهى الأطعمة، مثل طبق صدر الدجاج والحلويات الفاخرة مثل الحيوة وغيرها من الأطباق اللذيذة. وعادة ما يتردّد اليهوديّ على أفخر مطاعم الوجبات الخفيفة والمقاهي في بغداد مثل مطعم ريڤر كافيه، ومطعم الباشا ومطعم الشهبندر ومطعم موشيه وكافيه المُمَيّز وغيرها من الأماكن الراقية، حيث كانوا يستمتعون بوقتهم هناك ويؤدون أعمالهم ويعقدون الصفقات التجارية، وعندما يأتي وقت دفع الفاتورة كانوا يدفعون المبلغ المطلوب بكل صدر رحب ودون أية مُماطلة.

ويمتلك اليهود أفضل النوادي في بغداد وأكثرها رقياً وفخامة، مثل نادي الرشيد ونادي لورا قدوري، وهذه الأندية مخصصة لليهود فقط ولا يُسمح لأي شخص آخر بدخولها. وكان لديهم أيضاً مدارس متفوّقة جداً سواء في المرحلة الأساسية أوالثانوية، مثل مدارس الاتحاد الإسرائيلي العالمي ومدارسشَمّاش وفرانك إيني وغيرها من المدارس الراقية، وبعد أن يُنهي الطلاب اليهود دراستهم فيها كانوا يتوجّهون للدراسة وإكمال تعليمهم العالي في الجامعات الأمريكية أو الأوروبيّة بسهولة.

وبالنسبة للقضاء ففي حال احتاج أي يهودي عراقي للدفاع عن نفسه في المحكمة فإن بعضهم كانوا يجلبون أفضل المُحامين من الخارج، تماماً مثلما حدث في قضية السيد شمّيل جميلة والذي كان معروفاً بثرائه الفاحش، حيثقام بتوكيلالمحاميالإنجليزي المعروف باركيتون وارد للدّفاع عنه في أحد القضايا المرفوعة ضدّه. وكان اليهود يُربّون أندر الطيور الداجنة والببغاوات والكناري وطيور الحُبّ، فيما كانوا أول من استوردَ السيارات الأمريكية إلى العراق عن طريق التاجِرين اليهوديّين المَعروفين إبراهيم وشفيق عدس والذين كاناوكلاء شركة فورد حينها، بالإضافة إلى وكلاء شركة جنرال موتورز وهما الأخوان اليهوديان لاوي.

كما عُرف عن اليهود اهتمامهم بالثمار النادرة ذات القيمة الغذائية العالية، مثل ثمرة النبق، وثمرة المنّةوالجمّاروالشمندر المحمص، وكانوا يدفعون أي مبلغ ماليّمقابل الحصول عليها. وبالنسبة للسمك فكانوا يشترون السمك الحيّ فقط، ويشترونه مباشرة من المورّد أو الصياد، فيما كانوا يقيمون خيامهم الصيفية على أفضل المناطق حول ضفاف النهر مثل شاطئ العثامیةوالكاهورية، وقد غادروا هذه المنطقة عندما هَدّدهم نعمان الأعظمي لأنه كان يعتقدُ أنهم كانوا يخطّطون لجعل المنطقة بأكملها منطقة يهودية.

كما عُرف عن الحاخامات اليهودبأنهم الأمهرُ في الختان (الطهور)، لهذا كانت تتوجه إليهم العائلات المسلمة من أجل ختان أولادهم، وبالنسبة للغات الأجنبية فكان أفضل معلمي اللّغات من اليهود، فعلى سبيل المثال كان المعلم شميّلأفضل معلم للغة الفرنسية،وحسقيل أفندي كان أفضل معلّم للغة الإنجليزية، وكانت أفضل مدربة السباحة من اليهود (كانت تُدرّب في مؤسسة سعيد سلطان)، وكان المعلم صفاني هو أكثرهُم مهارة. وكان غالبية التجار الذين استوردوا المصنوعات والأدوات الصحية من الخارج من اليهود، أدخل التاجر اليهودي سالم شمعون مفهوم البانيو وسخان الماء إلى الحمامات، وكانت عائلة شاشااليهودية تستورد مجموعات متنوعة فارهة من الملابس وتبيعهافي مستودع سفافير،أما عائلة حقّاق فكانت تستوردماكينات الخياطة المعروفة من ماركة سِنجر،بالإضافة إلى جهاز الموسيقى الغراموفون وتسجيلاته الموسيقية مثل تسجيل موسيقى صوت السيّدة أم كلثوم وشريط فايثافون وغيرها.

المصدر: مقالة منشورة على مدونة نقطة اللاعودة

From Point of No Return, 29 April 2015
(Last accessed 26 April 2017) Translated by Ivy Vernon
https://jewishrefugees.blogspot.co.il/2015/04/1930s-iraq-jews-have-best-ofeverything.html?m=1

*****

الهُروب من إيران

إيتي تسيونيتغوشن كانت أمّاً لطفلين في منتصف عقدها الرابع (35 عاما) حين كانت تعيش في إيران تحت حكم نظام آية الله، وكونها موظفة حكومية آنذاك فقد كانتتملك من المؤهلات ما يكفي لتزوّر الوثائق الرسمية اللازمة لتأمين هروب الجيل الصغير من اليهود خارج إيران، إذ كانت عملية تجنيدهم في الحرب ضد العراق بمثابة إعدام لهم. تم ضبط إيتي مع مرورالوقت، وتم سجنها وتعذيبها، واستغرق الأمر عشر سنوات لتتمكن من الهرب إلى إسرائيل. هذه قصتها كما ترويها لجريدة إسرائيل اليوم (إسرائيل هايوم باللغة العبرية).

ذات يوم، وبمحض الصدفة، لمحت وثيقةً سرية جداً بها أمر بمنع اليهود من الهجرة خارج إيران. أحسستُ بالضعف والمذلة، وبدأت وزوجي نفكر فيما يمكننا فعله حيال الأمر، فاكتشفنا أن في طهرانَ حاخام يدعى باروخ حاخام وكان يساعد الشباب اليهود في الهرب بطريقة ما. لكن كان الأمر مكلفاً للغاية، إذ كان يطلب المهرّبون الكثير من المال، ناهيك عن المخاطر المُحدقة بهم، خاصة وأنه تم القبض على الكثير منهم والزجّ بهم في السجن.

بعد وفاة حمايَ حديثاً، قررت عائلة زوجي - عائلة هوشانغ- تهريب اثنين من أبنائهم عن طريق ذلك الحاخام، لكن تم القبض عليهما قرب الحدود والزجّ بهما في السجن، ولم يتمكّنا من العودة إلى الديار إلا بعد محاولات عديدة من قبل زوجي، إذ تعرض للضرب حين ذهب مطالباً بإعادتهما، لكنه في نهاية المطاف دفع رشوة وتم إطلاق سراحيهما. اضطرت العائلة مُجدداً لمحاولة تهريب ابنين آخرين أصغر سناً من السابقين، كانا يبلغان من العمر خمسة عشر وستة عشر عاماً، إذ كان الجيش الإيراني آنذاك يتكبد خسائر فادحة نتيجة لمقتل عدد كبير من الجنود، لذلك لجأوا لتجنيد الصبيان. ولم يكن التجنيد بحد ذاته عادلاً، إذ كان كانوا يرسلون الجندي مباشرةً نحو الصفوف الأمامية إذا تبين أنه يهودي، الشيء الذي كان بمثابة حكم الإعدام بالنسبة لليهود.

س: هل استطاع شَقيقا زوجك الهروب؟

"لقد حاولنا تهريبهما كذلك عن طريق حاخام، لكن تم القبض عليهما قرب الحدود، فبقيت أمهم بمفردها مع العلم أنها كانت كبيرة في السن وتقطن في مدينة أخرى، ولم تكترث السلطات بحالها، إذ رفضوا منحها جواز السفر لكونها يهودية. وقد تقدمنا نحنُ ايضاًبطلب الحصول على جواز السفر، وتم رفض طلبنا كالعادة لمبررات واهية. ضاق بنا الحال ولم نعرف ما الحل (قام الزوجان بإصدار جوازات سفر مزوّرة لتهريب الشباب الذين يرغبون في التملّص من الخدمة العسكرية، الأمر الذي شكّل مجازفة كبيرة بحياتهما).

لم نفكّر أبدا في أنفسنا وما قد يحدث لنا، كان كل تركيزنا ينصبّ على مساعدة أولئك الشبّان، وكنتُ أُمضي ساعات طوال وأنا أغير الصور والأختام والطبعات واستبدلها بتلك الموجودة في الجوازات المسلمة حتى يتمكّنوا من استخدامها للسفر، وكنا نشتريها من الأشخاص الذين نعرفهم فقط، أي أشخاص من محيط عملنا ودائرة أصدقائنا لا غير. إلا أن ذلك أدى بنهاية المطاف إلى تعريضهم للخطر أيضا(تم فضح مزوّري الجوازات بعدما أن قامتإحدى اليهوديات التي قاموا بتزوير جوز سفرها بإخبار إحدى الموظفاتالحكوميات عن تزوير الجواز).

وفي ليلةٍ من الليالي وبينما كنا في البيت برفقة أطفالنا، فوجئنا بهجومالأمن الإيراني علينا. لم يكونوا كالشرطة هنا في إسرائيل، بل كانوا كالآلهة، بوسعهم فعل ما يشاؤون، لقد كانوا يقتلون الأبرياء بلا رحمة. بدا لنا الأمر وكأن مجاهدي تنظيم الدولة الإسلاميةقد هجموا على بيتنا".

س: هل وجدوا أي شيء غير قانونيّ في المنزل؟

"لقد حطّموا البيت بكامله ونزعوا الأرضيّة ولم يكن باستطاعتنا ايقافهم بأي شكل من الأشكال، حيث قاموا بتغطية أعيننا ودفعوا الأطفال إلى جانب الغرفة. كان لدينا بعض المواد والأدوات التي استعملناها في تزور الجوازات في المنزل، كما كان زوجي عاطلاً عن العمل لفترة من الزمن اعتاد خلالها أن يعمل في مجال صرافة الأموال، وهو ما كان محظورا حينها، فوجدوا لدينا وثائق تثبت قيامه بتحويل بعض الدولارات إلى خارج إيران. كانت لدينا في المنزل كذلك صورة لابن عمي – الذي هاجر لإسرائيل والتحق بفرقة القفز المظلي بالجيش الإسرائيلي – مرتدياً زيّه الرسمي. إنني أرتجف خوفاً بمجرّد حديثي عمّا حدث حينها".

لقد حُفرت ذكرى تلك الليلة المرعبة في تاريخ العائلة، ولحسن حظّهم فقط كان الزوجان قد تعلّما التصرّف كمسلمين." لقد كانت لدينا وثائق تُثبتُ بأننا اعتنقنا الإسلام، كما كان لدينا عقود زواج كنّا قد سكبنا عليها الشاي سابقاً لتبدو وكأنها قديمة. وكان لدينا كذلك كتاب الخميني وقرآنٌ في بيتنا، وهذا ما جعل الشرطة يحتارون في أمرنا. لم يستطيعوا فهم من نحن ولا استيعاب ما كنا نقوم به، لذلك قرّروا إخضاعنا للاستجواب. وقبل اعتقالنا كانت مالكة البيت قد سمعت بالجلبة التي أحدثها رجال الشرطة، فأتت لترى ما يحدث في الوقت المناسب وطلبت منها أخذ طفليّ إلى أختي. لم يكن من المفترض بي الكلام، فضربني رجال الشرطة ورموني عبر سلالم البيت. أوسعونا ضرباً خلال استجوابنا، وعذبونا بمختلف أنواع الطرق لدرجة أنهم كانوا يصعقوننا بالكهرباء، لقد كان الألم والعذاب فظيعاً لدرجة لا تطاق. أرونا بعد ذلك صورة المرأة التي أخبرت عنا، وحينها ظننت أنها نهايتنا قادمة لا محالة وبأن إعدامنا هو مسألة وقت لا أكثر.

رموا بي بعد ذلك في غرفة مظلمة بلا شراب ولا طعام، وفي اليوم التالي نقلوني أنا وزوجي إلى أحد أكثر سجون العالم وإيران شهرةً، حيث يشاع أن الطيور بنفسها لا تجرؤ على التحليق فوقه، وأن من يدخله لا يخرج منه إلا على نقالة الموتى. لكن حدثت معجزة، وبالفعل إنها لمعجزةٌ أن أكون جالسةً الآن هنا".

س: هل علم أهلك بما حدث معك؟

" لا، لم يسمح لنا بتلقي الاتصالات ولا بتوكيل محامٍ. لم أعلم حتى كيف هو حال أطفالي. في إسرائيل يسمح لإرهابيّ عربيّ بالحصول على محامٍ، بل ويستطيع تلقّي تعليم محترم أثناء تأدية فترة السجن، أمّا نحن فلم نحصل على شيء، لقد كنّا في اللّامكان بعينه".

س: كيف كان السجن؟

" قاموا بتفريقنا على الفور، حيث ربطوني بالسرير في وضع جعلني أجزم بأن ظهري قد انقسم إلى نصفين. تم ضربي بسوط حتى أُغميَ عليّ، وقام الرجال بضربي على الرغم من أنه من الممنوع عليهم فعل ذلك في ديانتهم، ولأنهم كانوا يشكّون بأنني يهودية فقد استمتعوا بذلك. قاموا بسحبي على الأرضية من الشادور الذي كنت أرتديه (وهو رداءٌ طويلٌ ترتديه النساء في إيران). لم آكل أو أشرب لثلاثة أيام حتى صرتُ شبه ميّتة. تم استجوابي كل يوم وكان المحقق يضربني مراراً وتكراراً قائلا: أيتها اليهوديّة القذرة، كيف استطعتِ خداع الجمهورية الإسلامية؟ كيف تجرئين على ذلك؟ لصالح من تعملين؟ كانوا يظنون أننا شبكةٌ من المزوّرين، لكنني لم أذعن لهم، لم أُخبر أيّ أحد، وكنت أدعوا الله ألّا يخبرهم زوجي كذلك بأيّ شيء. "

لم أُرد أن أضع عائلات الشبان الذين ساعدناهم في خطر، وخلال عمليات الاستجواب كان يتم وضع غوشن في زنزانة مع النساء البهائيات اللواتي تم استهدافهنّ كذلك بسبب ديانتهن في إيران بعد الثورة، وهناك قامت إحدى النساء بمساعدتي في حفظ بعض الأجزاء من القرآن، إضافة إلى القليل الذي علّمتني إياه ابنتي من الأمور التي كانت تتعلمها في الحضانة مع الأطفال المسلمين الآخرين".

وفي يوم من الأيام أخضعوني للاستجواب من قبل شيخ، حيثطلب مني أن أردد له بعضاً من آيات القرآن، لكنّي كنتُ أعلم أنه يجبُ على المسلمين القيام بالوضوء قبل إقامة الصلاة وقراءة القرآن، فأخبرته بأني ليس عندي ماء لأتوضّأ به، لكنّه أصرّ على طلبه. وبالفعل رتّلتُ له من القليل الذي أحفظه عن ظهر قلب وكلّي أمل في أن تنقذ تلك الآيات حياتي. طلب منّي بعدها أن أردد بعضا آخر من الآيات حدث أني بالصدفة أعرفه من عند ابنتي، ثم بعد ذلك طلب مني أن أردد من تلك الآيات التي علمتني إياها تلك المرأة في الزنزانة الليلة الماضية، ولحسن حظّي أوقفني عند آخر آية أعرفها. لا أعلم ما الذي كنت سأفعله لو طلب مني أن أزيد كلمةً أو اثنتين، فقد جفّ فمي وتسارعت دقّات قلبي أكثر فأكثر، إنه شعور لا أستطيع وصفه بالكلمات، أن تكون كل ليلة لك كالأخيرة. وفي اللحظة التي أوقفني فيها، صلّيتُ "شمَع يسرائيل" في قرارة قلبي.

*المصدر: جريدة إسرائيل اليوم، مقالة منشورة بتاريخ الثالث والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأول سنة 2016م

http://www.israelhayom.com/site/newsletter_article.php?id=37329 (Last accessed 26 April 2017)

*****

البسيسة في ليبيا

إنه اليومُ الأوّل من شهر نيسان، الشهر الذي تقوم فيه والدة رفائيل لوزون بإعداد الطبق الليبي المعروف بالبسيسة، وهو طبقٌ تقليدي ليبيّ أحضره يهود ليبيا معهم، ويقومون بتحضيره في ذكرى بناء المِشكان - الخيمة التي كانت تُحفظ فيها كُتب التوراة مؤقتاً إلى حين بناء الهيكل - .عجنتأم رفائيل بأصابعها المنفوخة الدقيق بكلّ رشاقة وحيويّة، وكان جسدها منحنياً بكامله نحو الإناء، وأكمامها مرفوعة، وكل تركيزها كان ينصبّ على العجين تحتها بينما تضغط عليه بأذرعها القوية حتى يأخذ شكله المطلوب. المقادير بسيطة وهي كالآتي: الدقيق، والهيل، والكمون، واللوز، والفواكه المجفّفة وبعض التّمر والسّكّر، وحين تمتزجُ المكوّنات مع بعضها كانت تضيف بعض قطع السكاكر من أجل تزيين الطبق.

قبل تناولنا لهذا الطبق التقليديّ صلّينا لله قائلين: "إلهي، أنت الوحيد الذي يفتح بلا مفاتيح، وتعطي بلا مقابل، ارزقنا من عندك حتى نعطي غيرنا"، وكطقس من طقوس هذا العيد فلا يُمكننا الاستغناء عن البسيسة، سيكون الطقس ناقصاً دون هذه الوجبة اللذيذة الضاربة جذورها في هذه الارض منذ فجر التاريخ. اعتدتُ دوماً مشاهدة أمي منشغلةً في إعدادها، وكانت في كل مرّة تستدير وتبتسم وتمدّ لي أصبعها لكي أتذوّق العجينة الحلوة. كانت دائماً تضحك في كل مرة ألعقُإصبعها، وتعود بعد ذلك إلى عالمها الصغير، لتكمل العجن.

*المصدر: كتاب Lybian twilight الغسق الليبي لرافاييل لوزون Rafael Luzon – (London: Darf,2016)

******

كيف حافظت امرأة على وعدها لعِزرا

بحلول 1990م كان هنالك فقط بضع عشرات من اليهود بالعراق، وكانت السيّدة (واو) واحدةمنهم، وهذه قصّتها.

كان هنالك امرأة صغيرة في العمر-سنُطلقُ عليها (و) -اعتادت أن ترتاد كنيساً سفرديّاً بالولايات المتحدة قبل بضعة سنين، وفي أحد الأيام وخلال تواجدها في الكنيس احتدّ النقاش بينها وبين أحداليهود العراقيّين قائلاً لها: "ما الذي تفعله مسلمةٌ في كنيسنا؟"، تساءل المصلّون فيما بينهم، ذلك لأن الشابّة لم تكن تتحدث باللهجة اليهودية للغة العربية، بل بلكنة ولفظ غريبين.اتضح فيما بعد أن الشابّة يهودية وبأنها قدِمت حديثاً من البصرة، وقد كان هنالك عدد قليل من اليهود بالبصرة لدرجة أن الفرصة لم تسنح لها بتعلم اللهجة اليهودية للغة العربية. وكونها واحدةً من قلّةٍ قليلة من اليهود الذين عاشوا في العراق تحت حكم صدّام حسين أواخر التسعينات، فقد كانت أمنياتها الوحيدة هي الرحيل من العراق، لكن الحكومة آنذاك احتجزت القلة القليلةمن اليهود لديها كرهائن ولم تسمح لهم بالمغادرة.

لقد كان من الاعتياديّ لدى يهود العراق أن يتبرّكوا بأضرحة الأنبياء والصالحين من اليهود طمعاً في أن يستجيب الله لأدعيتهم ويحقق أمنياتهم، لذا قرّرت السيّدة واو أنتزور ضريح عِزرا الكاتِب والموجود قرب مدينة البصرة، وطلبت منه في إحدى صلواتها أن يساعدها على الخروج من البصرة، وقطعت وعداً على نفسها في حال تحققت أمنيتها بالخروج بأن تتبرّع بِـ"باروخيت" لقبر عِزرا، والباروخيتهو الكساء القماشيّ الذيتتمّ حياكته باليد لتغطية القبر بأكمله.

وبالفعل مرّ الوقت وتحقّقت أمنية الشابّة في مغادرة البصرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكنّها لم تستطع أن تحقّق وعدها الذي قطعته لعزرا بأن تتبرع لضريحه بكساء جديد. ومع الغزو الأمريكيّ للعراق سنة 2003م، صار فجأة بإمكانها السّفر إلى العراق لتعمل كمترجمة لدى إدارة الائتلاف المشتركة. لم يكن قراره سهلاً البتّة، فبعد كل تلك السّنينكانت أمنيتها الوحيدة أن تغادر العراق، وبعد أن غادرته ها هي تعود إليه مرة أخرى لتفي بوعدها للنبي عِزرا، ومعها باروخيتفخم منسوجٌ من الحرير.

لم ينته الأمر عند هذا الحد، إذ لدى الكاتب اليهوديّ أمنية أخرى ليحققها للسيّدة واو بينما كانت في العراق، حيث التقت بزوجها المستقبلي، وهو رجل سياسة يهوديأمريكي، حيث كانت ترافقه إلى مكان تعيينه الجديد بالجزائر العاصمة. عادت السيدة واو للعراق مرة أخرى، وقرّرت أنها ستكون المرة الأخيرة، إذ تعِبت من العيش في البلدان العربية، فانتقلت إلى إسرائيل، وظل زوجها يأتي لرؤيتها من فترة لأخرى.

المصدر: مقالة مترجمة ومنشورة على مدونة نقطة اللاعودة

From Point of No Return, 28 June 2010
http://jewishrefugees.blogspot.co.uk/2010/06/how-one-young-woman-kept-herpromise-to.html (Last accessed 26 April 2017)

*****

أطول عشرة دقائق في حياتي

بعد انتصار إسرائيل في حرب 1967م تم إلقاءُ القبض على سامي-شقيق رامي المنكوبي- من قِبَل الشرطة المصريّة وتم نقله إلى معسكر أبو زعبل كأسير حرب، حيث ذاقت عائلته العذاب وهم ينتظرون عودته، وما حدث ذلك إلا لكونهم محظوظين كفاية لنيل تعاطف جيرانهم معهم.

في الأيام الثّلاثة الأولى من حرب الأيام الستّة ادعت وسائل الإعلام المصريّة بأن الانتصار حليف العرب في هذه الحرب، ولم يكن يعلم الشعب المصريّبأن جيشهم قد خسر الحرب على ارض الواقع، إذ كان الجميع متيقّنين من أن كتائب الجيش المصري منتشرة في تل أبيب، كما انتشرت شائعاتٌ مفادها أن هنالك الآلاف من الأسرى الإسرائيليّين قد تمّ نقلهم عبر القطار إلى القاهرة ليتم عرضهم في مسيرة حاشدة أمام كل الناس في ساحة رمسيس. لم يكن من الممكن للسّلطات المصريّة تحويل هذه الشائعة إلى حقيقة لإرضاء شعبهم، إذ لم يتجاوز عدد الأسرى الإسرائيليين لديهم آنذاك عدد أصابع اليد، لذلك لجأوا إلى حلّ بديل.

عند الساعة الخامسة إلّا ربع من اليوم الأوّل للحرب، سمعنا صوت طرقات على بابنا وفتحنا الباب لنجد رجلي شرطة في ثياب مدنية يقولون بأنهم يريدون أخي سامي في مركز الشرطة لأمر لن يتعدى العشرة دقائق، فذهب معهم. بعد دقيقتين أتت زينب زوجة المسؤول عن حارتنا والدموع تملؤُ عينيها قائلة:" لماذا أخذوه؟" ــ أجبناها مردّدين بوقع الصّدمة ما قاله لنا الرجلان:" سيعود بعد عشرة دقائق".

وبعد مضيّ أقل من دقيقة أتت جارتنا، السيدة أُلفَتْ، لتطمئنّ على وضعنا بعد رؤيتها لأخي وهو يصعد في سيارة الشرطة من نافذة بيتها. سألت السيدة أُلفَت أبي:" أين أخذوه يا سيد ثابت؟". أتى مسؤول حارتنا، العمّ طاهر، وطلب من والديّ عدم مغادرة البيت بأي شكل من الأشكال، وبأنه سيبذل كل ما بوسعه لأجلنا. أكدّت السّت أُلفَتْ ما قاله العمّ طاهر بخصوص أهمية عدم مغادرتنا للبيت، وأخبرتنا بأن خادمتها ستحضر لنا كلّ ما نحتاجه.

ظلّت والدتي تراقب عقارب الساعة طوال المساء، ولم يعد أخي. قالوا بأنه سيعود بعد عشرة دقائق "ردّدأبي، ولم يعد أخي. مرّ يوم واثنان ولم يعد أخي، وأعلن عن وقف إطلاق النار في يوم الجمعة التاسع من يونيو، ولم يعُد أخي. في تلك الجمعة طلبنا من مسؤول حارتنا أن يرافقنا إلى بيت أبلة فوزيّة، وكانت امرأة مسلمةً تدرّس اللغة العربية في مدرسة "تحفة قطرة الحليب" (Oeuvre de la Goutte de Lait) الفرنسية، وهي واحدة من أصل مدرستين يهوديتين اشتغلت بهما أمّي سابقاً كمديرة، لكنهما أُغلقتا قبل بضعة سنين، إلا أن علاقة أمي بالسيدة فوزيّة لم تتغيّر أبداً، فمنذ بلغت الصف الثّالث وهي ترسل ابنتها التي تكبرني بست سنين، كل جمعة أو جمعتين، لتأخذني إلى بيتهم حيث أمضي اليوم بأكمله مع عائلتها.وبالعودة إلى موضوعنا، استقبلتنا العائلة في غرفة الضيوف، وسبقتنا الأبلة فوزية في الحديث لتسأل عن السبب وراء عدم وجودأخي برفقتنا، فانهارت أمّي حينها بالبكاء.

صُدِمت الأبلة فوزيّة وظلت مصعوقةً دون أن تتفوه بأي كلمة، وقد لاحظت ملامح الألم على تعابير وجه زوجها كذلك. في تلك اللحظات كانت إحدى ابنتيها لولا والخادمة تحيّة يناديان عليّ لأنهما سمعا بكاء أمي وصراخها، فسألتاني:" ماذا حدث يا رامي؟ "فأخبرتهما قائلاً:" لقد اعتقلوه يوم الاثنين "وبدأت أبكي وعانقتني ابنتها لولا وقالت للخادمة" أحضري له زجاجة كوكا".

بعد يومين، كنا جالسين في غرفة المعيشة في بيتنا حين فاجأنا صوت العم طاهر المرتفع:" ارحلوا بعيداً يا أبناء الكلب! لقد أخذتم جميع من كانوا هُنا"فأدركنا على الفور ما يجري، إنهم رجال الأمن عادوا مجدّداً، وتيقّنّا هذه المرّة أنهمعائدون لأخذ بقيّتنا معهم، وبعد أقل من نصف دقيقة سمعنا صوت الطرقات العالية على الباب. أشار أبي لوالدتي بيده أنه هو مَن سيفتح الباب، وأشار إليّ قائلاً:" أنت! إلزم مكانك! "وحين حاولت مد عنقي قليلاً لأنظر عبر النافذة وأرى من الطّارق ضربتني أمّي على يدي لتمنعني من ذلك، فيما ذهب أبي لفتح الباب بكل هدوء حتى سمعنا من غرفة المعيشة صوت زينب وهي تطمئننا:" لقد رحلوا ". أخبرنا العمّ طاهر بأن رجال الشّرطة أتوا ليسألوا عن أبي، لكنه ادّعى بأن المقصود هو أخي وأخبرهم بأنهم قد أخذوه سابقاً، وبفضل العمّ طاهر نجا أبي من الاعتقال.

استغرق الأمر شهراً لنعرف مكان اعتقال أخي، حيث اعتقلت السّلطات كل الذّكور اليهود بين سن السابعة عشرة والسّتّين، فيما طُرد جميع الحاملين لجنسيّات أجنبية خارج البلاد على متن قارب بالإسكندرية،وكانوا الأكثر حظّاً من البقية (أي المصريّين الذين لا دولة لهم، ذلك لأن اليهود قد كانوا ممنوعين من الحصول على الجنسية المصرية) أولئك الذين أُخذوا جميعاً لمعسكر الاعتقال أبو زعبل قرب القاهرة على متن القطار من الإسكندرية.وفي اليوم الثالث من الحرب، لجأت السّلطات المصريّة لأخذ اليهود المصريين وإظهارهم أمام الشعب المصري على أنهم الجنود الإسرائيليون المأسورون.

أخذت السّلطات من ساحة رمسيس مكاناً للمسيرة أمام الحشود المتفرّجة، والذين قاموا بالاعتداء على اليهود أثناء صعودهم إلى الشاحنات. كانت إحدى صديقات والدتي مسيحية وتُدعى أنجيليكانت تعيش قرب محطة القطار وشاهدت ما يحدث. أخبرتني بعد مضي سنة على الحادث كيف كان الكبار والصغار من الناس يرمون الحجارة عليهم وهم يصرخون قائلين:" يهود! ".

لقد أصبح مجتمعنا اليهودي بأكمله بلا شبّان، الأمر الذي ألقى بثقله على نسائنا، فكانت النساء تجري بين المكاتب الحكومية طالبة إطلاق سراح أبنائها، كما اضطررنَلإدارة أعمال ومصالح أزواجهن في غيابهم، ووقفن عاجزات أمام ما يقوم به العمال والشركاء من سرقة واحتيال، وكن يرينَ محاولاتهم للإطاحة بهن، بل وكيف كانوا يبيعون البضائع للزبائن المسلمين بلا مقابل، بالتالي خسر العديد مصادر رزقهم وصاروا يعتمِدون على إخوَتِهم اليهود ليساعدوهم.

وفي أحد الأيام، تحديداً بعد شهرين من وقوع الحادث، أتى صوت الطّرق المريب إلى بيتنا مرة أخرى. لكن هذه المرة لم تكن الشرطة، بل كانت عمّتي وأربعة من أبنائها، وبرؤيتي لهم وهم يحملون حقائبهمأدركت هول مصيبتهم، وخلافاًلما حدث معنا فإن جيرانهم لم يكونوا جيراننا، بل كانوا يعتدون عليهم وأجبروهم على الرّحيل. لقد كنّا محظوظين جدّاً، فعائلة الأبلة فوزيّة قد صارت جزءا منّا، وأصبحوا يزوروننا أكثر من السابق بعدهذا الحادث، وقد كانت الأبلة فوزية قلقة جداً على حال أربعة من تلاميذها الذين غادروا مصر إلى إسرائيل قبل نشوب الحرب، وكذلك العمّ طاهر وزينب والست أُلفَت، لقد قاموا جميعاً بحمايتنا وكأنّنا أبناؤهم.

لقد تعرّض العديد من المعتقلين في سجن أبو زعبل للتعذيب الشديد، بل وصل الأمر حد التحرّش جنسياً بالصغار والنحيفين منهم. وتم إجبار الكبار والصغار على حد سواء على الجري كل يوم حول الفناء بينما يتبعهم الجنود من خلفهم بالسياط والأحزمة يجلدونهم بها وهم يصرخون "تسقُط إسرائيل، تسقُط اليهود، تسقُط الصهاينة". لقد تعرض خالي للتعذيب الشديد، لدرجة أصبح لديه إعاقة دائمةفي ذراعه اليسرى التي تتحرك بشكل لا إرادي، أي أصبح لديه عاهة مستديمة ترافقه طيلة حياته.

وبعد ستة أشهرتم نقل الرجال اليهود من سجن أبو زعبل إلى مركز اعتقال آخر، وهو سجن طُرّة. تم بعد ذلك إطلاق سراح أولئك الذين لا يحملون أي جنسية وتم وترحيلهم إلى إسرائيل بعد عامين، فيما تم تعذيب الحاصلين على الجنسية المصرية من اليهود لعام آخر، ليتم ترحيلهم بعدها. لم ينل هؤلاء اليهود الحرية إلا بمجهود وتدخلات المنظمات اليهودية حول العالم، ولا يزال العديد منهم يعانون الويلات حتى يومنا هذا جراء الصدمة الشديدة التي خلفتها هذه التجربة المريرة، وهنا استذكر كيف انتحر اثنان ممّن تعرضوا للتحرش الجنسي داخل السجن.

وفي يوم الخامس عشر من سنة 1970م، تم نقل أخي من سجن طرّة إلى مطار هليوبوليس (مصر الجديدة). وتأكد العمّ طاهر من وجهة ترحيله حيث سمعته يقول:" سيذهب ليعيش مع اليهود في بلدهم، في إسرائيل"، وكان محقّاً بخصوص ذلك. أرادت زينب بشدة أن تقابل أخي لآخر مرة، لكن أبي خاف أن تقع في متاعب في حال رآها أحدٌ ما في المطار، قائلاً لها بأنهم طردوه من هُنا، فعادت للبكاء مجدداً. وبمشاهدتي لطائرة بوينغ 727 التابعة للخطوط الفرنسية وهي تُقلِع، نظرت إلى عقارب ساعة يدي السوداء التي اشترتها لي أمي قبل أسبوع لهذا الغرض بالتحديد؛ لقد كانت الحادية عشرة وثلاثة وأربعون دقيقة صباحاً، ومرت عشرة دقائق وكأنها ثلاث سنين وتسعة أيام وسبعة عشر ساعة وثمانية وخمسون دقيقة.

*المصدر:

'My longest ten minutes' by Rami Mangoubi, Jerusalem Post, 31 May 2007
http://www.jpost.com/Magazine/Features/My-longest-10-minutes (Last accessed 26 April 2017). http://www.jpost.com/Magazine/Features/My-longest-10-minutes

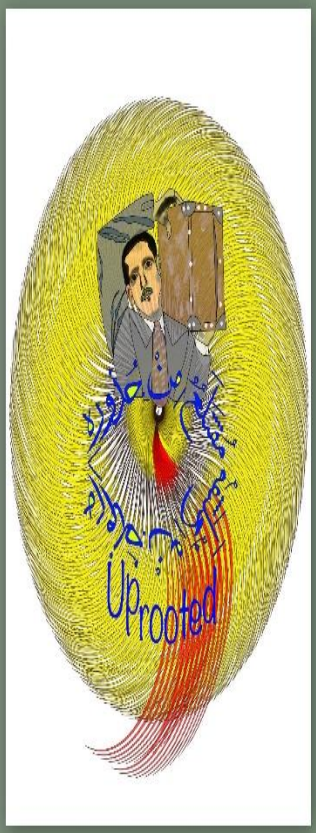

كيف انتشرت ثلاثة آلاف سنة من الحضارة اليهودية في العالم العربي في ليلة وضحاها ؟

هذا الكتاب مرجع مهم جدا لكل شخص مهتم بقصة معقدة لطالما تم تجاهلها ، قصة مهمة جدا لفهم قضية إسرائيل والشرق الأوسط. ينصح بكتاب *"مقتلع من جذوره..."* لأسباب متعددة --- قصص شخصية، تحاليل وأرقام يصعب الإتيان بها

ماتي فريدمان، مؤلف شفرة حلب

من هم يهود العالم العربي ؟ كيف كانت علاقاتهم مع المسلمين ؟ ما الذي تسبب في إخلاء اليهود للأوطان التي استقروا بها لآلاف السنين ؟ ما هي الدروس التي يمكن أن نتعلمها من التهجير الجماعي لأقليات الشرق الأوسط ؟ لين يوليوس تجيب عن كل هذه الأسئلة وأكثر، في كتاب ***مقتلع من جذوره***

عاش اليهود بشكل متواصل لثلاثة آلاف عام في منطقتي شمال إفريقيا والشرق الأوسط. رغم ذلك، وخلال خمسين سنة فقط، اختفت جميع المجتمعات اليهودية التي كانت تشكل جزءاً من النسيج الأصلي للمجتمعاتِ العربية خارجَ فلسطين، حيثُ فرّ ما لا يقل عن 99 بالمئة من اليهود، وهو الأمر نفسهُ الذي حدثَ مراراً وتكراراً مع أقليات أخرى في الشرق الأوسط مثل الأقليات المسيحيّة وغيرها من الأقليات (مثل الإيزيدية).

قبل الهولوكوست كان يشكل يهود العالم العربي قبل المحرقة – الهولوكوست – ما نسبته عشرة بالمئة من إجمالي يهود العالم، واليوم يشكل اليهود الذين ينحدرون من الدول العربية والإسلامية ما نسبته خمسين بالمئة من سكان دولة إسرائيل،و هم في غالبيتهم اللاجئون أنفسهم أو ينحدرُ من نسلهم.

يناقش الكتاب أيضاً كيف تم دمجُ هؤلاء اليهود في إسرائيل وكيف تم تسييس قضاياهم، كما ويوضح كمية الصخب المتزايد حول مطالبهم بالانصاف والاعتراف بهم وبصراعهم اضافة إلى مطالبتهم بتوثيق تاريخهم والتعريف به. يتطرق الكتاب ايضاً إلى كيفية مساهمة قضيتهم في تحقيق السلام والمصالحة بين إسرائيل والعالم الإسلامي.

كاتبة بريطانية للاجئين يهوديين من العراق، لين جوليوس أتمت دراساتها حول العلاقات الدولية بجامعة ساسكس. برزت أعمالها في صحف كبرى مثل :

The Guardian, Jewish News, Ha'aretz, Standpoint, Huffington Post